
Bibliotheca Alexandrina
0118566



فى

العصر العباسى

الجزء الثانى

تأليف الأستاذ

محمود مصطفى

مدرس الأدب بتخصص المادة من الجامعة الأزهرية

الطبعة الثانية

[بها زيادات كثيرة مع شرح جميع النصوص شرحا لغويا بلاغيا]

مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م / ٧٣٥

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد المبعوث بالمعجزة الكبرى لهداية الناس إلى أقوم سبيل .

وبعد : فإني أستعين الله ؛ وأستهديه فيما أنا بسببه من الإلمام بتاريخ الأدب العربي ؛ في عهد الدولة العباسية لطلاب السنة الثالثة من كلية اللغة العربية ؛ من كليات الأزهر الشريف ؛ وإني أرجوه تعالى أن ينفع بهذا العمل الذي لم أرد به إلا وجهه الكريم . اللهم فأعني واهدني وأحسن تدبيري . إنك على كل شيء قدير ؟

محمود مصطفى

٣٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٢
٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٣

⁂

الطبعة الثانية

وفي هذه الطبعة وشينا الكتاب بشروح وافية لنصوصه من نثر وشعر ، وزدنا من الموضوعات والتراجم ما رأينا في التوسع به فائدة لقارئ الكتاب ، إذ لم يكن همنا فيه أن نجعله مثل « مذكرات » المدارس التي يدمج فيها القول فيفوت على طالب الثقافة العامة الانتفاع بها ، وإنما نعول في كل حال على توفيق الله وهدايته ؟

محمود مصطفى

٥ من صفر سنة ١٣٥٦ هـ
١٦ من إبريل سنة ١٩٣٧ م

العصر العباسى

هو أزهى عصور اللغة العربية . بلغت فيه ذروة الكمال رصانة واتساعا وجمعا لما تفرق من محاسن اللغات . فقد صارت فيه لغة الدين والعلم والأدب . وترجمت إليها علوم الدنيا من الطب ، والنجوم ، والكيمياء ، والحيل ، (وهو ما يسمى الآن علم الميكانيكا) ، والفلسفة ، والمنطق ، والسياسة ، وتدبير المنزل ، حتى أصبحت العلوم فى ذلك العصر تتجاوز ثلثمائة فى الشرع واللغة . والتاريخ والأدب . والشعر وغيرها .

وما زال هذا العصر هو المثل الأعلى الذى يؤمل اليوم كل محب للغة أن يدور بها الفلك دورته . فتعود إلى ما كان لها فيه من سلطان ومكانة سامية ، وتكون لغة الأدب والعلم والفلسفة لايعييها مصطلح ، ولا يتكاءدها معنى .

قيام الدولة العباسية

كان من شأن الدولة الأموية أنها حكمت الناس بالسيف المسلول ، والمال المبذول ، فكان سيفها مصلتاً على أعدائها ، ومالها مكيلا لأنصارها ، واستمرّت فى حكمها زهاء قرن لم تغمد السيف يوما ما ؛ فكان من أعدائها آل على الذين يرون أنفسهم ويراهم الناس أحق بهذا الأمر . وقد جهروا بالعداوة فلم ينفعهم الجهر ، ومزقتهم سيوف الدولة شر ممزق وكان أولاد عمهم العباسيون لا ينازعون العلويين ولا يرون مزاحمتهم على الخلافة كما لم يكن العباس ينازع عليًّا ولا يرى نفسه أحقّ بالأمر منه . ولكن قد حدث ما جعل الأمر ينتقل إلى العباسيين بعد أن سالت فيه دماء العلويين دهراً طويلا . ذلك أن على بن عبد الله بن عباس كان يقيم بقرية الحُمَيْمَة

بالشَّراة[١] ، (وهى صقع بالشام على طريق المدينة من دمشق) أقامه بها عبد الملك بن مروان ، فنزل عليه أبو هاشم بن محمد بن علىّ بن أبى طالب وهو الذى تنصره الشيعة المساة بالكَيْسانية . فحين دنت وفاة أبى هاشم أدلى بنصيبه من الخلافة إلى علىّ وأولاده وأوصى أولياءه به فصارت الكيسانية إلى جانب علىّ بن عبد الله بن عباس . وقد أعدّ العباسيون للأمر عدته ، فعمدوا إلى التستر حتى لا يصيبهم ما أصاب العلويين من القتل والتشريد .

انتقل الأمر بعد علىّ بن عبد الله إلى محمد ابنه ، وكان داهية ، فرأى أن انتقال الملك من بيت إلى بيت يحتاج إلى تدبير وحزم ؛ فأقام الدعاة ، وجعل عليهم النقباء وأوصاهم بالتكتم ، وجعل مقرّ الدعوة بلاد خراسان ، وكان من قوله لدعاته حين وجههم إلى الأنصار : أما الكوفة وسوادها فشيعة علىّ وولده ؛ وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكفّ ، وتقول كن عبد الله المقتول ، ولا تكن عبد الله القاتل ؛ وأما الجزيرة فحَرُورِيّة[٢] مارقة وأعراب كأعلاج ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ؛ وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان ، وطاعة بنى مروان . عداوة راسخة ، وجهل متراكم ؛ وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدَّغَل ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل ، وهامات ولِحًى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من أجواف مُنْكَرة ، و بعد فإنى أتفاءل إلى المشرق ، و إلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق .

وقد ساعد على زوال دولة بنى أمية ما يضمر لها الموالى من حقد لكثرة ماوالت عليهم من تحقير ، وابتزاز للأموال ومخالفة للعهود المعقودة لهم من أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين . فلم يسووهم بالمسلمين و إن أسلموا ، ومنعوا زواج المسلم

(١) الشراة : واد بين كبكب ونعمان .

(٢) حرورية : خوارج . سموا بذلك لأنهم أول ماخرجوا على علىّ رضى الله عنه اتخذوا حروراء مقاما لهم . وهى قرية قرب الكوفة .

منهم بالعربية ، وطلقوا عليه زوجه وجلدوه ، فقد روى الأغانى أن رجلا من الموالى خطب بنتاً من أعراب بنى سليم وتزوجها ، فركب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة وواليها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل فشكا إليه ، فأرسل الوالى إلى المولى ففرّق بينه وبين زوجه ، وضربه مائتى سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال ابن بشير :

وَفِى المِائَتَيْنِ للمَوْلَى نَكَالٌ　　وَفِى سَلْبِ الحَوَاجِبِ والخُدُودِ

وكان الحجاج يأمر أن لاَ يؤُم بالكوفة إلا عربى ، وكان العربى إذا أقبل من السوق ومعه شىء فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه ، فلا يمتنع ، ولا السلطان يغير عليه . وإذا أراد أحد أن يتزوّج مولاة خطبها إلى مولاها دون أبيها أو جدها .

هذا إلى أن الفرس كانوا يطمعون فى استعادة ملكهم ، فلم يستطيعوا ذلك لأنفسهم لمقام الإسلام من نفوس القوم ، فحاولوه على يد غيرهم ممن لا تنكر مطالبته بالخلافة ، فكان ذلك على يد العباسيين .

وإن العصبية التى كانت تفت فى عضد الأمويين طول أيام دولتهم ، وهى التى كانت بين اليمنية والنزارية ، وبين بعض هذين الحزبين وبعض هى التى قضت على دولتهم أخيراً . فإن أبا مسلم الخراسانى نصير دولة بنى العباس لم يسهل عليه التغلب على عرب خراسان إلا حين استخدم الحيلة ، واستعان بالشقاق القائم بين قبائلهم هناك . فقد كان الوالى نَصْر بن سَيّار مضريًّا يسيطر على المضريين ، وكان إلى جانبه شَيْبان ابن سَلَمة الحَرُورِىّ يسيطر على أغلب ربيعة ، ومعهم جُدَيْع بن شَبِيب الكِرْمانىّ له طاعة اليمانية .

فما زال أبو مسلم يؤرِّث العداوة بين هؤلاء حتى وقعوا جميعاً فى يده وطلب منه كلٌّ النصرة على قرنه ، فجمعهم فى مجلس ، وجعل الرأى لأصحابه ، وكان قد أوعز إليهم أن يختاروا وفد ربيعة واليمن لأن الملك فى مضر ، وهم يريدون إذلالهم ، فاستعان ببعض على بعض ، ثم قضت سياسته القضاء عليهم جميعاً .

سياسة الدولة العباسية

قامت هذه الدولة على أسين : هما تعظيم أمر الدين والاعتزاز بالموالى ؛ فأما الدين فإنه أول ما نقموا من الأمويين ، وهاجوا به الناس عليهم ، وللدين المكان الأول من نفوس الناس ، خصوصا هؤلاء السُّذَّج الأطهار الذين لا يطعمون فى ولاية ولا يؤملون جاها عند أحد ، وهم عامة الشعوب وسوادها .

وقد رأينا أن خطب بنى العباس فى أوّل خلافتهم امتلأت بالنيل من بنى أمية لإهمالهم أمر الدّين ، واستهانتهم بشأنه ، كما رأينا أن أبا مسلم الخراسانى حين حضرته صلاة عيد الفطر عام ١٢٩ ﻫ ببلدة إسْفِيذَنْجَة من مَرْو أمر سليمان بن كثير أن يصلى بالقوم قبل الخطبة بلا أذان ولا إقامة ، وكان بنو أمية يبدءون بالخطبة ثم بالأذان ثم بالصلاة بالإقامة كصلاة الجمعة ، وأمره أن يكبر ستّ تكبيرات تباعًا ، وكان بنو أمية يكبرون فى الأولى أربعاً وفى الثانية ثلاثاً .

ومن رغبتهم فى أن يكون الدّين هو مظهر دولتهم كثر من خطبائهم الأولين الاقتباس لآيات القرآن كما جعلوه شارة الدولة ، فكتبوه على أعلام جيوشهم ، وملابس جنودهم ؛ وفى سِكّتهم وجميع ما يصدر عنهم ، كما عظموا شعائر الله و بيته المحرّم ، فكان لا يخلو عام من حجّ خليفة أو ولىّ عهد ، وساقوا إلى الكعبة وقبر الرسول الكسى من ثمين الحرير ، وعملوا على راحة الحاج بما حفروا من آبار وجروا إلى مكة من ماء العيون . وقد ذكر التاريخ أن المهدى ركب إلى الحج فى كثير من عظماء دولته وأبدى من الأبهة ما لم يسبق له مثيل ، حتى لقد أقام لأهل الحرمين المآدب التى أفرغ الوسع فى تنميقها ، وسقاهم الماء المبرد بالثلج المحمول من الشام ، وفرّق فيهم المال ، وكسا الكعبة ، وطلى جدرانها بالمسك والعنبر ، وأنشأ رواقات المسجد الحرام ، وجلب لها الرخام من البحر ، و بلغ ما أنفقه على ذلك وعلى القصور بطريق مكة واتخاذ المصانع[1]

---

(١) المصانع : جمع مصنعة أو مصنع وهو الحوض يتخذ ليتجمع فيه ماء المطر .

فى كل منهل منها ، نحواً من ستة آلاف ألف دينار . وهكذا كان يفعل غيره فقد كان الرشيد يحج عاما ويغزو عاما . وقد لبس بنو العباس السواد نعياً على بنى أمية لقتلهم آل البيت واعتدائهم على حرمات الله .

وأما الاعتزاز بالموالى ، فذلك لأن الأمويين كانوا قد أفسدوا قلوب العرب فليست تصلح لغيرهم ، على أن أهواء أولئك العرب كانت قد تشعبت فلم يصيروا قوّة يعتدّ بها . ولكن أهل خراسان كما وصفهم محمد بن علىّ كانت لهم صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدَّغَل . . . الخ ما وصفهم به من الجلد والقوّة ، وقد أحسن العباسيون مثوبة الفرس ، فكانت منهم جمهرة الجيش والولاة فى الأمصار والعمال فى الدواوين ، وكان منهم الوزراء بل منهم أول من تسمى بالسلطان ، وهو جعفر بن يحيى البرمكى فى زمن الرشيد . ويصحّ أن نقول : إن الفرس داخلوا العرب مداخلة شديدة فى عظيم الأمور وحقيرها ، حتى كان منهم الوزير وساقى الماء بالجرّة .

اعتمد العباسيون على الفرس ذلك الاعتماد ، وأقصوا العرب عن مراكزهم حتى لقد حاربوهم واضطروهم إلى العودة إلى جزيرتهم لئلا يفسدوا عليهم أمرهم ، وإنك لترى هذه الروح متمثلة فى قول إبراهيم بن محمد صاحب الأمر فى الدعوة فى وَصاته لأبى مسلم الخراسانى :

« وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيًّا فافعل » ، ثم فى قول المنصور فى وَصاته لابنه المهدى : « وانظر مواليك فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم ، فإنهم مادتك لشدّتك إن نزلت بك . وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولتك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم فى أهله وولده » ، ثم فى قول المأمون وقد تعرض له رجل بالشام مراراً وقال : يا أمير المؤمنين ، انظر إلى عرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان ، فقال له المأمون : « أكثرت علىّ يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور خيولها إلا وأنا

أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني حتى تكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على ربها منذ بعث نبيه من مضر ، أعرفت ذلك ؟ اعزب عني فعل الله بك » .

ولما فسد أمر الفرس وبطروا نعمتهم ، ودلوا بمكانتهم تغيرت عليهم قلوب الخلفاء فنكب الرشيد أعوانه منهم وهم البرامكة ، ثم رأى المعتصم أن يستعين بالأتراك فإن فيهم من الشجاعة وقوة الأجسام ما يقاوم به الفرس والعرب جميعاً ، فاستكثر منهم حتى كان عنده منهم سبعون ألفاً ، فصاروا يؤذون الناس بطرق بغداد ، ويدوسون شيوخهم وأطفالهم بسنابك خيلهم ، فاضطر أن يسكنهم « سُرَّ مَنْ رَأى » فصارت قاعدة الدولة من سنة ٢٢١ هـ إلى أيام المعتمد حين عاد إلى بغداد سنة ٢٧٩ هـ .
ولكن الأتراك أيضاً استبدّوا بالخلفاء استبداداً شديداً ، فصاروا يولون ويعزلون ويقتلون ، ومما يحكى من استبدادهم أنه لما تولى المعتز قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم : انظروا كم يعيش الخليفة ، وكم يبقى في الخلافة ؟ وكان في الجالسين ظريف ؛ فقال لهم : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش ، وكم يملك ؟ قال : يعيش ما أراد الأتراك . فكان قوله فكاهة تنطق بالحقّ ، وتمثل الواقع .

وصارت الدولة للأتراك بعد أن كانت للفرس ثم صارت للفرس على يد البُوَيْهيين ، ثم للأتراك على يد السَّلْجُوقيِّين ، وما زالت هذه العناصر تَفُتّ في عضد الدولة ، وتَقْرَع صَفاتَها حتى قضت عليها

نتائج مداخلة العرب للموالى

ولقد كان لهذه المداخلة التي جرت بين العرب وتلك العناصر خصوصاً الفرس ، أثرها الفعال في صيرورة الأمة العربية ، ولغتها إلى ما كانت عليه في هذا العصر ، وقد ظهرت آثار هذه المخالطة ، وتلك المداخلة في الأجسام والعقول ، والعادات وسائر شئون الاجتماع .

أما أثرها فى البنى والأجسام ، فقد كان بالمصاهرة والتزاوج ، وقد أقبل عليه العرب ، وأكثروا منه فى هذا العصر لزوال النُّعَرة التى كانت تملكهم قديماً ، فتسروا وتزوجوا من الأعجميات لما كان لهن من جمال وافر ، ولما رأى الناس من نجابة نسلهن . فقد ذكروا أن أهل المدينة كانوا زاهدين فى التسرى حتى نشأ فيهم علىّ ابن الحسين ، ومحمد بن القاسم ، وسالم بن عبد الله ، ففاقوا أهل المدينة علماً وورعًا . كذلك رغب الناس فى التسرى لخفة مئونته ، حتى قالوا : الأمة تشترى بالعين وتردّ بالعيوب ، وقالوا : عجبت لمن عرف الإماء كيف يقدم على الحرائر ؟ .

كثر التسرى فى هذا العصر . وفى هذه الكثرة يقول الشاعر :

إنّ أولاد السَّرارى ⁂ كثرتْ ياربّ فينا

ربِّ أَدْخلنى بلاداً ⁂ لا أَرَى فيها هَجِينا

وكثر أيضاً أن يتزوّج غير العربى من العربية بعد أن عرفت ما كان من شأنه فى العهد الأموى . وليس أدلّ على مقدار ما كان من هذا التسرى من أن تنظر إلى خلفاء بنى العباس منذ الهادى إلى آخرهم فإنك تراهم جميعاً أبناء سرارى ما عدا الأمين ، فقد كانت أمه عربية هاشمية وهى زُبَيدة بنت جعفر بن المنصور ، فموسى الهادى وهارون الرشيد ابنا الخَيْزُران ، وهى أم ولد من خَرْشَنَة من بلاد الروم ، والمأمون تسمى أمه مَرَاجل ، وأم المعتصم تسمى مَارِد ؛ والواثق أمه رومية تسمى قَرَاطِيس ، والمتوكل أمه خَوَارَزْمِيّة تسمى شُجَاع ، وهكذا .

وقد كتب محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب إلى المنصور فى كتاب لاحاه فيه يقول : « ولا أعرقت فى الإماء ولا حضنتنى أمهات الأولاد » ، فكان من ردّ المنصور عليه : « وأما ما ذكرت أنه لم تعرق فيك الإماء فقد فخرت على بنى هاشم طرا . أولهم إبراهيم ابن رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، ثم علىّ بن الحسين الذى لم يولد فيكم بعد وفاة رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم مولود مثله » .

ولقد بلغ عدد جوارى الرشيد ألفين ، وجوارى المتوكل أربعة آلاف ، وشأن غير الخلفاء من كبار رجال الدولة وأغنيائها شأن الخلفاء فى ذلك .

وليس ينكر ما للاختلاط بين الأمم بالتزاوج والتوالد ، من أثر فى فراهة الأجسام وقوتها ، والحديث يقول : « اغتربوا لا تُضْوُوا »[1] ، ويقول الشاعر :

أُنْذِرُ من كان بعيد الْهَمِّ   تَزْوِيجَ أولادِ بناتِ العَمِّ

* فليسَ يَنْجُو من ضَوًى وسُقْمِ *

لذلك رأينا فى العصر العباسى من الهجناء من ضرب بهم المثل فى الشجاعة حتى قال الأصمعى : ما ضرب رءوس الأبطال كابن الأعجمية ، وكان عمر رضى الله عنه يقول : ليس قوم أكيس من أولاد السرارى لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم .

أما أثر هذا الاختلاط فى العقول فهو أثر ظاهر ليس أقل منه فى الأجسام فإن هذه الأمم التى عاشرها العرب لها مدنيات سابقة ، ومزايا خصّها الله بها ، فقد ذكروا أن السند معروفة بالصيرفة ، وتركيب العقاقير ؛ والصين تذكر بالصناعة : من الخرط والنحت ، والتصوير والنسج والصباغة ؛ واليونان عرفوا بالحكمة وقوة الفكر ؛ والفرس عرفوا بالسياسة والتدبير ؛ والهند اشتهرت بالحساب والتنجيم والطبّ . ولا شكّ أن هذه المزايا تمثلت فى النسل الناتج بين العرب وهؤلاء الأقوام ، كما انتقلت بالمعاشرة والتلقين ، فحصل للعربى وراثة فى قواه العقلية لم تكن له ، وفهم بالمدارسة والمناقشة ما لم يكن قبل يتعقله . وكان من أثر استيلاء العرب على بلاد هذه المدنيات أن استولوا على كتب علومهم وحكمتهم ؛ فأقبلوا عليها يترجمونها ويدرسونها ، فنشأ فيهم جيل جديد يمتاز بصفات موروثة ، وعلوم مكتسبة لم تكن له لولا هذه المعاشرة والمداخلة .

أما ما كان من شأن العادات والأخلاق ، فتلك أيضاً لازمة لا تنفكّ ، ونتيجة لا تتخلف لهذا الاشتباك الذى تمّ فى هذا العصر ، فالإنسان قد ركب فيه حب التقليد .

---

(١) فى النهاية لابن الأثير « ولا تضووا » بالواو .

فلما رأى العربى ما يأتيه هؤلاء العشراء من عاداتهم فى طعامهم وشرابهم ، وأعيادهم ومواسمهم . انتقل إليه كل ذلك بالعدوى وليس شىء أعدى من الأخلاق والعادات ، لذلك رأينا العربى وقد طرح أنفته الجاهلية وعصبيته الأموية ، فأقبل على عادات جيرانه يأتيها مثلهم ، ويكون فى الاستمساك بها كأحدهم . فهذا عيد النَّيْرُوز قد صار العرب فى عهد العباسيين يحتفلون به كما يحتفلون بعيد الفطر أو الأضحى ، ويتهادون فيه ويتزاورون ، ويلبسون الجديد ، ويخرجون إلى الرياض كما يفعل أصحابه القدماء . كذلك نراهم قد قلدوهم فى ملبسهم فاتخذوا القلانس والأقبية ، وضروب الملابس الفارسية ، ولم يقتصروا فى اتخاذ ألوان طعامهم ، وأنواع أشربتهم والغناء على طريقتهم، وبما رأوا فى أيديهم من أدوات موسيقاهم .

ولا ننس أن لهذه المدنية القديمة عيوباً كان العرب ناجين منها قبل هذه المخالطة فوقعوا فى أسرها ، وجرها عليهم نزولهم إلى هذا المعترك الذى كانوا يتحامونه سابقاً . ومن تلك العيوب ما استلزمه المال الكثير المتداول بينهم من ترف بالغوا فيه حتى كانت موائدهم تحشد فيها ألوان الأطعمة حشداً . فتبلغ على مائدة الرشيد ثلاثين لوناً ، وينفق عليها فى كلّ يوم عشرة آلاف درهم ، وحين بنى بزبيدة بنت جعفر اتخذ وليمة لم يسبق مثلها فى الإسلام . وجعل الهبات فيها غير محصورة ، فكان يهب أوانى الذهب مملوءة فضة ، وأوانى الفضة مملوءة ذهباً ، وقد فعل المأمون أكثر من ذلك حين بنى ببُورَان بنت الحسن بن سهل سنة ٢١٠ هـ ، فإنه أعطاها فى مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وقد أوقد الشموع من العنبر فى كلّ واحدة مائة مَنّ . وليس أقل من هذا مافعله الحسن بن سهل فإنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وجوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا وقعت فى يد الرجل فتحها وقرأ ما فيها ، ثم يمضى إلى الوكيل المُرْصَد لذلك فيتسلم ما فيها .

كذلك فشا فى القوم إلى جانب هذه المذمة مايتبعها غالبا من حرص على المادة . وما يدعو إلى ذلك من غش وخداع ورشوة لمن بيده سبب إلى منفعة . فالعامل يرشو

من يستطيع مساعدته فى الولاية لعمل من أعمال الدولة ، والوزير يأخذ من كل هؤلاء ، ويقتنى المال الكثير والضياع العامرة والجواهر الثمينة ، والخليفة ربما سقطت همته إلى استصفاء مال الوزير ليشبع نهمته من هذه الثروة الطائلة ، ولقد بلغ أن صار استصفاء أموال الوزراء وسيلة لسدّ النفقات التى يكون بيت المال قد عجز عنها ، وذلك للاعتقاد السائد بل للحقيقة الواضحة ، وهى أن هذه الأموال جمعت من غير حلها وأن بيت المال أولى بها .

أما الاستهتار بالشهوات وإشباع الرغبة من الموبقات ، فقد كان سببه أن العرب أدركوا هذه الأمم وهى على أبواب الفناء فلم تكن المدنية قد تركت لهم طريقاً ينفذون منه إلى شهوة إلا عبدته لهم ، وقد ساعد الشعر العربى على رواج المفاسد بين الناس حتى لقد ضجّ أهل البصرة من إغراء بشار للفتيان والفتيات بشعره وتحريضه لهم على الفجور وهو الذى جعل للفتيات يومين فى الأسبوع يتلقين فيهما ما يكون قد أحدثه من من شعر يصلح للغناء . وفيه مافيه من دعارة ، ولقد أصاخ المهدى لشكوى الناس فأنذر بشاراً إن تغزل ، ولكنه كان يحتال على ذلك ، فيقول مثلا :

يامنظرا حَسَناً رأيتُهْ ... من وجه جاريةٍ فَدَيْتُهْ
بَعَثَتْ إلىّ تَسُومُنِى ... بُرْدَ الشبابِ وَقَدْ طَوَيْتُهْ
واللهِ رَبِّ مُحَمَّدٍ ... ما إنْ غَدَرْتُ ولا نَوَيْتُهْ
أَمْسَكْتُ عنه وَرُبَّما ... عَرَضَ البلاءُ وما ابْتَغَيْتُهْ
إنَّ الخليفةَ قد أَبَى ... وإذا أَبَى شَيْئاً أَبَيْتُهْ
ونَهَانِىَ الملكُ الهُما ... مُ عَنِ النساءِ فما عَصَيْتُهْ
بل قد وَفَيْتُ وَلَمْ أُضِعْ ... عهدا ولا وَأْياً وَأَيْتُهْ (١)
ويَشُوقُنِى بيتُ الحبيـ ... ـبِ إذَا غَدَوْتُ وأيْنَ بَيْتُهْ ؟

(١) الوأى : الوعد .

حالَ الخليفــــــةَ دونَهُ فصَبَرْتُ عنه وَمَا قَلَيْتُهُ

ومن هذه المفاسد قديمًا ما أخذه الله على آل لوط فأهلكهم بسببه فإن العرب لم يكونوا يعرفون هذه النقيصة ، ولا ورد لها ذكر فى كلامهم ، ولا عرفت بين عاداتهم فى جاهلية ولا إسلام ، حتى عاشروا الفرس وهى فيهم متأصلة ، فهان عليهم أمرها ، وتورطوا فيها ، وجهر شاعر من الشعراء بالرضا عنها ، وهو أبو نواس ، فصارت سنة فى الشعراء كما كانت عملا من مخازى الفساق ، وأصبحنا لا نكاد نرى غزلاً إلا فى المذكر ، وتلك وصمة للأدب العربى والخلق العربى قد سجل علينا فى الكتب عارها .

ومن قول شيخ هذه الوصمة أبى نواس :

أَمَا وَاللهِ لاَ أَشَرَا حَلَفْتُ بِهِ وَلاَ بَطَرَا(١)

لو أَنَّ مُرَقِّشاً حَيٌّ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ ذَكَرَا(٢)

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعْــــنَ مِنْ أَزْرَارِهِ قَمَرَا

وَمَرَّ بِهِ بِدِيوَانِ الْــخَرَاجِ مُضَمَّخاً عَطِرَا(٣)

بِوَجْهٍ سَابِرِىٍّ لَوْ تَصَوَّبَ مَاؤُهُ قَطَرَا(٤)

وَقَدْ خَطَّتْ حَوَاضِنُهُ لَهُ مِنْ عَنْبَرٍ طُرَرَا(٥)

بِعَيْنٍ خَالَطَ التَّفْتِيــــرُ فى أَجْفَانِهَا حَوَرَا

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْناً إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظَرَا

---

(١) الأشر : المرح . البطر : قلة احتمال النعمة ، والطغيان بها ، وكراهة الشىء من غير أن يستحق الكراهة .

(٢) المرقش : شاعران كان كلاهما عاشقا وقد ذكروا سبب تلقيب الأول وهو قوله :

الدار قفر والرسوم كما رقش فى ظهر الأديم قلم

ولم يذكروا سببا لتلقيب الثانى ولعله لما كان أخا الأول سرى إليه لقبه وكلا الشاعرين جاهلى .

(٣) الضمخ : لطخ الجسد بالطيب .

(٤) وجه سابرى ، رقيق ، من قولهم : ثوب سابرى ، يريدون رقيقا جدا .

(٥) الطرة : مقدم شعر الرأس.

لَأَيْقَنَ أَنَّ حُبَّ المُرْ دِ يُلْفَى سَهْلُهُ وَعَرَا(١)
خُصُوصاً أن بَعْضَهُمُ إِذَا أَحْبَبْتَهُ انتهرا

أقسام العصر العباسى

سنة ١٣٢ — سنة ٦٥٦ هـ

طالت مدة هذا العصر حتى زادت على خمسة قرون ، وقد جرت فيها الأحداث العظيمة حتى صار العصر عصوراً يختلف ما بينها وتتباين أحوالها ، واللغة فى كل ذلك تتقلب بها الأحوال لأنها هى النتيجة المحتومة ، والأثر الذى لا يتخلف لما يمر بالأمة من أطوار أو يعتريها من انقلاب .

وإذا قلنا : إن العصر العباسى بدأ فى عام ١٣٢ من الهجرة فليس معنى ذلك أن نتائج الانتقال من حكم بنى أمية ظهرت بين يوم وليلة، فإن ذلك لا يكون، لأن المؤثرات التى تعترى الأمم لا بدّ لها من زمن تبذر فيه بذورها ، ثم تستوى على سوقها وتجنى ثمرتها . فكثير مما جرى فى العصر العباسى كانت له مقدمات فى أواخر العصر الأموى . فهذه العلوم التى أدركت ثمرتها ، وتلك المذاهب الدينية والفلسفية التى ذاعت وشاعت ، بل هذه الحضارة التى رأيتها فى العصر العباسى تتناول جميع مظاهره ، كل هذه الأمور كانت لها مقدمات فى العصر الأموى ظهرت فيه ضعيفة وانية ، ثم صارت قوية ناشطة . ؛ فالخمر مثلا قد شربت فى العصر الأموى واستهتر بها شرابها ووصفوها فى شعرهم . ولكن هذا كان إذ ذاك بدعة منكرة ، وشنعة مايقدم عليها إلا مثل الوليد بن يزيد وندمانه . أما فى العصر العباسى فقد تكاثر عشاقها فجرى وصفها على كلّ لسان وقالوه فى غير حشمة ولا وقار ، وافتنوا فى معانيها ، والتزموا الحديث عنها فى شعرهم ،

(١) المرد : جمع أمرد . وهو الذى طرّ (نبت) شاربه ولم تخرج له لحية بعد . الوعر (بالفتح فالسكون أو بفتح فكسر) : ضد السهل . وفتحت العين للشعر .

حتى كان فى موضع النسيب من شعر السابقين لايفعل ذلك واحد أواثنان ، ولكنه ديدن الشعراء جميعا . والعلم الذى زخرت بحوره فى العصر العباسى كانت جداوله قد بدأت تتكوّن أيام العصر الأموى ، فالنحو وضعه أبو الأسود ، وزاد فيه تلاميذه ؛ ثم اشتغل به أهل البصرة والكوفة فى العصر الأموى ، ثم اشتدت حركته ووضع أهمّ كتبه فى العصر العباسى . والترجمة ليست فكرة ناشئة ابتدأها وابتدعها المنصور ، ونماها الرشيد ثم أشعل جذوتها المأمون ، بل إن العصر الأموى على سذاجته كان له نصيب من العلوم المترجمة فكُنَّاش أَهْرُون فى الطب ترجمة مَاسَرْجَوَيْهِ من السريانية إلى العربية زمن مروان بن الحكم ، ونشره للناس عمر بن عبد العزيز . وخالد بن يزيد الملقب بحكيم بنى مروان ترجمت له كتب فى الكيمياء وأقبل عليها يدرسها ويحقق مسائلها . والعصور لابد تتداخل ويسرى على سابقها بعض أحكام لاحقها ، ولكن التمييز الظاهر بين عصرين لا يكون إلا بعد انتهاء زمن المداخلة بينهما . وإذا اعتبرنا الحوادث العظمى التى جرت فى العصر العباسى أمكننا أن نجعله ثلاث مدد :

١ — فالمدّة الأولى من قيام الدولة إلى استيلاء بنى بُوَيْه على بغداد : أى من سنة ١٣٢ إلى سنة ٣٣٤ هـ وهى قرنان من الزمان لم يدر الفلك بمثلهما، فقد زهت اللغة وزادت ثروتها من الألفاظ بما شملته من العلوم . يشد أزرها خلفاء وأمراء لايدخرون وسعا ولا مالا فى سبيل إحيائها لأنها لغة الدين الذى قامت عليه دولتهم ولسان الحق الذى تنطق به حجتهم ، فأعطوا الشعراء بسخاء لم يعهد فى تاريخ الملوك حتى وهبوا على كلّ بيت ألف دينار ، وأنفقوا على نقل العلوم ما لم يعرف مثله فى همم الملوك والأمراء حتى كان البرامكة يعطون أجر الكتاب المترجم وزنه ذهباً . فتمّ للغة فى هذا العصر ما لم يجتمع لها مثله فى زمن ما ، إذ نشأت أغلب العلوم الإسلامية ، ونقلت العلوم الدخيلة ، وازدهت أيامه بالأئمة المجتهدين والأعلام المحدثين . ومشهورى الرواة ، وجِلَّة العلماء ، ونابغى الشعراء ، وفحول الكتاب ؛ ولعلّ أهمّ مظاهر هذا العصر أن الدرجة

التى وصلت إليها اللغة فيـــه نظماً ونثرًا لم يحز فضيلتها عصر سابق ، ولا طمع فى مساماتها لاحق

وكان تمـام الكمال فى هـــذا العصر إلى أوّل خلافة المتوكل ، ثم بدا من شأن الأتراك الذين استكثر منهم المعتصم (كما ذكرنا) استبداد بالخلفاء وسيطرة على شئون الدولة لم يبق معهما ما كان للخلفاء من جلال وهيبة شاملة ، وإنفاق فى سبيل العلم والأدب . لأنهم شغلوا بأنفسهم بين حذر من الأتراك ، واستســـلام إلى الملاهى ، وعكوف على الشهوات ، وخضوع لحكم النساء اللاتى صرن يشاركن فى سياسة الدولة لحاجتهنّ إلى المـال . وأكثر ما كان استبدادهنّ بأمور الدولة أيام المقتـــدر المتوفى سنة ٣٢٠ هـ .

٣ — والمدّة الثانية من استيلاء بنى بُوَيْه — وهم من الفرس — على بغداد، إلى انتزاع السلاجقة (وهم من الأتراك) للحكم من أيديهم ، وذلك من سنة ٣٣٤ إلى ٤٤٧ هـ .

وجدّ آل بويه الذى أسس هذه الدولة اسمه بويه . ولقبه أبو شجاع ، وكان له ثلاثة أولاد ، وهم : علىّ ، ولقب عماد الدولة وحسن ، ولقب ركن الدولة. وأحمد ، ولقب معز الدولة ؛ وقد انتظم هؤلاء الأولاد فى سلك الجنـــدية ، ثم ما زال الحال يرتقى بهم حتى تولى عماد الدولة خراسان على مال يدفعه للخليفة ، وتملك أخوه ركن الدولة خُوَارَزْم ، ومعزّ الدولة شيراز ، ثم دخل الثلاثة بغداد فى أيام المستكفى سنة ٣٣٤ هـ ، فرحب بهم ، وخلع عليهم ، ولقبهم الألقاب السابقة ، فاستبدّ بنو بويه بالدولة ، وعزلوا الخلفاء وولوهم ، ورفعوا منار الشيعة ، وأحيوا معالمها ، ولمـا أفضت إمارة الأمراء إلى عضد الدولة لقب بالملك ، وهو أوّل من خوطب بهذا اللقب فى الإسلام .

وفى مدّة بنى بويه ، وهى قرن ونيف نَضِجَتْ العلوم على اختـــلاف أنواعها ، وظهرت فيها الكتب الوافية خصوصاً فى اللغة وعلومها والتاريخ والأدب والطبّ والفلســـفة . وإذا كان العصر الأوّل عصر ازدهار البلاغة ، ورقىّ الشعر والكتابة

الأدبية ، فإن هذا العصر هو العصر الذهبي للعلوم والتأليف . وقد عاصرت الدولة البويهية دول أخرى فارسية مشتقة من الدولة العباسية استقلّ بها ولاتها لما شعروا بضعف الخلفاء . ومنها الدولة السّامانيّة[١] بتُرْكِسْتان حكمت من سنة ٢٦١ ﻫ إلى سنة ٣٨٩ ﻫ ، والدولة الزّيَاريّة[٢] بطَبَرِسْتَان حكمت من سنة ٣١٦ ﻫ إلى سنة ٤٣٤ ﻫ . كذلك عاصرها غيرها من الدول التركية كالإخشيدية بمصر من سنة ٣٢٣ ﻫ إلى سنة ٣٥٨ ﻫ والغَزْنَوية[٣] بأفغانستان والهند من سنة ٢٩٣ ﻫ إلى سنة ٣٨٠ ﻫ ، ودول عربية كالفاطمية بمصر من سنة ٣٥٧ ﻫ إلى سنة ٥٦٧ ﻫ والحَمْدَانيّة بالشام من سنة ٣١٧ ﻫ إلى سنة ٣٩٤ ﻫ .

وقد تنافست هذه الدول في إكرام العلماء ، وترغيبهم في التأليف خدمة للدّين ، وإعزازاً لشأنه ، فكانوا يؤلفون الكتب برسم هؤلاء الأمراء . كذلك كثرت المكاتب التي تحوي مئات الألوف من الكتب ، ومنها ما كان عاما لطلاب العلم ، كمكتبة العزيز الفاطمي التي كانت تحوي ألف ألف كتاب في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات ، وكمكتبة الحاكم بأمر الله التي كانت تسمى دار الحكمة أو دار العلم ، وقس على ذلك مكتبة سابور بن أَرْدَشِير وزير بهاء الدولة بن بويه في بغداد جعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد كلها مخطوط بخطوط الأئمة ، وكان المؤلفون يقفون عليها نسخاً من مؤلفاتهم وقد احترقت فيما احترق من محالّ الكَرْخ[٤] ببغداد عند دخول أوّل ملوك السلاجقة طُغْرُل باك إلى بغداد سنة ٤٤٧ ﻫ . وفيما وراء النهر ببخارى كان لنوح بن منصور سلطانها مكتبة اشتهرت باقتباس ابن سينا علومه منها .

٣ — والمدّة الثالثة كان ابتداؤها من استيلاء السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧ ﻫ

---

(١) نسبة إلى جدهم سامان . (٢) نسبة إلى مؤسسها مرداويج بن زيار .

(٣) نسبة إلى مدينة غزنة التي نشأ منها مؤسس الدولة .

(٤) الكرخ من بغداد : سوق الباعة جعله المنصور خارج أسوارها حتى لا يتسرب جواسيس الأعداء إلى المدينة باسم البيع والشراء (ياقوت) .

إلى دخول المُغْل وثلّهم لعرش الدولة العباسية من العراق سنة ٦٥٦ هـ . ولهذه الدولة شأن غير الدول التى تفرعت من الدول العباسية . فإن ملوك هذه الدول كانوا فرساً أو تركاً نشئوا فى حجر الدولة ثم تولوا جزءا منها فاستقلوا به . أما هذه الدولة فقد ظهرت فجأة ببلاد تُرْكِسْتان ، فاكتسحت الإمارات الصغيرة حتى وصلت إلى بغـــداد ، فاستولت عليها .

وجدّها وهو سَلْجُوق أمير تركى كان فى خدمة بعض خانات تُرْكِسْتان ، وعظم شأنه بين جنوده ، وأطاعوه أعظم طاعة ، ثم علم باختلال أحوال الدولة العباســية ، فطمع فيها ، ولكنه رأى أنه لا يبلغ مراده منها إلا بالإسلام فأسلم هو وقبيلته ، ثم أقبل يغزو و يفتح حتى دانت له البلاد من أفغانستان إلى بحر الروم . ودخل طُغْرُل بك بغداد أيّام القائم بأمر الله فرحب به ، وتقدّم إلى الخطباء أن يخطبوا له بجوامع بغداد .

ومن مزايا هـــذا العهد انتعاش السنة بعد أن تضعضت على يد الدولة البويهية بالعراق وفارس ، والدولة الفاطمية بمصر . وكلتا الدولتين شــيعية تتعصب لآل علىّ .

كذلك من مزاياه انتشار المدارس فى العالم الإسلامى ، وأشهر مدارس هذا العصر المدرسة النظامية ببغداد أنشأها نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى ، وجعل التعليم فيها بالمجان ، وفرض لطلابها الأرزاق ، وكان لها شأن كبير فى العالم الإسلامى ، فقد كان من أساتذتها : أبو اسحاق الشيرازى ، والإمام أبو نصر الصَّبَّاغ ، وحجة الإسلام الغَزَالىّ ، والسَّهْرَوَرْدِىّ الشاعر ، وكمال الدّين الأنبارى ، وأبو زكريا التَّبْرِيزىّ . ومن نابهى طلابها عماد الدّين الاصْفَهَانى ، وكمال الدّين الأنبارى الذى صار أستاذاً بها .

وقد اقتدى بالوزير نظام الملك غيره من الأمراء ، فأنشئوا المدارس المجانية فى أنحاء المملكة الإسلامية واشتهر نور الدين زَنْـكِى صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ هـ ببناء المدارس فى دِمَشْق وحَلَب وحَماة و بَعْلَبَكّ ومَنْبِج ، ثم السلطان صلاح الدّين المتوفى سنة ٥٨٩ هـ بنى المدارس فى مصر والإسكندرية ، وجاء فى رحلة ابن جُبَيْر ، وقد طاف بلاد الإسلام الشرقية فى القرن السادس أنه شاهد عشرين مدرسة فى دمشق ، وثلاثين فى بغداد .

كذلك يمتاز هذا العصر بالكتب الجامعة التى تحوى حقائق كثيرة محذوفة الأسانيد ، وذلك لأنهم رأوا الفتن التى مرّت بالمسلمين تقضى على الكتب وتذهب بمجهود العلماء ، فعَمَدوا إلى التلخيص والجمع ليكون الكتاب الواحد حاويًا لعشرات من الكتب ، وقد أحسنوا تبويب ذلك وترتيبه ليسهل الانتفاع به ، ومن أهمّ ما بين أيدينا من هذه الكتب معجم البلدان لياقوت الحموى ، وهو معجم كبير بأسماء البلاد ويعدّ خزانة علم وأدب لأنه إذا ذكر بلداً أورد تاريخه ومن اشتهر من رجاله ، وقد طبع هذا الكتاب جميعه بمصر فى أربعة أجزاء ومجلدين للفهارس ، وله كذلك معجم الأدباء ، وهو أكبر وأوسع من معجم البلدان ترجم فيه للنحويين والكتاب والنسابين والشعراء والأخْباريين والمؤرّخين ، ولكن الكتاب لم يعثر على جميع أجزائه ، وقد طبع بمصر ما ظهر منها وهو ستة ، وكذلك من كتب هذا العصر الجامعة شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد . فقد أخرجه صاحبه فى عشرين مجلداً ، وطبع بمصر فى أربعة مجلدات كبيرة تقع فى نحو ألفى صفحة ، وفيه فوائد تاريخية ودينية كثيرة ، وأظهر ما فيه تاريخ الخوارج ، فإنه لم يجتمع فى كتاب ما اجتمع منه فى هذا الكتاب ، ومنها كتاب الأنساب للسمعانى المتوفى سنة ٥٦٢ هـ وهو ليس فى الأنساب بمعنى تسلسل الآباء ، وإنما المراد به الانتساب إلى بلد أو قبيلة أو أب أو صناعة أو تجارة كما تقول الرّازىّ نسبة إلى الرّىّ ، والبزّاز نسبة إلى صناعة البَزّ وهكذا ، وطريقة السمعانى أن رتب كتابه على حروف المعجم ، فإذا عرض للكلمة ضبطها ، ثم عرف المنسوب إليه بأن يذكر تاريخه بلداً أو قبيلة ، وترجم المنسوب ، وربما اشترك فى اللقب الواحد أربعة فأكثر فيترجمهم ، وقد تبلغ تراجمه كلها أربعة آلاف .

هذه هى مدد هذا العصر كان تكوينها بأسباب قوية أثرت فى الأمة العربية تأثيراً ظاهراً حتى انفعلت اللغة والعلوم تبعاً لذلك ، وكان من آثار ذلك هذا الذى ذكرناه مجملا ، وسنعود إلى تفصيله فى الأبواب التالية .

تأثير اللغة الفارسية في اللغة العربية

إنما نخصّ اللغة الفارسية بالتأثير فى اللغة العربية وآدابها ، لأن الفرس هم تلك الأمة العظيمة القدر ، الراسخة القدم فى العلم ، القديمة المدنية ، الواسعة الرقعة ، وقد نزل العرب بلادهم منذ الفتح ، فكان حتما من الحتم أن يتشرّب العرب علومهم ويستشعروا عاداتهم ، وأن تظهر آثار ذلك فى لغتهم التى شاء الله أن تقهر لغة الفرس ، لأنها لسان الحاكم ذى السلطان ، كما أنها لغة الدين الذى لا يقبل أهله فيه هوادة ، ولا يرضون بغمط . أما الترك فهم وإن حكموا العرب حيناً ، واستولوا على رقعة مملكتهم الشرقية منذ قيام الدولة السلجوقية ، لم يكونوا مستطيعين أن يحدثوا مثل ما أحدثه الفرس فى نفس العربى ولغته . ذلك بأنهم قوم طارئون من جهات سحيقة احتلوا البلاد ، وحكموا أهلها بالسيف ، فلم تكن لهم تلك الكثرة التى يظهر فيها أثر المخالطة ، ثم هم أمّيون لا عهد لهم بالعلم ، ولا سابقة لهم فيه . نعم قد أحدثوا من الأثر ما ناسب قلتهم ، أحدثوا هذه الألفاظ التى رأيناها تظهر فى آخر أيام الدولة ، مثل سنجقدار ، ومعناها : حامل الراية خلف السلطان ، وسنجق معناها بالتركية رمح ودار معناها ممسك ، ومثل دوادار بمعنى : متولى أمر الأحكام وتنفيذها ، ومهمندار : أى متولى الضيافة لمن يرد على السلطان من رسل وغيرهم ، وسِرْدار : أى رئيس الجيش ، وفارسيتها : إسْفَهْسَالار .

على أن الذى جعل التركية لا تخلف أثراً عظيما أنها لم تأت إلا بعد أن استوفت العربية ما تحتاج إليه من مصطلح فى العلم ، ومستعمل فى الأدوات فلم يكن ثمة محل لألفاظ تلك اللغة .

يضاف إلى ذلك تأثير فى لغة التخاطب جر إليه اختلاطهم بالناس ، فسرت بعض

ألفاظهم إلى الألسنة ، ولكن هذا التأثير لا يعدّ شيئاً مذكوراً إلى جانب ما أحدثته الفارسية .

كان الفرس أهل فصاحة فى لغتهم يعنون فيها باللفظ المونق ، والوقع الحسن ، فعندهم ازدواج وسجع ، وعندهم جناس وأنواع كثيرة من البديع ، وهم يحكمون نوعى الكلام من طويل ضافى الذيل ، وقصير متناهى القصر ، ولهم غرام بالتوقيع كان يقوم به الكتاب أمام رؤسائهم والوزراء فى حضرة ملوكهم ، وكانت فى لغة العرب كل هذه الخصائص ولكنهم لم يلتفتوا إليها لأنها من الزينة ، وقد كانوا إلى حين مداخلتهم للفرس جفاة سذّجا لم تصقلهم المدنية ، ولم ترهف ألسنتهم وأذواقهم مناظرها ومحاسنها ، ولكنهم حين عاشروا الفرس رقت طباعهم ، فبدءوا يتجهون اتجاههم ، وحذق العربية من الفرس كثيرون ؛ فلم يحجموا عن نقل محاسن لغتهم ، وأنيق أساليبها إلى العربية التى طرءوا عليها ، ورأوا فى حذقها رزقاً واسعاً ، وسمواً كبيراً يدنيهم من مجالس الملوك ، ويغمرهم بالغنى الواسع ، ذلك هو كرسى الوزارة الذى كان وقفاً على كلّ بارع من الكتاب .

كذلك تعلم كثير من العرب لغة الفرس التماساً للذة ، واستمتاعاً بقراءة آثار هؤلاء القوم والاطلاع على تاريخهم ومقدار عقولهم . فكان لأسلوب اللغة الجديدة عدوى صارت إلى لغتهم الأولى . فكنت ترى فارسياً حذق العربية ، وعربياً أجاد الفارسية ، وكلاهما يزيد فى العربية لغة الدولة والدّين والخطاب والتأليف كلّ ما يراه من محاسن الفارسية .

وقد بلغ أن قوماً حذقوا اللغتين حذقاً تامّاً ، وكان لهم فى الأدب العربى آثار جليلة ، كابن المقفع ، والفضل بن سهل ، وسهل بن هرون ، وموسى بن سيار ، وبديع الزمان الهمذانى ، والفخر الرازى ؛ ويحكى الجاحظ أن ابن سيار هذا كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته فى العربية كفء فصاحته فى الفارسية ، وكان يجلس مجلسه للوعظ والقصص ، فيقرأ الآية من القرآن ويفسرها للعرب بالعربية وللفرس بالفارسية ،

فما يعرف الناس بأى لسان هو أبين . كذلك كان بديع الزمان تلقى عليه الأبيات الفارسية فيترجمها للوقت والساعة إلى أبيات عربية ، وكذلك كان الفخر الرازى واعظًا بليغاً يعظ بالعربية والفارسية .

وإذا أضفنا إلى تعلم الفارسية بالنشأة مرة ، وبالرغبة أخرى ، ما كان من بذل الخلفاء فى سبيل الترجمة ونقل العلوم ، علمنا كيف كانت العربية تستفيد من كتابة هذه العلوم بها . وأدركنا مقدار الثروة الحاصلة من توفيق التراجمة بين المعانى العلمية العويصة والألفاظ العربية التى لا عهد لها بالخضوع لمثل هذه المعانى .

كذلك كان من نتائج هذه الترجمة وضع المصطلحات لمسائل هذه العلوم والأسماء لما يعرض فيها من آلة أو نبات أو حيوان أو كوكب ، وقد دلّ العرب فى عملهم هذا على أنهم كانوا جديرين حقًّا بهذه المدنية ، فإنهم لم يقفوا جامدين ، ولم يقبلوا كلّ ما جاءهم من اللغات الأخرى على حاله ، ولكنهم عرفوا أن فى الجمود حرماناً من الفائدة ، وفى الإباحة المطلقة جناية على اللغة . فما كان فى لغتهم له لفظ آثروه فى الغالب على اللفظ الأجنبى ، وما لم يجدوه فى لغتهم أخذوه فهذبوا حواشيه وأخضعوه فى الغالب لأوزان لغتهم ، وغيروا من حروفه ما لا يستطيعون النطق به ، فيخرج اللفظ بعد ذلك سائغاً سهلا ، وتستفيد اللغة غنى بهذا الجديد عليها ، وذلك العمل هو الذى يسمى التعريب أو الإعراب .

التعريب

كانوا يعرضون للباء الفارسية ، وهى بين الباء والفاء ، فيجعلونها باء أو فاء عربية فيغيرون بنجه إلى فَنْزَج[1] ، وفى برند برند أو فرند . وكذلك الجيم الفارسية ، وهى بين الجيم والكاف كانوا يجعلونها جيماً أو كافًا أو قافًا ، فيقولون فى كرداب ، وهو وسط البحر جردابًا ، وفى لكام لجامًا ، وكهرمان صيروه إلى قَهْرمان[2] ، وكردان إلى كرد . وربما أبدلوا الحرف ، وهو فى لغتهم كما فعلوا بالشين يبدلونها سيناً

(١) الفنزج : الرقص . قال فى شفاء الغليل : هو لعب للمجوس يأخذ بعضهم بيد بعض ويرقصون .
(٢) القهرمان : من يصير إليه أمر البيت وتدبيره .

مثل : دَشْت[1] فى دشت ، و إسماعيل فى إشماويل ، ويجعلون مكان الحرف الأخير الذى لا يثبت فى كلامهم جيماً كما قالوا فى كوسه كَوْسجاً[2] ، ونموده نموذجاً ، و بنفشه بَنَفْسَجاً وهم فى الغالب يلحقون الأعجمى بوزن عربى كما ألحقوا درهماً بهِجْرَع[3] ،و بَهْرَجا بجعفر وديناراً بديماس[4] ، و إسحاق بإعْصار ، و يعقوب بيَرْبُوع ، وجَوْرَبا بكوكب ، وقد لايلحقون كخراسان، وليس فى كلامهم فُعالان وكإهْلِيلِج[5] ، وليس فى كلامهم إفْعِيلَل

وقد ذكروا أن مما يعرف به المعرب اجتماع الجيم والقاف ، كمنجنيق وجَلَنْبَلَق (لصوت الباب) ،واجتماع الصاد والجيم ، وكصَنْجة[6] وصَوْلجان ، وكذلك وجود نون بعدها راء مثل نَرْجِس ، ونَوْرَج[7] ؛ وكذلك الدال بعدها زاى كُهَنْدِز .

وقد عرّب العرب ما احتاجوا إليه مما ليس فى لغتهم من ألفاظ الأطعمة ، وأسماء الأدوات والنبات والأدوية ، والحقّ أنهم لم يقفوا عند الأخذ من الفارسية بل أخذوا من غيرها كاليونانية ، و إن كان ماأخذوه من الفارسية أكثر .

فما أخذوه من الفارسية أسماء الأطعمة ، ومنها : الطَّبَاهِجَة[8] لطعام من بيض و بصل ولحم وأصلها تباهه ، والسِّكْبَاج لمرق يعمل من اللحم والخلّ أصله سكبا وسكّ بمعنى خلّ وبا بمعنى طعام ، والنِّيمِرشْتُ للبيض الذى يشوى بعض الشئ ، ونيم معناها نصف ورشت معناها مشوى ، والسَّنْبُوسَج لرُقاق تقلى ، (وأهل مصر يقولون

---

(١) الدست : صدر البيت .

(٢) الكوسج : ناقص الشعر ، وقيل ناقص الأسنان ، والأول هو المعنى المعروف للكلمة .

(٣) الهجرع : الأحمق ، والطويل الممشوق ، والكلب السلوقى الخفيف .

(٤) الديماس : الكن والسرب والحمام .

(٥) الاهليلج (وتكسر اللام الثانية) : ثمر منه أسود وأصفر .

(٦) الصنج : شىء يتخذ من الصفر يضرب بعضه ببعض ، وآلة بأوتار يضرب بها .

(٧) النورج : سكة الحرات (آلة الحرث) .

(٨) الطباهجة : اللحم المشرح . (كما فى القاموس) ، وفى شفاء الغليل هو الكباب (كما فى كتاب تاج الأسماء) .

عنها سنبوسك) ، والفالوذق[١] لما نسميه « بالوذه » ، واللَّوْزِينَج والجَوْزِينَج لنوع من الفطائر يحشى باللوز أو الجوز . والزُّمَاوَرْد[٢] وهو الرُّقاق الملفوف باللحم ، والكَامَخ وجمعه كَوَامِخ ، وهو مشه للطعام يتخذ من دقيق ولبن وملح ويجفف ، وكذلك أسماء الأشربة ، ومنها : السَّكَنْجَبِين ، وهو شراب ينفع فى تسكين العطش مركب من سك ، وهو خل وأنجبين بمعنى عسل ، والدُّوْشاب وهو نبيذ التمر ، والأقسما وهو نقيع الزبيب ، والجُلاَّب لماء الورد ، وأصله كلاب ورد ، والمُسْطَار لخمر حلوة .

ومن أسماء النبات والأزهار : الدارصيني ، ومعناه شجر الصين ، والسذاب لبقل ، والخَرْشف لنوع من الخَسّ البرى ، والتُّوت ، وأصله توث ، أو توذ ، والكَرَوْيَا ، والخُولِنْجَان ، والآزَرْيُونَ لنور أصفر ، معرب آذركون : أى لون النّار ، والفرس كانت تتفاءل به وتجعله خلف آذانها تيمناً . وأصل ذلك أن أَرْدَشِير بن بَابَك كان يطلّ من قصر ، فرآه فى حديقته فأعجبه فنزل لجنيه ، فسقط القصر فتيمن ، والجُلَّنار وهو زهر الرّمان ، والبُسْتان ، وهو مغرس الزهر أصله بوستان ، و بو : معناها رائحة ، وستان : معناها موضع .

ومن أسماء الحيوان : السَّمُّور[٣] ، والسِّنْجاب ، والقَاقُم ، والفَنَك[٤] ، والخُشَنْشَار لطير الماء .

ومن مصطلحات العلوم والصناعات : الأَسْطُرْلاَب[٥] وهو اسم يجمع الآلات التى

---

(١) فالوذ أو فالوذق معرب به بالوذه . قال يعقوب ولا تقل فالوذج (قاله الجوهرى) .

(٢) الزماورد (بفتح الزاى) الرقاق الملفوف باللحم (كذا فى حواشى الكشاف) وفى القاموس المحيط : هو طعام من اللحم والبيض .

(٣) السمور (كتنور) : دابة يتخذ من جلدها فراء مثمنة (غالية الثمن) .

(٤) الفنك : دابة فروتها أطيب الفراء وأشرفها وأعدلها .

(٥) الاسطرلاب : آلة يقيس بها الفلكيون ارتفاع الكواكب (كذا فى شرح اللزوميات) . وفى القاموس المحيط : اللاب رجل سطر أسطرا وبنى عليها حسابا فقيل أسطرلاب ثم مزجا ونزعت الإضافة فقيل الأسطرلاب معرفة .

يعرف بها الوقت ، فإن كانت مائية ، فهى الطرْجهارة ، وإن كانت رملية ، فهى البَنْكام ، والزِّيج لخيط البناء ، والمهندز ، والدِّرْياب ، وهوماء الذهب ، والزئبق ، وهو مركب كيميائى معروف ، والإكسير ، ويسمى الحجر المُكَرّم ، والمِغْنَطِيس [1] ، والزِّرْنيخ [2] .

ومنها البربط للعود ، ومعناه صدر البط لأنه يشبهه وبر بمعنى صدر . والبم والزير ، وهما من أوتار العود . ومنها غير ذلك كالبيمارستان ، ومعناه موضع المرضى لأن بيمار معناه مريض واستان موضع ، والسُّفْتَجة بمعنى الوثيقة « كمبيالة » ، وأصلها أن يكون لرجل متاع عند رجل أمين ، فيحفظه عنده ويسافر ، فيأخذ من آخر عوض ذلك ، ويعطيه ورقة به ليتسلمه من الأمين ، ومثلها صكّ معرب جكّ ، والدِّهْليز وهو ما بين الباب والدار ، والدِّهْقان : معرب ده خان أى رئيس القرية ، والدَّسْكرة القرية ، أو محل الخمر ، والسَّنَوَّر الدرع ، والدِّرَفْس العلم الكبير والعسكر وأصله لشكر ، والتخت لما توضع فيه الثياب ، والطَّيْلَسان لما يلبس فوق الكتف ، والمَوْزَج للخفّ ، وَالدَّوْرَق لمكيال الشراب [3] .

ومن غير الفارسية ، أخذوا من اليونانية إيساغوجي بمعنى المدخل ، وسموا به مقدّمات المنطق ، وهى الكليات الخمس : الجنس ، والنوع ، والفصل ، والخاصة ، والعرض العام . والسفسطة وأصلها : سوفسطيقا ، بمعنى التحكم ، وعرفت السفسطة بأنها قياس مركب من وهميات الغرض منها تغليط الخصم ؛ والفلسفة وهى علم حقائق الأشياء ، والعمل بما هو أصلح ، وأصلها من صوفيا بمعنى الحكمة ، ومنها فيلسوف ، ومعناها محبّ الحكمة ، والهيولى بمعنى الأصل ؛ والموسيقا : بمعنى تأليف الألحان ؛

---

(١) لغات المغنطيس ، هى : بفتح الميم أو كسرها وسكون الغين وفتح النون أو كسرها وسكون الياء أو كسر الميم مع زيادة ألف بعد النون . وهو حجر يجذب الحديد .

(٢) الزرنيخ : حجر منه أبيض وأحمر وأصفر .

(٣) كما فى شفاء الغليل نقلا عن المعجم . والذى فى القاموس المحيط : الدورق الجرة ذات العروة .

والقانون لآلة اخترعها أبو نصر الفارابى ؛ والماليخوليا لضرب من الجنون ، وهو أن يحدث للمرء أفكار رديئة ، ويغلب عليه الخوف والحزن ، وربما خلط فى كلامه ، والدوسنطاريا ، بمعنى إسهال الدم ؛ والسَّقَمُونْيا : وهو لبن شجر ينفع من الصفراء وما تولد منها ، كالحكة ، والجذام ؛ والنقرس وهو ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين ، والقُولَنْج : وهو مرض معوى مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح ؛ والكِيمْياء : بمعنى الحذق ، والقَيْطُون المنزل الشتوى .

وهذا المعرب لا يدخل تحت حصر ، وقد ألف فيه أبو منصور الجواليقى المتوفى سنة ٥٣٩ ﻫ كتابه المسمى : « المعرب » ، وكذلك للخفاجى من أدباء القرن الحادى عشر المتوفى سنة ١٠٦٩ ﻫ كتابه المسمى : « شفاء الغليل ، فيما فى كلام العرب من الدخيل » .

ولم يكن العرب محتاجين إلى كلّ الذى عربوه ، فقد تكون عندهم الكلمة العربية الفصيحة ، ولكنه للتوسع فى الاستعمال ؛ ولأثر التعصب عند الفرس ، وحبهم لرواج لغتهم رأينا كثيراً من الألفاظ قد عرب ، وعربيه فصيح مستعمل لا غبار عليه ، ومن ذلك التامورة للابريق ، والثُّقْوة للسُّكُرُّجة ، والناطِس للجاسوس ، والسلمور للألماس ، والباطل للبهرج ، والخفارة للبذرقة ، والفحا للتابِل[1] ، والامام للتّر أو الزيج ، وهو خيط البناء ، والصقر للشاهين ، وجوهر السيف لفرنده ، والمخدع للقيطون ، والعنق للكرد ، والصفيف أو الشواء للطباهج ، والشمع للموم ، وغير ذلك .

معاني اللغة وأغراضها

لم يقف تأثير الفارسية فى العربية عند الأسلوب واللفظ ، بل تعداها إلى المعنى والغرض ، ذلك بأن للأمة الفارسية قبل أن تخالط العرب علماً تشعبت أصوله وديناً تعددت الآراء فيه ، ومذاهب فلسفية نشأت عن كلّ ذلك ، وخيالا شعريًّا استفادوه من طبيعة بلادهم ، وما زخرفت به من أنواع الأشجار والرياحين وعامة الغروس ، وما جعل الله فيها من سهول فيحاء ، وجبال شماء ، وأنهار متدفقة ،

(١) التابل (كصاحب وهاجر) : أبزار الطعام .

أو ليس من هــذه البلاد ثلاثة بقاع من أربع ، هى متنزهات الدنيا ، وهى : صُغْد[١] سَمَرْقَنْد ، وشِعْب بَوَّان ، ونهر الأُبُلّة . أما الرابعة فهى غُوطَة دمشق .

والصغد : نهر تحفّ به قصور و بساتين ترى مشتبكة العمائر بمقدار اثنى عشر فرسخاً فى مثلها ، والشعب بقعة فى نواحى كورة سابور مقدارها فرسخان قد احتفتها الأشجار بظلالهـا ، وجاست الأنهار خلالهـا ، وفيه يقول المتنبى :

مَغَانِى الشِّعْبِ طِيباً فِى المَغَانِى ... بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

وأما نهر الأبلة ، فهو من أعمال البصرة ، وطوله أربعة فراسخ ، وعلى جانبيه بساتين كأنها بستان واحد قد وضع على خط مستقيم ، وكأن أشجاره غرست فى يوم واحد .

كان كلّ ما سبق من علم ودين وخيال يملأ أدمغة الفرس ، ويجول بخواطرهم ، فلما تكلموا بالعربية ، (واللغة أداة التعبير ووسيلة الإبانة) حكوا كلّ هذه المعانى فى شعر امتلأت به دواوين الشعراء منهـم ، وحكمة ومثل هما نتيجة تجربتهم فى أجيالهم السابقة ، وما خلفه لهم تاريخهم الحافل . كذلك تجلت آثارهم فى كتب مؤلفة أو مترجمة أخرجوها للناس ، ففاضت العربية بعلم غزير ، وخيال واسع ، ومعان جديدة ، وصار الفارسى يحكى قديمه ، والعربى يتعلم ما لا عهد له به ، حتى أتت العربية على كلّ ما كان للفارسية من فضل وفائدة ووسعت كلّ ذلك لمـا فيها من ميزة القبول ومرونة الصوغ والاشتقاق .

وأظهر ما يتجلى فى الأدب العربى فى هذا العصر أشياء :

١ — اتساع الخيال ، وإبداع التصوير ، كقول ابن الرومى[٢] فى أحدب :

قَصُرَتْ أَخَادِعُهُ وَغَاصَ قَذَالُهُ ... فَكَأَنَّهُ مُتَرَبِّصٌ أَنْ يُصْفَعَا[٣]

---

(١) هى فى القاموس المحيط بالسين

(٢) فى معاهد التنصيص أن البيتين لعبد الله بن النطاح .

(٣) الأخادع : جمع أخدع وهو عرق فى المحجمتين (مؤخر الرأس) .

وكأنّما صُفِعَتْ قفاهُ مرّةً وأحسّ ثانيةً لها فتجمّعا

وقول أبي إسحٰق إبراهيم بن موسى :

غزَتْني بجَيْشٍ من محاسنِ وَجْهِهَا فَعَبّى لها طَرْفِي لِيَدْفَعَ عَنْ قَلْبِي
فلما الْتَقَى الجيشانِ أقْبَلَ طَرْفُهَا يُرِيدُ اغْتِصابَ الْقَلْبِ قَسْرًا عَلَى الْحَرْبِ
ولمّا تَجَارَحْنَا بِأَسْيافِ لَحْظِنَا جَعَلْتُ فُؤَادِي فِي يَدَيْهَا عَلَى الْعَضْبِ
وَنَادَيْتُ مِنْ وَقْعِ الأَسِنَّةِ والقنَا عَلَى كَبِدِي يَا صاحِ مَالِي وَلِلْحُبِّ
فَصِرْتُ صَرِيعاً للهَوَى وَسْطَ عَسْكَرٍ قَتِيلَ عُيُونِ الغَانِيَاتِ بِلاَ ذَنْبِ

ومنه قول ابن الرومى فى وصف المغنيات يحملن آلات الغناء :

وَقِيَانٍ كَأَنَّهَا أُمَّهَاتٌ عَاطِفَاتٌ عَلَى بَنِيهَا حَوَانِي
مُطْفِلاتٌ وما حَمَلْنَ جَنِيناً مُرْضِعَاتٌ وَلَسْنَ ذَاتَ لِبَانِ
مُلْقِمَاتٌ أطفالَهُنَّ ثُدِيًّا نَاهِدَاتٍ كَأَحْسَنِ الرُّمَّانِ
مُفْعَمَاتٍ كَأَنَّهَا حَافِلاَتٌ وَهْيَ صِفْرٌ مِنْ دِرَّةِ الأَلْبَانِ
كُلُّ طِفْلٍ يُدْعَى بأَسْمَاءَ شَتَّى بَيْنَ عُودٍ وَمِزْهَرٍ وَكِرَانِ (١)
أُمُّهُ دَهْرَهَا تُتَرْجِمُ عَنْهُ وَهْوَ بَادِي الغِنَى عَنِ التَّرْجُمَانِ

ومنه قول صفىّ الدّين الحلى فى الخمر ومزاجها :

شَهَرْنَا عَلَيْهَا بالمِزَاجِ صَوَارِمًا إِذَا أُعْمِلَتْ مَا لِلْجِرَاحِ بِهَا أَرْشُ (٢)
شُعَاعٌ غَدَا طَرْفُ الْمَسَرَّةِ شَاخِصاً إِلَيهِ وَأَحْدَاقُ الْهُمُومِ بِهَا عَمْشُ
شَهِدْنَا زَوَاجَ الرَّاحِ بالماءِ فالنّدَى عَلَيْهَا نِثَارٌ والرِّيَاضُ لَهَا فَرْشُ

ومن الخيال البديع قول القاضى الفاضل فى مملوكه :

---

(١) العود : آلة من المعازف . المزهر : العود يضرب به (لعله يريد عصا صغيرة يضرب بها الطبل)
الكران : الصنج .

(٢) الأرش : دية العضو .

تَرَاءَى وَمِرْآةُ السَّماءِ صَقِيلَةٌ　　فَأَثَّرَ فيها وَجْهُهُ صُورَةَ الْبَدْرِ

وقال بعضهم فتغلغل فى الخيال وأغرب فيه ما شاء[1] :

رَأَتْ قَمَرَ السَّماءِ فَأَذْكَرَتْنِي　　لَيَالِيَ وَصْلِهَا بالرَّقْمَتَيْنِ

كِلانَا نَاظِرٌ قَمَرًا وَلَكِنْ　　رَأَيْتُ بِعَيْنِهَا وَرَأَتْ بِعَيْنِي

٢ — المبالغة الشديدة ، والتهويل الزائد ، وهذا شىء من طباع الفرس ولوازم تفكيرهم ، وقد ظهر ذلك فى عصرنا هذا فى الشعر والكتابة والألقاب فأما فى الشعر ، فمن ذلك قول منصور النميرى فى الرشيد :

خَلِيفَةَ اللهِ إِنَّ الْجُودَ أَوْدِيَةٌ　　أَحَلَّكَ اللهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِبَنِي الْعَبَّاسِ مُعْتَصِمًا　　فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَنْتَفِعُ

إِنْ أَخْلَفَ الْقَطْرُ لَمْ تُخْلِفْ مَخَايِلُهُ　　أَوْضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ[2]

وقول محمد بن وُهيب فى المعتصم :

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا　　شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ

فَالشَّمْسُ تَحْكِيهِ فِى الإِشْرَاقِ طَالِعَةً　　إِذَا تَقَطَّعَ عَنْ إِدْرَاكِهَا النَّظَرُ

وَالْبَدْرُ يَحْكِيهِ فِى الظَّلْمَاءِ مُنْبَلِجًا　　إِذَا اسْتَنَارَتْ لَيَالِيهِ بِهِ الْغُرَرُ

إلى أن يقول :

فَالْخَلْقُ جِسْمٌ لَهُ رَأْسٌ يُدَبِّرُهُ　　وَأَنْتَ جَارِحَتَاهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ

وقد تنتهى المبالغة إلى الكفر أو قريب منه ، كقول أبى نُواسٍ فى الرشيد :

---

(١) وفى هذا المعنى قول الشاعر :

وقد نظرت بدر الدجى ورأيتها　　فكان كلانا ناظرا وحده بدرا

وقول المتنبى :

واستقبلت قمر السماء بوجهها　　فأرتنى القمرين فى وقت معا

(٢) المخايل : جمع مخيلة ، وهى مايتخيل فى المرء من خير.

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ   لَتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

وأمثلة ذلك فى الشعر والنثر كثيرة سنستوفيها فى الكلام على كلّ منها خاصة .

أما التهويل فى الألقاب فهو شيء لم يكن العرب يعرفونه بهذه المثابة قبل هذا العصر ، فإنا لم نر أحداً من الخلفاء ألصق به لقب حادث عند توليته الخلافة ، ولا رأينا ذلك فيمن خدمهم من الوزراء أو القوّاد أو غيرهم ، بل إن أحدهم إنما كان يخاطب باسمه أو كنيته ، أو لقبه القديم الذى عرف به منذ حداثته ، أو جعل عليه لداع غير ارتقائه إلى الخلافة وتقليده الوزارة . وأوّل عهدهم بالتلقيب فى هذه الدولة تلقيب أبى العباس أول خلفائهم لنفسه بالسفاح فى قوله : أنا الثائر المُنِيح ، والسفاح المُبِيح (١) . ثم تسميتهم من يعين الخليفة ، ويساعده فى سياسة الدولة وزيراً ، وكان أول من لقب بذلك أبوسلمة الخلال وزير أبى العباس السفاح ، ثم لقب جعفر البرمكى فى أيام الرشيد بالسلطان ، ثم لقب طاهر بن الحسين ذا اليمينين وصاحب حبل الدين لما انتصر على الأمين ، ولقب الفضل بن سهل ذا الرياستين لجمعه بين رياسة السيف والقلم . ولقب صاعد بن خالد وزير المعتمد ذا الوزارتين ، ثم قيل رئيس الرؤساء لعلىّ بن الحسين وزير القائم ، وعميد الله لمحمد بن محمد وزير المقتدى .

ولما وافت الدولة البوَيْهِية جعلت ألقاب ملوكها بالاضافة إلى الدولة ، فقيل لعلىّ ابن أبى شجاع عماد الدولة ، ولأخيه الحسن ركن الدولة ولأخيهما أحمد معزّ الدولة .

ثم لقب بالإضافة إلى الدّين ، فأوّل ما كان من ذلك سنة ٣٧٦ ﻫ حين ولى الوزارة أبو شجاع محمد بن الحسين ، ولقب ظهير الدين ، ثم قيل بعده عز الدين ، وعضد الدين ومؤيد الدين .

ثم زادت الضراعة فى الناس والغطرسة من الرؤساء حتى صار الناس إذا خاطبوهم نزهوا ألقابهم أن يوجه إليها القول ، فخاطبوا الجناب والحضرة ، فيقولون للخليفة : إلى

---

(١) المنيح : أى الذى أجعل الناس ينوحون على قتلاهم . المبيح : أى للدماء .

الحضرة المقدّسة ، أو السُّدّة النبوية ، وللوزراء : (إلى الحضرة الوزيرية) ، وأوّل من سنّ ذلك أبو الحسن عليّ بن حاجب النعمان الكاتب ، ثم شاعت هذه الطريقة.

وقد استمرّت هــــذه الألقاب توضع على الخلفاء والوزراء حين كانت الدولة فى أضعف حالاتها . وقد قال ابن شرف لما رأى مثل ذلك فى ملوك الأندلس :

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ أَلْقَابُ مُعْتَمِدٍ فيها ومُعْتَضِــدِ
أَلْقَابُ مَمْلَــكَةٍ فى غَيْرِ مَوْضِعِهاَ كالهِرِّ يَحْــكِى انْتِفَاخًا صُورَةَ الأَسَدِ

٣ — الإكثار من الحـكمة والمثل والبراهين الفلسفية ، وتناول المعانى الدقيقة التى تدلّ على حصافة وطول دراسة ، والأوّلان ظاهران فى شعر صالح بن عبدالقدّوس، و بشار وأبى تمام ، والمتنبى ؛ وأبى العلاء ، والأخيران فى عام شعر الشعراء . وذلك لأن دراسة الفلسفة والعلوم العقلية كونت أذهان الناطقين بالعربية هذا التكوين المنظم الذى لا يرتاح إلا إلى الاستدلال والاحتجاج كما أنه لا يتكاءده معنى ولا يفوته غرض .

فمن الحـكمة قول بشار :

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فاسْتَعِنْ بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةِ حَازِمِ
ولا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً فإِنَّ الْخَوَافِى قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ
وما خَيْرُ كَفٍّ أَمْسَكَ الغُلُّ أُخْتَهَا وما خَيْرُ سَــيْفٍ لم يُؤَيَّدْ بقَائِمِ (١)
وخلِّ الْهُوَيْنَا للضَّعِيفِ وَلاَ تَــكُنْ نَئُومًا فإِنَّ الحُرَّ لَيْسَ بِنَائِمِ

وقول صالح بن عبد القدوس :

لا يَبْلُغُ الأَعْــدَاء مِنْ جَاهِلٍ مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نَفْسِــهِ
والشَّــيْخُ لاَ يَتْرُكُ أَخْلاَقَهُ حَتَّى يُوَارَى فى ثَرَى رَمْسِــهِ
إذا أُرْعَوَى عَادَ إِلَى جَهْــلِهِ كذِى الضَّنَى عَادَ إِلى سُــقْمِهِ (٢)

---

(١) الغل : القيد . القائم : مقبض السيف .

(٢) ارعوى : نزع عن جهله . الضنى : المرض المخامر الذى كلما ظن البرء منه عاد المريض فانتكس.

وإنَّ مَنْ أدَّبْتَهُ فِي الصِّبَا ... كالعُودِ يُسْقَى الماءَ فى غَرْسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاضِرًا ... بَعْدَ الَّذِى أبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

وقول المتنبي :

والهَمُّ يَخْتَرِمُ الجسيمَ نَحَافَةً ... ويُشِيبُ نَاصِيَةَ الْغُلَامِ وَيُهْرِمُ (١)
ذو العَقْلِ يَشْقَى فى النعيمِ بِعَقْلِهِ ... وأَخُو الجهالةِ فى الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ
لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأذَى ... حتى يُرَاقَ عَلَى جَوَانبِهِ الدَّمُ (٢)
والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ... ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ
وَمِنَ الْبَلِيَّةِ عَذْلُ مَنْ لَا يَرْعَوِى ... عَنْ جَهْلِهِ وَخِطَابُ مَنْ لَا يَفْهَمُ
والذُّلُّ يُظْهِرُ فِي الذَّلِيلِ مَوَدَّةً ... وأَوَدُّ مِنْهُ لِمَنْ يَوَدُّ الأَرْقَمُ (٣)
وَمِنَ الْعَدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ ... وَمِنَ الصَّدَاقَةِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْلِمُ (٤)

وقوله :

وَمَا قَتَلَ الأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمُ ... وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِى يَحْفَظُ الْيَدَا
إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ ... وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا
وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

---

(١) اخترمته المنية أهلكته . الناصية : مقدم الرأس . والمعنى أن الهم يقتل الجسيم من توالى النحافة عليه

(٢) أى لا يسلم للشريف شرفه من أذى أعدائه حتى يقتلهم فيأمن شرهم أو يخيف غيرهم .

(٣) الأرقم : ضرب من الحيات فيه سواد وبياض، أى أن الأرقم على مايعرف عنه من التعرض لأذى من لا يؤذيه خير وأسلم عاقبة من هذا المتودد للناس وهو يضمر لهم السوء .

(٤) فهمه ابن جنى هكذا : إن عداوة الساقط تدل على مباينة طبعه فتنفع، وصداقته تدل على مناسبته فتضر ، وكذلك نقل الواحدى هذا المعنى ، وإنما المعنى من قول صالح بن عبد القدوس :

عدوك ذو العقل خير من الصديق لك الوامق الجاهل

أى عدو عاقل خير من صديق جاهل .

وقوله :

وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْئًا   ذَاتُ خِدْرٍ تَمَنَّتِ المَوْتَ بَعْلاَ
وإذا الشَّيْخُ قال أُفٍّ فما مَلْـ   ـلَ حَيَاةً وإِنَّمَا الشَّيْبَ مَلاَّ
آلةُ العيشِ صحةٌ وشَبَابٌ   فإِذَا وَلَّيَا عَنِ المَرْءِ وَلَّى

وقول أبي العلاء المَعَرِّي :

تَوَاصَلَ حَبْلُ النَّسْلِ مَا بَيْنَ آدَمٍ   وَبَيْنِي وَلَمْ يُوصَلْ بِلاَمِيَ بَاءُ(١)
تَثَاءَبَ عَمْرٌو إِذْ تَثَاءَبَ خَالِدٌ   بِعَدْوَى فَمَا أَعْدَتْنِيَ الثُّؤَبَاءُ
وزَهَّدَنِي فِي الخَلْقِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ   وَعِلْمِي بِأَنَّ العَالَمِينَ هَبَاءُ(٢)
وكَيْفَ تَلاَفِيَّ الَّذِي فَاتَ بَعْدَ مَا   تَلَفَّعَ نِيرَانَ الحَرِيقِ أَبَاءُ(٣)
إِذَا نَزَلَ المِقْدَارُ لَمْ يَكُ لِلْقَطَا   نُهُوضٌ ولا لِلْمُخْدِرَاتِ إِبَاءُ(٤)

وقوله :

لَعَلَّ أُنَاساً فِي المَحَارِيبِ خَوَّفُوا   بِآيٍ كَنَاسٍ فِي المَشَارِبِ أَطْرَبُوا
إِذَا رَامَ كَيْداً بِالصَّلاَةِ مُقِيمُهَا   فَتَارِكُهَا عَمْداً إِلَى اللهِ أَقْرَبُ
فَلاَ يُمْسِ فَخَّاراً مِنَ الفَخْرِ عَائِدٌ   إِلَى عُنْصُرِ الفَخَّارِ لِلنَّفْعِ يُضْرَبُ(٥)

وقوله :

الدِّينُ إِنْصَافُكَ الأَقْوَامَ كُلَّهُمُو   وَأَيُّ دِينٍ لآبِي الحَقِّ إِنْ وَجَبَا

---

(١) اللام : الشخص ـ الباء : النكاح ، وأصله باه .
(٢) الهباء : القليلو العقول من الناس ، والغبار .
(٣) تلافي الشيء : تداركه . تلفع الشيء : اشتمل عليه . الأباء : القصب . الواحدة أباءة . والمعنى أن الشر إذا استشرى والأمر إذا عظم تعذر تلافيه .
(٤) الخدر : أجمة الأسد . والخادر والمخدر : الأسد .
(٥) المعنى لا يحسن بالإنسان وأصله من الطين أن يفتخر بنفسه .

والمرءُ يُعْيِيهِ قَوْدُ النَّفْسِ مُصْحَبَةً لِلْخَيْرِ وَهْوَ يَقُودُ الجَحْفَلَ اللَّجِبَا(١)

وقوله :

يا رَبِّ أَخْرِجْنِي إلى دَارِ الرِّضَا عجلاً فَهذَا عَالَمٌ مَنْكُوسُ
ظَلُّوا كَدَائِرَةٍ تَحَوَّلَ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضِهَا فَجَمِيعُهَا مَعْكُوسُ

وقوله :

إِذَا أُلِفَ الشَّيْءُ اسْتَهَانَ بِهِ الْفَتَى فَلَمْ يَرَهُ بُؤْسَى تُعَدُّ وَلاَ نُعْمَى
كَإِنْفَاقِهِ مِنْ عُمْرِهِ وَمَسَاغِهِ مِنَ الرِّيقِ عَذْبًا لاَ يُحِسُّ لَهُ طَعْمَا(٢)
وما ارْتَابَ فِي لُقْيَا الرَّدَى وَكَأَنَّهُ حَدِيثٌ أَتَى مِنْ كَاذِبٍ يُبْطِلُ الزَّعْمَا(٣)

ومن الاستدلال والبرهنة قول أبي تمام :

لا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ(٤)
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقَلَّ لِنُورِهِ مَثَلاً مِنَ الْمِشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ

وقوله :

لا تُنْكِرِي عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي(٥)

وقوله :

لَيْسَ الْحِجَابُ بِمُقْصٍ عَنْكَ لِي أَمَلاً إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجَّى حِينَ تَحْتَجِبُ

وقول ابن الرومي :

وإِذا امْرُؤٌ مَدَحَ امْرَأً لِنَوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُقَدِّرْ فِيهِ بُعْدَ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوُرُودِ لَمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ(٦)

---

(١) يقال أصحبته الشيء إذا جعلته يصحبه .
(٢) مساغ : سوغ . وساغ الشراب : سهل دخوله في الحلق .
(٣) أبطل الرجل : أتى بالباطل ، فمعنى يبطل الزعم يأتي بزعم باطل .
(٤) مثل شرود : شائع في البلاد .
(٥) العطل (بالتحريك) : التجرد من الحلي . يقال رجل حرب أي عدو وإن لم يكن محاربا ، وهو للمذكر والمؤنث والواحد والجمع بلفظ واحد لأن أصله مصدر . (٦) الرشاء : حبل البئر

وقال الطُّغْرائىّ :

عِدَاىَ لَهُمْ فَضْلٌ عَلَىَّ وَمِنَّةٌ فَلاَ أَذْهَبَ الرَّحْمٰنُ عَنِّى الْأَعَادِيَا
هُمُ بَحَثُوا عَنْ زَلَّتِى فَاجْتَنَبْتُهَا وَهُمْ نَافَسُونِى فَاكْتَسَبْتُ الْمَعَالِيَا

ومن المعانى الدقيقة قول إسحٰق بن إبراهيم الموصلى :

أَخَافُ عَلَيْهَا الْعَيْنَ مِنْ طُولِ وَصْلِهَا فَأَهْجُرُهَا الشَّهْرَيْنِ خَوْفًا مِنَ الْهَجْرِ
وَمَا كَانَ هِجْرَانِى لَهَا عَنْ مَلاَمَةٍ وَلٰكِنَّنِى أَمَّلْتُ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ (١)
أُفَكِّرُ فِى قَلْبِى بِأَىِّ عُقُوبَةٍ أُعَاقِبُهُ فِيكُمْ لِتَرْضَوْا فَمَا أَدْرِى (٢)
سِوَى هَجْرِكُمْ وَالْهَجْرُ فِيهِ دَمَارُه فَعَاقَبْتُهُ فِيكُمْ مِنَ الْهَجْرِ بِالْهَجْرِ
فَكُنْتُ كَمَنْ خَافَ النَّدَى أَنْ يَبُلَّهُ فَعَاذَ مِنَ الْمِيزَابِ وَالْقَطْرِ بِالْبَحْرِ

وقول خالد الكاتب :

أَعَانَ طَرْفِى عَلَى جِسْمِى وأَحْشَائِى بِنَظْرَةٍ وَقَفَتْ جِسْمِى عَلَى دَائِى (٣)
وكُنْتُ غِرًّا بِمَا يَجْنِى عَلَى بَدَنِى لا علم لى أن بعضى بعضُ أدوائى (٤)

⁂

هذه محاسن ما أفادت العربية من الفارسية . وقد كان إلى جانبها مساوئ جرّها على العربية الإسراف فى الإخلاد إلى صديقتها ، وطول الاستنامة لها والركون إليها :

---

(١) يريد عاقبة الصبر على الفراق، وهى اللقاء كما قال الشاعر:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

(٢) التفكير فى عقاب قلبه لأنه هو الذى أوحى إليه فكرة الهجران لإدامة الوصل .

(٣) يقول ان طرفه (عينه) هو الذى ساعد المرض على التمكن من جسمه بتلك النظرة التى جعلت جسمه موقوفا على الداء لا يزايله .

(٤) يقول وكنت جاهلا بما يجنيه ويجلبه نظرى على بدنى من المضار ولم أكن أعلم أن عضوا من أعضائى يكون داء فىّ يسبب لى المتاعب .

وتلك المساوئ هى الضعف الذى دخل على الأسلوب العربى ؛ فإنه بعد أن كان جزلا رصيناً قبل هذه الدولة وفى أوائلها ، دخله الفتور لضعف الملكات ببعد العربى عن المعهد الذى كان يتلقى فيه اللغة بالسماع ، ويحذقها بالنشأة بين أهلها ، ولكثرة من طرأ على اللغة من غير أهلها ، وليسوا جميعا بمثابة واحدة من حسن الأخذ ، وتمام الملكة ، ولأن الناطق بلغتين يجنى بأحداهما على الأخرى ، ويزيد فى واحدة ما ينقص من أختها ، ثم ان الأمور التى ولع بها القوم ، وقلدوا فيها الفارسية ، وهى العناية بالسجع ، والمحسّن البديعى ، والجناس والطباق وغيرهما ، حسن موقعها فى أقلام الكتاب الأوائل ، ثم ما زالوا يبالغون فيها ، ويديمون التزامها مع ما صاحب ذلك من ضعف الآلة ، ونقصان الملكة ، حتى أصبح السجع يجتلب اجتلابا ، وإن أخلّ بالمعنى ، وأضرّ بموقع الكلمة ، وجنى على الصواب ؛ كما كانت المحسنات البديعية تغض من محاسن الكلام . وتجنى عليه بالتعقيد والعسر ، وصارت يزين بها القول ، وإن لم يستكمل شروط البلاغة من الإفصاح ؛ والمطابقة لمقتضى الحال ، فكانت كالحلى على الميت ، وكالدسم فى جوف المعود .

وهناك جناية أخرى على لغة التخاطب صيرتها إلى عامية مرذولة ما زالت تتباعد من الفصحى حتى صارت لغة مستقلة .

وكان من جراء هذا الضعف فى الأساليب ؛ والنقص فى الملكات ، والمهاجمة من العامية ، أن منع العلماء الاستشهاد بكلام أهل هذا العصر لصيرورة الشكّ إلى ملكاتهم ، وحاول الوهن على ألسنتهم ، وبعض من يرى الاحتجاج برجال هذا العصر لا يتعدى بشاراً من الشعراء ، أماغير الشعراء فلاسبيل إلى الاحتجاج بقوله من هؤلاء بتة .

لغة التخاطب

جاءت الدولة العباسية ، والعرب قد فتحوا معظم المملكة الإسلامية ، فلم يكن عمل العباسيين فى الغالب إلا المحافظة على الثغور ، والاستعادة لما يكون الأعداء قد غلبوا عليه من الأطراف التى تلى بلادهم ، فكانت هذه البلاد فى حكم العرب منذ قديم : ولكن مذهب الأمويين فى الحكم كان يقضى بالترفع عن الأعاجم ، والتصوّن عن الابتذال معهم ، فنشأ عن ذلك استمساك فى لغتهم لم ينته بها إلى المسخ الذى صارت إليه فى عهد الدولة العباسية ، كما أن شدة الأمويين على الموالى كانت تجعلهم يتقربون إليهم بحذق لغتهم ، وكان العرب لا يزالون قريبى عهد بجاهليتهم ، وتمام ملكاتهم فضمن ذلك للغة العربية هذا التماسك فى ألسنة المتخاطبين ، أما فى العصر العباسى فقد صارت لغة التخاطب مصيرا منكرا هو باسم المسخ أحق .

ذلك بأن اللغة تتأثر بالمخالطة ، وعلى قدرها يكون شيوع الفساد أو ضيق دائرته . نعم قد حصل اختلاط فى العصر الأموى ، وجرى على لغة التخاطب فساد ، ولكن الأمويين استطاعوا أن يحصروا خطره بما كان لهم من وسائل لم ينوا فى اتخاذها . كوضع النحو ، وتربية أبناء الخلفاء ومن فى طبقتهم بالبادية ، والزراية بمن يقع منه اللحن ، وإقصائه عن مجالس الخاصة . كالذى ذكروا أن عبد الملك كان يجالس مجالس عامة إلى قبائل العرب ، فكان يستسقط من يلحن فأفاد كل ذلك فى نهنهة هذا التيار ، حتى انتهى الأمر أن كان عدد اللحانين محصورا ، وكانت العامية التى شنوا عليها الغارة هى اللحن مع سلامة التركيب وفصاحة المفردات .

أما فى العصر العباسى ، فقد كانت المداخلة التى ذكرنا وصفها تقضى على كل مجهود يبذل فى سبيل حماية الألسنة ؛ فإن الخلفاء وإن لم يرسلوا أولادهم إلى البادية كما فعل الأمويون قد ألزموهم المربّين من أفاضل الراوة ، وأشياخ العربية ، فقد كان

الشرقى القُطامى يؤدب المهدى ، والأحمر النحوى ثم الكسأئى يؤدبان الأمين واليزيدى يؤدب المأمون ، والفراء أدب ولدى المأمون ، والمفضل الضبى أدب الواثق ، ويعقوب بن السِّكِّيت أدب المعتز ، وثعلب والمبرد تخرج عليهما ابن المعتز ، ولكن لم يكن لفضل هؤلاء المؤدبين أثره المرجو ، لأن نشأة هؤلاء الأمراء بين الأمهات والحواضن والخدم ، وكلهم من الأعاجم جعل العامية تطغى على ألسنتهم : حتى حكم المعتصم على نفسه بأنه خليفة أمىّ ، وذلك حين ورد كتاب من بعض العمال ، فقرأه عليه وزيره أحمد بن عمار ، (ولم تكن فيه كفاية كتابية) ، فإذا فى الكتاب ذكر للكلأ ، فقال المعتصم للوزير : ما الكلأ ؟ فقال الوزير : لاأدرى ؛ فقال المعتصم خليفة أمىّ ووزير عامىّ ، ثم قال : انظروا من بالباب من الكتاب ؟ فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات ، فأدخل عليه ، فسأله عن الكلأ ، فقال : هو العشب عامة ، فإن كان رطباً فهو الخلا ، وإذا يبس فهو الحشيش[1] ، فعرف المعتصم فضله واستوزره .

وقد ضعفت الملكات فى العصر العباسى حتى رأينا الخلفاء والعلماء متورطين فى اللحن والخطأ ، فقد ذكروا أن أبا جعفر المنصور لحن فى مجلس به أعرابىّ فصرّ الأعرابىّ أذنيه ، ثم لحن مرة أخرى ، فقال : (أفّ لهذا) ، ثم لحن ثالثة ، فقال الأعرابى : أشهد لقد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر . ودخل سعيد بن سلم على الرشيد فملكته هيبته ، فلما تكلم الرشيد لحن فخف فى عين سعيد ، وكان المأمون يقول : أتكلم مع الناس كلهم على سجيتى إلا مع ابن الهيثم فإنى أتحفظ إذا كلمته لأنه يعرف الإعراب .

وكان أبو عبيدة عمرو بن المثنى الذى أحاط بعلم العرب وأخبارهم وأنسابهم ، وهو الذى روى جميع أيامهم التى يتناقلها المؤرّخون إلى اليوم ، كان على سعة علمه باللغة ، إذا أنشد بيتا لم يقم إعرابه .

وذلك يدلنا على أن اللحن قد صار لازمة العربى من سكان الحضر . هـذا إن

---

(١) وفى رواية الفخرى « وأول النبات يسمى بقلا ، فاذا نما قليلا فهو الكلأ ، فاذا يبس وجف فهو الحشيش » .

كان من الخاصـة والمتأدّبين . لذلك رأينا كثيرين من النحويين بالغوا فى التقعير والتشدق والتشبه بالأعراب ؛ وغالبوا الطبع والتزموا الإعراب ، والتمسوا بذلك الشهرة بين الناس ؛ فاتخذهم الناس هزأة وضحكة لخروجهم عن مألوف هذا الزمن ، وهوالعامية التى لاتصوّن فيها ولاتحرّج . ومنهؤلاء : عيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة ١٤٣ هـ ، وهو القائل ليوسف بن عمر بن هبيرةلما ضربه فى ثياب كان قد استودعها : إنْ كَانَتْ إلاّأُثَيَّاباً فى أُسَـيْفَاطٍ قَبَضَها عَشَّارُوكَ(١) . ومنهم أيضاً أبو عَلْقَمَة النحوى الذى مرّ ببعض طرق البصرة ، فهاجت به مِرَّة ، فوثب عليه قوم يَعَضُّون إبهامه ، و يؤذنون فى أذنه ، فأفلت من أيديهم ، وقال : مالكم تكأكأتم علىّ كتكأكئكم على ذى جِنّة ، افرنقعوا . وهو الذى هاج به الدم ، فأتى بحجام ، فقال له : « اُشْدُدْ قَصَبَ المَلاَزِمِ(٢) ، وأَرْهِفْ ظُبَاتِ المَشَارِط ، وَأَسْرِع الْوَضْـع ، وَعَجِّل النَّزْع ، وليكن شَرْطُك وَخْزًا ، ومَصُّك نَهْزًا ، ولا تُكْرِهَنَّ أبيًّا ، ولا تَرُدَّنَّ أتِيًّا » ، فوضع الحجام محاجمه فى جَوْنته وانصرف .

وقد كثر هؤلاء حتى ألف فيهم أبو الفرج النحوى المتوفى سنة ٤٩٩ هـ كتابًا جمع فيه أخبار المتقعرين ونوادرهم .

وكذلك لم يأل خلفاء العباسيين خصوصاً الأولين منهم فى مدافعة العامية ، وضعف الملكات لأنهم يعلمون أن اللغة هى لغة الدّين الذى تقوم عليـه دولتهم ، وتعظم به سطوتهم ، فتقزّزوا كلّ التقزّز من فشو اللحن فى الألسـنة ، ودافعوا ذلك بمناصرة العربية ، والإحسان إلى علمائها ، واحتثاثهم على ضبطها ، و إغراء الرواة بجمعها ، و بذلوا فى سبيل ذلك مالهم وعنايتهم حتى كانت المناظرات تقام بمجالسهم ، ومجالس وزرائهم تنشيطاً

---

(١) أثياب : جمع ثوب أصله أثواب ثم صغر . وكذلك أسيفاط : جمع سفط (بالتحريك) وهو الجوالق

(٢) الملازم : جمع ملزم (كمنبر) وهما خشبتان تشد أوساطهما بحديدة . أرهف : رقق . ظبات : جمع ظبة وهى حد السيف أو نحوه . المشارط : جمع مشرط (كمنبر) وهو المبضع .

للعلم وإثارة للهمم فيه . ولقد بلغ من عناية الرشيد بالفصاحة والسلامة من الخطأ أن حاول تصحيح اللغة فى أفواه الملاحين بدجلة لأنه كان إذا أطل عليهم من قصره سمعهم يغنون فيعجبه غناؤهم ويؤلمه لحنهم . فقال يوما : قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرًا يغنون فيه ، فقيل له : ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية وهو فى الحبس فوجه إليه الرشيد يأمره بعمل الشعر ، ولم يأمر بإطلاقه ، فغاظه ذلك ، وعمل شعرًا فى الوعظ والتذكير بتقلب الأيام ، لينغص على الرشيد سروره إذا سمعه . وكان الرشيد سريع التأثر يبكى وينتحب إذا مرّت الموعظة بإذنه . فكان إذا سمع الملاحين يتغنون بما صنعه أبو العتاهية لهم يبكى . وهذا هو الشعر :

خانكَ الطَّرْفُ الطَّمُوحُ أيها القلبُ الجَموحُ
لدواعى الخير والشَّرِّ دُنُوٌّ ونُزُوحُ
هل لمطلوبٍ بِذَنْبٍ تَوْبَةٌ مِنْهُ نَصُوحُ
كَيْفَ إِصْلاَحُ قُلُوبٍ إِنَّما هُنَّ قُرُوحُ
أَحْسَنَ اللهُ بنا أَنَّ الخَطَايَا لا تَفُوحُ
سَيَصِيرُ المَرْءُ يَوْمًا جَسَدًا ما فيهِ رُوحُ
بَيْنَ عَيْنَىْ كُلِّ حَيٍّ عَلَمُ المَوْتِ يَلُوحُ
كُلُّنَا فى غَفْلَةٍ والْمَوْتُ يَغْدُو وَيَرُوحُ
لِبَنِى الدُّنيا مِنَ الدُّنْيَا غَبُوقٌ وصَبُوحُ (١)
نُحْ عَلَى نَفْسِكَ يا مِسْكينُ إنْ كُنْتَ تَنُوحُ
لتموتَنَّ وإنْ عُمِّرْت ما عُمِّرَ نُوحُ

ودخل عليه الفراء يوما ، فتكلم بكلام لحن فيه . فقال له : أتلحن يا فراء ؟ قال

---

(١) الغبوق : شراب العشى . والصبوح : شراب الصبح . والمعنى أن بنى الدنيا منغمسون فى نعيمها لاهون به غير مفكرين فى عاقبتها .

يا أمـــير المؤمنين : إن طباع أهل الحضر اللحن ، فإذا تحفظت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطباع لحنت ، فقبل الرشيد قوله . وسمع المأمون بعض ولده يلحن ، فقال : ما على أحدكم أن يتعلم العربيـــة ، فيقيم بها أَوَده ، ويزين بها مشهده ، ويفلّ حجة خصمه بمسكتات حِكَمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه . أيسرّ أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته ، فلا يزال الدهر أسير كلمته .

وعلى هذا جرى أعوان الخلفاء من وزراء وغيرهم يعظمون أمر الخطأ ، ويشتدّون فى المؤاخذة به . وقد ألف العلماء فى إصلاح العامية كما فعل ثعلب فى فصيحه ، وكما فعل ابن خالويه النحوى المتوفى سنة ٣٧٠ ﻫ فى كتابه ليس فى كلام العرب ، وكما فعل الصفدى فى تصحيح التصحيف ، وتحريف التحريف ، ومع ذلك لم يستطيعوا بهذه الوسائل كلها ردّ هذا الغَرْب حتى طَمّ سيل العامية ، وشمل الناس كلهم ، وما زالت العامية تحيا وتنمو حتى تميزت من العربية ، بل ظهرت لهـا سطوة إذ قيلت بها المواليا والموشحات ، وبقية ما جدّ فى العربية من أوزان ، وكثر قول الناس لهذه الأنواع ، وإنشادهم إياها فى مجتمعات العامة ، حتى كان للعامية أدب كما كان للفصحى أدب .

ولقد كان من محاربة القوم للعامية أنهم أبوا تدوينها ، وبسط القول فيها ، ونقل ما ظهر منها فى مختلف عصورها ، وذلك لخوفهم أن يكون فى ذلك التدوين حياة لهـا ، فعملوا على إماتتها بإهمالهـا ، والزراية عليها ، وأفلتت منهم تلك الأمثلة من الأوزان التى ذكرناها ، ولـكننا نتساءل : هل كان من الخير للتاريخ أن يدوّن العلماء هذه اللغة ؟ لنستطيع منها درس الأخلاق الشائعة فى هذه العصور على حقيقتها ، فإن العامة هم جمهور الشعوب ، وأخلاقهم وتصوّراتهم هى التى ينبغى أن يكون بها الحكم عليها لا مايبدو من هذه الفئة الضئيلة فئة المتعلمين الذين يغلب عليهم الخداع ، وكتمان الحقيقة عن الناقد ، على أن فيما ورد من الأنواع المتقدّمة بعض الدلالة على شىء من هذا ؛ وعلى مقدار ما دخل على الفصحى من تغيير ، وهاك بعض هذه المرويات :

يقال إن جارية للبرامكة ، وهى أوّل من نطق بالمواليا كانت تقول فى رثائهم :

يا دار أين الملوك أين الفرس أين الذين رعوها بالقنا والتُّرْس
قالت تراهم رِمَمْ تحت الأراضى الدُّرْس سكوتْ بعد الفصاحةِ ألسنتْهُمْ خُرْس

ومن المواليا أيضاً قول بعضهم فى الوعظ :

يا عبْد إبكى على فعْل المعاصى ونُوحْ هُمْ فينْ جُدُودكْ أبوكْ آدمْ وبَعْدُهْ نُوحْ
دنيا غَرُورَهْ تِجِى لَكْ فى صِفَةْ مَرْكِبْ ترمى حُمُولْهـا على شَطِّ البحار وِتْرُوحْ

وفى دار الكتب الملكية أوراق عثر عليها من كتابة العامة فى العصر العباسى فيها عقود زواج ، ومشارطات ومبايعات ، وقد حاولت قراءتها ، فاستعصت علىّ لنصول خطها ؛ وجريه على قاعدة قديمة ؛ وكان يحسن بدار الكتب أن تضع إلى جانب كلّ أثر من هذه صورته بالخط الذى نألفه .

اختلاف العامية فى الأقاليم

لم تكن العامية لهجة واحدة فى جميع أقاليم الدولة الإسلامية ، فهى فى مصر غيرها فى الشام ؛ وفى الشام غيرها فى العراق ، وهكذا ؛ كذلك لم يكن قربها من العربية ؛ أو بُعدها عنها بمثابة واحدة ، فهى فى أوائل عهد الدولة قريبة من الفصحى بعض القرب ؛ وفى أواخر العصر مباينة لها كلّ المباينة ، وسبب ذلك : أن العامية إنما تتكوّن من اللغتين أو اللغات التى اختلط أهلها ، فالعامية فى العراق تكثر فيها الألفاظ الفارسية ؛ وأساليب التعبير فيها ؛ وهى فى الشام تخالطها الرومية ، وفى مصر تعتدى عليها القبطية ؛ وهكذا فى كلّ صُقع تجد للعرب الذين خالطوا أهله لغة تجتمع فيها خصائص اللغتين ، وكلما زاد الاختلاط زادت مداخلة اللغتين ، فلا تزال العامية تبعد من أصلها حتى تصير أصلا فى نفسها تنقطع صلته بالعربية فى الظاهر تمام الانقطاع ؛ ولا بدّ من مراعاة نسبة الشعبين المتعاشرين ، فإذا قلّ الأجنبى وكثر العربى كان بعد العامية دون بعدها إذا طغى الأجنبىّ على العربىّ . لذلك ترى اللغة العامية فى العراق ومصر والشام

حيث يغلب العنصر العربى كان قوامها الألفاظ العربية محرفة مصحفة مضافاً إليها كثير من الألفاظ فى لغة الأمة المخالطة متبعاً فيها أسلوب تلك اللغة فى نفيها و إثباتها واستفهامها وتعجبها ، وغير ذلك من طرق الأداء .

وكانت البلاد كلما نأت شرقًا وغربًا ، وشمالاً وجنوبًا ، وقلّ العنصر العربى بها سادت الأعجمية فيها كما فى السِّنْد ، وخُرَاسان ، والدَّيْلَم والكَرَجْ : و بلاد النُّوبَة ، وجنوب بلاد البَرْبَر ؛ فقد كانت لغة التخاطب فيها بين أهلها هى اللغة الوطنية لأن العرب كانوا فى هذه النواحى قليلين ، وربما لم يكن بها منهم إلا الحامية والوالى ورجاله ؛ فلغة هؤلاء فيما بينهم هى الفصحى إن لم يكن اعتدى على لسانهم اختلاط سابق ، أوهى لغة الإقليم الذى حضروا منه .

ذكروا أن الرشيد كان إذا خرج إلى خراسان وما وراءها ليتعرّف أحوال الناس اصطحب معه التراجمة حيث لا يعرف اللسان العربىّ .

وباستيلاء بنى بويه على شرق المملكة الإسلامية تقلص ظلّ العرب من هناك ، ونزحوا إلى العراق . فسادت الأعجمية بتلك النواحى لغلبة أهلها ومن بقى من العرب بها اندمجوا فى أهلها ، ونسوا لغتهم ، وقد جرى هذا الحال سريعاً حتى تغير وجه البلاد بما أبداه ملوك الفرس والترك من النشاط فى إحياء لغتهم ، ولولا أنها كانت قد ماتت بطول إهمالها أيام سطوة العرب لأعادوا إليها حياتها ، فقد حاولوا ذلك بنظم الأشعار فيها كما حدث من نظم الشاهنامة التى بدأها الدقيقى شاعر منصور بن نوح من ملوك الدولة السامانية ، ثم أتمها الفردوسى بعده بإشارة السلطان محمود الغزنوى . وقد مرّ المتنبى ببلاد فارس فى طريقه إلى عضد الدولة فراعه ما سمعه من عجمة أهلها ، وذكر ذلك فى قوله :

مَغَانِى الشِّعْبِ طِيباً فى المَغَانِى ... بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
ولٰكِنَّ الْفَتَى العَرَبِىَّ فِيها ... غَرِيبُ الْوَجْهِ والْيَدِ وَاللِّسَانِ

وفى البلاد التى بقيت فيها العربية تضاءلت الفصحى ، وطغت عليها العامية طغياناً

كبيراً حتى لم يبق خاصى أو عامىّ إلا وقد ارتضخ[1] لسانه لُـكْنة ، وتعدّى خطر العامية من التخاطب إلى الـكتابة ؛ فظهر فى كتب العلم ، وفى رسائل الـكتاب أثرها ولم تعد تفيدهم كتب النحو المستوعبة لجميع مسائله ، ولا كتب البلاغة التى كشفت عن أسرار اللغة أتمّ كشف ؛ ذلك بأن اللغة سليقة توهب، قبل أن تكون علماً يدرس .

وباستيلاء المغل ، (وهم لا دين لهم) على بلاد المسلمين ذهبت العربية من بلاد المشرق ، ولم يبق لهـا أثر ولا عين ، حتى إن كتب العلم كانت تكتب بالأعجمية .

أما مصر والشام فلم يبق فيها من العربية إلا ذماء لمكان الدّين داعياً إلى الاستمساك بالعربية وعلومها ، وهكذا نزلت العربية من الأوج إلى الحضيض :

تغيرتِ البلادُ ومَنْ عليها فوجه الأرض مغبرٌّ قبيح

أما فى البادية فإن الفصحى دامت طويلا ، وكانت مستمدّ الرواة ؛ وعلماء اللغة ومرجع النحويين فى أحكام علمهم ، فمن أهل البادية : استمدّ سيبويه والـكسائى ، عوّل الأصمعى فى غريب اللغة ، حتى إنه قضى بين العرب سنين طويلة ، يقيد وأشعارهم . وعنهم أخذ أبو عمرو بن العلاء عامة أخباره .

وإنمـا كان يأخذ هؤلاء العلماء عن عرب سلمت لغتهم ، وهم الذين يسكنون أواسط بلادهم ، ولا يدانون الأعاجم ، فأخذوا أكثر ما أخذوا عن قيس وتميم وأسد ، واتكلوا عليهم فى الغريب والاعراب والتصريف، ثم من هذيل، وبعض كنانة ، وبعض طىّ. ولم يأخذوا من لخم وجذام لمجاورتهم أهل مصر من القبط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرية ، ولا من تغلب والنمر لأنهم كانوا بجزيرة قور أو أقور بين دجلة والفرات مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند

---

(١) يقال هو يرتضخ لسانه لـكنة أعجمية إذا نشأ مع العجم ثم صار إلى العرب فهو ينزع إلى العجم بألفاظ ولو اجتهد والمراد أن لسانه تخالطه العجمة .

والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم ، وقد اختلطوا بغيرهم من الأمم التى فسدت ألسنتهم .

وما زال أهل البادية بخير إلى أواخر القرن الرابع الهجرى . فقد حكى ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ عنهم كثيراً . ولـكن لسانهم كان قد بدا يضطرب ، فكان يأخذ من بعض ويطرح لغة بعض .

كان العلماء يختبرون الأعراب الطارئين عليهم بالحضر ، فإذا رأوهم فهموا اللحن وعلل الإعراب بهرجوهم . فقد ذكروا أن أباعمرو بن العلاء استضعف فصاحة أبى خيرة الأعرابى ، فسأله يوما : كيف تقول ؟ حفرت الإران ، فقال : حفرت إرانا ، فقال له أبو عمرو : الآن لان جلدك . ذلك لأن الإرة الحفرة ، وتجمع على إرين ، فيقال : حفرت إرين .

وروى عن الأصمعى أنه قال : ارتبت بفصاحة أعرابىّ ، فأردت أن أمتحنه ، فصنعت بيتاً وألقيته عليه ، وهو :

كم رأينا من مسحب مسحوت صاد لحم النســـور والعقبان

فأفكر فيه ، ثم قال : ردّ على المسحوب ، ولم يطاوعه لسانه بقول مسحب ، فعلم أبو عمرو أنه لم يلن جلده .

وقال ابن جنى : سألت الشجرى ، وهو أعرابى من عقيل ، ومعه ابن عم له يقال له غصن : كيف تحقران حمراء ، فقالا حميراء ، وواليت من ذلك أحرف ، وهما يجيبان بالصواب حتى قلت علباء ، فقال غصن : عليباء وتبعه الشجرى ، فلما همّ بفتح الباء تراجع كالمذعور وقال عليبىّ .

قال وسألته يوما : كيف تجمع دكانا ؟ فقال دكاكين . قلت : فسرحانا ؟ قال : سراحين . قلت : فعثمانا ؟ قال : عثمانون . قلت : فهلا . قلت عثامين . قال : فأى شىء عثامين ؟ أرأيت إنسانا يتكلم بغير لغته .

ونقل عن أبى حاتم السجستانى قال : قرأ على أعرابىّ بالحرم (طيبى لهم وحسن مآب)

فقلت : طوبى ، فقال : طيبى ، فقلت : طوبى ، فقال : طيبى ، فقلت : طوطو ، فقال : طى طى طى . ونبا طبعه أن ينطق بغير لحن قومه وإن كان غيره أفصح .

وقد قال إسمعيل بن حماد الجوهرى فى خطبة الصحاح : (قد أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندى من هذه اللغة بعد تحصيلها بالعراق رواية ، وإتقانها دراية ، ومشافهتى بها العرب العرباء من ديارهم بالبادية ، وقد توفى الجوهرى سنة ٣٩٣ هـ) .

ومن ذلك الحين بدأت لغة البادية تفسد بالسبب الذى فسد به لسان الحضر ، وهو مداخلة أهلها للأعاجم بالفتن الحادثة، كفتنة القرامطة[١] ، وصاحب الزنج[٢] ، فإن أصحاب هذه الفتن سبق أن جاسوا خلال البادية وخالطوا أهلها ، كذلك كان اختلاط الحاج بالعرب ، وانقطاع حاجة العلماء إلى الرواية عنهم ، واستعجام الدولة ، وغلبة العامية ؛ من أسباب الوهن الذى صار إليه أهل البادية . ولم يثبت أن بقى محافظاً على سلامة لسانه من أهل البادية إلا أهل عكاد ، وهما جبلان فوق مدينة الزرائب ، فقد ذكر ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ أنهم باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة فى مناكحة أو غيرها ، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ، ولايخرجون منه . وبعد الحموى ذكر الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ ، فى قاموسه المحيط فى مادة (ع ك د) ، وكسحاب (عكاد) جبل قرب زبيد أهله باقية « كذا » على اللغة الفصيحة ، وقد زاد شارحه مرتضى الزبيدى المتوفى ١٢٠٥ هـ قوله

---

(١) القرامطة : ظهر فى آخر دولة المعتمد رجل بسواد الكوفة كان يظهر الورع ويدعو إلى امام من أهل البيت فكثر الناس حوله واتفق أن مرض فضمه اليه رجل من أهل القرية يسمى « كرميته » ومعناها بالفارسية أحمر العين وكان الرجل كذلك . ومازال يستغل هذا الداعى ويأخذ من كل من انضم إليه دينارا يقول انه للامام حتى عظم أمره وكان من أتباعه من هم بالعراق والبحرين والشام وقد هددوا الكوفة وسلبوا الحاج وقضوا عليهم فى بعض السنين .

(٢) صاحب الزنج : هو رجل ادعى نسبه من العباس . ودعا الناس بهجر إلى طاعته فاتبعه قوم ثم انتقل إلى البحرين وأحله أهلها محل النبي وجبوا له الخراج ثم تحول بقومه إلى البادية ثم قصد بغداد وجعل يدعو سرا ثم خطرت له فكرة خبيثة وهى أن يستعين بالعبيد وهم عدد كثير ومناهم الحرية فتركوا ضياع أسيادهم وانضموا اليه فعظم أمره .

(إلى الآن) ، ثم قال : ولا يقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفاً على لسانهم .

ويمكن الحكم بأن أهل الجنوب من بلاد العرب — وإن فسد لسانهم كما فسد لسان أهل الشمال — كانوا أقرب إلى الفصاحة ، وأنقى عامية من أهل الشمال لأن الخلاط فيهم أقلّ .

ويحسن أن ننقل هنا ملخصاً لما ورد فى كتاب البشارى المعروف بأحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، فقد وصف فيه ألسنة أقاليم الدولة أيام استيلاء العباسيين عليها ، فقال : عن جزيرة العرب : إن لسان أهلها العربية الفصحى إلا بصحارٍ ، فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية ، وأكثر أهل عدن ، وجدة ، فرس إلا أن اللسان عربى ، وبلاد العراق لغتها عربية ، والذين نزلوا بها من العرب أكثر ممن نزلوا بأى إقليم آخر ، وكذلك قال عن الشام ؛ أما مصر فقد ذكر أن الفاتحين أقاموا بالمدن الكبرى ، وكان أكثر الفلاحين بالقرى أقباطاً ، وفى أواخر العصر الأموى انتقل إليها كثير من قبائل العرب نقل منهم هشام بن عبد الملك كثيراً من قيس ، وأقامهم بالحوف الشرقى (مديرية الشرقية والدقهلية الآن) ، فتغلب على الناس الإسلام واللسان العربى .

وبلاد المغرب لم يكثر بها العنصر العربى ، فكان اللسان البربرى هو الغالب ، أما إقليم المشرق وهو خراسان وما وراء النهر وكذلك ما بعد شمالا كالديلم ، أو جنوباً كفارس وبلاد النُّوبة ، فلم يتغلب اللسان العربى على أهلها : وإن كان الإسلام قد شملهم .

ألفاظ من العامىّ والمولد

ونستطيع أن ننقل إليك بعض ألفاظ من العامية وردت فى ثنايا الكتب التى حاربت العامية ، وأعادت المحرف والمصحف إلى أصله ، وبينت الأصل فيما نقل عن معناه . ودلت على خطأ القياس والصوغ فيما صيغ خطأ ، فمن ذلك اشترّت الدابة ،

وأصله اجترت ، وجواز محرف زواج، وحرار بمعنى بائع الحرير، ورد الباب بمعنى أغلقه ، والطار بمعنى الدفّ ، وفشار بمعنى الهذيان ، وزبون بمعنى حريف ، والزهزهة بمعنى التحسين ، وأصله من قول الفرس زه زه ، والزغرتة أو الزغلطة ، وهى التصويت باللسان بغير حروف ، وعربيتها زغردة ، والمسطول لآكل المخدر ، والست لمعنى السيدة ، وسكينة فى موضع سكين بمعنى مدية ، وشوش بمعنى خلط وهوش ، وهى محرفة عن الأخيرة ، وشحات ، وصوابه شحاذ من شحذ السيف ، إذا صقله شبه به الملح ، وفسقية بمعنى فوارة ، وفلّ لنوع من النور لم يذكره أهل اللغة ، وسماه ابن البيطار النمارق وشاية لثوب قصير ، ومنجد وعربيه نجاد ، ووصول بمعنى بطاقة تعطى لربّ الدّين ، وكأنها مصدر وصل ، والمعنى أن الورقة دالة على وصول المال إلى من أخذت عليه ، والدخان والفوهة ، والصواب التخفيف فى الأوّل والتشديد فى الثانى .

ومن فعل المولدين زيادة ياء فى خطاب المؤنثة بعد تائها ، فيقولون : إنتى ضربتيه ، وقيل هى لغة لربيعة ، ولكنها رديئة ، وكذلك زيادة الباء قبل حرف المضارعة مثل : بيأكل وبيشرب .

ومن المولد ولكنه يترفع بعض الترفع عن العامية . باس بمعنى قبّل . قال الشاعر وقد تلطف :

وقال لما بست راحاته   من ذا فقلت المعدم البائس

وقولهم شخصه بمعنى عين شخصه ، وجرسه بمعنى شهر به ، والماهية والكمية والكيفية والمنصب ، والمجون ، والقصف ؛ وقولهم: مرقوق ، ومملوك ، الأول بمعنى رقيق ، والثانى مخصوص بالرقيق غير الحبشى أو الزنجى .

الخطابة

قد عرفت شأن الخطابة فى عهد الدولة الأموية ، وأنه قد انحطّ بقعود الخلفاء عنها، وعدم احتفالهم بموقفها ، ولكن ينبغى أن تعلم أن ذلك ليس مرجعه إلى نقص الملكة ، وحبسة اللسان ، وكلال الخاطر ، فإن ذلك لايصحّ فى الذهن عن عرب خلص أحاطوا أنفسهم بأسباب الكمال ، وربئوا بها عن مصير أصحاب المكاسب وأهل الأسواق ، وإن كان عبد الملك بن مروان قد قال شيبنى ارتقاء المنابر ، وتوقع اللحن ، فما ذلك إلا لأنه كان يطلب الكمال ، أو يرجو النزاهة المطلقة ، وما كان يشكو تعتعة أو إرتاجا ، أو استعصاء معنى ، أو شرود فكر ، وإنما كان يتألم وهو العربىّ الصميم ، والبدوىّ فى شملته أن يندّ عن حرصه سقطة ، أو تشوب بلاغته لحنة . وما خطب الوليد جالساً إلا لانصراف عرض له عن هذا المظهر بعد أن رأى من مظاهر الأبهة ، ومجالس العظمة ما هو فوق ذاك .

لذلك أظلّ العصر دولة بنى العباس ، وملكة البيان لا تزال موفورة ، وأسلات الألسنة لم يصبها الوهن ، خصوصاً فى الخاصة الذين لا يتدنون إلى منازل السوقة ، ولا ينحطون إلى مخالطتهم ، والعربية لم تكن اضطربت بها الألسنة إلا فى الأسواق ، وأفواه أصحاب المهن ممن يشغله طلب العيش عن نظر فى أدب ، أو استماع لرواية ، أو معاشرة لنابه ، أونشأة عربية خالصة ،وكان أمثال أولئك كثيرين فى بيوت بنى العباس، وبنى هاشم ، وبنى عبد المطلب ، وعظماء القوّاد من العرب ، ونابغى الناشئين من الفرس ، والأدباء من أهل الرواية للشعر والأخبار، والشعراء والكتاب ؛ أما البادية فقد كانت معدن الفصاحة ومجتلى البيان ، يتنزّل على ألسنة أهلها سحر البلاغة ، ويؤاتيهم سلطانها ، وهم (غير مدافعين) خير من أسلافهم فى الجاهلية لما استفادوا من تهذيب الإسلام ، ولما ألانت من ألسنتهم عذوبة القرآن ، وقد كثر من أهل البدو الوفود على

الخلفاء فى استمناح أو شكاية ، فأنت ترى أن أداة الخطابة وملا كها ، وهو القدرة على تصريف القول والاستطاعة لملك الأسماع والقلوب قد استحوذ عليهما رجال هذه الدولة وأعوانهم فى أوّل أمرها ، فلا غرو إذا صارت الخطابة فى مبدإ هذا العصر فى عليين من الفصاحة ، ولا غرو إذا رأيناها تكون فى الخلفاء وذوى قرباهم ، وفى أنصارهم من القواد والولاة ، وفى منافسيهم من آل علىّ ، وفى أعدائهم من الخوارج . ولا غرو إذا امتلأ صدر هــذا العصر بالخطب ، وكانت الثروة بها ، والعدد فيها فوق ما عرف للعصر الجاهلى والأموى مجتمعين ، وإن كان لقرب العهد والعناية بالتدوين أثر فى هــذه الكثرة ، أما بلاغتها وقوّة تأثيرها ، وجزالة لفظها ، فسترى من الأمثلة التى نوردها عليك أنها ليست دون ماعدّ على الأصابع من خطب العهد الأموى ، وأن معين العصرين واحد ، وأن مرجع البيانين إلى سليقة سليمة ، وطبع مطاوع .

وقد عظمت دواعيها فى أوائل هذا العصر وكثرت أسبابها ، فاطرد أتيها وتتابع وابلها ، إذ الدولة فى أوّل عهدها تحتاج إلى تأييد وتثبيت ، وتتطلب تنفيراً من الحكومة السابقة ، ونعياً عليها ، وشنًّا للغارة على مساوئها ، وإثارة لدفين شناعاتها ، فإذا أدمت النظر فى خطب الخلفاء وولاتهم ، رأيت تمثيلا مؤلمًا وتصويراً منكراً ، لاجتراء بنى أمية على حرمات الدّين ، واستهانتهم بحرّية الناس باتخاذهم عبيداً ، وقد خلقهم الله أحرارًا ، ورأيت بكاء على حال الشعوب التى حكمها الأمويون ، وإشفاقاً على ما كانوا فيه ، ثم رأيت فتحاً لأبواب الأمل فى أن يعوض هؤلاء البائسون من شقائهم نعياً ، ومن ظلمهم عدلاً ، ومن الاستهانة بهم اعتداداً وإكرامًا ، وسمعت أن أهل البلاد صاروا إلى من قلقت مضاجعهم من أجلهم ، وأوذيت نفوسهم لما لحقهم ، وأنهم ما ثاروا إلا إشــفاقاً عليهم ، ولا طلبوا الخلافة إلا ليردّوا الحقوق إلى أصحابها ، وأنهم ماخرجوا ليحفروا نهراً . ولا ليقتنوا جوهراً ، وإنما أخرجهم الغضب للظلم ، والرثاء للمنكوبين .

يردّد هذه المعانى الخلفاء وعمالهم ، حتى يطمئن القوم إلى عدالتهم ، ولايتعلق قلب بمن دالت دولتهم ، فيكون ذلك ثباتاً للدولة ، وتوطيدا لدعائمها .

كذلك تسمع رَدًّا على المنافسين ، وإدحاضاً لحججهم ، وتسفيهاً لرأيهم ، ثم تسمع تهديداً ووعيداً للخارجين على الدولة الناقضين لبيعتها المعتدين على سلطانها ، كما تسمع فى هذه الخطب شكراً للأعوان ، واعترافا بجميل ما أتوا واستعداداً لمكافأتهم ، وأنهم الإخوان الذين لا تنحلّ مودّتهم ، ولا تنسى مكانتهم ، وذلك ليطمئن أنصار الدولة ، ومن ساعدوها بالسيف وأعانوها على الملك ، وليعرفوا أنهم غير مجحود حقهم ، ولا منسى فضلهم ، وفى ذلك أمن لانتقاض أمرهم والشغب منهم . يكسو كلّ هذه الخطب تواضع لله وذلّ لوجهه ، والتماس لرضاه ، وعمل على طاعته ، وحمد لنعمته ، وتحذير من سطوته ، وتأميل لجنته ، وذلك ليكون لعامة الشعب اطمئنان إلى هؤلاء الورعين المتقين لربهم بعد أولئك الفجرة المستهترين بدينهم وشعبهم .

ومن أجل المحافظة على أن يكون شعار الدولة الدين والعمل لإعزازه حرص الخلفاء من هذه الدولة أن يؤموا الناس فى الصلوات الجامعة كالجمعة والعيدين ، فكانوا يخرجون فى أبهتهم ، وعليهم بردة النبيّ ، ويخطبون فيهم بين هيبة وخشوع ، فيترك ذلك المنظر فى النفوس آثارا جمة جماعها الحبّ لهؤلاء الخلفاء والثقة بدينهم ، والهيبة لسلطانهم ، وقد وصف البحترى خروج المتوكل للصلاة يوم الفطر ، فأبدع فى التصوير ما شاء له طبعه العربى السليم :

بالبرِّ صمتَ وأنتَ أفضلُ صائم ... وبسنةِ اللهِ الرضيةِ تُفْطِرُ
فانْعَمْ بيوم الفطرِ عَيناً إنّه ... يومٌ أغرُّ من الزمان مُشَهَّرُ
أظهرْتَ عِزَّ الملكِ فيه بجَحْفَلٍ ... لجِبٍ يُحَاطُ الدينُ فيه ويُنْصَرُ
خِلْنا الجبالَ تسيرُ فيه وقد غدَتْ ... عُدَدًا يسير بها العَديدُ الأكثرُ
فالخيلُ تَصْهَلُ والفوارسُ تَدَّعِي ... والبيضُ تَلْمَعُ والأسنةُ تَزْهَرُ(١)
والأرضُ خاشعةٌ تَميدُ بثِقْلِها ... والجَوُّ مُعْتَكِرُ الجَوَانبِ أغْبَرُ
والشمسُ ماتِعَةٌ تَوَقَّدُ فى الضُّحَى ... طَوْرًا ويُطْفِئُها العَجَاجُ الأكْدَرُ

---

(١) زهر (كمنع) : السراج والقمر والوجه زهوراً : تلألأ .

حتّى طلَعْتَ بضَوْءِ وجهك فانْجلَتْ ... تلك الدُّجَى وانْجَابَ ذَاكَ العِثْيَرُ
وافْتَنَّ فيك الناظرون فإِصْبَعٌ ... يُومَا إليك بها وَعَيْنٌ تَنْظُرُ
يَجِدُونَ رؤيتَكَ الَّتِي فازوا بها ... من أَنْعُمِ اللهِ التى لا تُكْفَرُ
ذَكَرُوا بطَلْعَتِكَ النبيَّ فهَلَّلُوا ... لما طَلَعْتَ من الصُّفوفِ وَكَبَّرُوا(١)
حتى انتهيتَ إلى المُصَلَّى لابسًا ... نُورَ الهدى يبدو عليك وَيَظْهَرُ
وَمَشَيْتَ مِشْيَةَ خاشعٍ متواضعٍ ... لله لا يُزْهَى ولا يتكبَّرُ(٢)
فلو أَنَّ مشتاقًا تَكَلَّفَ فوق ما ... فى وُسْعِهِ لَسَعَى إليك المِنْبَرُ
أَبْدَيْتَ من فَصْلِ الخِطَابِ بحكمةٍ ... تُنْبِى عن الحقِّ المُنِيرِ وتُخْبِرُ
وَوَقَفْتَ فى بُرْدِ النبيِّ مُذَكِّرًا ... بالله تُنْذِرُ تارَةً وتُبَشِّرُ
ومَوَاعِظٍ شَفَتِ الصُّدُورَ منَ الَّذِي ... يَعْتَادُها وشِفَاؤُها مُتَعَذِّرُ
حتَّى لقد عَلِمَ الجَهُولُ وَأَخْلَصَتْ ... نفْسُ المُرَوِّى واهتَدَى المُتَحَيِّرُ(٣)
صَلَّوا وَرَاءَكَ آخِذِينَ بِعِصْمَةٍ ... من رَبِّهِمْ وَبِذِمَّةٍ لَا تُخْفَرُ(٤)

وقد شاع فى هذا العصر القص والوعظ والتذكير بالآخرة والتخويف من عقابها ، وذلك لما دعت إليه ضرورة الاجتماع من إفراط فى مطاوعة النفس واطراح لأوامر الدين ، وارتكاب للموبقات ، فاحتاج الاجتماع إلى تذكير بالدين ، وإرشاد لسبله ، وحثّ على التمسك بأهدابه ، وقد كثر الوعظ والوعاظ ، وامتلأت المساجد بهم ،

(١) هلل : قال لا إله إلا الله .

(٢) زهى (بالبناء للمفعول) : تكبر وتاه وفخر . وقد استعمل الفعل قليلا (كدعا) مبنياً للمعلوم .

(٣) المروى : صاحب الروية والفكر ، وفى هذا البيت تقسيم حسن استوفى أقسام الناس بازاء ما تحوم فيه الشبهة فهم إما جاهل يحتاج إلى علم وإما مفكر يحتاج إلى برهان يتمّ به يقينه ، فتخلص نفسه فى اعتقادها ، وإما متحير ليس بجاهل مطلق ولا مرو تامّ الروية ، فهو بالإرشاد يستقيم على الطريقة .

(٤) خفر العهد (كضرب وقعد) خفارة : حفظه ، وكقعد فقط خفوراً : نقضه .

واختاج إليهم الخلفاء فى قصورهم ، فبكوا من أقوالهم . وأخبار هذا الوعظ مستفيضة فى كتب الأدب حتى لقد أفرد لها الجاحظ كتابًا فى كتابه : البيان والتبيين سماه : (كتاب الزهد) ، وأبوابا أخرى للنساك وأقوالهم .

ولا شكّ أن الوعظ من مواقف الخطابة له كلّ مظاهرها من الارتجال والمشافهة ، وقوّة التأثير والحرص على سلامة التعبير ، فهو نوع طغى على كلّ أنواع الخطابة ، واستمرّ بعد زوال كثير منها .

قال الجاحظ : ومن القصاص موسى بن سيَّار الأُسْوَارِىّ (وقد مرّ بك فى المذكرة شىء عنه عند الكلام على من حَذَق اللغتين العربية والفارسية) وأبو علىّ الاسْوارِىّ . وقد ذكر الجاحظ أنه ربما كان يفسر الآية من القرآن فى عدة أسابيع ، وكان يقص فى فنون كثيرة من القصص ، ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك . قال : وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتجّ به . ثم قصّ بعده أبو العباس الضَّرِير ولم يُدْرَكْ فى القُصّاص مثلُه ، وصالح المُرِّى ، ويكنى أبا بِشْر ، كان صحيح الكلام رقيق المجلس ، وقد قال فيه سفيان بن حَبِيب حين رأى بيانًا لم يحتسبه ومذهباً لم يكن يدانيه قال (هذا ليس قاصا هذا نذير) .

⁂

ثم قلت الدواعى إلى الخطابة فضعف شأنها بعد المائة الأولى من عمر هذه الدولة ، وذلك لأن الدولة كانت قد توطدت دعائمها ، فاستغنت عن الترهيب والترغيب . وبطلت الخطابة فى الجيوش ، « وأكثر ما تكون فيهم » لأن الجند صاروا أعاجم لا يفقهون العربية ، ولا يتأثرون ببلاغتها . على أن نظام الجيش وحسن ضبطه انتفت معه الحاجة إلى الإثارة والتهييج ، وصار العمل للحيلة والمكيدة بعد أن كان شَنُّ الغارات أكثرَ عَمَلِ الماضين ، وإذا عرفت ما صارت إليه الأمة تحت حكم البُوَيْهِيّين ثم السَّلْجُوقِيّين : من قهر ، وذلٍّ وحكم بالسيف ، وقتلٍ للحرية ، علمت أن الخطابة فقدت أهم آلاتها وهى حرية القول ، كذلك صار فى الكتابة ، وقد

تنوّعت أساليبها وتعدّدت أغراضها غنى عن الخطابة ، فإن الدواوين كان يصدر منها الإنذارُ للعصاة ، والإرهابُ للمتمردين ، والشكرُ للأعوان ، والتأميلُ للمسالمين ، كما كانت تصدر منها المنشورات فى تبليغ بفتح أو حثّ على قتال ، فلم يبق موضع للسان إلا ناب فيه القلم وأحسنَ البلاء ، وقد ذكر الثعالبى أن بَلْكَا الدّيلمىَّ عصى ركن الدولة ابن بويه فكتب إليه ابن العميد كتابا « سنذكره فى نماذج الكتابة » فعاد إلى الطاعة وقال : والله لقد كتب إلىّ كتابا ناب عن الكتائب فى استصلاحى وعَرْكِ أديمى وردى إلى طاعة صاحبى» .

بطلت كل هذه الدواعى للخطابة ، و بطل معها أعظم معين عليها وهو قوة البيان حين صارت اللغة إلى الضعف فاجتمع على الخطابة كل أسباب الموت فماتت ؛ وكان قد بقى لها مظهرها الدينى ؛ وهو خروج الخلفاء للصلوات الجامعة ، فرأى الحكام المستبدون بالدولة أن هذا المظهر يشد أزر الخليفة ؛ ويذكّر الناس به ، وفى ذلك إضعاف لهم واعتداء على سيطرتهم، فمنعوا الخلفاء من الخروج إلى هذه الصلوات، ووكلوا ذلك إلى غيرهم من أدباء العلماء ، وكان آخر خليفة خطب على منبر هو الراضى المتوفى سنة ٣٢٩ ﻫ كما كان آخرَ خليفة له شعر مدوّن ، وآخرَ خليفة جالس العلماء ، وآخرَ خليفة كان نظام ملكه و بيته على نظام الخلفاء السابقين .

ولئن كانت الخطابة قد ماتت على منابر المساجد ووَسَطَ الجموع الحاشدة . وعلى ألسنة الخلفاء والقوّاد والولاة ، لقد حَيِيَتْ فى مجالس المناظرة والجدل على ألسنة علماء المتكلمين والفقهاء ، و بقى لهذا الموقف خطره من اهتمام به وحرص على بلاغة القول فيه إلى آخر أيام البويهيين .

أما الخطابة وقد قصرت على مواقفها الدينية فقد وُكِلَتْ إلى العلماء يقومون بها فى المساجد الجامعة فى بغداد ودمشق وحلب والقاهرة ؛ وصارت إلى من دونهم فى غيرها . وكان الخطيب من هؤلاء الأجلاّء يخطب لا مُبْتَدِهاً للقول ، ولا مستأنفا له بل يلقيه بعد أن حبره وأعمل فيه رويته ، وإن كان يأنف أن يلقيه من ورقة فقد جمع

أطرافه وأعد عباراته . ثم صاروا إلى العجز عن ذلك والاضطرار إلى النظر فى الورقة ولكنها بعد من إنشائهم وما جرت به أقلامهم ، ثم صاروا إلى الضعف وسقوط الهمة فلم يأنفوا أن يخطبوا بكلام غيرهم المهيأ لهذه الأيام من السنة فصار الناس يسمعون فى رجبٍ وشعبانَ ورمضانَ وأيامِ الحج خطباً معينة تناسب هذه الأزمنة . ولما فات الخطباءَ التأثيرُ بقوة البلاغة عَمَدُوا إلى التهويل ، والتجئوا إلى الأحاديث الموضوعة فى فضائل الأيام وثواب الأعمال ، وجزاء العصيان .

وقد شاع فى خطب الجمعة والعيدين ذلك السجع الذى شمل كلّ قول بعد المدة الأولى من عصور هذه الدولة حتى لقد روى عن بعض رجال المالكية أنه يرى اشتراط كون خطبة الجمعة مسجوعة . ولا أدرى من أين جاءه هذا ! وخطب رسول الله وجميع الخلفاء بريئة من السجع إلا ماجاء عفوًا ، ولعلّ شيوع السجع فى أيامه جعله يرى هذا الرأى .

وفى أواخر عهد الدولة نشأ للخطابة رواجٌ وجَدَّتْ لها مواقف فانتعشت فيها على قدر ما يسمح به الزمن ، وتُساعدُ عليه المقدرة وذلك أن إغارة الصليبيين على مصر والشام دعت إلى جمع الجيوش لمقاومتهم ، وإلى التحريض على لقائهم ، والحذر من فتنتهم ، والعمل على ردّ كيدهم للدين ، فكثر الخطباء ، ورددوا هذه المعانى ، ولكن لغة هذه الخطابة تمثل فيها جُهْدُ المُقِلِّ ، لمصير الأدب واللغة إلى الوهن والاضمحلال .

خطباء العصر العباسى

من خطباء هذا العصر خلفاؤه كأبى العباس السَّفّاح والمنصور ، والمهدى والرشيد والأمين والمأمون وآل بيتهم ، ومنهم داود بن علىّ وأخواه عبد الله وصالح وأبناؤه عبد الملك وإسماعيل وعبد الله ، ثم أخو داود بن علىّ وهو سليمان وابنه جعفر وبنوه

سليمان وداود وأيوب ، وقد قال الجاحظ فى شأن خطباء بنى العباس[1] : « وجماعة من ولد العباس فى عصر واحد لم يكن لهم نظراء فى أصالة الرأى وفى الكمال والجلالة وفى العلم بقريش والدولة وبرجال الدعوة مع البيان العجيب والغور البعيد والنفوس الشريفة والأقدار الرفيعة ؛ وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار وكانوا يجلون عن هذه الأسماء إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك» .

ومن خطباء بنى هاشم من العلويين عبد الله بن الحسن بن حسن بن علىّ وأبناؤه محمد الملقب بالنفس الزكية وإبراهيم ، وقد خرجا على المنصور وأخوهما موسى ابن عبد الله ، ثم جعفر الصادق بن محمد بن علىّ بن الحسين ، والعباس بن الحسين ابن عبد الله بن عباس بن علىّ بن أبى طالب .

ومن خطباء الطالبيين : عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ؛ ومن الخطباء من غير بيت الخلافة : جعفر البرمكى ، والفضل بن سهل ، والحسن أخوه ، وطاهر بن الحسين وابنه عبد الله ، وسهل بن هارون (خازن بيت الحكمة للمأمون) ، وبشار الشاعر وخالد بن صفوان وشَبِيب بن شَيْبَة ، ومحمد الأحول بن خاقان خطيب بنى تميم . قال الجاحظ : لقد رأيته وسمعت كلامه .

ومن خطباء المساجد بعد العهد الأول: الخطيب أبو يحيى بن نُباتة الحُذاقى[2] خطيب سيف الدولة بحلب وهو صاحب ديوان الخطب المشهور المطبوع ببيروت ، وتوفى سنة ٣٧٤ ﻫ ، والخطيب البغدادى صاحب كتاب (تاريخ بغداد) توفى سنة ٤٦٣ ﻫ ، وزكى الدين الدمشقى خطيب أوّل جمعة صليت ببيت المقدس بعد استعادته من الصليبيين سنة ٥٦٤ ﻫ ، وخطيب جامع الفسطاط إبراهيم بن منصور المعروف بالعراقى المتوفى سنة ٦١٣ ﻫ ، وخطيب الرى ، وهو والد الفخر الرازى المتوفى سنة ٥١٢ ﻫ .

---

(١) البيان والتبيين ج ١ باب أسماء الخطباء والبلغاء ... الخ ،

(٢) كان خطيب حلب اجتمع فيها مع المتنبى فى خدمة سيف الدولة ، وهو من أهل ميافارقين . ومن هنا جاءت نسبته (الفارق) ، والحذاقى نسبة إلى حذاقة ، وهى بطن من قضاعة . ونباتة بضمّ النون كما ضبطه ابن خلكان ، ومات أبو يحيى هذا سنة ٣٧٤ ﻫ ببلدته ميافارقين، ودفن بها ، وهى بلدة من ديار بكر .

نماذج من خطب الخلفاء والولاة

« ١ »

صعد أبو العباس السفاح منبر الكوفة يوم الجمعة حين بويع له بالخلافة فى أعلاه وصعد داود بن علىّ فقام دونه . ثم خطب أبو العباس فقال :

الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه وكرّمه وشرّفه وعظّمه ، واختاره لنا فأيّده بنا . وجعلنا أهله وكَهْفه وحِصْنَه والقُوّام به والذّابين عنه والناصرين له ، فألزَمَنا كلمة التقوى وجعلنا أحقّ بها وأهلها ، وخَصَّنا برَحِم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقرابته وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته ، واشتقنا من نَبْعته ، جعله من أنفسنا ، عزيزا عليه ما عَنِتْنَا[١] ، حريصاً علينا بالمؤمنين رءوفا رحيما ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابا يُتْلَى عليهم ، فقال تبارك وتعالى فيما أَنْزَلَ من مُحْكَم آياته : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » ، وقال تعالى : « قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى » ، وقال : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ » ، وقال : « مَاأَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى » ، وقال : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ[٢] » ،

---

(١) العنت : دخول المشقة على الإنسان ، وعنته كأعنته : شدّد عليه وألزمه ما يكره .

(٢) كان خمس الغنيمة على أيام رسول الله يقسم خمسة أقسام : قسم لله ورسوله ، وقسم لذوى القربى ، وثلاثة لليتامى والمساكين وأبناء السبيل . فلما مات رسول الله أسقط أبو بكر وعمر وعثمان سهمى رسول الله وذوى القربى ، وقسموا على ثلاثة فقط ، واتفقوا على جعل سهم رسول الله فى السلاح والكراع . وعن ابن عباس : أن عمر عرض على ذوى القربى أن يزوّج من سهمهم =

فأعلمهم جلّ ثناؤه فَضْلَنَا ، وأوجب عليهم حَقَّنا ومودَّتَنَا ، وأجزل من الْفَيْءِ والغنيمة نصيبنا تكرمةً لنا وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم .

وزعمت الشاميةُ الضُّلَّالُ أَنْ غيرَنا أحقّ بالرياسةِ والخلافةِ مِنَّا ، فَشَاهَتْ[1] وجوههم ، وَلِمَ أيها الناس ؟ وبنا هَدَى اللهُ الناسَ بعد ضلالتهم ، وبصَّرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هَلَكَتِهِمْ ، وأظهرَ بنا الحقَّ ، وأَدْحَضَ الباطلَ ، وأصلحَ بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخَسِيسةَ[2] ، وتمم بنا النقيصةَ ، وجمع الفِرَقَ حتى عاد الناسُ بعد العَدَاوةِ أهلَ التعاطفِ والبرِّ والمواساةِ فى دُنْياهم ، وإخواناً على سُرُرٍ متقابلين فى آخرتهم ، فتح الله ذلك مِنَّةً ومِنْحَةً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلما قبضه الله إليه وقام إليه بالأمر مِنْ بَعْدِهِ أصحابُه ، وأمْرُهم شورى بينهم ، حَوَوْا مواريث الأمم ، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعَها ، وأعطوها أهلَها ، وخرجوا خِماصاً[3] منها ، ثم وَثَبَ بنو حَرْبٍ وبنو مروان فابتزُّوها[4] وتَدَاوَلُوها بينهم ، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلَها ، فأَمْلَى اللهُ لهم حيناً حتى آسفوه[5] ، فلما آسفوه انتقمَ منهم بأيدينا ، وردَّ علينا حقنا ، وتدارك بنا أُمَّتَنا ، ووَلِيَ نَصْرَنا والقيام بأمرنا ليمُنّ بنا على الذين استضعفوا فى

= أعمهم ، ويقضى عن غرمهم ، فأبوا إلا أن يسلمه إليهم فلم يفعل ، وجرى على عمله سلفه ، وإن كان رأيه أن هؤلاء يستحقون سهمهم . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه بعث سهمى رسول الله وذوى قرباه إلى بنى هاشم . وأبو حنيفة يرى أن سهم رسول الله يصرف فيما صرفه الخلفاء الراشدون . والشافعى يرى أن سهم رسول الله يصرف فى مصالح المسلمين ، وسهم ذوى القربى يعطى لبنى هاشم وعبد المطلب .

(١) شاه يشوه شوها وشوهة : قبح .

(٢) يقال رفع فلان من خسيسة فلان: إذا فعل به فعلا يكون فيه رفعته .

(٣) خمصه (كنصر) الجوع ، وخمص (مثلثاً) بطنه . والرجل خمصان بالتحريك ، والمرأة خمصانة بضم فسكون ، والرجال خماص ، والنساء خمائص .

(٤) الابتزاز كالبز : أخذ الشىء بجفاء وقهر .

(٥) الأسف : أشدّ الحزن والغضب . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام وقد سئل عن موت الفجاءة فقال : راحة للمؤمن وأخذة أسف للكافر : أى غضب .

الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ، وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجورُ من حيث جاءكم الخير ، ولا الفسادُ من حيث جاءكم الصلاحُ ، وما توفيقنا أهلَ البيتِ إلا بالله . يأهل الكوفة أنتم محلّ محبتنا ، ومنزلُ مودّتنا ، أنتم الذين لم تتغيَّروا عن ذلك ولم يثْنِكم عنه تحاملُ أهلِ الْجَوْرِ عليكم حتى أدركتم زمانَنا ، وأتاكم اللهُ بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمُهم علينا ، وقد زِدْتُكُمْ فى أَعْطِيَاتِكم مائة درهم ، فاستعدّوا فأنا السفاح المبيح ، والثائر المبير[1] .

« ٢ »

وكان موعوكاً ، فاشتدّ عليه الوَعْث[2] ، فجلس على المنبر وقام عمه داود على مراقى المنبر ، فخطب فقال :

الحمد لله شكراً شكراً . الذى أهلَكَ عدوَّنا . وأصار إلينا ميراثَنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . أيها الناس : الآن اقْشَعَتْ[3] حَنادِس الدنيا ، وانكشفَ غِطاؤها ، وأشرقتْ أرضُها وسماؤها ، وطلعتِ الشمسُ من مَطْلَعِها ، وبَزَغَ القمرُ من مَبْزَغه ، وأخذ القوسَ باريها ، وعاد السَّهْمُ إلى النَّزَعَة[4] ، ورجع الحقّ إلى نِصَابه فى أهل بيت نبيّكم أهلِ الرأفةِ ، والرحمةِ بكم ، والعطفِ عليكم . أيها الناس : إنَّا والله ما خرجنا فى طلب هذا الأمر لنُكْثِرَ لُجَيْناً ولا عِقْياناً[5] ، ولا نَحْفِرَ نهراً ، ولا نبنىَ

(١) المبير : المهلك . وفى رواية المنيح ، أى الذى يجعل الناس ينوحون على قتلاهم .

(٢) الوعك : أذى الحمى ، وألم من شدّة النصب .

(٣) قشعت الريح السحاب : فرقته فانقشع وتقشع وأقشع . الحندس : الليل المظلم أو الظلمة ، وتحندس الليل : أظلم .

(٤) صار الأمر إلى النزعة : أى قام بالأمر أهله كما يقال أيضاً عاد السهم إلى النزعة . والنزعة : جمع نازع وهو الرامى . ويقال عاد الأمر على النزعة أى عادت عاقبة الظلم على الظالم .

(٥) اللجين الفضة . العقيان الذهب الخالص . قيل هو مما ينبت نباتا وليس مما يحصل من الصخر والمراد من نباته أنه يوجد كتلا غير مختلط بالصخر، قال الشاعر :

كل قوم صيغة من فضة وبنو العباس عقيان الذهب

قصراً ، وإنما أخرجتْنَا الأنفةُ من ابتزازهم حقنا ، والغضبُ لبنى عَمِّنا ، وما كَرَثَنَا[١] من أموركم ، وبَهَظها[٢] من شئونكم ، ولقد كانت أموركم تُرْمِضُنا[٣] ونحن على فُرُشنا، ويشتدّ علينا سُوءُ سيرةِ بنى أمية فيكم ، وخُرْقُهُمْ بكُمْ ، واستذلالُهم لكم ، واستئثارُهم بِفَيْئِكم وصدقاتِكم ومغانِمكم عليكم . لكم ذمةُ الله تبارك وتعالى، وذمةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وذمةُ العباس رحمه الله ، أن نَحْكُم فيكم بما أنزل الله، ونَعْمَل فيكم بكتاب الله ونَسيرَ فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم . تَبًّا تَبًّا لبنى حرب ابن أمية و بنى مروان، آثروا فى مدتهم وعصرهم العاجلةَ على الآجلةِ ، والدارَ الفانيةَ على الدارِ الباقيةِ ؛ فركبوا الآثامَ ، وظلموا الأنامَ ، وانتهكوا المحارم ، وغَشُوا الجرائم ، وجاروا فى سِيرتِهم فى العباد ، وسُنَّتِهم فى البلاد التى بها استلذّوا تَسَرْبُلَ الأوزارِ ، وتَجَلْبُبَ الآصار ، ومَرِحوا[٤] فى أعنة المعاصى ، ورَكَضُوا فى ميادين الغَىِّ جهلا باستدراج الله ، وأَمْنًا لمكر الله . فأتاهم بأسُ[٥] الله بَيَاتاً وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث[٦] ، ومُزِّقُوا كلَّ مُمَزَّق . فبُعْدًا للقوم الظالمين ، وأَدَالَنا[٧] الله من مروان ، وقد غَرَّه بالله الغَرُورُ . ما أُرْسِلَ لعدوّ الله فى عِنانه حتى عَثَر فى فَضْلِ خِطَامِه[٨] ، فظنّ عدوّ الله أن لن نَقْدِر عليه ، فنادى حِزْبَه ، وجمع مَكَايِدَه ، ورمى بكتائبه ، فوَجَد أمامه ووراءه ، وعن يمينه

---

(١) كرثه الهم (كنصر وضرب) : اشتد عليه كأكرثه.

(٢) بهظه الأمر (كمنع) : ثقل عليه .

(٣) أرمضه الأمر : أوجعه ، والرمض (بالتحريك) : شدة وقع الشمس .

(٤) مرح (كفرح) : بطر و نشط واختال وتبختر.

(٥) البأس: العذاب.

(٦) الحديث: الخبر قليله وكثيره، وجمعه على أحاديث شاذ كقطيع وأقاطيع . قال الفراء: أرى أن جمع الأحدوثة أحاديث ثم جعلوه جمعا لحديث .

(٧) الدولة — (بالضم) : انقلاب الزمان ، والجمع دول مثلثة، ودالت عليهم ولهم: ضد . وأدال الله لنا عليهم ومنهم : جعل الفوز لنا عليهم .

(٨) الخطام (ككتاب) : كل ماوضع فى أنف البعير ليقتاد به .

وشماله مِنْ مَكرِ الله وبَأسِه ونِقْمَتِه ما أمات باطله ، ومَحَقَ ضَلاَلَه ، وجعل دائرةَ السوءِ به ، وأحيا شَرَفَنا وعِزَّنَا ، ورَدَّ علينا حقنا وإرْثَنَا . أيها الناس : إن أميرالمؤمنين نصره الله نصرًا عزيزًا ، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة أنَّهُ كره أن يَخْلِط بكلام الجمعة غيره ، وأدعو الله لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عدوِّ الرحمن ، وخليفةِ الشيطان . المُتَّبِعِ للسَّفْلة[1] الذين أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها بإبدال الدين ، واتهاكِ حريم المسلمين: الشابَّ المكتهلَ المُتَمَهِّلَ ، المقتدىَ بِسَلَفِه الأبرارِ الأخيارِ الذين أصلحوا فى الأرض بعد فسادها بمعالم الهُدَى ومناهج التَّقْوى. (فعَجَّ الناسُ له بالدعاء) .

ثم قال: يأهل الكوفة، إنّا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعَتَنا أهلَ خراسان فأَحْيَا بِهِمْ حقَّنَا ، وأفلجَ بهم[2] حُجَّتَنَا ، وأظهر بهم دَوْلتنا ، وأراكم الله بهم مالستم تنتظرون . وإليه تتشوَّقون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، وَبيَّض به وجوهكم ، وأَدَالَكُمْ على أهل الشام ، ونَقَلَ إليكم السلطانَ ، وعِزَّ الإسلام ، ومَنَّ عليكم بإمام مَنَحَه العدالةَ ، وأعطاه حُسْنَ الإيالةِ[3] ، فخُذُوا ما آتاكم اللهُ بشكرٍ والزموا طاعتَنَا ؛ ولا تَخْدَعُنَّ أنفسكم ، فإنَّ الأمرَ أمرُكم ، فإنّ لكلِّ أهل بيتٍ مِصْراً وإنكم مِصْرُنا ، ألاَ وإنَّهُ ما صَعِد منبركم هذا خليفةٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبى طالب ، وأميرُ المؤمنين عبدُ الله بن محمدٍ ، (وأشار بيده إلى أبى العباس) ، فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارجٍ منا حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم ، والحمدُ للهِ رب العالمين على ما أَبْلانا[4] وأَوْلانا .

ثم نزل أبو العباس ، وداود بن علىّ أَمامَهُ حتى دخل القَصْرَ .

---

(١) السفلة (بالكسر وكفرحة) : غوغاء الناس .

(٢) الفلج : الظفر وفلج (كنصر) على خصمه : فاز وأفلجه الله .

(٣) آل الملك رعيته إيالا : ساسهم . وآل على القوم أولا وإيالا وإيالة : تولى عليهم .

(٤) أبلاه : صنع به حسنا أو سيئا ، والكلام هنا صالح للمعنيين .

« ٣ »

وخطب أبو العباس بالشام بعد مقتل مروان بن محمد فقال :

«ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً[١]، وأحلوا قومهم دار البَوَار جهنم يَصْلَوْنَها وبئس القرارُ » ، نَكَصَ[٢] بكم يأهلَ الشام آلُ حربٍ وآلُ مروان يَتَسَكَّعُون[٣] بكم فى الظُّلَم ، ويَتَهَوَّرون بكم فى مداحض الزَّلَق ، يطئون به حُرَمَ اللهِ وحُرَم رسوله . ماذا يقول زعماؤكم غدا ؟ يقولون : رَبَّنَا هٰؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفاً مِنَ النَّارِ[٤]». إذًا يقول الله عزّ وجلّ : « لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ » .

أما أمير المؤمنين فقد ائْتَنَفَ بكم التوبة ، واغتفر لكم الزَّلَّة ، وبَسَط لكم الإقالة[٥] وعاد بفضله على نَقْصِكم ، وبحلمه على جهلكم . فَلْيُفْرِخْ رُوعُكم[٦] ، ولتَطْمَئِنَّ بكم دارُكم ، ولْتَعِظْكُمْ مصارعُ أولئكُمْ ، فتلك بُيُوتُهُمْ خاويةً بما ظَلَموا » .

« ٤ »

وخطب سليمان[٧] بن علىّ عمّ أبى العباس ، فقال :

---

(١) أى بدلوا شكر نعمته كفرا . والاشارة إلى كفار قريش . وعن عمر أنهم الأفجران من قريش بنو المغيرة ، وبنو أمية . فأما بنو المغيرة فقد لقيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فتعوا إلى حين .

(٢) نكس على عقبيه : رجع عن الخير ، أو عامّ (بابه نصر وضرب) .

(٣) التسكع والسكع : المشى على غير هدى والتمادى فى الباطل .

(٤) عذابا ضعفا : أى مضاعفا ، والضعف : المثل فى الأصل ، ثم استعمل فى المثل وما زاد عليه ، والزيادة لا حد لها .

(٥) الإقالة : الإعفاء . ويقال استقاله العثرة: أى طلب أن يقيله منها ويعفيه .

(٦) يقال أفرخ روعه : أى خلا قلبه من الهم كما تفرخ البيضة بأن يخرج منها فرخها فتخلو . وعلى هذا يكون معنى أفرخ خلا ، ومعنى الروع القلب . أما قولهم: أفرخ روعه بفتح الراء من روع فالروع هنا الخوف فوجهه أن يشبه الروع بالبيضة وما يتوقع منه بالفرخ داخلها فاذا أفرخ الروع فقد خلا مما كان يتوقع منه وزال مافيه من ضرر .

(٧) ولاه السفاح البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان سنة ١٣٣ هـ ومات سليمان سنة ١٤٢ فى خلافة المنصور .

«وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ(١) مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ. إِنَّ فِي هٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ» قضاء مُبْرَمٌ، وقَوْلٌ فَصْلٌ، وما هو بالهَزْل. الحمد لله الذى صدق عَبْدَه، وأنجز وعده، و بُعْدًا للقوم الظالمين، الذين اتخذوا الكعبة غَرَضاً(٢)، والفَىء إرْثاً، والدِّين هُزُوًا، وجعلوا القرآن عِضِين(٣)، ولقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون، فكأَيِّنْ ترى من بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وقَصْرٍ مَشِيدٍ(٤)، ذلك بما قدّمتْ أيديكم، وأنَّ الله ليس بظلام للعبيد، أُمْهِلُوا والله حتى نَبَذُوا الكتابَ، واضطهدوا العِتْرَةَ، ونَبَذُوا السُّنَّةَ، واعتدوا واسْتَكْبروا، وخاب كُلُّ جبّارٍ عنيد، ثم أخذهم فـ«هل تُحِسُّ منهم من أحد أو تَسْمَعُ لهم رِكْزاً».

« ٥ »

وخطب أبو جعفر المنصور يوم جمعة فقال:

« أحمد الله حَمْدَه وأستعينهُ، وأتَوَكَّلُ عليه، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أيها الناس: اتَّقُوا اللهَ — فقام إليه رجل. فقال: أُذَكِّرُكَ من ذَكَّرْتَنا به وأنت

---

(١) الزبور: كتاب داود عليه السلام. والذكر: التوراة.

(٢) إشارة إلى مانال الكعبة من بنى أمية فقد وجه عبد الملك فى سنة ٧٢ هـ جيشا لمحاربة ابن الزبير بمكة وجعل عليه الحجاج بن يوسف فحاصر مكة ورمى الكعبة بالمنجنيق حتى قتل الزبير سنة ٧٣ وفى سنة ٧٤ هدم الحجاج الكعبة وأعاد بناءها.

(٣) العضة: الفرقة، وجمعها عضون والعضه (بالهاء): الكذب وجمعه عضون أيضا، فمعنى جعلوا القرآن عضين: جعلوه أجزاء فقال بعضهم إنه شعر، وقال آخرون هوسحر وقال غيرهم كهانة وقيل جعلوه كذبا، وهذا على أن عضين جمع عضه (بالهاء).

(٤) المشيد: المطلى بالشيد وهو الجص، والمشيد (كمكرم): المطول. وفى تفسير النسفى المشيد أيضا المطلى وليس فى كتب اللغة مايؤيده. وفى اللسان شاد البناء: رفعه (فى بعض كلام العرب) ومنه قول الشاعر:

شاده مرمرا وكلله كلسا فللطير فى ذراه وكور

فى ذِكْره يا أمير المؤمنين . فقال أبو جعفر : سمعاً وطاعةً لمن سَمِع عن الله وذَكَّرَ به وأعوذ بالله أن أُذَكَّرَ به وأنساه ، فتأخذنى العِزّةُ بالإثم(١) لقد ضَلَلتُ إذًا وما أنا من المهتدين. ثم التفت إلى الرجل وقال : وأما أنت يا قائلها فوالله ما اللهَ أرَدْتَ بها، ولكن ليقال قام فلان فقال فعوقب فصبر، وأَهْوِنْ بها لوكانت العقوبةُ . وأنا أُنْذِرُكُمْ أيها الناسُ أُخْتَها، فإن الموعظةَ الحسنةَ علينا نَزَلَتْ وفينا ثَبَتَتْ. ثم رجع إلى موضعه من الخطبة فقال : رحم الله امرأ نظر فى دنياه لآخرته فمشى القَصْد ، وقال القَصْد ، وجانَبَ الهُجْر .

ثم أخذ بقائم سيفه وقال : إن بكم داءً هذا شفاؤه وأنا زعيم لكم بشفائه . فليعتبرْ عبدٌ قَبْلَ أن يُعْتَبَرَ به . فما بعد الوعيد إلا الإيقاعُ . و إنما يَفْتَرِى الكذبَ الذين لا يؤمنون بآيات الله » .

« ٦ »

وخطب أبو عبد الله المهدى فقال .

« الحمد لله الذى ارْتَضَى الحمدَ لنفسِهِ، ورَضِىَ بِهِ مِنْ خَلْقِهِ . أَحْمَدُه على آلائه(٢) ، وأُمَجِّدُهُ لبلائه وأستعينه وأومِنُ به ، وأَتوَكَّلُ عليه توَكُّلَ راضٍ بقضائه وصابرٍ لبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له ، وأن محمدا عبدُه المصطفى ونبيه المجتبى ، ورسولُه إلى خَلْقه ، وأمينُه على وحيه . أرسله بعد انقطاع الرجاء وَطُموس(٣) العلم

(١) أخذته العزة بالإثم: احتوت عليه وأحاطت به وصار كالمأخوذ بها، والعزة فى الأصل: خلاف الذل وأريد بها هنا الأنفة والحمية مجازا ، و (بالإثم) أى مصحوبا بالإثم أو مصحوبة بالإثم أو بسبب إثمه. ويجوز أن يكون أخذ بمعنى أسر، ومنه الأخيذ بمعنى الأسير: أى جعلته العزة وحمية الجاهلية أسيرا بقيد الإثم لا يتخلص منه .

(٢) الآلاء : النعم واحدها ألو كدلو وألى كمعى وإلى كبئر وإلى كرضا .

(٣) الطموس : الدروس والإمحاء ، طمس الطريق (كدخل وضرب) وطمسه (كضرب) وقوله تعالى (ربنا اطمس على أموالهم) أى غيرها ، وكذلك (من قبل أن نطمس وجوها) .

واقتراب من الساعة ، إلى أمة جاهلية ، مختلفة ، أمية ، أهل عداوة وتضاغن وفرقة وتباين . قد استهوتهم شياطينهم ، وغلب عليهم قرناؤهم[1] ، فاستشعروا[2] الردى ، وسلكوا العمى يبشر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها ، وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها . ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة . وأحثكم على إجلال عظمته ، وتوقير كبريائه وقدرته ، والانتهاء إلى مايقرب من رحمته وينجي من سخطه ، وينال به مالديه من كريم الثواب وجزيل المآب . فاجتنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب وأليم العذاب ووعيد الحساب ، يوم توقفون بين يدي الجبار وتعرضون فيه على النار . يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد . يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل[3] ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون . يوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . فإن الدنيا دار غرور وبلاء وشرور واضمحلال ، وزوال وتقلب وانتقال ، فقد أفنت من كان قبلكم وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم . ومن ركن إليها صرعته ، ومن وثق بها خانته ومن أملها كذبته ومن رجاها خذلته . عزها ذل ، وغناها فقر ، والسعيد من تركها ، والشقي فيها من آثرها ، والمغبون فيها من باع حظه من دار آخرته بها . فالله الله يا عباد الله ، التوبة مقبولة ، والرحمة مبسوطة . بادروا بالأعمال الزكية في هذه الأيام الخالية

---

(١) القرناء : جمع قرين وهو المقارن والصاحب والشيطان الذى لايفارق الإنسان .

(٢) استشعر الشيء : لبسه على الجسد ، والملبوس يسمى شعارا ، والمعنى لزموا الردى واتصل بهم تمام الاتصال .

(٣) العدل : الفريضة . والصرف : التوبة أو النافلة أو المكس ، أو العدل الكيل ، والصرف : الوزن أو الصرف الحيلة ، ومنه (لا يستطيعون صرفا ولا نصرا) .

قبل أن يؤخذ بالكَظَم(١) ، وتندموا فلا تنالون النَّدَم فى يوم حسرة وتَأَسُّفٍ ، وكآبةٍ وتَلَهُّفٍ . يوم ليس كالأيام وموقف ضَنْكٍ(٢) المقام ، إنَّ أحسن الحديث وأبلغَ الموعظة كتابُ اللهِ . يقول الله تبارك وتعالى « وإذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فاسْتَمِعُوا لَهُ وأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الجحيمَ ثم لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثم لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ(٣) » أوصيكم عِبادَ الله بما أوصاكم الله به وأنهاكم عما نهاكم الله عنه . وأرضى لكم طاعة الله وأَسْتَغْفِرُ الله لى ولكم .

« ٧ »

وخطب الرشيد فقال :

الحمْدُ للهِ على نعمه ونستعينه على طاعته . ونستنصره على أعدائه ونؤمن به حقا ونَتَوَكَّل عليه ، مفوِّضين إليه . وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله بعثه على فَتْرَةٍ من الرسل ، ودُرُوسٍ من العلم ، وإدبارٍ

---

(١) الكظم (بالتحريك) : الحلق أو الفم .

(٢) ضنك : ضيق ، والفعل ككرم .

(٣) حتى زرتم المقابر : أى حتى متم ودفنتم فيها ، أوعددتم الموتى تكاثرا . لترونّ الجحيم : جواب قسم محذوف والتقدير والله لترون الجحيم ولا يصح جعله جواب لولأن جوابها ممتنع لامتناع شرطها. وجواب لو تعلمون محذوف للتفخيم أى لارتدعتم أو لكان منكم ما لايوصف . والعطف بثم فى ثم كلا سوف تعلمون اشارة إلى أن العلم الأول فى الدنيا أو عند الموت والثانى يوم النشر . وفى ثم لترونها لأن الرؤية الأولى رؤية علم والثانية رؤية بصر وهى أقوى وآكد وتكون بعد الثانية أى يوم القيامة .

عن الدنيا ، و إقبال من الآخرة . بشيرًا بالنعيم المقيم ، ونذيرًا بين يدى عذاب أليم ، فبلّغ الرسالة ، ونَصَحَ الأمّةَ ، وجاهد فى الله . فأدّى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقينُ فعلى النبى من الله صلاة ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن فى التقوى تكفير السيئات ، وتضعيف الحسنات ، وفوزا بالجنة ، ونجاةً من النار ، وأحذّركم يوما تشخص فيه الأبصار ، وتُبْلَى فيه الأسرار ، يومَ البعثِ ويومَ التَّغَابُن[١] ويوم التلاقى ويوم التّنادى[٢] . يوم لا يُسْتَعْتَب من سيئة ولا يُزاد فى حسنة يوم الآزفة[٣] إذ القلوبُ لدى الحناجر كاظمين[٤] ، ما للظالمين من حميم ولا شفيعٍ يطاع . يعلم خائنة[٥] الأعين وما تُخْفِى الصدورُ . واتقوا يوما ترجعون فيه إلى اللهِ ثم تُوَفَّى كلُّ نفس ما كَسَبَتْ وهم لا يُظْلمون .

عبادَ الله إنكم لم تخلقوا عَبَثاً . ولن تتركوا سُدًى[٦] . حَصِّنوا إيمانكم بالأمانةِ وديَنكم بالورع ؛ وصلاتكم بالزكاة فقد جاء فى الخبر أن النبى صلّى الله عليه وسلّم قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولادين لمن لا عهد له ، ولا صلاة لمن لا زكاة له » إنكم سَفْرٌ[٧] مجتازون . وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، و إلى الرحمة بالتقوى ، و إلى الهدى بالأمانة ، فإن الله تعالى ذِكْرُه أوجب رحمته

(١) التغابن : تفاعل من الغبن أى أن المؤمنين يغبنون الكفار منازلهم فى الجنة لو كانوا آمنوا . أو من غبن عقله إذا نسبه إلى النقص ، وأهل الجنة ينسبون أهل النار إلى ضعف العقل.

(٢) التنادى : أن ينادى أهل الجنة أهل النار وبالعكس ، أو النداء لأهل السعادة بها ولأهل الشقاء كذلك

(٣) سميت القيامة آزفة ، من أزف الرحيل : إذا قرب.

(٤) كاظمين : ممتلئين غما . حال من القلوب وعوملت معاملة أصحابها ، أو حال من أصحابها .

(٥) خائنة الأعين : الأعين الخائنة بمسارقة النظر .

(٦) السدى (بالفتح أو الضم وهو الأكثر) : المهملة من الابل للواحد والجمع كالسادى ، وأسداه أهمله

(٧) رجل سفر وقوم سفر (كلاهما بالفتح) وقوم سافرة وأسفار وسفار : ذوو سفر . والسافر : المسافر لا فعل له ، وفى المصباح : سفر الرجل (كضرب) فهو سافر والجمع سفر (كراكب وركب)

للمتقين، ومغفرتَه للتائبين، وهُدَاه للمنيبين . قال الله عزّ وجلّ وقولُه الحقّ: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ »، وقال : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » ، وإيا كم والأمانى فقد غرّتْ وأوْرَدَتْ(١) وأوْبَقَتْ(٢) كثيرا حتى أكذبتهم مناياهم فَتَنَاوَشُوا(٣) التوبة من مكان بعيد ، وحيل بينهم و بين ما يشتهون فأخبركم ربكم عن الْمَثُلات(٤) فيهم وصَرَّف(٥) الآيات وضَرَب الأمثال. فرغّبَ بالوعد ، وقدّم إليكم الوعيد . وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالى جيلا فجيلا ، وعَهِدْتُمُ الآباءَ والأبناء والأحبة والعشائرَ باختطافِ الموت إياهم من بيوتكم ، ومن بين أَظْهُرِكم لا تدفعون عنهم ولا تَحُولُون دونهم ، فزالتْ عنهم الدنيا ، وانقطعت بهم الأسباب فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب . ليَجْزِيَ الذين أساءوا بما عملوا ويَجْزِيَ الذين أحسنوا بالحسنى .

إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتابُ الله. يقول الله عزّ وجلّ : « وإذا قُرِئَ القرآنُ فاسْتَمِعُوا له وأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ بسم الله الرحمن الرحيم : قل هو الله أحدٌ . الله الصمد(٦) لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد » .

آمركم بما أمركم الله به . وأنهاكم عما نهاكم الله عنه . وأستغفر الله لى ولكم .

---

(١) المفعول محذوف : أى موارد الهلاك .

(٢) أوبقت : أهلكت من وبق كوعد بمعنى هلك . والموبقات : المعاصى .

(٣) التناوش : التناول، وقوله تعالى : وأنى لهم التناوش من مكان بعيد : أى كيف لهم تناول الإيمان بعد فوات وقته وهم لم يتناولوه فى إبانه .

(٤) المثلات : العقوبات جمع مثلة (بفتح فضم) وفيها أيضا مثلة (بالتحريك) والفعل مثل به : نكل كمثل (بالتضعيف) .

(٥) تصريف الآيات : تبيينها .

(٦) الصمد : السيد المطاع الذى لايقضى دونه أمر. وقيل هو الذى يصمد إليه فى الحوائج: أى يقصد، والصمد أيضا الدائم والرفيع . ومن معانيه التى لا تناسب مقام الآية المصمت الذى لا جوف له ، والذى لا يعطش ولا يجوع فى الحرب ، والقوم لاحرفة لهم ولا شىء يتعيشون منه .

« ٨ »

وخطب المأمون خطبة الجمعة فقال :

« الحمد لله مستخلِص الحمد لنفسه ، ومُسْتَوْجِبه على خَلْقه . أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله ولو كَرِه المشركون . أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده والتَّنَجُّزِ لوعده ، والخوف لوعيده . فإنه لا يسلم إلاّ مَن اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى ، وترحَّلوا عن الدنيا ، فقد جُدَّ بكُمْ(١) ، واستعدّوا الموت فقد أظلَّكم ، وكونوا كقوم صيح فيهم فانتبهوا ، وأعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدَلُوا . فإن الله عزّ وجلّ لم يخلقْكم عَبَثًا ، ولم يترُكْكُمْ سُدًى ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموتُ أَنْ ينزل به . وإنّ غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجديرةٌ بقصَرِ المُدَّةِ ، وإنّ غائبا يحدوه الجديدان الليل والنهار لجدير بسرعة الأَوْبة ، وإنَّ قادما يَحُلُّ بالفوز أو الشقوة لمستحقّ لأفضل العُدّة ، فاتقى عبدٌ ربَّه ، ونصح نفسه ، وقدّم توبته ، وغلب شهوته ، فإن أجله مستورٌ عنه ، وأمله خادعٌ له ، والشيطان مُوَكَّلٌ به ، يُزَيِّنُ له المعصية ليركبها ، ويُمَنِّيه التوبة ليسوفها ، حتى تَهْجُم عليه مَنِيَّتُه أغفل ما يكون عنها ، فيالها حسرةً على كلّ ذي غفلة أن يكون عمرُه عليه حجةً ، وتؤديه مَنِيّتُه إلى شِقْوةٍ ، نسأل الله أن يجعلنا وإيّاكُم ممن لا تُبْطِرُه(٢) نعمة ، ولا تُقَصِّرُ

---

(١) الجد في الأمر : الاجتهاد وضد الهزل، وقولهم «أجدك لاتفعل» بكسر الجيم استحلاف بالحقيقة وبالفتح استحلاف بالبخت ، وإذا قيل « وجدك لاتفعل » فتح لاغير.

(٢) أبطرته النعمة : جعلته يطغى .

به عن طاعةِ ربِّه غفلةٌ ، ولا يَحُلُّ به بعد الموت فَزْعَةٌ إنه سميعُ الدعاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، فَعَالٌ لما يريد .

خطب طاهر بن الحسين حين فتح بغداد فقال :

« الحمد لله مالك الملك ، يؤتى الملك من يشاء ، وَيَنْزِع الملك ممن يشاء ، ويُعِزّ من يشاء ، ويذلّ من يشاء ، ولا يُصْلِح عمل المفسدين ، ولا يَهْدِى كَيْدَ الخائنين[١] إنَّ ظهور غَلَبَتِنا لم تكن عن أيدينا ولا كَيْدِنا[٢] بل اختار الله لخلافته ، إذْ جعلها عمودا لدينه ، وقِوَامًا لعباده ، من يستقل[٣] بأعبائها ويضطلع[٤] بحملها

« ١٠ »

وخطب الناس عبد الله[٥] بن طاهر وقد تجهز لقتال الخوارج فقال :

« إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، الذَّابُّون عن دينه ، الذَّائدون عن محارمه ، الدّاعُون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاة الأمور ، الذين جعلهم رُعَاةَ الدين ، ونِظامَ المسلمين ؛ فاستَنْجِزُوا مَوْعُودَ الله ونَصْرَه ، بمجاهدة عدوّه وأهلِ معصيته

---

(١) أى لا ينفذه ولا يسوده ، أو لا يهدى الخائنين بكيدهم .

(٢) كيدنا : حيلتنا .

(٣) استقل بالشيء : رفعه ، ومن المجاز هو مستقل بنفسه إذا كان ضابطا لأمره ، وهو لا يستقل بكذا : لا ينهض به ولا يطيقه .

(٤) يضطلع ، يقوى . والضلاعة : القوة ، والفعل ككرم .

(٥) فى سنة ٢٠٦ هـ ولى المأمون عبد الله بن طاهر حرب نصر بن شبث وفى سنة ٢١٠ أرسل عبد الله بن طاهر نصرا إلى بغداد وكانت مدة حصاره وقتاله خمس سنوات . وكان يقول : هواى مع العباسيين وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم .

الذين شَذُّوا وتَمرّدوا وشقّوا العصا . وفارقوا الجماعة ومَرَقُوا من الدين ، وسعوا فى الأرض فسادا ، فإنه يقول تبارك وتعالى: «إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أقدامكم» فليكن الصبر مَعْقِلَكُمْ الذى إليه تلجئون ، وعُدَّتَكم التى بها تستظهرون ، فإنه الوَزَر المَنيع الذى دَلَّكُمُ اللهُ عليه ، والجُنَّةُ الحصينةُ التى أَمَرَكُمُ اللهُ بلباسها ، غُضُّوا أبصاركم ، وأَخْفِتُوا[1] أصواتكم فى مَصافِّكم . وامْضُوا قُدُما على بصائركم ، فارغين إلى ذِكْرِ الله والاستعانةِ كما أمركم الله فإنه يقول : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، أيّدكم الله بعزّ الصبر وَوَلِيَكُمْ بالحِياطة والنَّصْر .

نموذج من خطب أئمة المساجد

خطبة لابن نُباتة خطيب حلب فى ذكر فضل الجهاد :

الحمد لله ملبس من أطاعه أنوار القبول . ومُرْكِس من عصاه فى مضال الخمول ، الذى خاطب بمراده أهل العقول ، وجعلهم الأمناء والحكام على كلّ جهول . أحمده حمد من علم أن حمده فريضة . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . كلمة تَنْقَهُ بها الأفئدة المريضة ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أرسله مُصْلِتا بالحسام ، ومُخْبِتا فى الظلام . مشتّتا للطَّغام ، مُشيداً لشعائر الإسلام ، مؤيّدا بالملائكة الكرام حتى أذل عبدة الأصنام ، وألف القلوب بتشذيب الهام . صلى الله عليه وعلى آله الهداة الأعلام صلاة دائمة بدوام الأيّام وسلم تسليماً .

أيها الناس : اقطعوا بتقوى الله أودية الأعمار ، وارقعوا فى جهاد عدو الله

---

(١) خفت خفوتا ، سكت وسكن .

ألوية الأبرار ، واصدعوا بكتاب الله قلوب المنافقين والفجّار . وانزعوا بادّكار المَرَدّ إلى الله عن موبقات الأوزار ، والتمسوا كنوز القرآن بأمثاله وقصصه . ولا تَظْلَعوا عن حمل عزائمه طلبا لرخصه . وامْزُجوا سائغ الحياة بذكر عَلَزِ الموت وغُصَصه ، وبادروا غفلات الزمان بانتهاز فُرَصِه ، فإن الصحة يعتريها المرض ، والأطهار تنوبها الحيض . وجوهر الآخرة لا يفي به من الدنيا عَرَض . فابذُلوا فى الجهاد النفوسَ فقد عظم عنها العِوَض ، واصبروا وصابروا ورابطوا ، وإن مَسَّكُم المضض ، وأَغْرِقوا فى النَّزْع فقد استهدف من عدوكم الغَرَض . وتمسكوا بحبل جهاده فقد استحصدت لكم مِرَره . وريشوا السهام لمقاتلته فقد أمكنتكم ثُغَرُه . واغتنموا صفاء وقت غمّ العدو كدرُه ، واحتموا منه بشاكى السلاح ، فإن حامى النحل إِبَرُه . وتحصنوا من كيد العدوّ بمعاقل الصبر ، وَثِقوا مع الثبات بعاجل النصر ، وأكثروا من ذكر الله تعالى عند اللقاء فى السرّ والجَهْر ، ولا تجعلوا لكم ملجأ سواه عند تضايق الأمر . واستشعروا السكينة إذا كشفت الحرب نقابها ، وأطار الإقدامُ عُقابَها ، وأحَرّ اللطامُ ضِرابَها . وأَمَرَّ الحِمامُ شرابها . وتذكرتِ العربُ العَرْباء أنسابها . ومثّلت العلماء مرجعَها ومآبَها . ونزلتم للجهاد منزلا قد أشرعتْ إليه الجنةُ أبوابَها ، وطالعت الحور الحسان منه أحبابها ، وأشرعتِ الوِلدانُ لمصطفَى الله فيه أكوابها ، وقيل هذه عروس دار الآمال ، فكونوا الآن خطابها . وصرخ الشيطان بطَغام أعوانه ، وأرعد وأبرق بأباطيل بُهتانه ، وهوّل باحتشاد عَبَدَة صُلْبانه ، وضَمِن لهم ما هو مُخفر فى ضمانه ، وجاء الحق وبطل النفاق وانسدت بجيش العدوّ الجهات والآفاق . فأخمدوا هنالك بصواعق العزمات رَهَجه ، وأبطلوا بصادق الحملات حججه . وارأبوا بصُمّ الرماح فُرَجه . واضربوا ببيض الصِّفاح ثبَجَه ، واركبوا ببذل الأرواح لججه ، وانهبوا بالموت الصُّراح مهجه .

نمـاذج من أقوال الوعاظ

حكى أن الأَوْزَاعىّ قال : بعث إلىّ المنصورُ ، فقال : لِمَ تبطىء عنا ؟ قلتُ : وما تريد منا ؟ قال : آخذ عنكم وأقتبس منكم ، فقلت له : مهلا فإن عُروة بن رُوَيْم أخبرنى أن نبىّ الله صلّى الله عليه وسلّم قالَ : من جاءته موعظة من ربه فقبلها شكرَ اللهُ له ذلك ، ومن جاءته فلم يقبلها كانت حجة عليه يوم القيامة ، مهلا فإن مثلك لاينبغى له أن ينام ، إنمـا جعلت الأنبياء رُعاةً لعلمهم بالرعيـــة : يَجْبُرون الكسير ، ويُسَمِّنُون الهزيلة ، ويردُّون الضَّالة ، فكيف من يَسْفك دماء المسلمين ويأخذ أموالهم ؟ أعيذك بالله أن تقول إنّ قرابتك من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تدعوك إلى الجنة ، إن رسول الله كانت فى يده جَرِيدَةٌ يستاكُ بها ، فضرب قَرْنَ أعرابىّ ، فنزل عليه جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ، إن الله تبارك وتعالى لم يبعثك جَبَّارا مُؤْيِسا مُقْنِطاً تكسر قرون أمتك . أَلْقِ الجريدة من يدك ، فدعا الأعرابىّ إلى القصاص من نفسه ، فكيف بمن يســفك دماء المسلمين ؟ إن الله عزّ وجلّ أوحى إلى من هو خـير منك ، إلى داود عليه السلام : (يَا دَاوُد إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ) ، وأوحى إليه : يا داودُ إذا أتاك الخصمان ، فلا يكونَنَّ لأحدهما على صاحبه الفضل فأمْحُوَكَ من ديوان نبوّتى ، واُعلم أن ثوبًا من ثياب أهل النار لو عُلِّق بين السماء والأرض لمـات أهل الأرض من نَتْن ريحه ، فكيف بمن تَقَمَّصَه ؟ ولو أن حَلْقة من سلاسل جهنم وضعت على جبال الدنيا لذابت كما يذوب الرَّصاص حتى تنتهى إلى الأرض السابعة ، فكيف بمن تَقَلَّدها ؟ .

ودخل ابن السَّماك على الرشيد ، فقال له الرشيد : عظنى . قال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك غدا بين يدى الله ربك ، ثم مصروفٌ إلى

إحدى منزلتين لا ثالث لهما : جنةٍ أو نارٍ ، فبكى الرشيد حتى اخْضَلَّت[1] لحيتُه ، فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السَّمَّاكِ ، فقال : سبحان الله ! وهل يَتَخَالجُ[2] أحداً شكٌّ فى أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ، فأقبل ابن السماك على الرشيد ، وقال : إن هذا ليس والله معك ولا عندك فى ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى الرشيد حتى أشفق عليه الحاضرون .

ودخل عليه مرّة ، فبينا هو عنده إذ استسقى الرشيد فأُتِىَ بقُلَّة ماء ، فقال ابن السَّمَّاك : على رِسْلِك[3] يا أمير المؤمنين : بقَرابتك من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لو مُنِعْتَ هذه الشَّرْبة بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكى . قال : اشرب هَنَّاك اللهُ ، فلما شربها قال : أسألك بقرابتك من رسول الله لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها ؟ قال: بجميع مُلْكى . قال ابن السماك : إن مُلكا قيمته شرْبةُ ماء لجدير ألاّ يُنَافَس فيه .

وكان المنصور يحجّ ، فسمع رجلا يطوف ، وهو يقول : اللهم إنى أشكو إليك ظهور الجورِ ، والبغى ، والفسادِ فى الأرض ، وما يحول بين المرء وقلبه من الطمع ، فاستدعاه المنصور ، فكان من عظة الرجل له : عَمَدْتَ إلى الطين ، فأوقدتَ عليه فصيّرتَ منه لآجُرّ . ثم عَمَدْت إلى الرمل ، فأوقدت عليه ، فصيّرت منه الجِصّ ، وصيرت بعضه فوق بعض ، فبنيْتَ لك منها الحصون المُشَيَّدة ، والقصور العالية ، ثم غلّقت عليها أبواب الحديد ، فاحتجبت عن الناس أجمعين ، ثم أقعدت على الأبواب أقواما عبدوك من دون الله ، فلما قال له ذلك استوى المنصور جالساً وقال : أنا ؟ قال : نعم ، أما سمعتَ الله يقول : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ) ما صلّوا

---

(١) اخضلت كاخضوضلت ، ابتلت .

(٢) تخالجه الشك ، تردد فى نفسه .

(٣) الرسل : المهل .

ولا صاموا ، ولـكنهم أمروهم فأعطوا فى كلّ ما أرادوا ولم يخالفوهم ، فكانت تلك ربو بيتهم ، ثم اتخذت بطانة يسيرة وقلت : لايدخل عليّ إلا فلان ، فرفع أولئك إليك من أمور المسلمين ماهان عليهم وخفّ عليك ، فإذا جاء المظلوم إلى الباب لم يصل إليك ، فصار إلى بعض من يصل إليك ، فقال : ارفع قصتى هذه إلى أمير المؤمنين . قال نعم ، فدفعها إليه ، فإذا هو يتظلم من بعض من يصل إليك ، فأرسل إليه الظالم الذى ظلم صاحب القصة ، والله لئن رفعت قصة فلان لأرفعنّ قصة فلان الذى ظلمته ، فأمسك القصة ولم يرفعها، فعند ذلك انقطعت حقوق الناسْ دونك، وأنت محصور فى قصرك تظنّ أنك فى شيء أو على شيء ، والناس وراء بابك يُقتلون ويؤكلون ، والله لقد دفعت إلى جزيرة من جزر البحر ، وإذا ملك تلك البلد مشرك وصنمه فى كمه وتسمى البلاد الصين ، فرأيته ذات يوم وهو يبكى فى مجلسه ، فقام إليه وجوه مملكته ، فقالوا . ما يبكيك أدام الله ملكك وأعزك أيها الملك ؟ أليس قد مكن الله لك ؟ أليس قد مهد لك ؟ قال : أبكى لصمم قد اعترانى أخاف ألاّ أسمع صوت مظلوم وصارخ بالباب ؛ ألا وقد آليت عليكم ألا يركب منكم الفيل ، ولا يلبس ثوبا أحمر إلا مظلوم حتى أعرفه . قال : فلقد والله رأيته يركب الغداة ، والعشىّ يتصفح الوجوه ، هل يرى مظلوما فينصفه ؟. فهذا لايعرف الله جلّ وعلا ، ولايريد بذلك رفعة عند الله ، ولا زلفى لديه ، ولا رجاء ثواب ، ولا مخافة عقاب ، ولـكن شفقة على ملكه ، وخوفا منه أن ينتشر عليه أمره ، فيخاف أن يذهب ملكه ، وهو مشرك يفعل هذا ، ويتفقده من نفسه ورعيته . وأنت ابن عمّ رسول الله ، وكنت أولى بهذا الفعل من ذلك المشرك . قال:صدقت ، قد عرفت الذى قلت، وفهمت ماوصفت، والأمر على ماذكرت ، ولـكن كيف أصنع وقد بليت بأمر الأمة ، ودعوت الفقهاء فلاناً وفلاناً أستعين بهم على ماأنا فيه فهربوا . قال : إنهم لم يهربوا منك ، ولـكن لم يعلموا أنك تريدهم للعمل بالحقّ ، وكان العمل معك ومعونتك أوجب عليهم من الصـــلاة والصيام والحجّ والنوافل ، ولـكنهم هربوا خوفا على أبدانهم من عذاب الله .

كتب الرشيد إلى سفيان الثورى يشتاق إليه ويدعوه لزيارته ، ويذكر أن العلماء

أقسام العلوم

وهذه العلوم تنقسم فى جملتها قسمين : العلوم الإسلامية ، والعلوم الدخيلة ، ويراد بالعلوم الإسلامية كلّ علم نشأ لخدمة الإسلام والقرآن الكريم ، وهى التى اخترعها المسلمون واشتغلوا بها ابتداء لم ينقلوها عن غيرهم ولم يستعينوا فيها بالنقل عن أمم سابقة .

ويراد بالدخيلة تلك العلوم التى صارت إلى المسلمين من طريق النقل عن الأمم الأخرى، فلم يكن لهم فيها أوّلا إلا أثر الهمة فى النقل واختيار اللفظ العربى لما ورد بها من مصطلحات ، أوتعريب لألفاظها فى تلك اللغات وصقلهاحتى تخضع لأحكام العربية . ولا بدّ لنا من أن نذكر ما كان للعلوم فى هذا العصر من نشأة وتدرّج وما انتهى إليه أمرها حتى نهاية العصر العباسى .

ونحن بادئون بالعلوم الإسلامية، وهى تنقسم قسمين : علوما لسانية ، وأخرى شرعية، ولمّا كانت اللسانية إنما أحدثت لخدمة الدين والقرآن ، وكانت فى جملتها سابقة للعلوم الشرعية فى الوجود ناسب أن نبدأ بها أوّلا .

وهى أنواع : النحو ، والصرف ، واللغة ، والبلاغة ، والعروض ، والأدب ، (وهو يشمل التاريخ والنوادر والأنساب ورواية الشعر ونقده) .

العلوم اللسانية

النحـــو

نشأ النحو بصريًّا ، لأن أبا الأسود الدؤلى واضعه نزل البصرة ، فالتفّ حوله من

و يداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك و إنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم سابق و إمام إلى النار . كأنى بك يا هٰرون ، وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك فى ميزان غيرك ، وسيئات غيرك فى ميزانك زيادة فى سيئاتك ، بلاء على بلاء ، وظلمة فوق ظلمة ، فاحتفظ بوصيتى ، واتعظ بموعظتى التى وعظتك بها ، واعلم أنى قد نصحتك وما أبقيت لك فى النصح غاية ، فاتق الله يا هٰرون فى رعيتك ، واحفظ محمداً صلى الله عليه وسلم فى أمته وأحسن الخلافة عليهم . واعلم أن هذا الأمر لو بقى لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك . وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد فمنهم من تزوّد زادا نفعه ، ومنهم من خسر دنياه وآخرته . و إنى أحسبك يا هٰرون ممن خسر دنياه وآخرته . فإياك إياك أن تكتب لى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام .

فلما صدر الرســـول بالردّ جعل هٰرون يقرؤه ، ودموعه تتحدر من عينيه ، و يقرؤه و يشهق ، فقال بعض الحاضرين : قد اجترأ عليك يا أمير المؤمنين ســـفيان ، فلو أثقلته بالحديد ، وضيقت عليه السجن قال : هٰرون اتركونا ياعبيد الدنيا ، المغرور من غررتموه ، والشقىّ من أهلكتموه ، إن سفيان أمة وحده . ثم لم يزل كتاب ســـفيان إلى جنب هٰرون يقرؤه عند كلّ صلاة حتى توفى رحمه الله .

الكتابة

إن من يتتبع حال الـكتابة فى العصر الأموى يجد أنها صارت فى آخره صناعة لهـا قواعد ورسوم تجرى عليها بمـا أدخله فيها سالم بن هشام ، وعبد الحميد بن يحيى وأضرابهما من كلّ من حذق إلى العربية لغة أخرى كالفارسية أواليونانية أو السريانية ، و إذ ذاك وجدنا للـكتابة تنويعاً بين الإيجاز والإطالة على حسب المقامات ، واختلافا فى البدء والختام مراعى فيهما موضوع الرسالة وحال المـكتوب إليه .

وقد كانت الكتابة فى العهد الأموى نوعا واحداً هو كتابة الرسائل إذ لم تكن فى ذلك العصر علوم تستحق أن تنفرد بنوع من الأسلوب، على أن علوم هذا العصر إنما كانت جملة روايات ضمّ بعضها إلى بعض لا أثر لقلم المؤلف فيها . فكتب الحديث هى أسانيد تنتهى بنصّ الحديث وكتب الأخبار والسير ، كذلك لا تمثل عصر كاتبها ، ولا تنبئ بمقدرته ومبلغ بلاغته ، لأنه إنما يحكى كلام غيره ، ويروى ما انتهى إليه عن أهل الأخبار .

أما فى العصر العباسى فقد تنوّعت الكتابة ، وتعدّدت أساليبها ، واختلفت خصائصها ، وانقسمت إلى جذمين عظيمين هما كتابة الإنشاء وكتابة التأليف ، وما زال هذان النوعان يتمايزان ، وتختلف مظاهرها حتى كان لكلّ نوع أسلوب خاصّ به ، وحتى صارت أساليب التأليف فى علم غيرها فى علم آخر .

كتابة الدواوين

اتسعت المدنية فى العصر العباسى وكثرت مقتضياتها ، فكان منها تعدّد الدواوين التى تقوم بشئون الدولة بعد أن كان منها فى العصر الأموى ما يناسب حال المدنية التى صار إليها العرب فيه ، ولما داخل الفرس العرب هذه المداخلة الشديدة ، وصارت إليهم سياسة الدولة زادوا فى أنواع الدواوين ، وخصوا كلاًّ بعمل ، وما زالوا يجربون النظم حتى انتهت بهم التجربة إلى نظام كان أدقّ وضعاً وأتمّ ضبطاً جرى على أيدى البرامكة يحيى وولديه الفضل وجعفر ، وما زال هذا النظام متبعاً فى جملته حتى حل محله النظام السلجوقى .

تعدّدت الدواوين فى عهد الدولة العباسية ، فكان منها ديوان المشرق ، وديوان المغرب ،وديوان الخراج ، وديوان النفقات ، وديوان الجيش، وديوان المعاون ، وديوان

القضاء ، وديوان المظالم، وديوان الحِســبة ، وديوان الشرطة ، وديوان البريد ، وديوان الضياع ، وديوان الإقطاع ، وديوان الخواصّ ، وديوان الرسائل بنوعيه : ديوان الخاتم، وديوان التوقيع

وقد كانت رياسة ديوان الجيش منفصلة عن بقية الدواوين ، فالوزير الذى يتقلد الوزارة إنما تصير إليه أعمال عامة الدواوين (ماعدا الجيش) ، فالأمر فيه لكبار القوّاد ، وللخليفة يتصرّف فيه بنفسه وأمنائه ، فإذا أبدى الوزير حسن تدبير وكل إليه الخليفة كلّ أموره ، فصار يتصرّف فى رياسة التدبير ، ورياسة الحرب كما فعل المأمون ، فإنه لما انتصر طاهر بن الحسين على عيسى بن ماهان بتدبير الفضل بن سهل، رضى المأمون عن الفضل ، ولقبه ذا الرياستين ، وجعل له علماً على سنان ذى شعبتين ، وكتب على سيفه من جانب رياسة الحرب ومن آخر رياسة التدبير .

وكانت الكتابة فى جميع الدّواوين ماعدا ديوانى الرسائل (الخاتم والتوقيع) لا تتعدّى التسجيل فى الدفاتر ، وضبط الجباية ، وحساب الدخل والخرج ، ونفقات الخليفة ، ووظائف الجند ، وعمال الديوان ، ومحاسبة الولاة ، وليس فى ذلك مجال للبحث الأدبى المتعلق بالأسلوب والجمال الفنى للتعبير ، لذلك نقتصر من بحث كتابة الدواوين على كتابة الرسائل والتوقيعات ، فإنها لما كانت متعلقة بالوجدان ، ممثلة للعواطف ، حاكية للمشاعر ، منبعثة عن النفس ظهر فيها صور العصور ، واختلفت باختلاف الأحوال .

ولما كان الوزير[1] يتولى من أمور الدولة ماعرفت وكان إليه مصير الأمور كلها،

---

(١) كلمة وزير معروفة من قديم فهى فى القرآن قال تعالى (واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى) وقال الطبرى : كان زياد وزير معاوية ، ولكن الكلمة فى كل ذلك بمعنى المعين والمساعد . واختلفوا فى اشتقاقها هل هى من الوزر بمعنى الحمل : أى إن الوزير يحمل من السلطان الثقل ، أوهى من الوزر (بالتحريك) بمعنى الملجأ لأن السلطان يلجأ اليه فى المهمات . وقد أخطأ بعض المستشرقين فى قوله : ان الكلمة فارسية وان أصلها فيشيرا ومعناها الأمر أو التقرير .

فهو الذى يرجع إليه الرأى فى تدبير المملكة الواسعة الأطراف ، ويتصرّف فى شئو تلك الرعيــة المتباينة المشارب ، ويحكم البلاد من شرق إلى غرب ، ومن شمال إلى جنوب ، وكان الخلفاء خصوصاً بعد العهد الأوّل من هــذه الدولة يريدون ألا يحملوا أنفسهم ثقل هذه التكاليف ، اشــترطوا فى الذى ينوء بهذه الأعمال أن يكون رجلاً ألمعيًّا ، عظيم الهمة ، بليغ القول ، ملمًّا بأنواع العلوم ، خبيراً بأحوال الشعوب دارساً للتاريخ ، مستنبطاً منه العبر ليجزئ فى هذه المهمة الشاقة ، وليحسن تصريف الأمور حتى لا يضطرب الحبل ولا يسوء التدبير .

ولقد ألف العلماء السابقون فيما يشترط فى الوزير وعماله من الـكتاب ، ومايحتاجون إليه من علوم ، وما يلزمهم من صفات ومزايا ، حتى بحثوا فى ثيابهم ، وظاهر هيئتهم ليتمّ لهم الـكمال ويجمعوا الفضل من أقطاره . وفى كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة ، و (أدب الـكتاب) لأبى بكر الصولى ، وكتاب : (الـكتاب) لابن درستويه ، وكتاب (صبح الأعشى ، فى صناعة الإنشا) للقلقشندى ، مايدلّ على مقدار عناية القوم بمن يتولى الـكتابة ، فما بالك برئيس هؤلاء المشرف عليهم وهو الوزير ؟

ولقد تحقق هذا الاختيار فى أوّل وزير للدولة العباسية ، وهو أبوسَلَمة بن الخلاّل وزير أبى العباس السفاح ، فإنه كان فصيحاً عالماً بالأخبار والشعر والسير والجدل ، وكذلك البرامكة يحيى وولداه ، فقد كانوا معجزة الدنيا علماً وفضلاً وأدباً وشعراً ، وما زال الحال يجرى على ذلك حتى انحطت الأمور جميعاً ، فانحط معها شأن الوزراء ، ولـكنهم كانوا على علاتهم خير رجال عصورهم فهماً وأدباً .

ونستطيع أن نفهم رأى أهل هذا العصر فيمن يتصل بالخلفاء أو الأمراء ، ويتولى خدمتهم ، من القصيدة التى قدمها أبان بن عبد الحميد اللاحقىّ إلى البرامكة مستميحاً بها عطفهم راغباً الانضمام إلى زمرتهم ، والاتصال بخدمتهم قال :

أنا مِن بُغْيــةِ الأمير وكنزٌ من كنوز الأمــير ذو أرْباحِ
كاتبٌ حاسبٌ خطيبٌ أديبٌ ناصحٌ زائدٌ على النُّصّاحِ

شاعرٌ مُفْلِقٌ أخفُّ من الريـــشة مما يكون تحتَ الجَناح[1]
لى فى النحو فِطْنَةٌ واتّقادٌ أنا فيـــه قِلَادةٌ بوِشاح[2]
ثم أَرْوَى من ابن سِيرِينَ للعلـــمِ بقولٍ مُنَوِّرِ الإفصاح
وظريفُ الحديثِ فى كلِّ فنٍّ وبصـــيرٌ بتُرَّهاتِ المِلاح
كَمْ وكَمْ قد خَبَأْتُ عندى حديثاً هو عنـــد الملوك كالتُّفَّاح
فبمثلى تَخْـــلُو الملوك وتَلْهُو وتُنَاجِى فى المُشْكِلِ الفَدَّاح
أَيْمَنُ الناس طائرًا يوم صَيْدٍ لِغُـــدُوٍّ دُعِيتُ أو لِرَوَاحِ
أبصرُ الناسِ بالجواهر والخَيْـــلِ وبالخُرَّدِ الحِسانِ الصِّبَاحِ[3]
كلّ ذا قـــد جَمَعْتُ والحمد لله عَلَى أنَّنِى ظريفُ المُـــزَاح[4]
لستُ بالناسك المُشَمِّرِ ثوبيـــه ولا الماجنِ الخَلِيعِ الوَقَاح
لو رمى بى الأميرُ أصلحه الله رِمَاحًا ثَلَمْتُ حَـــدَّ الرِّمَاح
ما أنا واهنٌ ولا مستكينٌ لسوى أمْرِ سيِّدى ذى السَّمَاح
لست بالضَّخْم يا أميرىَ ولا القزْ مِ ولا بالجَحْدر الدَّحْـــدَاح[5]
لحيةٌ جَعْدَةٌ ووجـــهٌ صَبِيحٌ واتِّقادٌ كَشُعْلَةِ المِصْـــبَاحِ

---

(١) شاعر مفلق : يأتى بالعجيب ، وذكر فى الكامل أنه من الفلق أوالفلقة (وكلاهما بالكسر) وهى الداهية .

(٢) الوشاح : كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما ويعطف أحدهما على الآخر . والكرس (بالكسر) أحد فروع القلادة إذا تكونت من جملة عقود .
والوشاح أيضا : أديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها .

(٣) الخرد : جمع خريدة أوخريد ، وهىالبكر لم تمس، أوالطويلة السكوت الخافقة الصوت المتسترة . وتجمع أيضا على خرائد . الصباح : جمع صبيح بمعنى جميل .

(٤) مزح (كمنع) مزحا ومزاحة ومزاحا (بضمهما) ومازحه ممازحة ومزاحا (بالكسر) .

(٥) يقال رجل قزم (بالتحريك) وصفا بالمصدر ، وعلىذلك لايثنى ولايؤنث، وقيل يجوز فيه ذلك وقزم بالفتح . وهو الصغير الجثة . الجحدر والدحداح : القصير .

إنْ دعانى الأميرُ عاينَ مِنِّى   شَمَّرِيّا كالبُلْبُلِ الصَّدَّاحِ (١)

آثار العصر فى الكتابة

بينا فى فصول سابقة أن اختلاط العرب فى هذا العصر بالأمم التى عاشروها وخاصة الفرس قد أحدث فى جميع شؤونهم تغييرا ظاهرا . ومن هذا ما جرى على الكتابة . فأما تفصيل ذلك فإن اللغة الفارسية تشتمل على خواصّ ومزايا ، تجلت جميعاً فى العربية على يد الفرس والعرب الذين حذقوا اللغتين ، وأهمّ هذه المزايا والخواص هى :

١ — التهويل فى الخطاب وتعدّد الألقاب ، وقد مر تفصيل القول فيه .

٢ — الإفراط فى استعمال نوعى الايجاز والاطناب ، وهما من صفات الكتاب عند الفرس ، يجعلون لكلّ من النوعين مقامات يوجبون فيها استعماله ، وذلك من الأمور التى أحدثها عبد الحميد فى الدولة السابقة وجرى العمل عليها فى هذه الدولة ، ولكنهم بالغوا فى الطرفين ، فأطالوا حتى أملّوا ، واختصروا حتى أخلوا ، ولكن سلم لبلغائهم أمثلة من التوقيعات بلغت الغاية فى الفصاحة حتى كان الناس يتنافسون فى اقتنائها ، ويبيعها عمال الديوان بالدراهم الكثيرة ، وتلك هى التوقيعات التى سنفرد لها فصلاً نأتى فيه على ما نستطيع حصره منها فى عامة هذا العصر .

وكان من مقامات الإطناب تلك الكتب التى تقرأ على العامة ، ومن أنواعها :

١ — المنشورات . وهى الكتب التى تقرأ على العامة فى الولايات وفيها شرح لمذهب سياسى أو أمر دينى .

٢ — البيعات : ولم تكن تكتب قبل العصر العباسى ، ولا فى أوائله ، بل كان

---

(١) الشمرىّ بفتح الشين وكسرها ، أو ضمها مع ضم الميم : الماضى فى الأمور .

الخليفة يقف فى جمهور من أهل الرأى والقواد والأمراء فيعلمهم بموت الخليفة السابق ، وأنه صار إليه الأمر بولاية العهد أو برضا أهل الحل والعقد فيقر الحاضرون قوله وتتم البيعة له و يسلم عليه بالخلافة . ثم لما صار الأمر إلى من لا يقدر على ارتجال القول ، وكثر من الناس الرجوع فى بيعتهم ، وجهل العامة شروط الخلافة صار الوزراء يكتبون صورة البيعة ، وتتلى على الناس ، و يشهد عليها أهل الحل والعقد ، ثم تحفظ فى الدواوين تسجيلا لهذا المقام حتى لا يثب واثب و يدعى أنه صاحب الحق .

٣ — تفصيل انتصار على العدو : وكانوا يكثرون فيه من حمد الله على توفيقه ، بأن ما لقيه العدو إنما هو نكال من الله جزاء لما جنت يداه من خروج على الطاعة وخلاف للجماعة ، ثم يذكرون أن ما تم من النصر كان بعناية أمير المؤمنين ، وحسن قيامه على رعيته وتصريفه لأمر جنوده ، ثم يختمون بالحمد لله والثناء عليه .

٤ — ولاية العهد : وكانوا قبل ذلك يكتبونها كما فعل أبو بكر فى عهده إلى عمر ، ولكنها ظلت مختصرة إلى أيام بنى العباس ، فأطالوا فيها بتعداد مناقب ولى العهد وما يؤمل فيه من عمل لخير الأمة ، وشحنوها بالأيمان والمواثيق حتى لقد أحدثوا يمين الطلاق من الزوجات الحاضرة والمستقبلة ، وكذلك فعلوا بالرقيق ، ولم يكتفوا بإشهاد القواد والكبراء ، بل علقوها فى الكعبة وتقدموا إلى سدنتها بحفظها توكيداً للعمل بها كما فعل الرشيد فى عهده إلى أولاده .

٥ — العهد إلى القضاة ، و يبدأ ببيان أن الذى حمل على اختيار القاضى هو ما عرف عنه من فضل وأمانة وعلم ونزاهة ، ثم يثنى بأمره بتقوى الله والرعاية لحقوقه والعمل بسنة نبيه ، ثم يعدد له ما وكل إليه من الأعمال كالحفظ لأموال اليتامى ، وحسن القيام على الأحباس والوقوف ، وتوزيع المواريث ، و يصف له الكتاب الذين يختارهم لعمله من الأذكياء المشهورين بالصلاح ، ثم يأمره باختيار العدول

وامتحان الشهود ، والاجتهاد فى استخلاص الحقيقة ، وأن يتجنب الهوى وقد يتناول الاطناب ذكر كلّ ما يقوم به القاضى من عمل .

٦ — عهد بإمارة : وفى هذا العهد يذكر المعهود إليه بأنه إنما ارتضاه الخليفة لما عهد فيه من صلاح نية وحسن طوية ، وما عرف به من استمساك بالدين ورعاية لمصالح المسلمين ، ولما جمع من فضل وأناة ، وحسن صحبة ، ونزاهة طعمة ؛ ثم يعدد البلاد التى ولاه عليها وكلّ ما وكل إليه من أمور الناس من فصل فى قضاياهم ، وإقامة لصلاتهم ، وردّ لحقوقهم ورفق بهم فى الجباية إلى غير ذلك مما ينبغى توافره فى الوالى ، ثم يختم الكتاب بتوكيد المواثيق عليه بأن يحسن القيام على ماولاه عليه ، وأن يكون عند ظنّ خليفته به .

٧ — كذلك كان الإطناب فيما يصدر عن الولاة فى تفصيل لحادث وقع ، أو بيان سياسة اتبعت ، أو تهمة لحقت .

أما مواطن الإيجاز فهى توقيع من الوزير أو الخليفة فى قصة رفعت إليه يدلّ به على اطلاعه عليها ويبدى رأيه فيها ، وكذلك يكون فى رسائل الخلفاء والسلاطين فى أمر أونهى ، وإخبار بهزيمة ، أو تحذير من عدوّ . والذى دعا إلى الإيجاز كثرة أعمال الدولة وتوالى الكتب من الخلفاء إلى الولاة : ومن هؤلاء إلى رؤسائهم . فإذا التزم الإطناب فى كلّ ذلك كثر العمل ، وشقّ على متوليه ، ولذلك يقول جعفر بن يحيى فى إيثار الإيجاز على الإطناب : إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا .

٣ — تعدّد أنواع البدء والختام على حسب تنوّع الرسائل ، وأهمّ ما حدث فى البدء هو ما يأتى .

كانت الصورة الأولى لأوّل عهد الدولة هى التى كانت تفتتح بها كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية مع زيادة لفظ عبد الله قبل الاسم ولفظ الإمام بعده ، وهى هكذا :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

من عبد الله فلان الإمام أمير المؤمنين إلى فلان . أما بعد فإنى أحمد إليك الله (أو فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله) الذى لا إله إلا هو . و إن الأمر كذا .

ثم زاد الرشيد بعد التحميد الصلاة والسلام على النبىّ فجرى العمل على ذلك ، وعدّ هذا من مناقبه ، ثم لما صارت الخلافة إلى الأمين (كتنى ، : وكانت كنيته أبا موسى) ، فاتبع ذلك بعده . وكانوا ربما قدموا التحميد والصلاة على النبىّ قبل البعدية ثم عقبوها بالغرض ، وتلك من اختراع عبد الحميد . وربما اختصروا الصورة فتركوا التحميد والصلاة على النبىّ ، ولم تكن هذه من اختراع العباسيين ، ولكنهم أكثروا منها فى الإخوانيات ورسائل السلطان لاختصارها ، ثم تركوا فى الإخوانيات الحمد والصلاة و بدءوا كتبهم بالدعاء للمكتوب إليه ، و يقال إن الزنادقة هم الذين اخترعوا هذه الصورة . ثم أحدثوا فى منتصف العصر البدء بقولهم : كتابى إليك مردفين ذلك بالدعاء المكتوب إليه أو وصف حال الكاتب أو بهما معا . مثل قول البديع الهمذانى : كتابى أطال الله بقاء الشيخ من نيسابور ، وقد تمطت علىّ بصلبها ، وضاقت علىّ برحبها . وقوله كتابى عن سلامة ونعمة ، وأحوال على النظام جارية ، وشوق إليك وتواجد عليك ، واعتداد بك .

وفى البيعة كانوا يبدءون بعد البسملة بقولهم : تبايعون عبد الله فلانا . . . بيعة طوع وانقياد ورضا . . . . ثم يكثرون من الأيمان المحرجة توكيدًا للوفاء وضمانا لعدم الحيس والغدر .

وفى العهد بالخلافة أو بولاية عمل ، (وقد كان يكتب منذ قديم مختصراً مبتدأ بقولهم : هذا ما عهد به فلان فى ولاية الأعمال والقضاء ، أو بقولهم : هذا ما كتبه عبد الله فلان إلى خاصة المسلمين وعامتهم . إنى قد وليت عليكم فلانا) صار فى العصر العباسى يبدأ بالتحميد والصلاة والسلام ، ومقدمة طويلة فى فضائل ولىّ العهد أو القاضى أو الوالى إلى آخر ما ذكرناه سابقا وهكذا فعل بالمنشورات ، فبعد أن كانت صورتها :

(هذا كتاب من فلان إلى عامل ولاية كذا و إلى من قبله من خاصة المسلمين وعامتهم صارت تبدأ بالتحميد والصلاة والسلام ومقدمة فى بيان سبب المنشور :

أما الختام فكان غالبا بلفظ (والسلام) أو (والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته) ثم كتبوا إن شاء الله بعد الأمور المستقبلة ، فيقولون فإن رأيت أن تفعل كذا فعلت موفقا إن شاء الله أو فرأيك فى ذلك موفقا إن شاء الله تعالى) ، ويكون ختام المنشورات و المشارطات بقولهم : (وحسبنا الله ونعم الوكيل) ، أو : (وهو حسبى ونعم الوكيل) ، ويختم العهد بقولهم : (وكفى بالله شهيداً) .

هذه هى الخواصُّ الظاهرة التى شاعت فى كتابة الرسائل فى هذا العصر . ويضاف إليها قوّة النقد عند هؤلاء القوم ، فقد وزنوا بها الألفاظ ، وفرقوا بين أسلوب وآخر بما لم يكن العربى الجاهلى أو الاسلامى إلى زمانهم يدركه ، ولا يستطيع أن يلحظ هـذه الإشارات الخفية فى التعابير مثلهم ، ولكنهم وضعوا هذه الفروق ، وطالبوا بها الكتاب ، وعابوا من خالفها وآخذوه إن كان لهم عليه سلطان كما حكى أن عاملا للسيدة زبيدة على بعض ضياعها كتب إليها فى رسالة . . وأدام كرامتك ، فوقعت على ظهر الكتاب (أصلح خطأك و إلا صرفناك عن عملك) ، فأعاد النظر فى كتابه ، فلم يهتد إلى موضع الخطأ ، فعرضه على ذى دراية بالكتابة ، فقال : إنما كرهت قولك فى صدر الكتاب « وأدام كرامتك » لأن كرامة النساء دفنهن ، فغير ذلك الدعاء ، وأعاد إليها الكتاب ، فوقعت على ظهره « أحسنت ولا تعد » ، كذلك جعلوا « أبقاك الله، وأمتع بك» لاتقال إلا لمثل الابن أو الخادم المنقطع إلى كاتب الرسالة ، وقد حدث أن محمد بن عبد الملك الزيات كتب إلى عبد الله بن طاهر ، فوردت فى كتابه كلمة وأمتع بك . فكتب إليه عبد الله :

أحدث عما عهدت من أدبك ... أم نلت ملكا فتهت فى كتبك
أم قد ترى أن فى ملاطفة الـــإخوان نقصاً عليك فى أدبك
أكان حقًّا كتاب ذى مقـــة ... يكون فى صدره وأمتع بك
أتعبت كفيك فى مكاتبتى ... حسبك ما قد لقيت من تعبك

فكتب إليه ابن الزيات :

كيف أخون الإخاء يا أملى   وكل شيء أنال من سببك
أنكرت شيئاً فلست فاعله   ولن تراه يخط فى كتبك
إن يك جهل أتاك من قبلى   فعد بفضل علىّ من حسبك
فاعف فدتك النفوس عن رجل   يعيش حتى الممات فى أدبك

كذلك تشاءموا من قولهم : جعلت فداك ؛ لاحتمال أن يكون فداء فى الخير كما يحتمل أن يكون فى الشرّ ، كذلك جعلوا قولهم : أطال الله بقاءك أرجح وزناً من قولهم : أطال الله عمرك .

وفى كتاب شفاء الغليل : أن الربيع قال : دخلت على الشافعىّ وهو مريض ، فقلت له : (قوى الله ضعفك) ، فقال : لو قوّى ضعفى قتلنى . قلت : والله ما أردت إلا الخير . قال : أعلم أنك لو شتمتنى ما أردت إلا الخير . قل : قوّى الله قوّتك ، وضعف الله ضعفك . ونحوه ما روى البيهقى عن الشافعى أنه قال : أكره أن تقول أعظم الله أجرك فى المصائب ، لأن معناه أكثر الله مصائبك ليعظم أجرك .

وتبع ذلك النقد للألفاظ والترجيح بين معانيها أن جعلوا لكل طبقة من رجال الدولة نعوتا تفتتح بها رسائلهم وعبارات تعنون بها كتبهم ، كقولهم فى مخاطبة أولاد الخلفاء فى زمن المقتدر : « أطال الله بقاء الأمير » ، ولمؤنس المظفر وزيره . « أطال الله بقاءك ، وأعزّك وأكرمك ، وأتم نعمته ، وإحسانه إليك » ، وفى العنوان إليه : لأبى الحسن «أطال الله بقاءه» ، وللولاة : (أكرمك الله ، ومدّ فى عمرك ، وأتمّ نعمته عليك ، وأدامها لك) وهكذا .

اختلاف أساليب الرسائل

« ١ »

فى المدة الأولى ، وهى من ابتداء الدولة إلى إستيلاء بنى بُويه على بغداد بلغت كتابة الرسائل الحدّ الأعلى التى لم تصل إليه فى سابق عهدها على يد الجاهليين أو الإسلاميين أو الأمويين ، وهو أيضاً الحدّ الذى لاتزال الأعناق من أهل زماننا تشرئب إليه ، وتتطاول لإدراكه ، فإن استطعنا بمواصلة الجهد والخدمة لهذه اللغة الشريفة أن ندركه ، فذلك شرف لايدانيه شرف ، وهو أمل نرجو الله أن يتحقق ، لنعيد للعربية مجدها ، ونلبسها فاخر ثوبها . ذلك هو العصر الذى يحمل راية الكتاب فيه أمثال : ابن المقفع ، والقاسم بن صُبيح ، ويعقوب بن داود ، ويحيى البرمكى ، وابنه جعفر ، والفضل بن سهل ، وأخيه الحسن ، وأحمد بن يوسف ، وسهل بن هٰرون ، والجاحظ ، وعمرو بن مسعدة ، وغيرهم ممن انقادت لهم البلاغة بغير زمام ، وكان لكلامهم جرى الماء ووقع السهام . أولئك الذين لم يتكاءدهم معنى ، ولم يتوعر عليهم غرض ، ولم يعترضهم لفظ . أولئك الذين أطالوا ، فلم يكن فى إطالتهم موضع نقص ، وأوجزوا فلم يكن فى إيجازهم موضع زيادة . هٰؤلاء الذين جمعوا الفضل من أقطاره ، فكانت كتابة تأليفهم ككتابة ترسلهم ، ونثرهم كشعرهم . فضل ظاهر ، وملكة مطاوعة . أولئك الذين تركوا أنفسهم على سجيتها ، فأدّوا معانيهم بعبارات كأنما لم تخلق لغيرها ، فلم يكرهوا لفظاً ، ولا عاظلوا فى أسلوب ، ولا حالوا زينة مما يلجأ إليه المقصر العاجز ، فسالت أودية الصحائف بأساليبهم المطلقة من كلّ قيد ، الخارجة مع النفَس الآتية عفو الخاطر ، فهى مرسلة غالباً مع الازدواج الذى يحسن به وقع الكلام ، ويتمّ تقسيمه . وتارة تكون مسجوعة سجع الملكة الذى يعرف موضعه القارئ قبل الكاتب ، ويدركه الناقد قبل القائل .

هذه هي صفة كلامهم مع شرف المعاني التي تناولوها ، لأن السري لا يعرف إلا السري ، والفاحش لا يألف إلا الفاحش ، ولا يستطيع أن يدلك على مقدار بلاغتهم إلا قلم من أقلامهم الفارعة ، وحكمة من حكمهم البارعة، وجهد الواصف أن يقول: معان تتراءى في ألفاظها ، لا يحجبها غموض ولا استكراه ، وأسلوب مرسل لا يعوقه السجع المتكلف ، فهو في غالب أمره مطلق إطلاقًا ، وقد يقيد بازدواج أو سجع إن جاء به الخاطر السمح .

« ٣ »

وفي المدة الثانية ، وهي مدّة حكم البويهيين من سنة ٣٣٤ إلى سنة ٤٤٧ هـ ، كانت الحضارة قد بلغت منتهاها ، فهي في المعيشة ترف ونعيم ، وفي العقول ثروة طائلة بما أثمرته العلوم المترجمة والعلوم الموضوعة ، وما نمته المدنية من خيال وذوق ، ولكن قد شاب هذه الحصافة الفكرية والثروة الخيالية نقص في ملكة اللغة التي بعد عهد أهلها بالبداوة ، وطال أمدهم في المعاشرة للعجمة والنشوء فيها . فكان من آثار ذلك كله مجتمعاً : صفاء الفكرة ، وقوّة الحجة ، وتلاحق المعاني ، وحسن تسلسلها ، مع سموّها وارتقاء الخيال فيها . كذلك زانت عباراتهم تلك الطلاوة اللفظية التي حاكوا بها ما كان في معيشتهم من إناقة ، وما تراءى في نفوسهم من رقة وظرف ، فسجعوا كسجع الحمائم ، سجعاً قصير الفقرات حسن الموقع ، ونثروا على كتابتهم تلك الحلى اللفظية من جناس لائق وطباق مطابق ، وأظهروا موهبة الله فيهم من العلم الواسع المدى ، فضمنوا كلامهم من الملح والإشارات التاريخية ، والمصطلحات العلمية ، والأمثال النادرة ، والحكم الحكيمة ، والشعر المشهور ، وتوسعوا في أغراض الكتابة ، فلم تعد مقصورة على رسائل السلطان والشوق والعتاب والاستمناح ، بل تعدوا ذلك إلى موضوعات الشعر . فاستعاروها وكتبوا فيها فناقضوا وتلاحوا وعابوا . وكان الخوارزمي وبديع الزمان في هذا المقام نجمي سماء وفرسي رهان .

وقد زادت في هذه الأيام عبارات التفخيم للملوك والأمراء لأن سلطان هؤلاء قد زاد في هذه الأيام وسطوتهم قد ظهرت ، فقتلت الحرية في الناس ، فلجئوا إلى الملق ،

خصوصاً وهو من أخلاق الفرس الذين هذه دولتهم وتلك أيامهم ، فزاد العدول عن اسم الخليفة أوالأميرأوالرئيس إلى الكناية عن ذلك بالحضرة أو السدة وكانوا يخاطبون الديوان الشريف يريدون ديوان الإنشاء .

وقد كان ولعهم بالسجع كثيراً حتى التزموه فى كلّ ما يكتبون من رسائلهم ، وقد تعدّاها بعضهم إلى كتب التأليف كما فعل أبو نصر العُتْبى فى تاريخه اليَمينى [(١)] ، فقد جعله كله سجعاً ، فأظهر مقدرة فائقة، ودلّ على بلاغة متأصلة ، ولكنه خرج بالكتاب عن أن يكون كتاب تاريخ فجعله نماذج للإنشاء وقطعاً كقطع الرياض كسين زهراً .

وأغلب كتاب هذا العصر مع التزامهم السجع ، وعكوفهم على التحسين اللفظى قد سلمت لهم كتاباتهم من العيب لأنها كانت تعان بطبع سليم ، وبصيرة نقادة ، وعلم غزير ، وقد جمع أغلبهم بين فضيلتى النثر والشعر ككُشاجم والمتنبى والبديع . ومن مشهورى هؤلاء الكتاب : ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ، وهو وزير ركن الدولة الحسن بن بويه ، وأبو بكر الخُوَارَزْمىّ المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ، وقرنه بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٨٩ هـ ، وأبو إسحاق الصَّابى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، والصاحب بن عَبَّاد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، وأبو الفتح البُسْتِىّ المتوفى سنة ٤٠٠ هـ ، والحصْرى صاحب زهر الآداب المتوفى سنة ٤١٣ هـ ، والعُتْبى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ، وأبومنصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، وأبو الفضل المِيكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ .

« ٣ »

وفى المدّة الثالثة وهى المدّة من استيلاء السلجوقيين على بغداد سنة ٤٤٧ هـ إلى انقضاء الدولة وزوال الخلافة من العراق سنة ٦٥٦ هـ ، تقلص من العربية جلّ ظلها بالمشرق ، وطغت العجمة على الفصحى ، وماتت النُّعَرة العربية إلا قليلا ، فتوانت

---

(١) بسط العتبى فى هذا الكتاب حياة السلطان محمود وشرح حياة يمين الدولة فى آخر أيامه ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية وقد شرح كثيرا ومن شروحه كتاب (الفتح الوهبى على تاريخ العتبى) وقد طبعته جمعية المعارف سنة ١٢٨٦ هـ بمصر فى مجلدين كبيرين .

الهمم ، وفترت العزائم ، وقلت الرغبة فى الأدب خاصة، ونقصت الملكات نقصاً فاحشاً، فتورّط أهل العصر فى أنواع التحسين اللفظى والمعنوى يجمعونها على العبارة الواحدة حتى تنوء بحملها ، والتزموا السجع التزاماً ملحًّا ، ولم يقدروا عليه قصيراً محكم الفقرات ، فجاءوا به طويلاً مهلهلاً ، وساقوه متعثراً مختبلاً ، وصار القارئ لكلامهم تتوزّع نفسه بين معنى غامض لم يسفر عنه اللفظ ، ولم يؤده الطبع السليم ، و بين زينة هى باسم التشويه أولى . فكدوا بذلك أنفسهم ، وأتعبوا قارئهم ، ودلوا على قلة بضاعتهم وسوء اتجاههم .

ويقال : إن الوزير الخاقانى كان مغرما بالسجع فوقع مرّة إلى بعض عماله : (الزم وفقك الله المنهاج ، واحذر عواقب الاعوجاج ، واحمل ما أمكن من الدجاج) ، فحمل العامل دجاجا كثيراً على سبيل الهدية ، فقال الوزير : هذا الدجاج وفرته بركة السجعة . ووقع آخر مرّة إلى قاضى قُمّ : يا قاضى قمّ ، قد عزلناك فقم . فقال القاضى : ما عزلنى إلا السجعة .

والذى ينبغى ملاحظته أن هذا العصر قد ضمّ بينه كتاباً أفاضل كانوا فى الكتابة نجوماً ساطعة لم يمثلوا عصرهم ، ولا شابهوا إخوانهم ، وإنما مرجع ذلك إلى النشأة الخاصة لتلك النابغة بين هؤلاء السُّقَّاط ، وذلك أن الطبع السليم إذا اجتمع إلى تحصيل لبليغ الكلام ، وحرص على طريقة السابقين خرج صاحبه عن طبيعة عصره ، وأمثال ذلك فى التاريخ كثيرة ، كابن خلدون بين أهل المغرب على عهده فإنهم كانوا لايكادون يبينون ، وكابن عبد ربه الذى يحاكى ابن المقفع و يقع قريباً منه ، وكالشريف الرضى الذى استطاع أن ينحل كلامه سيدنا عليًّا فلا تكاد تفرق بين الأصل والمنحول، ومثل هؤلاء فى المدة الأخيرة من عصرنا هذا القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ ، وهو كاتب الديار المصرية وزعيم الطريقة الإنشائية المنسوبة إليه ، وطريقته هى طريقة أهل المدة السابقة عليه إلا أنه غالى فى التورية والجناس ، و بقية أنواع البديع ، فتمّ له ذلك لتمام ملكته ، واستكمال عدّته ، ولكن أهل زمانه لما قلدوه ، وليس لهم مثل استعداده سقطوا وتورطوا ، وانتهوا إلى التكلف الزائد .

ومن مشهوري الـكتاب في هذه المدّة : القاضي الفاضل ، وعماد الدّين الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وقد بالغ في التأنق وأولع به ، وأخرج كتاباً سماه : (الفتح القُسّى ، فى الفتح القُدْسى[1]) ، أرخ فيه فتح صلاح الدين الأيوبى لبيت المقدس ، وقد تكلف فيه ماشاء ، وعوّل على دقيق الـكنايات ، وغريب لاستعارات ، فكأنما القارئ لـكتابه يحاول حلّ رموز أو فكّ طلاسم ، ومع ذلك فهو خير من كثير من أهل زمانه . وكتابه هذا على أسلوب كتاب العتبى ، ولـكن الفرق بينهما هو الفرق بين عصريهما . ومنهم رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ هـ ، والحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ ، وابن الأثير صاحب كتاب المثل السائر الذى راعه خطب الـكتابة فانتصر لدولة المعانى على الالفاظ وألف كتابه هذا ؛ وأبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وله كتاب (رءوس القوارير ، فى الخطب والمحاضرات والمواعظ والتذكير) ، ومؤيد الدين أبو طالب العلقمى (وزير المستعصم آخر خلفاء بنى العباس ببغداد) وقد توفى سنة ٦٥٦ هـ ، فوافق موته انقضاء عهد الدولة بالعراق .

التوقيعات

للتوقيع فى اللغة معان كثيرة كلها يمتّ بسبب إلى المعنى الاصطلاحى ، وهو تلك الـكلمات الموجزة التى يكتبها خليفة أو وزير أو رئيس ديوان فى غرض من الأغراض ، (وكانت تكتب فى أسفل الـكتب الواردة من الولايات بإبداء الرأى فيما يجرى عليها من حكم ، أوفى تلك الظُّلامات التى يقدمها أصحابها يطلبون فيها النصفة من حيف وقع عليهم)

فمن معانيه اللغوية : التأثير القليل يقال جنب هذه الناقة مُوَقَّع ، أى أن فيه تأثيراً

(١) ويقال له أيضا الفتح القدسى فى الفتح القدسى أو القدح القسى فى الفتح القدسى . وقد أشار عليه القاضى الفاضل أن يسميه الفتح القسى فى الفتح القدسى . قال فى مقدمة الـكتاب : وقد عرضته على القاضى الفاضل ، وهو الذى فى سوقه تعرض بضائع الفضائل فقال لى سمه : الفتح القسى . فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس .

خفيًّا من الحبال التى تشدّ عليها . والمناسبة بين المعنيين أن التوقيع فى أسفل الكتاب تأثير خفيف إلى جانب ما كتب فيه من عبارات مسهبة .

ومن معانيه أيضاً : إيقاع شيء صغير على آخر مع تخالف فى لونيهما ، ويقال بعير موقع إذا دبر ظهره ثم برئ فيرى بموضعه شامة بيضاء ، ولعلّ التوقيع كان يكتب بمداد أحمر ، والقصص تكتب عادة بالسواد ، فمن هنا تكون المناسبة فى التسمية ظاهرة أتمّ ظهور .

ومنها : أنه الرمى القريب لا تباعده كأنك تريد أن توقعه على شيء والموقع فى حاشية القصة يحاول بكلامه الموجز أن يصل إلى كبد المراد .

ومنها : إقبال الصيقل على السيف بميقعته يشحذه ويجاوه ، والتوقيع فى القصة يكشف ما حوته ، ثم هى به تصير نافذة ماضية فيما أشار به الموقع .

ومنها التعريس : وهو النزول آخر الليل ، والموقع إنما ينتحى بتوقيعه جانباً من آخر الورقة التى كتبت فيها القصة . وقيل هو من وقع الأمر إذا لزم ووجب ، أو من وقعت الإبل بمعنى بركت ، أو هو من توقيع المطر : أى إصابته بعض الأرض ومجاوزته بعضها ، والأسباب فى التسمية ظاهرة فلا نطيل بشرحها .

وليست التوقيعات حدثا من أحداث الدولة العباسية ، فقد روى التاريخ كثيراً منها للخلفاء الراشدين وبنى مروان ، ولكن كثيراً جدًّا روى لخلفاء بنى العباس ووزراء دولتهم . وقد تباروا فى إجادتها وتعمدوا إدماجها ، وبلوغ غاية الإيجاز فيها . وكانت كما قلنا موضع عناية أهل العصر ، فكانوا يترقبون صدورها ممن عرفوا بإجادتها ويبذلون فيها من الدراهم إلى عشرين درهما للتوقيع الواحد .

ولما كان ملاك التوقيع هو الإيجاز المعجز قلّ شأنها بعد العصر الأوّل لعدم استطاعة أهل العصور المتأخرة ذلك الإيجاز ، وإن كان قد سلم لبعضهم توقيعات عدت مع توقيعات السابقين كما هو الشأن فى الصاحب بن عباد وقليل من أمثاله .

أمثلة التوقيعات

للسفاح : كتب إليه جماعة من أهل الأنبار[١] يشكون أن منازلهم أخذت فى بناء أمر به ولم يعطوا أثمانها فوقع « هذا بناء أسس على غير تقوى » ، ووقع فى كتاب جماعة اشتكوا إليه احتباس أرزاقهم « من صبر فى الشدّة شورك فى النعمة » ووقع فى قصة عامل ظلم الناس: « وما كنتُ متخذ المضلين عضدًا[٢] » .

للمنصور : وقع إلى عمه عبد الله بن علىّ « لا تجعل للأيام فى ّوفيك نصيباً من حوادثها » ووقع لعامل ظلم الناس « لا ينال عهدى الظالمين » ولأهل الكوفة فى عاملهم « كما تكونون يؤمر عليكم » وفى قصة فقير: « سل الله من رزقه » ووقع إلى عامله بمصر وقد كتب إليه بنقصان النيل : « طهر عسكرك من الفساد ، يعطك النيل القياد » ، ووقع لعامل فارس وقد شكى إليه : « إن آثرت العدل صحبتك السلامة » .

للمهدى : إلى عامل أَرْمِينِيَةَ[٣] يشكو إليه سوء طاعة الرعية : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » وإلى شاعر أسرف فى مديحه : « أسرفت فى مديحك فقصرنا فى حبائك » ، وقع فى قصة رجل حبس فى دم : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » .

للرشيد : وقع إلى عامله بخراسان : « داوِ جرحك لا يتسع » ، ووقع فى قصة

---

(١) الأنبار : بلد بالعراق على نهر الفرات على شاطئه الشرقي وتحتها الحيرة على الشاطئ الغربى .

(٢) العضد (مثلثة) وككتف وندس (بضم ففتح) وعنق: مابين الكتفين والذراع. والمعين، والناصر

(٣) بفتح الهمزة وكسرها وتخفيف الياء الأخيرة وشدها ففيها أربع لغات : وهى اسم لصقع فى شمال جزيرة العرب وجنوبى أذربيجان والنسبة إليها أرمنىّ بفتح الهمزة وسكون الراء وكسر الميم . ويقول السيوطى فى لب اللباب أرمنى كأحمرى نسبة إلى بلاد الأرمن وهم طائفة من الروم (إعجام الأعلام) .

البرامكة : « أنبتته الطاعة وحصدته المعصية » . وفى قصة محبوس : « من لجأ إلى الله نجا » ، ولمتظلم « لا يجوز بك العدل ، ولا يقصر بك الإنصاف » ؛ ووقع ليحيى ابن خالد وقد استطعفه من السجن : « عظيم ذنبك أمات خواطر العفو عنك » .

للمأمون : وقع فى قصة متظلم من عمرو بن مسعدة : « يا عمرو عمر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها » ، ووقع فى كتاب متظلم من أحمد بن هشام : « اكفنى أمر هذا الرجل وإلا كفيته أمرك » ، قال عمرو بن مسعدة كتبت إلى عامل كتابا أطلته فأخذه المأمون من بين يدىّ وكتب : « قد كثر شاكوك ، وقلّ شاكروك ، فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت » ، ووقع فى قصة رجل يتظلم من الرستمى ، ولعله مطله بدين : « ليس من البر أن تكون آنيتك ذهباً ، وقِدْرك فضة وجارك يطوى ، وغريمك يعوى » .

لأبى مسلم الخراسانى : إلى عامل بلخ « لا تؤخر عمل اليوم إلى غد » ، وإلى سَلَمة بن الخلاَّل حين أنكر(١) نيته : « وإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ » .

ليحيى بن خالد البرمكى : وقع فى قصة محبوس : « العدل أوثقه ، والتوبة تطلقه » ، وفى قصة مستمنح كان قد وصله مرارًا : « دع الضَّرْع يَدِرّ لغيرك كما دَرّ لك » ، وإلى بعض العمال : « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا » ، ووقع لمظلوم : « طب نفساً فكفى بالله المظلوم ناصراً » .

للفضل بن سهل : وقع فى قصة متظلم « كَفَى بِاللهِ للمظلوم ناصراً » ، وإلى صاحب الشُّرْطة(٢) « ترفّق توفّق » . وفى شفاعة فى قاتل وجب عليه الحدّ : « كتاب الله أحق أن يتبع » .

---

(١) أنكره : عده منكرا . ونكر الأمر (كفرح) وأنكره واستنكره وتناكره جهله .

(٢) الشرطة (بالضم) واحد الشرط (كحجرة وحجر) وهم أول كتيبة تشهد الحرب والطائفة من أعوان السلطان والواحد شرطىّ (بضم فسكون) وشرطىّ (بضم ففتح) الأول كتركى والثانى كجهنى .

لطاهر بن الحسين : وقع فى قصة مستمنح : « سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » ، ووقع فى بعض الكتب : « الأعمال بخواتيمها ، والصنيعة باستدامتها ، وإلى الغاية ما جرى الجياد فحمد السابق وذمّ الساقط » .

للصاحب بن عباد : كتب إليه بعضهم رقعة سرق فيها كثيراً من تعاييره ، فوقع فيها : « هذه بضاعتنا ردّت إلينا » ، ووقع فى قصة استحسنها : « أَفَسِحْرٌ هٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَاتُبْصِرُونَ » ، ووقع لبعض مخالفيه : « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » ، وكتب إليه بعضهم : أن رجلا من أعدائه يدخل داره فى جملة الناس ، فوقع إليه : (دارنا هذه خان[1] ، يدخلها من وفى ومن خان) .

المقامات

وهى نوع من كتابة الرسائل كثرت بعد العصر الأوّل من عصور اللغة فى مدة الدولة العباسية .

وأصل كلمة مقامة اسم مكان من قام بمعنى أقام ، والمعنى أنها موضع للإقامة ، ثم انتقل من هذا المعنى إلى الكلام الذى يملا به مجلس من المجالس ، فتكون من إطلاق المحل على الحال . ولم يعرف استعمالها بهذا المعنى قبل العصر العباسى ، كما أطلقوا كلمة مجلس على مقدار مايتلى فيه من حديث أو تفسير أو أدب . فصارت المقامة تطلق ويراد بها تلك الجملة من القول المروية على لسان امرئ خيالى يحكى قصة وقعت لإنسان أو أكثر يتخيلهم الكاتب ، ويضع على ألسنتهم عبارات يتفصح فيها ما شاء ، ويلتزم فيها السجع غالباً ، ويحاول أن يأتى فيها بنصيب وافر من الألفاظ ، ويزينها بما

(١) الخان : محل التجار .

استطاع من الحكم والأمثال والشعر . وما ورد إلينا من هذه القصص غالباً ضئيل المغزى ، تافه الغرض ، ليس القصد منه إلا تعليم الناشئ في الأدب كيف يستعمل هذه الألفاظ ويحكم الاستشهاد بتلك الأمثال والحكم . فهى فى الواقع صحف لغوية لم تجئ ألفاظها مسرودة سرداً بل استعملت ليسهل على الناشئ معرفة مواقعها من الكلام ، وليستفيد العلم بها فى سياق الفكاهة .

وقد ذكروا أن أوّل من عرفت له مقامات من هذا النوع هو أبو بكر محمد بن الحسن ابن دريد الأزدى المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، وهو صاحب المقصورة المشهورة ، والجمهرة فى اللغة ، وقد ذكر فى مقدّمتها أنه صاغها أربعين مقامة استنبطها من ينابيع صدره ، واستخرجها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر ، ولكن الذى يؤخذ عليه فيها أنه حشاها بالألفاظ الوحشية الغريبة ، ويظهر أن عذره قدم عهده وكونه أحد علماء اللغة ، فظهر أثر ذلك فى مقاماته فجاءت غريبة نابية .

وقد وليه أبو الحسين أحمد بن فارس الرازى صاحب كتاب المجمل فى اللغة المتوفى سنة ٣٩٠ هـ ، فعمل أيضاً مقامات لم تصل إلينا كسابقتها ، ثم جاء بديع الزمان الهمذانى ، فأملى بهمذان أربعمائة مقامة لم يعثر منها إلا على خمسين ، وقد اقتفى فى عملها أثر أستاذه ابن فارس ، وقد سمى راويها عيسى بن هشام ، وسمى رجلها الذى وقعت منه حوادثها (بطلها) أبا الفتح الإسكندرى ، وهى صورة صادقة لبلاغة البديع ، وحسن ذوقه ، ولائق سجعه ، وقد طبعت بمصر والشام ، ومن شراحها : الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، والزميل الفاضل محمد محيي الدين عبد الحميد المدرس بكلية اللغة العربية بالأزهر .

ثم جاء بعد البديع ابن نُباتة السعدى[1] المتوفى سنة ٤٠٥ هـ ، فعمل مقامات ولكنه

(١) ابن نباتة السعدى من سعد من تميم ، بغدادى طاف البلاد ومدح الرؤساء ومنهم سيف الدولة وابن العميد وعضد الدولة وهو غير ابن نباتة (بفتح النون) المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ ، وقد ضبطه لسان العرب بالفتح . كما ضبط ابن خلكان اسم السعدى والفارقى بالضم . وعليه تكون أسماء ابن نباتة المعروفة فى التاريخ بالضم ماعدا المصرى صاحب الديوان ومؤلف سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون (ملخص من كتابنا إعجام الأعلام) .

لم يبلغ شأو البديع ، ولم تشتهر مقاماته .

ثم وضع بعده أبو القاسم بن ناقيا البغدادى المتوفى سنة ٤٨٥هـ ، مقامات اشتهرت فى أيامه ، ولكنها لم تصل إلينا .

ثم وضع أبو محمد القاسم بن علىّ الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ مقامات بلغت خمسين مقامة ، وقيل : إن أوّل ماعمله منها المقامة الحرامية ، وهى الثامنة والأربعون ؛ وقد اتفق أن قدم البصرة أعرابى فصيح يسمى أبا زيد ، فنحله الحريرى وقائع مقاماته ، وجعل راويها الحارث بن همام يقصد نفسه إشارة إلى الحديث القائل : كلكم حارث ، وكلكم همام ، وقد وضعها الحريرى برسم الوزير جمال الدين وزير المسترشد ، ولما شاعت مقامات الحريرى ببغداد ، واشتهرت حسده عليها كثير من الأدباء حتى قالوا : إنها كانت لمغربى قدم البصرة ومات بها فوقعت للحريرى فى تركته .

وجاء بعد الحريرى جار الله الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٧ هـ ، فعمل مقامات ومقالات بلغ عدد المقالات مائة ، وسماها : أطواق الذهب ، وعدد المقامات خمسين ، وكلتاهما مواعظ وحكم ، ولكنها ليست فى طول المقامات التى عرفت للبديع أو الحريرى ، بل إن المقالة أو المقامة لا تزيد غالباً على عشرة أسطر ، ولم يجعل للمقامات راوياً ولا صوّرها فى شكل قصة بل كان يبدؤها بقوله يا أبا القاسم .

ثم جاء بعده شرف الدين عبد المؤمن الأصفهانى ، فعارضه بكتاب سماه : أطباق الذهب ، وكلا الكتابين مطبوع فى مصر متداول .

الكتابة العلمية

كان لكتابة العلوم أسلوب خاصّ امتازت به عن كتابة الرسائل ، ولم تتأثر بما تأثرت به تلك الكتابة فى عصورها المختلفة . وربما كان ذلك راجعاً فى الغالب إلى أن العبارة العلمية لا يقصد منها إلا إفهام المراد ، وإيصال المعنى إلى ذهن القارئ ، فلم تكن مجالا للتأنق والزينة التى استدعت التكلف فى أواخر العصر ، ثم إن المعانى العلمية

المحدودة لاتحتمل التهويل ولا المضى مع الخيال ولا يقبل فيها المجاز ، وإذا برئت من ذلك فهى غالباً عبارة تؤدى المعنى من أقرب طرقه وتستعمل فيها الألفاظ فيما وضعت له لغة أو اصطلاحاً لا تتعدّى ذلك . كذلك ربما رجع الأمر إلى أنه لا يتناول التأليف عادة إلا كلّ عالم وهم فى الغالب ذوو ملكات سليمة واطلاع يشحذ أذهانهم ، وللعلم مقام يصونه غالباً عن الادعاء ، أما الكتابة فقد يدعيها من لا يملك من آلاتها شيئاً ، وقد قال الشاعر فى ذم الزمان وتطاول الناس إلى مناصب الكتابة بغير حق :

تعس الزمان لقد أتى بعجاب ومحا فنون الفضل والآداب
وأتى بكتاب لو انبسطت يدى فيهم رددتهم إلى الكتاب

ولولا أن أحوالا خاصة عرضت لبعض العلوم لبقيت عباراتها كلها بمثابة واحدة تتأثر جميعها بالعصر الذى تصير إليه ، ولكننا رأينا بعضها يغمض أو يركّ على حين يكون الآخر متماسكا لا وهن فيه ؛ فالأدب كتب أو ترجم فى أوائل العصر بعبارات هى أسمى ما وصل إليه الأسلوب العربى فى حياة اللغة العربية : (حاشا القرآن وحديث رسول الله) ، ثم مازال يكتب بعبارة لائقة نقية بارعة طول مدّة العصر خصوصاً حين أهملوا ذكر السند وكتبوا بأقلامهم الفصول الممتعة فى النقد والموازنة كما فعل الآمدى المتوفى سنة ٣٧٢ ﻫ ، فى كتاب : «الموازنة بين أبى تمام والبحترى» ، وكما فعل أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٠ ﻫ فى الصناعتين ، وأبو منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٣٩ ﻫ فى كتابه « يتيمة الدهر » .

أما الحديث والتفسير ، فقد ظلا طويلا لا أثر فيهما لأهل العصر لأن العمل فيها لا يكون غير نقل الأحاديث والآيات وشرحها بما ورد غالباً عن الصحابة والتابعين .

وكتب الفقه بدأت طريقتها تختلف بعد القرن الأوّل من العصر العباسى إذ أصبح للمصنفين أثر فى الاستنباط والتفريع والتعليل حتى انتهوا من ذلك إلى علم الأصول الذى يرجع الفضل فى اختراعه إلى الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وما زالت عبارة الفقهاء لاغبار عليها فى جميع المذاهب حتى اشتغل بفقه الحنفية كثير من الفرس والأتراك فركت

عبارته ودخلها كثير من التراكيب الفارسية والتركية .

وأما العلوم الدخيلة ، فقد كانت ترجمتها الأولى فى أيام المنصور والرشيد غير صالحة ، فلما عنى المأمون بهذه العلوم و بذل فيها النضار نشط الناس فى الترجمة ، ورحل كثير من أبناء السريان وغيرهم إلى اليونان فحذقوا اليونانية وترجموا مالم يكن ترجم وصححوا ما ترجم أوّلاً ، ثم انتهى الحال بأن برع العرب فى هذه العلوم ، واستطاعوا أن يستقلوا بالتأليف فيها ، وكانت عبارتها أوّلا واضحة ، ثم تعمد أصحابها تعميتها على من يتصدى لهم من الحنابلة ، فصارت إشارات ورموزاً و بقيت كذلك إلى الآن .

أما كتب علم الكلام (التوحيد) الذى وضع للردّ على الزنادقة ، فقد كان للعلماء فيه مطلق الحرّية فى التعبير لا يتقيدون بعبارات غيرهم ، بل يعوّلون على تأثير حجتهم ، و بلاغة ألسنتهم إلا فى نصّ ينقل أو شاهد يورد ، ثم لما ترجمت علوم الفلسفة والمنطق استعاروا أساليبها ، وأخضعوا علمهم لقواعدها . ولما كان المشتغلون به عادة هم فى الغالب الذين يدرسون هذه العلوم ، وكان يناصبهم الحنابلة المشدّدون فى دينهم ، والذين طالما أثاروا الفتن ببغداد على مخالفيهم فى الرأى ، رأى أصحاب هذه العلوم أن يعموها على غيرهم كما ذكرنا ، ولكن ذلك حرك إنكار قوم لا يرون أن يكون العلم طلاسم لا يحلها غير أصحابها ، فقام جماعة سموا أنفسهم إخوان الصفا وأخفوا أسماءهم ، وألفوا فى كلّ هذه العلوم خمسين مقالة بكلام سهل واضح ، فأقبل الناس على كتابهم (رسائل إخوان الصفا) ، وأدمنوا قراءته ، ونقلوه إلى كلّ بلاد الإسلام ، وانتفعوا بما فيه وهو متداول بمصر ومطبوع بها و بالهند وغيرها .

وعلوم البلاغة ما زال التأليف فيها مساوقاً للطبع ، سائراً مع السليقة يؤلف فيها الأدباء فتأتى عباراتهم ناصعة واضحة ، كما فعل صاحب الصناعتين ، ثم عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ ﻫ فى كتابيه : « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة » حتى تناول هذه العلوم قوم من الأعاجم ، فخلطوا مباحثها بالفلسفة ، وأجروا على قواعد تلك العلوم أحكام هذه الفلسفة وتقاسيمها وافتراضاتها ، فتعقدت مسائلها وركت عباراتها ،

وتعسفت تعاريفها ، وما كان أحقّ أن يبقى علماؤها مثالا للإفصاح والإبانة حتى تكون القوس فى يد باريها .

هذا هو أهمّ ما يقال فيما تقلبت فيه لغة التأليف ، وسنذكر فى المنثور أمثلة منها بقدر الاستطاعة .

نماذج من كتابة البلغاء

فى المدة الأولى من العصر العباسى

« ١ »

لما انتصر أبو مسلم الخراسانى على عبد الله بن علىّ أرسل أبو جعفر المنصور رسولا من قبله ليحصى المغانم التى غنمت من عبد الله ، فلما ورد الرسول غضب أبو مسلم وكاد يقتله لولا أن علم أنه مأمور بذلك فلا ذنب له ، ولكنه لم يمكنه من العمل الذى جاء له ، وقال : أكون أمينا على الدماء غير أمين على الأموال . وبعد ذلك كتب المنصور إلى أبى مسلم :

إنى قد وليتك مصر والشام فهى خير لك من خراسان ، فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين ، فإن أحبّ لقاءك أتيته من قريب .

فكتب إليه أبو مسلم : إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدوّ إلا أمكنه منه وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان[1] أن أخوف مايكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وفيت ، حريون[2]

(١) آل ساسان: هم الطبقة الرابعة من ملوك الفرس وهم الأكاسرة الذين ينسبون إلى أحدهم « ساسان » وأولهم أردشير بن بابك وآخرهم يزدجرد الذى قتل أيام عثمان رضى الله عنه سنة ٣١ هـ .

(٢) الحرى (كفتى) والحرىّ (كغنى) والحرى (بكسر الراء مع تخفيف الياء) : الجدير . والأول لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث. قال ابن منظور فى لسان العرب: فمن قال حرى لم يغيره عن

بالسمع والطاعة، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة . فإن أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضتُ ما أبرمت من عهدك ضناً[١] بنفسى .

« ٢ »

فكتب إليه المنصـــور : قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششـــة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لـكثرة جرائمهم ، فإن راحتهم فى انتثار نظام الجماعة فلم سويت نفسك بهم ؟ فأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بمـا حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وقـد حمل إليك أمير المؤمنين عيسى ابن موسى رسالته لتسكن إليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونَزَغاته[٢] وبينك ، فإنه لم يجـد باباً يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك .

و بتأثير كتب المنصور ألقى إليه أبو مسلم القياد وقدم إليه فلقى حتفه .

« ٣ »

قال الرشـيد يوما ليحيى بن خالد البرمكى : قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر ، وقد استحييت من مكاتبته فى هـذا المعنى فاكتب أنت إليه ، فكتب يحيى إلى الفضل : (أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك

لفظه فيا زاد على الواحد وسوى بين الجنسين لأنه مصدر . ومن قال حر وحرىّ ثنى وجمع وأنث فيقال حريان وحرون وحرية وحريتان وحريات ويقال هم أحرياء بكذا وهن حرايا وأنتم أحراء جمع حر .

(١) ضن يضن (بفتح الضاد فى المضارع) ضنا (بالـكسر) وقال الفراء يضن (بالـكسر) ضنا (بالفتح) لغة، ويقال هو علق مضنة بفتح الميم والضاد أو بفتح الميم وكسر الضاد: أى يضن به والتركيب إضافىّ .

(٢) يقال نزغه (كمنع) طعن فيه واغتابه ، وبينهم أفسد وأغرى ووسوس .

إلى شمالك) ، فأجابه الفضل (قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين فى أخى ، وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ، ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه) .

« ٤ »

لما انتصر طاهر بن الحسين على علىّ بن عيسى وقتله ، كتب إلى الفضل بن سهل : (أطال الله بقاءك ، وكَبَتَ[١] أعداءك ، وجعل من يَشْنُؤُكَ[٢] فداك . كتبت إليك ورأس علىّ بن عيسى فى حجرى ، وخاتمه فى يدى ، والحمد لله رب العالمين) ، فلما وصل الكتاب إلى الفضل نهض ، فسلم على المأمون بإمارة المؤمنين ، وأمدّ طاهراً بالرجال والقوّاد ، وسماه ذا اليمينين ، وصاحب حبل الدين .

« ٥ »

وكتب عبد الله بن المقفع يصف الصديق : كان لى أخ أعظمُ الناس فى عينى . وكان رأسُ ما عظمه فى عينى صغرَ الدنيا فى عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهى ما لا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا يدعوه إلى مئونة ولا يستخف له رأيا ولا بدنا ، وكان خارجا من سلطان لسانه فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يمارى[٣] فيما علم ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة ، وكان لا يَتَبَطَّر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة . وكان أكثرَ دهره صامتاً فإذا قال بَزَّ القائلين ، وكان ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جَدّ الجِدّ فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخل فى مراء ، ولا يدلى بحجة حتى يرى قاضياً فهِما وشهوداً عُدولاً ، وكان لا يلوم

---

(١) كبته (كضرب) : صدعه ورده بغيظه وأذله .

(٢) شنأه (كمنع) : أبغضه والمصدر شنئا (مثلثا) وشنآنا وشنآنا (بفتح النون وإسكانها) . وأزد شنوءة سميت بذلك لشنآن كان بينهما .

(٣) المماراة : الجدال والمحاجة . قيل هى من المرية بمعنى الشك لأن الانسان لا يحاج فى أمر إلا اذا شك فيه . وفى الأساس أن المماراة من المرى بمعنى الحلب لأن كل مجادل يحلب ما عند مجادله .

أحداً فيما يكون العذرُ فى مثله حتى يعلم ما عُذْرُه ، وكان لا يشكو وجعه إلا عنـد من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحةَ وكان لاَ يَتَبَرَّم ولا يَتَسَخَّط ولا يَتَشَكَّى ولا يَتَشَهَّى[(١)] ولا ينتقم من العدوّ ، ولا يَغْفُل[(٢)] عن المولى ، ولا يخصّ نفسه بشىء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته ، فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ولن تطيق . ولـكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

« ٦ »

وكتب يطلب من أحـد إخوانه قضاء حاجة : إن الناس لم يعدموا أن يطلبوا الحوائج إلى الخواصّ من الإخوان، وأن يتواصلوا بالحقوق ، و يرغبوا إلى أهل المقامات، و يتوسلوا إلى الأكفاء ، وأنت بحمد الله ونعمته من أهل الخير وممن أعان عليه ، وبذل لأهل ثقتـــه المصافين ، وإنَّ بَذْلَ النفس ، وإعطاء الرغيب ليس منك ببِكْرٍ[(٣)] ولا طريف بل هو تليدٌ أتلده أوّلكم لآخرِكم ، وأورثه أكابرُكم أصاغرَكم ، ومن حاجتى كذا ، وأنت أحقّ من طلبتُ إليه ، واستعنْتُ على حوادث الدهر وأنزلْتُ به أمرى ، لقرب نسبك وكريم حسبك ، ونباهتك وعلوّ منزلتك ، وجسيم صنائعك ، وعوامّ أياديك إلى عشيرتك وغيرها . فليكن من رأيك ما حمّلتك من حاجتى على قدر ما قسم الله لك حقّ فضـله ، وما عوّدك من مِنَنه ، ووَسِــع غيرى من نعمك و إحسانك .

« ٧ »

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق :

---

(١) شهيه (كفرح) وشهاه واشتهاه وتشهاه : رغب فيه فهو شهىّ وشهوان (بسكون الهـاء) وشهوانى (بسكون الهـاء أيضا) .

(٢) غفل (كدخل) عن الشىء تركه على ذكر، والتغافل : تعمد الغفلة ، والتغفل : انتهازها .

(٣) البكر (هنا) : كل فعلة لم يتقدمها مثلها . والضربة البكر : القاطعة القاضية .

« إن حقّ الأولياء[١] على السلطان تنفيذُ أمورهم وتقويمُ أَوَدِهم[٢] ، ورياضةُ أخلاقهم ، وأن يميز بينهم فيقدِّم محسنهم ويؤخِّر مسيئهم . ليزداد هؤلاء فى إحسانهم ، ويزدجر هؤلاء عن إساءتهم » .

« ٨ »

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات أيضاً :

« إن الله أوجب لخلفائه على عباده حقّ الطاعة والنصيحة ، ولعباده على خلفائه بَسْطَ العدل والرأفة . وإحياءَ السُّنَنِ الصالحة ، فإذا أدّى كلٌّ إلى كلٍّ حقه كان ذلك سبباً لتمام المعونة ، واتصال الزيادة ، واتساق الكلمة ، ودوام الألفة » .

« ٩ »

وكتب الحسن بن وهب[٣] فى الشكر :

« من شكرك على درجة رفعته إليها ، أو ثروة أَفَدْتَه إياها فإن شكرى لك على مهجة[٤] أحْيَيْتها ، وحُشاشة أبقيتَها . ورَمَقٍ أمسكت به ، وقمت بين التلف وبينه ، فلكلٍّ نعمة من نعم الدنيا حدٌّ تنتهى إليه . ومدًى يُوقف عنده . وغايةٌ من الشكر يسمو إليها الطَّرْف خلا هذه النعمة التى قد فاقت الوصف ، وأطالت الشكرَ وتجاوزتْ قدرَه ، وأنت من وراء كلٍّ غاية : رَدَدْتَ عنا كَيْدَ العدوّ ، وأرغمْتَ أنفَ الحسود ،

---

(١) الأولياء : جمع ولى ، وهو هنا بمعنى التابع.

(٢) الأود : الاعوجاج من أود (كفرح) والوصف منه آود والمؤنثة أوداء .

(٣) الحسن هو وأخوه سليمان ابنا وهب بن سعيد وبيتهم فى الكتابة قديم منذ عهد معاوية، وكانوا نصارى من أهل واسط فأسلموا وخدموا فى الدواوين . خدم جدهم سعيد آل برمك وكذلك أبوهم وهب خدم جعفر بن يحيى ثم الفضل بن سهل وهو القائل فيه: عجبت لمن معه وهب كيف تهمه نفسه ، وكتب سليمان المأمون وعمره أربعة عشرة سنة وولى الوزارة للمهتدى والمعتمد . والحسن كتب لابن الزيات .

(٤) المهجة : الدم ، أو دم القلب ، أو الروح .

فنحن نلجأ منك إلى ظلٍّ ظليلٍ، وكَنَفٍ كريم. فكيف يَشْكر الشاكرُ، وأين يبلغُ جُهْدُ المجتهد!».

«١٠»

من محاسن الإيجاز ما كتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد يستعفيه من العمل: شكرى لك على ما أريد الخروجَ منه شكرُ من نال الدخولَ فيه.

«١١»

وكتب علىّ بن هشام إلى إسحٰق بن إبراهيم الموصلى فى الشوق: ما أدرى!! أغيبُ فأشتاق، وألتقى فلا أشتفى. ثم يُحدث لى اللقاء نوعًا من الحُرْقة للَوْعة الفُرْقة.

«١٢»

وكتب العتّابىّ[1] فى الذمّ:

تأنّينا[2] إفاقَتَك من سَكْرتك، وترقّبْنا انتباهك من رقدتك، وصَبَرْنا على تجرُّع الغيظ فيك حتى بان لنا اليأس من خيرك، وكشف لنا الصبْرُ عن وجه الغَلَطِ فيك. فهأنا[3] قد عرفتك حقّ معرفتك فى تعدّيك لطَوْرك[4] واطّراحك حقّ من غَلِط فى اختيارك».

---

(١) العتابى: هو كلثوم بن عمرو التغلبى ويكنى أبا عمرو. وكان صاحب بديهة فى المنثور والمنظوم حسن العقل والتمييز. قال الجاحظ: العتابى اجتمع له الخطابة والبيان والشعر الجيد والرسائل الفاخرة، وعلى ألفاظه وحذوه يقول فى البديع كل من تكلف ذلك من الشعراء المولدين كمنصور النمرى ومسلم وغيرهما.

(٢) تأنى الرجل: تأخر فى أمره ولم يعجل. وتأناه: انتظره.

(٣) الشائع قولهم هأنذا. قال فى لسان العرب: وقالوا هأنت تفعل.

(٤) الطور: القدر والتارة وما كان على حد الشىء وبازائه.

« ١٣ »

كتب طاهر إلى ابنه عبد الله حين وَلِيَ ديار ربيعة هذ الكتاب :

عليك بتقوى الله وحدَه لا شريك له ، وخشيته ومراقبته ، ومزايلة سُخْطه ، وحفظ رعيتك . والزمْ ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك ، وما أنت سائرٌ إليه ، وموقوفٌ عليه ، ومسئولٌ عنه ، والعملِ في ذلك كله بما يَعْصِمك من الله ، وينجّيك يوم القيامة من عذابه ، وأليم عقابه . فإن الله قد أحسن إليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرَهم من عباده ، وألزمك العدل عليهم ، والقيامَ بحقه ، وحدودِه فيهم ، والذبَّ عنهم ، والدفعَ عن حريمهم وبَيْضتهم ، والحقْنَ لدمائهم ، والأمنَ لسبيلهم ، وإدخالَ الراحة عليهم في معايشهم ، ومؤاخذُك بما فرض عليك من ذلك ، ومُوقِفُك عليه ، ومُسائلك عنه ، ومُثيبك عليه ، بما(١) قدمت وأخّرت . ففرّغْ لذلك فكرَك وعقلَك وبصرَك ورويّتَك ، ولا يُذْهلك عنه ذاهل ، ولا يَشْغَلك عنه شاغل ؛ فإنه رأسُ أمرك ، وملاَكُ شأنك ، وأول ما يوفقك الله به لرشدك ، وليكن أولَ ما تلزم به نفسك وتنسب إليه فعالك ، المواظبةَ على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس والجماعةِ عليها بالناس قِبَلَك في مواقيتها ، على سننها في إسباغ الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله فيها ، وترتُّلٍ(٢) في قراءتك ، وتمكُّنٍ في ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولْتَصْدُقْ فيها لربك نيتُك ، واحضُضْ عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وادأب عليها فإنها كما قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . ثم أتبع ذلك الأخذَ بالسنة سُنَنِ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله في

---

(١) الباء هنا للبدل : أى مثيبك بدل ماقدمت وأخرت .

(٢) ترتل في الشيء : ترسل وأحسن تنسيقه .

كتابه من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، و إتمـام ماجاءت به الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ثم قم فيه بمـا يُحِقُّ لله عليك ، ولا تَمِلْ عن العدل فيما أحببتَ أو كرِهْتَ لقريب من الناس ، أو بعيد ، وآثِرِ الفقهَ فى دين الله ، والطلبَ له والحثّ عليه والمعرفة بمـا يتقرب فيه منه إلى الله ، فإنه الدليلُ على الخير كلِّه ، والقائدُ له ، والآمرُ به ، والناهى عن المعاصى والموبقات كلِّها ، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله عزّ وجل و إجلالا له ، ودَرَكا[١] للدرجات العلا فى المعاد . مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لأمرك ، والهيبة لسلطانك ، والأَنَسة بك ، والثقة بعدلك .

ومنه فى سياسة الرعية واختيار الولاة : واعلم أنك جُعِلْتَ بولايتك خازنا وحافظا وراعيا . و إنمـا سمى أهلُ عملك رعيتَك لأنك راعيهم وقيِّمُهم . تأخذ منهم ما أعطَوْك من عَفْوهم ومقدرتهم ، وتُنْفقه فى قِوَام أمرهم وصلاحهم وتقويم أَوَدِهم . فاستعمل عليهم فى كُوَر[٢] عملك ذوى التدبير ، والتجربة والخبرة بالعمل ، والعلمِ بالسياسة والعفاف . ووسّع عليهم فى الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة فيما تقلدت ، وأُسْنِد إليك . ولا يَشْغَلَنَّك عنه شاغل ، ولا يَصْرِفَنَّك عنه صارف ، فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادةَ النعمة من ربك ، وحسنَ الأحدوثة فى عملك ، واحترزت النصحة من رعيتك ، وأعنت على الصلاح ، فدَرَّت الخيراتُ ببلدك ، وفَشَت العمارة بناحيتك ، وظهر الخِصْب فى كُوَرك ، فكَثُر خراجك ، وتَوَفَّرتْ أموالك ، وقَوِيتَ لذلك على ارتباطِ[٣] جُنْدك و إرضاء العامة ، وكُنتَ محمود السياسة مَرْضِيَّ العدل فى ذلك عند عدوّك ، وكُنْتَ فى أمورك كلها ذا عدلٍ وقوة وعُدّة فنافِسْ فى هذا ، ولا

---

(١) الدرك (بالتحريك) : اللحاق و به أو بالفتح التبعة (يقال مالحقك من درك هذا أى تبعته) وقعر الشيء .

(٢) الـكور : جمع كورة ، وهى المدينة أو الصقع .

(٣) الارتباط : إعداد الجند وجعلهم يلازمون الثغور . والرباط : ملازمة الثغر ، والخيل ، أو الخمس منها فمـا فوقها .

تُقَدِّم عليه شيئاً تحمدْ مَغَبَّة أمرك إن شاء الله . واجعلْ فى كلّ كُورَةٍ من عملك أميناً يُخْبِرُك أخبار عمالك ، ويكتب لك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كلّ عامل فى عمله ، مُعاينٌ لأمره كله . وإن أردت أن تأمر بأمر فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامةَ فيه والعاقبةَ ووجَدْتَ فيه حُسْنَ الدّفاع والنصحِ والصُنْعِ فأمْضِه وإلاّ فتوقفْ عنه ، وراجع أهل البَصَرِ والعلمِ ، ثم خذ فيه عُدَّته فإنه ربما نظر الرجل فى أمْرٍ من أمْرِه قد واتاهُ على ما يَهْوَى فقوّاه ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر فى عواقبه أهلكه ، ونَغَّص عليه أمره . فاستعمل الحزم فى كلّ ما أردت وباشر بعد عون الله بالقوة وأَكْثِرْ استخارة ربك فى جميع أمورك .

ثم قال : وأكثر الإذن للناس عليك ، وأبرز لهم وجهك ، وسكن لهم حرسك ، واخْفِضْ لهم جناحك ، وأظهر لهم بِشْرَك ، ولِنْ لهم فى المسألة والنطق ، واعطف عليهم بجودك وفضلك ، وإذا أعطيتَ فأعطِ بسماحة وطيب نَفْس ، والتمس الصنيعةَ والأجرَ غير مكَدِّرٍ ، ولا مَنَّانٍ ، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله .

ثم ختمها بقوله : وأنا أسأل الله أن يُحْسِن عَوْنك وتوفيقك ورُشْدَك وكِلاَءك،[1] وأن ينزل عليك فَضْله ورحمته بتمام فضله[2] عليك وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً ، وأوفرهم حظًّا ، وأسناهم ذكرًا وأمرًا ، وأن يُهْلِكَ عَدُوّك ، ومن نَاوَأَك ، وبَغَى عليك ، ويرزقك من رَعِيَّتك العافية ، ويَحْجُز الشيطانَ عنك ووساوسَه ، حتى يستعلى أمرُك بالعزّ ، والقوّة ، والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

وذكروا أن طاهرًا لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهدَ تنازعه الناس ، وكتبوه ، وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمون فدعا به ، وقرئ عليه ، فقال : ما أَبْقَى

(١) كلأه (كمنع) كلئا (بالفتح) وكلاءة وكلاء (بكسر الكاف فيهما) : حفظه ورعاه .
(٢) لعل فضل الأولى بمعنى المنزلة الرفيعة والثانية بمعنى الإحسان .

أبو الطَّيِّب شيئاً من أمرِ الدِّين ، والدنيا ، والتدبيرِ ، والرأيِ ، والسياسة ، وإصلاحِ الملك ، والرعيــة ، وحفظ البيضة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة ، إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدَّم . وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال فى النواحى والأعمال .

« ١٤ »

وكتب طاهر[١] بن الحسين حين أَخَذَ بغداد إلى إبراهيم بن المهدى :

« أما بعد فإنه عزيزٌ علىَّ أن أكتب إلى أحد من بيت الخلافة بغير كلام الإمرة وسلامها . غير أنه بلغنى عنك أنك مائلُ الهوى والرأيِ للناكثِ المخلوعِ ، فإن كان كما بلغنى فقليلُ ما كتبتُ به كثيرٌ لك ، وإن يكن غير ذلك فالسلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته .

وقد كتبت فى أسفل كتابى هذا أبياتاً فتدبَّرْها :

رُكُوبُك الهَوْلَ مالم تَلْقَ فُرْصَتَه جهلٌ ورأْيُك بالتغرير تغريرُ
أَهْوِنْ بدنيا يُصيبُ المخطئونَ بها حظَّ المصيبينَ والمغرورُ مغرورُ
فازرَعْ صواباً وخُذْ بالحزم حِيطَته فلن يُذَمَّ لأهل الحزم تدبيرُ[٢]
وإن ظَفِرْتَ مصيباً أو هَلَكْتَ به فأنت عند ذوى الألباب معذورُ
وإن ظَفِرْتَ على جهل ففُزْتَ به قالوا جَهُولٌ أعانته المقاديرُ

« ١٥ »

أحمد بن يوسف من بيت عريق فى الكتابة ، وقد تولى ديوان الرسائل فى عهد المأمون وتوفى سنة ٢١٣ هـ .

---

(١) طاهر هو قائد جيش المأمون الذى قتل الأمين وهو ذو اليمينين وكان شجاعا أديبا ، كان بعين واحدة . وأبوه مصعب بن زريق كان كاتبا لسليمان بن كثير صاحب دعوة بنى العباس . توفى سنة ٢٠٧ هـ بمرو .

(٢) المصدر حيطة وحياطة (كلاهما بالكسر) والاسم الحوطة والحيطة (بالفتح وتكسر) .

وكان أوّل ما ارتفع به قدره وعرف اسمه أن المخلوع محمد بن الرشيد لما قتل أمر طاهر بن الحسين الكتاب أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أخصر من هذا ، فوصف له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة فأحضره لذلك ، وكتب :

« أما بعد ، فإن كان المخلوع قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللُّحْمة ، فقد فرّق بينهما حُكم الكتاب فى الولاية والحرمة ، بمفارقة عصمة الدين ، وخروجه من الأمر الجامع المسلمين . لقول الله عزّ وجلّ فيما اقتصّ علينا من نبإ نوح وابنه : (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) ، ولا طاعة لأحد فى معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت القطيعة فى ذات الله ، وكتابى إلى أمير المؤمنين ، وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وَعْده ، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين مَعْلومَ حَقِّه . الكائدِ[1] له فيمن خَتَرَ[2] عَهْدَهُ ونَقَضَ عَقْدَه ، حتى رَدَّ به الألفة بعد فُرْقتها ، وجمع به الأمةَ بعد شَتَاتها وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها .

وقد بعثت إليك بالدنيا وهى رأس المخلوع ، وبالآخرة وهى البُرْدَةُ والقضيبُ . والحمد لله الآخذِ لأمير المؤمنين حقَّه ، الراجعِ إليه تراث آبائه الراشدين .

« ١٦ »

وكتب يستجديه لزوار على بابه :

(إن داعى نداك ، ومُنادِى جَدْوَاك ، جمعا ببابك الوفودَ . يرجون نائلك العتيد[3]

(١) الكيد : المكر والحيلة والحرب . وقوله تعالى « كدنا ليوسف » أى علمناه الحيلة فى أخذ أخيه

(٢) الختر : شبيه الغدر والخديعة ، وقيل هو أسوأ الغدر . وفى الحديث : ماختر قوم بالعهد الاسلط عليهم العدو . والفعل كضرب ونصر .

(٣) العتيد : المهيأ .

فمنهم من يَمُتّ بحرمة[١] ، ومنهم من يُدْلِى بسالف خدمة . وقد أجحف[٢] به المُقامُ ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشَهم بسيبه ، ويحقق ظنهم بطَوْله[٣] فعَلَ .

« ١٧ »

فوقع المأمون فى عُرض كتابه :

الخير مُتَّبَعٌ ، وأموال الملوك مَظَانّ لطُلَّابِ الحاجات ، فاكتب أسماءهم ، وبين مرتبة كلٍّ واحدٍ منهم ليصير إليه على قدر استحقاقه ، ولا تُكَدِّرَنَّ معروفنا بالمَطْلِ والحجابِ . فقد قال الشاعر :

فإنك لَنْ تَرَى طَرْدًا لِحُرٍّ كإلصاقٍ به طَرَفَ الْهَوَانِ
وَلَمْ تُجْلَبْ مَوَدَّةُ ذى وفاء بِمِثْلِ الوُدِّ أو بَذْلِ اللِّسَانِ

« ١٨ »

وكتب إلى إبراهيم بن المهدى مع هدية أهداها إليه :

« الثقة بك قد سَهَّلَتِ السبيلَ إليك ، فأهديتُ هَدِيَّةَ من لا يَحْتَشِمُ إلى من لا يَغْتَنِم » .

« ١٩ »

وكتب إلى عليل :

« قد أذهب الله وَصَبَ العلة ونَصَبَها ، ووَفَّرَ أجْرَها وثوابها ، وجعل فيها من إرْغَام العَدُوِّ بعُقْبَاها ، أضعافَ ما كان عنده من السرورِ بفَتْحِ أُولاها » .

---

(١) المتّ : التوسل بقرابة . الحرمة (هنا): الذمة، ومن معانيها: مالايحل انتهاكه والمهابة والنصيب
(٢) من قولهم أجحف به الفقر: أى ضره وآذاه .
(٣) الطول والطائل والطائلة : الفضل والقدرة والغنى والسعة .

« ٢٠ »

وكتب فى الذمّ :

« أما بعد فإنى لا أعرف للمعروف طريقاً أَوْعَرَ من طريقه إليك . فالمعروف لديك ضائع . والشكرُ عندك مهجورٌ . وإنما غايتك فى المعروف أن تحقِره ، وفى وَلِيِّه أن تكفُرَه »

« ٢١ »

لما قويت شوكة نَصْر بن شَبَثٍ ، وهَزَم جيوش المأمون كتب إليه عمرو بن مَسْعَدَة على لسان المأمون :

أما بعد فإنك يانَصْرُ بنَ شَبَثٍ قد عَرَفْتَ الطاعة وعِزَّها وبَرْدَ ظِلِّها ، وَطِيبَ مَرْتَعِها ، وما فى خلافها من النَّدَم والخسارة ، وإن طالت مُدَّةُ الله بك ، فإنه إنما يُمْلِى لمن يلتمس مظاهرة الحجة عليه لتقع عِبَرُه بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم . وقد رأيتُ إذْ كَارَكَ وتَبْصِيرَكَ لَمَّا رَجَوْتُ أن يكون لِمَا أكتب به إليك موقعٌ منك . فإن الصدقَ صِدْقٌ ، والباطلَ باطلٌ ، وإنما القول بمخارجه وأهلِه الذين يُعْنَوْنَ به ، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفعُ لك فى مالك ، ودينك ، ونفسك ، ولا أحرصُ على إنقاذك ، والانتياشِ لك من خطئك منى . فبأىّ أوّل ، أو آخر ، أو سلطة ، أو إمْرة ، إقدامُك يانصرُ على أمير المؤمنين ، تأخذ أمواله وتَتَوَلَّى دونه ماولاّه الله ، وتريد أن تَبيتَ آمناً مطمئناً ، أو وادعاً ساكناً ، أو هادئاً . فوعالم السرّ والجهر ، لئن لم تكن للطاعة مُرَاجِعاً ، وبها خانعاً ، لَتَسْتَوْبِلَنَّ وَخَم العاقبة . ثم لأَبْدَأَنَّ بك قبل كلّ عمل . فإن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت فتنةً فى الأرض ، وفساداً كبيراً ، أَمَا لأَطأَنَّ بمن معى من أنصار الدولة كَوَاهِلَ رَعاع أصحابك ، ومن تأشّب

إليك من أدانى البلدان ، وأقاصيها ، وأَوْبَاشها ، ومن أُنضوى إلى حَوْزَتك من خُرّاب الناس ، ومن لفظه بلده ونفَتَه عشيرته ، لسوء موضعه فيهم . وقد أعذر من أنذر والسلام .

« ٢٢ »

ومن أبلغ ما كتبه وتلطف فيه بتوصيل شكوى الجند الذين تأخرت أرزاقهم إلى المأمون من غير أن يكون منه إيلام للخليفة ولا اعتداء على سامى مقامه وعظيم مكانته ، وكان هو الذى أخَّر أعطياتهم :

كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومَنْ قبلى من قُوّاده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة ، على أحسن ما تكون عليه طاعةُ جندٍ تأخرتْ أرزاقُهم ، وانقيادُ كُفاةٍ تراختْ أعطياتهم ، واخْتَلَّتْ لذلك أحوالهم والْتَاثَتْ معه أمورهم .

« ٢٣ »

ولإبراهيم بن العباس الصُّولىّ الذى كان يلقب بكاتب العراق ، وتقلب فى أعمال النواحى والدواوين ولكنه لم يقلد الوزارة لما اشتهر عنه من اللهو والاستهتار فيه ، يشكو إلى بعض إخوانه :

لا أزال أبقاك الله ، أسأل الكتابَ إليك ؛ فمرة أتوقف توقُّفَ المخفف عنك من المؤونة ، ومَرّةً أكتب كتاب الراجع منك إلى الثقة ، والمعتمد منك على المَقيل[1] لا أَعْدَمَنَا الله دوام عزك ، ولا سَلَبَ الدنيا بَهْجَتها بك ولا أَخْلاَنا من الصُّنْع[2] لَكَ .

---

(١) المقيل: يراد به الملجأ، وهو من القائلة وهى نصف النهار يهدأ فيه الناس ويستكنون من حر الهاجرة
(٢) الصنع: العمل الجميل، ومعنى من الصنع لك أى الصنع المنسوب إليك، وكانت العبارة تؤدى بقولك صنعك لولا أنه أراد أن يزاوج بين هذه الفقرة وبين قوله بهجتها بك .

فإنا لا نعرف إلا نعمتك ، ولا نجد للحياة طَعْماً إلا فى ظلك ، ولئن كانت الرَّغْبَة إلى بَشَر[١] من الناس خَسَاسَةً وذُلاً ، لقد جعل الله الرغبة إليك كرامة وعزّا ؛ لأنك لاتعرف حُرّا قعد به دهره إلاسَبَقْتَ مساءلَتَه بالعطية، وصُنْتَ وجهه عن الطلب والذِّلة .

« ٢٤ »

وخرج أهل حمص على الخليفة المتوكل داعين إلى العصبية[٢] ، فكتب إبراهيم هذا إليهم على لسان المتوكل : أما بعد : فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما قوّم به من أَوَد ؛ وعدل به من زيغ ، ولمّ به من منتشر ، استعمال ثلاث يقدم بعضهن على بعض : أولاهنّ مايتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم مايستظهر[٣] به من تحذير وتخويف، ثم التى لا يقع بحسم الداء غيرها[٤] :

أَنَاةٌ فإنْ لم تُغْنِ عَقَّبَ بَعْدَها ... وَعِيداً فإنْ لَمْ يُغْنِ أَغْنَتْ كَتَائِبُهْ

نماذج من كتابة البلغاء

فى المدة الثانية من العصر العباسى

[ابن العميد] ، وهو فارسىّ الأصل، ارتقت به همته و بلاغته، حتى صار وزير ركن الدولة ابن بويه سنة ٣٢٩ هـ ، وهو الذى قيل فى شأنه : بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد ، توفى سنة ٣٦٠ هـ .

---

(١) الرغبة إلى بشر : أى الطلب منه ، يقال رغبت إلى فلان فى كذا : أى طلبته منه .

(٢) وفى رواية صبح الأعشى أن أهل حمص وثبوا بعامل المتوكل عليها ثم بآخر فأرسل اليهم هذا الخطاب ، ولا تنافى بين الروايتين فقد يكون وثوبهم على العامل بسبب دعوتهم إلى العصبية .

(٣) استظهر : استقوى .

(٤) فى رواية «لاينفع حسم الداء غيرها».

« ١ »

كتب (وقد أجمع أهل البصر بالأدب على أن هذه الرسالة هى خير كلامه) إلى بَلْكَا بن وَنْدَاد عند استعصائه على ركن الدولة . فأنزله عن استعصائه ، وجره بزمام كلامه . وقال بَلْكا : والله لقد أغنى كتابه عن الكتائب فى عَرْك[1] أديمى واستصلاحي وردّى إلى طاعة صاحبي . قال :

كتابي وأنا مترجح بين طمعٍ فيك ، ويأسٍ منك ، وإقبالٍ عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تُدِلّ[2] بسابق حرمة ، وتَمُتّ بسالف خدمة . أيسرُهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تَشْفَعُهما بحادث غُلُول[3] وخيانة ، وتُتْبِعهما بأُنُف[4] خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يُحْبِط أعمالك ، ويَمْحَق كلّ ما يُرعى لك . لا جَرَم . إنى قد وقفت بين ميل إليك وميل عنك ، أقدّم رِجْلا لصِدْمِك وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأَبْسُط يداً لاصْطِلامِك واجتياحك ، وأَثْني ثانيةً لاستبقائك واستصلاحك ، أَتوقَّفُ عن امتثال بعض الأمور فيك ، ضَنًّا بالنعمة عندك ، ومنافسة فى الصنيعة لديك ، وتأميلا لفَيْئَتِك وانصرافك ، ورجاءً لمراجعتك وانعطافك ، فقد يَعْزُب العقل ثم يَثُوب ، ويَعْزُب اللبّ ثم يثوب ، ويَذْهَب الحَزْمُ ثم يعود ، ويَفْسُد العزم ثم يَصْلُح ، ويُضاع الرأى ثم يُستدرَك ، ويَسْكر المرء ثم يَصْحو ، ويَكْدَرُ[5] الماء ثم يصفو ، وكلّ ضيقة

---

(١) العرك : الدلك . وبابه نصر .

(٢) الإدلال : الثقة بالعفو .

(٣) الغلول : الخيانة فى الغنيمة . وبابه نصر ، وأما من الحقد فبابه ضرب .

(٤) الروضة الأنف (كعنق) : التى لم ترع . والكأس الأنف : التى لم يشرب منها ، والأمر الأنف : الذى لم يسبق بمثله .

(٥) كدر من بابى طرب وسهل ، والوصف منه كدر (كفرح) وكدر (كسهل).

فإلى رَخاء[1] وكلّ غَمْرة فإلى انجلاء ، وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم يحْتَسِبه[2] أولياؤك ، فلا بِدْعَ أن تأتى من إحسانك بما لا يَرْتقبه أعداؤك ، وكما استمرّت بك الغفلة حتى رَكِبْتَ ما ركبت واخْتَرْتَ ما اخترت ، فلا عجب أن تنتبه انتباهةً تُبْصر فيها قُبْحَ ما صنعتَ، وسُوء ما آثرت ، وسأُقيم على رَسْمِى[3] فى الإبقاء والمماطلة ماصَلَح ، وعلى الاستيناء والمُطاولة ما أمكن ، طمعاً فى إنابتك ، وتحكيماً لحسن الظنّ بك ، فلست أعْدَم فيما أُظاهره من إعذار ، وأُرادفه من إنذار، احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك . فإن يَشَإِ الله يُرْشِدْك ، وَيأْخُذْ بك إلى حظّك ويُسَدِّدك ، فإنه على كل شىء قدير ، وبالإجابة جدير .

وزعمتَ أنك فى طَرَف من الطاعة بعد أن كنت مُتَوَسِّطها . وإذا كنت كذلك فقد عرفْتَ حالَيها . وحلَبْتَ شَطْرَيْها[4] فنَشَدْتُك[5] الله لَمّا صَدَقْتَ عما سألتُك : كيف وجَدْتَ ما زُلْتَ عنه ، وكيف تَجِدُ ماصِرْتَ إليه ؟ ألم تكن من الأوّل فى ظلّ ظليلٍ ، ونسيمٍ عليلٍ ، وريحٍ بَليلٍ ، وهواء نَدِيّ ، وماء رَوِيّ ، ومِهادٍ وَطِيّ ، ورُكْنٍ رَكِين ، ومَكانٍ مَكِين ، وحِصْنٍ حَصِين . يَقيك المَتالفَ ، ويُؤْمِنُك المخاوف ، ويَكْنُفُك من نوائب الزّمان ، ويحفظك من طوارق الحِدْثان[6] عَزَزْتَ به بعد الذِّلّة ، وكَثُرْتَ بعد القِلّة ، وارتفعت بعد الضَّعة ، وأيْسَرْتَ بعد العُسْرة ، واستغنيتَ بعد المَتْرَبة ، واتّسَعْتَ

---

(١) الرخاء : لين الأمر واتساعه ، والرخاء (بالضم) : الريح اللينة.

(٢) احتسبت الرجل : اختبرت ماعنده . والمعنى هنا أنهم لم يعرفوا فيك هذا كأنهم اختبروه فلم يجدوه ينطوى على مثل مافعل ، أو أنهم لم يشكوا فى وجوده فيه فلم يفتشوا عنه .

(٣) الرسم : الطريقة وماخططته لنفسك لتسير على نهجه .

(٤) للناقة شطران: مقدم ومؤخر، ولكل شطر خلفان (حلمتا ثدى).

(٥) نشد (كنصر) : سأل كناشد، قال فى شرح القاموس: ولا يجىء بعدها إلا لفظ الا ولما والاستفهام والنهى والأمر، وهذا هوالمحلوف عليه أو جواب القسم .

(٦) حدثان : جمع حدث، وهو صرف الدهر .

بعد الضِّيقة ، وظَفِرْت بالولايات ، وخَفَقَتْ فوقك الرّايات ، وَوَطِئَ عَقِبك الرِّجالُ ، وتعلّقَتْ بك الآمال ، وصِرْتَ تُكَاثِرُ وَيُكَاثَر بك ، وتُشِير وَيُشَارُ إليك ، ويُذْكر على المنابر اسمك ، وفى المحاضر ذِكْرك ، ففيم الآنَ أنت من الأمر ؟ وماالعِوَضُ عما عَدَدْتُ ، والخَلَف مما وصفتُ ، وما استفدتَ حين أَخْرجْتَ من الطاعة نفسَك ، ونَفَضْتَ منها كَفَّك ، وَغَمَسْت فى خِلافها يَدَك ، وما الذى أظلك بعد انحسار ظِلِّها عنك ؟ أَظِلٌّ ذو ثلاث شُعَب لا ظليلٌ ولا يُغْنِى من اللَّهَب ؟ قل نعم . كذلك . فهو والله أَكثفُ ظلالك فى العاجلة ، وأَرْوَحُها فى الآجلة ، إن أقمتَ على المحايدة والعُنُود[1] ووقفْتَ على المُشَاقَّةِ والجُحود . . . تأملْ حالك ، وقد بلغتَ هذا الفصل من كتابى فستُنْكِرُها ، والمِسْ[2] جسدك وانظر هل يَحُس[3] وجُسَّ[4] عِرْقك وانظر هل يَنْبِض ؟ وفَتِّشْ ما انحنت عليه أضلاعك هل تَجِدُ فيه قَلْبَك ؟ وهل حَلِيَ[5] بصدرك أَنْ تَظْفَرَ بفَوْتٍ سَرِيع[6] ، أو موت مُرِيح . ثم قِسْ غائبَ أمرك بشاهده ، وآخر شأنك بأوله . . . روى الثَّعالبىّ عن بَلْكا ، وكان من آرب[7] أمثاله أنه كان يقول : والله ما كانت حالى عند قراءة هذا الفصل من كتابه إلا كما قال ! !

« ٣ »

وكتب ابن العميد أيضاً فى غرض دقيق ، ومقام حرج ، إلى صديق تزوّجت أمه على رغمه :

الحمد لله الذى كشف عنا سَتْر الحَيْرة ، وهدانا لسَتْر العورة ، وجَدَعَ بما شَرَعَ أَنْفَ

---

(١) العنود : مصدر عند (كنصر وجلس وسمع) بمعنى مال عن الشيء أو عرف الحق وجانبه .

(٢) لمس الشيء (كضرب ونصر) مسه بيده .

(٣) حس الشيء وبه (كنصر) وأحس كذلك : وجد حسه وشعر به .

(٤) جس الشيء (كنصر) : لمسه .

(٥) قال الأصمعى يقال حلى (كفرح) فى عينى ، وحلا (كنصر) فى فمى : أى وجدت حسنه وحلاوته

(٦) الأمر السريع : العاجل الذى لامطل فيه .

(٧) آرب : أعقل .

الغَيْرة ، ومَنَع من عَضْل[١] الأمّهات كما منع من وَأْد البنات، استنزالا للنفوس الأبيّة عن الحَميّة حَميّة الجاهلية ثم عرّض للجزيل من الأجر من استسلم لواقع قضائه ،وعوّضَ جَزيل الثواب والذُّخْر ، مَنْ صَبَرَ على نازل بلائه . وهَنّأك الله الذى شرح للتقوى صدرك ، ووسع فى البلوى صبرك ، ماألهمك من التسليم لمشيئته ، والرضا بقضيّته، وماوفّقك له من قضاء الواجب فى أحد أبويك ، ومَنْ عَظُم حقّه عليك . وجعل الله تعالى جَدّه[٢] ماتجرّعْتَه من أَنَف ، وكَظَمْتَه من أَسَفٍ ، معدودا فيما يَعْظُم عليه أجرُك ؛ ويَجْزُل[٣] به ذُخْرُك ، وقَرَنَ بالحاضر من امتعاضك لفعلها ، المنتظرَ من ارتماضك[٤] لدفنها ، فتَسْتَوْفِى بها المصيبةَ ، وتستكملُ عنها المَثُوبَة ، فوصل الله لسيدى مااستشعره من الصبر على عُرْسها[٥] بما يَسْتَكْسِبه من الصبر على نَفْسها ، وعَوّضه من أسِرّة فَرْشها ، أعواد نعشها . وجعل تعالى جَدُّه ما ينعم به عليه بعدها من نِعَمِه ، معرى من نِقَمِه . وما يُوليه بعد قبضها من مِنَحِه مُبَرّأً من مِحَنه ، فأحكام الله تعالى جَدُّه ، وتقدّستْ أسماؤه جاريةٌ على غير مُراد المخلوقين ، ولكنه تعالى يختار لعباده المتقين ماهو خير لهم من العاجلة ، وأبقى لهم فى الآجلة . اختار الله لك فى قبضها إليه ، وقدومها عليه ماهو أنفع لها وأوْلى بها ، وجعل القبر كفؤا لها والسلام .

[الصاحب بن عباد] : لزم ابن العميد وعرف بصحبته وسُمّى الصاحب ، ثم حل محله عند بنى بويه ، فكان وزير مؤيد الدولة أحد ملوك بنى بويه ، ثم بقى مع أخيه فخر الدولة لما حلّ محله، و بقى مبجلا عنده نافذ الأمر حتى مات بالرىّ سنة ٣٨٥ ه

---

(١) العضل : منع التزويج .
(٢) الجد : العظمة .
(٣) جزل (كـكرم) : صار عظيما .
(٤) الارتماض : التوجع والتحرق واشتداد الأمر .
(٥) العروس : المرأة والرجل ماداما فى أعراسهما، وجمعه للرجل عرس، وللمرأة عرائس.

« ٣ »

كتب من رسالة بعث بها إلى ابن العميد جواباً عن كتابه إليه فى وصف البحر :

وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادراً عن شط البحر بوصف ما شاهد من عجائبه ، وعاين من مراكبه ، ورآه من طاعة آلاته للرياح كيف أدارتْها ، واستجابةِ أدواتها لها متى نادتها ، وركوبِ الناس أشباحَها[١] ، والخوفُ بمرأًى ومَسْمَع ، والمنون بمَرْقَبٍ ومَطْلَع ، والدهرُ بين أخذٍ وترك ، والأرواحُ بين نجاة وهُلْك . إذا فكروا فى المكاسب الخطيرة هان عليهم الخَطَر ؛ و إذا لاحت لهم غُرَر[٢] المطالبِ الكثيرةِ حُبِّب إليهم الغَرَر[٣] . وعرفْتُ مافاله من تمنيه كونى عند ذلك بحَضْرَته ، وحصولى على مساعدته ، ومن رأى بحرالأستاذ كيف يَزْخَر[٤] بالفضل ، وتتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم ، لم يَعْتِب[٥] على الدهر فيما يُفيتُهُ من منظر البحر ، ولا فضيلة له عندى أعظمُ من إكبار الأستاذ لأحواله ، واستعظامه لأهواله ، كما لاشىء أبلغُ فى مفاخره ، وأنفسُ فى جواهره ، من وصف الأستاذ له ، فانى قرأت منه الماءَ السلسال ، لاالزّلزال[٦] ؛ والسِّحْرَ الحرام لاالحلال ، وقد علمت أنه كتب ولم يخطر بفكره سعة صدره ، فلو فعل ذلك لرأى البحر وَشَلا[٧] لا يفضل عن التَّبَرُّض[٨] وَثَمَدا[٩] لا يكثر عن التَّرَشُّف[١٠] .

---

(١) أشباح : جمع شبح ، وهو شخص الشىء .
(٢) الغرر : جمع غرة ، وهى من كل شىء أحسنه .
(٣) الغرر : اسم مصدر ، من غرّر بنفسه إذا عرضها للهلاك .
(٤) زخر (كمنع) البحر : طفا وتملأ .
(٥) عتب (كنصر وضرب وفرح) : لام . واستعتبه : أرضاه أو طلب منه أن يرضيه (ضد) . العتب (بالكسر) : الكثير العتاب . العتوب : من لايعمل فيه العتاب .
(٦) المراد بالزلزال ماء البحر ، لأنه باضطرابه يزلزل ماحوله . أما الزلزال بكسر الزاى فهو المصدر بمعنى الزلزلة . وهكذا كل ما كان على هذه الصيغة من مضعف الرباعى فهو بفتح أوله اسم فاعل وبكسره مصدر .
(٧) الوشل . الماء القليل يتحلب من نحو صخرة أو جبل ولا يتصل قطره .
(٨) التبرض : التبلغ بالقليل . والبرضة : ماتبلغت به من الماء .
(٩) الثمد والثماد : الماء القليل لامادة له .
(١٠) الترشف كالتبرض : أن يؤخذ قليلا قليلا .

وكَمْ مِنْ جبالٍ جُبْتَ تشهد أنَّكَ الْـــجبالُ وبَحْرٍ شاَهدٍ أنَّك البحرُ

« ٤ »

وكتب فى مصحف أُهْدِيَ إليه :

البرّ أدام الله الشيخ أنواع ، تَطُولُ به أَبْوَاعٌ[١] ، وتقصر أبواع ، فإن يكن فيها ما هو أكرم مَنْصِبا[٢] وأشرف مَنْسَبا[٣] ، فتحفة الشيخ إذ أهدى إلىّ مالا تشاكله النِّعَم ، ولا تعادله القِيَم : كتابَ الله وبيانَه ، وكلامَه وفُرقانَه[٤] ، ووحيه وتنزيلَه ، وهُداه وسبيلَه ، ومعجزةَ رسول الله صلى الله عليه ودليلَه . طَبَعَ من دون معارضته على الشِّفاه ، وخَتَم على الخواطر والأفواه ، فقصَّر عنه الثَّقَلانِ[٥] ، وبَقِيَ-ما بَقِيَ المَلَوَان[٦]- ، لائحٌ سِراجُه ، واضحٌ منهاجُه ، مُنيرٌ دليلُه . عميقٌ تأويلُه ، يَقْصِم كلَّ شيطانٍ مَرِيدٍ[٧] ويُذِلّ كلَّ جبّارٍ عنيد ، وفضائلُ القرآن لا تُحْصَى فى ألف قرآن[٨] ، فأصفُ الخَطَّ الذى بَهَرَ الطَّرْفَ ، وفاق الوَصْف ، وجَمع صِحَّةَ الأَقْسام ، وزاد فى نَخْوَة الاقْلام ، بل أصفه بتَرْكِ الوَصْف . فأخباره آثارُه ، وعَيْنه فِرَارُه[٩] . وحقًّا أقول : إنى لا أَحْسَب أحدًا ماخلا الملوك جمع من المصاحف ماجمعْتَ ، وابتدع فى استكتابها ماابتدعْتَ ، وإن هذا المصحف لزائدٌ على جميعها زيادةَ الفَرْعة[١٠] على الغُرَّة ، بل زيادة الحج على العُمْرة :

(١) الباع : مقدار مابين اليدين إذا مدتا.

(٢) المنصب : الأصل والمرجع والفعل كضرب .

(٣) نسبه (كضرب ونصر) : ذكر نسبه .

(٤) الفرقان : كل ما فرق بين الحق والباطل . ويطلق على التوراة والقرآن وهو المراد هنا .

(٥) الثقلان : الجن والإنس .

(٦) الملوان : الليل والنهار ، والواحد ملا .

(٧) مريد : عات .

(٨) قرآن الثانية بمعنى مقروء .

(٩) فر الدابة : كشف أسنانها ليعرف عمرها. والمعنى أن ظاهره دليل عليه، والعين هنا ذات الشىء.

(١٠) فرعة الشىء : أعلاه . وغرته : أوله ومقدمه .

لَقَدْ أَهْـــدَيْتَهُ لُطْفًا نَفِيساً   وَمَا يُهْدِي النَّفِيسُ سِوَى النَّفِيسِ

[أبو إسحٰق الصَّابى[١]] : نشأ يتعلم الطبّ على غير رغبته ، ومازال حتى توفر على الأدب ، واتصل بالوزير المُهَلَّبيّ وزير عزّ الدولة فولاه ديوان الرسائل ، وكان ينوب عنه فى أعمال الوزارة حين يغيب ، وقد سجن طويلا لحقد[٢] عضد الدولة عليه . ثم عفا عنه فبقى بقية حياته لا يكتسب أنفة منه حتى مات سنة ٣٨٤ هـ ، وكان مع صابئيته يحفظ القرآن و يصوم مع المسلمين رمضان .

« ٥ »

كتب إلى بعض أصدقائه يستميحه حين أساءت إليه الأيام :

ولما صارت صروفُ الدهر تَتَوَغّلُ بعد التَّطَرُّف[٣] ، وتُجْحِف[٤] بعد التَّحَيُّف[٥] ، وصادف ما تجدَّدَ عليَّ فى هـــذا الوقت منها أشلاء[٦] منى مَنْهُوكة ، وأعظما مَبْرِيّة . وحُشاشةً مُشْفِيَةً و بَقِيَّةً مُودِيَة ، جعلت أختار الجهات ، وأَعْتام[٧] الجَنَبَات[٨] لأنْحُوَ منها مالا يُعاب سائله إذا سأل ، ولا يَخِيبُ آمله إذا أمّل، وكان سيدى أولها إذا عددْتُ،

---

(١) الصابئة ، قيل هم عباد الكواكب، وقيل هم قوم بين النصارى والمجوس. وقال الزمخشرى: هم قوم صبئوا عن دين النصارى ودين اليهود وعبدوا الملائكة، وقيل هم يعبدون الأجرام السماوية والنار

(٢) كان الصابى يكتب عن عز الدولة بن بختيار بن معز الدولة وربما كانت تصدر عنه رسائل إلى عضد الدولة وفيها مايؤلم فلما ملك عضد الدولة بغداد بعد قتل عز الدولة اعتقله وكلفه فى السجن أن يكتب تاريخ بنى بويه . وقيل لعضد الدولة إن صديقا للصابى دخل عليه وهو يعمل فى الكتاب فقال له هـــذه أباطيل أعقها وأكاذيب ألفقها فهاج عقل عضد الدولة فأبعده ومازال مبعدا طول مدته .

(٣) طرفت الناقة : رعت أطراف المرعى ولم تختلط بالنوق كتطرفت .

(٤) أجحف بالشىء : ذهب به .

(٥) التحيف : التنقص من الأطراف .

(٦) لأشلاء : جمع شلو ، وهو العضو .

(٧) اعتام : أخذ العيمة وهى الخيار .

(٨) الجنبات : جمع جنبة ، وهى الناحية .

وأولاها إذا أُعتمدْتُ ، وكتبت كتابى هــذا بيد يكاد وجهى يَتَظَلَّمُ منها إذ تَخُطُّه . إشفاقا على مائه مما يُرِيقه ، لولا الثقة بأنه يَحْقِنُ مياه الوجوه ويَحْمِيها ويُجِمّها[١] ولا يُقْذِيها .

« ٦ »

وكتب أبو إسحٰق إلى الصاحب بن عباد يعتذر عن تأخر كتبه ويثنى عليه :

أنا أعتذر إلى سيدى أطال الله بقاءه من تأخر كتبى عن حضرته الجليلة ، بعذر إذا تأمّله حقّ تأمّله ، وعرضه على نَقْده وتمييزه ، وعَرَف صِدْق منطقه ، وخُلوصَ مَصْدَره علم أنى مواصلٌ بباطن مرادى ، وإن صَرَمْتُ بظاهر فعلى ، وملازمٌ بخافى مقصدى ، وإن أخللتُ ببادى مَسْلكى ، وهو أنى جَرَّبْتُ مكاتبته أيده الله مواظباً عليها مُكِبّا[٢] ، ومراخياً بين أوقاتها مُغِبّا[٣] لأتبع أحَبَّ الأمرين إليه ، وأوقعهما لديه ، فلما لاح لى أن الإجمام أنفق ، والتَّرْفيهَ أوْفَق ، وَوَثِقْتُ بأن رأيه علىّ فى الحالين محروسُ النواحى والجوانب ، مَحْمِىُّ الشرائع والمشارب ، اقتصرت على أن أتعرّف أخباره ، وأُسَرّ باستقامتها وانتظامها . وأتَنَسَّم أحواله وأسْكُنَ إلى إطرادها والتئامها . وأبتهج بما يصير إليه أيده الله من ذِرْوة مرتبة يَعْتَليها ، وغارب مَرْقَبَة يمتطيها ، وأن أُدِلّ المتحدثين عنهما ، والسامعين بهما ، على أنه لم يستوف بعدُ حَظّه ، ولم يستوعِبْ قِسْطَه ، فإن للدنيا مواعيد[٤] فيه ، لا بدّ أن يَنتَجِّزَها بمساعيه . . . .

« ٧ »

كتب رجل إلى محمد بن عبد الله :

---

(١) أجم البئر ، تركها ليتجمع ماؤها . وجمت هى تجم جما وجماما (بفتح الجيم فيهما) .
(٢) كبه على وجهه (كنصر) ، صرعه فأكب . وهذا نادر أن يكون الثلاثى متعديا والرباعى لازما
(٣) أغب ، أتى غبا وهو فى الزيارة أن تكون كل أسبوع ، وفى الورد ان ترد يوما وتظمأ يوما ، وفى الحمى أن تجىء يوما وتدع يوما .
(٤) مواعيد ، جمع موعود .

إن من النعمة على المثنى عليك ألا يخاف الإفراط ولا يأمن التقصير، ولا يحذر أن تلحقه نقيصة الكذب ، ولا ينتهى من المدح إلى غاية إلا وجد من فضلك عونا على تجاوزها . ومن سعادة جَدِّك أن الداعى لك لايَعْدَم كثرة المادحين ومساعدةً من النِّيَّةِ على ظاهر القول .

نماذج من كلام البلغاء

فى المدة الثالثة من العصر العباسى

[أبو علىّ عبد الرحيم] بن القاضى الأشرف البَيْسانى[١] اللَّخْمىّ العربى كاتب الديار المصرية أواخر أيام الدولة الفاطمية ، وأوائل الدولة الأيوبية المعروف بالقاضى الفاضل المتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٦ هـ .

« ١ »

كتب على لسان خطيب عَيْذاب[٢] إلى صلاح الدّين يتشفع له فى توليه خطابة الكَرْك[٣] قال :

أدام الله السلطان الملك الناصر وثبَّتَهُ . وتقَبَّل عمله بقبول صالح وأثْبَتَهُ ، وأخذ عدوّه قائلا أو بَيَّتَهُ ، وأرغم أنفه بسيفه وكَبَتَهُ .

خدمة[٤] المملوك هذه واردة على يد خطيب عَيْذاب ، ولمّا نَبَا به المنزلُ عنها وقَلّ المَرْفَق[٥] منها ، وسمع هذه الفتوحات التى طَبّق الأرض ذِكْرُها ، ووجب على أهلها

---

(١) بيسان ، مدينة بالأردن بالغور الشامى .
(٢) عيذاب ، من بلاد مصر على شاطئ البحر الأحمر وهى قبال جدة من بلاد الحجاز .
(٣) الكرك ، بلدة بلحف جبل لبنان وهى خلاف الكرك (بالتحريك) وهى قلعة بنواحى البلقاء .
(٤) الخدمة ، المراد بها الرسالة .
(٥) المرفق الانتفاع .

شُكْرُها ، هاجر من هَجِير عَيْذاب ومِلْحها ، سارياً فى ليلة كلها نهار ، فلا يسأل عن صُبْحها ، وقد رَغِب فى خطابة الكَرْك وهو خطيب ، وتوسل بالملوك فى هذا الملتمس وهو قريب ، ونَزَع من مصر إلى الشام وعن عَيْذاب إلى الكَرْك وهذا عجيب ، والفَقْرُ سائقٌ عنيف ، والمذكور عاقلٌ(١) ضعيف ، ولُطْفُ الله بالخلق بوجود مولانا لطيفٌ ، والسلام .

« ٢ »

وله يصف حمام الرّسائل :

تَحْمِل من البطائق أجنحةً . وتُجَهِّزُ جيوشَ المقاصد ، والأقلام أسلحة ، وتحمل من الأخبار ماتحمله الضمائر ، وتطوى الأرض إذا نشرت الجناحَ الطائرَ ، وتكون مراكبَ الأغراض والأجنحةُ قُلُوعًا ، وتركب الجوَّ بحراً يُصَفِّق فيه هبوبُ الرياح موجا مرفوعًا ، ومن بلاغات البطائق استفادت ماهى مشهورة به من السجع ، ومن رياض كتبها ألِفَتِ الرِّياضَ ، فهى إليها دائمة الرَّجْع ، وقد سكنتِ النجومَ فهى أنجم . وأُعِدَّتْ فى كنانتها فهى أسْهُم ، وكادت تكون ملائكة لأنها رسل نيطت بها الرِّقاع ، فصارت أولى أجنحة مَثْنَى وثُلَاثَ ورُبَاع ، وقد باعد الله مابين أسفارها وقرَّبها . وجعلها طَيْف خيال اليقظة الذى صَدَّق العينَ وما كَذَّبَها(٢) تُرْغِم أنف النوى بتقريب العهود ، وتكاد العيون بملاحظتها تلاحظ نَجْمَ السعود ، وهى أنبياء الطيور لكثرة ماتأْتى به من الأنباء ، وخطباؤها لأنها تقوم على منابر الأغصان مقام الخطباء .

« ٣ »

وله عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى بعض الأمراء

---

(١) عاقل ، اما معناه ذوعقل وفهم ، أوهو من عقل الدية إذا قام بها بدل الجانى ومنه العاقلة وهم عصبة الرجل لأنهم يعقلون عنه . والمراد بكونه عاقلا أنه ذو أسرة يضمن لهم الرزق ويقوم بأمورهم .

(٢) أى جعلها صادقة غير كاذبة .

بالشام عند وفاة السلطان نور الدّين محمود ، وهى :

كتابنا هذا إلى الأمير مُعَزّين بالرُّزْءِ الذى كَمَلَتْ أقسامُه وتمت ، ورَمَتْ أحداثه القلوبَ فأَصْمَتْ . وطرَقَتْ أحاديثُه الأسماعَ فأَصَمَّتْ ، وأبى أن تَعْفُو كلومه ، وكاد لأجله الأفق تنكسف بدوره ، وتَنْكَدِرُ نجومه ، وثُلِم جانب الدّين لفقد من لولاه لدَرَسَتْ(١) أعلامه ، ولم تُدْرَس(٢) علومه ، وفجأ فاستولى على كلّ قلب وجيبُه ، وعلى كلّ خاطر وُجُومه . بانتقال المولى « نور الدّين » إلى سكنى دار السلام ، وقدومه على ما أعدّه الله له من جزاء ذَبّه عن الإسلام ، وبَكَى أهلُه على فقد عزائمه التى بها حُفظتْ وحُرِستْ ، وشَكَتِ الممالك وَحْشَةَ بُعْده وإن ابتهجت الملائكة بقربه وأنست ؛ فلله هو ! ! من مصاب أغرى العيون بفَيْضِها ، ونقل الأولياء من المسرة ونعيمها إلى المساءة وقَيْظها ، وأوجبَ تناجى الكفار بالنَّجاة من تلك السَّطْوة التى لم تَزَلْ تَزِيدُها غما وتَرُدُّها بغيظها . . .

ومهنئين بما أسا الكَلْمَ وداواه ، وَحوى الحق إلى الجانب الأمتع وآواه . من جلوس ولده الملك الصالح ذى التصويب والتسديد مشمولاً منا بالعُرْف والنعيم والطَّوْل الجسيم ، جاريا على سننه المعهودة ، وعادته المحمودة فى رفع صالح أدعيتــه ، عن صفاء سريرته ، وخلوص عقيدته ، مســـتمرًّا على جميل تحيَّته . فى إمدادنا ببركته إن شاء الله تعالى .

« ٤ »

[وقال عماد الدّين الأصبهانى] فى كتابه : « الفتح القُسّى ، فى الفتح القُدْسى » ، يذكر فتح عَكّاء :

ورحل السلطان ظُهْر يوم الثلاثاء ظاهراً(٣) على أهل التثليث ، مُديلا(٤) للطَّيِّب

---

(١) درس الرسم : عفا .
(٢) من الدراسة ، وهى تفهم العلم ومراجعته .
(٣) ظاهرا : متغلبا .
(٤) مديلا : ناصرا .

مُزِيلا للخبيث ، وسار عسكره ، وثار عِثْيَره(١) ، وظَهَرَتْ رَاياتُه ، وَبَهَرَتْ آياتُه ، ونَعَرَتْ كُوساته(٢) ، وصاحت بوقاتُه ، وجالت خيولُه ، وسالت سيولُه ، وطَلَعَتْ فى سماء العَجَاج نجومُ خُرْصانه(٣) ، وقَلَعَتْ قلائعَ(٤) تلك الجبال جبالُ فُرْسانه ، وحَفَرَتْ حوافرُ الصَّلَادِمِ(٥) أَصْلَابَ(٦) الصِّلَادِ(٧) وَالصِّلَابِ(٨) ، وفَصُحَتْ بأعراب الحماحِمِ(٩) صواهلُ الجياد العِرَاب ، والأَسِنَّةُ مُشْرَعَة(١٠) ، والأَعِنَّةُ مُسْرِعة . وبحور السوابح متموِّجة مُتَرَجْرِجَةٌ ، وبوارق البيارق مُتَبَوِّجة(١١) ، وأوضاحُ الجُرْدِ وغُرَرُها كأَوضَاح النصر وغُرَره مُتَبَلِّجة ، ونزل عَشِيَّةً بأرض لُوبِيَةَ لداعى الفتح مُلَبِّياً ، ولجيش النصر مُعَبِّياً ، ولمولود المُلْكِ العَقِيم بتلقيح الحرب العَوَان مُرَبِّياً ، وبات بها مُعَرِّساً بَانِياً على عروس الظَّفَر البِكْر ، جانياً ثمار الأَمَانِى من غروس البيض والسُّمْر ، وأصبح وقد أصحب جماحُ الدهر ، وصَحَّ نجاح الأمر .

« ٥ »

كتب القاضى الفاضل إلى بعض إخوانه يستوحش منه ويتشوّق إليه ، (وقد أكثر فى الكتاب من الاستشهاد بالشعر) :

فيارَبِّ إن البَيْن أَضْحَتْ صُرُوفُهُ ... عَلَيَّ وَمَالِى مِنْ مُعِينٍ فَكُنْ مَعِى

---

(١) العثير : التراب ، والعجاج (الغبار) .

(٢) الكوس : الطبل (معرب) .

(٣) الخرصان (بضم الخاء وكسرها) : جمع خرص (مثلثة) وهو الرمح .

(٤) القلائع : لعلها جمع قلاع وهى جمع قلعة ، وهى الحصن فى الجبل .

(٥) الصلادم : جمع صلدم ، وهو الفرس الشديد الحافر .

(٦) أصلاب : جمع صلب ، وهو عظم الظهر من لدن الكاهل إلى العجب.

(٧) الصلاد : جمع صلد ، وهو الصلب الأملس (يريد الحجارة الشديدة) .

(٨) الصلاب : جمع صلب بمعنى الشديد .

(٩) الحماحم : جمع حمحمة وهى عرّ الفرس (صوته) حين يقصر فى الصهيل ويستعين بنفسه .

(١٠) شرع الرجل الرمح وأشرعها : سددها نحو القرن .

(١١) تبوّج البرق : تكشف.

على قُرْبِ عُذَّالِي وبُعْدِ أَحِبَّتِي   وَأَمْوَاهِ أَجْفَانِي وَنِيرَانِ أَضْلُعِي

هذه تحية القلب المعذَّب ، وسريرة الصَّبْرِ المُذَبْذَب ، وظُلاَمة عزم السُّلُوِّ المُكَذَّب ، أصدرتها إلى المجلس ، وقد وَقَدَ فى الحشا نارها : الزَّفير أُوارها ، والدُّمُوع شَرَارها ، والشوقُ آثارُها ، وفى الفؤاد ثارُها :

لَوْ زَارَنِي مِنْكُمْ خَيَالُ هَاجِرٍ   لَهَدَتْهُ فى ظُلُمَاتِهِ أَنْوَارُها

أسفاً على أيام الاجتماع التى كانت مواسمَ السرور والأسْرَار ، ومباسم الثغور والأَوْطار ، وتذكراً لأوقات عَذُبَ مَذَاقُها ، وامتدَّ بالأُنس رِواقها :

وَاللهِ ما نَسِيَتْ نَفْسِي حَلاَوَتَهَا   فَكَيْفَ أَذْكُرُ أَنِّي اليَوْمَ أَذْكُرُهَا

وقد فارقْتُ الجناب، لازال جنابه نضيراً، وسناسنائه مستطيراً، ومُلكه فى الخافقين[1] خافقَ الأعْلام ، وعزُّه على الجديدين جديدَ الأيَّام ، لم أَقِفْ منه على كتاب تُخلفُ سُطُورُه ما غَسَلَ الدَّمْعُ من سواد ناظرى ، و يُقْدِم ببياض منظومه ومنثوره ما وَزَّعَهُ البَيْنُ من سُوَيْداءِ خاطرى :

وَلَمْ يَبْقَ فِي الأَحْشَاءِ إلاَّ صُبَابَةٌ   مِنَ الصَّبْرِ تَجْرِى بالدُّمُوعِ البَوَادِرِ

وأسأله المَآب بشريف الجناب ، وأداءِ فَرْضِ تقبيل الأَرْض ، حَيْثُ تلتقى أمورُ الدنيا والآخرة ، وتَعْمُرُ البيوتَ العامرةَ المِنَن الغامرة ، وفَضْلُ الظل غيرُ منسوخ بِهَجيره ، و يُبَشِّر المجدُ بشخصٍ لا تَسْمَحُ الدنيا بِنَظِيره :

تَظَاهَرَ فى الدُّنْيا بِأَشْرَفِ ظاهرٍ   فلم تَرَ أَنْقَى منه غَيْرَ ضَمِيرِه
كَفَانِيَ فخراً أن أُسَمَّى بِعَبْدِه   وَحَسْبِي هَدِيًّا أَنْ أَسِيرَ بِنُورِه
فَأَيُّ أَميرٍ لَيْسَ يَشْرُفُ قَدْرُه   إذا ما دعاه صادقا بأميرِه

« ٦ »

ومن ذلك أيضا قوله :

---

(١) الخافقان : الشرق والغرب أو أفقاها لأن الليل والنهار يختلفان فيهما .

وصل من الحضرة :

كتابٌ به ماء الحياةِ ونَفعُه الـــحَيا فكأنّى إذْ ظَفِرْتُ بِهِ الخِضْرُ

فوقفت عنده منه على :

عُقُودٍ هى الدُّرُّ الذى أنْتَ بَحْــرُهُ وذٰلِكَ مَا لاَ يَدَّعِى مِثْــلَهُ الْبَحْرُ

ورَتَعْتُ منه فى :

رِيَاضِ يَدٍ تَجْنِى وَعَـــيْنٍ وَخَاطِرٍ تَسَابَقَ فيها النَّوْرُ وَالزَّهْرُ وَالثَّمْرُ

[أبو محمد القاسم بن علىّ] الحريرىّ البَصْرىّ له المقامات الخمسون التى عرفت شأنها. ولسنا بصدد أن ننقل لك منها نمـاذج ، فإنها بمتناول كلّ طالب ، وقد شاعت مطبوعة فى مصر منذ عهد بعيد . ولـكننا نذكر لك أنها تمثل كتابة عصرها من التزام السجع والعكوف على البـــديع ، ولذلك سننقل هنا ماأظهر فيه الحريرى براعته فى التلاعب بالألفاظ ، وعنايته بأنواع البديع من أحاجٍ ، وتضمين للأشعار والأمثال .

« ٧ »

قال فى المقامة الرابعة والعشرين القطيعيّة[١] ، وهى التى تتضمن إلقاء أبى زيد على جلسائه مسائل مُلْغِزة فى النحو :

فقال فأما إذا دعوتم نِزَال ، وتَلَبَّبْتُمْ للنضال . فمـا كلمة هى إن شِئْتُمْ حرفٌ محبوبٌ أو اسم لمـا فيه حرف حَلُوب ، وأىّ اسم يتردّد بين فرد حازم ، وجمع ملازم ، وأيّةُ هاء إذا التحقت أماطت الثِّقَل ، وأطلقت المعتَقَل ، وأين تدخل الســين فتعزِل العامل ، من غير أن تجامل ، وما منصوب أبداً على الظَّرْف ، لا يخفضه سوى حرف ، وأىّ مضاف أخلّ من عرى الإضافة بعُرْوة ، واختلف معناه بين مساء وغـــدوة ، وما العامل الذى يتصل آخره بأوّله ، ويعمل معكوسه مثل عمله . . الخ .

أراد بالـكلمة التى هى حرف محبوب أو اسم لمـا فيه حرب حلوب . كلمة « نعم » ،

(١) نسبة إلى قطيعة الربيع ، وهى محلة ببغداد .

فهى حرف جواب ، ثم هى اسم يطلق على الإبل وفيها الحرف ، وهى الناقة الضامرة .

وأراد بالاسم المتردّد بين فرد حازم وجمع ملازم ، كلمة سراويل ، فهى مفرد على بعض الآراء وجمع على رأى آخر ، ومعنى حازم أنه يربط على الخصر ، ومعنى ملازم أنه لا ينصرف .

وأراد بالهاء التى إذا التحقت أماطت الثقل ، وأطلقت المعتقل . الهاء اللاحقة للجموع مثل صيارفة وصياقلة ، فإن الكلمة بدونها ممنوعة من الصرف فهى ثقيلة وبها تخف فتصرف .

وأراد بالسين التى تعزل العامل ، من غير أن تجامل : السين الداخلة على المضارع وتفصل بينه وبين أن التى كانت قبلها ناصبة ، ثم صارت مخففة من الثقيلة فارتفع الفعل .

وأراد بالمنصوب على الظرف لفظ عند فهى لاتجر إلا بمن . وأراد بالمضاف الذى أخلّ من عرى الإضافة بعروه ، واختلف حكمه بين مساء وغدوة . لفظ لدن التى تضاف دائما ، ولكن إذا وقعت بعدها كلمة غدوة نصبت بها ونونت يقال لدن غدوة . وأراد بالعامل الذى يعمل معكوسه عمله حرف يا ومعكوسها أى وكلاهما للنداء .

« ٨ »

ومن مقاماته التى أبدع فيها وتلاعب بالألفاظ والحروف المقامة السادسة المراغية (نسبة إلى المراغة وهى موضع بأَذْرَبيجان) ، وهى تتضمن الرسالة التى إحدى كلماتها معجمة والأخرى مهملة جاء فيها :

الكرم ثبت الله جيش سعودك يزين . واللؤم غَضّ الدّهرُ جفن حسودك يَشين ، والأروع[١] يثيب ، والمُعْوِر[٢] يخيب ، والحُلاحِل[٣] يُضيف ، والماحل[٤] يخيف ،

(١) الأروع : الماجد الجميل الذى يروعك جماله .
(٢) المعور ، القبيح الفعل .
(٣) الحلاحل : السيد الركين الرزن .
(٤) الماحل : الواشى الماكر .

والسمح يَغْذى(١)، والَمحِك(٢) يُقْذى، والعطاء ينجى، والمِطال يُشْجِى، والدعاء يَقِى، والمدح ينـْقِى، والحرّ يَجْزِى، والإلطاط(٣) يُخْزِى، واطراح ذى حرمة غَىّ، ومحرمة بنى الآمال بَغْى. وما ضن إلا غَبِين(٤)، ولا غُبِن إلا ضَنِين . . . الخ .

« ٩ »

ومنها المقامة السادسة عشرة المغربية(٥)، وهى التى تتضمن العبارات التى تقرأ طرداً وردًا. قال فيها: فابتدر لمنحتى، صاحب ميمنتى وقال: (لُمْ أخًا مَلّ)، وقال ميامنه: (كَبّرْ رَجَاء أجْرِ رَبّك)، وقال الذى يليه: (مَنْ يَرُبُّ إذا بَرّ يَنْمُ)، وقال الآخر: (سَكّتْ كُلّ مَنْ نَمّ لَكَ تَسكِسْ) الخ .

« ١٠ »

ومنها المقامة السابعة عشرة القهقرية، وهى التى تتضمن الرسالة التى تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه قال فيها:

الإنسان صنيعة الإحسان، ورَبُّ(٦) الجميل فعل النَّدْب(٧)، وشيمة الحرّ ذَخِيرةُ الحمد، وكَسْبُ الشُّكرِ استثمارُ السعادة، وعنوان الكرم تباشير البِشْر، واستعمال

---

(١) يقال غذوته كغذيته . والجوهرى أنكره لأنه لم يعرفه كما يقول صاحب القاموس المحيط .
(٢) المحك : البخيل اللجوج .
(٣) الإلطاط : جحود الحق .
(٤) الغبين : ضعيف الرأى .
(٥) سميت مغربية لأن حادثتها جرت فى بعض بلاد المغرب .
(٦) الرب : التربية والتنمية .
(٧) الندب : الخفيف فى الحاجة .

المداراة يوجب المصافاة ، وعقد(١) المحبة يقتضى النُّصْح ، وصدق الحديث حِلْيةُ الإنسان وفصاحة المنطق سِحْر الألْباب ، وشَرَكُ الهوى آفةُ النفوس ، ومَلَلُ الخلائق شَيْنُ الخلائق(٢) ، وسُوء الطَّمَع يُباين الوَرَع ، والتزام الحزامة زِمَامُ السَّلاَمَة ، وتطاب المثالب شَرُّ المعايب ، وتَتَبُّعُ العَثَرَات يُدْحِضُ المودات ، وخُلُوص النية خلاصةُ العَطِيّة ، وتهنئة النوال(٣) ثمن السؤال ، وتَكَلُّف الكُلَف(٤) يُسَهِّل الخَلَف ، وتَيَقُّنُ المعونة يُسْنِى المئونة(٥) ، وفَضْل الصَّدْر سعة الصَّدْر(٦) ، وزينةُ الرعاة ، مَقْتُ السُّعَاة ، وجزاء المدائح بَثُّ المنائح ، ومَهْرُ الوسائل تشفيع(٧) المسائل ، ومجلبة الغواية استغراق الغاية ، وتجاوز الحدّ يُكِلُّ الحَدّ ، وتعدّى الأدب يُحْبِط القُرَب ، وتناسى الحقوق يُنْشِئُ العُقُوق ، وتحاشى الرِّيَب يرفع الرُّتَب ، وارتفاع الأخطار باقتحام الأخطار ، وتَنَوُّه الأقدار بمواتاة الأقدار ، وشرف الأعمال فى تقصير الآمال ، وإطالة الفكرة تنقيح الحكمة ، ورأس الرِّياسة تهذب السياسة ، ومع اللَّجاجة تُلْغَى الحاجة ، وعند الأَوْجَال تتفاضل الرجال ، وبتفاضل الهِمَم تتفاوت القِيَم ، وبتزيد السفير يَهِنُ التدبير ، وبخلل الأحوال تتبين الأهوال ، وبمُوجَب الصَّبْر ثمرة النصر ، واستحقاق الإحماد(٨) بحسب الاجتهاد ، ووجوب الملاحظة كِفاء المحافظة ، وصفاء المُوالى(٩) بتعهد المَوَالى ، وتَحَلِّى المروءات بحفظ الأمانات ، واختبار الإخوان بتخفيف الأحزان ، ودفعُ

---

(١) عقد المحبة : رابطتها .

(٢) الخلائق الأولى الناس . والثانية الصفات والأخلاق .

(٣) أى أن تجعل السائل يهنأ بما أعطيته هو ثمن لبذل ماء وجهه بالسؤال .

(٤) أى احتمال المشقة يسهل لك الجزاء عليها .

(٥) يسنى : يسهل أى التحقق من وجود المساعدة يسهل المشقة على صاحبها .

(٦) الصدر الأولى بمعنى الرئيس .

(٧) التشفيع : قبول الشفاعة .

(٨) أى استحقاق أن تحمد .

(٩) أى إخلاص المحب فى محبته أن يتعهد موالى حبيبه .

الأعداء بكَفّ الأوِدّاء ، وامتحان العقلاء ، بمقارنة الجهلاء ، وتَبَصُّر العواقب يؤمن المعاطب ، واتقاء الشُّنْعة يَنْشُر الشُّمْعة ، وقبح الجفاء ينافى الوَفاء ، وجوهر الأَحرار عند الأسرار ، فهذه مئتاً لفظة ، تحتوى على أدب وعظة ، فمن ساقها هذا المساق فلامراء ولا شقاق، ومن رام عكس قالبها وأن يردّها على عقبها فليقل : الاسراء عند الأحرار ، وجوهر الوفاء ينافى الجفاء ، وقبح السمعة ينشر الشنعة . . الخ .

« ١١ »

جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ .

كتب من مقالاته يندّد بالحرص والجشع فى المال :

يا عبد الدينار والدرهم متى أنت عتيقهما . ويا أسير الحرص والطمع متى أنت طليقهما ، هيهات لا إعتاق إلاأن تكاتب[١] على دينك المُمزّق ، ولا إطلاق ، أو تُفادىَ بخيرك المُلزّق . يا من يشبعه القُرْص ، ما هذا الحِرْص ، ويا من تُرويه[٢] الجُرَع ، ما هذا الجَزَع . ستعلم غداً إذا تندمت ، أن ليس لك إلا ما قدمت . و إذا لقيت المنون ، لم ينفعك مال ولا بنون . ما يَصْنَع بالقناطير المُقَنْطَرَة ، عابر هذه القنطرة . وما يريد من البهجة والفرحة ، نازل ظلّ هذه السَّرْحة[٣] .

« ١٢ »

ومنها فى حفظ اللسان :

من لم يحفظ ما بين فَكّيْه ، ظل يُقَلّب كفيه ، وبات يتململ على دفيه ، حزناً على ما فرّط فيه من التحفظ ، وأسفاً على ما فرط منه من التلفظ ، ولو كان اللسان مخزوناً ،

---

(١) المكاتبة : أن يشترى العبد نفسه من سيده بمال يدفعه له منجما .

(٢) رواه وأرواه بمعنى .

(٣) السرحة: الشجرة العظيمة . والمراد أن مدة الدنيا مثل ظل شجرة لايلبث أن يزول بتحول الشمس

لم يكن الفؤاد محزونا ، وقلّما يحرس مهجته ، من لا يحرس لهجته . ولن تجد على السرّ أميناً ،إلا من كان بكلّ أمانة قمينا .

« ١٣ »

ومنها فى الحثّ على الجدّ :

دَبِّرْ المعاش والمعاد ، يا زِيرَ سَلْمى وسُعَاد ، فليس من اعتاد المضاجع ، كمن ارتاد المناجع ، ولا من ألف الملاعب ، كمن كلف المتاعب . الكيس متجلد متصلب ، فيما يجدى عليه متقلب . والعاجز متقاعد متقاعس ، عما يجب فيه التيقظ متناعس ، فكس يا كسلان فى أمريك ولا تعجز ، ونصيبك من داريك فأحرز ، ولا تبغ فى متصرفاتك إلا طيب الحياة ، والقرب من النجاة .

نماذج الكتابة العلمية

فى العصر العباسى

من أقدم الأمثلة فى الكتابة العلمية ما كتبه الفقيه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصارى الذى كان أحد أصحاب الإمام أبى حنيفة النعمان وقاضى قضاة الرشيد ، كتب إليه الرشيد أسئلة فى أموال بيت المال وطرق تحصيلها ومواضع صرفها ، فكانت إجابة القاضى كتاباً جليلاً فى الفقة سمى : كتاب الخراج ، وهو مطبوع بمصر .

« ١ »

ومنه : ولا يؤاخذ أهل الخراج برزق عامل ، ولا أجر مدى ، ولا احتفان ، ولا نزلة

ولا حَمولة(١) طعام السلطان ، ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ، ولا أجور الفُيُوج(٢) ، ولا أجور الكيالين ، ولا مئونة لأحد عليهم فى شىء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذى وصفنا من المقاسمة ، ولا يؤخذن بثمن الأتبان ويقاسمون الأتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلا أو تباع ، فينقسم ثمنها على ما وصفت من القطيعة فى المقاسمة ، ولا يؤخذ منهم ما قد يسمّونه رواجاً لدراهم يؤدونها فى الخراج ، فإنه بلغنى أن الرجل منهم يأتى بالدراهم يؤديها فى الخراج فيقتطع منها طائفة ، ويقال هذا رواجها وصرفها ، ولا يضرب رجل فى دراهم خراج ، ولا يقام على رجله فإنه بلغنى أنهم يقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويعلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله ، وشنيع فى الإسلام .

وقال فى شأن المسجونين : لا بدّ لمن كان فى مثل حالهم إذا لم يكن له شىء يأكل منه لا مال ولا شىء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة ، أو من بيت المال . من أىّ الوجهين فعلت ، فذلك موسع إليك وأحب إلىّ أن تجرى من بيت المال على كلّ واحد منهم ما يقوته فإنه لايحلّ ولا يسع إلا ذلك . والأسير من أسرى المشركين لابدّ أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه ، فكيف برجل مسلم قد أخطأ أو أذنب يترك يموت جوعاً ؛ وإنما حمله على ما صار إليه القضاء أو الجهل .

« ٣ »

ومن كتاب سيبويه المتوفى سنة ١٨٣ هـ فى النحو :

(هذا باب إضافة المنادى إلى نفسك) .

اعلم أن ياء الإضافة لا تثبت فى النداء كما لم يثبت التنوين فى المفرد لأن ياء الإضافة بمنزلة التنوين لأنها بدل من التنوين ، ولأنه لا يكون كلاماً حتى يكون فى الاسم ، كما أن

---

(١) الحمولة : الأبل التى يحمل عليها .

(٢) الفيوج : الحراس .

التنوين إذا لم يكن فيه لا يكون كلاماً ، فحذف وترك آخر الاسم جرًّا ليفصل بين الإضافة وغيرها وصار حذفها هاهنا لكثرة النداء فى كلامهم حيث استغنوا بالكسر عن الياء ، ولم يكونوا ليثبتوا حذفها إلا فى النداء ، ولم يكن لبس فى كلامهم لحذفها ، فكانت الياء حقيقة بذلك لما ذكرت لك إذ حذفوا ما هو أقلّ اعتلالاً فى النداء ، وذلك كقولك : يا قوم لا بأس عليكم ، وقال عزّ وجلّ : « يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ » .

« ٣ »

قال الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فى كتابه : « الحيوان » تحت عنوان : « القول فى الحيات » :

اللهم جنبنا التكلف ، وأعذنا من الخطل ، واحمنا من العجب بما يكون منا ، والثقة بما عندنا واجعلنا من المحسنين . حدّثنا أبو جعفر المكفوف النحوى العنبرى ، وأخوه روح الكاتب ورجال من بنى العنبر أن عندهم فى رمال بلعنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد . زعموا أنها إذا انتصف النهار واشتدّ الحرّ فى رمال بلعنبر ، وامتنعت الأرض على الحافى والمنتعل ورَمِض[١] الجُنْدُب[٢] غَمَسَتْ هذه الحية ذنبها فى الرمل ، ثم انتصبت كأنها رمح مركوز أو عود ثابت ، فيجىء الطائر الصغير أو الجرادة فإذا رأى عوداً قائمًا وكره الوقوع على الرمل لشدّة حرّه وقع على رأس الحية على أنها عود ، فإذا وقع على رأسها قبضت عليه ، فإن كان جرادة أو جُعَلا أو بعض ما لا يشبعها مثله ابتلعته و بقيت على انتصابها . و إن كان الواقع على رأسها طائراً يشبعها مثله أكلته وانصرفت ، و إن ذلك دأبها ما منع الرمل جانبه فى الصيف والقيظ فى انتصاف النهار والهاجرة ، وذلك أن الطائر لا يشكّ أن الحية عود ، وأنه سيقوم له مقام الجِذْل[٣]

---

(١) رمض (كفرح) : قاسى حر الرمضاء (الأرض الشديدة الحرارة) .
(٢) الجندب : نوع من الجراد .
(٣) الجذل : أصل الشجرة بعد ذهاب فرعها .

للحِرْباء(١) إلى أن يسكن الحرّ ووَهَج الرمل ؛ وفى هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحية تهتدى لمثل هذه الحيلة ، وفيه جهل الطائر بفرق ما بين الحيوان والعود ، وفيه قلة اكتراث الحية بالرمل الذى عاد كالجمر ، وصلح أن يكون ملة وموضعاً للخُبْزة ، ثم يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار ، والرمل على هذه الصفة ؛ فهذه أعجوبة من أعاجيب ما فى الحيات .

« ٤ »

ومن كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى المتوفى سنة ٣٧٣ هـ .

ومن خطئه (يريد أبا تمام) قوله :

وَالْحَرْبُ تَرْكَبُ رَأْسَهَا فى مَشْهَدٍ ... عُدِلَ السَّفِيهُ بِهِ بِأَلْفِ حَلِيمِ

فى ساعةٍ لَوْ أَنَّ لُقْمَانًا بها ... وَهْوَ الْحَكِيمُ لَكَانَ غَيْرَ حَكِيمِ

جَثَمَتْ طُيُورُ الْمَوْتِ فى أَوْكَارِها ... فَتَرَكْنَ طَيْرَ الْعَقْلِ غَيْرَ جُثُومِ

فالبيتان الأوّلان جيدان ، وقوله : جثمت طيور الموت فى أوكارها ، بيت ردىء فى القسمة ردىء فى المعنى لأنه جعل طير الموت فى أوكارها جاثمة : أى ساكنة لا ينفرها شىء ، وطير العقل غير جثوم : يعنى أنها نفرت فطارت ، يريد طيران عقولهم من شدة الروع ، وما كان ينبغى أن يجعل طير الموت جثومًا فى أوكارها ، وإنما كان الوجه أن يجعلها جاثمة على رءوسهم أو واقعة عليهم ، فأما أن تكون جاثمة فى أوكارها فإنها فى السلم أو فى الأمن جاثمة فى أوكارها أيضاً ، وطير العقل ليست بضدّ طير الموت ، وإنما هى ضدّ لطير الجهل ، وطير الحياة هى ضد لطير الموت ولو كان قال :

جثمت طيورُ الموتِ فوقَ رءوسهم ... فتركْنَ أطيارَ الحياةِ تَحُومُ

لكان أشبه وأليق . اهـ .

---

(١) الحرباء : دويبة تستقبل الشمس برأسها ، وهى من العظاء ، وهى فصيلة سامّ أبرص .

« ٥ »

من قول الإمام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ ﻫ فى كتابه : أسرار البلاغة « فى مواقع التمثيل وتأثيره » : واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة ورفع من أقدارها ، وشبّ من نارها ، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصى القلوب صبابة وكلفا به وقصر الطباع على أن تعطيها محبة وكلفا .

فإن كان مدحًا كان أبهى وأفخم ، وأنبل فى النفوس وأعظم ، وأهزّ للعطف ، وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بغرّ المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر ، وإن كان ذمًا كان مسه أوجع وميسمه ألذع ، ووقعه أشدّ ، وحدّه أحدّ ، وإن كان حجاجًا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر . إلى أن يقول ، فانظر إلى قول البحترى .

دَانٍ عَلَى أَيْدِى العُفَاةِ وَشَاسِعٌ ... عَنْ كُلِّ نِدٍّ فى النَّدَى وَضَرِيبِ
كَالبَدْرِ أَفْرَطَ فى العُلُوِّ وَضَوءُهُ ... لِلعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

وفكر فى حالك وحال المعنى معك وأنت فى البيت الأول لم تنته إلى الثانى ولم تتدبر نصرته إياه وتمثيله له فيما يملى على الإنسان عيناه ، ويؤدّى إليه ناظراه . ثم قسهما على الحال وقد وقفت عليه وتأملت طرَفيه ، فإنك تعلم بعد ما بين حالتيك وشدّة تفاوتهما فى تمكن المعنى لديك ، وتحببه إليك ، ونبله فى نفسك ، وتوفيره لأنسك ، وتحكم لى بالصدق فيما قلت والحق فيما ادعيت .

« ٦ »

وفى كتاب ، « إحياء علوم الدين » للإمام حجة الإسلام أبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ قال والوظيفة الثامنة ، (أى من وظائف المعلم المرشد) أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر . فإذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكلّ من تناول شيئاً وقال للناس لاتتناولوه فإنه سمّ مهلك، سخر الناس به ، واتهموه وزاد حرصهم على مانهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذّها لما كان استأثر به . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود ، فكيف ينتقش الطين بما لا ينتقش فيه ، ومتى استوى الظلّ والعود أعوج ، ولذلك قيل فى هذا المعنى :

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ   عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وقال الله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » ، ولذلك كان وزر العالم فى معاصيه أكبر من وزر الجاهل ، إذ يزل بزلته عالم كثير يقتدون به ، ومن سنّ سنة سيئة فعليـــه وزرها ووزر من عمل بها ، ولذلك قال علىّ رضى الله عنه : قصم ظهرى رجلان عالم متهتك ، وجاهل متنسك ؛ فالجاهل يضرّ الناس بتنسكه ، والعالم يغرّهم بتهتكه ؛ والله أعلم .

« ٧ »

وفى كتاب إحصاء العلوم لأبى نصر الفارابى المتوفى ســـنة ٣٣٩ هـ فى تعريف علم المنطق قال :

فصناعة المنطق تعطى جملة القوانين التى شأنها أن تقوّم العقل وتسدّد الإنسان نحوطريق الصواب ، ونحوالحقّ فى كلّ مايمكن أن يغلط فيه من المعقولات ، والقوانينَ التى تحفظه وتحوطه من الخطأ والزلل والغلط فى المعقولات ، والقوانين التى يمتحن بها فى

المعقولات ما ليس يؤمن أن يكون قد غلط فيه غالط ؛ وذلك أن فى المعقولات أشياء لا يمكن أن يكون العقل غلط فيها ، وهى التى يجد الإنسان نفســـه كأنها فطرت على معرفتها واليقين بها مثل أن الكلّ أعظم من جزئه ، وأن كلّ ثلاثة فهو عدد فرد ، وأشياء أخر يمكن أن يغلط فيها ويعدل عن الحقّ إلى ما ليس بحقّ ، وهى التى شأنها أن تدرك بفكر وتأمل ، عن قياس واستدلال ، ففى ذلك دون تلك يضطرّ الإنسان الذى يلتمس الوقوف على الحقّ اليقين فى مطلوباته كلها . إلى قوانين المنطق .

وفى هذا القدر من أمثلة كتابة العلوم كفاية ، فقد ظهر فيها ما قلناه آنفاً من أن هـــذه العلوم كانت فى عباراتها بعيدة عما منيت به كتابة الإنشاء من قيود وتكلف زحزحها عن القصد من الإنشاء ، وهو الفناء بلا عناء فى تفهيم المراد .

تراجم الكتاب

« ١ »

أبو بكر الخوارزمى

يذكر بعض المؤرّخين : أن أصل آبائه من طَبَرِسْتَان ، وهى على المساحل الجنوبى من بحر الخزر « بحيرة أورال » ، وأنه إنما نشأ بخُوارَزم وتربى بها .

ويذكر آخرون أن أباه من خوارزم ، وأمه من طبرســـتان ، وهى أخت محمد ابن جرير الطبرى المؤرّخ ، ولذلك تركبت له نسبة ممزوجة من الموطنين ، فقيل له الطبرخزى .

نشأته وتعلمه

نشأ بخوارزم ، وهى إذ ذاك فى أيدى البويهيين ، وكانت من نصيب ركن الدولة ابن بويه أخى عماد الدولة ومعزّ الدولة ، وكانوا جميعاً يتقاسمون بينهم شرق المملكة الإسلامية « العراق ، وفارس ، وخراسان » .

والذى يعلم من شأن هذه الدولة وغيرها من الدول التى كانت تنافسها ، كالحمدانية، والسامانية ، والغزنوية أن العلم كان قد وصل فيها إلى تمام النضج ، فراجت سوقه ، وكثر الإقبال عليه ، وظهرت فيه المؤلفات الجليلة فى كلّ نوع ، وكان ملوك هذه الدول يبالغون فى إكرام العلماء ، ويكرمون وفادتهم ، ويستكتبونهم الكتب بأسمائهم ، ويجزلون لهم العطاء عليها ، ولقد كان من ملوك هذه الدول الشاعر المفلق والكاتب الجليل ، وفى أيامهم راجت سوق الأدب حتى استوزر الكتاب المجيدون ، أمثال أبى محمد الحسن بن محمد المهلبى وزير معزّ الدولة الذى كان فى أشدّ الضيق قبل الوزارة حتى قال :

أَلاَ مَوْتٌ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ فَهَذَا الْعَيْشُ مَا لاَ خَيْرَ فِيهِ

ومن وزرائهم الكاتب الجليل القدر ، ابن العميد وزير ركن الدولة والصاحب ابن عباد وزير مؤيد الدولة .

وفى هذا الزمن فى ظلّ هذه الدول ألّف أبو الفرج الأصبهانى كتاب « الأغانى » ، فحمله إلى سيف الدولة فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه . كذلك أخرج ابن النديم كتابه « الفهرست » ، وهو من الموسوعات الكبرى التى يفخر بها هذا العهد ، كذلك كان من علماء هذا الزمن الفيلسوف الجليل القدر أبو نصر الفارابى مخترع القانون ، وابن سينا الطبيب صاحب كتاب « القانون » فى الطبّ فى أربعة عشر جزءًا ، وهو مطبوع بمصر ، والشفاء فى ثمانية عشر جزءًا فى الطبّ وغيره ، وهو محفوظ بدار الكتب الملكية بمصر . وابن سينا هو الذى استقدمه منصور بن نوح من ملوك الدولة السامانية لما سمع بشهرته ، وكان مريضاً فبرئ على يديه فنال منه خيراً كثيراً . وغير هؤلاء كثيرون لهم مؤلفات لا تدخل تحت حصر ، أكثرها عمل برسم هؤلاء الملوك الذين كانوا يرون من الفخر العظيم أن يذكر اسمهم فى كتاب يعتقدون أنه سيخلد على الأيام فيخلد معه اسمهم، حتى لقد جعلوا التأليف ثمناً للرضا عن السجين ، كالذى ذكروا أن عضد الدولة كان معتقلا أبا إسحٰق الصابى ، فجعل شرط الرضا عنه وإطلاقه أن يؤلف كتاباً فى مناقب الدولة البويهية ، فجعل يؤلفه فى السجن ، ويقال : إن واشياً دخل عليه حين كان

مشغولاً بالتأليف ، فقال له : ما تصنع ؟ فقال : (أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها) فنقل ذلك إلى عضد الدولة ، فغضب ولم يطلقه من سجنه حتى كانت أيام ابنه صمصام الدولة فخرج زرىّ الحال قد تداعى من الهمّ والهرم .

فى هـذه الأيام نشأ الخوارزمى ، وقد رأى العلم تتعدّد له المجالس ، ويكثر فيه التنافس ويرتقى شأن العالم والكاتب حتى تكون قصور الملوك مراحه ومغداه ، وكرسى الوزارة منقلبه ومأواه ، فكان جديراً أن يؤمل فى هذه الأيام دولة لفهمه ، وصولة لقلمه . فأقبل على العلوم يحصاها ، وهى إذ ذاك كثيرة لا حصر لها ، فما زال يحصل علومه بخوارزم ، وهى مدينة من مدن العلم لأنها قصبة من قصبات الملك ، فحصل منه نصيباً يستطيع أن يستقل به فى طلب الرزق ، وقد ساعده عليه ذكاء شـديد ، وحافظة نادرة ، ورغبة أكيدة ، فصار كما وصفه الثعالبى فى « يتيمة الدهر » (يحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها ، ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر ، ويتكلم بكل نادرة) .

ولم ينته فى طلب العلم عند حدّ من السنّ أو قدر من المعلومات ، بل ظلّ طول حياته نهما يتسقط النوادر ، ولا يمرّ ببلد إلا جالس علماءه ، وطارح شعراءه ، ونادم أدباءه ، وقد تنقل فى بلاد الإسلام حتى وصل إلى حلب ، فكان جديراً بعد ذلك أن يكون نادرة عصره دراية وفهماً لأنه جمع مزايا الأقطار ، واشتمل على أنواع المعارف الموزعة فى البلاد .

لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدِ[1]

وفى هـذا يقول صاحب اليتيمة : (فارق وطنه فى ريعان عمره ، وحداثة سنه ، وهو قوىّ المعرفة ، قويم الأدب ، نافذ القريحة ، حسن الشعر ، ولم يزل يتقلب فى البلاد ، ويدخل كور الشام ، ويأخذ من العلماء ، ويقتبس من الشعراء ، ويستفيد من الفضلاء حتى تخرج وخرج فرد الدهر ، فى الأدب والشعر) .

---

(١) هذا البيت يرويه الناس كثيرا بالواو فى أوله وذلك خطأ لأنه من السريع ولا يوزن إلا بحذفها .

مؤهلات فضـــله

وصل الخوارزمى من الشهرة بين أهل عصره حدًّا بعيداً حتى قال عنه معاصروه : «إنه باقعة[1] الدهر و بحر الأدب» ولا يجتمع لامرئ كلّ هذا الفضل حتى يكون له من وراء ذلك ملكة تواتيه وتساعد عليه .

نعم عرف عن الخوارزمى أنه كان يتمتع بحافظة ذاكرة لم يعهد مثلها فى أهل عصره ، فقد كان يروى شعر العرب منذ جاهليتهم إلى أيامه ، يدل على ذلك كثرة ما تجده فى شعره من تضمين لكلام الشعراء من جاهليين و إسلاميين سابقين ومعاصرين ، ولا يكون ذلك إلا لحافظ ذاكر وراوية تتوارد على ذهنه المعانى بما لبستها من ألفاظ . و إذا ذهبنا نعدد من أمثلة ذلك خرجنا عن الاختصار اللائق بعملنا ، ولكننا نشبع رغبة الطالب من الأمثلة ليلمس بيده مقدرة هـذا الرجل على الحفظ والاستحضار .

قال يمدح عضد الدولة :

وَلَمَّا أَكْثَرَ الحُسَّادُ فِيهِ ... وَقَالُوا قَدْ تَغَضَّنَتِ الْخُدُودُ
أَجَابَ الْفَضْلُ عَنْهُ حَاسِدِيهِ ... (لِأَمْرٍ مَا يُسَوَّدُ مَنْ يَسُودُ)

المصراع الأخير لبَلْعَام بن قَيْسٍ الكِنَانىّ .

وقال فى السِّماك ، وهو فرس لعضد الدولة :

حَسَدَ السِّماكَ سَمِيُّه لَمَّا بَدَا ... فى سَرْجِهِ شَخْصُ الهُمَامِ الأَبْلَجِ
فلو أنَّ شاعرَ بُحْتُرٍ فى عَصْرِه ... ما قال فى فَرَسٍ ولا فى أَعْوَجِ
(خَفَّتْ مَوَاقِعُ وَطْئِهِ فَلَوَ انَّه ... يَجْرِى بِرَمْلَةِ عَالِجٍ لَمْ يُرْهِجِ)[2]

(١) الباقعة : الداهية .
(٢) أرهج : أثار الغبار .

والبيت الأخير للبحترى .

ويقول :

وَمَنْ تَرَكَ الأَخْيَارَ يُنْشِدُ أَهْلُهُ (أَجِلْ أَيُّهَا الرَّبْعُ الَّذِى خَفَّ أَهْلُهُ)

والمصراع الثانى لأبى تمام .

ويقول فى الهجاء :

قَوْمٌ تَرَاهُمْ غِضَابَى حِينَ تُنْشِدُهُمْ (لَـكِنَّهُ يَشْتَهِى مَدْحًا بِمَجَّانِ)

والبيت من قول القائل :

عُثْمَانُ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَدْحَ ذُو ثَمَنٍ لَـكِنَّهُ يَشْتَهِى مَدْحًا بِمَجَّانِ

ومنها :

قَدْ قُلْتُ إذ قيل إِسْمَاعِيلُ مُمْتَدَحٌ له من الناس بَخْتٌ غَيْرُ وَسْنَانِ[1]

النَّاسُ أَكْيَسُ من أن يمدحوا رجلا مَا لَمْ يَرَوْا عنده آثَارَ إِحْسَانِ

ويقول من قصيدة :

تُغَاضِبُهُمْ أَسْيَافُنَا فَكَأَنَّمَا يَرَيْنَ بَرِيئًا مَنْ سَفَكْنَ لَهُ دَمَا

كَأَنَّ ظُبَاهَا سَاعَةَ الرَّوْعِ عُلِّمَتْ (وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحَلَّمَا)

والمصراع الثانى لحاتم الطائى :

فهذا التضمين وهو كثير جدًّا فى كلامه نثراً وشعراً هو نتيجة لازمة لكثرة المحفوظ ، وهى ميزة من مزايا الخوارزمى .

وربما دلّ دلالة واضحة على كثرة محفوظه وشهرته بين أهل زمانه تلك القصة التى رووها عنه حين قصد الصاحب بن عباد ، فقال لحاجبه بلّغ الصاحب أن أديباً بالباب يستأذن فى الدخول ، فعاد الحاجب يقول له : يقول لك الصاحب: إنى ألزمت نفسى ألا يدخل علىّ من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من أشعار العرب ، فقال

(١) البخت : الجد ، والمبخوت : ذو الحظ .

الخوارزمى : سله أهذا القدر من شعر الرجال أم النساء ؟ فلما بلغ الحاجب ذلك قال : إنما هو أبو بكر الخوارزمى ، وأذن له ، وهشّ و بشّ فى وجهه وأجزل عطاءه .

ولم يكن الخوارزمى يقتصر على هـذا الفضل ، بل كان له إلى جانب الحافظة الذاكرة : ذكاء نادر ، وملكة فى الفهم قوية ، وحكمة استفادها من تجاربه ووعاها من تجواله ، وقد تجلى العقل الراجح فيما جرى على لسانه من فكرة ناضجة ، وقول جامع وكلمة شاردة ، وحكمة لم يوع مثلها إلا عن حكيم حصيف الرأى ، وهذه الكلمات التى تجرى مجرى الأمثال من أقواله كثيرة جدًّا قد نثرها فى ثنايا رسائله ، فمنها :

الشكر على قدر الإحسان ، والسلع بإزاء الأثمان . الادّكار حيث التناسى ، والتقاضى حيث التغاضى[١] ، والدواء لغير حاجة داء ، وهو عند الحاجة شـفاء ، الاستقالة تأتى على العثرات ، كما أن الحسنات يذهبن السيئات ، الشجاع مُحَبٌّ[٢] حتى إلى من يحاربه ، والجبان مبغض حتى إلى من يناسبه ، والجواد خفيف حتى على قلب غريمه[٣] ، والبخيل ثقيل حتى على قلب وارثه وحميمه ، الدهر يَمْطُل وربما عجل ، وما شاء الإقبالُ فعل ، أوجع الضرب ما لا يمكن معه البكاء ، وأشدّ البلوى ما لا يحققه الاشتكاء ، من الناس من إذا وَلِىَ عزلته نفسه[٤] ، ومنهم من إذا عزل ولاه فضله ، ما المحنة إلا سيل ، والسيل إذا وقف ، فقد انصرف ، وما الأيام إلا جيش ، والجيش إذا لم يَكُرّ[٥] ، فقد فرّ .

---

(١) تغاضى عنه : تغافل .

(٢) يقال أحب فهو محبوب . وذلك أن الثلاثى من مادة الحب مسموع ولكنه قليل واسم المفعول من الثلاثى مستعمل أكثر منه من الرباعى فكأن الفعل الثلاثى هجر وبقى مفعوله، والرباعى استعمل وهجر مفعوله . فأبو بكر استعمل صيغة المفعول القليلة الورود .

(٣) الغريم : الدائن والمدين (ضد) .

(٤) فى هذا المعنى يقول الشاعر :

إنّ الأمـير هو الذى   يضحى أميرا يوم عزله
إن زال سلطان الولا   ية لم يزل سلطان فضله

(٥) كر على العدو من باب نصر : هجم .

فأنت ترى هــذه الحكم ليست حكاية لما تردد على ألسنة القوم بل هى نتيجة تجربته ومشاهدته .

تصرفه وأحواله

لم يكد يشدو الخوارزمى فى العلم ، ويَشِبّ فى السن حتى هجر الوطن ، وفارق العَطَن إجابة لنداء الهمة العالية التى حفزته إلى لقاء الملوك والاستفادة من جاههم فقد رأى دولا تنافس فى العلم وهو من أعلامه ، وتعطى على قدر الفهم وهو من أقوامه ، وتشيد بذكر البيان وهو يحمل أبلغ أقلامه ، فحركت منــه الآمال أَحْوَذِيا[١] واسع مجال الهمة ، فخرج من خوارزم ، وجعل تترامى به كور العراق والشام حتى وصل إلى سيف الدولة ، فاتصــل به وخدمه حيناً ، فاستفاد منه ثم مضى على غُلَوائه فى الاضطراب والاغتراب ، وشرّق بعد أن غرّب ، فورد بخارى ثم عاد منها إلى نَيْسابور ، فاتصل بالأمير أبى نصر أحمد بن على الميكالى وأكثر من مدحه فاستفاد منه خيراً كثيراً ، ثم قصــد سِجِسْتَان ، وتمكن من واليها أبى الحسين طاهر بن محمد ومدحه وحوى صِلاته ، ولكنه عاد فهجاه فوقع فى أسره وطال عنــده سجنه حتى استشفع بأبى نصر الميْكَالىّ ، وأرسل إليه قصيدة طويلة منها فى مدحه :

وما كنتُ فى تركيك إلا كتاركٍ ... يَقيناً وراضٍ بعْــدَهُ بالتَّوَهُّمِ
وقاطنِ أرْضِ الشِّرْكِ يَطْلُبُ تَوْبَةً ... ويَخْرُجُ من أرض الحَطِيمِ وزَمْزَمِ
وذى عِــلَّةٍ يأتى عَليلاً ليَشْتَفِى ... بها وهْوَ جارٌ للمسيح بن مَرْيَمِ
وراوى كلامٍ مُقْتَفٍ إثْرَ باقلٍ ... وَيَتْرُكُ قُسًّا خائبا وابن أَهْتَمِ[٢]

(١) الأحوذى : الخفيف الحاذق ، والمشمر فى الأمور لا يشذ عنه منها شىء .

(٢) يقال خرج فى إثره (بالكسر) وأثره (بالتحريك) أى بعده . وابن أهتم هو عمرو بن الأهتم =

جَنَابٌ تَجَنَّبْنَاهُ لَيْسَ بِمُجْدِبٍ   وبحر تخطيناه ليس بمــزرم

ثم عاد إلى نَيْسابور ، وما زال بها حتى وفق التوفيق كله بقصــده حضرة الصاحب ابن عباد بأصبهان فأنجحت[1] سَــفْرته ، وربحت تجارته ، وبجاه الصاحب اتصل بابن العميد بشيراز فتم له الغنى ، وعاد إلى نيسابور بالغنيمة الباردة ، واقتنى فيها ضياعًا وعقاراً ، ثم عاد إلى شيراز ، فكان من تناهى الإكرام من عضـد الدولة أن أجرى له رسما يصل إليه كلّ عام بنيسابور مع المال الذى كان يحمل من فارس إلى خراسان ، فعاش الخُوَارَزْمِىّ بنَيْسَابور فى أحسن حال وأجلّ مكانة تجرى عليــه الأرزاق من مقتنياته ، ويشغل وقته بالعلم يدرسه ، والأدب يقيم سوقه ، والشعر يرويه ، والخبر يحكيه.

وقد جرت عليه شدّة شديدة تجهمت له فيها الأيام كلّ تجهم حتى دخل السجن وبدئ باستصفاء ماله لتطاوله بالهجاء على بعض رجال الدولة هناك ، ولكنه تمكن من الفرار ، وقصــد حضرة الصاحب بجرجان ، فأزاح عنه غمته واتفق أن ولى نيسابور رجل من المتعصبين للخُوَارَزْمِىّ المعجَبين بأدبه ، فاطمأن مقامه بالمدينة ، ورَفُهت[2] حاله وردت إليه أمواله ، وكان موضع التجلة والاحترام حتى منى بمساجلة بديع الزمان ، فلاقى مالم يكن فى حِسْبانه وأنف من تلك الحال ، وانخزل انخزالاً شــديداً ، ولم يحل عليه الحول حتى مات سنة ٣٨٣ هـ ، وعمره ستون سنة .

= وفد مع الزبرقان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله رسول الله عن الزبرقان فقال : مطاع فى أدنيه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره . فقال الزبرقان : إنه ليعلم منى أكثر من هذا ولكنه حسدنى فقال عمرو: أما والله إنه لزمر المروءة ، ضيق العطن ، أحمق الولد ، لئيم الخال . والله يارسول الله ما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الأخرى . ولكنى رجل رضيت فقلت أحسن ماعلمت وسخطت فقلت أقبح ماعلمت فقال رسول الله : إن من البيان لسحرا .

(١) أنجح كنجح .

(٢) رفه العيش (ككرم) : لان . ورفه الرجل (كمنع) : لان عيشه .

بين الخوارزمى وبديع الزمان

كان الخوارزمى متصدراً للزعامة على الكتاب والأدباء ، فكان بنيسابور مرجع الفضل غير مدافع، وربّ الفصاحة غير مزاحم، تحط بفنائه رحال الطلاب ، ويسلم عليه بالزعامة الشعراء والكتاب ، ويجلس لإملاء الأخبار ، وهو بحرها الزاخر ، ولرواية الشعر عن الأوائل والأواخر ، واستمرّ على ذلك حتى غازل الستين ، فجمع إلى وقار السنّ ، جلال الفنّ ؛ وكان فى غِمار الأدباء بنَيْسابور فتى حَدَث ، ولكن له مخايل ، ولمخايله قوم يتعصبون ، ولأدبه يحتجون ، ذلك هو بديع الزمان الهمذانى ، فانبرى للخُوَارَزْمىّ يُعايبه(١) ويُهاتره(٢) ويُصاوله(٣) ، ويُناضله(٤) ، وجرت بينهما فى ذلك مراسلات ومكاتبات ومناقشات ومناظرات ، فاجتمع للبديع حداثة السنّ ونشاط الشباب إلى أدب هو فى الأدب لباب ، إلى معجبين يصفقون له كلما سجع ، ويُهلّلون كلما رَجّع . واجتمع على الخوارزمى فتور السنّ ودهشة المفاجأة ، بهذه المناوأة ، فما لبث أن حمّ ومات على أثر حماه ، فكانت مصيبة موته فائدة للبديع الذى طار صيته بكلّ مكان ، وجرى اسمه على كلّ لسان .

وكان سبب هذه المهاترة : أن بديع الزمان ورد نيسابور رقيق الحال ، وطمع فى معاونة أبى بكر وفى مثله يطمع إذ ذاك ، فقد كانت تدرّ عليه أخلاف الرزق ، ويهنأ بعيش رغد ، فطمع قرينه فى الأدب أن يكون له منه عطف ، وفى لقائه لطف، فلم ير إلا تجهماً ، فكتب يستعطفه ويعتذر عنه فيما جرى من لقائه ويذكره بأن صلة الأدب

---

(١) المعاياة : أن تأتى بكلام لا يهتدى لوجهه (الإلغاز) .

(٢) المهاترة : أن يسب كل صاحبه بالباطل .

(٣) المصاولة : المواثبة .

(٤) المناضلة : المباراة فى الرمى .

أقوى سبب ، وأعزّ نسب ، فلم يزدد أبو بكر إلا تجهماً وتـبرمًا ، وجرت بينهما مراسلات ، ثم اجتمعا فى دار أحد الإخوان ، وعرض عليه البديع المناظرة فى الرواية ، وهو علمها الأشهر ، فلم يقبل الخوارزمى ، واختار إجازة الشـعر ، واقترح إجازة قول المتنبى :

أَرَقٌ على أَرَقٍ ومثلى يَأْرَقُ ... وَجَوًى يَزِيدُ وعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

ثم ابتدر يُجيز ، فقال :

وإذا ابْتَدَهْتُ بَدِيهَةً يا سَيِّدِى ... فأَرَاكَ عنـد بَدِيهَتِى تَتَقَلَّقُ

وإذا قَرَضْتُ الشعرَ فى مَيْدَانه ... لا شَكَّ أنك يا أخى تَتَشَقَّقُ

إنى إذا قلت البديهةَ قُلْتُها ... عَجِلاً وطبعُك غير طبعى يَرْفُقُ

مالى أراكَ ولستَ مثلى عنـدها ... مُتَمَوِّهاً بالتُّرَّهَاتِ تُمَخْرِقُ(١)

فقال له البديع : أراكَ بين قواف مكروهة وقافات خشنة ، كلّ قاف كجبل قاف ، منها تتقلق وتتشقق وتمخرق .

ثم أجاز البديع فقال :

مهلا أبا بكرٍ فَزَنْدُكَ أضيقُ ... فاخْرَسْ فإن أخاكَ حيٌّ يُرْزَقُ

دعنى أُعِزْكَ إذا سكتَّ سلامة ... فالقول يُنْجِد فى ذَوِيك ويُعْرِقُ

ولِفَاتِكٍ فتـكاتُ سُـوءٍ فيكم ... فَدَعِ السُّتُورَ وراءها لا تُخْرَقُ

يا أَحمقا وكـفاكَ ذلكَ خِزْية ... جَرَّبْتَ نار مَعَرَّتِى هل تَحْرِق

فاعترضه أبو بكر ، فقال : « يا أحمقا لا يجوز فإن أحمق لا ينصرف » ، فأجابه البديع : إن للشاعر أن يردَّ ما لاينصرف إلى الصرف ، وله رأيه فى القصر والحذف ، ثم انتهى بهما الحال إلى السباب ، فيقول الخوارزمى : أنا كَسَبْتُ بهذا العقل دِيَةَ أهل هَمَذَان

(١) التمويه : تلبيس الأمر وإخفاء حقيقته. الترهات : جمع ترهة وهى الأباطيل . تمخرق : تأتى بالـكذب

مع قلته ، فماذا أَفَدْتَ أنت بعقلك مع غزارته ؟ فيردّ عليه الهَمَذانىّ ، فيقول : إن هذا الذى تمدح به وتتصلف إنما أتاك من أنك شَحَذْتَ فأَخَذْتَ ، وسألت فحصَلْتَ ، واجتذبت فاقتنيت ، ثم افترقا على صلح هو أشبه بالشقاق .

ثم عادا بعد ذلك إلى المناظرة فاقترح عليه البديعُ أصنافاً كثيرةً من الترسل كأن يكتب فى المعنى الواحد نظماً ونثراً، ويفرُغ[1] منهما فراغًا واحداً . أو أن يكتب كتابًا يقرأ من آخره إلى أوّله أو كتابًا يقرأ منه جوابه ، أو كتابًا إذا عكست سطوره كان جوابًا . فقال الخُوارَزْمىّ ، هذه شَعْبَذَةٌ ، ولكن تكتب على طريقة الناس ، فاقترح عليهما مقترح أن يكتبا فى النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضاعات وانقطاعها .

فكتب أبو بكر :

الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة ، بهما يتوصل إلى جنات النعيم ، ويخلد فى نار الجحيم . قال الله تبارك وتعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صدقةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ » . وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشدّ الإكبار ، وأنكرناه أعظم الإنكار ، لما نراه من الصلاح للعباد ، ونَنْويه من الخير للبلاد وتعرّفْنا فى ذلك ما يُرْبِح للناس ، فى الزرع والضَّرْع ، ويعود إليه أمرُ الضُّرّ والنفع .

أما البديع فقد كتب فى هذا الموضوع كلامًا يقرأ من آخره إلى أوله ، وهو :

الله شاء أن المحاضر صدور بها وتملأ ، المنابر ظهور لها وتُفْرَع ، الدفاتر وجوه بها وتُمْشَق ، المحابر بطون لها تُرْشَق آثارا كانت ، فيه آمالنا مقتضى على ، أياديه فى تأييده الله أدام الأمير جرى فإذا ، المسلمين ظهور عن الثقل هذا ويرفعَ الدّين أهل عن الكَلّ هذا يحط أن فى إليه نتضرّع ونحن ، واقفة والتجارات ، زائفة والنقود ، صيارفة أجمع الناس صار فقد ، كريمًا نظرا لينظر . شيمه مصابٌ وانتجعنا ، كرمه

---

(١) فرغ (كنصر وفتح) وقد قرئ بهما قوله تعالى — سنفرغ لكم أيها الثقلان — كما ذكر فى الكامل .

بارقة وشمنا ، همه على آمالنا رقاب وعلقّنا ، أحوالنا وجوه له وكشفنا آمالنا وفود إليه بعثنا فقد نظره بجميل يتداركنا أن ونعمائه تأييده وأدام ، بقاءه الله أطال الجليل الأمير رأى إن[١] .

فانكسر الخوارزمى وانتهت المناظرة بين إعجاب بالبديع وزراية على الخُوَارَزْمىّ ، ولكن هذه المجالس يرويها البديع نفسه ، فلسنا نعرف نصيب الصدق فيها أو التحامل منه على صاحبه ، ولكن النتيجة ، وهى انهزام الخوارزمى قد تحققت .

نثره وشعره

إذا كان ملاك البلاغة كثرة المحفوظ وتتابع الرواية ، فلا غرو أن يشار إلى أبى بكر بالبنان فى موضوع البيان لأنه كما تعلم كان فى الرواية بحراً لا يردّ له غَرْب ، ولا يقام له بسبيل .

لذلك ترى أن الجزالة بادية فى قوله حتى ربما أدته إلى الإغراب ، وتجد ألفاظه حافلة بالمعانى لكثرة ما وعى من أقوال السابقين وترسم خطاهم ، واشتمل على معانيهم ، وكان يسير على نهج أهل عصره فى الغرام بالسجع ولكنه لم يكن يلح فيه إلحاح الصاحب بن عباد ، ولم يتركه للطبع كما فعل الهمذانى .

كذلك كان فى الشعر ذا قدم فارعة ، فقد مدح ورثى وتغزل وهجا ولا غرابة فى جمعه بين النثر والنظم ، فقد كان هذا شأن أغلب النابغين من أهل زمانه .

---

(١) لقد صدق الخوارزمى فى قوله إن أعمال البديع من هذا النوع إنما هى شعبذة فان هذا الكتاب الذى أوهم البديع به الناس أنه يأتى بالخوارق هو إذا تدبرت من أيسر الأمور . وجرب ذلك أنت واكتب كلاما تبدأ به من آخر الصفحة حتى تنتهى إلى أولها فانه يأتى فى ظاهره كأنك كتبته معكوسا . وهذا أهون شىء لولا أن البديع يظهره بهذه الشعوذة كأنه من المحال أتاه هو دون سائر الناس .

وإذا قيس بالبديع خرج البديع برقة اللفظ ، وانقياد الطبع ، وحسن مقاطع السجع ، وقصر فقراته ، وعدم التزامه ، ولا شكّ أن البديع فى كلّ أموره خير منه لوفور ذكائه، وسلامة طبعه .

وقد أخذ على الخوارزمى أنه قد يفوته التجانس فى قوله ، فلا يجمع بين الكلمة وأختها ، ولا يضمها إلى صاحبتها ، بل قد يأتى بالفقرة نافرة قلقة ، وقد عدوا عليه من ذلك قوله من رسالة فى الشكر : وجدير بمن هطلت عليه سحائب عنايتك ، ورفرفت حوله أجنحة رعايتك . . . . قالوا إن التناسب غير واقع بين هطلان السحاب ورفرفة الأجنحة ، وقوله من رسالة : وشرح قلبك وأعلى كعبك . فإن إضافة الشرح إلى القلب ليس لها تلك الروعة فى إضافته إلى الصدر فى قوله تعالى : « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » .

كما عابوا عليه قوله فى الصاحب بن عبّاد وقد مرض :

نعوا لى نفس المجد ساعة أخبروا   بما يشتكى من سقمه ويمارس

فإن لفظة النعى فيها ما فيها من الطيرة ، إذ هى مما يقع فى المراثى لا العيادات . وكذلك عابوا قوله يمدح الأمير شمس المعالى ، ويذمّ الأيام التى لم تجعل الأمير ذا سلطان يحكم بلاداً كغيره :

إلى كَمْ يَحُلُّ المرء مثلُك بَلْدَةً   بها مِنْبَرٌ فيها لغيرك خاطبُ
لقد هَانَ من أمْسَى ببَلْدَةِ غيرِه   وقدذَلّ من بَالَتْ عليه الثعالبُ[1]

---

(١) كان غاوى بن عبد العزى سادنا لصنم بنى سليم . إذ أقبل ثعلبان فتسنماه فبالا عليه فقال :

أربٌ يبول الثعلبان برأسه   لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وقد استشهد الجوهرى بالبيت على أن لفظ ثعلبان مفرد بضم الثاء وخطأه صاحب القاموس . ولحق غاوى برسول الله فأسلم فقال له النبى مااسمك فقال غاوى بن عبد العزى فقال له أنت راشد ابن عبد ربه .

فإن فيه سوء أدب ، وهو بالتقريع أشبه منه بالتقريظ .

ولا ينبغى أن يغضّ عدّ هذه المآخذ من فضل الرجل ، فلقد قالوا قديماً :

* كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه * وهذه المآخذ ليست إلى جانب إحسانه وارتقائه فى سماء البلاغة شيئاً مذكوراً ، وأيما رجل يتعقب الناس كلامه كما تعقبوا كلام الخوارزمى لا بدّ يجدون فيه كثيراً من مثل هذا ، وما أكثر ما عدوا على أبى تمام والبحترى والمتنبى حتى لقد ألفت الكتب ونصيب كبير فيها لمساوئهم ، ولكن ذلك لم يفقدهم الزعامة التى عرفت لهم بين الشعراء .

ولأبى بكر مجموعة رسائل مطبوعة متداولة فى مصر ، وقد ذكر الثعالبى أن له ديوان شعر كرسائله ، ولكننا لم نعثر عليه ، وأنت واجد منه نصيباً كبيراً فى يتيمة الدهر للثعالبى ، ويقال : إن للخوارزمى مقامات ، ولكنها لم تشتهر لأن مقامات البديع أخملتها .

مختار قوله

قال يمدح الفقر : . . . وإنما يكره الفقر لما فيه من الهوان ، ويستحبّ الغَناء[1] لما فيه من الصوان[2] ، فإذا نَبَغ[3] الغم من تربة الغنى ، فالغنى هو الفقر ، واليسر هو العسر ، لا بل الفقير على هذه القضية أحسن من الغنىّ وأقل منه أشغالا ، لأن الفقير خفيف الظهر من كلّ حقّ ، منفكّ الرقبة من كلّ رق فلا يستبطئه إخوانه ، ولا يطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر فى الفطر صدقته ، ولا فى النحر أُضْحِيَته[4] ، ولا فى

(١) الغناء : الاستغناء .

(٢) الصوان : هكذا فى الأصل ، والصواب الصيان .

(٣) نبغ (كنصر وقطع وضرب) : نبع وظهر .

(٤) الأضحية : ذبيحة العيد وجمعها أضاح . ومثلها أضحاة والجمع أضحى ، وسمى العيد عيد الأضحى لأنه تذبح فيه هذه الأضاحى . وسبب تسمية الذبيحة بذلك أنها تذبح فى وقت الضحى .

شهر رمضان مائدته ، ولا فى الربيع باكورته ، ولا فى الخريف فاكهته ، ولا فى وقت الغَلّة شعيره و بُرّه ، ولا فى وقت الجباية خراجه وعُشْره . لا ، إنما هو مسجد يحمل إليه، ولايحمل عنه، تتجنبه الشُّرَط نهاراً ، و يتوقاه العَسَسُ ليلا ، فهو إماغانم و إماسالم.

وأما الغنى فإنما هو كالغنم غنيمة لكلّ يد سالبة ، وصيد لكلّ نفس طالبـــة ، وطَبَقٌ على شوارع النوائب ، وعلم منصوب فى مَدْرَجة[1] المطالب ، يطمع فيه الإخوان ، و يأخذ منه السلطان ، و ينتظر فيه الحدثان ، و يخيف مالكه النقصان .

وله فى ذكر انهدام منزل : بلغنى ذكر الهَدّة ، فالحمد لله الذى هدم الدار ولم يهدم المقدار ، وثلم المال ، ولم يَثْلِم الجمال ، وسلط الحوادث على الخشب والنَّشَب[2] ، ولم يسلطها على العرض والْحَسَب[3] . ولا على الدّين والأدب ، ولا بدّ للنعمة من عَوْذة[4] ولا بدّ لعين الكمال من رقية ، ولأن يكون فى دار تبنى ومال يجبر خير من أن يكون فى النفس التى لا جابر لكسرها ، ولا نهاية لقدرها .

وكتب فى وصف رمد أصابه : صادف ورود الكتاب رمداً فى عينى حصرنى فى الظلمة ، وحبسنى فى الغَمِّ وَالغُمَّة[5] ، وتركنى أدرك بيدى ما كنت أدرك بعينى، كليل سلاح البصر ، قصير خطو النظر ، قد ثكلت مصباح وجهى، وعدمت بعضى الذى هو آثر عندى من كلى ، فالأبيض عندى أسود ، والقريب منى مبعد ، قد خاط الوجع أجفانى ، وقبض عن التصرّف بنانى ، ففراغى شغل ، ونهارى ليل ، وطوال ألحاظى

---

(١) المدرجة : المسلك .
(٢) النشب : المال والعقار .
(٣) الحسب : ما يعده الرجل من مفاخر آبائه .
(٤) العوذة : الرقية .
(٥) الغم : الهم . والغمة : كل أمر ملتبس .

قصار ، وأنا ضرير و إن عددت فى البصراء ، وأمىّ و إن كنت فى جملة الكتاب والقراء . قَصَرت[١] العلة خطوتى قلمى و بنانى وقامت بين يدى ولسانى .

وكتب إلى بعض تلاميذه وقد أخبره فى كتاب أنه مريض :

وصلنى كتابك فسرّنى نظرى إليه ، ثم غمنى اطلاعى عليه ، لما تضمنه من ذكر علتك ، وأنبأ عنه من سوء حالتك . جعل الله أوّل العلة كفارة كافية ، وآخرها شفاء وعافية ، ولا أعدمك على الأولى أجراً ، وعلى الأخرى شكراً . و بودّى لو قرب على متناول عيادتك ، فاحتملت عنك بالتعهد والمساعدة بعض أعباء علتك ، فلقد خصنى من هذه العلة قسم كقسمك ، حتى مرض قلبى لمرضى جسمك ، وأظنّ أنى لو لقيتك عليلا لانصرفت عنك ، وأنا أعلّ جسماً وأشغل منك قلباً ، فإنى بحمد الله جَلْد على أوجاع أعضائى ، غير جلد على أوجاع أصدقائى ، ينبو سهم الدهر إذا رمانى ، و ينفذ فىّ إذا رمى إخوانى . فأقرب سهامه منى ، أبعد سهامه عنى . كما أن أبعدها عنى أقربها منى . شفاك الله وعافاك ، وكفانى فيك المحذور وكفاك ، ورفع جنبك[٢] ، وغفر ذنبك ، وآمن سِرْبك .

وكتب إلى تلميذ له معاتباً : إن كنت أعزّك الله لا ترانا موضعاً للزيارة ، فنحن فى موضع الاستزارة ، و إن كنت تعتقد أنك استوفيت حقنا عليك و بقى حقك علينا ، فقد يزور الصحيح الطبيب بعد خروجه من دائه ، واستغنائه عن دوائه ، وقد تجتاز الرعيــة على باب الأمير المعزول فتتجمل له ، ولا تعيره عزله . ولو لم تزرنا إلا لتر ينا رجحانك ، كما طالما رأينا نقصانك لكان ذلك فعلاً صائباً ، وفى القياس واجباً .

وقد أكثر من شعره إكثاره من نثره ، وتناول فيه كلّ المعانى فما قصر فى واحد منها .

قال فى وصف جميل يزداد حسناً على الأيام وشأنها تغيير الصور وتقبيح المحاسن :

---

(١) قصره (كضرب) : جعله قصيرا .

(٢) أى أقامك من مرضك حتى يرتفع جنبك عن الفراش .

وشمسٍ ما بدتْ إلا أَرَتْنَا بأن الشمسَ مَطْلَعُها فُضُــول
تَزيد على السنينَ ضِياً وحُسْناً كما زُفَّتْ على العِتْق الشَّمُولُ[(١)]

وقال فى خضراء الدمن :

قلت للعين حين شامَتْ جَمالاً فى وجوهٍ كواذب الإيماض[(٢)]
لا تَغُرَّنْكِ هذه الأوجهُ الغُرْ رُ فيارُبَّ حَيَّــةٍ فى رياض

وقال يمدح بالشجاعة :

ويشربُ لــكنْ فى إناء من الثَّرَى رَحيقاً خوابيها الطُّلا والمنا كبُ[(٣)]
ويَسمَعُ لــكنّ الغناء مَدَائحٌ ويَكْنِز لــكنَّ الــكُنُوزَ مَناقِبُ
لو أن حبيباً كان لاقاه لم يَقُلْ وأ كثَرُ آمالِ النفوسِ الــكواذبُ

وقال من عَضُدية :

غريبٌ على الأيام وِجْدَانُ مِثْلِه وأغربُ منه بعد رُؤْيَتِه الفقرُ
فلا حُرّ إلا وهْوَ عبدٌ لجوده ولا عبدَ إلاّ وهْوَ فى عَدْلِه حُرٌّ
عَجِبْتُ له لم يَلْبَس الــكِبْرَ حُلَّةً وفينا لِأَنْ جُزْنَا على بابه كِبْرُ

وقال يرثى ابن العميد :

رَجُلٌ لو أن الــكُفْرَ يَحْسُنُ بعده هُجِى القَضَاء وأُنِّبَ المقدورُ
أشكو إليك النفسَ وهى كَئِيبَةٌ وأَذُمُّ فيك الدَّمْعَ وهْوَ غَزِيرُ
وأقولُ للعين الغزيرِ بكاؤُها خَطْبٌ لعَمْرِى لو عَمِيتُ يَسِيرُ

---

(١) العتق للخمر : القدم . الشمول : الخمر أو الباردة منها ، سميت كذلك لأنها تشمل بريحها الناس أو لأن لها عصفة كعصفة ريح الشمال .
(٢) شام البرق : نظر إليه أين يقصد ؟ . الايماض : اللمعان الخفيف من البرق .
(٣) الرحيق ، الخمر أو أطيبها أو أفضلها . الخوابى : جمع خابية (وعاء الخمر) . الطلا : جمع طلية (بالضم) وهى العنق . أما الطلاء (بالـكسر والمد) فهى الخمر ، أو ماطبخ من العنب حتى ذهب ثلثاه

قَدْ مُتُّ بعدكَ مِيتَةً مستورة قد ساقها لى موتُكَ المشهورُ[1]
ودُفِنْتُ فى قبر الهموم وضَمَّنِى كَفَنَانِ ضيقُ الصَّدْرِ والتفكيرُ
ضَحِكَتْ إليكَ الجُو دُضِحْكَكَ كلما وافاكَ ضَيْفٌ أو أتاكَ فقيرُ[2]
وسَقَى ضَريحَكَ مُسْتَهِلٌّ عُمْرُه شَهْرٌ وعُمْرُ النَّبْتِ منه شهور
جُودٌ كَكَفِّكَ أو كَعَيْنِى أَوْدَمٍ أَجْرَاه سَيْفُكَ فى العِدَا المَشْهُورُ

وشعره كثير تناول فيه جميع الأغراض ولكننا نقنع بما رَوَيْنَا .

بديع الزمان الهمذانى

هو أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر المَكْنِىّ بأبى الفضل ، الملقب ببديع الزمان ، وهو عربىّ صميم من تغلب ثم من مضر .

نشأته وتصرفه

نشأ بهمذان من بلاد فارس ، وهى بلدة طيبة الهواء ، عذبة الماء ، نزهة الرياض ، معشبة الريف ، فلما عقل عنى أبوه بتعليمه ، فألزمه أبا الحسن أحمد بن فارس بن زكريا العالم اللغوىّ الشهير ، صاحب كتاب [المجمل فى اللغة] فتلقى عنه ، ولفرط ذكائه اشتفّ علوم أستاذه ووعاها فى أقرب مدّة ، وكذلك تلقى عن عيسى بن هشام الأخبار . ولبث بهمذان إلى سنة ٣٨٠ ﻫ ، وعمره إذ ذاك سبع وعشرون سنة ، لأن ولادته كانت عام ٣٥٣ ﻫ .

---

(١) مات يموت ويمات ويميت .
(٢) الجود : جمع جائد وهو المطر الغزير .

ثم خرج يضرب فى الأرض وينتجع الملوك ، وينزل بساحات الأجواد ، والزمن كما علمت زمن اعتزاز بالأدب وحياطة لأهله تتنافس الدول القائمة فى تقريب العلماء ، وإكرام وفادة الكتاب والشعراء ، فكثر من هؤلاء الرحلة بين شرق وغرب ، فهذه شِيَراز ، وأَرَّجان ، وسِجِسْتان ، وأَصْبَهان ، ونَيْسَابور ، وبُخارى ، وحلب ، ومصر وغيرها عواصم يقيم فيها ملوك لايدخرون وسعاً ، ولايضنون ببذل فى سبيل العلم ، يبتغون بذلك إرضاء شعوبهم بخدمة الدّين وعلومه ، كما يلتمسون بذلك تسجيل مفاخرهم ، فبعد أن كانت بغداد هى المثابة لكلّ نابغ يريد أن يثرى من وراء علمه وفضله ، صار فى كلّ مصر من هذه الأمصار بغداد ثانية يقام فيها للعلم والأدب أكبر وزن . لذلك رأينا كلّ أديب بارع أو عالم فاضل قد انتجع كلّ هذه الأمصار ، وإن هو لم ينشط للرحلة أغرى بالمال ، ووعد العطاء الجزل . فهذا المتنبى يصحب سيف الدولة بن حَمْدان بحلب حيناً ، ثم تزين له أطماعه الذهب لامعاً فى يد كافور الإخْشِيدِىّ بمصر فيقصده ثم يعوّل على زيارة عضد الدولة بشيراز ، ويعرّج على ابن العميد بأَصْبَهان ، ويترفع عن قصد الصاحب بن عباد بعد أن استزاره ، وضمن له المشاطرة فى ماله ، وعلى نهج المتنبى سار كلّ من نبغ من شاعر أو كاتب ، وقد رأيت ما كان من أبى بكر الخوارزمى .

فتلك سنة هذا العصر قد اتبعها بديع الزمان ، فإنه زايل همذان شابًّا فى السابعة والعشرين من عمره كما قلنا ، فقصد حضرة الصاحب بن عباد فتزوّد منه مالاً وفضلاً، ثم قصد جرجان فاستفاد من مداخلة الاسماعيلية (فرقة من الشيعة) ، وعاش فى أكنافهم، واختصّ منهم بأبى سعيد محمد بن منصور ، وكان مشهوراً بالفضل مغداقاً على الفضلاء . ثم صحت عزيمته على قصد نيسابور وفيها الأمير أبو الفضل الميكالى فدخلها سنة ٣٨٢ ﻫ ، فنشر للناس بَزّه ، وأظهر طِرْزه[1] وأملى أربعمائة مقامة لم يصل إلينا منها إلاأربعون ، (وسنفرد لها عنواناً فى هذه الترجمة) ، ثم شجر بينه وبين الخوارزمى مافصلنا خبره

(١) من معانى البز الثياب . والمراد هنا بضاعته من الأدب . الطرز (بالكسر) : الهيئة ويقال هذا طرز هذا : أى شكله .

من مراسلات ومناظرات ومهاترات فى مجالس حضرها العلماء والأدباء ، فانتصر البديع ، واندحر الخوارزمى ، وحمّ من الحزن ، فلم تنته سنة ٣٨٣ هـ حتى مات ، وخلا الجوّ للبديع ، وطار صيته كلّ مطار ، وارتفع قدره عند الملوك والأمراء ، فاستأنف رحلاته بعد هذه الشهرة الذائعة ، ولم تبق بلدة من بلاد خراسان وسجستان وغزنة إلا دخلها وجنى من ثمراتها ، وجبى من مبرّاتها . ثم ألقى عصا التسيار بهَرَاة ، (وهى مدينة عظيمة فى ولاية واسعة على أطراف خراسان مما يلى بلاد الهند) ، فاتخذها قراره ، ثم مازال يتعرّف الناس ، ويتوسم الأشراف ليختار منهم رجــلاً يصاهره حتى وفقه الله كلّ التوفيق فى مصاهرة أبى علىّ بن الحسين الخشنامى ، وهو من أعيان هراة وعلمائها . فصفت للبديع الدنيا ، واتسقت الأحوال ، واقتنى بمعونة صهره ومشورته الضياع المغلة ، ولـكن المنية لم تمهله حتى يجنى ثمار كدّه ، ويستريح من عناء رحله ، بل عاجلته ، فخبا ضوءه أزهر ما كان وفارق الدنيا أحبّ ما كانت إليه وأثلج ما كان صدراً بها .

مات رحمه الله يوم الجمعة الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ٣٩٨ هـ ، وقيل مات مسموماً بما دسّــه له أعداء فضله وحساد جاهه ، وقيل بالسكتة ، وعجل دفنه ، فأفاق فى القبر ، ثم سمع صوته بالليل . ففتح عليه القبر ، فوجد وقد تغيرت ضجعته ، وقبض على لحيته ومات من هول القبر كما قالوا ، أو من فساد الهواء على ما نرجح .

نبوغ بديع الزمان

ذاعت للبديع فى أيامه شهرة دَوّى خبرها بكلّ مكان ، فكان لايدخل بلدة حتى يكون فضله قد سبقه إليها فيحُلّ بها مكرما وينزل على ملوكها ضيفاً ثم يخرج بالحقائب البُجْر من الهدايا والألطاف(١) . وقد أجمع نقدة الأدب على الثناء عليه ، وبالغوا فى

---

(١) الألطاف : جمع لطف أو لطفة (بالتحريك فيهما) وهى الهدية .

إطرائه حتى يقول الثعالبى فى يتيمه الدهر : « هو مفخرة همذان ، ونادرة الفلك ، وبِكْر عُطارِد[١] ، وفرد الدهر ، وغرة العصر » ، ويقول عنه أبو إسحٰق الحصرى فى زهر الآداب : « بديع الزمان اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه كلامه غض المكاسر ، أنيق الجواهر ، يكاد الهواء يسرقه لطفاً ، والهوى يعشقه ظَرْفاً » ، ولم نر أحدا قد أخذ عليه بادرة أو عدّ له هفوة على كثرة ما راج النقد فى أيامه ، وجعله الحساد مظهراً للنقمة على ذوى الفضل كما فعل الصاحب ابن عباد حين غاظه كبر المتنبى عليه ، فلم يسلم له بيت واحد من نقده .

فأما أسباب هذا الإجماع على فضل بديع الزمان فهى ما يأتى :

١ — كانت له ملكة سليمة ، وسليقة عربية ورثها من تحدره فى الأصلاب العربية التى نمته إلى أفصح القبائل ، فهو كما ذكرنا من تغلب ، ثم من مضر معدن الفصاحة ، وبيئة العروبة الصحيحة ، وليس ينكر أثر الوراثة فى المرء ، فبديع الزمان قد نشأ فى بيئة فارسية فكان يعرف الفارسية ، ولعلها كانت لغة خطابه ، ثم حاول العربية بالدراسة وتلقاها عن المعلمين ، ولكن للملكة دفيناً فى المرء يكشفه الصقال وتجلوه المحاولة ، لذلك رأينا له طبعاً لا يتخلف ومادة لا تُنْزَفُ ، وسلاسة تدلّ عليه ، ويسراً لا عسر معه ، وسهولة تغرى المعارض بالإمكان فيرى المستحيل فى إمكانه .

٢ — كذلك كان له إلى جانب هذا الطبع السليم ذكاء وقاد ، وعقل راجح فتمت جميع قواه من حافظة وذاكرة ومتخيلة ومفكرة ، فلم تقو إحداها بضعف الأخريات ، ولكنها كلها كانت بمثابة من التناسب ومقدار من التسامى لا يتمّ إلا للعقول الجبارة كما يقولون .

---

(١) عطارد : نجم من الخنس، وهى النجوم الخمسة : زحل ، والمشترى ، والمريخ ، والزهرة ،وعطارد وخنوسها أنها تغيب . وهو عند اليونان معتبر إله البلاغة . يقال للبليغ هو بكرعطارد : أى أنه أول من أنجب هذا الإله فى البلغاء ، وفى لسان العرب قال الأزهرى : عطارد كوكب الكتاب .

فأما حفظه فقد كان عجباً من العجب كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط ، وهى أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ويؤديها من أوّلها إلى آخرها لا يخرم منها حرفاً ، ولا يخل بمعنى ، وكان ينظر فى الأربعة أو الخمسة من أوراق كتاب لم يعرفه ولم يره ، نظرة واحدة خفيفة ثم يَهُذُّ بها عن ظهر قلبه هَذًّا ، ولذلك استحقّ أن يلقب « بالحافظ » .

وبلغ من تمام عقله ، وشدة ذكائه ، وسرعة بديهته أن كان يقترح عليه عمل القصيدة ، أو إنشاء الرسالة فى معنى بديع فيفرغ منها فى الوقت والساعة ، وقد يعطى القوافى الكثيرة ، فيأتى بها فى أبيات رشيقة ، وقد تلقى عليه الأبيات الفارسية فيترجمها فى الحال إلى أبيات عربية ، وربما كان المعنى غامضاً متعاصياً ، وربما كان يكتب الكتاب المقترح عليه ، فيبدأ بآخره حتى ينتهى إلى أوّله ، فيخرج كأحسن ما يكتب الكاتبون لا أثر فيه للتعمل ولا دليل فيه على التكلف ، وقد سمى الخوارزمى ذلك شعبذة (كما مرّ بك فى حديث مناظراتهما) ، وما الشعبذة إلا أخذ كالسحر لا يدرى مأتاه .

ولو لم يكن فى كلّ هذه المزايا إلا سرعة الخاطر التى جعلت كلامه كله عفو الساعة. ومساوقة[1] القلم، ومسابقة اليد، لكان له به الفضل الذى لا يجحده جاحد . وإن رجلا يكون من آثار إنشائه أربعمائة مقامة ، وتلك الرسائل الكثيرة التى هى وحدها كتاب ضخم ، وديوان من الشعر متنوّع الفنون ، إن رجلا يكون له كلّ هذه الآثار ثم يسلم من نقد ولا يوقف له على عيب ، لهو الرجل العبقرى الذى تضن بمثله الأجيال ، فهو كما قال الثعالبى : « بكر عطارد ، وفرد الدهر » .

---

(١) ساوقه : باراه فى السوق . وقد وردت هذه الكلمة فى جميع تراجم بديع الزمان « مسارقة القلم » بالراء وهى لامعنى لها فصححناها بما ترى .

مقاماته

قد علمت أن أثنين قبل بديع الزمان تقدما بعمل المقامات ، فأما أحدهما فهو أبو بكر بن دريد اللغوى المشهور صاحب كتاب : [جمهرة لغة العرب] المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، وأما ثانيهما فهو أستاذ البديع ، وهو أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ هـ ، صاحب المجمل فى اللغة . ولم تصل إلينا مقامات هذين الأديبين حتى نستطيع أن نقيس بهما مقامات البديع ، ونعرف إلى أىّ حدّ استفاد منهما فى نهجه أو عبارته ، على أن مقامات ابن دُرَيْد قد وصفت لنا ، فكانت بالقياس إلى مقامات البديع خشنة محشوة بالغريب ظاهرة التكلف تنبو عنها الطباع ولا تتفتح لها حجب الأسماع ، ولعل مقامات ابن فارس لا تختلف عن مقامات ابن دريد ، فهو لغوى مثله ولم يعرف عنه ترسل كما عرف عن منشئى زمانه .

أما مقامات البديع فقد جاءت سهلة العبارة رشيقة الأسلوب محلاة بالزينة اللفظية البارعة من جناس وسجع ، وكلّ ذلك ثوب لمعان خلابة وحيل ظريفة كلها فى الكدية يملؤها بالنكات التى تضحك الثكلى ، والفوائد العلمية النادرة .

وقد جعلها مساجلة ومناقلة بين رجلين هما عيسى بن هشام وأبو الفتح الإسكندرى . أما عيسى بن هشام فهو أستاذه الذى تعلم عنه الأخبار ، وكان راوية لها حتى سمى الأخبارى ، فاستعار البديع اسم أستاذه فجعله راوية مقاماته[1] ، وأما أبو الفتح الإسكندرى الذى جرت على يده حوادث المقامات ، فهو رجل من أهل اسكندرية مصر اشتهر بالكُدْية يتكسب بها ، ويستدرّ عطاء الناس بما يجرى على لسانه من لفظ وما يطرفهم به من حادث فنحله البديع وقائع مقاماته .

---

(١) لم يذكر ذلك أحد قبلنا من شراح المقامات ولكننا هدينا إليه من مراجعة أسماء أساتذته فعرفنا من بينهم عيسى بن هشام الأخبارى .

أسلوب بديع الزمان

يتجلى فى مقاماته ورسائله وشعره ، ذلك الطبع المطاوع والسليقة المواتية ، فلم يكن يكره لفظا أبيًّا ، ولا يتكلف أسلوباً متعاظلاً ، بل كانت ألفاظه سهلة وأساليبه سلسة . أما المحسن البديعى من جناس وسجع وغيرهما ، فقد كان يستعمل منه ما هدى إليه الطبع ، وجاء به عفو الخاطر ، فهو يسجع ولكنه لايكره قافية على محلها ، ولا يأتى بها قلقة فى مكانها ، ولذلك تخلو له فقر من السجع ، ويكتفى فيها بالمزاوجة فلا يرى أثر التكلف فى قوله ، وكذلك أنواع البديع الأخرى ينفق منها بقَدْرٍ[1] ، ثم هو لايستعمل منها إلا المحسن اللفظى الذى لا يعضُل ولا يعتاص معه معنى ، وبهذه المزايا استحقت كتابته الإعجاب وخلت من العيب .

وقد تناول فى رسائله وشعره كلّ أغراض القول فى أيامه ، فاشتاق واستخبر ، وعتب واعتذر ، واستماح واستهدى ، ووصف وهجا ، وتهكم ونقد ، إلى غير هـذا مما تراه موزعًا فى ديوانه ورسائله ومقاماته .

والبديهة تغلب على قوله وتراها متمثلة فى شعره ، ففيه ما اقترحت عليه قافيته ووزنه ، وفيه ما ترجمه من شعر فارسى للوقت والساعة ، ومنه ما طلب إليه الإجابة به عن رسالة وردت لحينها ، ومنه ما كان ردًّا لتحية ، أو جواباً عن سؤال فى معنى شعر فيفسره بمثله إلى غير ذلك مما نأتى بأمثلة منه فى مختار قوله .

---

(١) القدر (بالفتح والسكون) المقدار ومبلغ الشىء .

مختار قوله من رسائله

أول ما كاتب به أبا بكر الخُوَارَزْمىّ قوله : (وقد اتبع فيه طريقة التضمين التى كانت إحدى وسائل التحسين فى ذلك العصر) .

أنا لقُرْبِ الأستاذ ، كما طَرِب النَّشْوانُ مالتْ به الخمْرُ ، ومن الارتياح للقائه ، كما انتفض العصفورُ بَلَّلَهَ القَطْرُ . ومن الامتزاج بولائه ، كما التقت الصَّهْباء(١) والبارد العَذْب . ومن الابتهاج بمزاره كما اهْتَزَّ تحت البارح(٢) الغصن الرَّطْب ، فكيف ارتياحُ الأستاذ لصديقٍ طوى إليه ما بين قَصَبَتَى العراق وخُرَاسان ، بل عَتَبَتَىْ نَيْسابور وجُرْجَانَ ؟ وكيف اهتزازُه لضيف فى بُرْدة جَمّال ، وجِلْدة حَمّال .

رَثِّ الشَّمائلِ مُنْهَجِ الأَثْوابِ   بَكَرَتْ عليه مُغِيرَةُ الأَعْرَابِ(٣)

كَمُهَلْهِلٍ وَرَبِيعَةَ بنِ مُكَدَّمٍ   وَعُيَيْنَةَ بن الحارث بن شِهَابِ

وهو ولىّ إنعامه ، بإنفاذ غلامه ، إلى مستقرّى لأفضى إليـــه بمـا عندى إن شاء الله تعالى وحده .

وكتب جواباً عن تهنئته بمرض أبى بكر الخوارزمى :

الحرّ أطال الله بقاءك ، ولا سيما إذا عَرَفَ الدهر معرفتى ، ووصف أحواله صفتى . إذا نظر علم أن نِعَم الدهر مادامت معدومةً فهى أمانىّ ، فإن وجدت فهى عَوَارِىّ . وأن مِحَنَ الزمان وإن طالت فستَنْفَد ، وإن لم تُصِبْ فكَأَنْ قَدْ ، فكيف يَشْمَتُ بالمحنة من لا يأمنها فى نفسه ، ولا يَعْدَمها فى جنسه ، والشامت إن أَفْلَتَ فليس يفوت . وإن

---

(١) الصهباء : الخمر المعصورة من عنب أبيض ، وذلك اسم لها كالعلم .

(٢) البارح : الريح الحارة فى الصيف ، والمراد هنا مطلق الريح .

(٣) الشمائل ، جمع شمال وهو شىء كالمخلاة يغطى به ضرع الشاة . والمراد أثوابه نهج اللابس الثوب : أخلقه كنهجه .

لم يمت فسيموت . وما أقبح الشماتة بمن أمِنَ الإماتة ، فكيف بمن يتوقّعها بعد كل لحظة ؛ وعقب كل لفظة ، والدهر غرْثان طُعْمه(١) الأخيار ، وظمآن شربه الأحرار ، فهل يَشْمَتُ المرء بأنياب آكله ، أم يسرّ العاقل بسلاح قاتله ، وهذا الفاضل شفاه الله و إن ظاهرناه بالعداوة قليلا فقد باطَنّاه ودًّا جميلا والحرّ عند الحَمِيّة لا يُصْطاد ، ولكنه عنه الكرم ينقاد(٢) ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد . فلا تتصوّر حالى إلا بصورتها من التوجع لعلته والتحزّن لمَرْضته . وقاه الله المكروه ؛ ووقانى سماع السوء فيه .

وكتب إلى مستميح عاوده مراراً ، وقال له : (لم لا تُدِيم الجود بالذهب ، كما تديمه بالأدب) . قال :

عافاك الله . مثل الإنسان فى الإحسان ، كمثل الأشجار فى الثمار . سبيله إذا أتى بالحسنة ، أن يُرَفِّه إلى السَّنة ، وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدى وهما فؤادى ويدى . أما الفؤاد فيعْلَق بالوفود ، وأما اليد فتُولع بالجود ، لكن هذا الخُلُق النفيس ، ليس يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم ، ليس يحتمله الغريم ، ولا قَرَابة بين الذهب والأدب ، فلم جمعت بينهما ؟ والأدب لا يمكن ثَرْدُه فى قَصْعة ، ولا صَرْفُه فى ثمن سِلْعة ، ولى من الأدب نادرة : جَهَدْتُ فى هذه الأيام بالطباخ ، أن يطبخ لى من جيميّــة الشَّماخ(٣) ، لوناً فلم يفعل ، وبالقصّاب أن يسمع أدب الكُتّاب ، فلم يَقْبَل . وأنشدت فى الحمّام ، ديوان أبى تمام ، فلم ينْفُذ ، ودَفَعْت

---

(١) الطعم ، الطعام .

(٢) الحمية : الغضب . والمعنى أنا لا أطاوع على الشدة ولكنى أنقاد باللين .

(٣) الشماخ هو ابن ضرار شاعر مخضرم من أوصف العرب للحميد والقوس وأرجزهم على البديهة ومن جيميته قوله .

دعــوت إلى ما نابنى فأجابنى   كريم من الفتيان غــير مزلج
فتى يملأ الشيزى ويروى سنانه   ويضرب فى رأس الكمىّ المدجج
فتى ليس بالراضى بأدنى معيشة   ولا فى بيوت الحى بالمتولج

إلى الحَجّام ، مُقَطَّعات اللحّام(١) ، فلم يأخذ ، واحتيج فى البيت ، إلى شىء من الزيت ، فأنشدت من شعر الكُمَيْت ، ألفاً ومائتى بيت ، فلم تغن ، ولو وَقَعَتْ أرجوزة العَجّاج ، فى توابل السِّكْبَاج ، ما عَدِمْتها عندى ، ولكن ليست تقع ، فما أصنع ، فإن كنت تحسب اختلافك إلىّ ، إفضالا علىّ . فراحتى ، فى ألا تَطْرُق ساحتى ، وفَرَجى ؛ فى ألاّ تجى ، والسلام .

وكتب يعاتب أبا الفضل الميكالى و يستديم ودّه :

لَئِنْ ساءنى أَنْ نِلْتَنِي بِمَسَاءَةٍ   لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ ببالك

الأمير (أطال الله بقاءه) فى حالى بره وجفائه متفضل ، وفى يومى إدنائه و إبعاده مُتَطوِّل . وهنيئاً له من حمانا ما يَحُلُّه ، ومن عُرانا ما يَحُلّه ، ومن أعراضنا ما يستحلّه . بلغنى أنه أدام الله عزّه استزاد صنيعه ، فكنت أظننى مَجْنِيًّا عليه ، مُساء إليه ، فإذا أنا فى قرارة الذنب ؛ ومثارة العَتْب(٢) ، وليت شعرى أى محظور فى العشرة حضرته ، أو مفروض فى الخدمة رفضته ، أو واجب فى الزيارة أهملته . وهل كنت إلا ضيفا أهداه مَنْزِع شاسع ، وأدّاه أمل واسع . وحداه فضل و إن قلّ . وهداه رأى و إن ضلّ ، ثم لم يُلْق إلا فى آل مِيكال رَحْلَه ، ولم يصل إلا بهم حبله ؛ ولم ينظم إلا فيهم شعره ، ولم يقف إلا عليهم شكره ، ثم مابعدت صحبة إلا دنت مهانة ، ولا زادت حرمة إلا نقصت صيانة ، ولا تضاعفت منة إلا تراجعت منزلة ولم تزل الصفة بنا حتى صار وابلُ الإعظام قطره وعاد قميص القيام صُدْره(٣) ، ودخلت مجلسه وحوله من الأعداء كتيبة ، فصار ذلك التقريب أزوراراً ، وذلك السلام اختصارا ، والاهتزاز إيماء ،

---

(١) أبو اللحام : شاعر ولعله هو المراد .

(٢) المعنى أنه لما انقطع إحسان الأمير حملت ذلك على تجنيه علىّ وظلمه لى بقطعه المبرة من غير سبب ولكنى علمت أن هذا منه لما يراه من وقوعى فى الخطا ونسبتى إلى الذنب . والواقع أنى لا أعلم ذنبا جنيته .

(٣) الصدرة مايلبس على الصدر « صديرى » . والمعنى عاد الطويل قصيرا .

والعبارة إشارة ، وحين عاتبته آمل إعتابه ، وكاتبته أنتظر جوابه ، وسألته أرجو إيجابه ، أجاب بالسكوت ، فما ازددت إلا له ولاء ، وعليه ثناء ، لاجرم أني اليوم أبيض وجه العهد ، واضح حجة الودّ ، طويل لسان القول ، رفيع محكم العذر ، وقد حملت فلاناً من الرسالة ماتجافى القلم عنه ، والأمير الرئيس أطال الله بقاءه ينعم بالإصغاء لما يورده موفقاً إن شاء الله عزّ وجلّ :

وكتب إلى الشيخ أبي الطيب يعزيه :

تالله ما يضرب الكلب ، كما يضرب هذا القلب ، ولا يقطر الشمع ، كما يقطر هذا الدمع ، والنار أرفق بالزّناد ، من هذه المصيبة بالأكباد ، وما للسمّ سلطان هذا الغم ، ولا للخمر ، طغيان هذا الأمر ، ونفسى إلى القبر ، أعجل منها إلى الصبر . وأذناى بالموت ، آنس منهما بهذا الصوت ، أو لم يكفنا الجرح حتى ذُرّ عليه الملح ، ألم أكن من أبي القاسم مُثْقَل الظهر فما هـذه العِلاوة على الحِمْـل ، ولم هذه الزيادة على الثِّقْل .

من هراة وأنا بين القول والعمل: أعمل فى السّفا(١) ، وأقول وا أسفاً . والحمد لله الذى كدّر وصفّى . وصلواته على نبيه المصطفى ، وآله المجتبى ، ولولا أن يتطير الشيخ من مَقْدَمى فيقول لا يأتيني إلا عند مصيبة لسقيْتُ تربة هذا النجم الآفل من دموعى ، وقَدَّمْت أجداثه بضلوعى(٢) . ولكنه ألقى فى رُوعِى أن خدمتى هـذه طِيرَة ، وأن تأخرى عنها خِيرَة ، فكلما استخفنى إليه الجَزَع ، أقعدنى عنه الفَزَع . ولو كان أحد من البريّة فوق أن يذكر بالله لكانه الشيخ أدام الله عزّه . لما أوتى من تمام النفس وكمال الفضل، والمعرفة بأحوال الدهر ، والعَضّ على ناجذ الحُلُم(٣) ، ولكن لفقد الكريم

---

(١) السفاء (ككساء) : الدواء . والمراد أنه مريض يعالج نفسه .

(٢) أى جعلت ضلوعى أجداثا له .

(٣) الناجذ : الضرس مطلقا أوأحد أربعة هى الأواخر أو هو الناب . والحلم (بالضم وبضمتين) : الاحتلام . وناجذ الحلم هو الضرس الذى ينبت عند بلوغ سن الاحتلام والكلام كناية عن تمام العقل .

لوعة ، ولفجأة المصيبة روعة ليس لها إلا التدبر ، والتذكير والتذكر . فأنا أُذَكِّر الله عزّ وجل الذى أنفذ فى مشارق الأرض أمره ، وأجرى بين اللحوم والجلود حُكْمه . وجعل أكثر هذا العالم دونه ، وصان مع ذلك من الشوائب دينه . وأبقى له من صالح الأولاد من يُقِرُّ عَيْنه ، ومن طيب النسل ما يُقَوِّى ظهره ويَغيظ عدوّه ، ولن يُنْسِيَ الكثيرَ من آلائه ، القليلُ من بلائه ، والله يجعل هذه المصيبة خاتمةَ المصائب ، ولا يريه فى الأعزّة سوءًا أبداً .

وكتب فى تهنئة بفتح الجابية بباب بلخ وهو آخر ما أنشأه .

كتابى أطال الله بقاء الشيخ السيد ، من هَرَاة عن سلامة ، وصنع الله جميل وسلطانه عزيز ، وكيده متين ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وآله أجمعين . وهذا وربّ الكعبة ، آخر مافى الجَعْبة[1] ، لقد أنصف القارة[2] ، ومحا السيف ما قال ابن دارة[3] ، ثم لا نَزْوَةَ بعدها للترك ، ولا تحكم بعدها بالملك ، لقد كَاسَ[4] السلطانُ أعزّ الله نصره ، إذ عَفَرَ[5] لله شعره ، وعرض على الله فقره ، وفوّض إليه أمره ، ونذر لله نذره ، وناهض بالله خصمه ، وسأل الله حوله ، ولم يعجبه كثرة الملأ حوله ، ولم يشغل بخيوله وفيوله ، بذاك شدّ الله أَزْره[6] ، وقوّى أَسْره[7] ، وأعزّ نصره ، وأقطعه عَصْره ، وأطعمه مُلْكه ، وأورثه أرضه ، إنما الظفر

---

(١) الجعبة : كنانة السهام .

(٢) إشارة إلى المثل « قد أنصف القارة من راماها . والقارة: قبيلة مشهورة بالرماية .

(٣) ابن دارة : شاعر أكثر من هجاء بنى فزارة . فتآمروا فى قتله فقال بعضهم لا تقتلوه ولتأخذوا عليه أن يمدحنا فيمحو مدحه ماسبق من ذم فعزموا على ذلك . ثم إن رجلا منهم كان قد آذاه هجاؤه اغتفله فضربه بسيفه فقتله وقال فى ذلك :

قتل ابن دارة بالجزيرة سيفنا وزعمت أن سبابنا لايقتل

فأشار إلى ذلك الكميت بن معروف فقال .

فلا تكثروا فيه الضجاج فأنه محا السيف ماقال ابن دارة أجمعا

(٤) كاس : كان كيسا .

(٥) عفره : ألقى عليه العفر (التراب) .

(٦) الأزر : القوة والظهر .

(٧) الأسر : العصب ، ومتانة التركيب .

بأسبابه ، والموفق يأتى الأمر من بابه ، والمخالفون أدام الله تمكين الشيخ الجليل وإن أكلوا الحديد وهاضوه ، وسروا إلى الموت وخاضوه ، وبلغوا العذر وجازوه ، وجَهَدوا القتال وصدقوا المِصَاع[١] ، وأشهدوا السباع ، فقد حكم الله لهم بالفشولة بعد الهزيمة ، وطرق إليهم الشتيمة ، فهؤلاء الأشقياء الذين هم فراش النار ، وقُمَاش[٢] الدار ، وأوباش الفرار ، وخِشَاش[٣] الأرض ، وعلق السيف ، وحشرات الصيف ، ولفيف السيل[٤] ، على سخيف الخيل ، لا يلزمون دارهم ، ولا يعرفون مقدارهم ، أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين . لاصبر فى القتال ، ولا نوم فى الرحال ، رعدة فوقها صلف ، وراعدة تحتها قَصَف[٥] ، يا أبناء الإماء ، ورِعاء الشّاء ، وحَلَب السِّقَاء[٦] ، وغُثاء[٧] الماء ، وجمع الغوغاء ، والقواعد من النساء ، ألا يذهب أحدكم لشانه ، ألا يلزم أحد قطع لسانه ، ألا يقف عند حدّه ، ما للتاج ، وأهل النتاج ؟ .

المختار من مقاماته

منها المقامة الكوفية ، وننقلها برمتها لقصرها . قال :

حدّثنا عيسى بن هشام قال : كنت وأنا فتىّ السنّ أشدّ رحلى لكل عَمَاية ، وأركض طرفى إلى كل غواية ، حتى شربت من العمر سائغه ، ولبست من الدهر

(١) المصاع : النزال والحرب . من ماصعه : أى حاربه وجالده .
(٢) القماش : ماعلى وجه الأرض من فتات الأشياء . وقماش الناس أراذلهم .
(٣) خشاش الأرض (بالتثليث) : حشراتها .
(٤) لفيف السيل : مايلفه ويجمعه من كل ماس به ، والمراد أنهم أوباش مختلطون كالذى يجمعه السيل فى مروره .
(٥) القصف . الخور من قصف (كفرح) صار خوارا .
(٦) حلب السقاء : مافيه من بقية ماء يستدر كما يستدر الضرع .
(٧) غثاء الماء : ماعليه من زبد .

سابغة ، فلما أن صاح النهار بجانب ليـلى[١] وجمعت للمعاد ذيلى ، وطئت ظهر المروضة[٢] لأداء المفروضة ، وصحبنى فى الطريق رفيق لم أنكره من سوء ، فلما تجالينا وخبرنا بحالينا ، سـفرت القصة عن أصل كوفىّ ومذهب صوفىّ ، وسرنا فلما أحَلَّتْنا الـكوفة ملنا إلى داره ودخلناها ، وقد بَقَل وجهُ النهار[٣] واحضرّ جانبه ، ولما اغتمض جفن الليل وَطَرَّ شاربه[٤] . قُرِع علينا الباب ، فقلنا من القارع المنتاب ؟. فقال وَفْد الليل وبريده[٥] ، وفَلٌّ[٦] الجوع وطَريده ، وحُرٌّ قاده الضُّرّ ، والزمن المرّ ، وضيف وَطْؤُه خفيف ، وضالته رغيف ، وجارٌ يستعدى على الجوع ، والجيب الْمَرْقوع . وغريب أُوقِدَتِ النار على سَـفَره ، ونَبَح العَوّاء فى أثره ، ونُبِذَتْ خلفه الحُصَيّات ، وكُنِسَتْ بعده العَرَصات ، فنِضْوُه طليح[٧] ، وعيشه تَبْريح ، ومن دون فَرْخيه مهامه فِيح . قال عيسى بن هشام : فقبضت من كيسى قبضة الليث و بعثتها إليه ، وقلت زِدْنا سؤالاً ، نزدك نوالاً ، فقال : ما عُرِض عَرْف العُود ، على أحَرَّ من نار الجود ، ولا لُقِيَ وَفْدُ البرّ ، بأحسن من بَريد الشكر ، ومن ملك الفضـل فلْيُؤَاسِ ، فلن يذهب العرف بين الله والناس ، وأما أنت فحقق الله آمالك ، وجعل اليدَ العليا لك . قال عيسى بن هشام : ففتحنا له الباب ، وقلنا ، ادخل فإذا هو

---

(١) يشير إلى قول الفرزدق :

والشيب ينهض فى الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

(٢) المروضة : الدابة المذللة .

(٣) يقال بقل وجه الغلام : إذا ظهر فيه الشعر (اللحية) .

(٤) طر شاربه : نبت شعره . وقد لاحظ الامام محمد عبده فى شرحه للمقامات أن الأجمل أن يكون اخضر جانبه فى حيز الليل ، وطرّ شاربه فى حيز النهار . كما فى بعض الروايات .

(٥) البريد : الرسول .

(٦) الفلّ : المنهزم .

(٧) النضو : المهزول . الطليح : التعب .

شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، فقلت : يا أبا الفتح ، شَدَّ ما بلغت منك الخصاصة . وهذا الزِّيُّ خاصة(١) ، فتبسم وأنشأ يقول :

لا يغُرَّنَّكَ الذى أنا فيه من الطَّلَبْ
أنا فى ثروة تشَقَّـقُ لها بُرْدةُ الطَّرَبْ
أنا لو شئت لاتخذْ تُ سُقُوفًا من الذَّهَبْ
أنا طورا من النَّبيط وطورا من العرب

ومنها المقامة البلخية ، وهى قصيرة أيضا ننقلها برمتها ، قال :

حـدثنا عيسى بن هشام قال : نهضت بى إلى بلخ تجارة البَزِّ فوردتها وأنا بعُذْرة(٢) الشباب وبال الفراغ وحلية الثروة ، لا يَهُمُّنى إلا مُهْرَةُ فكر أستقيدها ، أو شَرُودٌ من الكَلِم أصيدها . فما استأذن على سمعى مَسَافةَ مُقامى ، أفصحُ من كلامى ، ولما حتى الفراق بنا قَوْسَه أو كاد دخل على شابٌ فى زِيٍّ مِلْءِ العين ، ولحية تَشُوكُ الأَخْدَعَيْن . وطَرْفٍ قد شَرِبَ ماء الرَّافدَيْن(٣) . ولقينى من البر فى السَّناء ، بما زدته فى الثناء . ثم قال : أَظَعْنًا تريد ؟ قلت : إى والله ؛ فقال : أَخْصَبَ رائدُك ولا ضلَّ قائدك ، فمتى عزمت ؟ فقلت : غداة غد ، فقال :

صباحُ الله لا صبحُ انطلاق وطيرُ الوصل لا طيرُ الفراق

فأين تريد ؟ قلت الوطن ، فقال : بلغت الوطن ، وقضيت الوطر . فمتى العود ؟ قلت : القابل ، فقال : طويت الريط(٤) وثنيت الخيط(٥) . فأين أنت من الكرم ؟ فقلت : بحيث أردت ، فقال : إذا رجعك الله سالما من هذا الطريق ، فاستصحب لى

---

(١) خاصة بالرفع خبر لزىّ أى زيه دليل وعلامة . وبالنصب مفعول مطلق أى وما أشد ما بلغ منك هذا الزى خصوصا .
(٢) عذرة الشباب : أوله .
(٣) الرافدان : دجلة والفرات .
(٤) الريط : الثوب الرقيق أو كل ملاءة ذات لفقين والمراد أنه يمضى ليالى هنيئة .
(٥) المراد بالخيط الزمن من اليوم إلى قابل والمراد بثنيه جعل أحد طرفيه على الآخر أى أنه يستولى على طرفى المدة من هذا الزمن .

عدوًّا فى بردة صديق . من نِجَار الصُّفْر(١) ، يدعو إلى الكفر ، ويرقص على الظُّفُرْ كدارة العين ، يحط ثقل الدَّيْن ، ويتأنق بوجهين قال عيسى بن هشام : فعلمت أنه يلتمس ديناراً، فقلت لك ذلك نقداً ، ومثله وعداً ، فأنشأ يقول :

رأيُكَ مما خطبتُ أعلى لا زلتَ للمكرمات أهلا
صَلُبْتَ عُودا ودُمْتُ جُودًا وفُقْتَ فَرْعًا وطِبْتَ أَصْلاَ
لا أستطيعُ العطاء حِمْلاً ولا أُطيقُ السُّؤالَ ثِقْلاَ
قصَّرْتُ عن منتهاك ظَنًّا وطُلْتَ عما ظَنَنْتُ فِعْلا
يا رُجْمَةَ الدهرِ والمعالى لا لَقِىَ الدهرُ منك ثُكْلاَ(٢)

قال عيسى بن هشام : فنلته الدينار ، وقلت أين منبت هذا الفضل ؟ فقال : نمتنى قريش ، ومهد لى الشرف فى بطائحها ، فقال بعض من حضر : ألست بأبى الفتح الإسكندرى؟ألم أرك بالعراق تَطُوف فى الأسواق، مُكْدِيًا(٣) بالأوراق ، فأنشأ يقول :

إن لله عبيدا أَخذوا العُمْرَ خليطاَ
فهُمُ يُمْسُونَ أعْرَا بًا ويُضْحُون نَبِيطاَ

المختار من شعره

له تعمية فى حَجَرَىِ الرحى ، وقد بعث بها إلى الصاحب بن عباد .

أخوانِ من أم وأبْ لا يَفْتُران عن الشَّغَبْ
ما منهما إلا ضَنٍ يشكو مُعاناة الدَّأَب

---

(١) الصفر : جمع أصفر وهو الدينار لصفرة لونه .
(٢) الرجمة : مايبنى حول النخلة تسند به والمعنى أنه عماد الدهر .
(٣) فى لسان العرب : أكدى ألح فى المسألة ، ويقال لا يكديك سؤالى : أى لا يلح عليك .

وكلاهما حَنِقُ الفؤا دِ على أخيه بلا سبب
يغريهما بالشر سِبْـــطُ الريح وابن أبي الخَشَبْ
ما منهما إلا به شَرْطُ اليُبُوسة والحَرَبْ(١)
فلنا بِصُلْحِهما رَدًى ولنا بحَرْبهما نَشَب

وقيل له كيف أصبحت فقال :

أصبحت فى البيت بلا بيتٍ أقلب الـكف على لَيْتِ
وصاحب البيت يريد الـكِرَا وليس فى البيت سوى البَيْتِ

وقال فى ترجمة معنى فارسى :

جَيْشُ الملاحةِ والجما لِ بوجه من أَهْوَى مُنَاخْ
فلو انْبَرَى للأرض فى أَيَّارَ أَزْهَرَتِ السِّبَاخْ

واقترح عليه أن يجيز هذا البيت :

جميع فوائد الدنيا غُرُورُ وأَكْثَرُ قَوْلِها كَذِبٌ وزُورُ

قال على النفس ارتجالا :

إذا الدنيا تأمَّلَها حكيمٌ تبيَّنَ أن معناها عُبُورُ
فبينا أنت فى ظلّ الأمانى بأسعد حالةٍ إذْ أنت بُورُ(٢)
زمانٌ فى قَضِيَّتِهِ جَئُورٌ ودَوَّارٌ بما تَأْبَى دَءورٌ
رَضِيتَ قَضَاءه أَوْ لَسْتَ تَرْضَى فعُضَّ يَدَيْكَ وانْظُرْ ما تَصِيرُ

وقال يرثى صاحبا له :

لِئِنْ أَحْرَزَكَ الدَّاعِى لَقَدْ أَحْزَنَنِى النَّاعِى
وإنْ بِتَّ بِمَهْجَاعٍ لقد بِتْنَا بأَوْجَاعِ

---

(١) حربه : سلبه ماله .
(٢) البور : الرجل الفاسد والهالك للواحد والجمع .

أَرَبَّ القصر والمنـــظَرِ مَالَكَ بالْقَاعِ
أيا من دونه الموت بنفسى وبأَشْياعى
ويا مؤنس آمالى ويا مُوحِش أَطْماعى
لقد كنت أُرَجّيك لِمَا يَسْعَى له السَّاعِى
وما تسمو له نَفْسٌ ولا يُدْرِكُه بَاعِى

وقال يمدح الأمير فريغون ملك الجُوْزَجان :

ألم تر أَنِّىَ فى نَهْضَتِى لقيتُ الغنى والمنى والأَميرا
ولما التقينا شممْتُ التراب وكنت امرأ لا أَشَمُّ العَبِيرا
لقيت امرأ مِثْلَ غَيْبِ الزمان يعلو سَحَابا ويَرْسُو ثَبِيراً
فلا عدم الملك ذَا رَوْعَةٍ يَمُونُ المنى ويَسُرُّ السَّرِيرا
لآل فَرِيغُون فى المكرمات يَدٌ أولا واعتذارٌ أخيراً
إذا ما حَلَلْتَ بمَغْنَاهُمُ رأيت نَعِيماً ومُلْكاً كَبِيرَا

العلوم فى العصر العباسى

عرفت مما ذكرناه فى المقدمة أن العلوم بلغت فى هذا العصر ثلثمائة أو تزيد، والذى حدا بالعرب إلى العناية بهذه العلوم هو الضرورة الحافزة ، إذ لا يعقل أن أمة يتعاظم عمرانها وتتسع رقعة ملكها كما حدث للأمة العربية ثم تبقى مستغنية عن العلم غير محسة بالحاجة إليه . فهذه الضرورة المدنية تدفعهم إلى طلب الطب لعلاج مرضاهم ، وتعرف الحساب لضبط جباياتهم ، والهندسة لإقامة مبانيهم ، وهكذا لا ترى علما من العلوم الكونية من فلك وكيمياء وفنون حرب وتدبير ملك إلا والمدنية داعية إليه موجبة له . ثم علوم الدين وغيرها من النفسيات تدعو إليها ضرورة الاجتماع حتى تضمن السعادة.

لأمم تزدحم بها مواطنها وتكثر مطالبها وتتعدد علاقاتها . ولعلوم اللسان عند العرب شأن خاص إذا كان كتاب دينهم وهو القرآن بالعربية فنشأت علومها من نحو ولغة وغيرهما فى خدمة القرآن حتى يظل واضح البيان مفهوم العبارة .

وقد قيض الله للعلم من نصروره فى جميع فترات هذا العصر : فحين كانت الدولة عربية خالصة فى أيام الخلفاء الأول أيام المنصور والرشيد والمأمون وغيرهم كان يحدوهم الى العناية بالعلم حرصهم على بقاء دولتهم إذ العلم سياج الدول والضامن لبقائها . وقد ساعد على ذلك قوة الدولة وكثرة جباياتها فسهل على الخلفاء وهم ذوو السلطان المطلق أن يبذلوا فى سبيل العلم . فألهبوا الهمم بعطائهم الكثير حتى رأينا أنه لم يمض على دولتهم قرن من الزمان حتى كانت قد وضعت جميع العلوم الإسلامية وترجم أكثر ما عرف من علوم الأمم القديمة المدنية ، من يونان وفرس وكلدان وهنود ومصريين . فاجتمع للعرب علم الأوائل والأواخر وانصرفت الهمم إلى تحصيل هذه العلوم والزيادة عليها حتى أتوا فيها بالعجب العجاب .

وحين ضعف هؤلاء الخلفاء وغلت أيديهم وتقلصت دولتهم من أطرافها لم يضعف شأن العلم ولم يبطل نشاط العلماء ، لأن هذه الأمارات التى اقتطعت من الدولة كان حكامها وشعوبها مسلمين فضمن ذلك للعلم أن يبقى رواجه وتدوم العناية به ؛ لأن أغلب هذه العلوم إنما أحدثت لخدمة الدين وسهولة الوصول إلى فهمه . كذلك شاعت المنافسة بين هؤلاء الملوك أن يبالغوا فى إكرام العلماء وإن يغدقوا عليهم العطاء فكان للعلم فى عصرهم شأن هو على التحقيق أزهى من شأنه فى العصر الأول فكثر فى أيامهم التأليف وكانوا يحملون عليه العلماء ليسجلوا أسماءهم فى مؤلفاتهم ، وانتشرت المدارس وكثرت دور الكتب ونبغ الفلاسفة فى كل فن وتعددت المخترعات مما سنعقد له فصلا فى آخر هذا الباب نبين فيه نتائج اشتغال العرب بالعلم .

أقسام العلوم

وهذه العلوم تنقسم فى جملتها قسمين : العلوم الإسلامية ، والعلوم الدخيلة ، ويراد بالعلوم الإسلامية كلّ علم نشأ لخدمة الإسلام والقرآن الكريم ، وهى التى اخترعها المسلمون واشتغلوا بها ابتداء لم ينقلوها عن غيرهم ولم يستعينوا فيها بالنقل عن أمم سابقة .

ويراد بالدخيلة تلك العلوم التى صارت إلى المسلمين من طريق النقل عن الأمم الأخرى، فلم يكن لهم فيها أوّلا إلا أثر الهمة فى النقل واختيار اللفظ العربى لما ورد بها من مصطلحات ، أوتعريب لألفاظها فى تلك اللغات وصقلهاحتى تخضع لأحكام العربية . ولا بدّ لنا من أن نذكر ما كان للعلوم فى هذا العصر من نشأة وتدرّج وما انتهى إليه أمرها حتى نهاية العصر العباسى .

ونحن بادئون بالعلوم الإسلامية، وهى تنقسم قسمين : علوما لسانية ، وأخرى شرعية، ولمّا كانت اللسانية إنما أحدثت لخدمة الدين والقرآن ، وكانت فى جملتها سابقة للعلوم الشرعية فى الوجود ناسب أن نبدأ بها أوّلا .

وهى أنواع : النحو ، والصرف ، واللغة ، والبلاغة ، والعروض ، والأدب ، (وهو يشمل التاريخ والنوادر والأنساب ورواية الشعر ونقده) .

العلوم اللسانية

النحـــو

نشأ النحو بصريًّا ، لأن أبا الأسود الدؤلى واضعه نزل البصرة ، فالتفّ حوله من

تعلمه عنه ، وهم الطبقة الأولى من النحاة ، ومنهم : يحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل ، وميمون بن الأقرن . وساعد على نموّ النحو فى البصرة أن الذين نزلوا بها من جالية العرب كانوا كثيرين ، والبادية حولهم عامرة بالأعراب الفصحاء فى نواحى نجد والبحرين ، فسهل عليهم الأخذ عن البادية . أما الكوفة فقد قلّ حولها من تؤخذ عنهم اللغة ، ولم يكن عربها فى الفصاحة بمثابة عرب البصرة ، على أنه قد شغلهم منذ قديم رواية الشعر والأخبار ، فانصرفوا عن النحو حيناً حتى نشأت فى البصريين طبقة ثانية هى طبقة عبد الله بن أبى إسحٰق الحضرمى ، وعيسى بن عمر الثقفى ، وأبى عَمْرو ابن العَلاء ، وأبى الخطَّاب الأخفش الأكبر ، وهٰؤلاء جميعاً أدركوا العصر العباسى ماعدا الحَضْرَمىّ فإنه مات سنة ١١٧ ﻫ فى أيام هشام بن عبد الملك ، وبقى أهل الكوفة لا يشتغلون بالنحو حتى نشأت هذه الطبقة فبدءوا بالأخذ عنهم ، وقد ذكروا أن أوّل من عرف النحو بالكوفة شيبان بن عبد الرحمن التميمى المتوفى سنة ١٦٤ ﻫ ، وكان بصريًّا فانتقل إلى الكوفة وسكن بها وهو من تلامذة أبى عمرو بن العلاء ، وقد ظهر معه فى طبقته أبو جعفر الرؤاسى ، ومُعَاذ الهَرَّاء واضع علم التصريف . ثم تتابعت الطبقات من البصريين والكوفيين فكانت الطبقة الثالثة من البصريين هى طبقة الخليل بن أحمد ، ويُونُسُ بن حبيب ، وأبى معاوية بن شَيْبان . ثم جاءت منهم الطبقة الرابعة ؛ ومن أشهر رجالها : سيبويه ، والأصمعى ، وأبو عُبَيْدة ، وأبو زيد الأنصارى . وكان سيبويه إمام هذه الطبقة أخذ النحو عن الخليل بن أحمد ، وعيسى بن عمر ، وأخذ اللغة عن الأخفش الأكبر . ولسيبويه كتابه الذى كمل فيه تفاريع العلم وأكثر من شواهده حتى صار كتابه هو الإمام فى هذا العلم ، وحتى صار لشهرته إذا قيل « الكتاب » لا ينصرف إلا إليه .

وقد عاشر هذه الطبقة من البصريين طبقة من الكوفيين كان إمامهم الكسائى ، وهو الذى جمع البرامكة بينه وبين سيبويه إمام البصريين حين قدم بغداد ليظهر بها فضله . تناظرا بمجلس يحيى البرمكى ، وكان موضوع المناظرة هذه المسألة : « كنت أظن

أن الزنبور أشد لسعاً من العقرب فإذا هو هى أو فإذا هو إياها » ، فكان سيبويه يرى أن الصواب فإذا هو هى : ويرى الكسائى أنه يجوز أيضاً فإذا هو إياها ، وادّعى أن العرب تقول بالوجهين ، فتحاكما إلى أعرابى ، فكان رأيه مع الكسائى وانخزل سيبويه وخرج من بغداد ولم يعد إليها .

وقيل : إن الانتصار إنما تمّ للكسائى بخديعة وتدليس(١) . ذلك أن الدولة كان ضلعها مع الكوفيين لأنهم شيعتهم ، فكانوا يؤثرونهم على البصريين ،ويختارون منهم مؤدبى أبنائهم وحضّار مجالسهم ، فأراد يحيى البرمكى أن يحمل الأعرابى الذى اختير للفصل فى هذه المسألة على أن يقول برأى الكسائى ، فلم يطاوعه لسانه ، فاتفقوا على أن يقولوا له بحضر الناس يقول الكسائى كذا ويقول سيبويه كذا فمع أيهما الصواب ؟ فيقول الأعرابى مع الكسائى. ففعل الأعرابى ذلك فكان قوله فصلاً، وانخزل سيبويه . ثم كانت طبقة خامسة من البصريين إمامها الأخفش الأوسط ويقابلها من الكوفيين طبقة الفراء وهو تلميذ الكسائى ومؤلف كتاب الحدود ، وكان المأمون قد أمره أن يؤلف كتاباً يجمع به أصول النحو ، وأمر أن تفرد له حجرة فى دار الحكمة ، ووكل به من يكفيه كل حاجة حتى لا يتعلق قلبه بشىء حتى إنهم كانوا يؤذنون له فى حجرته بأوقات الصلاة ، فألف كتابه الحدود حفظ به العربية . ومن فضله كان يقال عنه « الفراء أمير المؤمنين فى النحو » ، ثم جاءت طبقة المبرد من البصريين يقابلها طبقة ثعلب من الكوفيين .

---

(١) القول فى هذه المسألة ماقاله سيبويه وعلى مثاله قوله تعالى ـ فاذا هى بيضاء ـ . ولو ثبت النصب لكان خارجا عن القياس واستعمال الفصحاء ، وقد ذكر فى توجيهه أمور منها :

أولا : ان الظرف وهو إذا نصب الضمير لأن فيه معنى وجدت ورأيت .

ثانياً : ان الضمير استعير من مكان ضمير الرفع ، قال ابن مالك ويشهد له قراءة إياك يعبد .

ثالثاً : ان الضمير مفعول به والأصل فاذا هو يساويها ونظروا له بقوله تعالى : لئن أكله الذئب ونحن عصبة (بنصب عصبة) .

رابعاً : انه مفعول مطلق ، والأصل فاذا هو يلسع لسعتها وهذا أشبه ماوجه به النصب .

خامساً : الضمير منصوب على الحال من الضمير فى الخبر المحذوف والأصل فاذا هو ثابت مثلها .

ثم لم يكن بعد هؤلاء تجديد فى النحو ، وإنما كان عمل من أتى بعدهم شرح كلام السابقين أو اختصاره للناشئين ، وبطلت العصبية الكوفية والبصرية ، فكان الواحد من هؤلاء العلماء يجمع آراء أهل البلدين لا يزيد على الترجيح بينها والمفاضلة ، ومن هؤلاء : بن درستويه المتوفى سنة ٣٤٧ هـ ، وأبو على الفارسى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، والسيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ هـ ، والرمانى سنة ٣٨٤ هـ ، وابن جنى سنة ٣٩٢ هـ ، والربعى سنة ٤٢٥ هـ ، والزمخشرى صاحب المفصل المتوفى ٥٣٨ هـ ، وابن الشجرى سنة ٥٤٢ هـ ؛ وهؤلاء جميعاً كانوا ببغداد وماتوا بها ، وإنما كانوا يرحلون إلى ملوك الشرق ، إجابة لرغبتهم ، وطمعاً فى عطائهم ، ومن النحويين فى غرب المملكة الإسلامية بمصر والشام ابن النحاس المصرى المتوفى سنة ٣٣٧ هـ ، وابن خالويه أحد العلماء بحضرة سيف الدولة بن حمدان ، وقد توفى سنة ٣٧٠ هـ ، وابن برى المقدسى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ ، وابن الحاجب صاحب الشافية فى الصرف والكافية والأمالى فى النحو المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

الفروق بين مذهبي البصريين والكوفيين

كان البصريون لقربهم من العرب الخلّص يستطيعون الاستشهاد على كلّ مسألة من مسائل العلم . فكانوا لذلك أهل سماع لايجيزون رأيًا إلا إذا أيدوه بالشاهد واحتجوا له بكلام العرب ؛ أما الكوفيون فقد كانوا أهل قياس لعدم استطاعتهم النقل عن العرب كما استطاع إخوانهم ، فحين وجد البصريون شاهدا لكل مسألة من مسائل العلم لجأ الكوفيون إلى القياس ، وحين أخذ الكوفيون غير متحرّجين استطاع البصريون ألا ينقلوا إلا عمن تمت ملكاتهم وعرفوا بفصاحة ألسنتهم . هذا هو مجمل الفرق بين المذهبين ، ولا نزال إلى الآن نرجح المذهب البصرى على المذهب الكوفى لاختلاف مبنى المذهبين كما رأيت .

وقد احتدم الجدال بين أهل البلدين وتعددت مسائل الخلاف بينهما وألف فيها كثيرون أشهرهم كمال الدين الأنبارى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ ألف كتاب : (الإنصاف ، فى مسائل الخلاف) وأبو البقاء البكرى ألف كتاب : (التبيين ، فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين) ؛ وقد لخص السيوطى هذه المسائل وأتى بها فى الجزء الثانى من كتابه (الأشباه والنظائر) ، وبلغ مجموع مسائل الخلاف مائة مسئلة واثنتين ، وهذه أمثلة منها تراها موزعة فى كتب النحو :

١ — الاسم مشتق من السموّ عند البصريين ، ومن الوسم عند الكوفيين .

٢ — الفعل مشتق من المصدر عند البصريين ، والعكس عند الكوفيين .

٣ — عند البصريين لا ينوب الظرف والجار والمجرور عن الفاعل مع وجود المفعول ويجوز ذلك عند الكوفيين .

٤ — عند البصريين لا يبنى فعل التعجب من الألوان إلا بواسطة أشدّ وأشدد ونحوهما ويجوز بناؤه من السواد والبياض بلا واسطة عند الكوفيين .

٥ — يجوز عند البصريين تقديم خبر ليس عليها ، ولا يجوز عند الكوفيين .

٦ — لايقدم الاستثناء على المستثنى منه عند البصريين ، ويجوز عند الكوفيين .

٧ — العدد المركب كخمسة عشر يعرّف صدره فقط عند البصريين ، ويجوز تعريف العجز مع الصدر عند الكوفيين ، فيقال على رأى الأولين جاء الخمسة عشر رجلا ، ويجوز على رأى الآخرين جاء الخمسة العشر رجلا .

علم اللغة

هو كعلم النحو لم يكن وليد هذا العصر بل قد بحث أيام الأمويين ، لأنهم كما تعلم عنوا بالعربية من جميع أطرافها ، فكانت لهم بألفاظ اللغة عناية تمثلت فى استفسارهم عن معانى كلماتها إذا وردت فى شعر أو نحوه ، فقد ذكروا أن عبد الملك كان فى

مجلس يضم خاصته وسمّاره ، فقال لهم : « أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه ، وله عليّ ما يتمناه ؟ فقام إليه سويد بن غُقْلة وقال : أنا لها يا أمير المؤمنين ، فقال قل ما عندك . قال : أنف . بطن . ترقوة . ثغر . جمجمة . حلق . خد . دماغ . ذكر . رقبة . زند . ساق . شفة . صدر . ضلع . طحال . ظهر . عين . غَبَبَة[1] . فم . قفا . كف . لسان . منخر . نُغْنُغ[2] . هامة . وجه . يد . فهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين .

فقام بعض الجالسين وقال : أنا أقولها في جسد الإنسان مرتين فضحك عبد الملك وقال لسويد : أما سمعت ما قال ؟ قال أنا أقولها ثلاثا ، فقال له : « لك ما تمنى » ، فقال : أنف . أسنان . أذن ، بطن . بصر . بزباز[3] ، ترقوة . تينة[4] . تمرة ، ثغر . ثنايا . ثدى ، جمجمة . جنب . جبهة ، حلق ، حنك[5] . حاجب ، خدّ . خصر . خاصرة ، دبر . دماغ . دُرْدُر[6] ، ذقن . ذكر . ذراع ، رقبة . رأس ركبة ، زند . زَرْدَمة[7] . زغب ، ساق . سرة . سبابة ، شفة . شعر . شارب ، صدغ . صدر . صلعة ، ضِلْع . ضفيرة . ضرس ، طحال . طرة . طرف ، ظهر . ظَلْم[8] . ظفر ، عين . عنق ، عاتق ، غببة . غلصمة . غنة ، فم . فك . فؤاد ، قلب . قدم . قفا ، كف كتف . كعب ، لسان لحية . لوح ، مِرْفق . مَنْكِب . منخر ، نغنوغ . ناب . نَنّ[9] ، هامة . هَيَف . هيأة . وجه . وجنة . ورك ، يمين . يسار . يا فوخ ؛ ثم نهض مسرعًا ،

---

(١) الغبب : اللحم المتدلى تحت الحنك .
(٢) النغنغ : اللحمة في الحلق عند اللهازم، واللهزمتان : ناتئتان تحت الأذنين .
(٣) البزباز : الفرج .
(٤) التينة : الدبر .
(٥) الحنك : ماتحت الذقن .
(٦) الدردر : مغارز أسنان الصبي .
(٧) الزردمة . موضع الابتلاع .
(٨) الظلم : ماء الأسنان وبريقها ، وهو كالسواد يداخل السن من شدة البريق .
(٩) النن : الشعر الضعيف .

وقبل الأرض بين يدى عبد الملك ، فقال : والله ما نزيد عليها ، أعطوه ما تمنى ، وأعطاه كثيراً .

وقبل عصر التأليف لم يكن سبيل إلى معرفة كلمة أو الوقوف على معناها إلا بمشافهة الأعراب أو سؤال أهل العلم أو العثور عليها فى شعر يفسرها ، ويبين موقعها فيه . ففكر الأئمة فى وضع كتب يجمعون فيها الألفاظ ويشرحون معناها ، ولكن الفكرة لم تأتهم كاملة كما هى الآن فى معاجم اللغة التى بأيدينا ، بل إنهم كانوا يقصرون أبحاثهم على أنواع خاصة من الكلمات ، فكتاب مثلا فى النخل والكرم يبحث فى أسماء أنواعهما وأغصانهما وما يتعلق بهما من ثمر وأوراق ، وما يرتبط بذلك من أفعال فى غرسها وظهورها ، وأثمارها وقطعها وغير ذلك ؛ وللأصمعى فى هذا الباب فضل عظيم فأكثر كتبه الباقية للآن من هذا النوع . منها : كتاب أسماء الوحوش ، وكتاب الإبل ، وكتاب خلق الإنسان ، وكتاب الشاء ، وكتاب الخيل ، وكتاب النبات والشجر ، وكتاب النخل والكرم المتقدّم ذكره .

وعلى خطة الأصمعى : سار الثعالبى فى فقه اللغة فى حصر الكلمات تحت معانيها ، وكذلك فعل بن سِيدَه[1] فى المخصص .

أما طريقة وضع المعاجم مرتبة على حروف الهجاء ، فيقال : إن أوّل من اخترعها هو الخليل بن أحمد الفراهيدى ، ذكروا أنه ألف كتاب العين ، وسماه كذلك لأنه بدأه بحرف العين إذ اقتضى الترتيب فى نظره أن يجعلها على حسب المخارج وأقصاها الحلق ثم يليه اللسان ثم الأسنان ثم الشفتان ، وكان ترتيب الحروف على نظامه هكذا : ع ح هـ خ غ

---

(١) ابن سيده (بسين مكسورة بعدها ياء ساكنة ودال مفتوحة وهاء ساكنة) : هو الحافظ أبو الحسن على بن اسمعيل ، كان اماما فى اللغة والعربية حفظا لهما وكان ضريرا ، وله المحكم فى اللغة ومنه أجزاء بدار الكتب لاتتم نسخة ، وله « المخصص » وهو مطبوع بمصر فى سبعة عشر جزءا . توفى سنة ٤٥٨ هـ وهو أندلسى من مدينة مرسية ولذلك يلقب بالمرسى . (كتابنا إعجام الأعلام) .

ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ل ن ف ب م ا ى و[١] .

ويظهر من وصف كتابه أنه كان يحوى شواهد الكلام ، ويعرض لآراء فى النحو كما بحث فى أوله عدد المهمل والمستعمل من الألفاظ ، ولكن هذا الكتاب ظلّ متواريًا بعد الخليل نحو ستين عامًا حتى قدم به وراق من خراسان سنة ٢٤٨ هـ ، فباعه فى البصرة بخمسين ديناراً . ويقال إن الخليل عمل الكتاب وحج فخلفه بخراسان ، فكان فى الخزائن الطاهرية حتى وجه به إلى العراق . وقال ابن النديم فى فهرسته : إنه لم يرد لهذا الكتاب ذكر فى الأخبار ولا عدّ من آثار الخليل قبل ظهوره على يد هذا الوراق . ويرجح جماعة من الثقات أنه موضوع منحول بدليل أن ما فيه من قواعد النحو إنما ورد على مذهب الكوفيين والخليل بصرى وقد اختصر هذا الكتاب[٢] ، أبو بكر الزَّبيدى الأندلسى المتوفى سنة ٣٧٩ هـ اختصارا لطيفاً حذف فيه الشواهد ، ونقاه من التصحيف والأبنية المختلة ، فشاع المختصر ، وأقبل الناس عليه وفضلوه على الأصل . وبسبب اختفاء كتاب الخليل هذه المدة بقى التأليف فى اللغة منحصراً فى طريقة الأصمعى ، وابن الأنبارى (٣٢٨هـ) ، والنَّضْر بن شُمَيل (٢٠٣ هـ) ، وابن الأعرابى (٢٣١هـ) ، وابن السِّكِّيت وغيرهم ، ومضى على زمن الخليل أكثر من قرن ، ولم يؤلف فى اللغة كتاب على نظام كتاب العين[٣] حتى جاء أبو بكر بن دريد ، فألف كتاب الجمهرة[٤] فى اللغة ، ولم يتبع فيه ترتيب الخليل ، فيبدأ بالعين بل جعله على الترتيب الأبجدى المشهور (ألف باء تاء) ، ولكن البحث فيه يخالف ما نألفه الآن من كتب

---

(١) وهذا الترتيب فى الحروف على رأى الخليل يؤخذ من الأبيات الآتية باعتبار أوائل كلماتها .

علقت حبيبا هنت خيفة غدره قليل كرى جفنى شكا ضر صده
سبا زهوه طفلا ديانة تائب ظلامته ذنب ثوى ربع لحده
نواظره فتاكة بعميده ملاحته أجرت ينابيع وجده

(٢) وتوجد نسخ خطية من مختصر الزبيدى بمكتبات أوروبا .

(٣) كتاب العين هو رواية الليث عن الخليل ، وفى دار الكتب المصرية قطعة منه مطبوعة فى بغداد من الجزء الأول تنتهى إلى مادة جمع .

(٤) من الجمهرة نسخ خطية فى لندن وغيرها من مكتبات أروبا ، ونسخة ناقصة بدار الكتب المصرية .

اللغة لأنه إذا ذكر مادة (ع ل ن) مثلا قلبها على أوجهها وأتى بمعانيها فى جميع الأحوال فيفسر العلن واللعن والنعل ، وقد تلمذ لابن دريد أبو منصور محمد بن أحمد ابن الأزهر الملقب بالأزهرى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ، وكان فقيها فغلبت عليه اللغة وقرأ على ثعلب وابن دريد ونفطويه ، وطاف بلاد العرب فى طلب اللغة ، فأخرج معجمه المسمى تهذيب اللغة ، فجعله على ترتيب مخارج الحروف كما فعل الخليل ، وفى المكتبة الملكية جزءان (الأول والثانى) من هذا الكتاب عدد صفحاتهما ألفان ينتهى الثانى منهما بمادة « ذرا » ، ومنه نسخ كاملة بمكاتب الآستانة وحلب .

ثم جاء الصاحب بن عباد الكاتب المشهور وزير مؤيد الدولة ثم أخيه فخر الدولة ابنى ركن الدولة ، المتوفى سنة ٣٨٥ ، فأخرج كتابه المحيط وهو فى سبعة مجلدات والمجلد الثالث منها بالمكتبة الملكية ، وقد أكثر الصاحب فى كتابه من الألفاظ وقلل من الشواهد .

ثم جاء بعده أبو الحسن أحمد بن فارس (٣٩٠ هـ) أحد وضاع المقامات وأستاذ البديع الهمذانى ، وكتابه مجمل كما يستفاد من اسمه « المجمل » ، وفى كتب المرحوم الشنقيطى نسخة منه فى مجلدين يحتويان ١٣٠٠ صفحة حسنة الخط ، وقد عاش فى زمن ابن فارس أبو إسمعيل بن حماد الجوهرى (٣٩٨هـ) ، وهو من فاراب ببلاد الترك ، وقد كان واسع العلم فى اللغة سافر إلى البدو ، ودخل ديار ربيعة ومضر ، وطاف الحجاز . ثم أخرج كتاب : « تاج اللغة وصحاح العربية » ، وقد جاء كتابه أوفى من من المجمل لابن فارس ، والتهذيب للأزهرى ، وجمهرة ابن دريد ؛ ويمتاز عليها بأنه استوعب أكثر الألفاظ المستعملة فى ألسنة العرب لزمنه وحفظها بالسماع عمن عاشرهم من أهل البادية ، وقد جعل القاعدة فى ترتيب الألفاظ على أواخر الكلمات .

يؤخذ على الصحاح خطأ فى ضبطه وتصحيف لبعض ألفاظه ، لأن صاحبه مات قبل أن يبيضه وينقحه إذ كان قد وسوس فى عقله ، فزعم أنه يطير ، وقال : أيها الناس إنى قد عملت فى الدنيا شيئاً لم أسبق إليه ، وسأعمل للآخرة مثله ، ثم أتى بمصراعى باب

وضمهما إلى جنبيه ، وصعد مكاناً عالياً فى جامع نيسابور ، ثم أهوى فوقع ميتاً ، وقد ألف كثيرون فى نقـد الصحاح ، وآخرون فى الاحتجاج له . والكتاب مطبوع فى مصر .

ثم جاء جار الله الزمخشرى ، فأخرج كتابه : (أساس البلاغة) ، وهو يمتاز بأنه يفصل بين الحقيقة والمجاز فى الكلمة ، وقد خلط ذلك المتقدمون ، ثم انّه يأتى بالكلمة مستعملة ، ويلم بالشـواهد إلماماً مناسباً ، وقد رتبه على حروف المعجم ، ولكنه جعل ذلك حسب أوائل الكلمات ، فما أوله همزة قبل ما أوله باء ، ويراعى مع الأول الثانى ثم الثالث فيأتى مثلا بطمع ثم طم ثم طمن ثم طما وهكذا .

وبهذه المعاجم ينتهى تكوين اللغة وحصرها وجميع من يأتى بعد هؤلاء الذين ذكرناهم ليس له أثر فى جمع مالم يجمع أونقل مالم ينقل لأن اللغة كانت قد فسدت بالبادية ، فلم يكن لمؤلفى المعاجم إلا جمع ما تفرق منها واختصار ما طال ، ومن كتب اللغة بعد ما تقدّم : (العباب الزاخر ، واللباب الفاخر) لرضىّ الدين الصاغانى المتوفى سنة ٦٥٠ هـ ، ولم يتمه بل وقف فيه عند مادة « بكم » .

وقد قال فيه بعض الشعراء فحسنت منه التورية كل حسن :

إن الصّغانى الذى حازَ العُلومَ والحِكَمْ
كان قُصَارَى أمْرِه أنِ انْتَهَى إلى بكم

وكان قد ألف قبله : (تكملة الصحاح) ، وهى بعض حواشى الصحاح ذكر فيها مافاته من اللغة وناقضه فى بعض مواضع ، وهى أكبر حجما من الصحاح ، فجمع بينهما فى كتاب سماه : « مجمع البحرين[1] » ، وكذلك لأبى السعادات المبارك المعروف بابن الأثير كتاب أسماه : « النهاية ، فى غريب الحديث والأثر » ، وهو مطبوع بمصر فى أربعة مجلدات ، وقد جعل ترتيبه كترتيب الأساس ، وكلامه خاصّ بالألفاظ التى

---

(١) ليس بدار الكتب المصرية من هذه التآليف للصاغانى إلا التكملة واسمه (التكملة والذيل والصلة) .

وردت فى الأحاديث النبوية ، وآثار الصحابة رضوان الله عليهم ، فهو فى غالب شأنه خدمة لعلم الحديث وليس كتاباً عامًّا فى اللغة .

علوم البلاغة

تتعلق هذه العلوم بضمّ الكلمات وتركيب الأساليب والنظر فيما يحسن العبارة بعد استيفائها شرط الصحة ، وهذه العلوم قد بحثت مسائلها متفرقة غير مضمومة إلى أبواب العلم ولا محصورة فى تقاسيمه . وكان ذلك منذ العصر الأموى حين أولع العرب بالنقد فعابوا القول المهلهل والقوافى القلقة والاستعارات البعيدة والتشبيهات غير المقبولة مما تراه مرويًّا فى كتب الأدب عن معاوية وعبد الملك وهشام وجلسائهم . والحقّ أن تلك العلوم بهذا الاعتبار الواسع المدى قد خلقت مع العرب من يوم عرفوا الكلام وذاقوه ، وتحركت ألسنتهم بنقده وتمييز مقبوله من مردوده .

والذى نبحثه فى هذا الباب هو تكوّن هذه العلوم وصيرورتها إلى ما صارت إليه من انقسامها إلى أنواعها الثلاثة وحصر مسائلها فى كتب خاصة لا تختلط بغيرها من مسائل العلوم الأخرى .

فنقول : إنه لما ضعفت الملكات فى العصر العباسى عن إدراك الأسرار فى الأساليب ، وحسن الالتئام بين الكلمات ، وخفى على الناشئين فى اللغات الأعجمية كثير من أسرار الكلام تكوّنت مباحث هذه العلوم من الأبحاث التى جرت فى بعض آى القرآن وكلام البلغاء ، كالذى عرض من الشبهة لهذا الذى سأل أبا عبيدة فى مجلس الفضل من الربيع فى معنى قوله تعالى : « طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ » ، فقال له هذا على حدّ قول الشاعر (أمرئ القيس)

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

ومثل الذى كان من أبى يوسف يعقوب الكندى الفيلسوف الذى ركب إلى

أبى العباس المبرد وقال له أرانى أجد فى كلام العرب حشواً ، فقال أبو العباس : فى أىّ موضع وجدت ذلك ؟ قال : أجد العرب يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله لقائم ، فالألفاظ متكرّرة والمعنى واحد ، فقال أبو العباس بل المعانى مختلفة ؛ فالأول إخبار عن قيامه ، والثانى جواب عن سؤال سائل ، والثالث جواب عن إنكار منكر ، وقد تكررت الألفاظ لتكرر المعانى .

كذلك كان لالتجاء المتقعرين إلى استعمال الغريب وتنطسهم به وتزيدهم على الناس أن بحث العلماء فى حدّ الفصاحة وشروطها ، فنفوا أن يكون هذا التقعير فصاحة بل عدوه سخفاً ، وكذلك كان التعصب للقديم من الشعر والزراية على الحديث منه مثاراً للجدل فى مسائل هذه العلوم ، فوازنوا بين أسلوب وآخر وفضلوا استعارة على غيرها .

كذلك كان الشعراء المحدثون أمثال : بشار ، وأبى نواس ، ومسلم ؛ ومن تقيلهم يعنون بالمحسن البديعى ، ويستعملونه على نسق ما جاء فى القرآن وكلام العرب منه ، ولكنهم أكثروا من هذا من غير أن يعرفوا أسماء مايستعملون غالباً حتى نبه ذلك ابن المعتزّ إلى حصر هذه الأنواع فى كتاب عمله ، وسماه : « البديع »

وكان أعظم داع إلى بحث هذه العلوم هو الدفاع عن بلاغة القرآن لما نشأ من الزنادقة والملحدين وغيرهم من يعيبه ، ويقول : إنه فى مقدور العرب وأن الله صرفهم عنه ، كما فعل النظام وغيره . فدعا كل هذا العلماء إلى بحث مسائل هذه العلوم متفرّقة.

وإذا أردنا أن نرتب كيف تخلقت بضعة هذه العلوم ، ثم تمثلت بشراً سويًّا ، فإنا نذكر أن أول ما بحث منها هو بعض مسائل علم البيان . فقد ألف أبو عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ هـ كتابه : (مجاز القرآن) على أثر السؤال الذى تقدّم ذكره عن معنى قوله تعالى : « طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ » . ثم تتابع العلماء بعده فوضعوا رسائل وأملوا مجالس فى الاستعارة والكناية ، ثم جاء الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، فأخرج كتابه (إعجاز القرآن) ، و (البيان والتبيين) ، فبحث فى معنى الفصاحة والبلاغة ،

ولم يكن يفرق بينهما وتكلم فى الأسجاع ، وما يحسن وقعه منها وما يسوء ، وأتى للمستكره بأمثلة من أسجاع الكهان إلى غير ذلك مما بحث فى أبواب متفرقة من كتابه : (البيان والتبيين) . أما كتاب : (إعجاز القرآن) ، فلم يصل إلينا ، ولكن اسمه وحده كاف للدلالة على موضوعه ، وأنه كان حجاجاً ومخاصمة للمخالفين له فى الرأى الطاعنين فى إعجاز القرآن .

وأتى بعده ابن المعتز الخليفة العباسى المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ، فتتبع ما فى الشعر من محسنات ، وألف كتاباً سماه : (البديع) ، وذكر فيه سبعة عشر نوعاً هى : التشبيه الاستعارة . الكناية . التجنيس . الطباق . ردّ العجز إلى الصدر . المذهب الكلامى . الالتفات . التمام . الاستطراد . تأكيد المدح بما يشبه الذّم . تجاهل العارف . حسن التضمين الإفراط فى الصفة . عتاب المرء نفسه . حسن الابتداء . الهزل الذى يراد به الجد ؛ وكان يستشهد عليها بآيات من القرآن وكلام الجاهليين ، وإنك لترى فى موضوعات كتابه أن العلوم الثلاثة : (معان . بيان . بديع) لم تنفصل بعد ولم توضع لها حدودها ، فإن مما سماه بديعاً كلّ مسائل علم البيان وهى : التشبيه ، والاستعارة ، والكناية .

ثم كان من المعاصرين لابن المعتزّ ، قدامة بن جعفر البغدادى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، فإنه ألّف كتاباً فى نقد الشعر سماه : (نقد قدامة) ، وأتى فيه بعشرين نوعاً توارد مع ابن المعتزّ فى سبعة منها ، وهى : الجناس ، والطباق . والالتفات . والتشبيه . والمبالغة . والاستعارة . والتتميم ؛ وانفرد بثلاثة عشر .

ثم جاء أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، فألف كتابه المسمى : (كتاب الصناعتين : الشعر والكتابة) ، وقد ذكر فى مقدمته : « وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة . . . .) ، ثم كان

من موضوعات الـكتاب : البلاغة والفصاحة لغة . الإبانة عن معنى البلاغة . الإيجاز والاطناب . التشبيه حسنه وقبيحه . السجع والازدواج ، البديع وهو خمسة وثلاثون نوعاً . ذكر مبادئ الكلام ومقاطعه . القول فى الفصل والوصل .

فأنت ترى من مراجعة فهرس هـذا الـكتاب أن العلوم لم تتميز ، وأن الفصاحة والبلاغة لا تزالان لفظين مترادفين لمعنى واحد ، وأن علم البديع بلغ خمسة وثلاثين نوعًا مع ملاحظة أنه لم يعد السجع والازدواج منه ، ولـكن علم البديع ظاهر الاستقلال عن أخويه لأنه جمع مسائله على ما يرى تحت عنوان واحد وهو « البديع » .

فكتاب الصناعتين هو أوّل كتاب أشير فيه إلى مسائل العلوم الثلاثة أى أنه ذكر مسائل من علم المعانى كالإيجاز والاطناب والفصل والوصل وأخرى من البيان وهى التشبيه ، ولـكنه لم يدلّ على أن هـذا من موضوعات علم المعانى ، وذاك من موضوعات علم البيان ، ولـكن الذى صرح به وحصر أنواعه هو عـلم البديع كما عرفت .

ثم جاء الإمام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سـنة ٤٧١ هـ ، فألف كتابيه : « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة » ، وجعل الأول خاصًّا بمسائل علم المعانى ، فأتى فيه بتحقيق القول فى الفصاحة والبلاغة ، ولم يفرق بينهما ، ثم تكلم فى التقديم والتأخير والذكر والحذف والفصل والوصل والتعريف والتنكير والقصر والتأكيد ، وقد تكلم فى هذا الـكتاب عن الاستعارة والتمثيل ، ولـكنه تناولهما من ناحية التأثير وبيان فضيلة الـكلام بهما ؛ وفى كتاب (أسرار البلاغة) بحث فى موضوعات علم البيان من التشبيه وأقسامه والاستعارة وأنواعها والمجاز العقلى واللغوى ، ولـكن الذى نلحظه أنه لم يتناول مباحث علم البديع . وإذا كنت قد علمت أن البديع متميز منذ ألف فيه ابن المعتزّ وصاحب الصناعتين ، وأن عبـد القاهر حدّ موضوعات المعانى والبيان ، فتكون علوم البلاغة على أيام عبدالقاهر قد تميزت وانفصلت أنواعها وحصرت مسائل كل علم وحدها ، وإن كان لم يأت فى كلامه ما يدل على أنه يسمى

مباحث : « دلائل الاعجاز » علم المعانى ، ومباحث « أسرار البلاغة » علم البيان ، وإن كنت ترى على ظاهر الكتابين تحت عنوان الأول : « فى علم المعانى » ، وتحت عنوان الثانى : « فى علم البيان » ، فأكبر ظنى أن هذه من زيادة الطابع ، ولا يدلّ إهمال عبد القاهر لمباحث علم البديع على جهل بها فإنه قد ذكر منها فى مقدمة « أسرار البلاغة » التجنيس والطباق فى سياق ما يحسن به الكلام من ارتباط بين ألفاظه وتناسب إلى غير ذلك .

وكتب عبد القاهر : هى عروس كتب البلاغة إذ أنها مصوغة أحسن صوغ تناسب عبارة مؤلفها شرف الموضوع وسموّ درجته ، ويكثر فيها من الشواهد والأمثلة من حرّ الكلام وأشرفه فقد أكثر من الآيات القرآنية والشعر البليغ ، وقد أعانه على ذلك تمكنه من ملكة البيان وسلامة ذوقه من تعقيد الفلسفة .

وكان من آثار شيوع هذه العلوم وكثرة تداولها أن فسر الزمخشرى القرآن الكريم مستدلاً على إعجازه ببيان أسرار بيانه وما اشتمل عليه من حسن تأليف وقوة تأثير وجمال إيجاز وحلاوة تفصيل وإطناب ، وتفسيره يعدّ تطبيقاً لمسائل هذه العلوم فليس داخلا فى سلسلة المؤلفات التى ظهرت فيها إذ المراد بذلك الكتب التى تجمع المسائل وتضمّ الفروع فيظهر فيها التقسيم والتبويب والزيادة على ما فعله الأوائل أو تغيير ما كان لهم من مذهب أو تبديل ما كان من مصطلح ، ولم يفعل الزمخشرى شيئاً من ذلك .

وجاء بعد ذلك أبو يعقوب السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، فألف كتابه : « مفتاح العلوم » ، وجعله فى النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع ، فانتهى إليه الاجتهاد فى هذا الفن ، ولم يأت بعده من زاد شيئاً من أصول العلم ، اللهم إلا ما كان من علم البديع . فإن علماء مصر والشام قد زادوا على ما وضعه أهل المشرق فيه وقد أوصله بن أبى الاصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ، إلى تسعين نوعًا فى كتابه « تحرير التميز » . ثم زادت الأنواع البديعة عن ذلك كثيراً ، ولكن بعد هذا العصر فنترك ذلك لموضعه .

علم العروض

يطلق توسعاً على علمى العروض والقافية ، والعروض هو علم وزن الشعر بالمقاييس التى جرى عليها العرب فى نظمهم ، وعلم القافية هو العلم بأحكام أواخر الآبيات .

وعلم العروض من العلوم التى كان العرب يجرون على أحكامها بالسليقة ومحض الفطرة من غير تعليم ، فهو كالنحو الذى لم يكن العربى يعرف منه إلا أن يجرى كلامه عليه إجراء صادقاً لا يخطئ فيه ولا يتعثر ولو سألته عن سبب رفع أو نصب لايُحِير(١) جواباً ، بل هو لم يكن يعرف النصب والرفع بهذه المعانى التى صار عليها الاصطلاح ، و إذ كان الغناء طبعياً فى النفوس ، لا تجد أمة إلا ولها منه نصيب على قدر ما منحها الله من رقة طبع وسلامة ذوق ، فهذه الأوزان الشعرية هى مقاييس العرب فى غنائها ترنمت بها فى كلامها ، فجاء على تلك الأوزان والألحان التى ضبطت فيا بعد فكانت علم العروض ، وكما لم يكن العرب يستطيعون تعليل صوابهم فى النطق ، كذلك كانوا ينظمون على هذه الأوزان التى دلهم عليها ذوقهم ، فيأتى شعرهم مضبوطاً بها فلا يخطئون ، ولا يستطيعون تعليل ضبطهم .

والسبب الذى حدا إلى اختراع هذا العلم هو ما طرأ على الملكات من فساد فنقصت السليقة العربية ، وأصبح المقتفى لآثار العرب فى ألحانها لا يستطيع أن يلتزمها بل يزيد أو ينقص فيها ، ويقع ذلك منه خطأ بحكم فساد الطبع أو هو يتعمد ذلك لما رأى الألحان التى تجرى عليها الأمم الأخرى من فرس وروم وغيرهم واستطابها ، ورأى فيها اتساعاً من ضيق الأوزان العربية القليلة . فخرج عنها ونظم بها ما سماه شعراً ، وادعى عربيته وهو فى نظر العلماء غير عربى لخروجه عن أوزان العرب .

---

(١) أحار : رد .

فبعثت الحمية للغة والذود عن كيانها والحفاظ على قديمها ، رجلا من أفذاذ العالم وفلتات العصور هو الإمام الجليل ، الخليل بن أحمد الفراهيدى الأزدى البصرى ؛ فراجع أشعار العرب ، وحصرها تحت أنواع من الأوزان يجمع كل وزن صوراً منها متقاربة ، وسمى هذه الأوزان بحور الشعر ، وكان عالما بالنغم حاذقاً فيه حتى أنه ألف كتاب : « النغم » ، وكتاب : « الإيقاع » كما ذكر ابن النديم ، فساعده ذلك على استخراج هذه الأوزان .

وليس استخراج هذه الأوزان أمراً يسيراً ، ولولا أن الخليل كان إلى جانب علمه بالأنغام ، ذكياً معدوداً من أفراد العالم ، زاهداً فى الدنيا ، منصرفا إلى خدمة العلم ماوفق إلى اختراع علم كالعروض فى صعوبته فيخرجه للناس كاملاً مخالفاً بذلك سنة النشوء ، والارتقاء فى تدرّج العلوم وانتقالها على أيدى العلماء جيلاً بعد جيل حتى تصير إلى ماهى عليه . ولقد ذكر من صبر الخليل على عمله فى استنباط هذا العلم أنه كان يقضى الساعات فى حجرته يوقع بأصابعه ويحركها ، وقد دخل عليه ابنه مرة ، فظن أنه قد جن ، فقال له الخليل :

لو كنتَ تعلمُ ما أقول عَذَرْتَنِى ... أو كنتَ تَعْلَمُ ما تقول عَذَلْتُكا

لكنْ جَهِلْتَ مقالتى فعَذَلْتَنِى ... وعَلِمْتُ أنكَ جاهلٌ فعَذَرْتُكا

هل للعروض أصل؟

قيل : إن رجلا سأل الخليل هذا السؤال ، فقال له : نعم ، لقد مررت بالمدينة ، فرأيت شيخا يعلم غلاما ، و يقول له :

نعم لا . نعم لالا . نعم لا . نعم لالا ... نعم لا . نعم لالا . نعم لا . نعم لالا

قال الخليل : فسألت الشيخ عن هذا ، فقال : هو علم يتوارثونه عن سلفهم يسمونه « التنعيم » .

وقيل أيضاً : إن العرب كانت تعرف نغم الأبحر ، فكان الشاعر إذا أراد أن يقول شعراً كرر بيتاً ، أو كلمات مهملة حتى تمتلىء نفسه بالنغمة التى يريد أن ينظم عليها ، ثم يقول على مثال ما كرّر ، وكانوا يسمون هذا المكرر « المَتْر » .

وأرى أن هذا كله أدعاء يراد به الغض من شأن الخليل فى اختراعه . يؤيد ذلك أن العرب لم تكن تعرف الصناعة فى لغتها من أى ناحية فلم تعرفها من ناحية الوزن ؟ وأن هذا العلم لو كان قديماً معروفا قبل الخليل ما أصاب الناس الدهش حين أخرجه لهم فشغلهم به عن كلّ ما سواه حينا من الدهر . والخليل جدير أن يكون أبا عُذرة هذا الفن ، فقد عوّدنا أن يأتى بالعجب العجاب فى كلّ ما يعمل ، فهو المهتدى إلى طريقة وضع المعاجم وحصر ألفاظ اللغة، كذلك هو مخترع صور حركات الشكل للحروف العربية ، وقد زاد فى الشطرنج قطعة سماها الجمل ظل الناس يلعبون بها زمنا ومات وهو يفكر فى طريقة حسابية قال عنها : تمضى بها الجارية إلى البدال فلا يظلمها . . . ، ومات الخليل سنة ١٧٤ هـ . . .

علماء العروض

وأشهر العلماء الذين يذكرون فى هذا العلم ولهم فيه آراء اعترضوا بها على الخليل وهى غير جوهرية ، هم : الأخفش الأوسط أبو الحسن سعيد بن مسعدة تلميذ سيبويه ، والجَرمى وأبو إسحٰق الزجاج تلميذ المبرد ، وقد حصر الخليل أوزان الشعر فى خمسة عشر وزنا سماها بحورًا تشبيها لأحدها بالبحر فى الاتساع لأن كلّ وزن تجرى عليه أمثلة كثيرة من شعر العرب ، وتلك البحور هى : الطويل ، والمديد ، والبسيط ، والوافر ،

والكامل ، والهزج ، والرجز ، والرمل ، والسريع ، والمنسرح ، والخفيف ، والمضارع ، والمقتضب ، والمجتث ، والمتقارب .

وقد جاء الأخفش فزاد وزنا هو بحر المتدارك ، وقيل : إن الخليل نظر في هذا الوزن فلم يصح عنده لأنه مخالف لأصوله التي وجد عليها أكثر كلام العرب إذ أن التشعيث والقطع ، وهما من العلل الشعرية) يدخلان في حشوه وهما مختصان في كل الأوزان بالأعاريض والأضرب ، فلذلك جعله الخليل شاذاً ولم يعول عليه ، ولو أننا تابعنا من يقول : ان الخليل لم يهتد إلى هذا الوزن ولم يعثر بأمثاته فيما جمعه من كلام العرب فليس ذلك بقادح فى فضله .

وجاء بعد الأخفش الجوهرى ، فجعل البحور اثنى عشر : سبعة مفردات ، وهى : الوافر ، والكامل ، والهزج ، والرجز ، والرمل ، والمتقارب ، والمتدارك ؛ وخمسة مركبات وهى : الطويل ، والمديد ، والبسيط والخفيف ، والمضارع . فالطويل : مركب من المتقارب . والهزج : لأن الأول وزنه فعولن فعولن ، والثانى وزنه مفاعيلن مفاعيلن . والطويل : مركب منهما ووزنه فعولن مفاعيلن ، و بقية الخمسة يتركب كلّ واحد منها من بحرين من السبعة المفردة ، فلا نطيل بذكر هذا التفصيل ، وزاد الأخفش فى الوافر عروضاً ثالثة مجزوة مقطوفة وضربها مثلها ، واستشهد عليها بأبيات من الشعر القديم إن صحت فهى قليلة لا تكفى لتقرير قاعدة . كذلك خالف الأخفش الخليل فى مشطور الرجز ومنهوكه ؛ فالخليل يعدّهما شعراً ، والأخفش لايرى ذلك . أما ما تركب من جزء واحد ، فهما متفقان على أنه لا يسمى شعراً ، وخالفهما الزجاج ، فجعل من الشعر قول القائل : موسى القمر ، غيث زخر ، يحيى البشر .

وقد كان الخليل يسمى مجموع الحذف والقطع (الحذف هو حذف السبب الخفيف والقطع : حذف ساكن الوتد المجموع) بتراً إذا وقعاً فى المتقارب والمديد، وخالفه الزجاج ، فلم يسم ذلك بتراً إلا فى المتقارب ، إذ هو الذى يظهر فيه البتر لصيرورته إلى فع بعد

فعولن . أما فى المديد فإن فاعلاتن يصير فاعل فيبقى من الكلمة أكثرها ، فلم يستحسن الزجاج تسمية هذا الجزء من المديد أبتر ، وكان يسميه (محذوفاً مقطوعاً) .

هذه أمثلة مما استدرك به العلماء على الخليل وجميعها أمور فى العرض لا تقدح فى فضل الرجل ونسبة هذا العلم إليه جملة وتفصيلا فيكون نسيج وحده فى العلماء ، وهو جدير بهذا فقد قالوا قديماً فى الدلالة على فضله : إنما أكلت الدنيا بعلم الخليل وكتبه وهو فى خص لا يشعر به . وحكاياته فى الزهد كثيرة . ولعله لايتم لعالم ماتم له من الفضل ، وحسن الأثر إلا إذا كان مثله فى زهده ، وعدم قصده الدنيا بعلمه ، رحمه الله رحمة واسعة .

مصطلحات العروض

كان من لوازم وضع العلم أن توضع له مصطلحاته ، وقد قام الخليل بذلك فاختار ألفاظاً عربية ناسب فيها بين المعانى اللغوية والمعانى المرادة فى اصطلاحه ، وشرح للناس هذه المناسبات .

فقال : إنه يسمى الجزء الذى فى آخر الشطر الأول من البيت عروضاً تشبيهاً له بالخشبة التى تكون فى وسط الخيمة وعلل تسمية الطويل بطول أجزائه وكثرة حروفه ، والوافر بوفرة الأوتاد فيه ، والمديد بامتداد سباعييه حول خماسيه، وخالفه الزجاج ، فقال : إنه يشاركه فى هذا كلّ ما تركب من خماسى وسباعى ، وإنما سمى مديداً لامتداد سببين فى طرف كلّ جزء من أجزائه السباعية ، واعترض قوم على هذا التعليل بما لا طائل تحته ، إذ أن سبب التسمية لا يوجبها ، ولكلّ مصطلح عند الخليل تعليل ، وقد يخالفه من أتى بعده فى سبب التسمية أو فى التسمية ذاتها كما حصل فى تسمية مجموع الحذف والقطع بالبتر ، وقد مرّ بك هذه المسألة .

ويحسن بالطالب ألا يجهل من مصطلحات العروض أشياء فى وصف الأبيات تمرّ به كثيرًا فى دواوين الشعراء وكتب الأدب ، ولا يليق به جهلها ، فمن ذلك :

البيت التام : هو الذى استوفى أجزاءه فلم يحذف منه تفعيلة من تفاعيله، ولا عراها نقص كقول الشاعر (من الكامل):

وإذا صَحَوْتُ فما أقصِّرُ عن نَدًى   وكما علمتِ شمائلى وتَكَرُّمى

وقول الآخر من الرجز :

دَارٌ لِسَلْمَى إذْ سُلَيْمَى جارةٌ   قَفْرًا ترى آياتِها مثلَ الزُّبُرْ

والوافى : هو ما استوفى أجزاءه مع نقص شىء من بعض الأجزاء مثل قول طرفة (من الطويل) :

سَتُبْدِى لك الأيامُ ما كُنْتَ جاهلا   ويأتيك بالأَخْبار مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

والمجزوء : هو ماذهب جزءا عروضه وضربه مثل قول الشاعر (من الوافر) :

لَقَدْ عَلِمَتْ رَبِيعَةُ أَنْ   نَ حَبْلَكَ وَاهِنٌ خَلَقُ

والمشطور : ما ذهب نصفه مثل قول العجاج (من الرجز) :

* مَا هَاجَ أَحْزَاناً وَشَجْواً قَدْ شَجَا ؟ *

والمنهوك : ما بقى ثلثه مثل قول ورقة بن نوفل (من الرجز) :

يَا لَيْتَنِى فِيهَا جَذَعْ   أَخُبُّ فِيهَا وَأَضَعْ

والمصمت : وهو ما خالفت عروضه ضربه فى الروى كقول ذى الرمة :

أأن توسمت من خرقاء منزلة   ماء الصبابة من عينيك مسجوم

والمصرّع : ما غيرت عروضه للإلحاق بضربه بزيادة أو نقص ، فالزيادة كقول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان   وربع خلت آياته منذ أزمان

ومثال النقص قوله أيضاً :

أجارتنا إن الخطوب تنوب   وإنى مقيم ما أقام عسيب

والمقفى : ما اتفقت فيه العروض والضرب فى القافية من غير تغيير فى العروض مثل قوله أيضاً :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

٣ علم الادب

يحسن بنا قبل تعريف هذا العلم وبيان المراد منه أن نذكر الأطوار التى مرت بكلمة « أدب » فلعل فى توضيح ذلك إشارة إلى المراد من هذا العلم .

لم يعرف الجاهليون الأدب إلا بمعنى الخُلق الحسن والخيم الطيب ، وقد نقلوا هذا المعنى عن الأدب ، وهو الدعوة إلى الطعام ولا يدعو إليه فى مثل صحراء العرب المقفرة وأرضهم الجدبة إلا كل سمح جواد طيب النفس .

ثم جاء العصر الأموى فاشتغل الناس برواية الشعر الذى يسمو بالنفس ويزيد فى فضائلها ، والأخبار الدالّة على شجاعة العرب وكريم شمائلهم وعظيم وقائعهم فسمى مجموع ذلك أدبا لأنه وسيلة الأدب وباعثه فى النفس . وسمى رواة هذه الأشعار ونقلة تلك الأخبار أدباء أو مؤدبين ، وسمى تعليمها تأديبا . ثم نشأت العلوم العربية من نحو وعروض ولغة فانضمت إلى رواية الشعر والأخبار وشملتها كلمة الأدب إذ كان طالب الشعر والخبر لا يصلح له إلا بحذق هذه العلوم ، ومنذ القرن الثالث لما داخل الشعراء والكتاب الأدباء فى صناعتهم سموا أدباء مثلهم وما زالوا حتى استبدوا بوصف الأدب فصار الأديب فى الغالب هو الشاعر والكاتب .

وقد قال ابن الأنبارى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ صاحب كتاب «نزهة الألبا ، فى طبقات الأدبا » : (ان علوم الأدب ثمانيـة : النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافى

وصنعة الشعر وأمثال العرب وأنسابهم) ثم جعلها الزمخشرى اثنى عشر علما . وأرى أنهما لم يستوفيا إلا ما كان يشترط فى الأديب لعهدهم وما قبله فإنه لما كان المقصود من الأدب ثمرته وهى الإجادة فى فن المنظوم والمنثور كما يقول ابن خلدون ، توسع الناس فى مطالب الأديب حتى لم يجدوه مستغنيا عن الإلمام بأى علم ، فقالوا فى تعريف الأدب قولا أشمل من قول ابن الأنبارى والزمخشرى ، وهو (حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرَف) . ولعل هذا أصدق تعريف له . ويكفى أن تمثل ما يحتاج إليه الأديب اليوم إذا أنشأ مقالا أو عمل قصيدة هل تراه فى غنى عن فلسفة أو اقتصاد أو علم نبات أو حيوان أو تاريخ قديم أو حديث ، إلى جانب الخيال الشعرى والأدلّة الخطابية ، حتى يستطيع أن يصور معانيه ويحسن تمثيلها للناظر فى كلامه .

أوّلية الأدب العربى

إذا كان الأدب بأبسط معانيه هو حفظ الأشعار ورواية الأخبار ، فاعلم أن العرب اشتغلوا به منذ جاهليتهم ، فقد كان لهم شعراء لا ينبغون حتى يتلمذوا لغيرهم كما كان أمرؤ القيس تلميذ أبى دُؤَادٍ الإيادىّ ، وكما كان زهير تلميذاً لخاله بَشَامة بن الغَدير ، وأوس بن حَجَر ، وكما كان الحطيئة تلميذ زهير وابنه كعب من بعده ؛ فكان هؤلاء يروون أشعار أساتذتهم ويمدون بها القوم ويترنمون بمحاسنها كذلك كان فى العرب نسّابون يعرفون أنساب القبائل ويحفظون وقائعها وأيامها . بل لقد وصلوا بالأدب إلى أقصى غاياته ، وهو النقد والتمحيص لآثار البلغاء ، وقد تمثل ذلك كله فى سوق عكاظ على ما تعلم .

ولما جاء الإسلام شغلهم حيناً عن الشعر وقوله والأخبار وروايتها بالأمر العظيم الذى جاء به ، وهو نشر الدّين ، وإعلاء كلمته ، على أنهم فى هذه الفترة لم يعدموا زعماء

يدعونهم إلى الأدب ويرغبونهم فيه ، كالسيدة عائشة ، وعمر بن الخطاب ، وأقوالهم فى ذلك مأثورة مشهورة .

فلما صار الأمر إلى بنى أمية جعلوا إحياء الأدب وتجديد دارسته ونشر مطويه ناحية من نواحى سياستهم ، فكانت له فى أيامهم سوق نافقة .

وفى هذه الأطوار كان الأدب يتناقل بالمشافهة ويدرس بالمحاضرة لم يقيد منه إلا قليل ؛ فلما جاء العصر العباسى ، ودوّنت العلوم كان للأدب من بينها نصيب كبير ، وبدأت تآليفه فى أول أمرها رسائل صغيرة فى مسائل خاصة ، فلابن المقفع رسائل فى الآداب ؛ منها الأدب الصغير ، والأدب الكبير ، وكتاب اليتيمة فى طاعة السلطان . وللأصمعى المتوفى سنة ٢١٤ هـ كتاب فى معانى الشعر ، وكتاب الأصمعيات ، وهو مجموع مختارات من كلام الشعراء ، وله أيضاً رجز العجاج . ولأبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ كتاب : « نقائض جرير والفرزدق » ، وكتاب طبقات الشعراء ، ويسميه ابن النديم : « الشعر والشعراء » ، ولأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٣ هـ كتاب الأمثال وقبل ذلك جمع حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٦ هـ معلقات العرب التى بأيدينا ، وكذلك جمع شعر أكثر القبائل ، وأخرج المفضل الضبى المتوفى سنة ١٦٨ هـ كتاب « المفضليات » ، وكتاب « الأمثال » .

كانت هذه الرسائل هى الإرهاص لما جاء بعد ذلك من كتب الأدب التى تشمل أبوابه وتجمع فنونه ، وتكون خليطاً من النحو واللغة والنقد والتاريخ ، ولقد تأخرت هذه الكتب فى الظهور لأنها كانت تحتاج إلى ثقافة خاصة وفكر مقوم درس العلوم على اختلاف أنواعها ثم خرج منها بنتائج كانت هى محاسن تلك العلوم فناسب أن تجتمع فى الكتب التى تقرأ للذة والفائدة ، وتقويم اللسان ، وتثقيف الجنان ، وتلك هى كتب الأدب .

وكان أوّل ما خرج منها للناس : « كتاب البيان والتبيين » للجاحظ المتوفى

سنة ٢٥٥ هـ ، وهو كتاب يجمع فنون القول من نثر ونظم ، ويضمّ أخبار طبقات الناس من جاهليين وإسلاميين ، ومن خلفاء وأمراء ، وعامة ، ومن صلاح زهاد وزنادقة ملحدين ، ويجمع إلى الفكاهة المضحكة ، الموعظة المشجية .

ولما كانت كتب الجاحظ أسبق كتب الأدب إلى الوجود ، وكان صاحبها قدوة فى علمه وفضله رأينا أن الكتب التى جاءت بعده قد نهجت نهجه وسلكت طريقه ، فترى كتاب الكامل للمبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ صورة للبيان والتبيين فى جمعه المسائل الكثيرة بلا نظام ولا تبويب محكم ، وإن كان طابع كلّ مؤلف قد ظهر فى كتابه ، فغزارة علم الجاحظ وكثرة تعويله على العقل جعلته يعتمد فى كتابه على قلمه ، فترى له فصولا هى من نسج يده كتاب « البيان » وغيره . وكثرة رواية المبرد وغلبة النحو عليه جعلت كتابه أقرب إلى أن يكون جمعاً وسرداً لا أثر المؤلف فيه ، وتستطيع أن تفهم هذا من قول صاحبه فى مقدمته : (هذا كتاب يجمع ضروباً من الآداب بين منثور ومنظوم وشعر ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار خطبة شريفة ورسالة بليغة . والنية أن نفسر كلّ ما يقع فيه من كلام غريب أو معنى مغلق) .

وقد فعل أحمد بن أبى طاهر طيفور المتوفى ٢٨٠ هـ فعل الجاحظ والمبرد فى كتابه : المنظوم والمنثور الذى أخرجه فى أربعة عشر جزءا لم يكن له فيها أثر ظاهر لأن كتابه كله اختيار بحت .

ثم إننا نرى التأليف فى الأدب ينتحى منحى أدق فى بابه ويعنى فيه بأبواب جديدة ، فتحل أبحاث البلاغة محلّ أبحاث النحو الذى طال عليه العهد وفرغ الناس من استطرافه ، فترى كتاب : « الصناعتين : الشعر ، والنثر » ، يعنى بمباحث البلاغة على حين لا يعرض لمسألة واحدة من النحو . وترى كذلك كتب النقد تخرج دالة على حصافة مؤلفيها وعظيم ثقافتهم ، فتنتقد الشاعر أو الكاتب فى اختيار لفظه ، وفى تأليف خياله وصوغ استعارته أو تشبيهه كما فعل أبو بشر الآمدى فى الموازنة بين

أبى تمام والبحترى ، وكما فعل أبو منصور الثعالبى فى « يتيمة الدهر » خصوصاً عند ما عرض للمتنبىء ، فإنه لم يترك حسنة إلا سجلها له ، ولا مذمة إلا عدّها عليه فى أسلوب قوى ونقد لاذع . ويتمثل فى كتب هذه الطبقة النظام وحسن التبويب . وأرقى مثال لهذا ، كتاب العقد الفريد وإن كان صاحبه من أدباء الأندلس . وكذلك ترى مادّة العلم تتسع وينضمّ شتاتها حتى يؤلف أبو الفرج الأصبهانى كتابه : « الأغانى » ، وهو واحد وعشرون جزءًا فى الألحان وتراجم مغنيها وقائلى شعرها .

وقد كان الغناء فى أوائل أيام الدولة أحد علوم الأدب لالتزامهم تلحين الشعر ، فكان المعانى له لابد أن يكون أديبا يحسن اختيار ما يلحنه من كلام الشعراء ويحسن فهمه وضبطه ، وكان سامع الغناء يستفيد إلى جانب اللذّة فائدة لغوية وخيالاً بديعاً فيما يسمعه من شعر مختار ، وكانوا يسمون النغم والمنادمات والأسمار « الآداب الرفيعة » .

الأسمار والخرافات

فى العصر الثانى من عصور اللغة فى الدولة العباسية انتشر نوع من الآداب هو الأسمار والخرافات ، وقد كثر هذا النوع لما أصبح السمر والمنادمة صناعة ، وذلك حين شلت يد الخلفاء عن أعمال الدولة واستبدّ بها الوزراء من الترك والفرس فاحتاج الخلفاء إلى ما يشغلهم ويملأ فراغ وقتهم ، فعكفوا على أنواع الملاهى من شطرنج ونرد وغيرها ، وأدنوا منهم القصاص والندماء يحدثونهم بما يزيح سأمهم ويزجى وقتهم .

وأوّل ما عرف الناس من كتب الأسمار (وقد ظهر مبكراً جدًّا) هو كتاب : « كليلة ودمنة » الذى ترجمه عبد الله بن المقفع .

وقد أقبل عليه الناس يدرسونه لطرافته وبليغ حكمته حتى أنهم من عنايتهم به

نظموه كما فعل أبان بن عبد الحميد ، ولـكن هذا النظم قد ضاع ، فلم يبق منه إلا قليل ؛ ومنه هذان البيتان وهما :

هذا كتابُ أَدَبٍ ومِحْنَه　　　وهوالذى يُدْعَى كَلِيلَهْ دِمْنَهْ
فيه احتيالاتٌ وفيه رُشْدُ　　　وهو كتابٌ وَضَعَتْه الهِنْدُ

والأسمار التى اشتغل بها العرب تنقسم قسمين : منها عربىّ ، ومنها مترجم ؛ فالعربىّ منها يحكى حياة العرب ويمثل معيشتهم وآدابهم وشجاعتهم ، والذى يغلب على هذه القصص أنها ترجع إلى أصل من الحقيقة ، ولـكنه ضئيل بالنسبة إلى ما صارت إليه بالتهويل والزيادة على مرور الأيام ، وقد أباحوا لأنفسهم فيها عدم التقيد بالحقيقة لأن الغرض منها إما إثارة الحمية فى النفوس أو تزجية الوقت ، فلم يكن الشأن فيها للحقيقة ، بل هو لأغراض أخرى لا تتحقق إلا بالإطالة والتوسع .

ومن تلك القصص العربية قصة عنتر وضعها رجل اسمه يوسف بن إسمعيل فى زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمى بمصر ، وكانت قبله معروفة يتناقلها الناس بالرواية عن الأصمعى ، وما زالت تتسع وتتشعب حتى دوّنها يوسف هذا حين طلب إليه الخليفة العزيز الفاطمى أن يصنع للناس شيئاً يشغلهم عن الحديث فى فتنة وقعت فى قصره فدوّن هذه القصة فتلهى بها الناس عن ذاك الحديث .

ومن القصص العربية أيضاً قصص غرامية تمثل العفة والتفانى فى الحب بنيت على ما جاء فى أخبار العشاق ، ككثير لُبنى ، وجميل بثينة ، ومجنون ليلى ؛ وفى كلّ هذه القصص نصيب للحقيقة ، ولـكن لخيال الرواية فيها ظلّ كبير .

القصص المترجمة

كذلك نقل العرب قصصاً عن الأمم الأخرى ، وكان أكثر مانقل عن الفرس والهند ، وقد ذكر صاحب الفهرست أسماء عشرات منها ، ولكنها ضاعت فلم يبق بأيدينا منها إلا ألف ليلة وليلة ، وهى قصص متسلسلة تقع فى نحو أربعة آلاف من الصفحات ، وهى فارسية الأصل نقلت قبل القرن الرابع للهجرة واسمها بالفارسية (هزار افسان) قال المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ : إن اسمها إفسانه ، ومعناه بالفارسية : خرافة . قال والناس يسمون هذا الكتاب « ألف ليلة وليلة » .

وذكر ابن النديم فى فهرسته : أن سبب وضع الكتاب بالفارسية أن ملكاً من ملوكهم كان كلما تزوج امرأة قتلها من الغد ، فتزوج بجارية من بنات الملوك لها عقل ودراية ، وكانت تسمى شهر زاد ، وقد علمت عنه هذه الحالة . فلما حصلت عنده جعلت تخرفه وتنتهى من حديثها فى كلّ ليلة بما يجعل الملك يشتاق إلى تتمته، وما زالت كذلك حتى أتى عليها ألف ليلة وليلة ، وكانت قد رزقت منه ولداً ، فأظهرته وأوقفت الملك على حيلتها فاستعقلها واستبقاها .

وهذا الكتاب أيضاً لم يبق على ما كان عليه فى الأصل الفارسى ، بل زيدت عليه حكايات بغدادية ومصرية ، ولكن لا تزال عليه المسحة الفارسية ، وقد عدّه ابن النديم : « غثا باردا » لكثرة ما أصابه من عبث وما أفسده من ألفاظ وأساليب عامية ، وخيالات وتصوّرات تمثل أفكار الطبقات الجاهلة فى تلك العصور . ولسنا نعده اليوم من كتب الأدب المحترمة التى يقبل عليها ذوو الأذواق السليمة ، وطلاب الأدب الراقى ، بل هو عندنا لهو العامة وأهل البطالة وصغار المتعلمين .

والعجب أن الإفْرَنْجَة يطيرون عجباً بهذا الكتاب وقد ترجموه إلى لغاتهم ويعدّونه من أجمل الآداب العربية ، ولعلهم إنما نظروا إليه من ناحية أنه يصوّر الشعوب فى تلك العصور تصويراً حقيقياً ، وذلك مقصد يهمّ الباحث الاجتماعى .

وأظهر ما فى الكتاب أنه يمثل حياة الانهماك فى اللذّة فى قصور الملوك والعظماء ، ويصف المرأة وصفاً يدلّ على الضعف وسوء ظنّ الرجل بها وعدم ثقته بآدابها ، ويدلّ الكتاب كذلك على نشو الجهالة فى طبقات تلك الشعوب حتى إنها كانت تميل إلى تصديق هذه الخرافات من أخبار السندباد البحرى وغرائب ما شاهده فى أسفاره من السمك الكبير الحجم على هيئة البقر والحمير ، والثعابين التى تأكل الآدميين وطير الرّخّ الذى يشبع فرخه الصغير عشرات من الناس إلى غير ذلك .

⁂

وقد عرض ابن خلدون لكتب الأدب فذكر أنه سمع من شيوخه فى مجالس العلم أن أصول هذا الفن (الأدب) ، وأركانه أربعة ، وهى : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى علىّ القالى البغدادى ، وما سوى ذلك فتبع لها وفروع منها .

وأنت ترى من هذه الكتب ما ليس له قيمة ظاهرة بين كتب الأدب مثل : أدب الكاتب فهو إلى الإملاء أقرب منه إلى الأدب ، ولا ينبغى أن نسىء الظن بفهم ابن خلدون فى تقديره لكتب الأدب فإنه إنما حكى آراء شيوخه فليس ينبغى أن يؤخذ بها على أنه فى نفس هذا المعرض أشاد كثيراً بذكر كتاب الأغانى ، فقال عنه : « جمع فيه (أى مؤلفه) أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء فى المائة صوت التى اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ، ولعمرى إنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التى سلفت لهم فى

كلّ فنّ من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولا يعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلمه ، وهو الغاية التى يسمو إليها الأديب ويقف عندها » .

العلوم الشرعية

نكتفى منها بالكلام عن التفسير ، والحديث ، والفقة ، والكلام

التفسير

نزل القرآن الكريم على صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، فكان يفسر للصحابة غامضه ، ويبين أحكامه بالقول والفعل ، ويعين ناسخه ومنسوخه ، وكان الصحابة يحفظون ذلك عنه ويتناقلونه ، وكان فقهاؤهم كالخلفاء ، وابن عباس ، وعبد الله ابن عمر ، وابن عمرو ، وابن مسعود ، وأبىّ بن كعب ، وأنس بن مالك يبينون للناس ما غمض عليهم ، ثم جاءت طبقة التابعين ، فنقلوا عن الصحابة ؛ ومن هؤلاء : مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة بمكة ؛ والنخعى والشعبى بالكوفة ؛ ومالك بن أنس بالمدينة ، والحسن البصرى بالبصرة .

ولم يؤثر عن أحد من هؤلاء تأليف ، بل كان الناس يتناقلون رواياتهم بالسماع . اللهم إلا ما ذكروا من تفسير ابن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ ، وفى دار الكتب الملكية نسخة منه ، والذى يظهر أن نسبته إلى ابن عباس إنما يقصد بها أنه من روايته لا أنه كتبه فإن عهد ابن عباس عهد تحرج من كتابة التفسير حتى لا يختلط بالقرآن ، والمشهور أن أوّل من دوّن التفسير مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ .

ولما حدث التأليف فى العصر العباسى دوّن الناس التفاسير ، فجمعوا فيها كلّ

ماوصل إليهم من روايات ، وفيها كثير من الأباطيل التى قبلها المسلمون فى عهدهم الأول من أمثال : كعب الأحبار ، وعبد الله بن منبه ، وعبد الله بن سلام ؛ وهم يهود أسلموا، وكانت لهم أقدار استفادوها بصحبة النبىّ أو البلاء فى الإسلام وكان العرب قد بدأت أذهانهم تتفتح للمعرفة ، فكانوا يسألون هؤلاء لأنهم أهل مدنية وأديان قديمة ، فكانوا يجيبونهم بما درسوه فى دينهم القديم ، وكان قد سبق فحشى بالترّهات والأباطيل ، فانتقلت هذه إلى المسلمين عن هذا الطريق، كذلك عمل كثير من أعداء المسلمين على دسّ هذه المفاسد والأضاليل حتى يشوّهوا بها جمال الدّين ، فجازت على الناس خصوصاً إذا وردت إليهم منقولة عمن يوثق بإسلامه .

وجاءت بعد ذلك طبقة من المفسرين فحصوا هذه الأقوال ، وحققوا الروايات ، ونفوا الأكاذيب . ومن هؤلاء : أبو جعفر بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ صاحب « جامع البيان فى تفسير القرآن » ، وقد وازن فيه بين الآراء ونفى زائفها وحرص على جمع أقوال الصحابة والتابعين التى رويت من طرق صحيحة فلذلك كان من أجلّ التفاسير مع كونه من أقدمها . والذى ساعده على تمحيص الروايات أنه كان عالماً بالتاريخ فاستفاد بذلك فى تفسيره ، وهو صاحب التاريخ المنسوب إليه المسمى : « كتاب أخبار الرسل والملوك » .

وفى العصر الثانى وما بعده : حين ضعفت الملكات من الفهم لم يكن يكتفى فى تفسير الآية ببيان معناها ، بل احتاج طلاب العلم إلى أن يدلوا على ما فيها من وجوه البلاغة ، وأن يعرب لهم لفظها ليساعد ذلك على الفهم ، وكانت العلوم من فقه وأصول وغيرهما قد عرفت ، فكان المفسرون يتناولون مسائلها كلما عرضت لها مناسبة ، فاجتمعت العلوم كلها فى تفسير القرآن ، وهذا يحقق ماقلناه من أنها إنما بحثت فى سبيل خدمته ، ولكن كلّ تفسير كان يغلب عليه العلم الذى برز فيه مؤلفه ، فتفسير أبى إسحٰق الثعلبى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ المسمى : « كشف البيان عن تفسير القرآن »

يغلب عليه القصص . وتفسير الكشاف تغلب عليه البلاغة والاحتجاج لمذهب المعتزلة ، وتفسير الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ المسمى : (مفاتيح العلوم) يغلب عليه الكلام والأصول .

وفى هذه الكتب الأخيرة تركت الأسانيد التى كانت تلازم التفاسير القديمة .

علم الحديث

كان شأن حديث رسول الله كشأن تفسير القرآن منقولا بالرواية عن الصحابة وتابعيهم ، وكان الأئمة فى العصور الأولى يتحرّجون من تدوينه حتى لا يختلط بالقرآن .

ولكنّ كثيرين اجترءوا على رسول الله يكذبون عليه متعمدين غير خاشين من تبوّء مقاعدهم من النار يوم القيامة ، وهؤلاء هم الذين دخلوا فى الدين ليفسدوه ويغيروا معالمه ، كما أن كثيرين ممن لا شك فى إسلامهم أرادوا أن يستعينوا بمقام رسول الله عند الناس ، فأسندوا إليه أقوالاً لم يقلها ، وإنما كان غرضهم أن يحاربوا بها أعداءهم كما كان يفعل المهلب بن أبى صفرة فى قتاله للخوارج ، فكان يضع الأحاديث ليشد بها أزر جنوده ويضعف أمر أعدائه ، كذلك أكثرت الفرق الدينية كالشيعة وغيرها من وضع الأحاديث لتأييد مذاهبها حتى كان لأهل السنة أحاديث وللشيعة غيرها . وقد عدّ من وضاع الأحاديث محمد بن أبى يحيى بالمدينة ، والواقدى ببغداد ، ومقاتل بن سليمان بخراسان ، ومحمد بن سعيد بالشام ، وابن أبى العوجاء بالكوفة ، وكثير من هؤلاء كان يعترف بما أحدث ، كما فعل ابن أبى العوجاء حين قدم للقتل سنة ١٥٣ هـ فإنه قال : « والله لقد وضعت أربعة آلاف حديث حللت بها الحرام وحرمت الحلال ، والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم يوم فطركم » .

كثرت الأحاديث كثرة هائلة ، وتناقضت تناقضا ظاهراً على أيام عمر بن عبد العزيز حتى كانت الأحكام فى البصرة والكوفة ، تخرج متناقضة فى مسألة واحدة ببلدة واحدة ، فراع ذلك عمر ، ولكنه أحجم عن التدوين ، ونفى الزائف حتى لا يكون قد ابتدع ما لم يسبق إليه ، وكان ورعًا كثير التحرج ، ولكنه لم يستطع صبراً على هذه النتائج ، فاستخار الله أربعين يومًا ، فخار له الله أن يدوّن الحديث . فندب لذلك ابن جريج ، أو ابن شهاب الزهرى ، أو أبا بكر بن حزم ، ودوّن من الأحايث مدونة كتب بها إلى الأمصار حتى يكون العمل عليها .

***

وفى العصر العباسى تجرّد العلماء بمعونة الخلفاء لجمع الأحاديث ، والنظر فى رواياتها وتعديلها وتجريحها ، و بيان ناسخها ومنسوخها ، فتفرع من الحديث علوم ، منها : معرفة الناسخ والمنسوخ إذا تعارض الخبران ، ولم يمكن الجمع بينهما ببعض التأويل ، وعلم تقدم أحدهما على الآخر ، فيحكم إذ ذاك بنسخ المتأخر للمتقدم ، وقد قال الزهرى : (أعيا الفقهاء أن يعرفوا ناسخ الحديث ومنسوخه) وكان للشافعى فيه قدم راسخة . ومن علوم الحديث معرفة الأسانيد ، فبحثوا فى الرواة تعديلاً وتجريحاً ، وفى الرواية اتصالاً وانقطاعاً ، وألفوا الكتب فى طبقات الرواة، كما بحثوا فى غريب الحديث ، وألفوا المعاجم فى ذلك . فلم يتركوا فى خدمة كلام رسول الله بابا إلا ولجوه . وقد أبلوا فى هذا العمل بلاء حسناً حتى استطاعوا تجريد الحديث مما شابه على مرور الأيام ، ولم يتركوا فى هذا العمل بقية يتمها غيرهم من بعدهم ، فهم كانوا لقربهم من عهد الرواية ، ولحدَبهم على الدّين خلفاء وعلماء ، أجدر ألا يتركوا ثلمة دون أن يسدوها ، ولذلك يقول ابن خلدون : (وقد انقطع لهذا العهد (عهد ابن خلدون) تخريج شيء من الأحاديث أو استدرا كها

على المتقدمين ، إذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على تعدّدهم، وتلاحق عصورهم، وتفانيهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شيئاً من السنة ، أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخرون . هذا بعيد عنهم . وإنما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية ، والنظر فى أسانيدها إلى مؤلفيها ، وعرض ذلك على ما تقرّر فى علم الحديث من الشروط والأحكام) .

وقد اختلف نظر الأئمة الفقهاء إلى الأحاديث ، فمن صحّ عنده منها كثير ظهر أثره فى مذهبه ، فكان إلى التقليد أقرب كالإمام مالك أفادته نشأته بالمدينة بين أهل الحديث ، وثقات رواته أن صحّ عنه منه الكثير ، فلم يحتج إلى القياس فى أحكامه . والإمام أبو حنيفة النعمان نشأ بالعراق ، والحديث الصحيح بها قليل والمكذوب الموضوع كثير، فلم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثا، فكان مبنى مذهبه القياس. والإمام أحمد بن حنبل كان يروى ألف ألف حديث ، وقد دون نصفها فكان مذهبه أشد تعويلاً على الرواية من كلّ المذاهب .

⁂

والكتب المصنفة فى الحديث أكثر من أن تحصى إلا أن السلف والخلف قد أطبقوا على أن أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى هى : «صحيح البخارى » ثم « صحيح مسلم » ثم « موطأ مالك » ثم « سنن أبى داود » ثم « سنن الترمذى[1] » ، ثم « سنن النسائى[2] » .

---

(١) نسبة إلى مدينة على طرف نهر جيحون. قال ابن خلكان: والناس يختلفون فى ضبطها، فبعض يقول بفتح التاء ، وبعض بضمها ، وآخرون بكسرها . قال والمتداول على لسان أهل تلك المدينة فتح التاء مع كسر الميم ، والذى كنا نعرفه كسر التاء والميم جميعا ، والذى يقوله المتشرقون وأهل المعرفة ضم التاء والميم (كتابنا إعجام الأعلام) .

(٢) النسائى : نسبة إلى مدينة نسا من مدن خراسان ، والنسائى كان إمام عصره فى الحديث سكن مصر وانتشرت بها تصانيفه ، وفى آخر حياته قدم دمشق فسئل عن معاوية فقال : أما يرضى أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل على على فداسه الأمويون فى المسجد فمات سنة ٣٠٣ هـ (إعجام الأعلام) .

والذى أشار على مالك بعمل الموطأ هو أبو جعفر المنصور لما حج سنة ١٤٣ ﻫ ، فقال للإمام مالك : « يا أبا عبد الله لم يبق فى الناس أفقه منى ومنك ، فاجمع هذا العلم ودوّنه ووطئه للناس ، وتجنب شدائد ابن عمر ، واقصد إلى أواسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة ، فاعتذر مالك فلم يقبل منه المنصور ، ثم قال مالك : « والله لقد علمنى التصنيف » ، وهو أقدم كتاب فى الحديث ، والفقه إلى أيامنا هذه .

وأما صحيح البخارى ، فهو للإمام محمد بن إسمٰعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ ﻫ جمع فيه سبعة آلاف ومائتين وخمسة وسبعين حديثاً ، منها ثلاثة آلاف مكرّرة ، وكان يقول : أصح الأسانيد على الإطلاق : مالك عن نافع عن ابن عمر . وقد كان البخارى آية فى الحفظ ، فإنه لما قدم بغداد ، وسمع به أصحاب الحديث فيها اجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث ، فقلبوا أسانيدها ومتونها وجعلوا متن هذا السند ذاك ، ثم دفعوها إلى عشرة من الرجال مع كلّ رجل عشرة أحاديث ، وأحضروهم مجلس امتحانه ، فجعلوا يسألونه وهو ينفى لهم صحتها ويرويها على أصلها ، فأقرّوا له بالفضل . ومسلم تلميذ البخارى ، وقد تبع أستاذه فى عمله ولم ينقل فى صحيحه إلا ما صح لديه بعد أن كان الأئمة يكتبون الصحيح والضعيف بسنده ، ويعتمدون على التمييز بذكر السند ، ولكنّ البخارى ومسلماً تركا بعض الصحيح والحسن .

ثم جاءت الطبقة التى يقول عنها ابن خلدون فلم يكن لها استدراك شىء فات ، وإنما كان عملها الشرح ، والضبط ومراجعة الأسانيد .

علم الفقه

هو استنباط الأحكام الشرعية من : واجب ، ومحظور ، ومندوب ، ومكروه ، ومباح فى أمور العبادات والمعاملات . والأصل فى هذه الأحكام هو نصّ القرآن ، وحديث رسول الله من قول وعمل ، وقد كان الصحابة أيام النبى إذا نزلت الآية تولى

النبيّ شرحها لهم ، والعمل بها أمامهم ، وكلما جدّ لهم أمر أو عرضت قضية سألوه عنها فينزل فيها القرآن فيعملون بما قضى به .

فلما قبض الرسول عنهم ، وحدثت أحداث لم تكن على عهده ، أو نسوا حكما فى أمر من أمور دينهم كانوا يرجعون إلى كبار الصحابة الذين عنوا بدرس القرآن ، ولازموا رسول الله ووعوا قوله ورأوا فعله ، وهؤلاء هم الذين كانوا يسمون القراء إذ لم يكن أغلب العرب إلا أمّيين لقربهم من البداوة ، فكان هؤلاء القرّاء يفتون الناس فيما يعرض لهم ، ويرجعون فى ذلك إلى نصّ القرآن أو الحديث ، وتختلف أفهامهم فى آية القرآن ، أو يصحّ عند أحدهم حديث لم يروه الآخر ، فنشأ عن ذلك اختلاف الآراء فى مسائل الدين ، وكانت القضية التى تعرض إذا لم يجدوا لها نصًّا فى القرآن ، ولا حديثاً من كلام الرسول رجعوا إلى أشباهها مما له حكم ، فقاسوها بها ما دامت العلة فى الحكم متمثلة فى تلك القضية العارضة ، وهذا مايسمونه بالقياس .

وقد تفاوت الأئمة فى التعويل على القياس فبعض أكثر منه ، وهم أهل العراق لما فاتتهم رواية الحديث لقلة من نزل ببلادهم من أهله ، ولكثرة ما راج عندهم من الأحاديث الموضوعة ، لذلك لم يصحّ عند أبى حنيفة إلا سبعة عشر حديثاً ، فأغلب أحكامه اتبع فيها القياس ، وأهل المدينة لما كانت الرواية عندهم متوافرة ورجالها العدول كثيرون عوّلوا عليها فى استنباط أحكامهم حتى كادت تكون كلها تقليدا ، وبعض توسط فأخذ من الحديث ، وعمل بالقياس على قدر ما أداه إليه اجتهاده .

وقد كثرت المذاهب حتى كان لكلّ فرقة من الفرق التى نشأت فى الإسلام فقه يخالف فقه الفرقة الأخرى ، فكان للشيعة فقه ، وللخوارج فقه ، ولكن أغلب هذه المذاهب قد تلاشى بضعف أصحابه وذهاب ريحهم ، ولم يبق منها إلا ما أراد الله بقاءه لصلاح الناس ، وهو المذاهب الأربعة : الحنفىّ ، والمالكى ، والشافعىّ ، والحنبلى .

ولكل من هذه المذاهب إمام عرف المذهب به ، ومواطن شاع فيها ، فأمّا الحنفى

فصاحبه الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، ومقامه فى الفقه لا يلحق ، يشهد بذلك الإمام مالك الذى قال فى شأنه : « إنه رجل لو كلمته فى هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته » ، وقد انتشر مذهبه فى العراق ، وفارس ، والهند والصين ، وما وراء النهر ، و بلاد الترك ، وشرق أردن ، و بعض بلاد الشام ، ومصر .

والمذهب المالكى : صاحبه الإمام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وكان الشافعىّ من تلاميذه ، وقد بلغ من ورعه أنه لم يكن يركب بالمدينة مع ضعفه وكبره ، وكان يقول : لا أركب بمدينة بها قبر رسول الله . وقد انتشر مذهبه بالحجاز ، ومصر ، والمغرب ، والأندلس . ولما عاد كثير من جالية العرب بالأندلس إلى الإسكندرية وصعيد مصر راج مذهب المالكية فيهما .

ومذهب الشافعى ينسب للإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ وكان مولده بغزة بالشام ، ثم نقل إلى الحجاز فتربى به ، وتلقى العلم عن الإمام مالك الذى قال فى شأنه : « إن يكن أحد يفلح فهذا الغلام » .

ثم قدم بغداد ، ثم خرج منها إلى مكة ، ثم عاد إلى بغداد ، وأملى فيها مذهبه القديم ، وكان ممن أخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل ثم خرج إلى مصر فأقام بها إلى أن توفى . ومقلدوه بمصر أكثر منهم بغيرها ، وكان قد انتشر مذهبه فى العراق ، وخراسان وما وراء النهر ، وقاسم أهله الحنفية فى الفتوى والتدريس ، ثم تقلص ظله ، وفى مصر اعتراه انزواء لما كان من فعل الفاطميين بأهل السنة عامة ، فراج مذهبهم الشيعى حتى قضى عليهم صلاح الدّين الأيوبى ، فعاد مذهب الشافعى إلى الظهور بمصر ثانية .

ومذهب الحنابلة : منسوب الى الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ ، وهو الذى شهد له الشافعى حين زايل بغداد إلى مصر ، فقال : « خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل » ، وفى أيامه كانت فتنة خلق القرآن ، فدعى إلى القول بخلقه ، فلم يجب وضرب وحبس وهو مصرّ على الامتناع ، ومذهبه قليل

الأشياع لبعده عن الاجتهاد وأصالته فى معاضدة الرواية ، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها ، وبلاد نجد والبحرين ، وهم متشددون فى مذهبهم وطالما قامت الفتن ببغداد من آثار تشددهم وإنكارهم على غيرهم .

علم الكلام

هوالعلم الذى يبحث فى العقائد الإيمانية ، كوحدانية الله وكماله وقدرته ، ويتناول إثبات ذلك بالدليل العقلىّ بعد ثبوته بالدليل النقلى ، فترتفع الشكوك ، وتزول الشبه التى تخالج النفوس الضعيفة

وإنّ البحث فى تدرج هذا العلم ليمثل لنا كيف تنقل الفكر العربىّ فى أطواره منذ بدء الاسلام إلى أن شاعت الفلسفة ، وانتشرت آراؤها بين المسلمين .

تدرّج هذا العلم من البساطة إلى التعقيد ، ومن الفطرة السليمة إلى منازعة الشكّ ، ومجاذبة التردّد ، ومن وضوح البيان إلى تعقيد الفلسفة، حتى صار فى نهاية أمره طلاسم، واختلطت مسائله بمسائل العلوم النظرية التى جدّت فى الملة وصار لها السلطان على جميع الناس .

كان السلف الصالح يقرءون القرآن فتطمئنّ إليه قلوبهم وتسرع آياته إلى قرارة اليقين من نفوسهم ، فنزهوا الخالق عن مشابهة المخلوقات ، وآمنوا بالبعث والنشور لحديث القرآن عنهما ، ولم يتشككوا فى حصولهما ، ولا فى عذاب النار ونعيم الجنة ، ولم يحتاجوا الى دليل عقلى على ذلك ، وكفاهم أن الله أخبر عنه ، وأفاد تعلق إرادته به .

وليس معنى هذا أن الدين الإسلامى لم يأت حاثًا على النظر فى ملكوت السموٰات والأرض ، فالآيات الداعية إلى ذلك فى القرآن كثيرة قال تعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ

كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » ، وقال تعالى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » ، إلى غير ذلك من الآيات الحاثة على النظر والاستدلال بالموجود على الموجد . حتى إنه تعالى لم يقصر الاستدلال والبرهنة على وجوده جلّ شأنه ، بل ساق الدليل وأحكم العلة فى الآداب التى هى مواضعة محضة أو تكليف مطلق ، قال تعالى : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » .

وقد ظل السلف الصالح على ذلك وتلقاه منهم التابعون بالقبول الحسن ، ونظروا فى الآيات التى توهم التشبيه فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث أو تأويل وقالوا أقروها كما جاءت مغلبين أدلة التنزيه لكثرتها ووضوحها ، ولكنه قد شذ عنهم قوم اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا فى التشبيه لما جاء فى ظاهر الآيات من إثبات اليد والأصبع والوجه والقدم فى نحو قوله تعالى : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » : وقوله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ » ، وقوله تعالى : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » وقوله : « تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمٰن ، إلى غير ذلك من الآيات والآثار . فأثبتوا كل ذلك لله فلما رأوا أنهم قد وقعوا فى التجسيم الصريح ومخالفته آيات التنزيه أرادوا الفرار من شنعة ذلك فقالوا : جسم لا كالأجسام فوقعوا فى التناقض وخالفوا المعقول . وذهب فريق إلى التشبيه فى الصفات فقالوا بالجهة ، والاستواء ، والنزول ، والصوت ، فانتهوا إلى التجسيم كما انتهى إخوانهم ، لأن الاستواء لا يكون إلا لمتحيز ولايتحيز إلا الجسم . وهكذا بقية هذه الصفات تنتهى إلى ما انتهى إليه الاستواء من استلزام التجسيم ، ولما رأى هؤلاء صيرورتهم إلى ما لا يحبون أن يصفوا به الله تعالى قالوا صوت لا كالأصوات وجهة لا كالجهات فسقطت حجتهم بسقوط حجة الأولين ولم يبق قائماً إلا مذهب السلف والإيمان بما آمنوا به تغليباً للآيات الصريحة الكثيرة على القليلة المتشابهة .

وهذه الآراء السابقة ما بين مشبهة ومنزهة كلها تمثل الفطرة ولا تخرج عن دائرة التفكير الأولى لأنها لم تتعدّ النصوص الواردة فى الشرع غير أن بعضها آثر السلامة فغلب دليلاً على دليل وهذا هو رأى الذين نفوا التشبيه ، و بعض آخر حاول الجمع بين الدليلين وأحس أنه يحسن التخريج بينهما بما ارتأى ولكنه وقع فى الخلف من حيث أراد التوفيق .

ثم لما تفتحت الأذهان قليلا ، وعاشر العرب أقوامًا لهم أديان سابقة ومذاهب فى تلك الأديان متعددة تعمقوا التفكير و بحثوا الأدلة وناقشوها بفكر اعتاد الجدل فنشأت فرقة المعتزلة فى حدود المائة الأولى بعد الهجرة وكان مبدأ تكوّنها أن واصل بن عطاء كان بمجلس من مجلس الحسن البصرى فاعتزل مجلسه وجعل يقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، وأن له منزلة بين المنزلتين ، فقال الحسن : قد اعتزل مجلسنا فسمى واصل ومن تابعه فى آرائه معتزلة . أما هم فسموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد لقولهم : بأنه يجب على الله إثابة المطيع وعقاب العاصى ، ولنفيهم عن الله تعالى الصفات : من العلم ، والقدرة ، والإرادة ، والحياة ، وعللوا ذلك بأنه لو ثبتت هذه الصفات لله للزم تعدد القديم كما نفوا السمع والبصر عنه تعالى لكونهما من عوارض الأجسام، وقد ردّ عليهم أهل السنة الجارون على مذهب السلف الصالح فقالوا إن ثبوت صفات العلم والقدرة وغيرهما لا يستلزم تعدد القديم لكونها ليست عين الذات ولا غيرها ، وكذلك قالوا فى الاحتجاج لثبوت السمع والبصر له تعالى انه غير مشترط فيهما البنية و إنما المراد بالسمع إدراك المسموع و بالبصر إدراك المبصرات ، وقد نشأ عن رأى المعتزلة القول بخلق القرآن لأنهم لما نفوا صفة الكلام نفوا أن يكون لله كلام فحكموا بأن القرآن ليس كلام الله وأنه مخلوق ، وهذا الرأى نشأ منذ الدولة الأموية ونسب إلى الجعد بن درهم أستاذ مروان بن محمد ثم كانت لهذا القول فتنة أيام المأمون والمعتصم والواثق وضربت فيها الأبشار ، وأريقت الدماء .

وكان أبو الحسن الأشعرى أحد المعتزلة ولكنه خرج عليهم بمذهب كان إلى مذهب السلف أقرب ، وكثر تابعوه فسمى مذهب أهل السنة والجماعة ، وكان ذلك فى حدود سنة ثلثمائة إذ أنه ولد سنة ٢٦٠ هـ ودام على الاعتزال أربعين سنة ثم أراد الله للحق أن يغلب الباطل، فكان ذلك بأن شرح قلب الأشعرى للدفاع عن السنة فخرج على الناس يوما فصعد منبر الجامع بالبصرة وقال:أيها الناس إنى قد استهديت الله فهدانى وقد انخلعت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلعت من ثوبى هذا ورمى بثوبه . وكان المعتزلة قبل ذلك قد رفعوا رءوسهم فحجرهم الأشعرى حتى دخلوا فى أقماع السماسم، وكان سبب خروجه على أستاذه ابن على الجبّائى أنه قال له ماتقول فى ثلاثة إخوة مات أحدهم مطيعا، والآخر عاصيا ، والثالث صغيرا؟ فقال: الأول يثاب بالجنة ، والثانى يعاقب بالنار، والثالث لايثاب ولا يعاقب .

قال الأشعرى فإن قال الثالث: يارب لم أمتنى صغيرا ولم تبقنى إلى أن أكبر وأومن بك وأطيعك فأدخل الجنة ، ماذا يقول الرب تعالى؟ فقال الجبائى : يقول إنى كنت أعلم أنك لو كبرت عصيت فدخلت النار فكان الأصلح لك أن تموت صغيرا، قال فإن قال الثانى يارب لم لم تمتنى صغيرا لئلا أعصى فلا أدخل النار، فما يقول الرب؟ فبهت الجبائى . وترك الأشعرى مذهبه واشتغل هو ومن تبعه بإبطال رأى المعتزلة و إثبات ماوردت به السنة ومضى عليه الجماعة ، وتوسط بين الفريقين فنفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية الأربع، وهى القدرة والارادة والعلم والحياة، وكذلك أثبت السمع والبصر والكلام القائم بالنفس، واحتج لذلك بالنقل والعقل وتعرض لجميع ما أورده المعتزلة من الآراء كالكلام فى الصلاح والأصلح والحسن والقبح .

وقد كثر أشياع أبى الحسن الأشعرى وتوالت طبقاتهم فكان من تلاميذه ابن مجاهد وغيره . وأخذ عن هؤلاء إمام الحرمين أبو بكر الباقلانى وقد كان له أثر فى مذهب الأشاعرة ، فإنه زاد فيه مقدمات عقلية تتوقف عليها الأدلة وتحتاج إليها تلك

البحوث مثل إثبات الجوهر الفرد ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ولا يبقى زمانين ، وأن بطلان الدليل يؤدى إلى بطلان المدلول ، وجعل اعتقاد هذه المقدمات واجبا تبعا للعقائد المتوقفة عليها .

وإلى هذا الحين لم يكن المتكلمون قد نظروا فى علم المنطق ولا حاولوا معرفته لظنهم أنه من الفلسفة وهى فى نظرهم مباينة للعقائد الشرعية فكانوا يتحرّجون من النظر فيها خوفا على عقائدهم . وتبع ذلك انصرافهم عن المنطق إذ كان معدودا فى جملتها . ثم لما كثر تداول العلوم الفلسفية وعرف أن المنطق لا علاقة له بما فيها من آراء وأنه ليس إلا معيارا للأدلة ، تقاس به أدلة الفلسفة كما تقاس به أدلة غيرها من العلوم فحينذاك أقدم علماء الكلام على دراسة قوانينه فكانت دراسته وتطبيقه على فنّهم سبباً فى تهذيبه والعدول عن كثير من مسائله فرجعوا عن القول بأن بطلان الدليل بطلان للمدلول ، وسميت طريقتهم طريقة المتأخرين . وأدخلوا فى علم الكلام منذ ذلك الحين الردّ على الفلاسفة لكونهم أصل الابتداع فى الملة .

وكان الامام الغزالى أول من كتب فى علم الكلام على هذا المنحى وتبعه الامام ابن الخطيب. ثم زاد إقبال علماء الكلام على كتب الفلسفة حتى اختلطت مباحثهما. وأكثر مايتجلى ذلك فى كتاب الطوالع للبيضاوى وكذلك من أتى بعده من العجم ، فكل تآليفهم قد امتزجت بمباحث الفلسفة حتى صارت إلى الغموض والتعمية .

⁂

ومن هذا يتحقق لك ماقلناه من تمثيل هذا العلم لأطوار الفكر العربى فهو يتدرج من سذاجة و بساطة إلى محاولة للابتداع وتغليب للرأى إلى النظر فى أدلة الفلسفة والبحث على منوالها إلى الانغماس المطلق فيها حتى صار علم الكلام لا ينفصل عنها ولا يفهمه إلا من اطلع على قوانينها وعرف أسلوبها .

وقد ذكروا فى سبب تسمية العلم أنه إنما سمى علم الكلام لأن سبب وضعه والخوض فيه هو إثبات الكلام النفسى لله تعالى ، وقيل لأنه مبنى على الدليل العقلى وقلّما يرجع فيه إلى نقل، فالمعوّل فيه على الكلام والبلوغ به إلى الاقناع، وقيل لأنه فى بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق فى تبيينه سالك الحجج فى علوم الفلسفة فقوبلت كلمة المنطق فى تسمية هذا بالكلام فى تسمية ذاك ، وقيل لأنه أكثر العلوم خلافا ونزاعا فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين ، وقيل لأنه اقوة أدلته صار هو الكلام دون ماسواه كما يقال للأقوى من الكلامين هذا هو الكلام . ويسمى أيضا التوحيد تسمية للعلم بأهمّ مسائله، وهى إثبات الوحدة لله تعالى

السير والتواريخ

اشتغال الأمة بتاريخها وسير أبطالها وتفصيل وقائعها وأيامها أمر يكاد يكون طبيعيا فى الأمم تدعو إليه المفاخرة بالآباء والاعتزاز بفضائلهم والرغبة فى تسجيل محامدهم

لذلك نرى أن العرب وهم فى باب الفخر والعصبية مجلون قد اشتغلوا فى جاهليتهم بتاريخهم فأطروا أبطالهم وتمدحوا بأعمالهم وحكوا فعلهم فى وقائعهم وقد ملئوا بذلك شعرهم فكان ديوانهم وسجلّ أعمالهم كما يقولون .

وفى هذه الجاهلية اشتغلوا بالأنساب فكان منهم علماء بها يعرفون نسب القبيلة ويردون اليها الضال وينفون عنها الدعىّ بمهارة عجيبة تدهش المتتبع لأخبارهم، وقد جعلوا نسبهم ست مراتب ، وهى الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة . فالشعب هو النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان . والقبيلة هى ما انقسمت فيها أنساب الشعب مثل ربيعة ومضر . ثم العمارة وهى ما انقسمت فيها أنساب القبيلة مثل قريش وكنانة. ثم البطن وهو ماانقسمت فيه أنساب العمارة مثل بنى عبد مناف وبنى مخزوم.

ثم الفخذ ، وهى ما انقسمت فيه أنساب البطن مثل بنى هاشم و بنى أمية. ثم الفصيلة مثل بنى طالب و بنى العباس .

وكان النسابون يحفظون أسماء القبائل وما تفرع منها حفظا يُهذُّونه هَذًّا ، فإذا عرض لأحدهم رجل وقال له أنا من تميم مثلا فانسبنى فأنه يبدأ بالأصل وما تفرع منه وما يزال يتنقل من العمائر إلى البطون إلى الأفخاذ حتى ينتهى إلى الفصيلة ، ومنها إلى والد السائل . ومن أشهر النسابين فى الجاهلية أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ولما جاءت الدولة الأموية عنى معاوية بأخبار العرب لما بنى سياسته على العصبية فكان مجلسه مذاكرات فى أيام الجاهليين وأعمالهم حتى لقد استدعى عبيد بن شرية من أهل اليمن فكان يحدثه بذلك وألف له فى تلك الأحاديث كتاب (أخبار الملوك الماضين) فكان أول كتاب فى التاريخ .

وقد دفع العربَ إلى العناية بالأنساب فى هذا العصر سبب آخر هو بناؤهم العطاء وأرزاق الجند على حسب ترتيب القبائل ، وقد فعل ذلك عمر بن الخطاب لما وضع ديوان جنده فكانت قريش فى ترتيبه أولى القبائل ، وكان آل النبى مقدمين على غيرهم ومن حضر بدرا أكثر عطاء ممن لم يحضرها إلى غير ذلك من الفروق التى استدعت العلم بالأنساب والمغازى وتاريخ الإسلام عامة .

كذلك احتاجوا إلى معرفة الأماكن وحوادث الإسلام الأولى وتواريخ الأمم لما رأوا أن تفسير القرآن يستلزم معرفة أسباب النزول وأماكنه والبحث عن أخبار الأمم التى ورد ذكرها فيه فنشأ عن ذلك تتبع لسيرة النبى وسماع لأخبار الأمم التى ورد ذكرها فى القرآن ، ممن دخل الإسلام وكان ذا سابقة فى العلم كأهل اليمن ويهود الجزيرة ، ولكن هؤلاء كانوا بين منافقين أرادوا تشويه الإسلام بالأخبار الكاذبة ، أو جهلاء امتلأت رءوسهم بالترهات فقبلها عنهم العرب بسذاجتهم ولم يستطيعوا إذ ذاك نقدها وبهرجة باطلها لمكانهم من الأمية والجهل بهذه التواريخ .

ولما لم يكن العصر الأموى عصر تدوين لم نجد فيه عملا للمؤرخين مستقلا بنفسه غير مثبوت فى روايات المفسرين وأهل الحديث .

فلما جاء العصر العباسى وزخرت الدولة بالعلم وتفرعت أصوله وجدنا التاريخ من أوائل العلوم التى عنوا بها فقد اشتمل عندهم على هذه الأنواع .

(١) فن السير والمغازى (٢) فن فتوح البلدان (٣) فن طبقات الرجال (٤) فن النسب (٥) فن تاريخ الممالك (٦) فن معرفة أيام العرب (٧) فن القصص (قصص الأنبياء وغيرهم) .

ولكل من هذه الفنون أسباب دعت العرب إلى بحثه والعناية به .

ففن السير نشأ عن عنايتهم بتاريخ رسول الله إذ كان مصدر الشرع ووسيلة إلى معرفة ناسخه ومنسوخه وواجبه وسننه ، وقد كتبت هذه السيرة بأكبر عناية حتى لم يترك مؤرخوها حالاً من أحواله عليه الصلاة والسلام إلا فصلوا القول فيها فأصبحنا نعرف عنه مالا تعرفه أمة عن نبيها أو عظيمها ،ودراسة حياته عليه الصلاة والسلام مبعث هداية ورشد ، ودليل فضل ونبل ، وسبيل حكمة وسداد لكل من عنى بها واهتدى بنورها .

وأقدم ماعرف من ذلك (كتاب المغازى) لابن مسلم الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ ﻫ و (كتاب المغازى) لموسى بن عقبه المتوفى سنة ١٤١ ﻫ وقد ضاعا . وليس فى هذين الكتابين كما يدل اسمهما إلا ذكر غزوات الرسول فقط . فأما سيرته كاملة فأقدم ماوصل الينا منها سيرة محمد بن إسحق رواية عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ ﻫ المسماة (سيرة ابن هشام) وهى أقدم المصادر وأوثقها فى هذا الباب .

وفن فتوح البلدان دعاهم إلى بحثه تحقيق أمر الجزى والخراج لمعرفة المفتوح صلحا وأمانا أو عنوة ، ومراعاة العهود التى تمت بين الفاتحين وأهل البلاد .

وأقدم ماوصل الينا من كتب الفتوح كتاب (فتوح الشام) لأبى اسماعيل محمد ابن عبد الله الأزدى البصرى من أواسط القرن الثانى للهجرة ، وقد طبع الكتاب

بكلكته سنة ١٨٥٤م وفيه كثير من المخابرات السياسية التى جرت بين الخلفاء الراشدين وقوادهم وما تكاتب به القواد أو راسلوا كبراء الروم أو عقدوه من العهود أثناء حروبهم بالشام . وقد جاء بعده أبو عبد الله الواقدى فألف كتاب (فتوح الشام) أيضاً ولكنه أشبه بالقصص لما حواه من التفصيل والمبالغة ، وإن كان مؤسساً على الحقيقة ، وقد طبع بمصر وغيرها .

فنّ الطبقات : ويراد بها طبقات الرجال وترتيبهم بحسب أزمنتهم أو فضلهم فى فنهم ، والذى دعاهم إلى تناول هذا النوع أنهم حين اضطروا لتحقيق مسائل العلم نظروا فى رواياتها وفرقوا بين ضعيفها ومتينها فاستتبع ذلك منهم بحث أحوال الرواة وتقسيمهم إلى عدول وغير عدول ، ولقد تناول بحثهم جميع أنواع الطبقات حتى كانت لهم طبقات للشعراء ، والأدباء والنحاة ، والفقهاء والصحابة ، والتابعين والفرسان والمحدّثين واللغويين والمفسرين والحفاظ والمتكلمين والنسابين والأطباء، والندماء والمغنين ، وألفوا فى كل نوع غير كتاب . فكان العرب أكثر أمم الأرض كتباً فى التراجم ، وقد يحوى الكتاب الواحد أربعة آلاف ترجمة ككتاب الأنساب للصاغانى وغيره ، ومن أشهر كتب الطبقات كتاب طبقات ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ ﻫ المسمى طبقات الصحابة والتابعين وقد طبع فى ليدن سنة ١٨٢٥ م فى ثمانية أجزاء ، وفيه غير السيرة النبوية تراجم البدريين والأنصار والمهاجرين وتراجم الصحابة من الرجال والنساء .

فنّ الأنساب : احتاجوا اليه كما ذكرنا حين بنوا عطاءهم على مراتب القبائل والسبق إلى الاسلام ، وقد ذكروا أن أول من ألف فيه زياد بن أبيه الذى استلحقه معاوية بأبى سفيان فيقال انه عمل كتابا فى نسبه ومثالب العرب ودفعه إلى أبنائه وقال استظهروا به على العرب .

وفى العصر العباسى ألف هشام الكلبى المتوفى سنة ٢٠٦ﻫ كتابه (النسب الكبير)

وهو يحتوى على أنساب القبائل من العدنانية والقحطانية ، ومنه نسخ خطية فى باريس والأوسكوريال واكسفورد وغيرها .

ومن النسابين فى هذا العصر الهيثم بن عدى الكوفى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، والمدائنى المتوفى سنة ٢٢٥ هـ ، وعلان الشعوبى ، والزبير بن بكار وغيرهم ممن ترى أسماءهم تتردد فى كتب الأدب أو التاريخ كالأغانى أو الطبرى وغيرهما .

فنّ تاريخ الممالك : يصح أن يكون نواة التأليف فى هذا ما كان عند معاوية من رغبة فى تعرف سير الملوك والساسة من الأعاجم حتى كان يجلس لأصحاب الأخبار كل ليلة بعد العشاء إلى ثلث الليل فيقصون عليه ما كان لهم من مكايد حربية وسياسة للرعية . ولا شك أن سماع أخبار العظماء يستنهض الهمم ، ويضيف إلى عمر السياسى وتجاربه تجارب من سبقه فيسير فى سياسته على نهج ، ويخرج من هذه الأخبار بعلم وتجربة لا يستغنى عنهما مثله .

ولقد جاء المنصور من خلفاء العباسيين بعد ذلك فاحتاج إلى مثل ما احتاج إليه معاوية فنقلت له الكتب من الفارسية فى سير ملوك الفرس وقد كانوا دهاة فى السياسة وذوى رأى صائب فى قيادة الجيوش وإحكام أمور الرعية ، فترجم له ابن المقفع (خداى نامه) فى سيرة ملوك الفرس . ثم رأى العرب أنهم عاشروا هذه الأمم وفتحوا بلادها ولم يحسن أن يجهلوا تاريخهم فألفوا الكتب فى ذلك حتى لقد كتبوا فى بدء الخليقة وحوادث الطوفان وغيرها مما ورد فى القرآن . وللعرب فى ذلك همة عظيمة فإنهم بحثوا وحققوا وطافوا البلاد(١) ودرسوا بأنفسهم طبائع أهلها وسمعوا من أفواههم

---

(١) ومن أشهر الرحالين العرب السائح الهروى الذى يقال انه لم يترك برّا ولا بحرا إلا قصده ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه فى حائطه حتى ضرب به المثل فقيل فى إلحاح شحاذ :

أوراق كديتــه فى بيت كل فتى ... على اتفاق معان واختــلاف روى
قد طبق الأرض من سهل ومن جبل ... كأنه خط ذاك السائح الهـــروى

تاريخ أسلافهم، وأقدم كتاب وصل إلينا فى ذلك كتاب اليعقوبى المتوفى سنة ٢٧٨ ﻫ طبع فى ليدن سنة ١٨٨٣ م وهو قسمان قسم للتاريخ القديم تناول فيه التاريخ منذ آدم إلى ظهور الإسلام ، وفيه أخبار السريان والهنود واليونان والرومان والفرس والنوبة والبربر . والقسم الثانى فى تاريخ الإسلام وقد رتبه على حسب الخلفاء وينتهى إلى سنة ٢٥٩ﻫ فى زمن المعتمد على الله .

ومن هؤلاء المؤلفين أبو حنيفة الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ ﻫ وله كتاب (الأخبار الطوال) وهو يشتمل على نحو ما اشتمل عليه كتاب اليعقوبى ، وينتهى بوفاة المعتصم سنة ٢٢٧ ﻫ .

وشيخ المؤلفين فى هذا الباب هو ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ﻫ، وقد اشتهر بقوة عارضته وفصاحة لهجته وصبره على العمل حتى قالوا إنه قضى أربعين سنة يكتب فى كل يوم أربعين صفحة . وعمله الذى اشتهر به هو تفسيره المعروف بالتفسير الكبير وتاريخه المسمى أخبار الرسل والملوك ، وينتهى إلى سنة ٣٠٢ﻫ ، وقد طبع بمصر فى ثلاثة عشر جزءا وقد اتبع فى أخباره الإسناد إلى الرواة . وقد كان للكتاب رواج عظيم فى سالف الأيام حتى كان منه فى خزانة العزيز الفاطمى صاحب مصر عشرون نسخة وفى دار العلم للحاكم بأمره مائة وعشرون . ثم جرى عليه ما جرى على غيره من الضياع حتى أنهم حين أرادوا طبعه أخيراً لم يجدوه مجموعاً فى مكان واحد .

فنّ معرفة أيام العرب : احتاجوا إليه حين قاموا بجمع أشعار العرب فاضطروا إلى معرفة أسباب إنشاء المعلقات وكبار القصائد وتجردوا لمعرفة أحوال العرب التى يستدل عليها بشعرهم فجمعوا من ذلك كثيراً ، وقوّاهم على عملهم ارتياح الخلفاء لسماع هذه الأخبار فكثرت واستفاضت وصار من أقسام التاريخ قسم يسمى أيام العرب وأخبارها .

وأقدم مؤلف وصل إلينا فى هـذا النوع كتاب « طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين » ، وهو لابن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣٢ هـ ، وقدطالما استشهد صاحب الأغانى بأقواله ورجع إليه فى تعيين طبقات كثير من الشعراء ، وفعل ذلك القالى والزجاج فى أماليهما وكذلك السيوطى فى مزهره ، وقد قسم ابن سلام الجاهليين عشر طبقات غير أصحاب المراثى ، وقسم الاسلاميين عشرة كذلك والكتاب مطبوع بمصر ، ويعد الأغانى لصاحبه أبى الفرج الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ أكبر مصدر فى هذا الباب ، والكتاب كبير يقع فى واحد وعشرين جزءا طبع منها أولاً عشرون ثم عثر المستشرق رودلف برونو سنة ١٨٨٨ م على الجزء الحادى والعشرين فتم الكتاب على ذلك .

اشتغل أبوالفرج نحوا من خمسين سنة فى كتابه ، وقد بناه على تبيين مائة الصوت التى اختارها المغنون للرشيد فكان إذا ذكر صوتامنها ذكر طريقته ومن غناه ، وربما ترجم لواضع لحنه ، ثم يستطرد إلى ذكر قائل الشعر فيترجم له ، وقد يعرض فى الكلام ذكر لشىء من واقعة أو رجل فيذكر تاريخه ، فلذلك احتوى الكتاب على أخبار مئات من الشعراء ، والمغنين والأدباء والعشاق والخلفاء والقواد وأكثر أيام العرب وأحوالهم وقبائلهم وأنسابها ، ووقائعها ومذامها ومحامدها فصار سجلا عاما لتاريخ العرب فى الجاهلية خصوصا .

وصاحبه ثقة يعتمد على السند ولا يكتفى بذلك بل كانت له ملكة للنقد ، وبصيرة بالكلام ، بها يبين منحوله ويردّ زائفه .

ذكر صاحب الأغانى خبر تعلق ابن أبى ربيعة بالثريا وإلحاحه عليها بالهوى ، وتزويج أهلها لها من سهيل وكتابته إليها شعرا فى قوهيّة[1] وبعث به إليها، فلما قرأته بكت بكاء شديدا ثم كتبت إليه تقول :

(١) قوهية : هى ثياب بيض تنسب إلى بلدة تسمى قوهستان ببلاد فارس ثم قيل لكل ثوب يشبه ما ينسج بها قوهى أيضا .

أتانى كتاب لم ير الناس مثله ... أُمدَّ بكافور ومسك وعنبر
وقرطاسه قُوهيّة ورباطه ... بعقدمن الياقوت صاف وجوهر
وفى صدره منى إليك تحية ... لقد طال تهيامى بكم وتذكرى
وعنوانه من مستهام فؤاده ... إلى هائم صب من الحزن مُسْعَر

ثم يقول : قال مؤلف هذا الكتاب : وهذا الخبر عندى مصنوع وشعره مضعّف يدل على ذلك ، ولكنى ذكرته كما وقع إلى (ص ٩١ ج ١ طبعة الساسى) وفى ص ٣٣ ج ٢ تحقيق تاريخى فى تنصر النعمان بن المنذر ، وهكذا ترى فيه من مثل ذلك كثيرا .

وقد عد عليه ياقوت الحموى بعض مآخذ ذكرها فى قوله (وقد تأملت هذا الكتاب وعنيت به وطالعته مرارا وكتبت منه نسخة بخطى فى عشر مجلدات ونقلت منه إلى كتابى المرسوم بأخبار الشعراء فأكثرت وجمعت تراجمه فوجدته يعد بالشىء ولا يفى به فى غير موضع منه كقوله فى أخبار أبى العتاهية (وقد طالت أخباره هاهنا ، وسنذكر خبره مع عتبة فى موضع آخر) ولم يفعل . وقال كذلك فى مقام آخر (أخبار أبى نواس مع عنان إذ كانت سائر أخباره قد تقدمت) ولم يتقدم منها شىء إلى أشباه ذلك والأصوات المائة هى تسعة وتسعون (وما أظن إلا أن الكتاب قد سقط منه شىء أو يكون النسيان قد غلب عليه) والكتاب لايزال كما وصفه ياقوت .

وقد اشتمل الكتاب على كثير من أخبار المستهتَرين ، والمجان ، والأخبار الموضوعة على الخلفاء ، وكثير منها لا يصدق ، وعذر أبى الفرج فيها أنه نقلها عمن عاشروه ، وكثير منهم لا يتورع عن الكذب ، ولم يكن همّ أبى الفرج تحقيق الحادث فى ذاته ، ولكن كان همه نقل الشعر الذى قيل فيه أو غنى ، فهو لأجل ذلك لم يتحرّ فليس الكتاب من هذه الناحية مصدرا تاريخيا للحقائق ، وإن كان أمر ذلك فى الجاهليات أقرب إلى التحقيق لأن رواتها كانوا أقرب إلى الورع ، والتحرج من الكذب .

وقد اختصر أبو الفرج نفسه كتابه ، ولكنه فقد ، واختصره بعده كثيرون ، منهم ابن مُكَرّم صاحب لسان العرب المعروف أيضاً باسم ابن منظور ومختصره هذا مخطوط بمكتبة الأزهر .

فن القصص : قد سبق لنا القول فيما كان منه فى الأسمار والخرافات فى الكلام عن علم الأدب ، أما قصص الأنبياء : فقد كان من خدمة التفسير العناية بها لورودها فى القرآن ، وتلك القصص اعتمد العرب فيها على من أسلم من اليهود والنصارى ، وأغلبهم كانوا من جهلاء قومهم أو من فاسدى العقيدة فكثر فيها الخلط .

ترجمة العلوم

فى العصر العباسى

شعر العرب بالحاجة إلى العلم لأنه قوام الحياة المدنية ، وضرورتها التى لا غنى عنها ، وقد عرفت كيف أقبل العرب فى هذا العصر على المدنية يأخذون بأسبابها ، ويتشبه ملوكهم بالأكاسرة فى نظام معيشتهم ، وتدبير ملكهم ؛ فكان لابد من العلم الذى تساس به هذه الممالك ، وتدبر أمورها .

ولذلك تضافرت الأمة : خلفاء ووزراء ، فبذلوا فى سبيل ذلك ما حرك الهمم لتحقيق هذا الغرض الشريف ، وبذل معهم كثيرون من أهل البيوتات الكبيرة فى الدولة ممن يتشبهون بالملوك ، ويريدون أن يذكروا بهذه المنقبة معهم .

العلم فى الأمم المعاشرة للعرب

وكان يعاشر العرب فى هذا الحين أمم ذات مدنيات سابقة ، وعلوم ناضجة متوارثة فى أجيال متعاقبة . فكانت اليونان مشهورة بحكمتها ، ولها فلاسفتها وأطباؤها الذين لا تخفى شهرتهم : كسقراط ، وأرسطاليس ، وأفلاطون ، وأبقراط ، وجالينوس ، وأرشميدس ، وغيرهم .

وكذلك كان الفرس أهل أدب وعلوم انتقلت إليهم من الهند والصين ، ثم من اليونان فى عهود سابقة ، وكان ذلك نتيجة للجوار والاختلاط فى الحروب . وقد ذكروا أنه فى عهد سابور بن أرد شير بعث إلى اليونان من جلب كتب الفلسفة ونقلها الى الفارسية ، ولما جرى على علماء اليونان الاضطهاد من ملكهم جُسْتِنْيان[1] نزحوا إلى بلاد الفرس ، فوجدوا صدوراً رحبة فنشروا علومهم بتلك البلاد ، واستفادت الفارسية هذا الميراث الذى زفه إليها هؤلاء الضيوف الطارئون . كذلك كانت أمة الكلدان على نهر دجلة ، وقد عرفت قديماً بالعلم خصوصاً الطب ، وكانت بها مدرسة جُنْدَيْسَابور[2] التى بقيت إلى العصر العباسى قائمة ، وكان يعلم فيها الطب الهندى واليونانى .

وحدث كذلك أن العلوم انتقلت إلى أمة السُّرْيان[3] بانتقال أساتذة مدرسة الإسكندرية على أثر إغارة الإسكندر المقدونى عليها ، فأسس هؤلاء العلماء فى وطنهم الجديد مدارس الرُّها ، ونَصِيبين وقِنَّسْرين ، وكان يدرس بها الطب ، والصيدلة ، والحيوان ، والنبات .

وأمة الهند ذات مدنية قديمة وعلوم موروثة ، اشتهرت من بينها علوم النجوم ، والطب ، والآداب ، فعن هؤلاء ، وعن المصريين أسبق الأمم إلى المدنية نقل العرب علومهم . وقد كان لاتصال هذه الأمم قديما بعضها ببعض أثر عظيم فى تنقل علومها من واحدة إلى الأخرى ، فالفرس نقلوا من علوم الهند ، وكذا ترجموا إلى لغتهم كثيرا من

---

(١) كان ذلك أيام كسرى أنو شروان ، وقد فرّ إلى بلاده سبعة من اليونان الذين شردهم اضطهاد جستنيان للوثنية فأمرهم كسرى بنقل العلم فنقلوا الطب والمنطق ، وكان حكم كسرى (٥٣١ — ٥٧٨) من الميلاد .

(٢) أنشأ سابور بن أردشير هذه المدينة وبنى كسرى أنو شروان بيمارستانها ، وهى الآن أطلال مدينة شاه أباد ، وبها تعلم طبيب العرب الحارث بن كلدة وطبب بعض عظماء الفرس فمنحه مالا وجارية هى سمية أم زياد .

(٣) بلاد السريان فيما بين النهرين .

كتب اليونان ، فتجد عندهم كتبا فى علم النجوم ، وأصله هندى ، وأخرى من الطب والآداب والمنطق، استفادوها من الهند أو اليونان، لوقوعهم بينهم من الشرق والغرب ، وهذا شأن العلم فى كل زمان فهو لاوطن له بل ينتقل برحلة العلماء ، و إغارة الفاتحين .

وقد جاء العرب فوجدوا هذه العلوم ذخرا نفيساً تعتز به هذه الأمم ، وإن كان قد اعترى بعضها فتور فى تحصيله ، وكسل عن النظر فيه فقنعوا بأن يصونوا كتب العلم فى دورها ، وأن يقوموا على حراستها ، وهـذا شأن الأمم إذا بلغت نهايات عمرها تجعل العلم من المقتنيات مجتزئة من تحصيله بضم أشتاته فى خزائنها ، ولكن الأمة العربية كانت فى ذلك الحين جديدة الآمال منبعثة النشاط ، فكما أسرعت فى غزو هذه الممالك ، والاستيلاء على مواطنها ، كذلك غزتها فى منتجات أفكارها فأسرعت فى ذلك إسراعها فى الفتح ، ولم يمض إلا قليل حتى حازت علوم الدنيا نقلا ودراسة وانتقادا ، فصار لها من آثار ذلك ما أحدثته فى آثار الماضين من تهذيب ، وما أبرزته من جديد ، ونشأ من رجالها الفلاسفة الذين أربوا على سابقيهم ، وأتوا بالعجب العجاب فى علومهم ، وسنفرد لهذه النتائج فصلا خاصا .

أدوار الترجمة

بدأت الترجمة قبل العصر العباسى بما تم على يد خالد بن يزيد بن معاوية من نقل بعض الكتب ، وكان مغرما بالنظر فى الكيمياء فترجم له فيها ، وفى الطب والنجوم ، وقد قال عنه الجاحظ : (وهو أول من ترجم له فى النجوم والطب والكيمياء) .

ولكن عمل خالد كان عمل فرد لا يصح أن نحكم به على العصر . لذلك نقول إن العصر الأموى قد انتهى ، ولم يكن العرب قد اشتغلوا بالترجمة ، فهى لذلك ميزة العصر العباسى ، وفضيلة ندب الله لها خلفاءه .

وكان أول من عنى بها منهم أبو جعفر المنصور فإنه على بخله بالمال بذل فى سبيل الترجمة بسخاء حتى لقد أعطى جرجيس ابن بَخْتَيْشُوع الطبيب عشرة آلاف دينار، وهو عطاء لم يجرمثله على يده؛ ورغب إليه منذ ذلك الحين فى نقل كتب الطب اليونانية، وقد ترجم فى عهد المنصور فى أنواع كثيرة من العلوم، فقد ترجم فى الموسيقى كتاب بطليموس فى اللحون الثمانية، وترجم كذلك فى الهندسة والمنطق، ولكنّ العلمين اللذين زاد اهتمام المنصور بهما هما الطب والنجوم؛ فقد نقل له جرجيس المتقدم بعض كتب أبقراط الطبيب اليونانى المشهور، كما نقل له البِطْرِيق كتاب الترياق لجالينوس الطبيب اليونانى أيضاً، ونقل له فى النجوم محمد بن إبراهيم الفزارى (وهو من أشهر المترجمين فى عهده) كتاب السندهند من الهندية، وكذلك ترجم له ابن المقفع من الفارسية كتاب كليلة ودمنة، وهذا الكتاب هندى الأصل نقل إلى الفارسية ومنها إلى العربية، كذلك ترجم ابن المقفع كتاب المقولات، وكتاب تحليل القياس لأرسطو، وكتاب إيساغوجى الذى ألفه فُرْفُرْيُوس الصُّورِىّ، وجعله المدخل إلى كتب أرسطو المنطقية.

ولقد فتر أمر الترجمة فى عهد المهدى والهادى، لاشتغالهما باستئصال شأفة الزنادقة فلم يكن فى أيامهما شىء يذكر فى هذا الباب.

ثم جاء عصر الرشيد: وقد بلغت المملكة أوجها غنى ونظامًا وقوة فراجت الترجمة فى أيامه، وساعد على ذلك أن كان البرامكة وزراءه، وكانوا فى دولتهم أسبق الناس إلى الفضل، وأحرصهم على طيب الذكر، وأعرفهم بقدر العلم، فحركوا همة الرشيد لذلك، وجادوا هم من تلقاء أنفسهم على المترجين فيما ترجموه من الكتب برسمهم، ونتج عن ذلك إقبال الناس على الترجمة فنقلوا منها كثيراً فى كل العلوم، وأعادوا ترجمة كثير من الكتب التى ظهرت فى أيام المنصور، لأن ترجمتها لم تكن صحيحة.

وكان من آثار رواج العلم ، والترجمة فى أيام الرشيد إنشاء دار الحكمة ببغداد ، وهى تلك الدار التى حوت كل ما عثر عليه فى ذلك الحين من كتب هندية ، وفارسية ، و يونانية .

ثم كانت أيام المأمون فكانت أزهر عصور الترجمة لأن المأمون كان عالما جليل القدر فى كل العلوم ، وكان يجالس العلماء فيشاركهم بحوثهم ، بل يتغلب عليهم بقوة عارضته وصفاء ذهنه ، فكان الناس يتقربون إليه بالعلم ، ويتسابقون بالفضل ، وقد اعتنى بالترجمة عناية كبيرة حشد لها همته ، وأعدّ عدته ، فكاتب ملك الروم فى إنفاذ ما عنده من كتب العلم المدخرة ببلاده ، فسمح له بها ، فأخرج المأمون بعثاً من أشهر رجال الترجمة منهم الحجاج بن يوسف بن مَطَر ، ويُوحَنَّا البِطْرِيق ، وسَلْمٌ صاحب بيت الحكمة ، وجعل على رأسهم حنين بن إسحٰق ، فنظروا فى تلك الكتب وحملوا إليه ما اختاروه منها ، فأمر المأمون بترجمته ، وكان يعطى كثيراً حتى كان يعطى أجر الكتاب المترجم وزنه ذهباً .

ومن عناية المأمون بالترجمة ، وسلامتها من الأغلاط العلمية واللغوية ، أنشأ ببغداد مدرسة للتراجمة يتعلم فيها أبناء العرب اللغات المختلفة حتى يجيدوا النقل عنها ، وقد جعل النظر فى أمر هذه المدرسة إلى طبيب نسطورى ، وللنساطرة فى الطب قدم فارعة وخدمة سابقة ، و يقال إن فى مكتبة الأسكوريال معاجم عربية يونانية وأخرى عربية لاتينية وضعت ليحذق بها أبناء العربية لغة هذه العلوم فى اليونانية .

وقد جعل المأمون المترجمين يوما فى الأسبوع يجتمعون فيه بعلماء اللغة ليطلع هؤلاء على عملهم فيصححوه و يقروه ، ولم ينته عصر المأمون حتى كانت كل العلوم التى ألف فيها الهنود والسريان والفرس واليونان قد ترجم منها فى العلم الواحد الكتاب أو الكتابان أو الثلاثة ، خلا السحر ، وعبادة الأوثان .

ومن المترجمين فى أيام المأمون عن اليونانية حبيش الأعسم وأصطفان بن باسيل

ويوحنا بن ما سَوَيْه وقَسْطا بن لُوقا ، وعن الفارسية آل نُوبَخْت (موسى ويوسف) وعن الهندية منكه وابن دهن .

ثم فترت الترجمة فى أيام المعتصم لأنه لم يكن له فى العلم نفوذ المأمون ، وعناية الرشيد فسكنت ريحها ولم يكن من غيره عناية بها لأن الناس تبع لملوكهم فيما يقبلون عليه ، أو ينصرفون عنه من الأمور . فلما كان عصر الواثق ، وكان ذكيا ذا ولع بالآداب والعلوم حتى كان يقال له المأمون الأصغر ، نشطت الترجمة فى أيامه ولكنها كانت فى نوع خاص هو الأسمار والخرافات . وذلك لأن استبداد الأتراك بدأ يظهر فى أيامه فكان يرى فى مطالعة الأسمار وسماعها أثرا فى التسلية وتزجية الوقت ، وقد ترجم له كتاب ألف ليلة وليلة (هزار أفسان) وقد عرفت حديثه فيما مضى .

ولما ولى المتوكل وكانت الآراء الفلسفية قد أثمرت ثمرها المكروه من الإلحاد والابتداع رأى أن يقضى على ذلك فاشتغل باحياء السنة ونهى عن الجدل ، ولم يمد إلى الترجمة يداً إلا ما كان من العلوم النافعة كالطب فقد نقل له حنين بن إسحق وأصطفان بن باسيل وموسى بن خالد كتباً لجالينوس كما نقل أصطفان كتابا فى النبات لديسقوريدس اليونانى .

وكان من مقاومة المتوكل للبدعة أن حجر على أهل الذمة وألزمهم أموراً فيها كثير من الاستخفاف بهم كلبس الزُّنَّار والطيالسة العسلية ونهى عن تعليم أبنائهم فى مكاتب أولاد المسلمين، وحرمهم من أعمال الدواوين ، وكتب إلى الأمصار بهدم بِيَعهم وأبطل كثيراً من حقوقهم ، وذلك مالم يعهدوه فى سعة صدر الإسلام وحسن رعايته لمن دخلوا فى حكمه ، ولعل المتوكل عذرا فى إرادته القضاء على ما راعه من تبديل الناس للشرع ، وجَدَلهم فيه بالباطل ، وأن هؤلاء النصارى كانوا الأيدى العاملة غالباً فى ترجمة ما جرّ على المسلمين هذه المصائب ، فعاملهم هذه المعاملة ليقضى على فتنة ناجمة قبل أن يكون منها القضاء على الدين .

ويعد عصر المتوكل آخر عهد المسلمين بالترجمة معزوّة إلى الخلفاء .

نقل العلم لغير الخلفاء

لما عرف الناس رغبة الخلفاء فى نقل العلم جروا فى ميدانهم وساروا على نهجهم والناس فى كل عصر مقلدون لملوكهم، يتفانون فيما يحبون، ويحرصون على ما إليه ينزعون، لذلك رأينا كثيراً من غير الخلفاء اعتنى بنقل العلوم وبذل فيها عن سعة. وأول من يذكر فى هذا المقام هم البرامكة الذين لم يكن ينقصهم من عظمة الخلافة إلا اسمها، وقد كان لهم فى الدولة الشأن الأول، ووصلوا فى نفوس الناس إلى المنزلة التى لا يسمو إليها إلا الخلفاء، وقد يذكر بعدهم كثيرون من بيوتات المجد أمثال أولاد شاكر الذين جدّوا فى طلب العلوم القديمة، وكان لهم فيها نفاذ، فكان محمد بن موسى بن شاكر وافر الحظ فى الهندسة والنجوم، وسائر الرياضيات، وأخوه أحمد كان ماهراً فى الحيل (الميكانيكا)، وأخوهما حسن كان متفرداً بالهندسة، له فيها طبع لا يدانى، وقد خدم هؤلاء الإخوة تلك العلوم بتحصيلها، وكذلك بذلوا الرغائب فى سبيل نقلها إلى العربية، وكان من جملة من أنفذوه للبحث عن الكتب إسحاق بن حنين، وكانوا ينفقون على الترجمة فى الشهر خمسمائة دينار، ومن المترجمين لهم إسحاق، وحبيش، وثابت ابن قرة.

ومن آثار غرامهم بتلك العلوم أن أخرجوا مؤلفات كثيرة فى الطب والحيل والهندسة، وهم الذين حققوا للمأمون أن محيط الأرض طوله ٢٤٠٠٠ ميل، وذلك أن المأمون رأى فى الكتب المترجمة أن محيط الكرة يبلغ طوله ماذكرنا فأراد أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بنى موسى المذكورين عنه فقالوا هذا أمر قطعى، فطالبهم بالتحقيق فخرجوا إلى صحراء سنجار، وهى فى غاية الاستواء، وأخذوا معهم جماعة ممن يثق بهم المأمون ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة فلما كانوا بتلك الصحراء أخذوا ارتفاع القطب الشمالى ببعض الآلات وضربوا فى ذلك الموضع وتدا وربطوا فيه حبلا طويلا ثم مشوا إلى

الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف حتى كان ماقاسوه من الأرض ٦٦ ٢/٣ ميل ، ثم أخذوا ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد درجة على الارتفاع الأول ، ثم فعلوا مثل ذلك متجهين من الوتد الأول إلى جهة الجنوب حتى انتهى مثل القياس الأول وقاسوا ارتفاع القطب فوجدوه قد نقص درجة عن ارتفاعه الأول . ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ٣٦٠° و بضرب هذه الدرجات فى حصة الدرجة الواحدة من سطح الأرض وهى ٦٦ ٢/٣ ميل نتج أن محيط الأرض هو أربعة وعشرون ألف ميل كما ورد فى كتب العلوم ثم عادوا ففعلوا ذلك فى نواحي الكوفة فتوافق الحسابان فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء .

وممن بذل فى نقل العلوم من غير الخلفاء أيضاً محمد بن عبد الملك الزيات ، كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ ألفى دينار فى الشهر ، وقد نقل باسمه عدة كتب ، ومنهم أيضاً على بن يحيي المعروف بابن المنجم ، وكان من كتّاب المأمون ، ومنهم ابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب ، وكان حريصاً على نقل كتب اليونان .

إحصاء الكتب المترجمة

يطول بنا القول لو عمدنا إلى ذكر الكتب التى نقلت إلى العربية فى جميع أدوار الترجمة منذ عهد المنصور إلى أن فترت فى أواخر أيام المتوكل ؛ على أنه لا فائدة من تعداد هذه الكتب ، فإن أكثرها قد ذهبت به الحوادث ، ولكننا فى سبيل الدلالة على مجهود العرب فى هـذا المقام نستطيع أن نحصى مايستطاع إحصاؤه من الكتب بحسب أنواعها وأشخاص مؤلفيها .

ففى الفلسفة نقل ثمـانية كتب لأفلاطون ، وتسعة عشر لأرسطاليس غير كثير من شروح لتلك الكتب ، وغير كتب أخرى لمؤلفين لا تعرف أسماؤهم .

وفى الطب نقل عشرة كتب لأبقراط ، وأربعة وستون لجالينوس ، وهذا غير

كتب فى الطب ذكرها صاحب الفهرست ، ولم يذكر ناقليها . هذا إلى كتب أخرى فى الرياضيات والنجوم وسائر العلوم ، وهذه الأنواع كلها مترجمة عن اليونانية .

أما الكتب التى ترجمت عن غير اليونانية فهى عن الفارسية نحو عشرين كتابا فى التاريخ والأدب ، ونحو ثلاثين عن اللغة السنسكريتية ، وأكثرها فى الرياضيات والطب والنجوم ، ونحو عشرين عن السريانية والنبطية ، وأكثرها فى السحر ، والطلسمات ، وهناك بضعة كتب نقلت عن اللاتينية والعبرانية والمصرية .

وقد ضاع أغلب هذه الكتب ولم يبق منها إلا القليل ، فمن ذلك كتاب المجسطى لبطليموس ترجمه الحجاج بن يوسف ؛ وكتاب (السياسة فى تدبير الرياسة) ترجمه يوحنا البطريق ، وكتاب (المدخل فى الطب) ، وكتاب (النواميس) لحنين ابن إسحاق ، وكتاب منطق أرسطو) لإسحاق بن حنين ~~بن حنين~~ بن إسحاق السابق الذكر ؛ وكتاب (الفلاحة اليونانية) لقسطا بن لوقا نقله عن السريانية ، وقد طبع بمصر ؛ وأغلب هذه الترجمات مشتتة فى مكتبات : ليدن ، وبرلين ، وأسبانيا .

إهمال الأدب اليونانىّ فى الترجمة

يلحظ الباحث فى موضوعات الترجمة فى العصر العباسى أنها شملت كل شىء من علوم الأمم وآدابهم خلا الآداب اليونانية من شعر وقصص ، وذلك أمر يسترعى النظر. والسبب فيه ظاهر وهو أن العرب إنما نقلوا العلوم التى عرفوا قدر الحاجة إليها من طب وصيدلة ، وهندسة وكيمياء وما إلى ذلك مما كان ينقصهم فى مدنيتهم ، فأما الشعر والخيال فهم فيه مُجَلُّون ولهم منه تراث تليد من العصر الجاهلى وكسب طريف أحدثوه بعد إسلامهم فهم لم يعدلوا بالشعر شيئاً ثم هم من الاعتداد بأنفسهم والسموّ بلغتهم فى المكانة التى لا يظنون أن أحدا يدانيهم فيها فلم تكن بهم حاجة إلى خيال اليونان وقصصهم ، والآداب خصوصا تتباين فيها أذواق الأمم ، فلو أن العربى أراد أن يترجم

أدب اليونان لمحض اللذاذة والاستمتاع به ؛ فإنه غير واجد فيه ما يسره ، لأنه لم يألف إلا خياله ولم يعتد إلا ما يمليه عليه ذوقه .

أما نقل آداب الفرس والهند فذلك راجع فى جملته إلى أن النقلة من هذه اللغات لم يؤمروا بذلك من قبل الخلفاء ولكنهم تزيدوا به من عند أنفسهم ليظهروا فى العربية فضل لغتهم ولعلهم أرادوا بذلك مسرة الأمراء من الفرس فيما نقل من الفارسية فهم طبعاً يحنون إلى لغتهم ويشغفون بآدابها ، وإذا كانوا يقرءونه فى الفارسية فإنهم يرضون عن نقله إلى العربية حتى يكون لأبنائهم اتصال بلغة آبائهم . كذلك يقال فى اللغة الهندية إنه اتفق وجود تراجمة تبرعوا بنقل هذه الآداب ورأوا أنها لشرقيتها تمازج الخيال العربى ولا تجافيه ، وهناك أمر جدير بالاعتبار يحول دون ترجمة الأدب اليونانى وهو بناؤه على الوثنية وتأليه الكواكب والقوى الكونية ، والعرب يفرون من الوثنية ويمقتونها لأن دينهم إنما جاء لمحاربتها . فهذا سبب ذاك .

أثر الترجمة فى حضارة العرب

لقد ظهر أثر هذه الترجمة عاجلاً فإنه فى أوائل عهدها استطاع الرشيد أن يطرف ملك الروم بساعة دقاقة متحركة بالماء ، فلما رآها رجال شرلمان ظنوها آلة سحرية ووقعوا فى حيرة حتى هموا بكسرها . وقد مر بك أنهم فى عهد المأمون استطاعوا التحقق من طول محيط الأرض . كذلك عملوا فى زمنه أرصاداً وأزياجًا[1] فلكية وحسبوا الكسوف والخسوف ، ورصدوا الاعتدال الربيعى والخريفى ، وقدروا ميل منطقة فلك البروج .

وقد تعددت المراصد فى نواحى المملكة العربية : منها مرصد بغداد المنشأ على

(١) الأزياج : جمع زيج وهو حساب حركات الكواكب للوقوف على أوقات شروقها وغروبها وهو ما يراد الآن من لفظ (تقويم) .

قنطرتها وقد رصدت به عدة أرصاد ، ومرصد المراغة الذى أنشأه نصر الدين الطوسى بأمر هولاكوخان ، ومرصد سمرقند الذى أنشأه تيمورلنك ، ومرصد دمشق الذى أنشأه حفيد تيمورلنك ، ومرصد جبل المقطم الذى أنشأه ابن يونس الفلكى صاحب الزيج الحاكمى .

وكذلك كان من آثار الترجمة غير ما مر أن كشف العرب قوانين لثقل الأجسام مائعها وجامدها وبحثوا الجاذبية وقالوا بها واخترعوا مذبذب الساعة (البندول) اخترعه يونس بن حبيب المصرى . وكان أبو الحسن الجوهرى أول من وضع مبادئ الضوء وفسر أسباب انعكاسه على النجوم . وكذلك عملوا بيت الإبرة « البوصلة البحرية » وقالوا بكرية الأرض ودورانها على محورها ، واخترع أبو نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ آلة الغناء المسماة بالقانون ، كما كان لأبى بكر الرازى المتوفى سنة ٣٢٠ هـ ولع بالعلوم الحكمية وخصوصا علم الكيمياء ، وقد توصل إلى تركيب زيت الزاج المسمى الآن « الحامض الكبريتى » باستقطار « كبريتات الحديد » التى كان يعرف تركيبها ، ويسميها الزاج الأخضر ، وكذلك استحضر الكحول « السبرتو » باستقطار مواد نشوية وسكرية متخمرة ، وقد اعترف الإفرنجة بأن العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة المسمى الآن « حامض النتريك » وماء الذهب المسمى « النيترو هيدروكلوريك » وكشفوا البوتاسا ، وروح النوشادر وملحه ، وحجر جهنم المسمى « نترات الفضة » والسليمانى المسمى « كلوريد الزئبق » والراسب الأحمر المسمى « اكسيد الزئبق » وقد أشار ابن الأثير إلى مركبات إذا طلى بها الخشب امتنع احتراقه وقد استخدمها العرب فى واقعة الزنج سنة ٢٦٩هـ وهم أول من وصف التقطير، والترشيح والتصعيد والتبلور والتذويب .

وفى كتاب : (ميزان الحكمة) الذى نقله أحد الأوربيين عن العربية بحوث فى وزن الجسم فى الهواء وما يطرأ على وزنه من التغير تبعا لتغير كثافة الهواء ، وذلك يدل

على أن العرب كانوا يعلمون أن قاعدة ارشميدس عامة ، وليست مقصورة على السوائل بل تشمل الغازات أيضاً . ومن هنا يتضح أن العرب كانوا يفهمون أن الهواء الساخن يرتفع لأنه مغمور بوسط أكثر كثافة منه لا لأنه استفاد شيئاً من طبيعته العلوية كما يقول أرسطو . وفى الكتاب السابق بحث فى مركز الثقل واتزان الميزان ، وفيه يعزى سقوط الأجسام إلى تأثير قوة تجذبها نحو الأرض .

وكان لابن الهيثم المصرى أثر فى علم الضوء كبير ، فقد أثبت أن خطوط الضوء تصل من المرئى إلى العين ، وأبطل نظرية أفلاطون و إقليدس التى كانت تقول بالعكس، مما يدل على أن ابن الهيثم كان يعرف تركيب العين معرفة مبنية على التشريح والاختبار ، وقد بحث ابن الهيثم أيضاً فى انكسار الأشعة عند مرورها فى طبقات الهواء واستنبط من ذلك أن النجم الذى ترقبه العين يظهر فى موضع غير موضعه الحقيقى ، وأن الشمس تظهر على الأفق قبل وصولها إليه فعلا ، وكذلك يبقى شعاعها بعد غروبها.

وكان الأقدمون ينظرون إلى الكيمياء نظرة خيالية فأظهر العرب استحالة ذلك و بحثوا فى الكيمياء الحقيقية وهى تركيب الأجسام من عناصر وتحليلها إليها .

ومن آثارهم العظيمة أنهم كانوا السبب فى نقل الأرقام الهندية إلى سائر أقطار العالم ، فالعرب يسمونها الهندية والإفرنجة يسمونها العربية . وأول من تناول هذه الأرقام من العرب هو أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى ، كذلك أخذ الإفرنجة علم الجبر عن العرب ونقلوه باسمه العربى . وكان أول من تكلم فى هذا العلم هو ديوفنتوس الإسكندرى من أهل القرن الرابع للميلاد ولكن بحثه فيه كان بحثاً أوليا . أما العرب فهم واضعو قواعده الأساسية التى صار بها علماً مستقلا فهم بالنسبة لديوفنتوس كعبد القاهر الجرجانى أو السكاكى مثلا بالنسبة إلى من تكلم قبلهم فى علوم البلاغة ولم يتناولوها إلا من أطرافها .

وفى الطب أحدثوا فى العلاج وسائل لم تكن معروفة قبلهم وقد وافق عليها من

جاء بعدهم فقد عالجوا الفالج بالفصد والنزيف بصب الماء البارد ، واستعملوا المرقد (البنج) فى العمليات الجراحية، وكتب أبو بكر الرازى فى أمراض الأطفال، وله كتاب بهذا الأسم ، وألف كذلك فى الجدرى والحصبة ، ومن الأقوال المأثورة التى تدل على فضل العرب فى الطب قولهم : إن الطب كان معدوما فأحياه جالينوس ، وكان متفرقا فجمعه الرازى ، وكان ناقصاً فأكمله ابن سينا .

أما الصيدلة فإنهم أول من ألف فى الأقرباذين على النمط المعروف الآن، وأول من أقام حوانيت الصيدلة على وضعها الحاضر .

وقد كان للعرب أثر عظيم فى علم تقويم البلدان ، فقد طافوا البلاد ، ورسموا الأقطار ، ووصفوا أحوالها ، وطبائع أهلها وهيئاتهم ومللهم وصوروا الكرة الأرضية ، وعليها الأقاليم السبعة مبيّناً عليهاعامرها وغامرها وخلجانها و بحارها . فعل ذلك الشريف الإدريسى سنة ٥٤٨ هـ . وقد كان الطواف ديدن كثير من العلماء اختبروا البلاد بأنفسهم ولم يتكلوا فى حقائقهم التى سجلوها إلا على ما رأوا رأى العين واختبروه اختبار المحقق . ومنهم عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ الذى قدم مصر ووصف الأهرام. والسائح الهروى المتوفى سنة ٦١١ هـ الذى يقال إنه لم يترك برا ولا بحرا ولا سهلا ولا جبلا يزار إلا قصده ، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه فى حائطه ، وقد ذكر ابن خلكان أنه شاهد ذلك فى البلاد التى رآها حتى صار مضرب الأمثال . قال الشاعر :

١

أَوْرَاقُ كُدْيَتِهِ فى بَيْتِ كلِّ فَتًى ‍ ‍ ‍ على اتفاق معانٍ واختلاف رَوِى

قدطبّقَ الأرضَ من سَهْلٍ ومن جَبَلٍ ‍ ‍ ‍ كأنه خَط ذاك السائح الهرَوِى

⁂

وإذا عددنا فلاسفة الإسلام، وذكرنا لكل آثاره خرجنا إلى الاطالة التى لا يسمح بها كتاب ككتابنا، ويكفى أن نشير إلى أنه نبغ من المسلمين فى عصور متفاوتة أمثال أبى يعقوب يوسف الكندى العربى الصميم الذى يتصل آباؤه بملوك كندة، وقد عاصر المأمون والمعتصم، والواثق والمتوكل، وبرع فى علوم الطب والحساب والمنطق، والألحان، والهندسة، والنجوم، وألف أكثر من مائتى كتاب ولم يبق منها إلا كتاب فى إلاهيات أرسطو، ورسالة فى الموسيقا وهما بمكتبة برلين، ورسالة فى معرفة قوى الأدوية المركبة، وهى فى مكتبة منش، وكتاب فى علة اللون اللازوردى الذى يرى فى الجو، وكتاب فى المد والجزر، وهما فى أكسفورد وغير ذلك.

ومن فلاسفة الإسلام أبو نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ، وهو محمد بن طرخان، وأصله من فاراب ببلاد الترك ولكنه نشأ بالشام، وقد فاق الكندى فى كثير من علومه وألف فيما لم يسبق إليه ككتاب (السياسة المدنية) وهو من قبيل الاقتصاد السياسى الذى يظن أنه من آثار التمدين الحديث، وله كتاب (إحصاء العلوم)، وهو من قبيل الموسوعات لاشتماله على عدة علوم، وله كتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) وله غير ذلك.

ومنهم أبو بكر الرازى المتوفى سنة ٣٢٠ هـ، وقد مر بك كثير من استنباطاته فى علم الكيمياء، وقد خلف أكثر من مائتى كتاب كما فعل الكندى، ومن هذه الكتب كتاب (الحاوى) فى الطب، وهو أجل كتبه وأعظمها، وكتاب (الحصبة والجدرى) وكتاب (برء الساعة) «الاسعاف».

ومنهم الرئيس ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ، وهو من المتفردين بسعة العلم وقوة العقل تزيد مؤلفاته على مائة. ومن كتبه الباقية فى الطب (القانون) وهو فى أربعة عشر

جزءا وهو مطبوع بمصر (والشفاء) وهو ثمانية عشر جزءا مطبوع على الحجر ببلاد فارس ، وبدار الكتب الملكية بمصر نسخة منه . وقد ألف فى غير الطب فى الفقه والتوحيد واللغة والمنطق ، وله قصيدته المشهورة فى النفس وأولها :

هبطت إليك من المحل الأرفع   ورقاء ذات تدلل وتمنع

ومن العلوم التى لم يسبق إليها العرب ولم يصل إلى مثلها أهل التمدين الحديث إلا بعد نضج تمدينهم فى القرن الماضى علم (تدبير المنزل) وقد حدوه بأنه معرفة اعتدال الأحوال المشتركة بين الرجل وزوجته ، وأولاده وخدمه ، وطريق علاج الأمور الخارجة عن الاعتدال ، وعلم السياسة ، وقد كانت عندهم شرعية ومدنية ، وألف فيها على جمالها أبو زيد البلخى كتابين ، وألف فى السياسة المدنية أبو نصر الفارابى — ومن أهم الكتب فيها (سلوك المالك فى تدبير الممالك) ألفه ابن الربيع للمستعصم آخر الخلفاء العباسيين — وكذلك ألفوا فى الاقتصاد وتدبير المال ، ومن ذلك كتاب (الإشارة إلى محاسن التجارة) للشيخ أبى الفضل جعفر بن على الدمشقى ، ولا يعرف تاريخ وفاته ولكن يرجح أنه عاش فى العصر العباسى — وفى الكتاب فصول فى تعريف المال وأنواعه وطرق تثميره والكشف عن رديئه وفاسده ومعرفة الأحجار الكريمة والأفاويه والأنسجة والأبسطة — ومن ذلك أيضاً كتاب (الجواهر وأصنافها) لمحمد بن شاذان الجوهرى ألفه للمعتضد المتوفى سنة ٢٧٩ هـ وهذه الكتب غير معثور عليها إلا كتاب الاشارة فإنه مطبوع بمصر .

ونرى فى هذا القدر كفاية وإن كان فضل العرب فى هذا الباب يعز عن الاستيعاب .

اثر الترجمة فى اللغة العربية

لقد كانت ترجمة العلوم سبباً فى اتساع اللغة من ناحيتين ضربنا لك أمثلة لواحدة منهما فى أبواب سابقة وتلك هى الألفاظ التى عربت من اللغات الفارسية واليونانية والهندية وغيرها .

أما الناحية الثانية فهى ناحية وضع اللفظ العربى للمدلول الذى أرادوا نقل معناه — وقد وجد العرب من لغتهم ليناً واتساعاً ومطاوعة فى هذه كما وجدوا ذلك فى الناحية السابقة فيحسن بنا فى محاولتنا جعل العربية اليوم لغة العلم كما هى لغة الدين والأدب أن نعوّل على الناحيتين فنستفيد من محاسنهما ونبرهن على أننا نتقيل أسلافنا فيما انتحوه فى خدمة هذه اللغة الشريفة .

ومن المصطلحات التى وضعها العرب قولهم فى فنون الطب مثلا : الكحالة «طب العيون» . الصيدلة . التشريح . الجراحة . التوليد ، وقولهم فى اصطلاحات عامة فيه : الرطوبة . المزاج . الحار . البارد . الجاف . اليابس . السوداء . الصفراء . البلغم . التخمة . الإنذار . النبض . الهضم . البحران . الإمساك . وقولهم فى وصف الأدوية : مرطب . ملطف . محلل . منضج . مخشن . هاضم . أكال . لذاع . مبرد . مقوّ . مخدر . قابض . مسهل . مدرّ . معرق .

وقولهم فى مصطلحات الفلك والرياضة : الزيج . الفلك . الرصد . التعديل . المماس المخروط . المثلث . المربع . شبه المنحرف . الدائرة . القوس . الوتر . الزاوية . (قائمة . حادة . منفرجة) .

ومن الاصطلاحات الفلسفية : العرض . الجوهر . الموضوع . المحمول . المقتضى . المانع . التصور . التصديق . الشكل . القياس . الماهية . الهُوّية . الكمية . الكيفية . اللانهائية . اللاضرورة . الدور . التسلسل .

وقد زادت المصطلحات العلمية حتى اضطروا إلى وضع معاجم لها ، ومن أشهر تلك المعاجم كتاب (التعريفات) للجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ ه ، و (كشاف اصطلاحات الفنون) للتهانَوِىّ المتوفى سنة ١١٥٨ه و (كليات أبى البقاء) وغير ذلك .

هذا إلى ما نال الأسلوب من تغير ، فقد كثر فيه استخدام فعل الكون والبناء للمجهول والفصل بالضمير الغائب وصوغ المصادر الصناعية ، وهى التى تكون بزيادة ياء النسب على اسم الذات فيصيرها مصدرا مثل : المائية . الكيفية . الكمية .

ولقد كان لتطبيق قواعد المنطق واستعمال أقيسته أثر فى تضييق الأساليب ، فقد أصبح المتكلم مقيدا بالإتيان بالمقدمات ، ووصلها بالنتائج بصورة تكاد تتحد فى كل تدليل ، فضاقت بذلك الأساليب بعد أن كان المتكلم يتلاعب باللفظ ، ويقلب الكلام على وجوهه ماشاء .

وبكثرة المصطلحات ودقة دلالتها أصبحت لغة العلوم لا يفهمها إلا أصحابها ، وأصبحت معرفة المعانى اللغوية لاقيمة لها فى فهم أساليب العلوم حتى لقد ألفوا معاجم للمصطلحات العلمية إلى جانب المعاجم اللغوية .

حياة ابن المقفع

نسبه : اسمه روزبة بن داذويه ، ويكنى أبا عمرو ، ثم تسمى بعبدالله ، وكنى بأبى محمد بعد أن أسلم كما سيأتى

وهو فارسى من أهل غورستان المعروفة باسم الأهواز ، وهى قريبة من البصرة .

نشـــأته

ولد ابن المقفع بالبصرة سنة ١٠٦ هـ ، ونشأ بها فى ولاء بنى الأهتم ، وكان أبوه قد ولى للحجاج خراج بلاد فارس ، فاحتجن شيئاً من مال السلطان فضربه الحجاج حتى تقفعت يده (تشنجت) فلقب من ذلك الحين بالمقفع ، وكل الموالى فى عهد الأمويين كانوا مضطهدين ليس لهم فى الدولة جاه لأن الأمويين بنوا سياستهم على الغض من شأنهم والزراية بهم ، فكان هؤلاء يتقربون إليهم بالفضل ، ويلتمسون لديهم المنزلة بالأدب ، وحذق العربية . لذلك حرص المقفع على تنشئة ابنه أحسن تنشئة ليخرج صالحا لخدمة هؤلاء الخلفاء أو أهل بيتهم أو ولاتهم ، ولا يتذرع متذرع إلى ذلك إلا بالعربية يدرسها ، فيروى الشعر ، ويحفظ الخطب ، ويقرأ القرآن ، ويضم إلى ذلك معرفة الحساب وغيره مما يحتاج إليه الكاتب فى هـذه الأيام . وتستطيع أن تعرف منهج هذه الدراسة من مراجعة وصية عبد الحميد بن يحيى للكتاب ، فمنها تعلم حاجة الناشئ الذى يلتمس الرزق من عمله فى الكتابة .

وقد كانت نشأة ابن المقفع فى البصرة وولاؤه لبنى الأهتم سببين لهما أثرهما فى بلاغته وما صار إليه من تصدر فى حلبة البيان .

فالبصرة هى ذاك البلد الذى أنشأه عمر بن الخطاب سنة ١٤ هـ بين ريف العراق وصحراء العرب ، فهوت إليه أفئدة كثير من القبائل العربية وخصها الله بقوم كانوا فى الفصاحة مجلين . فكانت البصرة منذ قديم مثابة الرواة ومجمع الأدباء ومنبت الشعراء ، وبها أقيم المربد فكان خلفاً لعكاظ . وعرف من علماء البصرة ، وشعرائها ، ومحدثيها ورواتها كثيرون هم قادة أهل العربية وجلة رجالها . فكان من علمائها النحويين أبوالأسود ، وابن أبى إسحق الحضرمى أول من علل النحو ، وعيسى بن عمر الثقفى أول من ألف فيه ، وسيبويه أول من جمعه فى كتاب ، وكان من رواتها الأصمعى وأبوعبيدة وخلف ، ومن متكلميها واصل، وإبراهيم بن سيار النظام، والحسن البصرى وابن سيرين. ومن شعرائها بشار، وصالح بن عبد القدوس، وسلم الخاسر، وأبونواس .

ولا بد أن ابن المقفع تلمذ لجلة العلماء من البصرة وإن كان المؤرخون لم ينصوا على أحد من معلميه إلا على أبي الجاموس ثور بن يزيد الأعرابي كان يفد إلى البصرة وعنه أخذ ابن المقفع الفصاحة . هكذا روى ابن النديم . ولكن فضل ابن المقفع يجعلنا نقول إنه لم يترك علماً إلا عرفه ولا شاردة أو واردة فى اللغة إلا وقف عليها فإن فضله يستلزم ذلك . ويكفى أن نقول إنه وزن بالخليل بن أحمد فقال محمد بن سلام سمعت مشايخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولم يكن في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع .

تقلبه فى عمله

ولما عرف فضل ابن المقفع وظهرت له فى الكتابة مخايل حرص الناس على الانتفاع بمواهبه فاتخذه داود بن يزيد بن هبيرة كاتباً له. وكان داود مع أبيه يزيد الذى كان والى العراق من قبل مروان بن محمد، فلما قتل مروان امتنع يزيد على بنى العباس حتى أمنه المنصور ثم قتله . وبذلك انتهى عمل ابن المقفع فى الدولة الأموية ولكننا لا نجد له بين آثاره شيئاً لما كان قد كتبه عن داود .

فلما أظلته الدولة العباسية أبى فضله إلا أن يعتز به هؤلاء كما اعتز به أصحاب الدولة السابقة ، فقد اتصل بأعمام المنصور فكتب لعيسى بن على أيام ولايته على كرمان وقد أسلم على يده . وتأدب عليه بعض أبناء إسماعيل بن على . ثم كتب لسليمان بن على فى ولايته على البصرة وأعمالها ، وقد دامت له هذه الولاية من سنة ١٣٣ إلى سنة ١٣٩ ه حتى عزله المنصور وولىَ محله سفيان بن معاوية الذى كان على يده قتل ابن المقفع .

وفى أيام اتصاله بأعمام المنصور وصلت شهرته إلى الخليفة فانتفع به فيما أراد من نقل علوم الفرس إلى العربية ؛ فقد وجد فيه فارسياً أضاف إلى معرفته للغته حذق

العربية مع ذكاء متوقد وهمة عالية فترجم له شيئاً ووضع شيئاً ، ولكن ذلك لم يمنع المنصور أن يوعز بقتله أو يسكت عنه لأسباب سنذكرها على حدة .

ديانة ابن المقفع

كان ابن المقفع كما كان أبوه زُرَادُشْتِيًا ، وتلك ديانة تنسب إلى بنى الفرس زرادشت الذى كان له كتاب يسمى الإيستاق ، وقد عامل العرب أهل هذه الديانة معاملة أهل الكتاب . والمشهور من تعاليم زرادشت أنه يقول بأصلين وهما أهورا وهو أصل الخير ، وأهرمن وهو أصل الشر . ولكل من هذين قدرة وتصرف ، فأهورا خلق كل نافع من حيوان ومادة ، وأهرمن خلق كل ضار من حيوان مفترس وحشرة مؤذية . والحرب سجال بين هذين الإلهين ، وأن المؤمن من ينصر إله الخير فيعمل على تعمير الدنيا ومقاومة إله الشر .

وهذه الديانة كانت معتقد الفرس عامة إلى الفتح الإسلامى ، فدخل فى الإسلام من دخل و بقى على دينه من بقى . وتلك الديانة هى التى حرفها «مانى» فرأى أن تغلب الخير على الشر فى العالم غير مستطاع ، فلذلك حرم الزواج وأوجب الصوم ، حتى يعجل الفناء إلى العالم ، وقد ذكروا أن هُرْمُزَ ملك الفرس اعتنق هذا المذهب فراج حيناً فلما خلفه بهرام وقتل مانى وشرد أصحابه بقيت تعاليمه .

وقد تفرع من ديانة رزادشت مذهب آخر وهو مذهب «مَزْدَك» وكان أيضاً يقول بالنور والظلمة (إله الخير و إله الشر) ولكنه يرى أن تعالج الحياة و يقضى على البغضاء ، و يرى أن وسيلة ذلك إباحة الأموال والنساء لأنهما سبب التباغض .

فهذه هى الديانة الزرادشتية فى أصلها وما تفرع منها ، وقد كان لهذه الفروع أتباع ولكنهم قليلون ، أما الأصل فقد كان عليه غالب القوم كما ذكرنا . وقد حكى

الإصطخرى أن بعض قرى كرمان كانت على مذهب مرذك طول عهد الدولة الأموية .

وبعد فهل كان ابن المقفع يتبع أصل الدين وتعاليمه المرتضاة لجمهور الفرس أم يجنح إلى شيء مما جدّ فيها من فساد وسوء تفسير . ولكن يظهر من حسن سمت ابن المقفع ووافر أدبه أنه إنما كان يتبع أصل الديانة ولم يكن يتطرف بما جد فيها من مذاهب تنافى النظام وتضاد أصول الاجتماع فإن ذلك لا يقر عليه من يدين به خصوصاً فى حواضر البلاد كالبصرة وبغداد مثلا .

أسلم ابن المقفع ولم يذكروا فى إسلامه أن أحداً حمله عليه أو رغبه فيه وذلك شأن المسلمين فى هذا العهد فإن اعتزازهم بأنفسهم واستغناءهم بكثرتهم لم يجعلهم يرون فى الإسلام قلة تحتاج إلى التكثير . وقد خدمهم جمهور من أصحاب الديانات الأخرى ، ونالوا جوائزهم ، واستحوذوا على رضاهم ، فلم نر أحداً من الخلفاء رغب إليهم فى الإسلام . وبقى هؤلاء على دينهم حتى ماتوا عليه فلم يكن ذلك بحائل دون وصولهم إلى ما أرادوا من الدولة . فهذه الشواهد تؤيد أن ابن المقفع لم يسلم بإيعاز ولا إلحاح ولم يدفعه إلى الإسلام طمع فى مادة أو قربى من أصحاب الدولة فقد كانت له هذه المزايا وهو على المجوسية .

فابن المقفع كان أحد هؤلاء الذين دلهم عقلهم وهداهم بحثهم إلى أن الدين الإسلامى هو أقوم سبيل إلى معرفة الله والاستحواذ على رضاه وأنه الوسيلة للنجاة فى الدنيا والآخرة .

لذلك نرى المؤرخين مجمعين على أن ابن المقفع قد رغب من ذات نفسه فى الإسلام حين كان كاتباً لعيسى بن على فاستمهله عيسى إلى الغد ليكون إسلامه بمشهد من المسلمين وليحتفل به فى جمع من القواد والرؤساء .

فلو أن إسلام ابن المقفع بتدبير وحمل ما رأينا عيسى بن على يعدّ ذلك مفاجأة ويطلب منه التمهل إلى الغد . ولما أسلم سمى عبد الله وكنى أبا محمد .

أما ماشاع عن زندقته وما انبنى عليها من قتله بيد سفيان بن معاوية فيصح أن يكون ذلك قد اتخذ ذريعة إلى قتله .

أستدل الناس على زندقته بأنه حين بات على نية الإسلام زمزم على الطعام فقال له عيسى ألست على نية الإسلام ؟ فقال أكره أن أبيت على غير دين . وأقول ربما حمله على ذلك العادة فلما أنكر عليه عيسى احتج بهذه الحجة وهو رجل تأبى له كرامته الأدبية وحصافته العقلية أن يبده بقول فما يحير له جوابا .

كذلك عدوا عليه أنه مر ببيت نار المجوس فتمثل .

يا بَيْتَ عاتكة الذى أَتعزَّلُ ۝ حَذر العِدَا و به الفؤاد مُوكَّلُ
إنِّى لأَمْنَحُكَ الصدود وإنَّنِي ۝ قَسَماً إليك مع الصدود لأَمْيَلُ

ونرى أن التمثل بالأبيات لا يكون حجة على ندمه لترك دينه فيكفى فى التمثل عموم المعنى وأنه فارق دينا إلى دين وهجره كما هجر الشاعر بيت محبوبته . فأما تطبيق جميع أجزاء المعنى فليس ذلك شرطاً لهم فى التمثيل .

على أن اعتبار الفكاهة فى ذلك أقرب منّ اعتبار الأسف على ما فاته من دينه وهو لم يضطر كما ذكرنا إلى الإسلام . وانظر كيف تلمسوا له المزالق فى قوله فى رثاء يحيى بن زياد .

رُزِئْنَا أبا عمرٍو ولا حَىَّ مِثْلُه ۝ فلِلّهِ رَيْبُ الحَادِثاتِ بِمَنْ وَقَعْ
فإن تَكُ قَدْ فَارَقْتَنَا وتَرَكْتَنَا ۝ ذَوِى خَلَّةٍ مافى انْسِدَادٍ لها طَمَعْ
لقد جَرّ نَفْعاً فَقْدُنَا لَكَ أَنَّنَا ۝ أَمِنَّا على كُلِّ الرَّزَايَا من الجَزَعْ

فعزوا ذلك إلى مذهب الزنادقة فى أن الخير مخلوط بالشر أخذوا ذلك من قوله (لقد جر نفعا فقدنا لك) وهذا بعيد جدا .

ولقد بلغ من حسد الناس له على فضله ورغبتهم فى الحط من شأنه أن ألف

بعضهم الكتب فى الإلحاد ونسبها إلى ابن المقفع ولكنها تدل بسخف عباراتها وضعة معانيها أن ابن المقفع برىء منها .

ومهما كثر من الناس اتهامهم له بالزندقة فإن هذه الكثرة لا تدل على حقيقة التهمة لما نعلمه من أن كثيرا من الناس يتبعون أول ناعق فهم فى ذلك إمّعات لا يستقلون بحكم .

والقول فى إسلام أمرئ أو نفاقه يخفى على المعاشرين المخالطين فكيف إذا طال العهد ؟ على أن كثيرا من متهمى ابن المقفع بالزندقة يحاسبونه على أمور أتاها قبل الإسلام وهو فيها غير ملوم إذ كان انما ينصر دينه . فإذا كان قد ترجم كتباً أو وضع حديثا عن رسول الله فكل ذلك قد جبه الإسلام فليس عدلا محاسبته عليه .

أسباب قتله

كان سليمان بن علىّ والياً على البصرة من قبل المنصور وقد خرج أخوه عبد الله ابن علىّ على الخليفة فحماه سليمان ولم يسلمه إلى أبى جعفر إلا بعد أن أمضى أماناً كتب صيغته عبد الله بن المقفع ، واشترط فيه شروطاً وأفرط فى الاحتياط لمولاه حتى لا يستطيع المنصور الغدر به ، فكان من الأمان قوله : (ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق ودوابه حبس وعبيده أحرار والمسلمون فى حل من بيعته) . ولما تمكن أبو جعفر من عبد الله سجنه وعزل أخاه عن البصرة وولى عليها سفيان بن معاوية وما فعل ذلك إلا ليغيظ سليمان بما فعل من حمايته لأخيه .

وقد ظهر من ابن المقفع اعتداء على سفيان وإهانة له ولا ندرى هل كان من هوان الرجل فى نفسه أو لأن ابن المقفع يرى من وفائه لأصحاب نعمته أن يحقر هذا الذى عورضوا به وخوّل ما كان لهم من جاه وعز .

ذكروا أن ابن المقفع كان يتنادر على سفيان ويسخر به فكان إذا دخل عليه (وكان سفيان كبير الأنف) قال السلام عليكما . وقال له يوما ما تقول فى رجل خلف زوجا وزوجة ؟ وقال سفيان يوما ما ندمت على سكوت، فقال له ابن المقفع الخرس زين لك فكيف تندم عليه ؟ فكان سفيان يقول والله لأقطعنه إربا إربا وقد فعل .

وقد حكوا فى قتله حكايات تختلف فى صورتها ولكنها تتحد فى شناعتها . ذكروا أنه ألقاه فى بئر وردم عليه بالحجارة ، وأنه أدخله حماما وأغلقه عليه حتى اختنق ، وأنه ألقاه عضوًا عضوًا فى تنور حتى أتى عليه ، وكان يقول ما علىّ فى هذه المثلة شىء فهو زنديق قد أفسد الناس . وقد كان قتله سنة ١٤٢ هـ فيكون قد مات وعمره ست وثلاثون سنة .

⁂

حقا لقد كثرت الزندقة فى هذه الأيام وراع الخلفاء أمرها ، ولكننا رأينا أنها قد اتخذت وسيلة لشفاء العداوات ، فكثيراً ما رأينا العداوة تنشأ بين وزير وشاعر فيتبعها قتل ذلك الشاعر بدعوى الإلحاد كما حصل لبشار حين هجا يعقوب بن داود وزير المهدى . فليس يبعد أن تكون ضغينة سفيان على ابن المقفع هى التى جعلته يصوغ له هذه التهمة فيقتله بها . وما أكثر ما تروج هذه التهم فى زمن تتجه فيه الأذهان إلى محاربة الزندقة ويعتقد الولاة والخلفاء أنهم يتقربون إلى الله بدماء هؤلاء الزنادقة .

وليس يبعد أن يكون تغير قلب المنصور على ابن المقفع لتشدده فى الأمان لعمه هو الذى جرأ سفيان على قتله . وقد ظهر أثر ذلك حين غضب سليمان وعيسى لقتله ، وقدم الشهود على المنصور للشهادة على سفيان فقال لهم أرأيتم إن قتلت سفيان به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت وأشار إلى باب خلفه وخاطبكم ماترون أنى صانع بكم أأقتلكم بسفيان ؟ فرجع

الشهود عن الشهادة ، ولاشك أن هذا تهاون من المنصور فى دم الرجل وما دعاه إليه إلا نصرة واليه على أعمامه وما سبق من حقد على ابن المقفع بسبب الأمان .

أخلاق ابن المقفع

لقد ذكروا عن ابن المقفع من حسن السَّمْت ، وتمام الخلق ، ودوام الوفاء ماجعله فى هذا الباب أصلا وعمدة ، وإذا كان شعر الشاعر أو كتابة الكاتب صورة لنفسه ودليلا على خلاله ، فإننا نجد فى كتابة ابن المقفع تمجيداً للفضيلة وإشادة بذكرها وإعظاما لشأن الصداقة وتعويلا عليها وحثا على الوفاء ودعوة إلى القناعة وترغيباً فى بسط المعروف وكف الإساءة ، يمثل ذلك أدباه الصغير والكبير ، وكذلك تمثل هذه النزعة فيما اختار من الكتب التى ترجمها واختيار المرء قطعة من عقله . فكتاب كليلة ودمنة كله أدب وحكمة كما تعرف فلا شك أن بين خلق ابن المقفع وآثار قلمه نسباً كبيراً . وما ندرى هل كانت هذه الأخلاق طباعاً فيه جعلته يلهج بذكرها ويحرص على نقلها للناس أم أن نشأته وتعلمه جعله بهذه المثابة من تمجيد الفضيلة والترغيب فيها لكثرة ما تأدب بذلك فى مطالعاته ودراساته .

ولكن الذى نقول إن دين ابن المقفع القديم ، وبناءه على نصرة الخير ، ومغالاة رؤسائه فى ذلك بل حصرهم الدين كله فيه ، وكذلك قراءته لآداب لغته ، وكلها مبنية على تمجيد الفضيلة والاتعاظ بالحوادث وضرب المثل ، واستنباط العبرة ، ثم ما أفاده أخيراً بالإسلام من هذا ، وهو فيه أعقل وأقوم قيلا ، كلّ ذلك مضافاً إلى طبع هادئ ونفس طيبة جعلنا نرى من ابن المقفع رجلا يؤثر على نفسه ، ولو كانت به خصاصة ، ويفدى صديقه بروحه لا يرائى ولا يداهن .

فأما ما روى عنه مما يؤيد هذه الشمائل فيه فهو كثير ، وأدله على تمكن الوفاء من نفسه ما ذكروا من أنه كان صديقاً لعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، فلما لجأ إليه عبد الحميد بالبحرين بعد قتل مروان ، وفاجأ الطلب عبد الحميد وهو معه فى بيت . قال الجند : أيكما عبد الحميد ؟ فقال : كل « أنا » ، وتلك الكلمة من عبد الحميد حقّ ، ولكنها من ابن المقفع وفاء لا حدّ له . وخاف عبد الحميد أن يسرعوا بأذى إلى صاحبه ، فقال : ترفقوا فإن فىّ علامات أعرف بها ، فوكلوا بنا بعضكم ويمضى بعض ليعود بهذه العلامات .

كذلك ذكروا أن سعيد بن سلم قصد الكوفة ، فلقيه ابن المقفع ورحب به وعلم منه أن به فاقة وأن ديناً ركبه ، فسأله : هل قصدت أحداً ؟ فقال له : أتيت ابن شُبْرُمة فوعدنى أن أكون مربياً لبعض أولاد الخاصة ، فقال ابن المقفع : أفّ ! ! يجعلك مؤدبا فى آخر عمرك . أين منزلك ؟ فعرفه إياه . فلما كان الغد قصده ابن المقفع فوضع بين يديه منديلا ، فإذا فيه أسورة مكسورة ودراهم متفرقة ، ومقدار ذلك أربعة آلاف درهم ، فأخذ سعيد هذه الهبة وعاد إلى البصرة واستغنى بها .

وقال ابن قتيبة فى عيون الأخبار : بلغ ابن المقفع أن جارًا له يبيع دارًا له بدين ركبه ، وكان يجلس فى ظلّ داره ، فقال : ما قمت بحرمة ظلّ هـذه الدار إن باعها معدما وبتّ واجداً ، فحمل إليه الثمن وقال : لا تبع . وحدثوا عنه أيضاً : أنه كان يطعم الطعام ويوسع على كلّ محتاج ، وأنه كان يجرى على بعض وجوه البصرة والكوفة ما بين خمسمائة درهم إلى ألفين فى كلّ شهر .

وكذلك كان فيه إلى جانب هذه الأمهات من الفضائل كمالات أخرى من الوقار وحسن السمت ورقة الشمائل .

علم ابن المقفع وبلاغته

بلغ ابن المقفع منزلة عالية من تقريب الملوك واعتمادهم عليه واستشارتهم له وتدبيرهم الملك برأيه كما فعل الأمراء والولاة الذين استكتبوه ، فقد كانوا إنما يصدرون عن رأيه، وكان بمثابة الوزير لهم فى عملهم . تدرك ذلك من إشراكه فى الرأى عند تسليم عبد الله ابن علىّ إلى المنصور والنزول على حكمه من التشدّد مع الخليفة وتوكيد الأيمان عليه . وقد فعل المنصور فى الاعتماد عليه والاستنامة إلى مشورته أكثر من ذلك ، فقد خوّل إليه وضع دستور يسير عليه فى حكم الرعية ، وذلك فى رسالة الصحابة التى عملها له ، وسنعرفك بها فى الكلام عن كتبه .

ولا يرتقى رجل إلى هذه المنزلة حتى يكون من حصافة الرأى وجودة الفكر بمثابة كبيرة . ولن يصل إلى هذا الرأى الحصيف والفكر الجيد حتى يكون قد تثقف بالعلوم وتحلى بالآداب ، فأثمرت فيه هذا الثمر الذى حرص عليه الخلفاء وولاة الأمور .

وإن حادثاً واحداً نذكره لك يكفينا مئونة التدليل على فضله والإشادة بذكره، وذلك أنهم قالوا : لم يكن فى العرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع . ولا فى العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع . وقد جمع بينهما عَبّاد بن عَبّاد المهلبى ، فمكثا ثلاثة أيام ولياليها يتحادثان ، فلما افترقا سئل الخليل عن ابن المقفع ، فقال : ما شئت من علم وأدب إلا أن علمه أكثر من عقله . وسئل ابن المقفع عن الخليل ، فقال : ما شئت من علم وأدب إلا أن عقله أكثر من علمه .

فهذه القصة كافية فى الدلالة على فضله فإنه لم يجمع بينهما إلا وهما فى الفضل متعادلان ، وبالرياسة فى العلم موسومان ، والخليل بن أحمد هو ما هو ! جَبّار من جبابرة العقول ، وفَذٌّ من أفذاذ الدنيا ، اخترع العروض ووضع طريقة المعاجم وهذب

الشكل فى الخط العربى ، فإذا قرن ابن المقفع به ، فقد قرن إلى إمام جليل ونادرة من فلتات الأيام . ثم تكون شهادة الخليل ، وهو بهذه المثابة من الفضل « إن ابن المقفع علمه أكثر من عقله » أعظم دليل على مكانة الرجل .

فلا بدّ أن يكون قد حاز علوم العصر ، وحوى الفضل الذى وزع فى الناس . وإن فى كتبه لدليلا أوضح على فضله ، فقد تكون هذه القصة مكذوبة أو مبالغاً فيها . فأما الأثر الباقى الذى تواترت الأخبار بنسبته إلى الرجل ، فهذا ما لا شكّ فى دلالته ولا أثر للمبالغة فى شأنه .

تدل مؤلفات ابن المقفع وترجماته على أنه كان يعرف المنطق ، وقد ترجم فيه « إيساغوجى » لأبى جعفر المنصور ، فكان أول من اعتنى فى الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية كما يقول القِفْطى صاحب كتاب أخبار الحكماء ، ومثل المنطق لا يستطيع الترجمة فيه إلا كلّ من فهمه وحَذَق مسائله . كذلك كان أوّل من اخترع فى العربية طريقة التدوين فى التاريخ بترجمته كتاب « خداينامه » فى سيرملوك العجم .

وأول ما عرفت العربية السمر الملهى والقصص المشتمل على الحكمة كان على يد ابن المقفع بترجمته كتاب : « كليلة ودمنة »، كذلك لم يكونوا قبله كتبوا فى الأخلاق ، فدلهم على ذلك بأدبيه الصغير والكبير وإن كان ما فيهما ليس بحثاً فى الخلق وبيان حدوده ، وطريق تربية النشء عليه ، ولكن عمله كان نواة انضمت إلى غيرها مما أنتجته الترجمة للعلوم ، فألف الناس فى الأخلاق بالبحث الفلسفى المعروف كما فعل ابن مسكويه .

ويكفى أن يكون ابن المقفع قائد الناس إلى المفاخر ودالهم على هذه المحامد التى كان لها فى اللغة وأهلها أكبر نفع .

أما بلاغة ابن المقفع فإننا نستطيع أن نَلْمِس أسبابها ونتائجها لمساً لا يدع شكا فى أن نصيبه منها كان عظيما وحظه كان وافرًا . فأسباب بلاغته هى نشأته فى البصرة أو

فى ولاء بنى الأهتم ، وتقدّم الزمن به إلى صدر القرن الثانى إذ أنه ولد فى سنة ١٠٦ هـ ومات سنة ١٤٢ هـ . فقد عاش فى شباب العربية ، وحضر شيوع الرواية ، وشافه الأعراب ، وصادف عناية الخلفاء من أمويين وعباسيين ، بأمر تلك اللغة ، فلا بدّ أنه نهل من العربية وعلّ حتى تملأ . ومما يدلّ على ذلك قوله : (شربت الخطب ريا ، ولم أضبط لها رويا ، فغاصت ثم فاضت ، فلاهى نظاماً ، وليس غيرها كلاماً) وأما نتائجها فهو ما تراه فى كتبه الباقية الآن ، وهى كليلة ودمنة ، والأدبان : (الصغير والكبير) ، ورسالة الصحابة .

إن البلاغة التى تلتئم مع كلّ ذوق وتروج فى كلّ جيل هى البلاغة الجديرة بالاعتبار ، ومن هذا النوع بلاغة ابن المقفع فإن كتبه وقد مرّ عليها ألف سنة أو تزيد ، لا تزال جديدة قد شغف الناس حبها على مدى الأيام ، فكان كتاب : كليلة ودمنة موضوع احتفاء العصور التى تلت وضعه إلى يومنا هذا ، ولا نجد هذه الميزة لكتاب حاشا القرآن الكريم وحديث رسول الله . ولا شك أن سرّا عظيما تشتمل عليه بلاغة الرجل هو الذى جعلها جديدة على الأيام مستحسنة مع تبدل الأذواق واختلاف الرغبات.

والذى نراه أن كتابة ابن المقفع تمثل أعلى طبقات البلاغة العربية . فإن العصر الذى عاش فيه هو الذى حاز هذه الفضيلة بجمعه بين الثقافة الفكرية وسلامة الملكة اللغوية . وإذا اجتمع للكلام معنى ولفظ فقد جمع الحسن من أقطاره ، وإذا كان ابن المقفع شيخ طبقته غير مدافع فهو لذلك شيخ كتاب العربية أوّلا وآخرا وغابرًا وحاضرًا .

تناول المعانى الحكيمة من كل موعظة حسنة ، وكلمةسامية ، وخلق فاضل ، ومثل سائر، وقصة رائعة ، فكان موضوع كتابته هولباب العلم ، وخلاصة التجربة ، وثمرة الحياة وهو جدّ ووقار ، وإرشاد وتأديب .

ولقد احتاجت هذه المعانى الشريفة إلى لفظ يكون موافقا وملائما لها وكفئا لشرفها.

فكان ابن المقفع أقدر الناس على هذه الملاءمة بما وهب من ذهن صاف وخاطر حادّ ورواية شحن بها ذهنه ففاضت كما يقول .

كان موضوع كتابته دقيقاً فهو حكمة وليس أدق من الحكمة ، ومثل وليس أحوج منه إلى حسن الوضع ، ومعان نفسية تخلق خلقاً على غير مثال سابق ، فهي من أجل هذا تحتاج إلى لفظ يوافقها فى دقتها، وقد وهب ابن المقفع المهل فى اختيار لفظه والتأنى لما ينشئ من عباراته حتى لقد كان كثير توقف القلم فقيل له فى ذلك فقال : «إن الكلام يزدحم فى صدرى فيقف قلمى لتخيره » ، فهو لاحبسة ولا حيرة ولا فقرا فى الأساليب يقف قلمه ولكن تتكاثر عليه سانحات الأساليب فيختار منها الجياد .

تنظر فى عبارته فتجد لفظاً قد جاء وفق المعنى لا فاضلا عنه ولا مفضولا ، وتجد الطبع قد أرخى له عنانه ، فجرى على سننه، لايلوى على سجعة يجتلبها ، ولا يحرص على فقرة يزاوج بها، ولا ينظر فى أعطاف الأسلوب لعله يحسنه بتجنيس أوطباق، فهو فى شغل عن كل هذا بتطبيق أصول البلاغة وذلك لا يكون فى رأيه إلا بتجلية المعنى و إيراده ضاحياً لايحول بينه و بين الفهم حائل .

لم يفعل ابن المقفع ذلك إلاوهو يدين بأن البلاغة الإبانة والإفصاح، فقد سئل عنها فقال : (البلاغة هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها) ، ولا يدخل فى وهم الجاهل هذا الظن إلا إذا رأى كلاما سهلا ومعنى جلياً فظن أنه قادر عليه ، وقد كان من لوازم هذا فى رأى ابن المقفع أن يترك الألفاظ الوحشية التى كان يتزيد بها بعض أهل زمانه و يظنونها من البلاغة ، فقد قال فى وصية لبعض الكتاب : (إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعاً فى نيل البلاغة فإن ذلك هو العى الأكبر) ولم تنته به الرغبة فى السهولة إلى أن يسف و يتبذّل ، فإن ذلك عيب لو صار إليه لم يكن أقلّ من عيب التكلف والتعمل ولكن الذى حفظ لكلامه الفضيلة ان كان سهلا متجافيا عن التقعير مترفعا عن الإسفاف .

ومن ذلك وصيته لـكاتب (عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة) .

فابن المقفع قد لاءم بين معنى حكيم ولفظ حكيم ، فاجتمع لكلامه الفضل ، وحوى كل نبل .

وقد جاءت آثاره شاهدا لاتبليه الأيام ، على أنه كان قوىّ الملـكة تام السليقة ، فلم يوقف له على غلطة ولم تؤخذ عليه نبوة ، والنبو فى الطباع مألوف ، والعثرات فى الألسنة متوقعة خصوصا من مثل ابن المقفع الفارسى الأصل الذى تزاحم العربية فى ذهنه لغة آبائه التى يجيدها ، ويحكم أصولها . وقد شهد له الأصمعى بالفضل فى هذا الباب فقال : (ما رأيت فيما كتب ابن المقفع لحنا إلا فى موضع واحد وهو قوله : العلم أكبر من أن يحاط به فخذوا البعض) . يريد أن كلمة بعض لا تدخل عليها أداة التعريف .

آثاره

لابن المقفع آثار كثيرة وأغلبها قد فقد ولـكن الباقى منها هو :

(١) الأدب الصغير . (٢) الأدب الـكبير . (٣) رسالة الصحابة .

(٤) اليتيمة فى طاعة السلطان . (٥) كليلة ودمنة .

فأما الأدبان : فهما من وضعه ، جمع فيهما ما وعاه قلبه من الحـكم ، وما استقر فى نفسه من كلام الفلاسفة ، وليسا ترجمة عن كتب فى الفارسية صادف فيها هذه الحـكم مجموعة فنقلها ، فهما أشبه شىء بملاحظاته فى الحياة ، وتجاربه من الأيام . والأدب الصغير منثور الحـكم ، مبعثر الأقوال ، لاارتباط بين أجزائه ، فقد تجد كلمة فى الصديق إلى جانب أخرى فى القناعة إلى ثالثة فى محاسبة النفس ، ثم يعود بعد ذلك إلى الكلام عن الصداقة ، أو أدب من آداب النفس سبق له القول فيه ، وكأنه إنما جمع أشتات هذه الحـكم من ذهنه ، ولم يحاول أن يجعل لها نظاما .

أما حكم الأدب الكبير فهى أقرب إلى التبويب . إذا أنه جعل الشطر الأول منه خاصا بالسلطان وأصحابه وولاته ومن اتصل بهم : ينهى فى ذلك عن خصال ، ويدعو إلى أخرى ، ويدل على أخلاق هؤلاء الحكام فى الغدر ، وطبيعتهم فى الإيقاع . والشطر الثانى من كتاب جعله للصديق والحاجة إليه ، ومتى يثق به المرء ، وما يطلب منه إلى غير ذلك .

وإذا أردنا أن نتبين عن أى ثقافة صدرا هذان الكتابان ، هل هما أثر لثقافة ابن المقفع الفارسية ، أو لثقافته العربية نرى أن من الظلم ادعاء أنهما لواحدة منهما دون الأخرى ، ففيهما : حكم فارسية ، وحكم إسلامية ، أو عربية . فالرجل مدين فيهما للثقافتين متأثر بالتهذيبين .

أما رسالة الصحابة : فقد أوردها صاحب كتاب المنثور والمنظوم ، وهو مخطوط بدار الكتب الملكية المصرية ، وقد نشرت فى مجموعة رسائل البلغاء ، وهى كما يفهم من قراءتها بحث فى أمور الدولة ، وما يجب أن يتبع فى سياستها ، وقد كتبها المنصور . تعلم ذلك ، وإن لم يصرح باسمه لأنه ترحم على أبى العباس السفاح ، فهى مكتوبة للمنصور الذى وليه فى الحكم ، ومات ابن المقفع فى أيامه .

تناول فيها الجند فأثنى على الخراسانيين ، وذكر أموراً فى استصلاحهم ، ودوام طاعتهم ، وجعل منها التعويل فى تقديمهم ، وإعلاء مراتبهم على الكفاية وحدها ، ودعا إلى تعليم الجند ، وجعل أعطياتهم فى أوقات محدودة لا تعدوها دفعا لقلقهم ، واستبقاء لمودتهم .

ثم تناول أهل العراق فأثنى عليهم ، وذكر أنهم عمود الدولة وبهم قام صرحها ، واتسقت أمورها ، ثم يستعطف الخليفة على أهل الشأم لأنهم من رعيته ، ويعتذر عن كراهتهم للعباسيين ، ويذكر الحيلة فى القضاء على هذه الكراهة بأن يصطنع الخليفة خيارهم ، فإنهم لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم من أهل الهوى فيتتابع الناس فى رضا الخليفة ، وتتم له طاعتهم .

ويتناول أمراً كان مفسدة للعدالة وذاهباً بطمأنينة الناس وذلك هو أمر القضاء الذى تعددت أحكامه وتناقضت حتى لقد صار القاضى فى جانب من الكوفة مثلاً يقضى فى مسألة بغير ما يقضى به الذى فى جانبها الآخر فى المسألة ذاتها وكلٌ يتبع رأيا وينتهى إلى أثر عن النبي أو عمل للصحابة . فأشار على المنصور بأن ترفع إليه الأقضية التى يختلف فيها القضاة مدعومة بأسبابها ينظر فيها الخليفة ويرجح مايراه ويدوّن ذلك ويأمر بالعمل به . ومعنى هذا أن يصبح للمسلمين قانون أحكام يتبعه القضاة فى جميع أنحاء المملكة الإسلامية . وهذا هو الذى انتهت إليه المدنية الحديثة ، وقد أشار به ابن المقفع منذ ألف سنة وتزيد .

وتناول الخراج وما فيه من فوضى، فقد فرضت على الأرضين فروض واحدة مهما بلغ اختلافها فى الجودة والخصب ، وفى ذلك غبن . وقد أشار بأن تمسح الأرض وينظر فى نوعها ومقدار صلاحيتها للزراعة ويفرض على كل نوع منها ما يناسبه ويدوّن ذلك فى سجلات الدولة فيرتفع بذلك الظلم ويقل من العمال والولاة احتجانهم للأموال .

كذلك تناول أصحاب السلطان وخاصة رجال « المعية » وذكر أن من حول أمير المؤمنين منهم قوم ليسوا من العلية فشرهم على الناس كبير، وأثرهم فى رأى أمير المؤمنين سيئ، فهم عيونه وآذانه فيجب أن يختارهم اختياراً حسناً ليكونوا أداة إصلاح بين الراعى ورعيته .

تلك هى رسالة الصحابة وهى كما ترى ثقافة فارسية صرفة احتاج إليها العرب فى تنظيم ملكهم فكان على يد ابن المقفع نقلها إليهم . ومن أجدر من الفرس بتعرّف هذه الأمور وقد كانوا أهل ملك سابق ودولة عظيمة وسياسة محكمة .

واليتيمة موضوعها طاعة السلطان (أبى جعفر المنصور) وحمل الناس على اتباعه هو وآل بيت العباس جميعاً لمكانهم من رسول الله . وقد طبع الأدب الكبير يومًا ما باسم اليتيمة خطأ حتى عثر فى كتاب المنثور والمنظوم لابن طيفور على اسم هذه الرسالة وجزء منها وليس فيه شيء مما فى الأدب الكبير .

كليله ودمنه

أصله بالهندية ، وضعه بيدبا الفيلسوف منذ نيف وعشرين قرناً لملك من ملوك الهند يسمى دبشليم، وكان قد طغى واستبد فحاول الفيلسوف نصيحته ولكنه لم يسمع له قولاً وأمر بسجنه ثم عاد ففكر فى نصيحته واستعادها منه فوجد فيها خيراً ، فأمره أن يعمل كتاباً يرجع إليه الملوك إذا احتاجوا الموعظة. فجمع تلاميذه وأخرج هذا الكتاب على مثال لم يسبق إليه ، فجعل النصيحة على ألسنة البهائم حتى لا يلقى الملوك غضاضة فى تلقيها والانتصاح بها .

وقد كان الكتاب فى اللغة الهندية السنسكريتية اثنى عشر بابا وهى :

(١) باب الأسد والثور . (٢) باب الحمامة المطوقة . (٣) باب البوم والغربان . (٤) باب القرد والغيلم . (٥) باب الناسك وابن عرس . (٦) باب الجرذ والسنور . (٧) باب الملك والطائر فنزة . (٨) باب الأسد وابن آوى والناسك . (٩) باب اللبؤة والأسوار والشَّعْهَر . (١٠) باب إيلاذ وبلاذ وَإيرَخْت . (١١) باب السائح والصائغ . (١٢) باب ابن الملك وأصحابه .

وأول ترجمة للكتاب كانت إلى اللغة التبتية ، ثم تسامع الناس بشأنه فوصل خبره إلى ملك الفرس أنو شروان الذى عنى بنقل العلم وتوفير أسباب الصلاح لمملكته فاختار طبيباً فيلسوفاً اسمه برزويه وزوده بالمال والنصيحة بالتكتم والحيلة فى نقل الكتاب إلى الفارسية . فخرج إلى بلاد الهند متطبباً وما زال يحتال حتى اتصل بخازن كتب الملك فمكنه من نقل الكتاب إلى اللغة الفهلوية (الفارسية القديمة) فعاد به إلى كسرى فبالغ فى إكرامه وفتح له خزائنه ليختار ما يشاء ، فلم يرغب إلا أن يخلد اسمه بالكتاب فصدر بترجمة حياته وما كان من حيلته فى نقل الكتاب وكتب تلك الترجمة بزرجمهر وزير أنو شروان ، وسمى هذا الباب باب برزويه .

وقد نقل الكتاب بعد ذلك إلى اللغة السريانية حوالى سنة ٥٧٠ للميلاد ، ثم نقل ابن المقفع الكتاب من اللغة الفهلوية إلى العربية وصدره بمقدمة شرح فيها الغرض من الكتاب وما يجب على قارئه أن يستنبطه من حكمته، ويقال إنه زاد فى صلب الكتاب باب الفحص عن أمر دمنـــة ، وباب الناسك والضيف ، وباب البطة ومالك الحزين ، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين . فإن فى هــذه الفصول روحا إسلامية كقوله فى باب الفحص عن أمر دمنة « ولأن تعذب فى الدنيا بجرمك خير من أن تعذب فى الآخرة بجهنم مع الإثم » وكقوله « وقد قالت العلماء « من كتم حجة ميت أخطأ حجته يوم القيامة » وكقوله « وقد علمنا أن شهادة الواحد لا توجب حكماً » وقوله « من كتم شهادة ميت ألجم بلجام من نار يوم القيامة » .

ثم زاد علىّ بن الشاه ويقولون إنه هو أبو القاسم على بن محمد بن الشاه الظاهرى"[1] من نسل الشاه بن ميكال وقد توفى سنة ٣٠٢ هـ ، مقدمة ذكر فيها السبب الذى من أجله وضع بيدبا كتابه وقد جاء فى هذا السبب : أن الاسكندر غزا بلاد الهند واستبد بهم حينا ثم استخلف عليهم رجلا من ثقاته فثاروا به وخلعوه ثم ولوا رجلا من أبناء ملوكهم يقال له دبشليم فلما استوثق له الأمر طغى وبغى واستهان بأمر الرعية فرأى الفيلسوف بيدبا أن واجبه يقضى عليه بنصيحة الملك فنصحه فأعرض واستكبر أولا ثم عاد إلى الرشد وسمع النصح وتقدم إلى بيدبا أن يعمل له كتابا « يجهد فيه نفسه وليكن مشتملا على الجد والهزل واللهو والحكمة والفلسفة » فجمع تلاميذه واستعان بهم على إخراج الكتاب فكان أول عمل من نوعه .

والذى يظهر أن ابن المقفع لم يترجم الكتاب ترجمة حرفية يحرص فيها على الأصل بل إنه كان يمازج بين ما ينقل وبين روح العصر ومزاج المنقول إليهم واعتبار إسلامهم فلم يرد فى الكتاب شىء من الوثنية التى يدين بها الهنود ولعل هذا ما دعا

(١) كان الظاهرى أديبا طبيبا مفاكها فى نهاية الظرف والنظافة (فهرست ابن النديم) .

الناس إلى القول بأن الكتاب موضوع لا مترجم، فقد قال ابن خلكان « إن الكتاب مختلف فيه هل هو ترجمة أو تأليف » على أن عبثا كثيراً نال الكتاب من الأجيال التى مر بها والنساخ الذين عملوا فيه ، فقد ترى فقرات منقولة فى بعض الكتب فإذا عدت إلى النسخة التى بيدك لم تجدها فيها وكذلك النسخ التى بأيدينا من الكتاب الآن تختلف فيما بينها بعبارات تزيد وتنقص .

وقد راج الكتاب وتسامعت به الأمم فنقل إلى أغلب اللغات من الترجمة العربية لأنها هى التى بقيت بعد ذهاب الأصل الفهلوى . وقد ترجم إلى السريانية ثانية عن العربية بين القرن الثامن والثالث عشر الميلادى ، كما ترجم إلى اليونانية والفارسية الحديثة عدة ترجمات . وهو الآن فى جميع لغات العالم حتى الهندية نفسها ترجم إليها .

وقد بلغت عناية القوم بالكتاب أن نظم مرات فأول من نظمه أبو سهل الفضل ابن نُوبَخْت وقد خدم المنصور والمهدى ، ثم أبان بن عبد الحميد اللاَّحقى ، فعل ذلك بإشارة البرامكة لتعليم أبنائهم . ومن هذا النظم قوله :

هذا كتاب أَدَبٍ ومحنه   وهو الذى يُدْعَى كَلِيلَهْ ودِمْنَهْ
فيه احتيالاتٌ وفيه رُشْدُ   وهو كتابٌ وَضَعْتهُ الهِندُ

كذلك نظمه علىّ بن داود كاتب السيدة زبيدة زوج الرشيد، ونظمه بشر بن المعتمد. وقد فقدت كل هذه المنظومات . ثم نظمه ابن الهَبّارِيّة المتوفى سنة ٥٠٤ هـ وسماه « نتائج الفطنة : فى نظم كليله ودمنه » وهو مطبوع . ونظمه ابن مَمَّاتى المصرى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ كما نظم أبواباً منه عبد المؤمن بن الحسن من أهل القرن السابع ، ونظمه أيضاً جلال الدّين النقاش من أهل القرن التاسع وكل ذلك مطبوع .

ونقله مرّة ثانية من الأصل الفارسى عبد الله بن هلال الأهوازى ليحيى بن برمك فى خلافة المهدى ، وقد ضاعت هذه الترجمة .

وقد عارضه كثيرون ، وأسبق الناس إلى معارضته سهل بن هرون صاحب بيت

الحكمة للمأمون وضع على نسقه كتاب ثعلة وعفرة ، وابن الهَبَّارِيّة ناظمه ألف على منواله كتاب : « الصادح والباغم » ، وهو مطبوع ، وكذلك لابن ظفر المتوفى سنة ٥٩٨ هـ كتاب : « سلوان المطاع فى عدوان الطباع » ، وهو مطبوع فى تونس وبيروت . ولابن عمر شاه المتوفى سنة ٨٥٢ هـ « كتاب فاكهة الخلفاء ، ومناظرة الظرفاء » ، وهو مطبوع بمصر ، ويقال ان أبا العلاء المعرى ألّف كتاب : « القائف على مثال كليلة ودمنه » ، وهو غير موجود ، وقد شرحه فى كتاب سماه : « منار القائف » .

ولا شكّ أن عمل ابن المقفع وقد سبق هذه الأعمال كان صاحب الفضل فى شيوع هذا الأسلوب على ألسنة الشعراء والكتاب ، ذلك الأسلوب الذى يعجب العامة ويلهى الخاصة ، ولا يحول بين الحكيم ونفاذ حكمته إلى كلّ قلب يريد فى أحرج أوقات الظلم وأروع أيام الاستبداد . وقد انتشر هذا النوع من الأدب فى كلّ لغات العالم على أثر شيوع هذه الترجمة العربية . وإن كان له أصل فيها ، فالعرب كانت تعرف فى أمثالها وقصصها الجاهلية ذلك النوع الذى يجرى على لسان الحيوان والمراد به موعظة الإنسان ، ومن أمثالهم فى ذلك : إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض ، وقولهم فى بيته : يؤتى الحكم ، إلى غير ذلك .

مختار من كلام ابن المقفع

فى الأدب الصغير

على العاقل (ما لم يكن مغلوباً على نفسه) ألا يشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدّقونه عن عيوبه وينصحونه فى أمره ، وساعة يخلى

فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل فإن هذه الساعة عون على الساعات الأخر ، وإن استجمام القلوب وتوديعها زيادة قوة لها وفضل بلغة .

ومنه : سمعت العلماء قالوا : لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف . ولا حسب كحسن الخلق . ولا غنى كالرضا . وأحق ماصبر عليه ما لا سبيل إلى تغييره ، وأفضل البر الرحمة ، ورأس المودة الاسترسال ، ورأس العقل المعرفة بما يكون وما لا يكون . وطيب النفس حسن الانصراف عما لا سبيل إليه . وليس من الدنيا سرور يعدل صحبة الإخوان ، ولا فيها غمّ يعدل فقدهم .

من الأدب الكبير

إنما يحمل الرجلَ على الحلف إحدى هذه الخصال : إما مهانة يجدها فى نفسه وضرع وحاجة إلى تصديق الناس إياه ، وإما عِيّ بالكلام فيجعل الأيمان له حشواً ووصلاً ، وإما تهمة قد عرفها من الناس لحديثه فهو ينزل نفسه منزلة من لا يقبل قوله إلا بعد جهد اليمين ، وإما عبث بالقول وإرسال للسان على غير روية ولا حسن تقدير .

ومنه : إذا رأيت صاحبك مع عدوّك فلا يغضبنك ذلك ، فإنما هو أحد رجلين إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك أقربها من عدوّك لشرٍّ يكفه عنك ، أو لعورة يسترها منك ، أو غائبة يطلع عليها لك . فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك ، وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك ، فبأيّ حق تقطعه عن الناس وتكلفه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى .

وقد سبق اختيار وصف الصاحب ، وهو من الأدب الكبير .

من كليلة ودمنة

قال دمنة : زعموا أن غديراً كان فيه ثلاث سمكات . كيسة وأكيس منها وعاجزة ، وكان ذلك الغدير بنجوة من الأرض لايكاد يقربه أحد ، وبقربه نهر جار ، فاتفق أن اجتاز بذلك النهر صيادان ، فأبصرا الغدير ، فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا ما فيه من السمك ، فسمع السمكات قولهما . فأما أكيسهن لما سمعت قولهما ارتابت بهما وتخوفت منهما ، فلم تعرج على شيء حتى خرجت من المكان الذى يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير ، وأما الكيسة فإنها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان ، فلما رأتهما وعرفت ما يريدان ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء ، فإذا بهما قد سدّا ذلك المكان ، فحينئذ قالت : فرطت وهذه عاقبة التفريط ، فكيف الحيلة على هذه الحال ، وقلما تنجح حيلة العجلة والإرهاق . غير أن العاقل لايقنط من منافع الرأى ، ولا ييأس على حال ، ولا يدع الرأى والجهد . ثم إنها تماوتت ، فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة وتارة على بطنها فأخذها الصيادان فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير ، فوثبت إلى النهر فنجت . وأما العاجزة فلم تزل فى إقبال وإدبار حتى صيدت .

من رسائله

كتب إلى بعض أصدقائه :

كان من خَبَرِى بَعْدَكَ أنى قَدِمْتُ بلد كذا ، فتهيأ لى بعضُ ما شَخَصْتُ له ، والمحمود على ذلك الله عزّ وجلّ . وأنا إلى أن يأتينى خبرُك محتاجٌ . فأما جملة خبرى فى فِرَاقك فقلبى مَسَكَّةٌ كل ما سواك حرام فيها .

وكتب يُعَزِّى عن ولد :

إنما يستوجب على الله وعْدَه من صَبَرَ لله بحقه ، فلا تجمَعَنَّ إلى ما فُجِعْتَ به من ولدك الفجيعة بالأَجْر عليه والعِوَض منه ، فإنها أعظم المصيبتين عليك ، وأنكى المَرْزِئتين لك . أَخْلَفَ اللهُ عليك بخير، وذَخَرَ لك جزيل الثواب

هذا إلى ما قدمناه من كلامه فى نماذج الكتابة ، فعد إليه .

حياة الجاحظ

[نسبه] : لقد ضاعت الحقيقة فى نسب الجاحظ بين المتعصبين له وعليه فالأولون يقولون : إنه كنانى صَلِيبة ، والآخرون يدّعون أنه مولى للكنانية ، وأن جدّه كان عبداً أسود لأبى القَلَمّس بن قُلْع الكنانى :

وقد ذكر يموت بن المُزَرّع كما روى ياقوت الحموى صاحب معجم الأدباء قال : (الجاحظ خال أمى ، وكان جدّ الجاحظ أسود ، يقال له فزارة ، وكان جمالا لعمرو بن قُلْع الكنانى) :

وعلى كلا الرأيين ، فهو عمرو بن بحر بن محبوب ، وإذا لم يكن محبوب هذا هو فزارة الذى تحدث عنه يموت يكون جدًّا لأبى الجاحظ .

والجاحظ لقب لعمرو ، وكنيته أبو عثمان ، وإنما لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه ، وبروزهما .

نشــــأته

ليس ثبوت نسب الجاحظ من كنانة أو لحاقه بهم بالولاء بذى أثر عظيم فى حياته، وإنما المهمّ هو ما ترتب على ذلك من نشأته بينهم خصوصاً إذا ثبت أن هذا الولاء

تميم ، وأن له ثلاثة آباء تمت لهم مخالطة بنى تميم ، فيكون الجاحظ على ذاك عربىّ النشأة سليق اللسان يقول فيعرب . وذلك هو الذى يهمّ الباحث فى حياة الأدباء . كذلك لا يضير الجاحظ أن يكون قد نشأ فقيراً يبيع الخبز والسمك بسوق سيحان، فقد ارتفع به ذكاؤه وعلمه حتى جالس الملوك وَوَلِع الناس بمشاهدته وحضور مجلسه بعد أن شاعت شهرته كلّ الشيوع ، حتى لقد حضر إليه من الأندلس سلام بن زيد ، وكان قد أعجب بما وصل إلى الأندلس من كتبه ، ككتاب التربيع والتدوير ، وكتاب البيان والتبيين . قال : وكان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء أبى عثمان ، فخرجت لا أعرج على شىء حتى وصلت إليه . كذلك ولع المتوكل به فأحضره مجلسه ، وكان الذى يدله على فضله وزيره الفتح بن خاقان ، وهو أحد المعجبين بالجاحظ . وقد أحبّ المتوكل أن يكل إليه تعليم أولاده ، فلما رآه لأوّل مرّة استبشع منظره ، فأعطاه عشرة آلاف درهم وصرفه . وهو الذى أرسل إليه رسولاً وهو مريض فى آخر حياته ، وألحّ على الرسول فى التعجيل به إليه ، ولكن الرسول وجده ، وقد قعد به المرض وألحت عليه العلة فلم يستطع إجابة أمر الخليفة .

بيئة الجاحظ

نشأ بالبصرة ، وهى ناهيك من بلد جمع أسباب الفضل فى تلك العصور الزاهية التى عاش فيها الجاحظ ، فقد كانت البصرة موطن علوم العربية . بها نشأ النحو وعاش رجاله وإليها ثاب علماء اللغة وروّاد الأدب ، وحولها ضرب خيامهم عرب خلص اختارهم الأئمة لنقل اللغة . وفيها كان المربد يقام بديلا من سوق عكاظ فى الجاهلية . تلك هى البصرة موطن العلماء الأعلام فى كلّ علم من النحو ، والرواية ، والحديث ، والتفسير ، والفقه ، والكلام ، والخطابة ، والشعر ؛ وفيها عاش أبو الأسود ،

وعَنْبَسَةُ الفيلِ [1]، ونَصْر بن عاصم، ويحيى بن يَعْمَر، ثم أبو عمرو بن العَلاء، وأبو الخطاب الأخفشُ الأكبرُ، والأصمعى، وأبو عبيدة، وخَلَفٌ الأحمرُ، وواصل بن عَطاء، وإبراهيم بن سَيَّارٍ النظامُ، ومن أعلام علمائها ووعاظها التابعيان الحسن البصرى، ومحمد بن سيرين، وقبلهما الصحابيان : أبو موسى الأشعرى، وأنس بن مالك؛ وكان بها من الخطباء والشعراء خالد بن صَفْوان، والفرزدقُ، وبشارٌ، وأبو نُوَاس وغيرهم .

فى هذه البيئة نشأ الجاحظ وتربى بين بنى كنانة الفصحاء، فكان بما انضم إلى هذه النشأة من ذكاء خارق أحد أفذاذ العالم . وقد عاش الجاحظ وليداً فى خلافة الهادى، وشابا أيام الرشيد، ثم شهد أيام المأمون، وما كان فيها من حركة فلسفية، ثم عاش، فرأى أيام المعتصم والواثق والمتوكل، وبقى بعدها مفلوجاً حتى مات فى أيام المعتز .

ولد الجاحظ حوالى سنة ١٦٠ هـ، وتوفى سنة ٢٥٥ هـ، فكانت مدة حياته طلع قرن من الزمان هو أزهى أيام اللغة العربية، فيه نضجت العلوم العربية والإسلامية، وتمت ترجمة العلوم الدخيلة، وازدحمت الدنيا بخلفاء ووزراء لم تشهد الأيام مثلهم فضلاً وسخاء، وقوة سلطان، ولا شكّ أن كلّ هذه أسباب لنبوغ الرجال . وقد ازدحمت هذه الفترة بالنابغين منهم بين شعراء وكتاب وعلماء وفلاسفة، وأطباء يختص كلّ واحد منهم بناحية من الفضل، ويستبدّ بنوع من النبوغ، ولكن نبوغ الجاحظ

---

(١) هو عنبسة بن معدان وكان معدان رجلا من أهل ميسان قدم البصرة وأقام بها، وكان يقال له معدان الفيل . وسبب ذلك أن عبد الله بن عامر كان له فيل بالبصرة وقد استكثر النفقة عليه فأتاه معدان فتقبل نفقته فكان يسمى معدان الفيل فنشأ ابنه عنبسة فقيل له عنبسة الفيل، وقد قال الفرزدق يهجوه :

لقد كان فى معدان والفيل زاجر   لعنبسة الراوى علىّ القصائدا

وقيل لعنبسة فى ذلك . فقال لم يقل الفيل وإنما قال اللؤم فقيل إن امرا يفر منه إلى اللؤم لأمر عظيم .

كان غير محدود ، فهو بحق معدود فى الـكتّاب ، وفى المؤلفين ، وفى الفلاسفة والمتكلمين وإذا طولب المؤرخ أن يضرب المثل لرجل جمع ثقافات هذا العصر وحوى أنواع فضله فإنه غير واجد إلا الجاحظ يحتج به لكلّ باب من أبواب تلك المعارف .

وقد ذكروا من أساتذة الجاحظ : الأصمعى ، وأبن الأعرابى ، وأبا عبيدة ، وأبا زيد الأنصارى فى الرواية واللغة ، وأبا سعيد بن مسعد الأخفش فى النحو ، ويزيد ابن هٰرون ، والسرى بن عبد ربه ، وأبا يوسف القاضى فى الحديث ، وأبا إسحٰق إبراهيم بن سيار النظام فى الـكلام . وأنا أضيف إلى هؤلاء جميع فلاسفة اليونان وعلماء الهند وأدباء الفرس ألذين قرأ لهم الجاحظ كتبهم المترجمة فى هذا العهد ، وقد كان خير تلميذ يحسن التلقى لما كان له من قوة نقد ، وحرص على الفهم والتعقل .

مؤهلات الجاحظ

قد يعيش الرجل فى مثل هذه البيئة أو خير منها ، ولـكنه لا يكون أهلاً للاستفادة مما فيها فلا ترى له بين رجالها ذكراً ، ولـكن الجاحظ كان جديراً أن ينتفع بكل ما أحاط به إذ كان شديد الذكاء ، قوىّ الفطنة ، وقد تمثل ذلك فيما حواه من هذه العلوم ، وترأس فيه من أنواع المعارف . فقد كان إماما فى المتـكلمين ونادرة فى الأخباريين ، وبليغاً فى الـكتّاب ، وفيلسوفاً عالمًا بالطبائع ، دارساً لأحوال المخلوقات ، ملمًّا بالتاريخ ، خبيراً بمثالب الأمم ومحامدها .

وليس أدل على ذكائه من الاطلاع على كتبه ، ففيها تمثل قوة التحصيل للعلم ، والجمع لأشتات مسائله ، ثم التمحيص لها ونفى زائفها ، وعدم التعويل إلا على مايؤيده العقل وتؤدى إليه التجربة .

ولا يصل هذه المنزلة فى الفضل إلا كلّ من كان قوىّ الملـكة نفاذ البصيرة ،

ليس كل همه التحصيل والوقوف عند أقوال الأقدمين، وهكذا كان الجاحظ ، وهو القائل في حكمته التي كان أوّل الآخذين بها (إذا سمعت الرجل يقول : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، فاعلم أنه ما يريد أن يفلح) ، فهو لم يكن يؤمن بانتهاء الفضل عند الأوائل ، بل يعتقد أن له نصيباً من الفهم يزيف به الباطل من آرائهم ، ويزيد به ما نقص من كمالها . ولذلك رأيناه يناقش أرسطو وغيره من الحكماء ، ويعارض المفسرين وغيرهم فيما يرون من رأى كما سيمرّ بنا في الكلام عن كتبه .

وقد ساعد هذا الذهن الوقاد صبر جميل وشغف بالعلم لا مزيد عليه ، فقد كان مغرمًا بالاطلاع حتى لم يكن يقع في يده كتاب إلا استوعبه قراءة ، وما أكثر الكتب في أيامه ، فهي في كلّ علم نشأ أو ترجم . ولقد بلغ من شغفه بالعلم وعدم استطاعته شراء كل ما تشره إليه نفسه من كتبه أن كان يستأجر دكاكين الورّاقين ، ويبيت فيها ليطالع ما بها من الكتب ، ولم يذكروا هذه المنقبة إلا عن الفتح بن خاقان ، فقد قالوا : إنه كان يحضر لمجالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتابًا من كمه ، وجعل يقرأ فيه إلى حين عوده إلى المجلس ، وحكوا مثل ذلك عن القاضي إسمعيل بن إسحٰق ، فما كان يُرى إلا ناظراً في كتاب .

نوادر الجاحظ

لعلك متعجب من عقدنا لهذا الفصل في حياة عالم كاتب متكلم كالجاحظ ولكننا إنما نريد أن ندلك على مزية في هذا الرجل جعلت دروسه وتآليفه حبيبة إلى الناس ، وتلك هي البادرة النادرة ، والفكاهة الحاضرة ، والمزاح الظريف الذى كان ينتقل به مع طلابه بين الحقائق ، فلم يكن يواليها عليهم حتى تسأمها نفوسهم ، وتستغلق أمامها أفهامهم ، بل كان يجم بالمزاح نشاطهم ، وينفى سأمهم ، وقد طالما اعتذر عن ذلك في كتبه ، إذ عابه به حسّاده ، فقالوا : إنه يخلط الجدّ بالهزل ، والحقائق بالترهات .

فقد قال فى شأن كتاب الحيوان والاعتذار عما فيه من فكاهة . وهذا كتاب موعظة وتعريف وتفقيه وتنبيه ، وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده ، وتفكر فى فصوله وتعتبر آخره بأوّله ومصادره بموارده ، وقد غلطك فيه بعض ما رأيت من مزح لم تعرف معناه ، ومن بَطالة[1] لم تطلع على غورها ، ولم تدر لم اجتلبت ، ولا لأى علة تكلفت ، وأى شىء أريغ بها ، ولأىّ جدّ احتمل ذلك الهزل ، ولأىّ رياضة تجمشت تلك البطالة ، ولم تدر أن المزاح جدّ إذا اجتلب ليكون علة للجدّ ، وأن البطالة وقار ورزانة إذا تكلفت لتلك العاقبة .

وقد عدوا له من نوادره المستظرفة أنه قيل له وقد هرب بعد القبض على ابن الزيات وكان خاصًّا به منحرفًا عن أحمد بن أبى دؤاد عدوّ ابن الزيات لم هربت ؟ قال خفت أن أكون ثانى اثنين إذ هما فى التنور (إشارة إلى التنور الذى كان يعذب فيه ابن الزيات فى أيام سطوته ، وعذب به فى أيام محنته) .

وطلب إليه بعض الناس أن يكتب كتاب توصية برجل لا يعرفه إلى صديق له ، فكتب إليه : (هذا كتاب مع من لا أعرفه ، وقد كلمنى فيه من لا أوجب حرمته ، فإن قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك) ، ثم اتفق أن الوسيط فى الكتاب اطلع عليه قبل أن ينفذه ، فلما رأى مابه عاد إلى الجاحظ ، فلما رآه علم أنه فتح الكتاب ، فقال له : علمت أنك أنكرت الكتاب ، وإنما هذه علامة بينى وبين الرجل فيمن أعتنى به ، فقال الرجل . يا أبا عثمان ما رأيت أحداً بطبعك ولا ما جبلت عليه . واتصلت هذه النادرة بالفتح بن خاقان وزير المتوكل فحدثه بها ، فكانت سبب اتصال الجاحظ به وحضور مجلسه. وقال الجاحظ: دخلت ديوان الرسائل ببغداد ، فرأيت قومًا صقلوا ثيابهم وصفوا عمائمهم ووشوا طرزهم . ثم اختبرتهم فوجدتهم

---

(١) بطل الشىء (كدخل) صار باطلا ، والمصدر بطل وبطلان (بالضم فيهما) وبطل الأخير (كدخل أيضا) بطالة تعطل ، والبطالة هنا من المعنى الثانى : أى إن المزاح تعطيل للجد وإضاعة للوقت .

كما قال الله تعالى : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً » . ظواهر نظيفة ، وبواطن سخيفة ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون . وأتاه مرّة بعض الثقلاء ، فقال : سمعت أن لك ألف جواب مسكت فعلمنى منها ، فقال : نعم . قال : الرجل إذا قال لى شخص يا زوج القحبة ، يا ثقيل الروح فأى شيء أقول له ؟ قال : قل له صدقت .

وحدث من نفسه قال : ما أخجلنى أحد مثل امرأتين ، رأيت إحداهما بالعسكر ، وكانت طويلة ، وكنت على الطعام ، فأردت أن أمازحها ، فقلت ، انزلى كلى معنا ، فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا ؛ وأما الأخرى فإنها أمتنى وأنا على باب منزلى ، فقالت : لى إليك حاجة ، وأريد أن تمشى معى ، فمشيت معها حتى أتت بى إلى صائغ ، فقالت له : مثل هذا . وانصرفت ، قال : فسألت الصائغ عن قولها ، فقال أتتنى بفصّ وأمرتنى أن أنقش عليه صورة شيطان ، فقلت لها : ما رأيته ، فأتت بك .

وذكر فى كتاب البيان والتبيين ما يأتى « . . والعرب تقول : أخزى الله الرأى الدَّبَرى ، وقالوا : وجّه الحجاج إلى مُظَهّر بن عَمّار بن ياسِر ، عبد الرحمن بن سُلَيم الكلبى ، فلما كان بحلوان أتبعه الحجاج مدداً وعجل عليه بالكتاب مع تُحَيْت الغلط ، (وإنما قيل له ذلك لكثرة غلطه) فمرّ تحيت بالمدد ، وهم يُعْرَضُون بخَانقِين ، فلما قدم على عبد الرحمن . قال له : أين تركت مددنا ؟ قال : تركتهم يُخْنَقُون بعَارِضِين قال : أو (يعرضون بخانقين) ؟ قال : نعم . اللهم لا تخانق فى باركين . . . [1]) ، وقد حدّث الجاحظ عن بعض تلاميذه ، فقال : كان من تلاميذنا من يدعى كيسان كان يسمع غير ما يقال ؛ ويكتب غير ما يسمع ، ويقرأ غير ما يكتب [2] . وما أكثر ما روى الجاحظ من فكاهات .

---

(١) وتتمة هذه الفكاهة : أن الأمير عبد الرحمن أراد أن يقول لتحيت ألا تتغذى فسمعه يضرط فقال ألا تضرط قال قد فعلت أصلح الله الأمير . قال ما هذا أردت . قال صدقت ولكن الأمير غلط كما غلطنا . قال أنا غلطت من فمى وأنت غلطت من استك .

(٢) وفى مثل كيسان يقول الشاعر :

يعى غير ما قلنا ويكتب غير ما يعيه ويقرأ غير ما هو كاتب

معتقد الجاحظ

لم يكن الجاحظ بهذه المثابة من الفضل والعقل ثم يكون معهما مقلداً يدين بآراء غيره ، ولم يكفه أن يكون صاحب رأى يجتهد فيه و يستقل به ، ثم لا يكون لرأيه هذا شأن يذكر بين الآراء . ولـكنه كان صاحب رأى يجذب إليه طائفة من الناس استطاع أن يجمعهم على الإيمـان به والتعصب له ، فعرفت بين الفرق فرقة تسمى الجاحظية ، وهى مشتقة من المعتزلة الذين كان من رءوسهم على أيام الجاحظ إبراهيم النظام والجاحظ ، فهو على هذا معتزلى يشارك المعتزلة فى غالب آرائهم ، ولـكنه يسـتقلّ بآراء يحتج لهـا ببيانه الناصع و بلاغته العجيبة . والقول فى آرائه دخله التحريف والتبديل ، فإن كثيرين من الناقمين عليه شوّهوا آراءه وحكوها على غير وجهها ليتخذوا ذلك وسيلة للغضّ من شأنه عند الناس .

ومن آرائه التى انفرد بها عن أصحابه من المعتزلة ما ذكره صاحب كتاب الملل والنحل من قوله بأن المعارف كلها ضرورية وطباع ، وليس شىء من ذلك من أفعال العباد ، وليس للعباد كسب سوى الإرادة . ولعلّ هذا الرأى قد نشأ له من أنه كان يقول بأن الأفعال المتولدة ليست من فعل الإنسان ، كما إذا رميت حجراً فسقط على شىء فكسر ، فهذا الـكسر متولد ورأيه أنه لا ينسب إلى الرامى ، فكذلك كل ما يحصل من المعرفة فهو متولد من اتجاه الحواس ، فإذا رأيت شجرة لم يكن فعلى إلا توجيه نظرى إليها ، فأما علمى بشكلها وكل ما يتعلق بها فهو متولد عن الروية وليس لى كسب فيه . وكذلك كان يقول باستحالة انعدام الجواهر بعد حدوثها . وقد رد عليه البغدادى صاحب كتاب الفرق بين الفرق بأن هذا يستلزم أن الله يقدر على خلق شىء

ولا يقدر على إفنائه . ومن آرائه قوله : إن الله لا يدخل العباد النار ، وإنما هى التى تجذبهم إليها ، وأنهم لا يخلدون فيها وإنما يصيرون من طبيعتها . قال البغدادى : يلزم على ذلك أن تكون الجنة كذلك فتنقطع الرغبة إلى الله . ويقال أيضاً إن هذا الرأى من الجاحظ مخالف لقول الله تعالى : « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا » ، والدعّ : الدفع العنيف ، وقوله تعالى : « خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ » ، وقوله تعالى: « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ » ورووا عنه أيضاً أنه قال إن القرآن جسد يجوز أن يكون مرة رجلا ومرة امرأة . وقد تصدى للدفاع عنه فيما نسب إليه من الآراء الخاطئة أبو الحسين الخياط فى كتابه الانتصار لعقيدة أبى عثمان وملخص هذه الردود أن أغلب ما نسب إليه مكذوب عليه .

والمشهور أنه كان من الناصبة الذين كانوا يفضلون عثمان على علىّ وعلى هذا الرأى كان أهل البصرة منذ واقعة الجمل لأنه ما منهم إلا من قتل له فيها أب أو أخ أو ابن ولكن الجاحظ كان يتنصل من هذا وينفيه عن نفسه خوفا من بنى العباس(١) .

أسلوب الجاحظ

يأبى العبقرى إلا أن يكون أمة وحده فى كل شىء وهكذا كان الجاحظ ، فكما

---

(١) وقد نسبه إلى النصب (بغض علىّ) كثيرون منهم الشريف الرضى فى نهج البلاغة ، ولكن ينافى ذلك أن للجاحظ رسالة فى بنى أمية ذكر فيها أنه لا يتولى عثمان إلا فى السنين الست التى كانت فى أول ولايته ، ثم يذكر معاوية وتحوله الخلافة إلى ملك كسروى ويعدد أخطاءه حتى لقد كفره وكفر من ترك تكفيره ، وهكذا كان شأنه مع ملوك بنى أمية يذكر مساوئهم فى تلك الرسالة ، ورأى الجاحظ فى عثمان وبنى أمية هو رأى جميع المعتزلة الذين كانوا يكرهونهم ، وإن لم يخرجوا عليهم ، ولعلك تفهم هذا أيضا من حب العباسيين للمعتزلة وتقريبهم اياهم والأخذ بآرائهم حتى قال المأمون بمثل مقالتهم فى خلق القرآن وهم بلعن معاوية على المنبر .

كان علما بين المتكلمين كذلك كان إماما فى الأدباء والمترسلين ، له أسلوب عرف به واشتهر حتى إن الذى يعرف خصائص هذا الأسلوب ويدرس نهجه لا يفوته أن يعزو إلى الجاحظ ما كان من كلامه مهما عميت عليه روايته . وذلك أنك إذا عرضت بين يديك أساليب الكتاب وجدت أنهم إما علماء مؤلفون أو أدباء مترسلون ، فإن كانوا مؤلفين اقتصروا على رواية كلام السابقين لا يستقلون بعبارة ولا يتزيدون برأى ، ثم رأيتهم فى دائرة من العلم لا يتعدونها ، فالمؤرخ لا يزيد على سرد الوقائع و وصف المعارك ، والأديب يروى الشعر والخطب ويشرح أو يعرب ما ورد فى عباراتها من غامض . فأما الذى لا يحده موضوع ولا يضبط له خاطر ولا يعرف إلا المعانى تنسال عليه من شعاب الفكر فهو الجاحظ ينتقل: من فلسفة، إلى توحيد، ومن قرآن، إلى حديث ، و يخلط جد ذلك بالمزح . ثم يخرج منه إلى القصص فيحكى عن نفسه ويروى عن الناس ولا يقتصر على عرب أو فرس حتى ينقل عن الهند والصين وعن اليونان وجميع من خلق الله ، وربما عاد إلى ما بدأه من بعيد ، وربما أنساه الاستطراد ما بدأ ، إلى غير ذلك مما لعلك غير مصادف له إلا فى كتب الجاحظ . وقد قدمنا لك أنه عيب بذلك من حساده ، وهو عيب أقرب إلى الإقرار بالفضل ، فإنه ما فعل ذلك إلا من فضل الذكاء ، وازدحام الفكر بالمعانى ، وكثرة ما قرأ عن عرب وعجم ، مع قدرة عجيبة على مزج ذلك وتذكره عند مناسبته التى تعرض وموضعه الذى يحسن فيه ، ولسنا نحيلك إلا على كتاب الحيوان ، فإنك لا تكاد تفتح له صفحة حتى ترى فيها ألوان العلوم مجتمعة ، فأين تجد مثل هذا إلا فى كتب الجاحظ التى عرفت بأنها البحر لاساحل له .

هذه هى ناحية الفكر فى تأليفه . فأما العبارة ، فهى اللفظ الرصين ، والأسلوب المتين ، يهدى إليهما طبع عربى ، ونشأة بين ربوع الفصاحة ، ومخالطة لجهابذة القول فى البصرة ، مباءة العربية ، ومثابة الفصحاء تجمعوا على حدود البرية ، وأشرفوا على الريف ، فكانوا مورد العربية الصافى ، ومنهلها العذب .

لا يعرف الجاحظ فى أسلوبه غير جانب المعنى ، فأما اللفظ فما أظن أنه يوما طلب كلمة شاردة ، ولاعانى عبارة غير مستوية ، ولا توقف يبحث عن محسن ، أو يستدعى سجعة ، وليس مثل الجاحظ فى كثرة ما ألف ، وطويل ما حبر يحاول ذلك فى كلامه ، فإنه جدير إذا حاوله ألا يكون منه عشر ما كان له من الكتب التى قاربت ثلاثة المائة .

وكذلك كان فى ترسله يرسل المعنى فى اللفظ الذى يشرف به المعنى ، وهو فيه غير متكلف لعبارة أو مؤثر لسجع ، ولكن شيئاً من العناية بالألفاظ والتخير لها يكون فى غير تكلف ، ولا استكراه لمكان الترسل من القلة ، ولموضعه من خطاب الكبراء والعظماء ، وأنه إلى الخاصة دون غيرهم ، فإذا ترفع فيه عن مستوى عبارته فى كتبه ، فما ذلك إلا لأنه يضع الهناء مواضع النُّقْب(١) ، ويلبس لكل حال لبوسها ، فهو يعلم أن الكتب للخاصة والعامة ، فلا ينظر فيها إلى جانب اللفظ نظره إليه فى الرسائل يبعث بها إلى الإخوان والوزراء ، وليس يدعوك قولنا هذا إلى الحط من شأن عبارته فى كتبه ، فهى خير ما يكون إذا قيست إلى سائر عبارات المؤلفين على أن فيها مواطن استدعت التأنق كوصفه للكتب ، وبيان فوائدها فى أوّل كتاب الحيوان ، فإنه جاء آية فى الإبداع والرصانة ، ومثلا يحتذى فى البلاغة ، كذلك وصفه للقرآن ، وبيان إعجازه فى كتاب : « البيان والتبيين » ، وغير ذلك كثير موزع فى كتبه .

ويشيع فى كتاباته عامة كثرة الترادف ، وليس ذلك إلا من الغنى اللغوىّ والثروة بالألفاظ والأساليب ، وهو شىء ربما دعاه إليه حاجته إلى تفهيم المتعلمين ما يلقيه عليهم من المعانى ، فهو مدفوع إلى التكرار كما يندفع المعلم فى خطاب تلاميذه ، ولكنه تكرار من بليغ ، فكان دائما زينة لقوله ، ودليلا على فضله .

---

(١) النقب : الجرب .

كذلك يكثر فى قوله الاعتراض وهو لا يفتأ يقول : وقاك الله ، وجنبك الشبهة ، وعصمك من الريبة ، وأعزّك الله إلى غير ذلك مما كثر فى كلامه .

وقد كان للجاحظ شعر ، ولكنه لم يكثر منه ، فلم نجعله موضوع بحث ودراسة .

آثار الجاحظ

لا سبيل بنا إلى عد كتب الجاحظ، ويكفى أن نقول إنها أربت على المائتين وقد كانت سبب ثرائه وشهرته حتى لم يبق أحد من معاصريه إلا تعلق بأن يرى هذا الذى طبقت شهرته الخافقين .

أما ثروته التى استفادها من كتبه فقد ذكر طرفاً منها ، فقال لمن سأله : هل لك ضيعة بالبصرة ؟ أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وكتاب البيان والتبيين إلى ابن أبى دؤاد فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وكتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار ، فانصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد . وإذا كان هذا رأيه فى المال لا يقتنى به ضياعًا مغلة فإنه جدير ألا يبقى على الأيام منه شىء . وقد كان كذلك فإنه فى آخر أيامه لما فلج احتاج إلى المال حتى إنه حين قصده ذلك الوالى المعزول الذى أحبّ أن يرى الجاحظ فى مروره بالبصرة ، وكان قد صاغ ثروته إهليلجات وقصد بلده بها ، فلما كان عند الجاحظ فطن لقصته بعجيب ما أوتى من صدق الحس . وقال له : أيها الفتى ، إن الأهليلج الذى معك ينفعنى ، فابعث إلىّ منه، فأعطاه مائة إهليلجة ، وهو متعجب من استكناهه لخبره مع شدة تكتمه .

وسنورد عليك من كتب الجاحظ ما تتبين منه أنه لم يترك علمًا ولا موضوعًا إلا خاض فيه ، وأحسن استقصاءه ، فبينا هو يكتب فى الشعر والخطب : « البيان

والتبيين » إذا به يشرح الحيوان ، ويدرس طبائعه فى كتاب : « الحيوان » ثم يتناول « الشطرنج والنرد » ، ويفرق ما بين « النبيّ والمتنبى » ويبحث « إمامة معاوية » ، ويدرس أحوال « المعلمين » ، « وطبقات المغنين » ، ويكتب فى طبائع « الحاسد والمحسود » ، ويحاول « مدح النبيذ » ، و « ذمّ النبيذ » ، ويظهر « غش الصناعات » ، ويعنى بـ « أخلاق الشطار » ، و « نوادر الطفيليين » إلى غـير ذلك مما يجعلك تعتقد أنه لم يترك معنى جاد به الله على فـكر بشر إلا تناوله بالبحث ، وأفاض فيه القول .

والمطبوع المتداول من كتبه هو « البيان والتبيين » « والحيوان » : « والبخلاء » ، و إحدى عشرة رسالة طبعت بمصر ، وهى : « الحاسد والمحسود » ، « ومناقب الترك » ، و « فخر السودان على البيضان » ، و « التربيع والتدوير » ، و « تفضيل النطق على الصمت » ، و « مدح التجار ، وذم عمل السلطان » ، و « العشق والنساء » و « الوكلاء » و « استنجاز الوعد » و « بيان مذاهب الشيعة » و « طبقات المغنين » .

ومن غير المطبوع ، ولـكنه موزع بمكاتب أوربا « أخلاق الملوك » ، وهو بأيا صوفيا ، و « تنبيه الملوك » ، و « سمر البيان » ، وهما بكوبرلى ، و « العرافة ، والزجر ، والفراسة » بليدن ؛ وأما غير المعثور عليه من كتبه ، فهو كما علمت كثير ، فاطلب فهرسه من الـكتب المطوّلة التى عنيت بذكره ، كمعجم الأدباء لياقوت الحموى ، والفهرست لابن النديم .

مبلغ تحقيقه وبحثه

قد يظن المطلع على كتب الجاحظ (وهو يكثر فيها من النقل) أنه حاطب ليل لا يحقق ما يروى ولا ينقده ببصيرته . ولـكن الجاحظ على كثرة ما يروى وكثرة

ما ألف لم يكن يمر بقول زائف إلا بهرجه وأزاح الشبهة عن حقيقته .

ومن ذلك أن النسابين تناقلوا أن أمّ النضر بن كنانة بن خزيمة اسمها برّة بنت مرة بن أدّ بن طابخة ، وأن كنانة تزوّجها بعد موت أبيه خزيمة (على عادة أهل الجاهلية من تزوّج الابن الأكبر زوج أبيه إذا كان من غيرها) ، فولدت له النضر — فلحظ الجاحظ أن هذا يستلزم أن يكون فى سلسلة نسبه عليه الصلاة والسلام سفاح ، فلم يقبله وردّه بأن كنانة خلف أباه حقًّا على برة ، ولكنها ابنة أدّ بن طابخة فلم تعقب منه . أما برّة التى أعقبت منه ، فهى ابنة أخيها وهى برّة بنت مرة بن أدّ بن طابخة ، وهى ولدت لكنانة النضر . ومنها اتصلت سلسلة النسب إلى رسول الله ، فليس فيه نكاح غير صحيح . قال الجاحظ : ومن اعتقد غير هذا فقد كفر .

كذلك هو فى كتاب الحيوان ليس محض ناقل عن الذين سبقوه فيما كتب عن طبائع الحيوان وصفاته ، بل إنه فى سبيل التحقيق العلمى رحل إلى بعض الأمصار ، ومنها مصر أقام بها مدّة ، واختبر ما بها من حيوان . وفى تعقبه لأرسطو وكثرة ردّه عليه دليل على أن قوّة النقد كانت تصحبه فى كلّ ما كتب .

تعريف ببعض كتبه

الحيوان

هو أكبر كتب الجاحظ ، وهو سبعة أجزاء ويقع كله فى نحو ألف صفحة من القطع الكبير ، وهو مطبوع بمصر قام بالإنفاق عليه المرحوم الحاج محمد الساسى المغربى التاجر بمصر ، ومما جاء فى أوله مما يشبه التعريف به والدلالة على ما فيه قول الجاحظ :

(وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان

عربيًّا أعرابيًّا وإسلاميًّا جماعيًّا ، فقد أخذ من طرف السياسة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحسّ ، وإحساس الغريزة ، ويشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك ، ويشتهيه اللاعب كما يشتهيه المجد ذو الحزم ، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب ، ويشتهيه الغبي كما يشتهيه الفطن) .

بدأ الجاحظ كتابه بمقدّمة استغرقت طلع خمسين صفحة ذكر فيها بعضاً من مؤلفاته وأنحى باللوم على العائبين لكتبه ، ثم قسم العالم بما فيه من أجسام إلى جامد ونام ، وجعل النامى النبات والحيوان ، ثم ذكر أقسام البيان ، ثم استطرد إلى مدح الكتب ، ثم تناول موضوع الخط ، ومقدار الحاجة إليه ، ثم خرج إلى الشعر قبل الإسلام ، ثم عاد إلى القول فى شأن الكتب والترغيب فى اصطناعها ، ثم ذكر ما يعترى الإنسان بعد الخصاء ، ثم سرد طرق الخصاء فى البهائم ، ثم ذكر أن الخصى أطول عمراً من الفحل ، ثم تناول الموضوع من الناحية الشرعية ، ورجع إلى القول فى محاسن الخصىّ ومساويه .

ولا تظنّ أنه حين تناول البحث العلمى فى كتابه بذكره للخصاء وما فيه كفّ عن الاستطراد ! ! فهذا ما لا يتصور فى الجاحظ ، فهو غير معفيك من مثل يشرحه وحكمة ينسبها إلى قائلها ، وكلمة يرويها عن صاحبها ، وآية يستدلّ بها على ما يقول ، وقد يستطرد من ذكر الآية إلى أقوال المفسرين فى القرآن ، فيقول :

كان أبو إسحٰق يقول : لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وإن نصبوا أنفسهم للعامة ، وأجابوا فى كلّ مسألة ، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية وعلى غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحبّ إليهم ، فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم ، وقد قالوا فى قوله تعالى : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » ليست المساجد التى نصلى فيها بل هى الجباه والأيدى والأرجل . وكل ما يقع على الأرض عند سجودنا ، وقالوا فى

قوله تعالى : (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) أنه ليس يعنى الجمال والنوق ، وإنما عنى السحاب ، وقالوا فى قوله تعالى : (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ) ، الويل واد فى جهنم ، ثم قعدوا يصفون ذلك الوادى ، ومعنى الويل فى كلام العرب معروف . وقالوا أخطأ من قرأ قوله تعالى : (عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً) ، فوصل بعض هذه الكلمة ببعض ، وإنما هى سل سبيلا إليها يا محمد . فإن كان كما قالوا ، فأين معنى تسمى ؟

وقد قصر الجزأين الأول والثانى على الكلام عن الكلب والديك ، وعقد موازنات ومفاضلات بينهما ، فجعل للكلب صاحباً يحتج له ويذكر محاسنه ، فيرد عليه صاحب الديك برد هذه المحاسن إلى مساوئ ، وإثبات محاسن للديك ، فينكر عليه صاحب الكلب بمثل ما فعل ، وهكذا دواليك . وذلك الأسلوب لعله كان متبعاً عندهم تختبر به قوة الحجة وشدة العارضة . وبين ثبت كتبه تجد كتباً متناقضة ، فكتاب فى « ذم النبيذ » ، وآخر فى مدحه ، وآخر فى « ذمّ الكتّاب » وغيره فى مدحهم .

ثم يبدأ الجزء الثالث بقوله : باب ذكر الحمام ، وما أودعها الله عزّ وجلّ من ضروب المعرفة ، ومن الخصال المحمودة لنعرف بذلك حكمة الصانع وإتقانه وصنعه المدبر وإن كنا قد أمللناك بالجدّ . ثم يستمرّ فى الاعتذار عن خلط جده بالهزل ، فيقول . على أنى قد عزمت — والله الموفق — أنى أوشح هذا الكتاب ، وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإنى رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة ، والأغانى الحسنة ، والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة ، وإن كانت الأوائل قد سارت فى صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح ، وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً ، وقال أبو الدرداء : إنى لأجم نفسى ببعض الباطل كراهة أن أحمل عليها من الحقّ ما يملها ،

ثم يروى جملة فكاهات تضحك كما يقول : كل ثكلان وإن تشدد ، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب ، فقال :

حدثنى المدينى قال : تحول أبو عبد الله الكوفى اللحيانى إلى الحربية ، فادعى أنه فقيه ، وظنّ أن ذلك يجوز له لمكان لحيته وسمته ، وألقى على باب داره البوارىّ(١) وجلس إليه الجيران ، فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الله رجل أدخل أصبعه فى أنفه ، فخرج عليها دم ، فأىّ شىء يصنع ؟ قال : يحتجم ، قال : الرجل قعدت طبيباً أم فقيها ؟ وقال : حدثنى أبو الجهجاه قال : ادعى شيخ عندنا أنه من كندة قبل أن ينظر فى شىء من نسب كندة ، فقلت له يوما وهو عندى : ممن أنت يا فلان ؟ قال من كندة . قلت : من أيهم أنت ؟ قال : ليس هذا موضع الكلام عافاك الله . وقال أخبرنى محمد ابن سليمان قال : قال رجل من أهل الكوفة لرجل من أهل المدينة : نحن أشد حبًّا لرسول الله منكم يأهل المدينة . قال المدنى : فما بلغ من حبك لرسول الله ؟ قال : وددت أنى وقيت رسول الله وأنه لم يكن وقع عليه فى يوم أحد ولا غيره شىء يكرهه إلا كان بى دونه . قال المدنى : أفعندك غير هذا ؟ قال : وما يكون غير هذا ؟ قال : وددت أن أبا طالب كان آمن فسر به النبى وإنى كافر . وجعل يروى من مثل ذلك ونحوه ثمانى صفحات ، ثم استطرد بقوله : وسنذكر من نوادر الشعر جملة ، فإن نشطت لحفظها فإنها من أشعار المذاكرة ، واستمر يروى من الشعر ، وطالت الرواية حتى لقد عقد فى هذا الاستطراد أبواباً ، كباب صدق الفطن ، وجودة الفراسة ، وباب المديح بالجمال وغيره ، ثم إنه بعد نحو خمسين ورقة عاد إلى موضوع الحمام .

وأظنك بذلك لمست جانب الاستطراد فى تأليف الجاحظ ، وليس معنى هذا أن الاستطراد قد اعتدى على الحقائق العلمية ، فإنه بعد هذا الاستطراد كتب فى الحمام

---

(١) البوارى: جمع بورى أو بورية ، وهما الحصير المنسوج كالبورياء ، والبارياء والبارى والبارية .

وحده أكثر من خمسين صفحة ، فوصف أنواعه وذكر طبائعه ، فلم يترك فيه قولا لقائل .

وفى هذا الكتاب يروى الجاحظ عن أرسطو ، ويسميه صاحب المنطق ، ولأرسطو كتاب فى الحيوان نقله ابن البطريق ، وقد اطلع عليه الجاحظ وعرضه على فكره الثاقب وبصيرته النقادة ، فلم يكن يخضع لقول أرسطو ، ويخدع بكونه فيلسوف اليونان الأشهر ، بل قد ناقشه فى عدّة مواضع من الكتاب زيف بها آراءه . فقد روى رأيه فى أن إناث العصافير أطول أعماراً من ذكورها التى لا تعيش إلا سنة واحدة ، فقال والذين زعموا أن البغل إنما طال عمره لقلة السفاد ، والعصفور إنما قصر عمره لكثرة السفاد وغلمته ، لو قالوا بذلك على جهة الظن والتقريب ، لم يلمهم أحد من العلماء والأمور المقرّبة غير الأمور الموجبة ، فينبغى أن يعرفوا فضل ما بين الواجب والمقرب ، وفرق ما بين الدليل ومشبه الدليل . ثم رد على من ادعى أن البلبل لا يستقرّ أبداً ، فقال : وزعموا أن البلبل لا يستقرّ أبداً ، وهذا غلط لأن البلبل إنما يقلق لأنه محصور فى قفص ، والذين عاينوا البلابل والعصافير فى غير أوكارها وغير محصورة فى الأقفاص يعلمون فضل العصفور على البلبل فى الحركة .

وانظر إلى كلامه عن الحيات كيف يهاجم المزاعم الكاذبة والخرافات الهائلة فى بعض أنواع الحيات. قال : والأعراب تقول فى الأصلة قولا عجيباً، تزعم أن الحية التى يقال لها الأصلة لاتمرّ بشىء إلا احترق مع تهاويل كثيرة وأحاديث شنيعة . وتزعم الفرس أن الأجدهانى أعظم من البعير ، وأن لها سبعة رءوس ، وربما لقيت أناساً فتبتلع من جهة كل فم ورأس إنسانا، وهو من أحاديث الباعة والعجائز. وقد زعم صاحب المنطق أنه قد ظهر حية لها رأسان ، فسألت أعرابيا عن ذلك ، فزعم أن ذلك حقّ ، فقلت له : فمن أى جهة الرأسين تسعى ومن أيهما تأكل وتعض ؟ فقال :أما السعى فلا تسعى ، ولكنها تسعى إلى حاجتها بالتقلب كما تتقلب الصبيان على الرمل . وأما الأكل

فإنها تتعشى بفم وتتغدى بفم. وأما العض فإنها تعض برأسيها معاً. فإذا به أكذب البرية.

والكتاب كله على هذا النمط نقل عن صاحب المنطق واستنباط من كلام العرب ، واعتماد على رواياتهم وملاحظة دقيقة واختبار ذاتى ؛ واستطراد إلى مثل ما عرفت . فكلّ هذا جعل الكتاب موسوعة علمية أدبية عديمة النظير .

البيان والتبيين

لعلّ هذا الكتاب آخر ما ألفه الجاحظ ، فقد أشار فيه إلى كتاب الحيوان ، وهو لم يؤلف الحيوان إلا حين كان متقدماً فى السن مريضاً كما يقول ، لذلك نستطيع أن نعتبر كتاب البيان والتبيين مثال النضج والتمام لعلم الجاحظ ، وإن كان فى كل كتبه بمثابة واحدة من تدفق المعرفة وجمع الشوارد والإحاطة الشاملة .

موضوع الكتاب أدب : من شعر ونثر ورواية، وقد استطاع الجاحظ إلى حدّ ما أن يلزم فى هذا المؤلف ما حدّه لنفسه من الكلام فى الأدب ، فإن جميع ما فيه رواية شعر وخطب ومحاورات ، وحكم وأمثال وفكاهة ، وتعرّض للمذاهب من شعوبية وغيرها ، وكلام من مشافهات الأعراب ، وحكم حكمائهم ، وتناول لما كان عند غير العرب كالفرس والروم والهند من فلسفة وحكمة ورواية لشىء من مأثور كلامهم . وكل هذا صادق عليه اسم الأدب لأنه كما يقولون : الإلمام بأطراف العلوم، ومن هنا تدرك السرّ فى أنه لم يتجاوز فيما كتب موضوع الكتاب ، ولكنه مع هذا قد تجلى فيه ما ذكرنا عن الجاحظ من ازدحام معلوماته وسرعة تواردها ؛ فلم يكن يستطيع أن يضبط أفكاره تحت عناوين وأبواب يجمع فيها كل ماهو متناسب ، لم يستطع ذلك ، وهذا شأنه فى كل ما ألف وعذره فيه كثرة معلوماته. وكون التأليف إلى أيامه لم يصر صناعة محكمة الأصول متعارفة المنهج .

وهاك بعضاً من الموضوعات التى تناولها فى كتابه تدرك منها كيف يخضع الجاحظ لحكم المناسبة ، ولا يستطيع ضبط فكره وادّخار معلوماته إلى مواضعها التى تليق بها .

بدأ كتابه بالتعوّذ من العىّ والحصر ، ثم استطرد إلى ما قيل فيهما من شعر ونثر وكلام مروىّ عن العرب وغيرهم ، ثم استطرد إلى ذكر واصل بن عطاء ، وأنه لما كان ألثغ فاحش اللثغ ، وأنه لا بدّ له من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمام الآلة و إحكام الصنعة وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف . . . . أسقط واصل الراء من كلامه ، ثم ذكر شيئاً من كلامه تجنب فيه الراء ، ثم تراه بعد ذلك طفر طفرة ذكر فيها أن أهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، وضرب لذلك أمثلة كثيرة ثم عرض لاستخفاف الناس لبعض الألفاظ وغيرها أحق منها بالاستعمال وضرب لذلك الأمثلة فذكر أن الجوع لم يذكر فى القرآن إلا فى موضع العقاب أو الفقر المدقع والعجز الظاهر والناس يذكرونه فى حال المقدرة والسلامة ، ولا يذكرون السغب . . . .

ثم عقد فصلا لتسمية واصل بالغزال وسبب ذلك ، ثم فصلا لذكر الحروف التى تدخلها اللثغة ، ثم عرض لذكر الخطباء الذين يجمعون بين الخطابة والشعر وعدّد منهم كثيرين ، و إنما أتى بذلك استطرادا حين ذكر رجلا عرف بقرض الشعر وتحبير الكلام ، فأطال فى استطراده هذا ، ثم قال : رجع بنا القول إلى الكلام الأول فيما يعترى اللسان من ضروب الآفات ، فأطال فى ذلك ، وذكر أسماء كثيرين من لُكْن البلغاء والشعراء والرؤساء ، وروى لكلّ منهم قولا أثر عنه وبذلك ختم الباب .

فأنت ترى أن كلّ ما ذكره إلى هنا إنما كان استطراداً لاستعاذته فى أوّل كتابه من العىّ والحصر .

ثم عقد باباً سماه : باب البيان ، ثم آخر سماه : باب ذكر ناس من البلغاء والخطباء والأَبْيِنَاء[1] والفقهاء والأمراء ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطإ والزلل ، ثم باب ذكر اللسان ، ثم باب الصمت ،ثم باب ... ثم يختم الجزء الأول بذكر « باب ما قيل فى المخاصر والعصى وغيرها » .

وهذه الأبواب التى عقدها فى الجزء الأوّل منها ما يطول جدًّا ، ومنها ما يقصر جدًّا ، حتى لا يتعدّى نصف صفحة من الطبعة التى بأيدينا ، وكلّ هذه الأبواب على النمط الذى ذكرناه لا تضمّ أشياء متشابهة متناسبة ، بل قد يعرض لما لاعلاقة بينه و بين عنوان الباب ،ففى كتاب المخاصر والعصى يذكر أن العرب كانت تخطب بالمخاصر ، وتعتمد على القسىّ ، وتشير بالعصا والقنا ، ويذكر شيئاً من الشعر قيل فى ذلك ، ثم إذا عرض لذكر البعيث الشاعر الخطيب ذكر سبب تسميته بالبعيث ، ثم استطرد إلى ذكر كثير من الشعراء ، و بين أسباب تلقيبهم بألقابهم ، ثم قال : ومن الخطباء وجعل يعدد أسماء من الخطباء ، ويذكر أقوالهم ، ونسى ما عقد له الباب وهو العصا والمخصرة ، وكان كلامه فيما عنون له قليلا جدًّا بجنب ما لم يعنون له .

ثم بدأ الجزء الثانى بقوله : أردنا أبقاك الله أن نبتدئ صدر هذا الجزء الثانى من البيان والتبيين بالردّ على الشعوبية فى طعنهم على خطباء العرب ، إذ وصلوا أيمانهم بالمخاصر ، واعتمدوا على وجه الأرض بالقسى والعصى ، ولكنا أحببنا أن نصدّر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين والسلف المتقدمين . . . .

وقد اطرد به الاستطراد ، والخروج من موضوع إلى موضوع حتى انتهى الجزء الثانى من الكتاب ، وهو لم يردّ على الشعوبية فى طعنهم على خطباء العرب مع أنه كما ترى فى عبارته كان يحبّ أن يجعل ذلك بدء الجزء الثانى ، فزحزحه الاستطراد حتى

---

(١) الأبيناء : جمع بين بمعنى مبين .

جعله بدء الجزء الثالث ، فكان أوّله هذا باب العصا عدّد فيه بعض مطاعن الشعوبية على العرب فى عاداتهم التى منها الإشارة ، بالعصىّ ، والاتكاء على أطراف القسىّ ، ولزوم العمائم ، والتحالف على النار ، والتعاقد على الملح ، ثم عقد كتاب الزهد ، فأورد فيه كثيراً من أعلام النسّاك ، وروى كذلك من كلامهم ومواعظهم ، وما روى من أحوالهم وأخلاقهم ، ثم عاد بعد ذلك يقول : ومما يكتب فى باب العصا ـ ومما يزاد فى باب ذكر العصى ، ثم عقد بعد ذلك باباً فى دعاء الصالحين والأعراب ، ثم باباً فى مقطعات من نوادر الأعراب وأشعارهم .

ولعلك قد تمثلت تمام التمثيل تلك الفوضى التى شاعت فى هذا الكتاب ، وهى فوضى لزمت كتب الأدب حيناً طويلاً ، فإن على نمطه ألّف المبرد الكامل ، وابن قتيبة عيون الأخبار ، ولكن هذا العيب أخذ يقلّ حتى صارت الكتب إلى نظام حسن ، وتبويب منسق ، وتفريع من التبويب يتسع ويتشعب ، فوصل التأليف إلى أدقّ نظمه فى مثل كتاب : صبح الأعشى ونهاية الأرب ، ولا شك أن للزمن كما ذكرنا أثراً عظيما فيا كان قديمًا من اضطراب وما صار أخيراً من نظام .

والظاهرة التى تتجلى فى كتاب البيان والتبيين مع كونه كتاب أدب هى أنه قد وضح فيه جلياً كلّ أنوع الثقافات التى تثقف بها العرب إلى زمن الجاحظ ، ففيه ما يدلّ على أن العرب ترجموا عن الفرس والروم والهند ، وعرفوا تاريخ هذه الأمم ، ووقفوا على تاريخ مذاهبها الدينية ، وآرائها الفلسفية ، تعرف ذلك فى كثير مما رواه من حكمة الفرس والهند وفلسفة الروم ، وما عرض له عند الكلام عن بشار من آراء الثنوية ، وماذكره من مزاعم الشعوبية عند الردّ عليهم ببيان فضائل العرب التى عدوها مذامّ ومقابح ، كما أنه على أساس قوىّ من الثقافة العربية الإسلامية : من رواية الشعر والخطب والاستشهاد بالقرآن ، وحديث رسول الله ، وذكر عادات العرب فى قديم أيامها ، وما صاروا عليه بعد إسلامهم .

كذلك يلاحظ أن هذا الكتاب من كتب الأدب هو أول كتاب جمع كثيراً من فنونه وضروب القول فيه ، فقد كانت كتب السابقين لا تشتمل إلا على مبحث من الأدب : كشعر شاعر ، أو قبيلة ، أو جمع جملة من كلام العرب كما فعل أبو عبيدة فى كتابه أدعية العرب ، وكما فعل الأصمعى فى كتاب الأراجيز ومعانى الشعر ، فكأن الجاحظ أول من أخرج للناس فى الأدب كتاباً يجمع الشعر والنثر ، والخطب والأسجاع ، والنوادر والأدعية ، والحكمة والتاريخ ، إلى غير ذلك .

والكتاب بعد يعدّ أعظم وأوثق مصدر للخطباء جاهليهم وإسلاميهم ، كما أنه سجل كذلك لما نقل عنهم من كلامهم ، وكل من ألف فى هذا الباب يروى عنه وينسب إليه .

ويعدّه ابن خلدون أحد كتب أربعة هى أصول فنّ الأدب وأركانه ، وهى : أدب الكاتب لابن قتيبة ، والكامل المبرّد ؛ والنوادر لأبى علىّ القالى ، وهذا الكتاب . وإن كان ابن خلدون قد بالغ فى شأن بعض هذه الكتب ، كأدب الكاتب ، فإنه محق كلّ إحقاق فيما عداه .

مرض الجاحظ وموته

ذكروا فى سبب مرضه بالفالج : أنه اجتمع مع يوحنا بن ماسويه الطبيب على مائدة الوزير إسماعيل بن بلبل أو الوزير أحمد بن أبى دؤاد ، فقدم لهم سمك فأكلوا ثم مضيرة فامتنع يوحنا ، فقال أبو عثمان : لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له ، فإن كان أحدهما ضدّ الآخر فهو دواء له ، وإن كانا من طبع واحد ، فلنحسب أننا أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا ، فقال يوحنا : والله مالى خبرة بالكلام ، ولكن كل يا أبا عثمان ، وانظر

ما يكون غداً ، فأكل أبو عثمان انتصاراً لدعواه ففلج من ليلته ، فقال : هــذه والله نتيجة القياس المحال .

وحدّث المبرد قال : دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه ، فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج ، لو حزّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر مُنَقْرَس[1] لو طار الذباب بقر به لآلمه . وأشدّ من ذلك ست وتسعون سنة .

وقال يومًا لطبيب يشكو إليه علته : اصطلحت الأضداد على جسدى : إن أكلت بارداً أخذ برجلى ، و إن أكلت حارّا أخذ برأسى .

ولا يعلم متى فلج ، ولا كم بقى مفلوجاً ؟ ولكنهم ذكروا أن المتوكل بعث إليه فى السنة التى قتل فيها ، وهى سنة ٢٤٧ هـ ، وطلب أن يحمل إليه من البصرة، فوجدوه لا فضل فيه ، وقال الجاحظ لرسول الخليفة : ما يصنع أمير المؤمنين بأمرئ ليس بطائل ، ذى شق مائل ، ولعاب سائل ، وعقل زائل ، ولون حائل ، فهذه ثمان سنوات من سنة ٢٤٧ هـ إلى ٢٥٥ هـ وهى سنة وفاته قد تحقق فيها أنه مريض ، فكم مكث قبلها ؟ .

وما زال مفلوجاً والناس يزورونه ، وطلاب العلم يحضرون إليه ، وهو يؤلف بعض كتبه ، فقد ذكر أنه كان يؤلف البيان والتبيين وهو مريض . وكان كلّ من مرّ بالبصرة يقصده ويسمع كلامه حتى يتحدّث بأنه جالس الجاحظ ، أو رآه ، وكانوا يعدّون ذلك مفخرة كبيرة .

وقد ذكروا أنه لما حانت منيته سقطت مجلدات الكتب من رفّ كان ينام تحته ، فقضت على مابقى فيه من ذماء ، فسجل هذا الحادث أن حياته كانت للعلم أوّلا وآخراً .

---

(١) من النقرس ، وهو ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين .

مدى شهرة الجاحظ

إن أكثر النابغين إنما يشتهرون بعد مماتهم على حين يكونون فى حياتهم مغمورين لا يكشف حقيقتهم إلا الموت ، ولكن شهرة الجاحظ خرجت عن هذه القاعدة فاشتهر فى حياته شهرة كان من آثارها ما مرّ بك من اعتداد الأندلسيين بكتبه ورفعهم قدر طالب العلم منهم بالمشرق إذا كان قد رأى الجاحظ وتلمذ له ، إلى غير ذلك من إعجاب المتوكل به وطلبه لتعليم أولاده أوّلا ، ثم لمنادمته ثانيا .

كذلك بلغ من شهرته بعد موته أن ألف أبو حيان التوحيدى كتابًا فى بيان فضائله سماه : « تقريظ الجاحظ » ، وقد ضاع هذا الكتاب فيما ضاع من الكتب ، ولكن الحموى نقل فى معجم الأدباء عن أبى سعيد السِّيرَافى : أنه حدثه بأن ثابت ابن قرّة الطبيب الفيلسوف قال : ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة : عمر بن الخطاب ، والحسن البصرى ، والجاحظ ؛ وكان يقال : اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمى العالمَ ثلاثة : الجاحظ ، وعلىّ بن عبيدة ، وأبو زيد البلخى ؛ وكان يقال له جاحظ خراسان ، كما كان ابن العميد من المعجبين بالجاحظ ، وكان يعجبه أن يلقب بالجاحظ الثانى ، وكان من عظيم تقديره له إذا طرأ عليه أحد من منتحلى العلوم ، ومصطنعى الآداب ، وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد والجاحظ ، فإن وجده متفطنًا لمزايا بغداد ، عارفا بقدر رجالها ، قارئًا لشىء من كتب الجاحظ ، ارتفع فى عينه ورضى عن أدبه . وكان ابن العميد يقول : كتب الجاحظ تعلم العقل أوّلاً ، والأدب ثانياً .

وبلغ من شهرته أن ابن الأخشيد علىّ بن عيسى النحوى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، وكان غاية فى كلّ علم قال : ذكر الجاحظ فى مقدمة كتاب الحيوان بعض كتبه ، فكان منها : « الفرق بين النبىّ والمتنبى » ، و « دلائل النبوة » ، ثم أعاد فى الجزء

الرابع ذكر كتاب « الفرق... » وأحببت أن أرى الكتابين فلم أقدر إلا على أحدهما ، وهو « دلائل النبوة » ، وربما لقب بالفرق خطأ، فلما أن حججت أقمت مناديًا ينادى بعرفات حين اجتماع الناس : رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبىّ والمتنبى للجاحظ ، فعاد المنادى بالخيبة ، قال ولكنى بذلك أبلغت نفسى عذرها .

وذكرت متنزهات الدنيا بين يدى ابن دريد ، فقال : هذه متنزهات العيون فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ قالوا : ماهى ؟ قال : كتب الجاحظ وأشعار المحدثين ونوادر أبى العيناء(١) .

وبلغ من شهرة الجاحظ أن كثيراً من المؤلفين كانوا إذا أرادوا شهرة كتبهم نسبوها إلى الجاحظ ، فاستفادوا من ذلك إقبال الناس عليها وتقديرهم لها ، ومن هذه الكتب كتاب « المحاسن والأضداد » ، وأنت إذا نظرت فيه عرفت أنه لغير الجاحظ لأنه ليس إلا عبارات منقولة ، وأقوالاً منسوبة إلى أصحابها . ليس للمؤلف فيه أثر لكلمة أو فكرة . وليس عهدنا بالجاحظ إلا أن يظهر لقارئ كتبه ، ويدله على نفسه بروحه الخفيفة ، وظَرفه المتتابع ، وعبارته الفياضة ، وليس شىء من هذا فى كتاب : (المحاسن والأضداد) . على أنك ترى فيه شعراً منسوبا إلى ابن المعتزّ ، والجاحظ قد مات ، وعمر ابن المعتز ست سنوات ، وهى سن لا تسمح أن يكون قائل الشعر المنسوب إليه إن صحت النسبة . على أن فى أول الكتاب بعضاً من وصف الكتب والثناء عليها مما ورد فى مقدّمة كتاب الحيوان . وما عهدنا الجاحظ يكون ضعيف العبارة جامد الفكر حتى يعيد ذكر شىء سبق له أن كتبه فى كتاب آخر ، وإن أعاد المعنى فهو جدير ألا يعيد اللفظ . ولكن المنقول هنا هو بنصه وفصه الذى ورد فى كتاب الحيوان .

---

(١) قد أحصينا على وجه التقريب جميع ما تفرق فى الكتب من نوادر أبى العيناء فى الترجمة التى عقدناها فى صفحتى ٩١ ، ٩٢ بذيل كتاب « هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام » فارجع إليها هناك ففيها متعة عظيمة ، ودليل واضح على ظرف الرجل وخفة روحه .

وكذلك كتاب (سلوة الخريف ، بمناظرة الربيع والخريف) يدلك عنوانه المسجوع على النحل الظاهر كما تستدلّ على ذلك مما فى داخله من ألفاظ التبجيل للملك المؤلف له كقوله : قوام الملك ونظام الدين . . ومن شعر منسوب لابن المعتزّ وابن الرومى ، وهما لم يكونا إلا بعد الجاحظ ، كذلك كتاب الحنين إلى الأوطان فيه نحو من ذلك وكتاب « الهدايا » ذكر ياقوت أنه مما نسب للجاحظ قديماً .

فهذه الكتب وأمثالها إنما كانت من فعل تجار الكتب « الورّاقين » يحبون أن يستفيدوا من نسبة مايجمعون إلى رجل مشهور كالجاحظ ليأكلوا الخبز باسمه .

والغريب أن الجاحظ كان فى أوائل حياته ، وقبل أن يشتهر ينسب الكتب إلى غيره ليكون لها رواج ، فكما دان الناس دانوه ، وقد قال فى ذلك :

« كنت أؤلّف الكتاب الكثير المعانى الحسن النظم ، وأنسبه إلى نفسى ، فلا أرى الأسماع تصغى إليه ، ولا الإرادات تتيمّم نحوه . ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة وأقلّ فائدة ، وأنحله عبدالله بن المقفع ، أوسهل بن هٰرون ، أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم فى المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها ، لا لشىء إلا لنسبتها للمتقدمين ، ولما يداخل أهل العصر من حسد مَن هو فى عصرهم ومنافسته على المناقب التى عنى بتشييدها » .

مختارات من كلامه

تكلم عبد القاهر الجرجانى فى مقدمة كتاب : « أسرار البلاغة » عن عناية قوم بالبديع وجنايتهم بذلك على المعنى ، فقال : إن أردت أن تعرف مقالا فيما ذكرت لك من أن العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته ، وإلا حيث يأمنون جناية منه عليه ، فانظر إلى خُطب الجاحظ فى أوائل كتبه،

ثم روى من قوله فى أوّل كتاب الحيوان قوله : « جنّبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك و بين المعرفة سبباً . و بين الصدق نسباً ، وحبّب إليك التثبت . وزيّن فى عينك الإنصاف . وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عزّ الحقّ ، وأودع صدرك بَرْد اليقين ، وطرد عنك ذلّ اليأس ، وعرّفك ما فى الباطل من الذلة ، وما فى الجهل من القِلة » .

قال الجرجانى : فقد ترك أوّلا أن يوفق بين الشبهة والحيرة فى الإعراب ، ولم ير أن يقرن الخلاف إلى الإنصاف ، و يشفع الحقّ بالصدق ، ولم يعن بأن يطلب لليأس قرينة تصل جناحه ، وشيئاً يكون رديفاً له لأنه رأى التوفيق بين المعانى أحقّ والموازنة فيها أحسن ، ورأى العناية بها حتى تكون أخوة من أب وأمّ ، و يذرها على هذا تتفق بالوداد على حسب اتفاقها بالميلاد أولى من أن يدعها لنصرة السجع ، وطلب الأوزان أولاد عَلة عسى ألا يكون بينها وفاق إلا فى الظواهر .

ومن محاسن ما كتب الجاحظ يصف الكتب ، ويبين فضيلتها قوله فى كتاب الحيوان :

الكتاب نعم الذُّخْر والعُقْدة[1] ، ونعم الجليس والعُمدة ، ونعم النُّشْرة[2] والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل[3] ، ونعم الوزير والنزيل ، والكتاب وعاء ملىء علماً ، وظَرف حشى ظرفاً ، و إناء شحن مزاحاً وجدًّا ، إن شئت كان أبين من سحبان وائل ، و إن شئت كان أعيا من باقل ، و إن شئت ضحكت من نوادره ، و إن شئت عجبت من غرائب فرائده ، و إن شئت ألهتك طرائفه ، و إن شئت أشجتك[4] مواعظه ، ومن لك بواعظ مُلْهٍ ، و بزاجر مُغْرٍ ، و بناسك فاتك ، و بناطق أخرس ، و ببارد حارّ ، ومن لك

(١) العقدة : العقار .
(٢) النشرة : رقية يعالج بها المجنون أو المريض .
(٣) الدخيل : الصديق المداخل .
(٤) شجاه كأشجاه : أحزنه .

بشيء يجمع الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والخفى والظاهر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغثّ والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ؟ و بعد : فما رأيت بستاناً يحمل فى رُدْن[1] ، وروضة تقلب فى حجر ، وناطقاً ينطق عن الموتى ، و يترجم عن الأحياء ، ومن لك بمؤنس لاينام إلا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تهوى ، آمن من الأرض ، وأكتم للسرّ من صاحب السر ، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة . . . ، ولا أعلم جارًا أبرّ ، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ، ولا أقلّ جناية و إملالاً ، ولا أكثرأعجوبة وتصرّفاً، ولا أقل تصلُّفاً وتكلفاً ، ولا أبعد من مراء ، ولا أترك لشغب ، ولا أزهد فى جدال ، ولا أكف عن قتال ، من كتاب . . ولا أعلم قريناً أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافأة ، ولا أحضر معونة ، ولا أقلّ مؤونة ، ولا شجرة أطول عمرًا ، ولا أجمع أمرًا ، ولا أطيب ثمرة ، ولا أقرب مجتنى ، ولا أسرع إدراكاً ، ولا أَوْجَدَ فى كل إبّان من كتاب.. ولا أعلم نِتاجاً فى حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورُخص ثمنه ، و إمكان وجوده يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الاخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ما يجمع لك الكتاب . والكتاب هو الجليس الذى لا يطريك ، والصديق الذى لا يقليك ، والرفيق الذى لايملك ، والمستميح الذى لا يؤذيك ، والجار الذى لايستبطئك والصاحب الذى لا يريد استخراج ماعندك بالملق ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق ، والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحذ طباعك ، و بسط لسانك ، وجوّد بيانك ، وفخم ألفاظك ، وعمر صدرك وحباك تعظيم العوام ،

---

(١) الردن : الكمّ .

ومنحك صداقة الملوك . يطيعك بالليل طاعته بالنهار ، وفى السفر طاعته فى الحضر ، وهو المعلم الذى إن افتقرت إليه لم يَحْقِرك[١] ، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ، وإن عزلت لم يدع طاعتك ، وإن هبت عليك ريح أعدائك لم ينقلب عليك ، ومتى كنت متعلقاً به ، ومتصلاً منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى قرين السوء ، وإن أمثل ما يقطع به الفُرّاغ[٢] نهارهم ، وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم نظر فى كتاب لا يزال لهم فيه أبداً ازدياد فى تجربة وعقل ومروءة ، وصون عرض ، وإصلاح دين ، ومال ، ورَبّ[٣] ، صنيعة ، وابتداء إنعام ، ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، ونظرك إلى المارّة بك مع ما فى ذلك من التعرّض للحقوق التى تلزم ، ومن فضول النظر ، وملابسة صغار الناس ، ومن حضور ألفاظهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة لكان فى ذلك على صاحبه أسبغ النعمة وأعظم المنة .

ومن إخوانياته كتابه إلى إبراهيم بن المُدَبِّر .

ما ضاء لى نهار ، ولا دجا لى ليل ، منذ فارقتك إلا وجدت الشوق إليك ، قد حزّ فى كبدى ، والأسف عليك قد أُسْقَط[٤] فى يدى ، والنزاع نحوك قد خان جلدى ، فأنا بين أحشاء[٥] خافقة ، ودمعة مُهْرَاقة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد ، وجوانح قد بَلِيت[٦] بما تكابد ، وذكرت وأنا على فراش الارتماض[٧] ممنوع من لذّة الاغتماض قولَ بشار :

---

(١) حقره (كضرب) : أذله .
(٢) الفراغ : جمع فارغ ، وهو الخالى من العمل .
(٣) الرب : التنمية .
(٤) فى الأساس سقط فى يده (بالبناء للفاعل) : ندم ، والهمزة هنا للتعدية أى أن الأسف يجعلنى أسقط فى يدى : أى أندم .
(٥) فى الأصل حشا ، وليس فى كتب اللغة ما يبرر أن تكون حشا مؤنثة لذلك جعلناه أحشاء .
(٦) بلى الشيء (كرضى) : أصابه البلى وذهبت جدته .
(٧) الارتماض : من قولهم ارتمض من كذا إذا اشتد عليه وأقلقه .

إذا هَتَفَ القُمْرِىّ نازعنى الهوى بشوق فلم أَمْلِكْ دُمُوعِى من الوَجْدِ
أبى اللهُ إلاَّ أن يُفَرِّقَ بَيْنَنَا وكُنَّا كماء المُزْنِ شِيبَ مَعَ الشَّهْدِ
لقد كان ما بينى زماناً وبَيْنَهَا كما كان بين المِسْكِ والعنبر الوَرْدِ[1]

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه ، ونجرى فى مودّتنا إليه فى شعره هذا . وذكرت أيضاً مارمانى به الدهر من فرقة أعزائى من إخوانى الذين أنت أعزهم ويمتحننى بمن نأى من أحبائى وخُلصانى[2] الذين أنت أحبهم وأخلصهم ، ويُجَرِّعُنِيه من مرارة نأيهم وبُعْد لقائهم ، وسألت الله أن يَقْرِن آياتِ سرورى بالقرب منك ، ولينَ عيشى بسرعة أوبتك .

وكتب إلى قليب المغربى يتشوّق : والله ياقُلَيب لولا أن كبدى فى هواك مقروحة ، وروحى بك مجروحة ، لساجلتك هذه القطيعة ، وماددتك حبل المصارمة ، وأرجو الله تعالى أن يُدِيل صبرى من جفائك ، فيرُدّك إلى مودّتى ، وأنف القلى راغم ، فقد طال العهد بالاجتماع حتى كِدْنا نتناكر عند اللقاء .

وكتب إلى الفتح بن خاقان فى يوم عيد :

أخرتنى العلة عن الوزير (أعزّه الله ، فحضرت بالدعاء فى كتابى لينوب عنى ويعمر ما أخلته العوائق منى ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركةً على الوزير ، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحبّ ويُحَبّ له ، ويقبل ما توسل به إلى مرضاته ، ويضاعف الإحسان إليه على الإحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ، ولباس العافية ، ولا يريه فى مسرّة نقصاً ، ولا يقطع عنه مزيداً ، ويجعلنى من كلّ سوء فداءه ، ويصرف عيون الغير عنه ، وعن حظى منه .

وكتب يستنجز : أما بعد فقد رَسَفْنا فى قيود مواعيدك ، وطال مقامنا فى سجون

---

(١) العنبر هنا : الزعفران ، والورد : اسم له ، وأصله وصف كما يقال أسد ورد .
(٢) خلصان : جمع خلص (بالكسر) وهو الخدن ، ويجمع على خلصاء أيضا .

مَطْلك فأطلقنا (أبقاك الله) من ضيقها ، وشديد غمها بنَعَمْ منك مُثْمِرَةٍ ، أو « لا » مُرِيحةٍ .

مجالس العلم والمناظرة

إن المتتبع لتاريخ هذه الدولة يجد أن العلم فيها كان جليل القدر رفيع الشأن دعا إليه الخلفاء ، وتنافس فيه الأمراء ورفل به أهله فى حلل الثراء .

وقد كانت له حركة دائبة منذ ظهرت هذه الدولة ، فهذا الخليفة أبو جعفر المنصور يحجّ ، فيدعو الإمام مالك بن أنس إلى وضع الموطأ ، ويرسم له خطته حتى يقول مالك لقد علمنى التأليف ، ثم هو يستدعى ابن المقفع ، فيأمره بأن يترجم له إيساغوجى وغيره ، ويستدنى جرجيس بن بختيشوع رئيس أطباء جنديسابور ، فيحمله على أن يترجم له فى الطبّ ، ويعطيه على بخله عشرة آلاف دينار ، وهذا غيره من الخلفاء : كالرشيد ، والمأمون ، ووزرائهم ، كالبرامكة ، والفضل بن سهل وغيرهم يقربون منهم علماء اللغة ، وشعراء العربية ، وتراجمة العلوم ، ويجودون فى سبيل ذلك بالعطاء ، ولا يكتفون بالحثّ وبعث الهمم ، بل يكونون هم أنفسهم أدباء شعراء علماء ناظرين فى كلّ علم مناظرين فيه أهله ، فقد حكوا عن المأمون أنه كان يجمع العلماء من كلّ فنّ ، ويناقشهم واحداً واحداً . فربما غلبهم جميعاً .

ثم يأتى من بعد هؤلاء خلْف ،وهم ملوك الدول الناشئة فى الدولة العباسية فيتشبهون بالخلفاء ، ويسترضون العامة بمثل أعمالهم ، ويبالغون فى تقريب العلماء ، والاستئثار بمشهوريهم ، ويطلبون إليهم تأليف الكتب برسمهم ، فتكثر الكتب ، ويعظم شأنها وتعلو قيمتها حتى يعطى سيف الدولة بن حمدان أبا الفرج الأصبهانى ألف دينار ثمناً لكتاب الأغانى ويعتذر إليه .

فهذه حال تجعل الناس يحرصون على العلم ، وينضون فى سبيله مطايا الطلب ، ويقاسون الأسفار البعيدة طلباً لحديث ، أو رغبة فى لقاء راوية . كما أنهم داخلوا الأعراب فى باديتهم ، وعاشروهم فى أخبيتهم طلباً للغة وضبطاً لألفاظها ، والتماساً لفصيحها ، فراجت بذلك سوقهم عند الخلفاء ، ووطئوا أعتابهم بهذا العلم ، وأدنيت مجالسهم ، بل استحقوا أن يقوم الخلفاء بخدمتهم توقيراً للعلم ، فقد صبّ الرشيد الماء على يدى أبى معاوية الضرير وهو يغسلهما ، وإذا كان خلفاء بنى أمية قد قرّبوا الشعراء ورواة اللغة ، وأهل الأخبار ، فذلك منهم أشبه بأن يكون سلوة واستطرافاً وباباً من أبواب المنادمة لا يدعو إليه فى رأيهم خدمة للدّين ، أو إحياء لسنته ، أو إبقاء على القرآن حتى لا يستغلق معناه على الناس بدليل أن اهتمامهم كان من ناحية واحدة هى ناحية الرواية لأمور الجاهلية ، والإحياء لآدابها ، فهم قد بذلوا فى هذه السبيل دون غيرها ، ولم نرهم قرّبوا محدثاً ، أو أحسنوا إلى فقيه ، وإنما كان هؤلاء يجدّون فى عملهم إحياء للدين ، وطلباً للثواب من الله كما كان يفعل ابن عباس وغيره من الصحابة والتابعين من بعدهم .

أما بنو العباس فحاديهم إلى ذلك ورع ورغبة فى إحياء السنة ، وحرص على القرآن ثم مسايرة للمدنية ، واستكمال لدواعيها ، فتجردوا فى هذا ، وبذلوا الكثير من المال ، فكان لعطاياهم أثر عظيم فى التشمير فى سبيل العلم حتى رأيناه متعلق كل همة ، ومناط كل أمل ، وحتى رأينا الناشئ ينشأ فى المهنة الحقيرة ، فما هو إلا أن يحسّ باستطاعته للغامرة فى هذا التيار حتى تراه قد غامر فيه ، فإذا هو يوماً ما شاعر الخليفة ، أو قاضيه أو نديمه ، وإذا هو يثرى من عطائه ، ويصير من ذوى الأحساب ، ولا حسب له إلا علمه وأدبه ، فهذا أبو نواس كان غلام عطار بالبصرة ، ثم صار شاعر الخلافة ، وكذلك أبو العتاهية كان يصنع الجرار ويبيعها على ظهره بالكوفة ، ثم يصير من كبار الشعراء ويُدِلّ على الرشيد فلا يجيبه إلى قول الشعر فيحبسه ويضربه ، والزجاج كان يخرط

الزجاج ، ثم اشتهى تعلم النحو فلازم المبرّد ، وكان لايعلم إلا بأجر وكان كسب الزجاج درهماً ونصفا فى اليوم ، فاشترط للمبرّد أن يعطيه درهماً فى كل يوم إلى أن يفرق بينهما الموت ، وقد وَفى بتعهده فأخلص المبرد فى تعليمه ، ثم صار الزجاج يعلم القاسم بن عبيد الله الذى صار وزير المعتضد ، فكان ذلك سبب ثراء الزجاج ، وهذا أبو تمام كان يسقى المـاء بالجرة فى جامع الفسطاط ، ثم هو يَحُلّ بموضع التّجِلّة من رجال الدولة ، فيتولى بريد الموصل ، والجاحظ كان يبيع الخبز والسمك بسوق سيحان ، ثم يصير صديق الوزراء ، ونديم الخلفاء ، ثم هو يعيش أرفه عيش من كتبه التى يتقاضى عن الواحد منها آلاف الدنانير ، إلى غير هؤلاء ممن رفعهم العلم .

من أجل هذا كثرت مجالس العلم وتعددت حلقاته ، وشاعت المناظرة فيه، فكنت ترى هذه المجالس ، وتلك المناظرات فى المساجد الجامعة كالحرمين الشريفين ، والمسجد الأقصى ، ومسجد بنى أمية بدمشق ، ومساجد البصرة والكوفة ومصر : كالجامع الأزهر ، ومسجد أحمد بن طولون ، وجامع الحاكم ، كذلك مجالس العلم فى دور الخلفاء والأمراء ، وفى الأسواق العامة كالمِرْبَد بالبصرة ، والكُناسة بالكوفة ، والعَقِيق بالمدينة ، وفى أندية الشعراء ببغداد وغيرها ، وكان للشعراء مجتمعات كثيرة فى مقاصر القصور ، وحانات الخمور ، والأديرة ، والرّياض والبساتين ، وشواطئ البرك والأنهار .

وقد كانت المناظرات متنوعة ، فمنها نوع هادئ لاخطر منه على الاجتماع لأنه لم يكن يتعلق بالعقيدة الدينية التى يستهين المرء فى الدفاع عنها بروحه، وذلك مثل مناظراتهم فى النحو والأدب وفهم الشعر وتفسيره ، أما المناظرات الحادة التى كانت تتعلق بالعقائد ، فقد كانت خطرة تراق فيها الدماء فى كثير من الأحيان كفتنة خلق القرآن التى أشعل جَذْوتها المأمون ، واستباح فيها الدماء ، والأذى لأولياء الله من العلماء ، وقد تبعه فى طريقه المعتصم ، ثم ابنه الواثق حتى زال عن الناس شرها أيام المتوكل ولكنه بين حين وآخر كانت الفتن تهُبُّ فى بغداد بين الحنابلة المتشددين فى دينهم وبين أصحاب الآراء

المتطرفة ممن قرءوا الفلسفة ووَلِعوا بآرائها ، وكان العامة يساهمون فى هذه المناظرات فتصير إلى نضال وكفاح لا يقف عند الحجة بل ينتهى إلى القتال .

أمثلة من المناظرات الأدبية

١ — قيل كتب الرشيد فى ليلة من الليالى إلى أبى يوسف صاحب أبى حنيفة : أفتنا حاطك الله فى هذه الأبيات :

فإنْ تَرْفُقِى يا هند فالرِّفْقُ أيمنٌ ... وإن تَخْرُقى يا هند فالخُرْقُ أشأم
فأنتِ طَلَاقٌ والطّلاقُ عَزِيمَةٌ ... ثلاثاً ومن يَخْرُقْ أَعَقُّ وأَظْلَمُ

فقد أنشد البيت عزيمة ثلاث بالرفع ، وعزيمة ثلاثاً بالنصب. فكم تطلق بالرفع ، وكم تطلق بالنصب ؟ قال أبو يوسف : فقلت فى نفسى هذه مسألة فقهية نحوية إن قلت فيها بظنى لم آمن الخطأ ، وإن قلت لا أعلم قيل لى كيف تكون قاضى القضاة ، وأنت لا تعرف مثل هذا ، ثم ذكرت أن أبا الحسن حمزة بن على الكسائى معى فى الشارع ، فقلت ليكن رسولُ الخليفة بحيث يكرم ، وذهبت فدخلت على الكسائى وهو فى فراشه ، فأقرأته الرقعة ، فقال لى خذ الدواة واكتب : أما من أنشد البيت بالرفع ، فإنه طلقها واحدة ، وأنبأها أن الطلاق لا يكون إلا بثلاثة ولا شىء عليه . وأما من أنشد عزيمة ثلاثاً ، فقد طلقها وأبانها لأنه قال : أنت طالق ثلاثاً . فأنفذت الجواب فحملت إلىّ آخر الليل جوائز وصلات فوجهت بالجميع إلى الكسائى .

٢ — قال حماد بن إسحٰق عن أبيه قال كنا عند الرشيد فحضر الأصمعى والكسائى فسأل الرشيد عن بيت الراعى :

قتلوا ابن عفّان الخليفةَ مُحْرِمًا ... ودعا فلم أَرَ مِثْلَه مَخْذُولاَ

فقال الكسائى : كان قد أحرم بالحجّ ، فضحك الأصمعى وتَهانَفَ[1] ، فقال الرشيد :

(١) التهانف : ضحك النساء خاصة ، أو ضحك فى فتور كضحك المستهزئ .

ماعندك ؟ فقال : والله ما أحرم بالحج ، ولا أراد أيضاً أنه دخل فى شهر حرام كما يقال أشهر وأعام إذا دخل فى شهر أوعام . فقال الكسائى : ما هو إلا هذا ، وإلا فما المعنى للاحرام . قال الأصمعى : فخبرنى عن قول عدىّ بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يمتع بكفن

أىّ إحرام لكسرى ، فقال الرشيد : فما المعنى ؟ قال يريد أن عثمان لم يأت شيئاً يوجب تحليل دمه ، فقال الرشيد : يا أصمعى ما تطاق فى الشعر .

٣ — قال يحيى بن المبارك : كنا فى مجلس أبى عمرو بن العلاء ، فجاءه عيسى ابن عمر الثقفى ، فقال : ماشىء بلغنى عنك أنك تجيزه . قال : وماهو ؟ قال : بلغنى أنك تجيز ليس الطيب إلا المسك بالرفع ، فقال له أبو عمرو : هيهات نمت وأدلج الناس ، ثم قال لى أبو عمرو : تعال أنت يا يحيى ، وقال لخلف الأحمر : تعال أنت ياخلف امضيا إلى أبى مَهْدِيَّة ، فلقناه الرفع فإنه يأبى وامضيا إلى المنتجع بن نبهان التميمى ، فلقناه النصب فإنه يأبى . قال : فمضينا إلى أبى مَهْدِيَّة ، فوجدناه قائماً يصلى ، فلما قضى صلاته أقبل علينا ، فقال : ما خطبكما ؟ فقلت جئناك لنسألك عن شىء من كلام العرب ، فقال : هاتياه ، فقلنا : كيف تقول ليس الطيب إلا المسك ، فقال : أتأمرانى بالكذب على كبر سنى فأين الزعفران وأين الجاوى ، فقال له خلف الأحمر : ليس الشراب إلا العسل، فقال : فما تفعل سودان هجر ؟ مالهم غير هذا التمر ، فلما رأيت ذلك قلت له : كيف تقول : ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله، فقال : هذا كلام لادخل فيه ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها ونصب فلقناه الرفع فأبى ، فكتبنا ما سمعنا منه ، ثم جئنا إلى المنتجع ، فقلنا له كيف تقول : ليس الطيب إلا المسك ونصبنا ، فقال : ليس الطيب إلا المسك ورفع ، وجَهَدنا به أن ينصب فلم ينصب ، فرجعنا إلى أبى عمرو وعنده عيسى ابن عمر لم يبرح بعد ، فأخبرناه بما سمعنا ، فأخرج عيسى خاتمه من يده ، فدفعه إلى أبى عمرو وقال : بهذا سدت الناس يا أبا عمرو .

٤ — حدث النَّضْر بن شُمَيْل قال: كنت أدخل على المأمون فى سمره، فدخلت عليه ليلة فدار الحديث على ذكر النساء ، فقال المأمون : حدث هشام عن مجاهد عن الشعبى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تزوّج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سَـداد من عوز « فأورده بفتح السين » قلت : صدق يا أمير المؤمنين هشام ، حدّثنا عوف بن أبى جميلة عن الحسن عن علىّ كرّم الله وجهه عن رسـول الله : إذا تزوّج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سِداد من عوز ، « وأوردها بكسر السين » ، وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً وقال : يا نضر ، كيف قلت سِداد ؟ فقلت نعم، لأن السَّداد هنا لحن . قال: أوتلحننى ؟ قلت : إنما لحن هشام وكان لحاناً فتبع أمير المؤمنين لفظه قال : فما الفرق بينهما ؟ قلت : السَّداد « بالفتح» القصد فى الدّين والسبيل ، و « بالكسر » البلغة ، وكلّ ماسددت به شيئاً فهو سداد. قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قلت : نعم ، هذا العَرْجِىّ يقول :

أضاعونى وأىَّ فتًى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسِدَادِ ثَغْرْ

قال المأمون : قبح الله من لا أدب له وأطرق مليًّا ، ثم قال : ما حالك يا نضر ؟ قلت : أُرَيْضَةٌ لى بمرو أتَصَابُّها وأتمزّزها « أشرب صبابتها » . قال : أفلا أفيدك مالا معها ؟ قلت : إنى إلى ذلك لمحتاج . قال : فأخذ القرطاس وأنا لا أدرى ما يكتب ، ثم قال : كيف تقول فى الأمر من أن يُتْرَبَ الكتابُ(١) ؟ قلت : أتربه . قال فمن الطين . قلت : طِنْه . قال : فما هو ؟ قلت : مَطِينٌ . قال : هذه أحسن من الأولى . ثم قال : يا غلام تبلغ به إلى الفضل بن سهل . قال : فلما قرأ الفضل الكتاب . قال : يا نضر ، إن أمير المؤمنين أمر لك بخمسين ألف درهم فما كان السبب ؟ فأخبرته ولم أكذبه، قال

---

(١) نرى أنه لابد من قراءة الفعل (يترب) بالبناء للمجهول حتى لا يظهر نوعه أهو ثلاثى أم رباعى فيكون للسؤال وجه .

لحنت أمير المؤمنين ؟ قلت : كلا إنما لحن هشام ثم أمر لى الفضل من خاصة ماله بثلاثين ألف درهم ، فأخذت ثمانين ألفا بحرف استفيد منى .

٥ — عن أبى عُبَيْدَة مَعْمَر بن الْمُثَنَّى قال : أرسل إلىّ الفضلُ بن الربيع أن أَقْدَمَ عليه ببغداد ، فلما قدمتها استأذنت عليه ، فأذن لى وهو فى مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه ، وفى صدره فرش عالية ، لايرتقى إليها إلا على كرسى وهو جالس عليها ، فسلمت عليه بالوزارة ، فردّ وضحك إلىّ واستدنانى حتى جلست على فرشه . ثم سألنى وألطفنى وباسطنى ، وقال : أنشدنى فأنشدته ، فطرب وضحك . وزاد نشاطه ، ثم دخل رجل فى زىّ الكتاب له هيئة ، فأجلسه إلى جانبى وقال له : أتعرف هذا ؟ قال لا . قال هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه ، فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا ، وقال لى : إنى كنت إليك مشتاقا . وقد سألت عن مسألة ، أفتأذن لى أن أعرفك إياها ؟ قلت هات . قال : قال الله عزّوجلّ : « طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءوسُ الشَّيَاطِين » ، وإنما يقع الوعد والوعيد بما قد عرف مثله ، وهذا لم يعرف . قلت : إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم . أما سمعت قول امرئ القيس :

أَيَقْتُلُنِي والَمشْرَفِيُّ مُضَاجِعِى ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

وهم لم يروا الغول قط ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به .

٦ — قال الأصمعى بعث إلىّ الأمين ، وهو ولى عهد فصرت إليه ، فقال إن الفضل ابن الربيع يحدث عن أمير المؤمنين أنه يأمر بحملك إليه وكان بالرقة يومئذ ، فجهزت وحملت إليه ، فلما وصلت استرحت ثلاثة أيام ثم أدخلنى الفضل بن الربيع على الرشيد ، فاذا هو جالس منفرد فسلمت فاستدنانى وأمرنى بالجلوس فجلست فقال ياعبد الملك وجهت اليك بسبب جاريتين أهديتا إلىّ قد أخذتا طرفا من الأدب أحببت أن تَبُور ماعندهما وتشير فيهما بما هو الصواب ثم استدعى الجاريتين فسألت احداهما عن حروف من القرآن

فأجابتنى كأنها تقرأ من كتاب وسألتها عن النحو والعروض والأخبار فما قصّرت ثم سألتها هل تقرضين الشعر فاندفعت تقول :

يا غِياثَ البلادِ مِنْ كُلِّ مَحْلٍ ... مايُرِيدُ العبادُ الاّ رِضاكَا
لاَ وَمَنْ شَرّفَ الإمامَ وأَعْلَى ... ماأطاع الإلٰهَ عبدٌ عصاكا

فقال يا أمير المؤمنين مارأيت امرأة فى مَسْك[1] رجل مثلها ، وسأل الأخرى فوجدها دونها وبعد حديث طويل وسمر مع الخليفة أمر له بمائة ألف درهم ، وأمر له الفضل بعشرة آلاف وأشركته الجارية الأولى فى عطائها .

٧ — حكى أبو العباس المبرد قال : قصد أبا عثمان المازنى رجل من أهل الذمة ليقرأ عليه كتاب سيبويه وبذل له مائة دينار على تدريسه فامتنع أبو عثمان وأضب على رده قال فقلت له جعلت فداك أتردّ هذه النفقة مع فاقتك وشدة اضاقتك . قال ان هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة ، وكذا وكذا آية من كتاب الله ولست أرى أن أمكن منها ذميا غيرة على كتاب الله وحمية له . قال فاتفق أن أشخص إلىّ الواثق ، وكان السبب فى ذلك أن جارية له أغنت :

أظلومُ إنّ مُصَابَكُمْ رجلا ... أهدى السلامَ تحيةً ظُلْمُ

فرد عليها بعض الناس نصبها رجلا وتوهم أنه خبر إن ، وليس كذلك وإنما هو معمول لمصابكم ، لأنه فى معنى أصابتكم وظلم خبر إن . فقالت الجارية لا أقبل هذا ، وقد قرأته على أعلم الناس بالبصرة أبى عثمان المازنى ، فلما دخل المازنى على الخليفة . قال له من خلفت وراءك؟ قال له خلفت أخية أصغر منى أقيمها مقام الولد فقال : ماقالت لك حين خرجت قلت طافت حولى . وقالت وهى تبكى أقول لك يا أخى ماقالت بنت الأعشى لأبيها وهو :

---

(١) المسك : الجلد أو خاص بالسخلة (وهى ولد الشاة ما كان)

تَقُولُ ابنتى حين جَدَّ الرحيلُ أرانا ســـواءً ومَنْ قَدْ يَتِم (١)
أبانَا فلا رِمْتَ من عِنْدِنَا فإنّا بخـــير إذا لم تَرِمْ
تَرَانا إذا أَضْمَرَتْكَ البلادُ نُجْـــفَى وتُقْطَعُ منَّا الرَّحِمْ

قال فما قلت لها ؟ قال : قلت أقول لك يا أخية ما قال جرير لزوجته أمّ حَزْرة :

ثِـقِى بالله ليس له شريكٌ ومن عنـد الخليفة بالنجاح

فقال : لاجرم إنك ستنجح ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وفى غير هذه الرواية أنه لما دخل عليه قال له با اسمك ؟ قال : المازنى أراد أن يعلمنى معرفته ابدال الباء مكان الميم فى هذه اللغة ، فقلت بكر بن محمد المازنى ، فقال مازن بنى شيبان ، أم مازن بنى تميم ؟ قلت : مازن بنى شيبان . قال حدثنا ، قلت : يا أمير المؤمنين هيبتك تمنعنى ، وقال الراجز :

لا تَقْلُوها وادْلُواها دَلْوَا إن مع اليـــوم أخاهُ غَدْوَا

قال فسّره . قلت لا تقلواها : لاتعنفا بها فى السير ، يقال : قلوت إذا سرت سيراً عنيفاً ، ودلوت : إذا سرت سيراً رفيقاً ، ثم أحضر التَّوَّزِى ، وكان فى دار الواثق ، وكان قد قال : إن مصابكم رجل توهما أنه خبر إن ، فقال له المازنى : كيف تقول إن ضربك زيداً ظلم . قال التوزى : خبر ، وفهم المسألة :

٨ — سئل المازنى بحضرة المتوكل عن قوله تعالى : « وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا » فقيل له كيف حذفت التاء و بقى فعيل ، وفعيل إذا كان بمعنى فاعل لحقته التاء نحو فتىّ ، وفتية ؛ فقال : إن بغيا ليست بفعيل ، وإنما هى فَعُول بمعنى فاعلة لأن الأصل فيها بَغُوى ، ومن أصول التصريف إذا اجتمعت الواو والياء والسابق منهما ساكن

---

(١) يتم (كعلم وضرب) : صار يتيما .

قلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء فى الياء كما قالوا شويت شيًّا ، وكويت الدابة كيًّا ، فعلى هذه القضية بغى ، ووجب حذف التاء منها لأنها بمعنى باغية كما تحذف من صبور بمعنى صابرة .

المناظرات فى العقائد

تسرّبت إلى المسلمين آراء لم يرضها السلف الصالح ، وكان ذلك قبل أن يترجم شىء من العلوم ، فقد كانوا فى العصر الأموى يختلفون بين شيعة ومعتزلة ومرجئة وجماعية ، ولبعض هذه الفرق آراء تطرفوا فيها وغلوا ، وإنما كان منشأ هذا أن الإسلام دعا إلى توحيد الله من طريق النظر فى آثاره ، وتلك حكمة من الشارع ليؤمن من آمن عن بينة ، وليظل باب الإيمان مفتوحا لمن ضل سواء السبيل حيناً ، حتى إذا ثاب إلى رشده ، وحكم فكره كف عن غيه ، ودخل فى الإسلام مقتنعاً بصحته ، فيستطيع الدفاع عن عقيدته ، ولكنّ قوما أساءوا استعمال هذه الحرية فجروا وراء مزاعمهم فضلوا الطريق . كذلك كان دخول كثيرين فى الإسلام من أهل الديانات الأخرى داعياً إلى مزجهم معتقداتهم القديمة بدياناتهم الجديدة ، فحدثت لهم شبه وشاعت بين إخوانهم من المسلمين ، أوهم تعمدوا إفساد الدين بإفساد أصوله ، فكل هذه العوامل اجتمعت ، فكان من آثارها ما كان من افتراق المذاهب فى العقائد حتى كان بعضهم يكفر بعضاً ، وقد كان جدال فى هذه العقائد فى العصر الأموى حتى أن القول بخلق القرآن كان يقوله الجعدى مربى مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، ولكن هذا الجدل اتخذ مظهر الحدّة فى عهد الدولة العباسية ، وقد ساعد على ذلك إطلاق الخلفاء العباسيين الحرية للناس فى تفكيرهم واعتقادهم مالم يمس ذلك خلافتهم حتى إذا رأوا سوء أثر هذه الحرية عادوا يتشددون ، وكذلك كان من الأسباب ضعف الإيمان

عند بعض ، واستيلاء الآراء الفلسفية على عقول بعض ، وشدة الورع ، والتحرج فى الدين عند من ظلوا على نهج السلف الصالح محاذرين الوقوع فى الإبداع ، ومجانبين كل ما يدنيهم من الشبهة . فالتشدد من هؤلاء ، و إطلاق العِنان[1] للفكر من أولئك وسع مسافة الخلف حتى كانت فتن ، وسالت دماء ، وأبيحت ذمم ، وأقوى ما تكون المحنة فى ذلك إذا دان صاحب السلطان برأى ، فإنه يتخذ من قوة سلطانه عونا على مخالفيه فى رأيه ، فيشتد الكرب بالناس ، وتكثر المآسى المفظعة .

فهذه محنة القول بخلق القرآن أوذى فيها كثير من العلماء من أهل الورع : بالحبس والضرب، بل لقد قتل المعتصم منهم كثيرين، ولكنها مع ذلك تعتبر فتنة ضيقة النطاق. أما المحنة التى ينصب فيها الشر على رءوس جماهير كثيرة من عامة الشعب فتلك ما حدث فى الدولة الفارسية بالعراق وهى شيعية تتعصب لآل علىّ ؛ وكذلك الدولة الفاطمية بمصر ، فإنها كانت تحارب أهل السنة أشد حرب ، وعداء دولة لفريق عظيم من شعبها فظيع الأثر ، طويل الأمد ، ظاهر البغى .

القول بخلق القرآن

لم يكن قبل المأمون أحد من العلماء الذين يرون خلاف رأى الجمهور يستطيع أن يظهر رأيه ، ولكن المأمون هو الذى شجعهم على ذلك فإنه كان بمرو قبل دخوله بغداد يجالس العلماء ويناقشهم ، ثم لما دخل بغداد أمر يحيى بن أكثم أن يجمع له وجوه العلماء والفقهاء ، فجمع له أربعين فسألهم المأمون وناقشهم ، وكان من الحرية التى منحهم إياها أن تناظر بين يديه محمد بن أبى العباس ، وعلىّ بن الهيثم ، فنصر محمد الإمامية ،

---

(١) العنان (بالكسر) : اللجام ، والعنان (بالفتح) : السحاب . فكلاهما كوزن ما بمعناه .

ونصر على الزّيْديّة(١)، وجرى بينهما كلام وتطاول، فقال المأمون : الشتم عِيٌّ، والبذاءة لؤم ، إنا قد أبحنا الكلام ، و إظهار المقالات ، فمن قال الحق حمدناه ، ومن جهل ذلك دفعناه ، ومن جهل الأمرين حكمنا فيه (يريد أن المعاند يكره على رأى). وهذا منتهى ما يكون من حرية الرأى ، فإن هذين المذهبين اللذين تناظر فيهما محمد وعلىّ هما أكبر حرب على الدولة العباسية ، فعجيب أن يقبل خليفة هذه الحرية فيما ينقض دولته من أساسها

وكان من آثار هذه الحرّية التى سنها المأمون أن أنشأ القول بخلق القرآن .

ومسألة القول بخلق القرآن مبنية على إثبات صفات لله أو نفيها ، فالمعتزلة لايثبتون لله صفات قائمة بذاته لئلا يتعدّد القديم ، وأهل السنة يثبتونها ، فتفرّع عن ذلك أن قال المعتزلة : إن القرآن مخلوق ، لأنه لو كان قديماً لتعدّد القديم ، وهم يعنون ذلك ويقولون : إنه ليس بصفة لله ، بل إن الله يخلق هذه الحروف فى جسم محدَث يسمعه النبىّ ، وهذا هو الوحى عندهم .

أظهر المأمون رأيه فى خلق القرآن سنة ٢١٢ هـ ، وربما كان يظن أنه بذلك يتبعه فقهاء الأمة فينحسم الخلاف ، ولكن لم يحدث إلا أن أنكر عليه الفقهاء المتورّعون واتهموه بالابتداع ، بل قال بعضهم بكفره ، فلما خشى هذه الحال على نفسه أراد أن يحمل الناس على رأيه بقوّة سلطانه ، فكتب وهو غازٍ إلى واليه على بغداد ، إسحٰق

---

(١) الزيدية : بعد وفاة زين العابدين تولى قوم أكبر أولاده محمدا الباقر ، وقال قوم إن الخلافة حق لكل فاطمى اتصف بصفات الشجاعة والعلم والسخاء ، وهؤلاء قاموا يساعدون زيد بن على ابن الحسين فسموا الزيدية .

الإمامية: فرق كبيرة من الشيعة تقول بعودة إمام منتظر ، ففرقة تنتظر جعفراالصادق، وأخرى تنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ، وثالثة تنتظر محمد بن الحنفية ، وتزعم أنه يقيم برضوى ، وعنده عسل وماء . قال كثير :

تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

ابن إبراهيم أن يمتحن الناس ، فلما فعل إسحٰق لم يجيبوه إجابات صريحة ، وهذا مثال من ردودهم . قال لبشر بن الوليد : ما تقول فى القرآن ؟ قال أقول : إنه كلام الله . قال لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شىء . قال : أما القرآن شىء ؟ قال : هو شىء . قال فمخلوق هو ؟ قال ليس بخالق ، ثم أعاد عليه السؤال ، فقال : ما أُحسن غير ما قلت .

فرفع إسحٰق كلامهم إلى المأمون فغاظه منهم هذه المحاولة وكتب إليه أن يعيد امتحانهم ، ومن لم يجبه أوثقه فى الحديد وأرسله إلى عسكر الخليفة ، وفى هذه المرأة أجابوا جميعاً بأن القرآن مخلوق ما عدا أربعة ، فشدوا فى الحديد . وفى اليوم الثانى أعاد سؤالهم فأجاب منهم واحد ، وفى الثالث أعاد على الباقين فأجاب واحد ، و بقى اثنان ، وهما أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، فوجههما إلى عسكر المأمون ، وفيما هم بالرقة بلغتهم وفاته فأعيدوا إلى دار السلام .

وقد أوصى المأمون أخاه المعتصم بالجد فى هذا الأمر فأحضر الامام أحمد وعرض عليه أن يقول كما قال غيره فأبى ، ولم يثنه عن رأيه مالقى من الضرب ، والتعذيب فى مجلس المعتصم نفسه ، وكان يتردد بين ذلك ، وبين ضيق الحبس وهو صابر محتسب . وقد اتبع الواثق سيرة أبيه ، فكان يحمل إليه كلّ من يدين بهذا الرأى حتى لقد حمل اليه من مصر أبو يعقوب يوسف بن يحيى البُوَيْطىّ أكبر أصحاب الشافعى ، ومات فى سجنه سنة ٢٣١ ه ، وقد ملّ الواثق نفسه هـذه المقالة ، وانتقلت من الجد إلى الهزل حتى لقد دخل عليه عبادة المضحك وقال له : ياأمير المؤمنين أعظم الله أجرك فى القرآن . قال ويلك القرآن يموت ؟ قال يا أمير المؤمنين : كل مخلوق يموت . من يصلى بالناس التراويح إذا مات القرآن . فضحك الواثق وجىء بشيخ مقيد فسأله أحمد بن أبى دؤاد عن قوله فى القرآن، فقال له الشيخ : أنا أسألك قبل أن تسألنى هذا الذى تقوله مِن خلق القرآن شىء علمه رسول الله والصحابة أم جهلوه ؟ قال بل علموه . قال : دعوا إليه الناس كما

دعوتهم أم سكتوا ؟ قال بل سكتوا ، قال فهلا وسعك ماوسعهم ، فأمر الواثق بإطلاقه .

ثم جاء المتوكل فأمر برفع المحنة فى هذه المسأله ، فاستراح الناس بعد عناء طويل .

والحق أن المسألة لم تكن تستحق كلّ هذا الصراع ، فقد كانت تفريعاً لخلاف قديم بين المعتزلة وأهل السنة، فما بالها تأخذ وحدها كلّ هذا الإهتمام، على أن المقرّر عند أهل السنة أن الدلالات ، وهى الألفاظ التى نقرؤها حادثة ؛ لأننا نتلوها بألسنتنا ونكيفها بأصواتنا ، وهى حين القراءة قائمة بالحادث . أما مدلول القرآن ، وهو الصفة النفسية القائمة بذاته تعالى فقديم ، والفرق بين القراءة والمقروء كالفرق بين الذكر والمذكور ، فالذكر حادث والمذكور قديم[1] . وما كان على المتورعين من مثل أحمد بن حنبل أن يقول ذلك فيصرح بأن المخلوق من القرآن تلاوته أو أن مابين دفتى المصحف مخلوق: أى هذا الخط وتلك الألفاظ المكتوبة مخلوقة ، ولكنه لم يفعل وقبل الأذى على أن يقول بخلق القرآن بهذا المعنى فيسرى إلى اعتقاد الناس خلقه بحسب مدلوله ، وقد مرّ بك فى الكلام عن علم التوحيد بعض مناظرات فيه فارجع إليها هناك .

المدارس فى الدولة العباسية

لقد عرفت ما كان من شأن الأمة العربية فى العلم ، وتبجيل رجاله وتمكينهم من الشرف والثراء ، فكان جديراً أن يطلب العلم بكل مكان ، وأن يرحل فى سبيله إلى أقاصى البلاد ، وقد تمّ ذلك وتعلقت الهمم به كل تعلق ، ورأينا أفنية المساجد ، ورحبات

---

(١) كان فريق من أهل السنة يقولون : لفظى بالقرآن مخلوق ، وهؤلاء لقوا الاضطهاد من العامة والإغفال من أهل الحديث ، وقد كان الإمام البخارى بعينه أثر من هذا . فقد كان يقول بهذا الرأى فاضطهده محمد بن يحيى الذهلى إمام المحدثين بنيسابور حتى خرج البخارى عنها خوفا من العامة أن تبطش به .

البيوت، وقصور الملوك، وميادين الأسواق، ودور الكتب العامة، بل دكاكين الوراقين تصبح مجالا لطلب العلم، ثم انتهى الأمر بأن بنيت المدارس المنتظمة، ورتب لها المدرّسون، ووقفت عليها الحبوس التى تضمن لطلبتها ومدرّسيها الأرزاق الشهرية، والجرايات اليومية .

وقد نشأ تلقى العلم بنشأة الإسلام؛ فإن المسلمين منذ أيامهم الأولى حين كان الإسلام غير ظاهر الأمر كانوا يجتمعون بدار بنى الأرقم عند الصفا يتلقون عن رسول الله الوحى ويقرءون القرآن، وتلك هى الدار التى قصد إليها عمر بن الخطاب حين هدى الله قلبه للإيمان، ومنها خرج المسلمون صفين بينهم النبىّ فأعلنوا الإسلام واستمر منذ ذلك الحين إعلانه .

ولقد ذكروا أن رسول الله جعل فداء أسرى بدر أن يعلم الأسير القارئ عشرة من أولاد المسلمين القراءة، فهذه أول مدرسة فى الإسلام لتعليم الأحداث ومحاربة الأمية فيهم، كما ذكروا أن عبد الله بن أم مكتوم قدم مهاجراً إلى المدينة فنزل بدار القرّاء . ذكره السيوطى فى حسن المحاضرة، فدل على أن للقراء دارا يجتمعون فيها للقراءة والمذاكرة فى العلم . وما بالخفى أمر مجالس رسول الله بين أصحابه فى المسجد حيث كان يجلس عليه الصلاة والسلام فيتحلق الناس حوله حلقات بعضها دون بعض ويتلو عليهم القرآن ويعلمهم الدين، ويدعوهم إلى الخلق الفاضل .

ولسنا محتاجين إلى نصّ يدلّ على أن المسلمين اتخذوا مجالس للعلم بعد دخولهم فى الدّين، فإن العقل وحده ليوجب علينا تيقن ذلك إذ كان الدّين قانوناً عظيما، وأصولاً متعددة فى العبادات والمعاملات، فلا بدّ لحذق ذلك من تعليم وتلقين .

ولقد أتى القرآن حاثًّا للعرب على العلم، مرغباً لهم فى تحصيله، فكانت أول آية منه هى قوله تعالى : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وفى العصر العباسى لما استبحرت العلوم ، وحسنت مكافأة الخلفاء والأمراء عليها رأينا العلم يُطلب أحثّ طلب ، ولكنه ظل حيناً طويلا ليس لطلبه نظام ، فالراغب فى العلم يقصد إحدى حلقاته بمسجد من المساجد ، ويختار أستاذه بمحض إرادته ، فيختلف عدد الطلبة باختلاف منزلة المعلم وحذقه لعلمه . فقد كان يجتمع فى حلقة الفارابى مئات من المئين من الطلبة ، وكان أبو بكر الرازى الطبيب المشهور يجلس فى مجلسه ودونه تلاميذ ، ومن دونهم تلاميذهم ، ودون هؤلاء غيرهم ، فكان المريض يجىء فيصف ما يجد لأوّل من يلقاه ، فإن كان عندهم علم وإلا تعداهم إلى غيرهم ، فإن أصابوا ، وإلا تكلم الرازى . وكان الإمام فخر الدين بن خطيب الرىّ إذا ركب مشى حوله ثلثمائة من تلاميذه الفقهاء ، وكان هو والشيرازى ، والفارابى ، وابن سينا ، والغزالى أكثر العلماء تلامذة .

وربما قصد الطالب إلى دار العالم فيقرأ عليه كتاباً فى العلم الذى أشتهر به ويأخذ عنه إجازة فى ذلك . ومن كان فى مثل منازل الأمراء من أهل الثراء يحضر المعلمين لأولاده . وبعض العلماء كانوا يضنون بعلمهم فيطلبون عليه الأجر ، ولكن أغلبهم كان يلقى الدروس العامة لا يبغى عليها جزاء ، فكان الفقير من طلبة العلم واجداً بغيته عند هؤلاء وهم كثير .

وقد كثر تلقى العلم على أنواعه ، ولم يكن مقصورًا على الذكور ، بل كان للإناث منه حظّ وافر ، فقد ذكروا أن السيدة زبيدة زوجة الرشيد وأمّ الأمين كان عندها مائة جارية يقرأن القرآن ويدرسن العلم ، وكان المارّ بقاصيرهنّ يسمع لهن دويا كدوى النحل . وذكروا أن إبراهيم بن إسحٰق الموصلى كان يعلم الجوارى ، ويثقفهن يبتغى بذلك الربح لأن الناس يرغبون فى الجارية إذا كانت أديبة مثقفة ، فقد يدفعون فيها أغلى الأثمان ، وكذلك كان يفعل دحمان يشترى الجارية بمائتى دينار فيعلمها فيبيعها بعشرة آلاف .

ومن عناية الخلفاء بالعلم ، وإعداد الأماكن لتلقيه ما حكوا أن الخليفة المعتضد

بالله العباسى لما بنى قصره ببغداد استزاد فى الذرع ، فسئل عن ذلك فذكر أنه يريد أن يبنى دورًا ومساكن ومقاصير يرتب فى كلّ موضع رؤساء كلّ صناعة ومذهب من العلوم النظرية والعملية ، ويجرى عليهم الأرزاق السنية ليقصد كلّ ما اختار علماً أو صناعة رئيساً فيأخذ عنه .

ولكن لاندرى هل نفذ الخليفة إرادته ؟ فيكون أوّل من أنشأ المدارس المنظمة ، وأجرى على أساتذتها الأرزاق .

ولكن المشهور أنه لم يكن للعرب مدارس من هذا النوع حتى أحدثها نظام الملك وزير السلطان إلْب أرْسِلان (١) ، ثم وزير ابنه ملكشاه ، وقد اقتدى بنظام الملك غيره فى إقامة هذه المدارس .

والمراد بها كلّ بناء أعد للدراسة ، ورتب له المدرّسون . وعين لكلّ مدرس نوع عمله وزمنه ، وقدّر له راتبه الشهرى ، وكذلك اختير طلبتها وحصر عددهم ، وأجريت عليهم الأرزاق والمعاليم . وفى كثير من الأحيان كان يكفل لهم أمر معاشهم من طعام وكسوة ومأوى .

بنى نظام الملك مدرسة الكبرى ببغداد . شرع فيها سنة ٤٥٧ هـ ، ونجزت سنة ٥٤٩ هـ ، واحتفل بافتتاحها يوم السبت عاشر ذى القعدة من هذه السنة ، وجمع الناس على طبقاتهم ليحضروا درس الشيخ أبى إسحٰق الشيرازى ، فجاء الشيخ ليحضر ، فلقيه صبىّ فى الطريق ، فقال يا شيخ : كيف تدرس فى مكان مغصوب ؟ فرجع الشيخ واختفى ، فلما يئسوا من حضوره ذكر الدرس بها أبو نصر الصباغ .

وكان نظام الملك قد بنى قبل ذلك مدرسة بنيسابور سميت النظامية أيضاً ، ودرس بها إمام الحرمين .

هذا هو المشهور من أن نظام الملك أوّل من بنى المدارس من هذا النوع ، وقد أنكر الحافظ الذهبى فى كتاب «تاريخ الإسلام» على من زعم ذلك ، وقال قد كانت المدرسة

البيهقية المنسوبة إلى البيهقى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ قبل أن يولد نظام الملك ، والمدرسة السعيدية بنيسابور أيضاً بناها الأمير نصر بن سُبُكْتِكين أخو السلطان محمود حين كان والياً بها . ومدرسة ثالثة بها أيضاً بناها أبو سعيد إسمٰعيل بن علىّ بن المثنى ، ومدرسة رابعة بناها إسمٰعيل الاسترابادى الصوفى ، وأخرى بنيت للأستاذ أبى إسحٰق ، وذكروا أنه لم يكن قبلها بنيسابور مدرسة .

ويمكن التوفيق بين الرأيين كما فعل القاضى تاج الدين السبكى فى طبقاته الكبرى ، فإنه قال : قد أدرت فكرى وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من رتب المعاليم للطلبة .

وفى مصر ذكر ابن خلكان أنه لما ملك السلطان صلاح الدين بن أيوب الديار المصرية لم يكن بها شىء من المدارس ، فبنى بها المدرسة الناصرية لتعليم المذهب الشافعى سنة ٥٦٦ هـ ، وهى أوّل مدرسة بنيت بمصر ، وبنى المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى سنة ٥٧٢ هـ مجاورة للإمام الشافعى ، وجعل لناظرها أربعين ديناراً فى كلّ شهر ، ورتب له فى كلّ يوم ستين رطلا من الخبز ، وراويتين من ماء النيل ، وبنى أخرى مجاورة للمشهد الحسينى ، وجعل دار عباس الوزير العبيدى مدرسة الحنفية ، وهى المعروفة الآن (على عهد بن خلكان) بالسيوفية ، وبنى غير ذلك .

وقد مرّ بك فى الأبواب المتقدّمة شىء عن المدارس فى الإسلام فارجع إليه .

❁

والذى يجب ملاحظته أن إقامة المدارس فى الإسلام قد حدثت متأخرة كثيراً عن نهضة العلم نفسه ، فإن العلم بدأ ينهض فى النصف الأول من القرن الثانى والمدارس لم يبدأ وجودها إلا فى النصف الثانى من القرن الخامس ؛ وكان العلم إذ ذاك قد سمقت غروسه ، وطالت أغصانه ، وامتدت ظلاله ، وأينعت ثماره ، فلا بد لهذا من سبب يحسن معرفة كنهه .

تأخر وجود هذه المدارس إلى تلك الأيام التى ضعف فيها شأن الخلفاء ، وحلّ محلهم فى المنزلة هؤلاء السلاطين الذين توزعوا الملك واقتسموه ممالك صغيرة تجتهد كل منها أن تستحوذ على رضا عامّتها ومودة خاصتها ، فكان منهم تنافس فى إكرام العلماء والعطف على الفقراء ، وإحياء شعائر الدّين ليستفيدوا بذلك قوّة يستعينون بها على صيانة هذا الملك المغصوب من أصحابه . لذلك نرى أن ظهور هذه المدارس مقرون بإنشاء الأربطة للزهاد ، والمارستانات للمرضى ، والمساجد للصلاة ، وحبس الأوقاف الكثيره لينفق منها على هذه المنشآت . كذلك كان هؤلاء السلاطين يخافون على ماجمعوه من ثروة أن يستبد بهامن يجىء بعدهم من الحكام ، فكانوا يعجلون بوقفها على أعمال الخير ، ويجعلون لأبنائهم نصيباً منها فيحرزون ثواب الله ويضمنون لأبنائهم الاستمتاع ببعض ماجمعوا.

كذلك كان من دواعى إنشاء هذه المدارس تأييد المذاهب التى كان السلاطين يشتدون فى نصرتها ، فإن صلاح الدين لما استولى على مصر كانت الدروس التى تلقى فى الأزهر على مذهب الشيعة ، فأبطل هذا المذهب وأحيا المذهبين الشافعى والمالكى وأنشأ لهما المدارس كما مرّ بك .

وقد ندرك بعض هذه الأسباب من هذه القصة : ذكروا أن نظام الملك بذل جهده فى استمالة الأعداء وموالاة الأولياء ، فأكثر من الإحسان حتى عمّ به الصديق والعدو والبغيض والحبيب ، وكان من أهمّ مساعيه فى ذلك أن بنى دور العلم لطلبته والأربطة للعباد والزهاد ، وأنه كان ينفق فى هذا السبيل كل عام ستمائة ألف دينار فوشى به بعضهم إلى السلطان ، وقالوا : إن الأموال التى ينفقها نظام الملك فى ذلك تقيم جيشاً يركز رايته فى سور القسطنطينية ، فعاتبه ملكشاه فى ذلك ، فأجابه إنى أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل إذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفاً بين يدى ربهم فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا ألسنتهم ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون وببركاتهم تمطرون وترزقون ، فقبل ملكشاه قوله وسكت .

الجامع الأزهر

كان الفاطميون منذ قامت دولتهم فى مصر مجدّين فى نشر مذهبهم الشيعى ، فلم يكد جوهر القائد فاتح مصر باسم المعز لدين الله الفاطمى يخط أساس مدينة القاهرة حتى شرع فى بناء مسجد يتلقى فيه الناس عقائد هذا المذهب ، وقد شرع فى بنائه لستّ بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ وأقيمت فيه الصلاة ، لتسع خلون من رمضان سنة ٣٦٢ هـ .

وأول من حاول جعله جامعة علمية هو الوزير يعقوب بن كِلّس وزير العزيز بالله ، وأول ما عمله فى هذا الشأن أن بنى بجواره داراً لجماعة من الفقهاء وعدتهم خمسة وثلاثون فقيهاً ، فكانوا يجتمعون بالمسجد كل يوم جمعة عقب صلاة الجمعة فيقرءون القرآن إلى صلاة العصر وأجرى عليهم الخليفة أرزاقاً ، وكان وزيره ابن كلس يصلهم ويبرّهم .

ولما ولى الحاكم بأمر الله أمر بنقل الكتب التى كانت عنده فى دار العلم أو الحكمة ووزّعها على المساجد الثلاثة : الأزهر ، والحاكم ، والمقس ، وكان نصيب الأزهر منها نحو نصفها .

وبلغ من العناية بالعلم وخصوصاً فقه الشيعة أيام الفاطميين أن كان النساء يحضرن فى الجامع الأزهر كما ذكر المقريزى فى خططه .

الشعر فى الدولة العباسية

قد رأيت أن قيام الدولة العباسية كان حدثا عظيما، وانقلاباً هائلا له أثره فى حياة العرب ، ونظام معيشتها ، وتعاظم مدنيتها ، وتكاثر علومها ، ونبوغ فلاسفتها .

ولقد كان للشعر العربى نصيب كبير مما نال اللغة العربية من ارتقاء . والشعر جدير بهذا ، فقد كان فى كلّ عصر موضوع عناية القوم والمقدم من فنون قولهم ، والعمدة فى إظهار مشاعرهم ، وقد شمل التغيير كلّ شىء فى الشعر من معانيه وأغراضه وألفاظه وأسلوبه ووزنه .

وكان للشعر فى نفوس الخلفاء والأمراء منزلة . وللشاعر عندهم مكانة ، وسنشرح كلّ ذلك لتتمثل من مجموعه ما كان للشعر والشعراء فى هذا العصر من قدر .

منزلة الشعر

كان الحكام الأوائل فى هذا العصر هم عرب نشئوا فى العربية ، فرسخت فيهم ملكتها ، وتأصلت عادتها ، وهزّت أعطافهم بلاغتها . لذلك رأيناهم يحرصون على الشعر لأنهم يرون فيه مجدهم السابق ، وفخرهم التالد . فتذاكروا أقوال أسلافهم ، وتناشدوا مأثور كلامهم ، وعقدوا المجالس لذلك ، وجادوا بعظيم العطاء على كلّ مبرز فى العناية بهذه الآثار ، وحاذق فى تفهم ما ورد عن السلف منها ، كذلك سمعوا المدح من شعراء عصرهم ، وفرضوا لهم الأعطية فى بيت المال ، وأعطوا على كلّ بيت ألف دينار إلى غير ذلك مما دلّ على مبلغ عنايتهم بالشعر وقائليه .

ولم ينته أمرهم إلى الالتذاذ بسماع الشعر ، والارتياح إلى إنشاده ، بل كان لهم بصر به ، ومعرفة بخبره ، فقد سمع المنصور شعر طَرِيفِ بن تميم العَنْبَرىّ :

إنَّ قَنَاتِى لَنَبْعٌ لا يُؤَيِّسُهَا ... غَمْزُ الثِّقَافِ ولا وَهْنٌ ولا نَارُ[1]

(١) التأييس : التأثير فى الشىء .

متى أُجِرْ خائفاً تأْمَنْ مَسَارِحُهُ ... وإن أُخِفْ آمناً تَقْلَقْ به الدارُ

إنّ الأمورَ إذا أَوْرَدْتُهَا صدَرَتْ ... إن الأمورَ لها وِرْدٌ وإصْدارُ

فقال : أنا أحق بشعره منه ، وأنا الذى وصف لا هو. وليس هـذا القول منه إلا أثراً لحسن تقديره لهذا الكلام ، وأنه فى علو معناه لا يليق إلا أن يكون صفة لخليفة مثله .

وكذلك المنصور هو الذى انصرف من دفن ابنـه جعفر الأكبر ، وفى قلبه لوعة الحزن عليـه ، فلم ير مسليًا عنه إلا قصيدة أبى ذؤيب الهذلى فى رثاء أبنائه ، فقال للربيع : أبغنى من أهل بيتى من ينشدنى :

أمِنَ المنون وريْبِها تَتوَجَّعُ ... والدَّهْرُ لَيْسَ بمُعْتِبٍ من يَجْزَعُ

فخرج الربيع إلى بنى هاشم ، فلم يجد فيهم من يحفظها ، فعاد إليه فأخبره بذلك ، فقال : والله لمصيبتى بأهل بيتى ألا يكون فيهم من يحفظ هذه القصيدة لقلة رغبتهم فى الأدب ، أعظم وأشدّ علىّ من مصيبتى بابنى . ثم قال : انظر هل فى القوّاد والعوام من يعرفها فإنى أحبّ أن أسمعها من إنسان ينشدها . فخرج الربيع فاعترض الناس فلم يجد واحداً ينشدها إلا شيخاً مؤدِّباً قد انصرف من تأديبه فانصرف به إلى المنصور ، فأنشدها إياه ، فلما قال : « والدهر ليس بمعتب من يجزع » قال : صدق والله ، فأنشدنى هذا البيت مائة مرة لتردّد هذا المصراع علىّ فأنشده ؛ ثم مرّ فيها ، فلما انتهى إلى قوله : « والدهر لا يبقى على حدثانه » الخ قال : سلا أبو ذؤيب عند هذا القول . فأنت ترى أنه عرف موضع الإبداع فى القصيدة ، فاستعاده مائة مرة ، وعلم حين هدأت نفس الشاعر وسلا .

وكان المأمون كذلك بصيراً بالشعر : حدث عمارة بن عقيل قال : أنشدت المأمون قصيدة فى مدحه فيها مائة بيت ، فما ابتدأت ببيت إلا سبقنى إلى قافيته . قال عمارة : فقلت والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منى أحد قطّ . قال المأمون : وهكذا ينبغى أن يكون . وقال عمارة : قال لى عبد الله بن السمط : علمت أن المأمون لا يبصر الشعر ، فقلت : ومن

ذا يكون أعلم به منه ؟ فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره . قال : إنى أنشدته بيتا أجدته ، فلم يتحرك له ، فقلت له : وما هو ؟ قال :

أضحى إمامُ الهدى المأمونُ مشتغلا ... بالدين والناسُ بالدنيا مَشَاغيــلُ

فقلت ما صنعت شيئاً ، وهل زدت على أن جعلته عجوزاً فى محرابها فى يدها سُبْحتها . فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها ؟ وهو المطوق بها . هلا قلت كما قال جرير فى عبد العزيز بن الوليد :

فلا هُوَ فى الدنيا مُضِيعٌ نَصِيبَهُ ... ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شاَغِلُهْ

ولقد عرف الناس عن خلفاء هذه الدولة ما للشعر فى نفوسهم من كرامة وفى آذانهم من قبول ، فكانوا يجعلون الشعر وسيلة إلى إيصال ما يتحاشون مواجهتهم به ، كأن الشعر يجعل من عسر الموقف يسراً ، ومن شدّة الأمور سهولة ولينا . ذكر المبرد فى كتاب « الروضة » أن الرشـــيد غزا بلاد الروم ، فخضع له نقفور ، وبذل الجزية ، فلما عاد واستقرّ بمدينة الرقة ، وسقط الثلج نقض نقفور العهد ، فلم يَجْسُر أحد على إعلام الرشيد لمكان هيبته فى صدور الناس . فبذل يحيى بن خالد الأموال للشــعراء على أن يقولوا إشعاراً فى إعلامه ، فتقدّم إليه شاعر من أهل جدّة يكنى أبا محمد . فأنشد الرشـــيد قصيدة منها :

نقض الذى أعطيتَهُ نَقْفورُ ... فعَلَيْهِ دائرةُ البَوَارِ تَدُورُ
أَبْشِرْ أميرَ المؤمنينَ فإنَّهُ ... فَتْحٌ أتاك به الإلهُ كبيرُ
نَقْفُورُ إنَّك حين تَغْدرُ أَنْ نأى ... عَنْكَ الإمامُ لجاهلٌ مغرورُ
أَظَنَنْتَ حين غَدَرْتَ أنك مُفْلت ... هَبِلَتْك أمُّك ما ظَنَنْتَ غُرُورُ

فلما انتهى الشاعر من هذه الأبيات قال الرشيد : أوقد فعل ثم غزاه فى بقية الثلج وفتح مدينة هِرَقْلة . وقد ذكروا أن جفاء دبّ بين الرشيد و بين جاريته ماردة ، وهى بعزّة دلال المعشـــوق تأبى أن تعتذر وهو بعزة الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك ، فرام يحيى

ابن خالد أن يزيل ما بينهما ، فاستدعى العباس بن الأحنف ، فقال : ويحك يا عباس ! إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخذك ، وحسن تأتيك ، وإن الذى ندبتك له من شأنك ، وقد جرى بين الرشيد وبين ماردة عتب أعيانى أمره ، فقل شعراً تسهل به هذا السبيل ثم تركه حيناً ، فقال أربعة أبيات من روىّ واثنين من آخر ، وبعث بالجميع إليه ، والأبيات هى :

العاشقان كلاهما مُتَغَضِّبُ ... وكلاهما مُتَوَجِّدٌ مُتَجَنِّبُ
صدَّتْ مغاضبةً وصَدَّ مغاضبا ... وكلاهما مما يُعالِجُ مُتْعَبُ
راجعْ أحبَّتك الذين هَجَرْتَهُمْ ... إن المُتَيَّمَ قَلَّمَا يَتَجَنَّبُ
إنّ التَّجَنُّبَ إن تطاول منكما ... دَبَّ السُّلُوُّ له فَعَزَّ المطلبُ

والبيتان :

لا بُدَّ للعاشق من وَقْفَةٍ ... تكون بين الْوَصْلِ وَالصَّرْمِ
حتى إذا الْهَمُّ تمادى به ... رَاجَعَ مَنْ يَهْوَى على رَغْمِ

فلما سمع الرشيد الشعر ، وانتهى إلى قوله : « راجع من يهوى على رغم » أغرب فى الضحك ، ثم قال : أراجعها والله على الرغم ، ثم أمر له ، وأمرت الجارية والوزير بما اشترى ببعضه ضياعاً تغل عشرين ألف درهم .

ولم يقف بصرهم بالشعر عند حدّ فهمه ، وإدراك محاسنه ، والتسلى بلهوه ، والاهتياج بحماسته ، بل إنهم كانوا هم أنفسهم شعراء ، فقد رووا للرشيد شعراً كثيراً ، فمن ذلك قوله فى جارية له تركية :

يا رَبَّةَ المنزل بالبَرْكِ ... ورَبَّةَ السُّلْطَانِ والمُلْكِ(١)
ترفقى بالله فى قَتْلِنَا ... لَسْنَا من الدَّيْلَمِ والتُّرْكِ

(١) البرك (بالفتح أوالكسر) اسم لمواضع كثيرة ، ومنها أقصى المعمور من الأرض . ولعله أشار بذلك إلى أنها من تلك البلاد (بلاد الترك) .

وقوله فى قينة له أيضاً :

تُبْدِى صُدُوداً وتُخْفِى تحته مِقَةً ‏ ‏ ‏ فالنَّفْسُ راضيةٌ والطَّرْفُ غَضْبانُ
يا من وَضَعْتُ له خَدِّى فَذَلَّلَهُ ‏ ‏ ‏ وليس فَوْقِى سِوَى الرَّحْمٰنِ سُلْطَانُ

وقوله فى رثاء جارية رومية يقال لها هيلانة وقد عراه على فقدها من الحزن ما ضاق له صدره وفرغ دونه صبره :

قاسيتُ أوجاعا وأحزانا ‏ ‏ ‏ لما اسْتَخَصَّ الموتُ هَيْلاَنا(١)
فارقتُ عيشى حين فارقتها ‏ ‏ ‏ فما أُبالى كيفما كانا
قد كَثُرَ الناسُ ولكنَّنِى ‏ ‏ ‏ لست أرى بَعْدَكِ إنسانا
والله ما أنساكِ ماحَرَّكَتْ ‏ ‏ ‏ رِيحٌ بأعلى نَجْدٍ أغصانا

وكان له ثلاث جوار أهداهنّ إليه الفضل بن الربيع ، وهنّ : سحر ، وضياء ، وخنث ؛ فقال فيهنّ :

إن سِحْراً وضِيَاءً وخَنَثْ ‏ ‏ ‏ هنَّ سِحْرٌ وضِياءٌ وَخَنَثْ
أخذَتْ سحرٌ ولاذنب لها ‏ ‏ ‏ ثُلُثَىْ قلبى وتِرْبَاهَا الثُّلُثْ

وقال فيهنّ أيضاً :

مَلَكَ الثَّلاَثُ الآنِسَاتُ عِنَانِى ‏ ‏ ‏ وحَلَلْنَ مِنْ قَلْبِى بِكُلِّ مَكَانِ
مالى تُطَاوِعُنِى البَرِيَّةُ كُلُّها ‏ ‏ ‏ وأُطِيعُهُنَّ وَهُنَّ فى عِصْيَانِى
ما ذاكَ إلا أَنَّ سلطانَ الهوى ‏ ‏ ‏ وبه قَوِينَ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِى

ولقد نسبوا للمأمون قوله فى الشطرنج ، وقد كان أحب ملاهيه إليه :

أَرْضٌ مُرَبَّعَةٌ حَمْرَاءُ مِنْ أَدَمٍ ‏ ‏ ‏ ما بين إِلْفَيْنِ موصوفين بالكَرَمِ
هذا يُغِيرُ على هـذا وذاك على ‏ ‏ ‏ هـذا يُغِيرُ وعَيْنُ الحَرْبِ لم تَنَمِ

(١) استخص : خصّ .

فانظرْ إلى الخيل قد جاشتْ بمعركةٍ   في عسكرين بلا طَبْلٍ ولا علَمِ

وقال الزبير بن بَكّار : دخلت على المعتز بالله فسلمت عليه ، فقال يا أبا عبد الله إنى قلت فى ليلتى هذه أبياتاً ، وقد أعيا علىّ إجازة بعضها ، فقلت أنشدنى ، فأنشدنى ، (وكان محموماً) :

إنِّى عَرَفْتُ علاجَ القلبِ والوَجَع   وما عَرَفْتُ علاجَ الحُبِّ والجزَع

جَزِعْتُ للحُبِّ والحُمَّى صَبَرْتُ لها   إنِّى لأَعْجَبُ من صبرى ومِنْ جَزَعِى

من كان يَشْغَلُه عن حُبِّهِ وَجَعٌ   فليس يَشْغَلُنى عن حُبِّكم وَجَعِى

قال أبو عبد الله الزبير ، فقلت :

وما أَمَلُّ حـديثى ليلةً أبدا   مع الحبيب و ياليت الحبيب مَعِى

فأمر لى على البيت بألف دينار .

ولقد يطول بنا القول لو ذهبنا نسرد ما تفرق فى الكتب من شعر هؤلاء الخلفاء ، و يكفى فى الدلالة على شأن الشعر فيهم أن نذكر أن ابن المعتزّ وهو واحد منهم عد من كبار الشعراء ، وقد قالوا : إن الراضى آخر خليفة ، انفرد بتدبير الملك ، وآخر خليفة خطب على منبر يوم جمعة ، وآخر خليفة له شعر مدوّن ، فكأن الشعر كان لازمة من تقدمه من الخلفاء ، وليس معنى هذا أن الخلفاء بعده انقطعوا عن قول الشعر لأن المنفى هو اجتماع هذه الخصال فى خليفة بعد الراضى ، فيصح أن الشعر ظل فيهم ، وهذا هو المناسب لما صاروا إليه من فراغ وانصراف إلى اللهو والمنادمة .

هذا و إن من استبد بالأمر من ملوك الدول الناشئة فى المملكة العباسية قد أرادوا أن يتقيلوا العباسيين فى كل ما عرفوا به ، فكانوا مع عجمتهم يحتفلون بالشعر و يجيزون عليه ، بل لقد قالوه ونبغوا فيه ، فهذا عضد الدولة يروى له قوله :

لَيْسَ شُرْبُ الكأْس إلاّ فى المطَرْ   وغِناَء من جَوَارٍ فى السَّحَر

غانياتٍ سـالباتٍ للنُّهَى   ناغماتٍ فى تضاعيف الوَتَرْ

مُبْرَزَاتِ الكأس من مَطْلَعِها   ساقياتِ الراحِ من فاق البَشَرْ
عَضُدَ الدَّوْلَةِ وابْنَ رُكْنِهَا   مَلِكَ الأملاكِ غَلاَّبَ القَدَرْ ! !

و بلغ من شغفه بالشعر وحسن تقديره له أنه لما سمع قصيدة محمد بن عمران الأنبارى التى قالها فى الوزير بن بَقِيَّة لما صلب ، قال : ليتنى كنت المصلوب وقيلت فىّ هذه القصيدة ، ومطلعها :

عُلُوٌّ فى الحياة وفى المماتِ   لَحَقٌّ تلك إحدى المُعْجِزَاتِ

ولعله بهذا يقلد أبا دُلَف حين سمع قصيدة أبى تمام فى رثاء محمد بن حميد الطوسى قال لأبى تمام ، وددت أنها لك فىّ ، والله إنه لم يمت من رُثِىَ بهذا الشعر .

وهذا سيف الدولة (وإن كان عربيًّا) يقول فى وصف قوس قزح فيبلغ غاية الإحسان :

وسَاقٍ صَبِيحٍ لِلصَّبُوحِ دَعَوْتُهُ   فقام وفى أجفانه سِنَةُ الغُمْضِ
يطوف بكاساتِ العُقارِ كأَنْجُمٍ   فمن بين مُنْقَضٍّ علينا ومُنْفَضِّ
وقد نَشَرَتْ أيدى الجَنُوبِ مَطَارِفاً(٢)   على الجَوِّ دُكْناً والحواشى على الأَرْضِ
يُطَرِّزُها قَوْسُ السحابِ بأصفرٍ   على أَحْمَرٍ فى أخضَرٍ إِثْرَ مُبْيَضِّ
كأذيالِ خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فى غَلاَئِلٍ   مُصَبَّغَةٍ وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ

وقابوس بن وُشْمَكِير من ملوك الدولة الزِّيارِيَّةِ بطَبَرِسْتَانَ كان أديباً شاعراً كاتباً ، ومن شعره قوله :

قُلْ لِلّذى بصروف الدهر عَيَّرَنا   هل حاربَ الدهرُ إلاّ من له خَطَرُ
أما تَرَى البحرَ تعلو فوقه جِيَفٌ   وتستقرُّ بأقصى قَعْرِه الدُّرَرُ
وفى السماء نُجُومٌ مالها عَدَدٌ   وليس يَكْسِفُ إلا الشَّمْسُ والقَمَرُ(١)

(٢) جمع [illegible]

(١) يشبه قول ابن الرومى :

رأيت الدهر يرفع كل وغد   ويخفض كل ذى شيم شريفه
كمثل البحر يغرق فيه حى   ولا ينفك تعلو فيه جيفه

ومن قوله أيضاً :

خَطَراتُ ذِكْرِكِ تستثير مودتى ... فأُحِسُّ منها فى الفــؤاد دَبِيباَ

لا عُضْوَ لى إلاَّ وفِيــهِ صَبَابَةٌ ... فكَأَنّ أَعْضَائِى خُلِقْنَ قُلوبَا

شان الشاعر

على قدر نصيب الشعر من المكانة فى النفوس تكون منزلة الشاعر بين أهل زمنه فإذا رأينا جيلا من الناس يعتد بالشعر ، ويعرف له أثره فى تهذيب النفوس ، ومخاطبة الوجدان ، وتجميل مناظر الحياة ، وتخليد محاسن الدنيا ، ومفاخر الملوك ، رأينا الشاعر ، وقد سامى الملوك فى المنزلة ، وساواهم فى نعيم العيش ، وكاثرهم بالمال ، وهو إنما استفاده منهم ، واستجداه من أكفهم ، ولكن كثرة العطاء ، والتخرق فيه يجعل من هذا المستمنح المستجدى ثريّا يملك القصور والضياع ، ويسير فى ركابه الغلمان والأتباع ، ثم رأينا له كرامة وجاهاً مرعيًّا .

وهكذا كان شأن الشعراء فى المائة الأولى من عمر هذه الدولة ، فقد كانت الأموال تنصبّ وفودها معجلة إلى بيت المال والخلفاء فى هذا العهد عرب تهزهم الأَرْيَحِيّة ، ويُرَنِّح أعطافهم الثناء ، فكانت أقوال الشعراء كالرُّقَى وأُخَذ السِّحْر تجعلهم يجودون ثم يجودون ، حتى أننا لا نكاد نصدق اليوم ما نقرؤه فى كتب الأدب عن هذه العطايا التى قد تبلغ مائة ألف دينار ، وقد كانت هذه جائزة مروان بن أبى حفصة عدة مرات .

لما علم المهدى بمكانة مروان هذا ومنزلته فى الشعر أحب ألا يدخل عليه فى غمار الناس ، وعين له يومًا حشد فيه وجوه بنى العباس فى مجلسه، فلما تتامّ المجلس دعاه فأنشده :

كأن أمير المؤمنين محمــداً ... لرأفته بالناس للنــاس والد

على أنه من خالف الحق منهم   سقته به الموتَ الحتوفُ الرواصد

فأشار إليه المهدى فأمسك ، ثم قال : يا بنى العباس هذا شاعركم المنقطع إليكم المعادى فيكم فآتوه ما يسره ، ثم ففرض عليهم مالا فرض على موسى ابنه خمسة آلاف درهم ، وعلى هٰرون مثلها ، ثم فرض على القوم على قدر حالاتهم حتى بلغ مجموع ذلك أربعين ألفاً ، ثم قال: وأمير المؤمنين يعطيك من صلب ماله ثلاثين ألفاً حاضرة وسيأتيك منى مايؤديك إلى الغنى . فقال مروان : قد رأيت من قبولك و بشرك وسرورك بما سمعت منى ما سأزداد به شعراً ، وستسمع و يبلغك ثم قال : لا يبلغ ما أعطيتنى لشاعر بعدى قال أجل . قال فآذنى فى زيارتك ؟ قال نعم . قال يا أمير المؤمنين لى فيك وفى أهلى بيتك عدوّ فإن رأيت ألا تجعل لأحد علىّ سلطاناً دونك قال : لا سلطان عليك دون أمير المؤمنين . .

ودخل مروان بن أبى الجنوب ويلقب مروان الأصغر(١) على المتوكل فأنشده :

سَقَى اللهُ نَجْدًا والسلام على نَجْدِ   ويا حَبَّذَا نَجْدٌ على القرب والبُعدِ
نَظَرْتُ إلى نَجْدٍ وبغدادُ دُونَهَا   لعَلِّى أرى نَجْدًا وهيهاتَ من نَجْدِ
ونَجْدٌ بها قَـــوْمٌ هَوَاهُمْ زِيَارَتِى   ولا شَىْءَ أَحْــلَى من زِيارَتِهِمْ عِنْدِى

فلما أتم إنشادها أمر له بعشرين ومائة ألف درهم وخمسين ثوبًا وثلاثة من الظهر فما برح حتى قال فى شكره :

تَخَيَّرَ رَبُّ الناسِ للناسِ جَعْفرًا   فَمَلَّـكَهُ أَمْرَ العبادِ تَخَيُّرَا

فلما صار إلى قوله :

فأَمْسِكْ نَدَى كفَّيكَ عنِّى ولا تَزِدْ   فقد خِفْتُ أن أَطْغَى وأَنْ أَتجَبَّرَا

قال المتوكل : لا والله لا أُمسك حتى أغرقك بجودى ، ولا تبرح أو تسأل حاجة ، فقال

---

(١) هو ابن مروان بن أبى حفصة الشاعر الذى مدح المهدى والرشيد ومات سنة ١٨١ هـ .

الضيعة التى أمرت بإقطاعى إياها من اليمامة ذكر ابن المدبر أنها وقف المعتصم قال : فإنى أقبلكها بخراج درهم ، ثم قال : هذه ليست بحاجة . قال فضياعى التى كانت لى وحال ابن الزيات بينى و بينها فأمر المتوكل بردها إليه .

دخل ابن الخياط على المهدى فمدحه ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها فرقها على الناس ، وأنشأ يقول :

لَمَسْتُ بِكَفِّى كَفَّهُ أَبْتَغِى الْغِنَى   وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِى
فلا أَنَا مِنْهُ ما أَفَادَ ذوُو الْغِنَى   أَفَدْتُ وَأَعْدَانِى فَأَتْلَفْتُ ما عِنْدِى(١)

فلما بلغ المهدىّ الخبر والأبيات أعطاه بكل درهم ديناراً .

دخل سَلْمُ بن عَمْرو الخاسر على المهدىّ فأنشده :

أَليْسَ أحقّ الناس أن يُدْرِكَ الغنى   مُرَجِّى أميرِ المُؤْمِنِينَ وَسَائِلُهْ
لقد بَسَطَ المَهْدِىُّ عَدْلاً ونَائِلاً   كَأَنّهما عَدْلُ النَّبِىِّ ونَائِلُهْ

فقال : أما ما ذكرت ياسلم من الجود ، فوالله ما تعدل الدنيا عندى خاتمى هذا ، وأما العدل فإنه لايقاس برسول الله صلى الله عليه وسلم أحد ، و إنى لأتحرّاه جهدى ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب ، ووفد عليه من قابل ، فأنشده :

إنّ الخلافةَ لمْ تَكُنْ بخلافةٍ   حتى اسْتَقَرّتْ فى بَنِى الْعَبَّاسِ
شُدّتْ مناكِبُ مُلْكِهِمْ بخليفةٍ   كالدّهْرِ يَخْلِطُ لِينَه بشِمَاسِ(١)

فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوبًا . فلما كان العام الثالث أنشده :

أَفْنَى سُؤَالَ السائلين بجُودِه   مَلِكٌ مَوَاهِبُهُ تَرُوحُ وتَغْتَدِى
هٰذَا الْخَلِيفَةُ جُودُهُ ونَوَالُهُ   نَفِدَ السُّؤَالُ وَجُودُهُ لم يَنْفَدِ

---

(١) أفاد : أعطى . أفدت : استفدت .

٢) الشماس والشموس : النفور ، من شمس (كنصر) .

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوبًا . . وسَلْمٌ هذا هو الذى مات سنة ١٨٦ هـ ، وخلف ثروة مقدارها خمسون ألف دينار من الذهب وألف ألف وخمسمائة ألف درهم من الفضة ، غير الضياع .

وكان أبو نواس يتكسب كثيراً ، ولكنه كان متلافاً سمحاً ، وكان يساجل فى الإنفاق عباس بن الأحنف ، وصريع الغوانى ، فلم يكن له مدّخر . وأبو تمام جمع ثروة طائلة ، ولكنه كان مغرماً بالتجوال فى الأرض ، فأفنى فى ذلك ثروته ، وكان له قهارمة وكتّاب ، وكان البحترى يسير فى موكب من عبيده ، وله أيضاً قهارمة وكتّاب . والمتنبى جمع ثروة طائلة ، وكان بخيلا وطمع أن يصل إلى الملك بثروته ، و بلغ من كبره واعتداده بنفسه أن كان ينشد سيف الدولة ، وهو جالس على خلاف عادة الشعراء الذين كانوا يقبلون الأرض بين يديه ويقفون للإنشاد .

و بعد المائة الأولى إلى حين قيام الدول الناشئة فى العباسية ، المتنافسة فى إكرام العلماء والشعراء كانت فترة بخل فيها الخلفاء . وصلدوا واتبعهم فى ذلك رجال دولتهم ، فارتفعت أصوات الشعراء بالشكوى ، ورأينا ابن الرومى يقول فيمن أخلف ظنه وخيّب أمله :

إن كنت من جهل حقى غير مُعْتَذِرٍ ... وكُنْتَ مِنْ رَدِّ مَدْحِى غيرَ مُتَّئِبِ (١)
فأعطنى ثمن الطِّرْسِ الذى كُتِبَتْ ... فيه القصيدةُ أو كَفَّارَةَ الْكَذِبِ

وقال فى ابن المُدبِّر :

يابن المُدَبِّرِ غرَّكَ الزُّوَّادُ ... عُمْراً وليس لهم سواكَ مُرَادُ
أدعو على الشعراء أخْبَثَ دعوةٍ ... إذ مَجَّدُوكَ وغَيْرُكَ الأَمْجادُ
قل لى بأيَّةِ حيلةٍ أَعمَلْتَهَا ... هَتَفُوا بأنك لا حُفِظْتَ جَوَادُ
ما أنت والمعروفَ أو مفتاحه ... ذَهَبَتْ بِذَيْنِكَ دُونَكَ الأَجْوَادُ

---

(١) اتأب : خزى واستحيا ومجردها «أوب» .

لـكنْ إخالُ معاشرا خَيَّبْتَهُمْ نَصَبُوا الحبائلَ للأُسَى فأجادوا(١)
أَثْنَوا عليك ليَسْتَميحَكَ غيرُهُمْ فيَخِيبَ خَيْبَتَهُمْ وتلكَ أَرَادُوا

ويقول فى الأسف على من مضى من الـكرام :

ذَهَبَ الذين تَهزُّهُمْ مُدَّاحُهُمْ هَزَّ الْـكُماةِ عَوَالِيَ المُرَّانِ(٢)
كانوا إذ امْتُدِحُوا رَأَوْا ما فيهِمُ فالأَرْيَحِيَّةُ منهمُ بِمَكانِ(٣)

ثم كان للشعر رواج على يد سيف الدولة وعضد الدولة وأمثالهما ممن أعادوا سيرة الخلفاء الأوّلين ، فكثر الشعراء ، وتوزّعوا فى البلاد ، ونبغت طائفة منهم فى خراسان وطبرستان والأهواز ومصر ، وقد كنا لا نراهم إلا فى بغداد ، ومن نبغ منهم فى غيرها من بلد أو بادية ، فإنما كان همه أن يقصد بغداد حيث الخلفاء يمطرون عطاءهم الغدق على الشعراء .

معانى الشعر

أما معانى الشعر فى هذا العصر فهى قسمان : معانى السابقين من جاهليين ، وإسلاميين تناولها العباسيون فأحسنوا غالباً فى صوغها وحاكوا هؤلاء فى حسن سبكها أو زادوا عليهم فى ذلك لما امتازوا به من حصافة الرأى واتساع الحيلة فى القول ، والقدرة على الخلابة باللفظ ، وما كان لهم من عناية بالتحسين ، وليس ذلك مطرداً فى أخذهم ولـكنه غالب شائع فى مجيديهم . والذى ساعدهم على ذلك أيضاً أن المعنى وقع إليهم ، وقد تعب الأول فى استنباطه ، واحتفل بحسن صوغه ، فلم يبق على مستعيره

---

(١) الإسوة (بالـكسر ويضم) : القدوة وما يتسلى به الحزين والجمع أسا (بالـكسر والضم) .
(٢) المران : الرماح الصلبة اللدنة ، واحدها مرانة .
(٣) الأريحية : الارتياح للندى ، والأريحى : الواسع الخلق .

إلا أن يحدث فيه ما يحاول به الزيادة على السابق ، وذلك ميسور له حين كفى المئونة فى الاستنباط . والذى نعنيه من تلك المعانى إنما هو المعانى التى امتاز بإيرادها شاعر ، فنسبت إليه وعرفت به ، فأما المعانى العامة التى لا بدّ لكلّ قائل أن يعرض لها كقولهم : إن الطيف يجود بما بخل به صاحبه ، وإن الواشى لو علم بمزار الطَّيف لساءه ، وكقولهم فى المديح : إنه كالبحر والسحاب ، وإن عطاء اليوم لا يمنع عطاء الغد ، وإنه يجود ابتداء، وقولهم فى الرثاء : إن الدنيا حرمت نفع هذا الميت وإن هلكه ليس هلك واحد ولكنه هلك أمة ، وكصفة النجوم ومواقعها والسحب وما فيها من البروق والرعود ، والغيث وما ينبت عنه ، وبكاء الحمام وما يدلّ عليه ، إلى غير ذلك من المعانى التى لا تنسب إلى صاحب لأنها قد شاعت ، ولأنها لا يستغنى عنها قائل وإن كان قد تبع فيها اللاحق السابق ، ولكنها كثرت حتى لم تصبح خاصة بشاعر دون غيره .

وأما القسم الثانى فهو المعانى التى استقلّ العباسيون باختراعها ، ولم يكونوا فيها عيالا على غيرهم .

المعانى القديمة

وحين أخذ المتأخر المعنى من المتقدم لم يكن دائما بمثابة واحدة من الزيادة عليه أو التقصير عنه ، بل إن ذلك يرجع إلى الشاعر ومهارته فى الصوغ ، وحسن تأتيه للمعنى واحتياله على إبرازه حتى لقد يصبح بذلك أجدر بالمعنى من مخترعه .

ذكروا أن النابغة قد أبدع فى وصف قدرة النعمان وأنّ مطلوبه لا منجى له ولا معتصم ، فقال :

فإنك كالليل الذى هو مُدْرِكى   وإنْ خِلْتُ أن المُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وقد اعترض الأصمعى على النابغة فقال : أما تشبيهه الإدراك بالليل فقد تساوى الليل والنهار فيما يدركانه ، و إنما كان سبيله أن يأتى بما لاقسيم له حتى يأتى بمعنى مفرد . فلو قال قائل : إن منصوراً النمرى فى ذلك أحسن منـــه لوجد مساغاً إلى ذلك حيث يقول :

فَلَوْ كُنْتُ كالعَنْقَاءِ أو كَسُمُوِّها ... خِلْتُكَ إلاَّ أَنْ تَصُدَّ تَرَانى

وقد أخذ هذا المعنى كثير من الشعراء ، فقال سَلْمٌ الخاسرُ :

فأَنْتَ كالدَّهْرِ مَبْثُوثًا حَبَائِـلُهُ ... والدَّهْرُ لا مَلْجَأٌ منه ولا هَرَبُ

ولو مَلَـكْتَ عِنَانَ الرِّيحِ أَصْرِفُهَا ... فى كل ناحيةٍ ما فاتك الطَّلَبُ

وقال البحترىّ :

ولو أنهُمْ ركبوا الـكواكبَ لم يكن ... يُنْجِيهِمُ من خوف بَأْسِك مَهْرَبُ

وقال علىّ بن جَبَلة :

وما لأمرئ حاوَلْتَهُ منك مَهْرَبٌ ... ولو رَفَعَتْهُ فى السماءِ المَطَالِـعُ

بَلَى هَارِبٌ لا يَهْتَدِى لمكانِه ... ظَلاَمٌ ولاضَوْءٌمن الصُّبْحِ ساطِعُ(١)

وقد يدق الأخذ حين يعول الآخذ على عموم المعنى ومغزاه و يترك لفظه جملة كما قال عُرْوة بن الوَرْد :

ومن يَكُ مِثْلِي ذاعيالٍ ومُقْتِرًا ... من المـال يَطْرَحْ نَفْسَه كُلَّ مَطْرَحِ

لِيَبْلُغَ عُذْرًا أو يَنَالَ رَغِيبَةً ... ومُبْلِـغُ نَفْسٍ عُذْرَهامِثْلُ مُنْجِحِ

أخذه أبو تمـام ، فقال :

---

(١) بلى تفيد إبطال النفى سواء فى الاستفهام أو غيره . مثال الاستفهام . قوله تعالى : ألست بربكم قالوا بلى . ومثال غير الاســتفهام قوله تعالى أيضا : زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن . وتكون بمعنى بل مثل قوله تعالى : وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ، ثم قال: بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والمعنى بل من كسب ، وهى فى البيت بمعنى بل أى إن الهارب الموصوف بهذه الصفات لا مهرب له منك .

فَتَى مَاتَ بَيْنَ الطَّعْنِ والضَّرْبِ مِيتَةً   تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِنْ فَاتَهُ النَّصْرُ

فقد جعل عروة اجتهاده فى طلب الرزق عذراً يقوم مقام النجح ، وأبو تمام جعل الموت فى الحرب قائما مقام الانتصار ومرجع المعنيين واحد وإن اختلف التصوير واللفظ .

ومثل ذلك قول جرير :

ولا يَمْنَعْكَ من أَرَبٍ لِحَاهُمْ   سَوَاءٌ ذُو العِمَامَةِ والخِمَارِ

أخذه أبو الطيب ، فقال :

ومَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاةٌ   كَمَنْ فى كَفِّهِ مِنْهُمْ خِضَابُ

وقد يزيد الأخذ على صاحب المعنى كما قال المُعَذَّل بن غَيْلان :

وَلَسْتُ بنَظَّارٍ إلى جانبِ الغِنَى   إذا كَانَتِ الْعَلْيَاءُ فى جَانِبِ الفَقْرِ

فأخذه أبو تمام ، فقال :

يَصُدُّ عن الدنيا إذا عَنَّ سُؤْدُد   ولو بَرَزَتْ فى زِيِّ عَــذْراءَ ناهِدِ[1]

وزيادة أبى تمام بقوله « ولو برزت .... » جعلت المعنى حسناً جميلاً حتى كاد يستبدبه ، ومن ذلك قول الأسود بن يعفر .

يسعى بها ذو تُومَتَين كأنما   قَنَأَتْ أنامله من الفِرْصادِ[2]   (٢) التوت الأحمر

وقد أحسن أبو نُوَاس اتّباعه بزيادة من المحاسن ، فقال :

يَبْكِى فيُذْرِى الدُّرَّ مِنْ نَرْجِسٍ   ويَلْطِمُ الوَرْدَ بعُــــــنَّابِ

وأحسن الوَأْوَاء الدمشقى بعد أبى نواس ، فقال :

---

(١) السؤدد (بالهمز مضموم الدال الأولى ومن غيره مفتوحها) : السيادة والشرف .

(٢) قنأ (كمنع) : اشتدت حمرته . التومتان : حبتا در . الفرصاد : صبغ أحمر ، والبيت فى وصف ساقى الخمر وقبله :

ولقد لهوت وللشباب بشاشة   بسلافة مزجت بماء غوادى

وأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤًا من نَرْجِسٍ وسَقَتْ   وَرْدًا وعَضَّتْ عَلَى العُنَّابِ بالبَرَدِ

ومن ذلك أيضاً قول جرير :

إذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ   رأيتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

أخذه أبو نواس ، فقال :

لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ   أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدِ(١)

فأبدع غاية الإبداع إذ أخرجه مُخْرج العموم وصاغه صيغة الكلمات الجامعة وبالغ فى ممدوحه ، فجعله العالم على حين جعل جرير قبيلة تميم هى الناس كلهم ، ثم بقى فرق بين العالم والناس فالأولى أشمل وأعم وأبعد فى المبالغة .

ومن ذلك أيضاً قول الفرزدق فى ناقته :

عَلَامَ تَلَفَّتِينَ وأنتِ تَحْتِي   وخيرُ الناسِ كُلِّهِمِ أَمَامِي

مَتَى تَأْتِي الرُّصَافَةَ تَسْتَرِيحِي   من الأَنْساعِ والدَّبَرِ الدَّوَامِي(٢)

فأخذه أبو نواس وصار أحق به حين قال :

وإِذَا المَطِيُّ بنا بَلَغْنَ مُحَمَّدًا   فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ

فقد جعل الفرزدق جزاء ناقته على بلوغ الممدوح أن يريحها فحسب من الأنساع والدَّبَر الدوامى . أما أبو نواس فكان أكرم وأدلّ على سروره بلقاء ممدوحه وثقته بما يؤمل منه ، إذ خلى راحلته سائمة وحرم ظهرها على الركاب .

ومن المعانى التى سبق إليها جاهلى فتتابع الشعراء فى كلّ العصور على استعارة

---

(١) وقال أبو نواس فى نفس المعنى :

متى تحطى إليه الرحل سالمة   تستجمعى الخلق فى تمثال انسان

وقال المتنبي :

هدية ما رأيت مهديها   إلا رأيت العباد فى رجل

(٢) الأنساع : جمع نسع ، وهو سير يشد به الرحل . الدبر : جمع دبرة ، وهى قرحة الدابة .

معناه قول أبى نواس :

فَتَمَشَّتْ فى مَفَاصِلِهِمْ　　كَتَمَشِّى البُرْءِ فى السَّقَمِ

فالأصمعى يقول : إنه سرقه من مُسْلم بن الوليد حيث يقول :

تَجْرِى مَحَبَّتُهَا فى قَلْبِ وَامِقِهَا　　جَرْىَ السَّلَامَةِ فى أَعْضَاءِ مُنْتَكِسِ (١)

وهو أخذه من قول عمر بن أبى ربيعة :

لَقَدْ دَبَّ الْهَوَى لَكِ فى فُؤَادِى　　دَبِيبَ دَمِ الْحَيَاةِ إِلَى العُرُوقِ

وهو أخذه من قول بعض العُذْريين :

وأُشْرِبَ قَلْبِى حُبَّهَا وَمَشَى بِهِ　　كَمَشْىِ حُمَيَّا الْكَأْسِ فى عَقْلِ شَارِبِ

ودَبَّ هَوَاها فى عِظَامِى وَحُبُّها　　كما دَبَّ فى المَلْسُوعِ سُمُّ العَقَارِبِ

وهو أخذه من أُسْقُفِّ نجران حيث يقول :

مَنَعَ الْبَقَاءَ تَقَلُّبُ الشَّمْسِ　　وَطُلُوعُهَا مِنْ حَيْثُ لا تُمْسِى

وطُلُوعُها حَمْرَاءَ صَافِيَةً　　وغُرُوبُهَا صَفْرَاءَ كَالْوَرْسِ

تَجْرِى عَلَى كَبِدِ السَّمَاءِ كَمَا　　يَجْرِى حِمَامُ المَوْتِ بِالنَّفْسِ

ومن المعانى التى توارد عليها الشعراء قول النابغة :

إذا مَاغَزَوْا بالجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ　　عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِى بِعَصَائِبِ

جَوَانِحُ قَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ قَبِيلَه　　إذا مَا الْتَقَى الجَيْشَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

أخذه أبو نواس ، فقال :

تَتَأَيَّا الطَّيْرُ غَزْوَتَه　　ثِقَةً بِاللَّحْمِ من جَزَرِهِ (٢)

وقال مسلم بن الوليد :

---

(١) المراد بالمنتكس : مطلق مريض . لا الذى عاوده المرض بعد نقه .

(٢) تأيا بالمكان : تلبث وانتظر .

قد عَوَّدَ الطَّيْرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بها فهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فى كُلِّ مُرْتَحَلِ

وقال أبو تمـام :

وقد ظُلِّلَتْ أعناقُ أعلامه ضحًى بعِقْبانِ طَيْرٍ فى الدماء نَوَاهِلِ

أقامتْ مع الراياتِ حتَّى كأنَّها من الجَيْشِ إلا أنها لم تُقَاتِلِ

وجاء المتنبي فأضاف إلى المعنى ما جعله أحق به إذ قال :

يُفَدِّى أَتَمُّ الطَّيْرِ عُمْراً سِلاحَهُ نُسُورُ المَلاَ أحداثُها والقَشَاعِمُ[1]

وما ضَرَّها خَلْقٌ بغير مخالبٍ وقد خُلِقَتْ أسيافه والقَوَائِمُ

وإننا لنقتصر على ما أوردنا حتى لا نخرج عن القصد من الإشارة والتمثيل ، وإن كان القول فى هذا الباب من لباب العربية لأنه يفشى سرّ الشعراء فى انتحائهم نواحي المعانى ودبيبهم إلى محاسن القول ، ويدلّ على مقدار أذواقهم ، وما استطاعوه من زيادة بمحاولتهم، أوقصروا عنه من وفاء وإبداع . فلصق العيب بالسارق ، وحفظ المعنى للسابق .

المعانى الجديدة

يراد بها تلك المعانى التى استقلّ المحدثون بابتداعها ، ولم يسبقهم إليها جاهلى ولا إسلامى ، وتلك لعمر الحق كثيرة كثرة المشاهدات التى أحدثتها الحضارة متعددة تعدد العادات التى أوحت بها المدنية مبتكرة بهذا الفكر المثقف الذى قرأ حكمة الهند ، وتأدب بأدب الفرس ، وتأمل تأمل اليونانى الحكيم ، وإذا استبدّ المتقدمون بمتانة التعبير وصحة الأداء ، وحازوا فضيلة السلامة من قصور الملكة ، وكان كلامهم حجة فى العربية ، ومعجماً لألفاظها وأساليبها ، فإن للمحدثين مزية المعنى ، والتحليق فى سماء

(١) الملا : الفلاة ، وفى رواية الفلا فيكون جمع فلاة وهى الصحراء . الأحداث : الصغيرة . القشاعم : المسنة ، والمراد بأتم الطير عمرا النسور لأنها أطول الطيور عمرا .

الخيال ، واتساق الفكر ، ولقد قال أبو الفتح عثمان بن جنى . المولدون يستشهد بهم في المعانى كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ .

ولا شكّ أن الشاعر إنما يحكى ما يرى ، ويصف ما أحس ، ومن الذى ينكر أن الحضرى قد شاهد ما لم يره البدوى ، فهو يعيش فى مدن حافلة وجموع حاشدة ، ويرى أنواع الناس ، ومختلف الأزياء ، ويعيش بين القصور ، ويبصر ما تحوى من أثاث ورياش ، ويذوق مختلف الطعوم ، وهو يكسب رزقه بغير الوسائل التى يكسب بها البدوى فيلتمسه فى صناعة أو زراعة أو تعليم أو كتابة ؛ والعربى إنما سبيله فيه الغارة ، ومطاردة الوحش ، فكيف لا تختلف بعد كلّ هذا مقادير عقولهما ومادة خيالهما .

وإذا كان ابن الرومى وابن المعتزّ ، وهما حضريان يظلهما عصر واحد ويعيشان فى مدينة واحدة ، ويحسان إحساساً هو فى جملته واحد ؛ قد تباينت بهم الحال فيما يصفان ؛ فكيف بالجاهلى أو الإسلامى إذ قيس إلى العباسى والحكم فى معيشتهم متباين . ولقد ذكروا أن لا ئماً لام ابن الرومى وقال لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتزّ وأنت أشعر منه ؟ فقال . أنشدنى من قوله الذى استعجزتنى فى مثله ، فأنشده فى صفة الهلال :

فانظر إليه كزَوْرَقٍ من فضة　　قد أثْقَلَتْهُ حُمُولةٌ من عَنْبَرِ[1]

قال فزدنى فأنشده :

سقيا لروضاتٍ لنا　　من كل نَوْرٍ حاليه
عيونُ آذَرْيُونِها　　للشمس فيها كاليَهْ[2]

---

(١) الحمولة (بالضم) : المتاع الذى يحمل . والحمولة (بالفتح) الدابة يحمل عليها المتاع .

(٢) الأذريون : معرب آذركون : أى لون النار وهو ورد له أوراق حمر فى وسطها سواد له بنود وارتفاع وقد يكون أصفر ، ولاختلاف لونه يشبه بكاس من عقيق فيها مسك قال ابن المعتز :

مداهنٌ من ذهَبٍ فيها بقايا غَاليَهْ

فصاح واغوثاه يالله ! ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن الخلفاء وأنا أىّ شىء أصف ؟ ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع الناس كلهم منى . هل قال أحد قط أملح من قولى فى قوس الغمام ، (وروى الأبيات التى رويت من ناحية أخرى لسيف الدولة ، وقد مرّت بك) ، وقولى من قصيدة فى صفة الرقاقة :

ما أَنْسَ لا أَنْسَ خبّازاً مررتُ به يَدْحُو الرُّقاقةَمِثْلَ اللَّمْحِ بالبَصَرِ (١)

ما بَيْنَ رُؤْيَتِهَا فى كَفِّهِ كُرَةً وبين رُؤْيَتِهَا قَوْرَاء كالْقَمَرِ (٢)

إلا بمقدارِ ما تَنْدَاحُ دَائِرَةٌ فى لُجَّةِ الماء يُرْمَى فيهِ بالحَجَرِ

وسنورد عليك من المعانى التى عرفت للمحدثين ، ولم تقع قبلهم لشاعر جاهلى أو اسلامى ما يكون مثالا لها وشاهداً عليها إذ لاسبيل إلى حصر ذلك ، فإنه كثير شائع .

فمن المعانى التى لم يعرفها المتقدمون قول بشار :

يا قومُ أُذْنِى لبَعْضِ الحىّ عاشقةٌ والأُذْنُ تَعْشَقُ قبْلَ العينِ أحيانا

قالوا بمن لاتَرَى تَهْذِى فقُلْتُ لَهُمْ الأُذْنُ كالعين تُوفِى القَلْبَ ما كَانا

وقال أبو نُوَاس (وقد ذكر المبرّد أنه لم يسبق إليه) :

أيها الرائحان باللوم لُومَا لا أَذُوقُ المُدَامَ إلا شَمِيَا

نالنى بالمَلَامِ فيها إمامٌ لا أرى لى خلافَه مُسْتَقِيَا

وحمل أذريونة فوق أذنه ككأس عقيق فى قرارتها مسك

وقد يشبه بمدهن من ذهب فيه شىء من الغالية (أخلاط الطيب) كقوله المروى فى الأصل .
ومعنى كلاءة عيون الآذريون للشمس أنها تستقبلها وتدور معها حيث دارت . والضمير فى « فيها » للرياض .

(١) دحا الشىء : بسطه .

(٢) قور الشىء : قطعه من وسطه خرقا مستديرا ، والمراد هنا مجرد الاستدارة .

فاصْرِفاها إلى سِوَاىَ فإنِّى ... لَسْتُ إلاَّعلى الحديث نَدِيمَا
كِبْرُحَظِّى منها إذا هىدَارَتْ ... أن أَراها وأَنْ أَشَمَّ النَّسِيمَا(١)
فكأنى وما أُزَيِّنُ منها ... قَعَدِىٌّ يُزَيِّنُ التحكيما
كَلَّ عن حَمْلِهِ السلاحَ إلىالحَرْ ... بِ فأوصى المُطِيقَ ألاَّ يُقيما

وقوله فى صفة نساء خمارات (ويروى لابن المعتزّ) :

وَتَحْتَ زَنَانِيرٍ شَدَدْنَ عقُودَها ... زَنَانِيرُ أَعْكَانٍ مَعَاقِدُها السُّرَرْ(٢)

ومن اختراعات أبى تمام (وهو كثير الاختراعات) قوله :

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ... طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتْ ... ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وقوله فى الرثاء :

بَنِى مَالِكٍ قدنَبَّهَتْ خَامِلَ الثَّرَى ... قُبُورٌ لكم مُسْتَشْرِفَاتُ المَعَالِمِ
غَوَامِضُ قِيدَ الْكَفِّ من مُتَنَاوِلٍ ... وفيها عُلاً لا يُرْتَقَى بالسَّلاَلِمِ

وقوله :

وإذَا المَجْدُ كان عَوْنِى عَلَى المَرْ ... ءِ تقَاضَيْتُهُ بِتَرْكِ التَّقَاضِى

وقوله :

لَيْسَ الحِجَابُ بِمُقْصٍ عنك لِى أَمَلاً ... إنَّ السَّمَاءَ تُرَجَّى حِينَ تَحْتَجِبُ

ولابن الرومى فى باب الاختراع مجال واسع إذ قد عرف بالغوص على المعانى واستقصائها

---

(١) كبر الشيء (بالكسر) : معظمه .

(٢) الزنار : الحبل يشد على الوسط . العكنة : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا ، والجمع أعكان وعكن .

حتى لا يدع فيها بقية لمحاول ، ولعل ذلك إنما أتاه من نسبه إلى الروم ، وهم أهل تأمل وحكمة وعقول راجحة ، فظهرت وراثته فى المعانى التى غاص عليها واستقصاها ، ومن ذلك قوله :

عَيْنِي لِعَيْنِكَ حين تَنْظُرُ مَقْتَلٌ ... لكنَّ لَحْظَكَ سَهْمُ حَتْفٍ مُرْسَلُ(١)
ومِنَ العَجَائِبِ أنَّ مَعْنًى واحداً ... هُوَ مِنْكَ سَهْمٌ وهْوَ مِنِّى مَقْتَلُ

وقال يعاتب من يزداد على التَّوَدُّد بعدا :

تَوَدَّدْتُ حتى لم أدع مُتَوَدَّدَا ... وأفنَيْتُ أقلامى عِتَابًا مُرَدَّدَا
كأنِّىَ أَسْتَدْعِى بِكَ ابْنَ حَنِيَّةٍ ... إذا النَّزْعُ أَدْنَاه مِنَ الصَّدْرِ أَبْعَدَا

وقوله فى الغزل :

نَظَرَتْ فأَقْصَدَتِ الفُؤَادَ بِلَحْظِهَا ... ثم انْثَنَتْ عنه فَظَلَّ يَهِيمُ
فالمَوْتُ إن نَظَرَتْ وإِنْ هِىَ أَعْرَضَتْ ... وَقْعُ السِّهَامِ ونَزْعُهُنَّ أَلِيمُ

وقوله فى تعليل طول قصائد المدح بأنه هجاء الممدوح :

وإذا امرؤ مَدَح امْرَأً لنواله ... وأطال فيه فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَه(٢)
لو لم يُقَدِّرْ فيه بُعْدَ المستقى ... عند الوُرُودِ لما أطال رِشاءَه

وقوله فى صفة بخيل :

---

(١) مقتل : اسم مكان . والمعنى أن عينى هى المكان الذى تقتلنى منه عينك ، فاذا نظرت إلىّ ونظرت إليك كان فى ذلك هلاكى ، وما سبب ذلك إلا عينك التى أثرت فىّ بوقع نظرها الذى هو كالسهم ولولا أنى نظرت إليك فرأت هذا الطرف الساحر ما وقعت تحت تأثيره الذى أودى بحياتى .

(٢) كرر ابن الرومى هذا المعنى فقال :

إذا عزّ رفد لمسترفد ... أطال المديح له المادح
وقدما إذا استبعد المستقى ... أطال الرشاء له الماتح

وقد أخذ السراج الوراق هذا المعنى فقال :

سامح بفضلك عبدا مقصرا فى الثناء
رأى قليبا قريبا فلم يطل فى الرشاء

يُقَتِّرُ عيسى على نَفْسِـــهِ وليس بباقٍ ولا خالدِ
فلوْ يَسْتَطِيعُ لتقتـــيره تَنَفَّسَ من مَنْخَرٍ واحد

ومن المعانى المخترعة قول ابن الخياط ، وينسب إلى بشار :

لَمَسْتُ بكَفِّى كَفّه أَبْتَغِى الغِنَى ولم أَدْرِ أنّ الجودَ من كَفِّهِ يُعْدِى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أَفَدْتُ وأَعْدَانِى فأَتْلَفْتُ ماعندى

ومن ذلك قول المتنبى فى ابن العميد ، وزير ركن الدولة .

من مُبْلغُ الأعرابِ أنِّى بعدها جالستُ رَسْطَالِيسَ والإِسْكَنْدَرَا
وسَمِعْتُ بَطْلِيمُوسَ رَاوِىَ كُتْبِه مُتَمَلِّــكاً مُتَبَــدِّيًا مُتَحَضِّرًا
ولقيتُ كُلَّ الفَاضِلِينَ كأَنَّمَا رَدَّ الإلهُ نُفُوسَهُمْ والأَعْصُرَا
نُسِقُوا كما نُسق الحسابُ مُقَدَّمًا وأَتى فَذَلِكَ إذ أَتَيْتَ مُؤَخَّـــرًا[1]

وقوله :

خُلِقْتُ أَلوفا لو رَجَعْتُ إلى الصِّبَا لفارقتُ شَيْبِى مُوجَعَ الْقَلْبِ باكِيَا

ومن المعانى التى لم يعرفها المتقدمون إذ لم تكن المثلة بالصلب شائعة فى أيامهم شيوعها فى هذه الأيام ، وإن حصلت فإنه لم يحصل أن رثى مصلوب ، قول ابن الأنبارى فى ابن بَقِيّة :

كأَنّ الناسَ حَوْلَك حِينَ قَامُوا وُفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصِّـــــلاَتِ
كأَنّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيـــــباً وكُلُّهُمُو قِيامٌ للصَّـــــلاَةِ
ولَمّـا ضَاقَ بَطْنُ الأَرْضِ عَنْ أَنْ يَضُمَّ عُـــلاكَ من بَعْدِ الوَفَاةِ
أصاروا الجَوّ قَبْرَكَ واستعاضوا عن الأكفانِ ثوبَ السَّافياتِ

وقول عُمَارة اليمنى فيه :

---

(١) قيل إن كلمة فذلك فاعل أتى : أى أتى هذا اللفظ الذى يقال عند الجملة فى آخر الحساب .

وَمَدَّ على صَلِيب الصَّلْبِ منه ... يَمِينا لا تَطول إلى شِمالِ
ونَكَّسَ رأسَه لعِتَاب قَلْبٍ ... دعاهُ إلى الغَوَاية والضَّلَالِ

ومن العجيب أن عُمارة صلب بعد قوله بقايل ، صلبه الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب :

ونحن نكتفى من المعانى المحدثة بما أوردنا فإنها كثيرة لا تكاد تحصى .

أغراض الشعر

لاختلاف الزمن وتقلب الأيام أثر فى الأغراض التى يحاول الشعراء القول فيها ، إذ أن اختلاف نوع المعيشة ، وتبدل وسائل الحياة ، وتغاير علاقات الناس بعضهم ببعض ، والانتقال إلى العلم بعد الجهل ، والتزام عادات ، واطراح أخرى ، واستحسان ما كان مستقبحاً ، واستقباح ما كان مستحسناً ، والاعتداد بما كان مغفلا ، و إغفال ما كان مرعيا ، كلّ أولئك أسباب تجعل اتجاه العقول فى عصر يختلف عنه فى عصر آخر . لذلك كان لزامًا أن يصبح للشعراء فى العصر العباسى أغراض غير أغراضه فى العصور الماضية ، وليس يلزم من ذلك أن يمحى القديم ، و ينشأ جديد لاصلة له به ، بل نجد فى العصر الناشئ أغراضاً حدثت ، وليس لها فى القديم سبب ترجع إليه ، ونجد الأغراض القديمة التى بقيت قد حدث فيها ما جعلها ذات طابع غير طابعها فى العصر الذى قبله .

فكثير من الأغراض القديمة كالمدح والهجاء ، والغزل بالمؤنث ، والوصف والفخر والسياسة ، والزهد ، والحكمة ، والمثل أكثروا منها ، وافتنوا فى معانيها ، وصبغوها بصبغة المبالغة حتى انتهى المدح إلى الكفر أو قريب منه ، وصار الهجاء أقذاعاً شائناً للهاجى قبل المهجو ، وفى الوصف تناولوا كل ما وقعت عليه عيونهم من قصور و بساتين

وسفن ، ومجالس أنس ، وبرك ماء ، وطير ، وسمك ، حتى لقد تناولوا صغير الأشياء كالموقد ، والشمعة ، والقلم ، والدواة ، وفي السياسة تناولوا العصبيات بين المضرية واليمانية ، أو بين العجم والعرب ، واحتجّ للعباسيين قوم ، وانتصر للعلويين آخرون حتى لقد انتهى التعصب إلى الآراء في العلوم ففاضلوا بين نحويي البصرة والكوفة .

ومن الأغراض التي جدت ولم يكونوا يعرفونها من قبل الغزل بالمذكر (وأظهر ما فيه وصف العذار) ، والتعصب لبعض أنواع الزهر ، والقول في المصلوبين ، والخوض في المجون ، وهجاء المغنين ، والاتهام بالأبنة ، والذمّ بالرشوة ، ووصف أنواع المطاعم ، ونظم القصص ، والحكايات التهذيبية ، وضبط قواعد العلوم من فقه وغيره .

ومن المعاني القديمة التي شنت عليها الغارة الوقوف بمنازل المحبوبة والبكاء واستبكاء الأصحاب ، ووصف الآثار من نُؤىّ وأثَافِىّ[1] وأبعار ، ثم ذكر الناقة ، وحنينها إلى العطن ، ووصف خلقها ، وجميل صبرها ، ووصف الصحراء وما قاسى الشاعر من حرها وعاصف ريحها ، وما صادف من وحشها . ولكنّ قوما قد بقوا إلى حين متمسكين بالقديم يحنون إليه ، ويرون في التزامه بقاء لرونق العربية ، وحفظا لعمود القصيد .

وأوّل من شنّ الغارة على ذلك أبو نواس ، فإنه جعل وصف الخمر هو مفتتح قصائده ، فكان أول المجدّدين في ذلك واتبعه الشعراء .

ولقد أكثر أبو نواس من التنديد بالطريقة القديمة حتى كان حامل لواء هذا التجديد بقوله :

لا تَبْكِ لَيْلَى ولا تَطْرَبْ إلى هِنْدِ وأشربْ على الورد من حمراء كالورد

وقوله :

---

(١) نؤى : جمع نؤى (كقفل) ونئى (كبئر) ونؤى (كهدى) وهو الحفيرة تجعل حول الخباء يتجمع فيها ماء المطر . الأثافى : جمع أثفية ، وهى الحجر تنصب عليه القدر .

صِفَةُ الطُّلولِ بلاغـــــةُ القِدْمِ فاجعل صفاتِك لابنة الكَرْمِ[1]

وقوله :

سَقْياً لغـــــير العلياء فالسَّنَدِ وغــــير أطلالِ مَيَّ بالجَرَدِ

وقوله :

يا ربعُ شُغلَكَ إنِّى عنك فى شُغُلِ لا ناقتِى فِيكَ لو تَدْرِى ولاَ جَمَلِى

وقوله :

تَبْكِى على طَلَلِ الماضين من أَسَدِ لا دَرَّ دَرُّكَ قُلْ لِى مَنْ بَنُو أَسَدِ؟

لا جَفَّ دَمْعُ الذى يَبْكِى على حَجَرٍ ولا صَفَا قَلْبُ من يصبــو إلى وَتِدِ

وقد أحل أبو نواس ذكر الخمر وإعلان محاسنها محلّ بكاء الدار، فجعله مستهلّ قصائده، ولكنه لما اشتهر بذلك وبان فجوره فيه حبسه الرشيد، فاضطرّ أن يعود فى سخرية وتنادر إلى ذكر الأطلال، وهجر النعت للخمر، فقال :

أَعِرْ شِعْرَكَ الأَطلالَ والمنزلَ القَفْرَا فقد طالما أَزْرَى به نَعْتُكَ الخمرا

دعانى إلى نَعْتِ الطُّلولِ مُسَلَّطٌ تَضِيقُ ذراعى أنْ أَرُدَّ له أمرا

فسمعا أميرَ المؤمنينَ وطاعـــةً وإنْ كُنْتَ قد جَشَّمْتَنِى مَرْكَبًا وَعْرَا

نماذج من أغراض الشعر

المـــدح

كان من آثار المدنية أن تمتع الملوك بالسلطان الواسع، وتأيد ملكهم بالجيوش الكثيفة، وامتلأت قصورهم بالغلمان والجوارى، وسعى بين أيديهم القوّاد والوزراء

(١) القدم : يصح اعتبارها جمعا لقديم ويكون أصلها قدم (بضمتين) ثم خففت بتسكين الدال . ويصح ضبطها بكسر القاف ويكون أصلها القدم (بكسر ففتح) ثم خففت بتسكين الدال أيضا . ويصح قراءتها بالفاء المفتوحة (الفدم) ويكون ذلك من أبى نواس جريا على عادته فى ذمه للعرب وتشنيع أمرهم .

فزادت هيبتهم فى النفوس ، وعظم إجلال الناس لهم ، وتأثر الشعراء بهذه المظاهر ، واحتاج الخلفاء ومن على شاكلتهم من القوّاد والوزراء والأمراء أن تزداد هيبتهم فى نفوس العامة ، فأجزلوا العطاء على قدر المبالغة فى مدحهم فأكثر الشعراء من ذلك .

وكان القدماء قد قنعوا بحاتم مثلاً أعلى فى الجود ، وعمرو بن معديكرب غاية فى الشجاعة ، والبدر مصدراً للجمال الفائق ، فلما شبه أبو تمام المعتصم بهذه الأمثلة عابه بعض جلساء الأمير، وقال: الأمير فوق من ذكرت ، فاضطرّ أبو تمام أن يعتذر بقوله :

لا تُنْكِروا ضَرْبِى له مَنْ دُونَه مثلا شَرُوداً فى النَّدَى والبَأسِ
فاللّهُ قَدْ ضَرَبَ الأَقَلّ لنُورِهِ مَثَلاً من المِشْكاة والنِّبْرَاسِ

ولكنه عرف أن الاقتصار على هذا الحدّ من الثناء لا يرضى الأمير ولا متملقيه .

وقد حكى لنا على بن عبد الرحمن بن المنجم أن محبوبته لم ترض عن تشبيهه إياها البدر ، فقال :

شبّهتُها بالبدر فاستضحكَتْ وقابلَتْ قَوْلِىَ بالنُّكْرِ (١)
وسَفِهَتْ قَوْلِى وقَالَتْ مَتَى سَمُجْتُ حتَّى صِرْتُ كَالْبَدْرِ
البَدْرُ لا يَرْنُو بعينٍ كما أَرْنُو ولا يَبْسِمُ عن ثَغْرِ
ولا يُميطُ المِرْطَ عن ناهدٍ ولا يَشُدُّ العِقْدَ فى نَحْرِ
من قاسَ بالبدرِ صِفَاتِى فلا زال أسيراً فى يَدَىْ هَجْرِى

وقال المتنبى :

هُمُ المحسنون الكَرّ فى حَوْمَةِ الوَغَى وأَحْسَنُ منه كَرُّهُمْ فى المَكَارِمِ
ولولا احتقارُ الأُسْدِ شَبّهْتُها بهم ولَكِنّها مَعْدُودَةٌ فى البَهَائمِ (٢)

وقال السّلاَمىّ (٣) شاعر اليتيمة :

---

(١) النكر : استفظاع الأمر .

(٢) ويروى شبهتهم بها وهى أظهر . والأولى أشد مبالغة لقلب التشبيه .

(٣) السلامى : نسبة إلى دار السلام (بغداد) .

تُشَبِّهُهُ المُدَّاحُ فى البأس والنَّدَى بمن لو رآه كان أَصْغَرَ خادِمِ
فنى جيشه خمسون ألفاً كعَنْتَرٍ وأَمْضَى وفى خُزَّانه ألفُ حاتِمِ

فاتجهت أذهان الشعراء إلى المبالغة التى أصبحت تستدعيها عظمة الممدوح وانغماسه فى الترف ونزوعه إلى الغرور والإعجاب بالنفس ، فكان من الشعراء افتنان وغوص على المعانى التى تثير الإعجاب ، وتزيد فى تفخيم الممدوحين الذين دلوا على رضاهم بكثرة العطاء وتقريب من شفى حاجة نفوسهم من الشعراء . بل لقد طالبوا بالإفراط فى مدحهم، فقد حكوا أن الشعراء اجتمعوا بباب المعتصم ، فأرسل إليهم ابن الزيات يقول لهم : من كان يحسن أن يقول مثل قول النمرى فى الرشيد :

خَليفةَ اللهِ إنّ الجود أوديةٌ أَحَلَّكَ اللهُ منها حَيْثُ تَجْتَمِـعُ

(وقد مرت الأبيات ص ٣٠) ، فليدخل وإلا فلينصرف ، فقام محمد بن وُهَيْب فقال فينا من يقول مثله ، فقال أىّ معنى ؟ فقلت فقال :

ثلاثةٌ تُشْرِقُ الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمرُ

فأدخل على الخليفة ، وحسنت جائزته .

ومحمد بن وُهَيْب هذا هو الذى يقول فى مدح الحسن بن سهل :

تُعَظِّمُه الأوْهَامُ قبل عِيـانِهِ ويَصْدُرُ عنه الطَّرْفُ وهو مُحَاذِرُ
به تُجْتَدى النَّعْما وتُسْتَدْرَكُ المنى وتُسْتَكْمَلُ الحُسْنَى وتُرْعَى الأَواصِرُ
أَصاتَ بنا داعى نَوالِكَ مُؤْذِناً بجـودِكَ إلاّ أنّهُ لا يُحَاوِرُ
قَسَمْتَ صُرُوفَ الدّهرِ بأساً ونائلا فمالُك مَوْتُورٌ وسَيْفُك واترُ
ولو لم تَكُنْ إلاّ بنفسك فاخِراً لما انتسبتْ إلاّ إليك المفاخرُ

فطرب الحسن حتى نزل عن سريره إلى الأرض وقال : أحسنت والله وأجملت ، ولو لم تقل فىّ ولا قلت باقى دهرك غير هذا لما احتجت إلى القول ، وأمر له بخمسة آلاف دينار ، واقتطعه إلى نفسه ، فلم يزل فى كنفه أيام ولايته وبعد ذلك إلى أن مات ، لا يتصدّى لغيره .

ويبالغ المتنبي في شأن ممدوحيه حتى يستأثر بعطاياهم ، فقد خوطب عضد الدولة في شأنه حين استدعاه ليمدحه ، فقيل له : إنك ستعطيه مالو وزعته على ثلاثين شاعراً لملئوا الأرض بمدائحك فلم يصخ إلى قول النصاح :

والمتنبي هذا هو الذي يقول في أبي عليّ الـكاتب :

لم تَلْقَ هذا الوجهَ شمسُ نهارنا　　إلاّ بوجه ليس فيه حياءُ
فبأيِّ ما قَدَمٍ سَعَيْتَ إلى العُلا　　أُدُمُ الهلال لأَخْمَصَيْكَ حِذَاءُ[(١)]
ولك الزمانُ من الزمان وِقَايَةٌ　　ولك الحِمَامُ من الحِمامِ فِدَاءُ[(٢)]
لو لم تكن من ذا الْوَرَى اللّذْ مِنْكَ هُوْ　　عَقِمَتْ بِمَوْلِدِ نَسْلِها حَوّاءُ[(٣)]

ويقول في كافور :

تجاوَزَ قَدْرَ المَدْحِ حتى كأنَّهُ　　بأحسنِ ما يُثْنَى عليه يُعابُ
وغالبه الأَعْدَاءُ ثم عَنَوْا له　　كما غالبت بِيضَ السيوفِ رِقابُ
وأَكْثَرُ ماتلقى أبا المسك بِذْلَةً　　إذا لم يكن إلا الحديدَ ثيابُ
وأوسعُ ما تلقاه صدرا وخَلْفَهُ　　رِماءٌ وَطَعْنٌ والأمامَ ضِرابُ[(٤)]
وأنفذُ ما تلقاه حُكْما إذا قضى　　قَضَاءً ملوكُ الأرض منه غِضابُ

وقد غر قوماً كثرة العطاء ، وهان عليهم أمر الدين فلم يتهيبوا أن يرفعوا ممدوحيهم

---

(١) ما زائدة . والمعنى على التعجب من وصوله إلى درجة في العلا لم يصل إليها غيره ، فهو يقول : بأى قدم وصلت إلى هذه المعالى ، ثم دعا له بأن يكون وجه الهلال نعلا له .

(٢) المعنى ليكن الزمان وقاية لك من عواديه : أى ليهلك هو بها دونك وليمت الموت فداء لك من نفسه .

(٣) اللذ لغة في الذى ، والضمير « هو » بالتسكين ضرورة أو لغة ، ومعنى البيت : لو لم تكن بين الناس لعدت حواء عقيما مع ماولد من نسلها ، وجعل الناس منه في قوله : « الورى اللذ منك هو » لأنه جمالهم وشرفهم حتى كأنهم ساقطون دونه .

(٤) الرماء والضراب مصدران بمعنى المفاعلة : أى المراماة والمضاربة . الابتذال : ترك صيانة الشىء والمعنى أنه يكون أوسع صدرا حين تضيق الصدور بإحاطة جيوش الأعداء .

إلى مقامات يسامون فيها الله عز وجل ، فمنهم من دنا من الشرك ، ومنهم من وقع فيه . قال أبو نواس :

وأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حتَّى إِنّهُ   لتخافك النُّطَفُ التى لم تُخْلَقِ

وقد قيل إن العَتَّابى لقى أبا نواس ، فقال له : أما استحييت من الله بقولك : « وأخفت . . . » ، فقال له أبو نواس : وأنت أما استحييت منه بقولك :

مَا زِلْتُ فى غَمَرَاتِ الموت مُطَّرَحًا   يضيق عنى وَسِيعُ الرأيِ من حِيَلِى

فلم تَزَلْ دائماً تسعى بلُطْفِكَ لِى   حتى اخْتَلَسْتَ حَيَاتِى من يَدَىْ أَجَلِى

فقال العتابى : قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل ذاك ، ولكنك أعددت لكلّ ناصح جواباً ، وقد أعاد أبو نواس : المعنى فى قصيدة أخرى ، فقال :

حَتَّى الذى فى الرَّحْم (لم يك صورة)   لفؤادِهِ من خَوْفِهِ خَفَقَانُ

وقد بالغ البحترى فى المتوكل مبالغة زائدة ، ولكنه لم يحم حول الإشراك إذ كان معناه فى ناحية أخرى ، فقال :

ولو أن مشتاقا تَكَلَّفَ فوق ما   فى وُسْعِهِ لسعى إليك المِنْبرُ

فحدث البلاذُرى قال : كنت من جلساء المستعين بالله وقد قصده الشعراء ، فقال لهم : لست أقبل إلا ممن قال مثل قول البحترى (وذكر البيت السابق) قال البلاذرىّ : فرجعت إلى بيتى ثم لقيته وقلت له : قد قلت فيك أحسن مما قال البحترى ، فقال : هات ، فأنشدته :

ولو أن بُرْدَ المصطفى إذ لَبِسْتَه   يَظُنُّ لظَنَّ البُرْدُ أَنَّكَ صَاحِبُهْ

وقال وقد أُعْطِيتَهُ ولَبِسْتَهُ   نَعَمْ هذه أَعْطَافُهُ ومَنَاكِبُهْ

فقال له المستعين : ارجع إلى بيتك وافعل ما آمرك به . فرجع فبعث إليه سبعة آلاف دينار وقال : ادخر هذه للحوادث بعدى ، ولك علىّ الجراية والكفاية ما دمت حيًّا .

ومن الغلوّ الذى إن لم يكن كفراً ، فهو منه قريب قول ابن دريد يخاطب الدهر .

مارَسْتَ مَن لو هوت الأفلاكُ مِن جوانب الجوّ عليــه ما شكا

قيل إنه لادعائه الجبروت فى هذا البيت ابتلاه الله بمرض كان يخاف فيه من الذباب أن يقع عليه ، ومن قوله وهو كفر صراح :

ولو حمى المقدار منه مُهْجَةً لرامها أَوْ يَسْتَبِيحَ ما حَمَى
تغدو المنايا طائعاتٍ أمْرَه تَرْضَى الذى يَرْضَى وتأْبَى مَا أَبَى

وقول المتنبى :

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الإسلام

وقال المتنبى :

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِى رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ

وقد اعتذر عنه بعض المتعصبين له بأن التوحيد هنا نوع من التمر ، وبعض أصلح البيت ، فقال :

. . . . هنَّ فيه حلاوةُ التوحيد

وذكروا أن عضد الدولة لما قال :

مُبْرِزَاتِ الكأس من مطلعها ساقياتِ الراح من فاق البشر

لم يفلح بعد هذا القول وأخذته علة الصرع ودخل فى غمرات الموت فكان لا ينطق إلا بقوله تعالى : « مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ » . والمتساهلون فى هذا النوع كثيرون ، كأبى نواس ، وابن هانئ الأندلسى ، والمتنبى ، والمعرّى وغيرهم من المتأخرين ، كابن النبيه ومن جرى مجراه .

الهجاء

يمثل الهجاء فى هذا العصر ماتثمره المدنية من خبث النفوس، وتتبع العثرات، وسهولة الادعاء، والتقوّل على الناس (لضعف الوازع الدينى). كذلك كان من أثر المدنية أن تعدّدت المثالب، وكثر الفجور، فكان ما تورّط الناس فيه من المفاسد مادة للهجاء. فعيبوا باللواط والأبنة والرشوة وامتناع الوفاء. كما كان من آثار المدنية أن ارتقت الأذواق، فاستقذرت بعض المناظر، وهجنت بعض العادات. فذموا اللحى، واستبشعوا طولها، وهزئوا بالخلقة المشوهة، والأنوف الكبيرة، واستهجنوا بعض أصوات المغنين؛ مما يدلّ على أن الشعور قد دقّ، والإحساس قد رقى.

ولم يكن كلّ الباعث على الهجاء تلك الأحقاد التى تغلى بها الصدور، والعصبيات التى تقتل فى النفس طبيعة الإنصاف، وفضيلة الرحمة كما كان ذلك فى العصور الماضية. بل كان مرجع أغلبه إلى السخرية والتهكم وحبّ التنادر، والغلو فى المجون، وإظهار البراعة فى التقبيح وتوليد المعانى فيه، كما هو الشأن اليوم فيمن توفرت لهم أسباب الراحة وخلت أيديهم من الأعمال، وأفكارهم من البَلْبال فهم يزجون وقتهم بالتنادر على ذى خلقة عجيبة. أوعادة غريبة، وربما لم يجدوا حقيقة يَدْعَمون بها دعواهم فبنوها على الخيال الكاذب.

وقد يبنى الهجاء على سبب ليس له فى قرارة النفس غور، ولكنه ناشئ من حرمان الشاعر من العطاء، وذلك حين كثر الشعراء وقلت رغبة الممدوحين فى الجود فترتب على ذلك أن الشاعر يمدح المرء طمعا فى ماله، ثم يخيب أمله فيذمه، ثم يعود إلى الرضا حين يجد له أملا فيه، وهكذا أصبحت دواوين الشعراء ميداناً لمناقضات تدل على انحطاط أنفس الشعراء، وأنهم لا يتبعون فى ذمهم أو مدحهم رأياً يتعصبون

له ، أو حقيقة يدافعون عنها ، فمدحهم وذمهم كله كذب ، وهم أعلم الناس بكذب مزاعمهم . ولم يكن للأخلاق رقيب يحميها ، ولا لهؤلاء الذين اتخــذهم الناس هزأة من يدفع عنهم تلك العاديات ، فانطلق الهـاجون يقولون بالحقّ وبالباطل ، ويبالغون في الصغير حتى يجعلوه جسيما ، والوهم حتى يصيروه حقيقة . ولقد كانت هذه الإباحة شأن الدولة في كل شيء يتعلق بالأدب أو المعتقد ما لم يمس الخلافة أو سلطان ذوى السلطان .

ذكروا أن دِعْبِلاً هجا المأمون بقوله :

أَيَسُومُــنِي المَأْمُونُ خُطَّةَ عاجزٍ ... أَوما رأى بالأمس رأسَ مُحَمَّدِ

يُوفِي على هَامِ الخلائف مثلَ ما ... تُوفى الجبالُ على رُءوس القَرْدَدِ (١)

ويَحِلُّ في أكناف كُلِّ مُمَنَّعٍ ... حــتى يُذَلِّلَ شاهقاً لم يُصْعَدِ

إِنَّ الــتِّرات مُسَهِّدٌ طُلاَّبُها ... فاُكْفُفْ لُعَابَك عن لُعَابِ الأَسْوَدِ

إِنِّى مِنَ القَوْمِ الذين سُيُوفُهُمْ ... قتَلَتْ أَخَاكَ وشَرَّفَتكَ بمَقْعَدِ (٢)

شَادُوا بِذِكْرِكَ بعْدَ طول خُمُولِهِ ... واسْتَنقَذُوك مِنَ الحَضِيضِ الأَوْهَدِ

فلما بلغ المأمونَ قوله : ما زاد على أن قال : قاتل الله دِعْبِلا متى كنت خاملا ؟ وفي حجر الخلافة ولدت ، وبدَرِّها غُذيت ، وفي مهدها رُبِّيت .

⁂

قال ابن الرومى حين خاب أمله فى جائزة المدح :

إن كُنْتَ من جهل حقى غيرَ معتذرٍ ... أو كنتَ عن رَدِّ مدحى غير مُنقَلِبِ (٣)

فأعطنى ثمن الطرس الذى كتبت ... فيه القصيدة أو كَفَّارَةَ الكَذِبِ

وقال فى نفس المعنى أبو المُظَفَّر الأَبِيْوَرْدِيّ :

---

(١) القردد : ما ارتفع من الأرض .

(٢) يشير إلى طاهر بن الحسين الخزاعى ، وهو من قبيلة دعبل .

(٣) سبق أن روينا الأبيات ، وفيها «متئب» بدل «منقلب» وهما روايتان .

ومدائحٍ تَحْكى الرياضَ أَضَعْتُها ... فى باخلٍ أَعْيَتْ به الأَحْسَابُ(١)
فإذا تَنَاشَدَها الرُّواةُ وأَبْصَرُوا الـ ... ـمَمْدُوحَ قالوا ساحرٌ كَذّابُ

وقال بشار بن بُرْدٍ فى بخيل :

خليلَىَّ مِنْ كَعْبٍ أَعِينَا أَخاكُمَا ... على دَهْرِهِ إِنَّ الْكَرِيمَ مُعِينُ
ولا تَبْخَلَا بُخْلَ أبنِ قَزْعَةَ إِنَّهُ ... مَخَافَةَ أَنْ يُرْجَى نَدَاهُ حَزِينُ
كأَنَّ عُبَيْدَ اللهِ لم يَلْقَ ماجِدًا ... ولم يَدْرِ أَنَّ المَكْرُمَاتِ تَكُونُ
إذا جِئْتَهُ فى حاجةٍ سَدَّ بابَه ... ولم تَلْقَهُ إلاّ وأنت كَمِينُ
فقل لأبى يحيى متى تَبْلُغُ المُنَى ... وفى كلِّ معروفٍ عليك يَمِينُ

وقال أبو العتاهية يهجو مَعْن بن زائدة :

فَصُغْ ما كُنْتَ حَلَّيْـ ... ـتَ بهِ سَيْفَكَ خَلْخَالاَ
فَمَا تَصْـنَعُ بالسَّيْـ ... ـفِ إِذَا لَمْ تَكُ قَتَّالاَ

وقال البحترىّ يهجو الخَثْعَمِىّ بكبَر الأنف :

رأَيْتُ الخَثْعَمِىَّ يُقِلُّ أنفًا ... يَضِيقُ بعَرْضِهِ البلدُ الفضَاءُ
سما صُعُدًا فقصر كل سامٍ ... لهيبته وغَصّ به الهَوَاءُ(٢)
هو الجبل الذى لولا ذُرَاه ... إذًا وقعَتْ على الأرض السماءُ

وقال ابن الرومى فى صَلْعَةِ أبى حَفْصٍ الوَرّاق :

يا صَلْعَةً لأبى حَفْصٍ مُمَرَّدَةً ... كأَنّ ساحتَها مرآةُ فُولَاذ
تَرِنُّ تَحْتَ الأَكُفِّ الواقعاتِ بها ... حتى تَرِنَّ بها أَكْنافُ بَغْدَاذِ(٣)

وقال يهجو كُنَيْزَةَ المغنية :

---

(١) أعيا : تعب .
(٢) غص (كضرب وفرح والمضارع بالفتح فقط) : امتلأ .
(٣) بغداذ (بالذال) لغة فى بغداد .

شاهدْتُ فى بعض ماشاهدْتُ مُسْمِعَةً ... كأنما يومُها يومان فى يَوْمِ
تَظَلُّ تُلْقِى على مَنْ ضَمَّ مجلسُها ... قولا ثقيلا على الأسماع كاللَّوْمِ
لها غناءٌ يُثِيبُ اللهُ سامعَه ... ضِعْفَىْ ثواب صلاةِ الليل والصَّوْمِ
ظَلِلْتُ أشربُ بالأرْطالِ لا طرَبًا ... عليه بل طَلَبًا للسُّكْرِ والنَّوْمِ

وقال يهجو جَحْظَةَ بالقُبْح :

رأيت جَحْظَةَ يَخْشَى الناسُ كلُّهُمو ... إذا همو عاينوه الفالجَ الذَّكَرا
تخاله أبداً من قُبْحِ مَنْظَرِه ... مُجاذِبًا وَتَراً أو بالعًا حَجَرا
كأنّهُ ضِفْدَعٌ فى لُجّةٍ هَرِمٌ ... إذا شَدَا نَغَمًا أو كَرَّرَ النَّظَرا
لو كان للهِ فى تخليدنا قدَرٌ ... مَعْ قُرْبِهِ ما أَرَدْنَا ذلك القَدَرا

وقال يهجو من يسمى عَمْرا :

وجهُك ياعمرُو فيه طولُ ... وفى وُجُوهِ الكلاب طُولُ
والكَلْبُ وافٍ وفيك غَدْرٌ ... ففيك عن قدره سُفُولُ
وقد يُحامى عن المواشى ... وما تُحامى ولا تَصُولُ
وأنت من أهْلِ بَيْتِ سُوءٍ ... قِصّتُهم قِصَّةٌ تَطُولُ
وُجوهُهُمْ للوَرَى عِظَاتٌ ... لكنّ أقفاءَهُمْ طُبُولُ
مستفعلن فاعلن فعولن ... مستفعلن فاعلن فعول
بيت كمعناك ليس فيه ... معنى سوى أنه فضول

وقال فى عجوز تتصابى :

عجوزٌ تصابى وهى بِكْرٌ بزعمها ... ومذ ألفِ عامٍ قد وَجَى خَدَّها الواجى [1]
ترى شَعْرَها تحت القِناعِ كأنّه ... ضفائرُ ليفٍ فى هَدِيّةِ حُجّاجِ

وقال المتنبى يهجو ضبة بن يزيد العتبى :

---

(١) وجى مسهل وجأ . ووجأ خدها : دقه ، وألصقه بالأرض .

يا أطيبَ الناس نَفْسًا   وألين الناس رُكْبَهْ
وأخبثَ الناس أصلا   فى أخبث الأرض تُرْبَهْ
إن أوحشتك المعالى   فإنها دارُ غُرْبَهْ
أو آنستك المخازى   فإنها لك نِسْبَهْ

وقال يهجو كافورا :

أُريك الرِّضَا لو أَخْفَتِ النفسُ خافيا   وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا(١)
أَمَيْنًا وإخلافًا وغَدْرًا وخِسَّــةً   وجُبْنًا ! أشخصا لُحْتَ لى أم مَخازِيَا
تَظنُّ ابتساماتى رَجَاءً وغِبْطَةً   وما أنا إلاّ ضاحكٌ من رجائيا
وتُعْجِبُنِى رِجلاك فى النَّعْل إننى   رأيتُكَ ذا نَعْلٍ إذا كُنْتَ حافيا
وإنّكَ لا تَدرِى ألونُك أسودٌ   من الجهل أم قد صار أبيض صافيا
ويُذْكِرنى تَخْبِيطُ كَعْبِك شَقَّه   ومَشْيَك فى ثوبٍ من الزيت عاريا(٢)
ولولا فُضُولُ الناس جئْتُكَ مادحاً   بما كنتُ فى نفسى به لك هاجيا(٣)
فأصبحْتَ مسروراً بما أنا مُنْشِدٌ   وإن كان بالإنشاد هَجْوُكَ غاليا
فإنْ كنتَ لا خَيْرًا أَفَدْتَ فإننى   أَفَدْتُ بلحظى مِشْفَرَيْك الملاهيا
ومِثْلُكَ يُؤْتَى من بلادٍ بعيدةٍ   لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الحدادِ البواكيا

---

(١) لست راضيا عن نفسى لخطئى بقصدك . ولا عنك لتقصيرك فى حقى .

(٢) يشير إلى أن كافورا كان غلام زيات فكان يحمل الزيت ويمشى عاريا ، وقد تلطخ بالزيت . فكأنه يلبس ثوبا منه .

(٣) الفضول : تعرض الناس لما لا يعنيهم . يقول : إنك لا تفهم الفرق بين المدح والهجاء ، ولولا أنى أخشى أن يدلك الناس بما عندهم من فضول . على أن ما أنشدك على أنه مدح هو فى الواقع هجاء لفعلت .

شعر السياسة

خلف العصر الأموى كثيراً من الخلاف والعصبيات ، فقد أحـــدث الأمويون عامدين عصبيات اليمانية والمضرية بمـا أرّثوا بينهم من نار الحقد ، وأثاروا من أسباب المنافسة ، فبقيت هـــذه الأحقاد إلى العصر العباسى خصوصاً فى أوله ، وقد أكثر من القول فيها مســلم بن الوليد ، وأبو نواس من اليمـانية ، والحكم بن قنبر من المضرية ، وكان يهجو الأنصار .

وكذلك كان احتقار الأمويين للموالى قد أحدث فى نفوس هؤلاء ضغينة عليهم ، فتحرّكوا للدفاع عن أنفسهم بذكر مفاخرهم ، وتعـــداد مثالب العرب ، ولـكن قليلا منهم الذى اجترأ على إظهار القول فى هذا ، أيام بنى أمية . فلما قامت دولة بنى العباس ، وهى من الإباحة فى إبداء الرأى ، والاعتداد بالموالى بحيث عرفتَ ، كُثر القول فى ذلك كما فى شعر بشّار وديك الجن والخريمى والمتوكلى ، (وكان من ندماء المتوكل) .

فأما الشعر الذى كان فى صميم السياسة فهو الذى كان يقوله شيعة بنى العباس أمثال مروان بن أبى حفصة ، وعلىّ بن الجهم ، وأبان بن عبدالحميد يحتجون لاستحقاقهم الخلافة ، وأنهم أولى بها من بنى علىّ ، و بعكسهم شيعة العلويين أمثال السيد الحميرى ، ودعبل الخزاعى ، ومسلم بن الوليد ، ومحمد بن وُهيب ، فإنهم يردّون عليهم فى ذلك ويهجو بعضهم ملوك بنى العباس كما فعل دعبل .

***

دخل بشار على المهدى ، فقال له : فيمن تعتد يا بشار ؟ فقال : أما على اللسان

والرأى فعربى ، وأما على الأصل فعجمى كما قلت فى شعرى يا أمير المؤمنين :

ونُبِّئْتُ قومًا بهم جِنَّةٌ يقولون من ذا وكنتُ العلَمْ
ألا أيُّها السائلى جاهلاً ليَعْرِفَنى أنا أَنْفُ الْكَرَمْ
نَمَتْ فى الكرامِ بنى عامرٍ فُروعى وأصلى قريشُ العَجَمْ

وقال مسلم بن الوليد يفاخر قريشاً :

فاخَرَتْنَا بما بَسَطْنَا لها الفَخْـ ـرَ قريشٌ وفَخْرُها مُسْتَعارُ (١)
ذكرتْ عزَّها وما كان فيها قَبْلَ أن تَسْتَجيرَنا مُسْتَجارُ
إنما كان عِزُّها فى جِبالٍ ترتقيها كما تَرَقَّى الوِبارُ (٢)
أيها الفاخرون بالعز والعزْ زُ لقومٍ سواهُمُ والفَخارُ
أَخْبِرُونا عن الأعزِّ ءأَلْمنصورُ حتى اعتلى أَمِ الأنْصارُ
فلنا العزُّ قبل عِزِّ قُرَيْشٍ وقُرَيْشٌ تلك الدُّهُورَ تِجَارُ

وقال مروان بن أبى حفصة يخاطب آل أبى طالب ، وكان شديد العداوة لهم :

خَلُّوا الطريقَ لمعشرٍ عَادَاتُهُمْ حَطْمُ المَنَاكِبِ يَوْمَ كُلِّ زِحَامِ
وارْضَوْا بما قسم الإلهُ لكمْ به ودَعُوا وِرَاثَةَ كُلِّ أَصْيَدَ سامى (٣)
أَنَّى يَكُونُ وَلَيْسَ ذاك بكائنٍ لِبَنِى البَنَاتِ وِرَاثَةُ الأَعْمامِ (٤)

ومثله قول الطاهر بن علىّ بن عبد الله بن سليمان بن علىّ بن عبد الله بن عباس :

لو كان جَدُّكُمُ هناك وَجَدُّنا فتنازعا فيه لوقت خصام
كان التُّراثُ لِجَدِّنا من دونه فحواه بالقُرْبى وبالإسلام
حقُّ البناتِ فريضةٌ معلومة والعَمُّ أولى من بنى الأعمام

(١) بما بسطنا لها الفخر : أى ببسطنا لها الفخر . أى بتمكينها من أسبابه وذلك بنصرتها .
(٢) الوبار (بكسر الواو) : جمع وبرة (بالفتح) وهى دويبة كالسنور .
(٣) الأصيد : الملك ، وكل رافع رأسه كبرا .
(٤) أى كيف يأخذ بنو البنات حق الأعمام فى الوراثة ؟

كان الرشيد قد سمع غناء فى قول دعبل :

أَيْنَ الشبابُ وأَيَّةً سلكا   لا أَيْنَ يُطْلَبُ ضَلَّ بَلْ هَلَكَا؟
لا تَعْجَبِي يا سَلْمَ من رَجُلٍ   ضَحِكَ المَشِيبُ برأسه فبكى
ياليت شِعْرِى كيف يَوْمُكما   يا صاحِبَىَّ إذا دَمِى سُفِكا
لا تأخـذوا بظُلامتى أحدا   قَلْبِي وطَرْفِي فى دمى اشـتركا

فسأل عن قائلها ، فقيل له : دعبل ، غلام من خزاعة ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وخلعة من ثيابه ، ومركب من مراكبه ، وجهز له ذلك مع خادم من خدمه إلى خزاعة فأعطاه جائزة أمير المؤمنين ، وأشار عليه بالمسير إليه فحضر ، ولما سلم أمره بالجلوس فجلس ، فاستنشده الشعر ، فكان الرشيد أوّل من حرّضه على قول الشعر ، ثم لما بلغه موت الرشيد كافأه أقبح مكافأة ، فقال فيه من قصيدة يمدح أهل البيت ويهجوه :

ولَيْسَ حَيٌّ من الأحياءِ نَعْلَمُهُمْ   من ذى يَمَانٍ ولا بَكْرٍ ولا مُضَرِ (١)
إلاّ وَهُمْ شُرَكَاءُ فى دِمَائِهِمُ   كما تَشَارَكَ أَيْسَارٌ على جُزُرِ (٢)
قَتلٌ وأسرٌ وتحريقٌ ومَنْهَبَةٌ   فِعْلَ الغُزَاةِ بأرض الروم والخَزَرِ (٣)
أَرَى أُمَيَّةَ معذورين إن قَتَلوا   ولا أرى لبنى العباس من عُذُرِ
إِرْبَعْ بطُوسٍ على القبرالزَّكِيِّ إذا   ما كُنْتَ تَرْبَعُ من دينٍ على وَطَرِ (٤)
قَبْرانِ فى طوسَ خيرُ الناس كلِّهِمُ   وقَبْرُ شَرِّهِمُ هـذا من العِبَرِ (٥)

---

(١) يقال : ذو زيد . أى صاحب هذا الاسم . فذو يمان : أى الذى يقال له يمان ، ويمان كيمنى نسبة إلى اليمن .

(٢) الأيسار . جمع يسر ، وهم لاعبو الميسر . الجزر: جمع جزور ، وهى الناقة التى يقامرون عليها ، ثم يجزرونها ويوزعون لحمها على الفقراء .

(٣) الخزر : جيل من الناس خزر العيون (ضيقوها) .

(٤) اربع : قف وامكث .

(٥) يعنى قبر الرشيد ، وقبر موسى الكاظم .

ما ينفعُ الرِّجْسَ من قرب الزّكيّ ولا ‏ على الزّكيِّ بقرب الرِّجْسِ من ضَررِ
هيهات كُلُّ امرئٍ رَهْنٌ بما كَسَبَتْ ‏ له يداه فَخُذْ ما شئت أو فَذَرِ

الغزل بالمذكر

قد عرفت أن من أثر اختلاط الفرس بالعرب شيوع هذه العادة بينهم ، وكان أوّل من اجترأ على القول فيها حماد عَجْرِدٍ، ووَالِبَة بن الحُباب ، ثم أبو نُوَاس ، وحسين ابن الضحّاك ، ثم توالى من الشعراء القول فى ذلك حتى غلب الغزل بالمذكر على كل قائل ، وصار المتغزل يعيد الضمير فى غزله مذكراً ، ولو كانت الصفات للأنثى .

وقد تبع القول فى هذا أن وصفوا العذار وافتنّوا فيه ، وهو معنى كما قلنا لم يعرفه السابقون لأنهم لم يكونوا عرفوا هذا النوع من الغزل ، كما كان من آثار شيوع هذه العادة أن هجى الناس بالأُبنة واللوطية، فتفرع عن هذه الرذيلة مساوئ كثيرة كانت فى الأدب العربى سبة لقائلها، وقذى فى عين قارئها، وصمما فى أذن سامعها ، و بعد أن كان الغزل القديم إلا أقله عفيفاً يدلّ على طهارة النفس ، ونبل المقصد ، والتسبيح بحمد الله فى خلقته الجمال ، صار على أيام العباسيين عهرا ودعارة ، حتى نرى أكثر المؤلفين إذا تناولوا القول فيه أمسكوا عن الاسترسال خشية أن تندى وجوههم خجلا مما يسطرون فى الأوراق ، وما يحكون عن غيرهم ؛ من وصف شنيع ، أو حكاية لفعل قبيح ، فكيف بقائل الكلام إن كان صادقا فيما يروى مخبراً عن واقع جرى .

وليس بعيداً أن تكون الأخلاق قد انحطت إلى هذا الدرك ، فكل الشعوب تنتهى بها المدنية ، و إعطاء النفس رغباتها إلى مثل هذا الحدّ ، ولكن تسجيل هذه المخازى فى الشعر دليل على الإفلات من قيود الأدب حتى يتبجح المجرم بما جنى ، فلا ينثنى عن تسجيل تهمته بشهادة نفسه .

ونحن ناقلون إليك ما يدلُّ على اتجاههم فى هذا النوع ، وإن كنا كذلك لا نستطيع أن ننقل كلّ ما وقفنا عليه . قال أبو نواس :

يا بِدْعــــةً فى مثال   يَحُوزُ حَـــدّ الصفاتِ
الوجـــــــه بدرُ تمام   بعين ظبى فـــــــلاة
والقَدّ قَدّ غـــلام   والغُنْج غُنْـــج فتاة[1]
مذكر حين يبدو   مؤنث الخـــــلوات
زها علىّ بصُـــدْغٍ   مُزَرْفَنِ الحلقـــات[2]
من فوق خدٍّ أَسِيلٍ   يضىء فى الظلمات[3]

وقال أيضاً :

جالَ ماء الشباب فى خديكا   وتلالا البهاء فى عارضيكا
ورمى طَرْفُكَ الْمُكَحَّل بالسحـــر فؤادى فصار رهنا لديكا
أنا مُسْتَهْتَرٌ بحبك صبٌّ   لست أشكو هواكَ إلا إليكا[4]
يا بديع الجمال والحسن والدلـــل حياتى وميتتى فى يديكا
بأبى أنت لو بليت بوجدى   لم يهن ما لقيت منك عليكا

وقال الحسن بن الضحاك فى غلام يستحم :

وا بأبى أبيض فى صفرة   كأنه تـــبر على فضه
جرده الحمام عن دُرّةٍ   تلوح فيها عُكَن بَضّهْ
غصن تبدى يتثنى على   مَأْكمة مُثْقَلَةِ النّهْضـــه[5]

---

(١) الغنج : ملاحة العينين ، أو دل المرأة وعزلها .
(٢) الزرفين : حلقة الباب أو عام ، وقد زرفن صدغيه : أى لوى شعرهما وحلقه .
(٣) الخد الأسيل . المستطيل المسترسل .
(٤) المستهتر بالشىء (بصيغة المفعول) : المولع به لا يبالى ما قيل فيه .
(٥) المأكمة : اللحمة على رأس الورك ، وهما مأكمتان فى الإنسان .

كأنما الرَّمْش على خده   طَلٌّ على تفاحة غضه[١]
صفاته فاتنة كلها   فبعضه يذكرنى بعضه

وقال فضل الرُّقاشيّ :

وشاطرٍ فاتك الشمائل قَدْ   خالط منه المجونُ تخنيثا
نراه طوراً مُذَكَّراً فإذا   عاقَرَ راحًا رأيتَ تأنيثا
ألثغ إن قلت يا فديتك قل   موسى يَقُلْ من رطوبةٍ موثى[٢]
ما زال حتى الصباح مُعْتَنِقِي   مطارحى فى الدُّجى الأحاديثا

وقال السَّرَّاج الورَّاق فى العذار :

وفاتك يجْرَح سَيْفُ لحظه   مُجرَّداً من جفنه ومُغْمَدا
خاف على خَدَّيْه من لحاظه   فبات فى عذاره مُزَرَّدا[٣]

ومن استعمال لفظ المذكر فى المؤنث قول أبى نُوَاس :

يا قمرا أبصرتُ فى مَأْتَمٍ   يَنْدُبُ شَجْوا بين أتراب
يبكى فيُذرى الدرّ من نَرجِسٍ   ويَلْطِم الوردَ بعُنّاب[٤]
أبرزه المأتمُ لى كارها   بِرَغْمِ دَايَاتٍ وحُجّابِ[٥]
لا تبكِ مَيْتاً حلّ فى قبره   وابكِ قَتِيلاً لك بالباب

---

(١) الرمش : الدمع القليل .

(٢) اللثغة فى النطق : تحوّل السين ثاء أو الراء غينا ، أو مطلق تغيير حرف بحرف .

(٣) الزرد : الدرع . يريد أن العذار على بشرته كالزرد يغطى الجسم .

(٤) أذرت العين الدمع : أسقطته .

(٥) فى القاموس المحيط : المأتم كل مجتمع فى فرح أو حزن أو خاص بالنساء أو الشواب منهن ، وفى الصحاح : المأتم عند العرب النساء يجتمعن فى الخير والشر . قال أبو العطاء السندى :

عشية قام النائحات وشققت   جيوب بأيدى مأتم وخدود

أى بأيدى نساء ، وفى المصباح أتمّ بالمكان : أقام ، ومنه المأتم للنساء يجتمعن فى خير أو شر تسمية للحالّ باسم المحل .

نماذج من بقية الأغراض

من الوصف قول الأرَّجانىّ فى شمعة ، وقد استوفى كلّ مايقال فيها ، ولم يكد يخلى لمن بعده فيها فضلا :

نمَّتْ بأسرارِ ليلٍ كان يُخفيها وأطلعتْ قلبَها للناس من فيها
سفيهةٌ لم يزلْ طولُ اللسان لها فى الحى يَجْنِي عليها حَذْفَ هَادِيها[1]
غريقةٌ بدمــــوعٍ وهى تحْرِقُها أنفاسُها بدوام من تَلَظِّيها
قد أثمرتْ وردةً حمراء طالعةً تَجْنِي على الكَفِّ إنْ أهْوَيْتَ تَجْنِيها
وَرْدٌ تُشاكُ به الأيدى إذا قَطَفَتْ وما على غُصْنِها شــوكٌ يُوَقِّيها
وَيْلُمِّها فى سواد الليل مُسْعِدَةً إذا الهُمُومُ دَعَتْ قلبى دواعيها

وهى طويلة ، ولأبى الفرَج البَبَّغاء فى وصف كانون :

وذى أربعٍ لا يُطيق النهوض ولا يَألَفُ السَّيْرَ فيمن سَرَى
تَحَمَّلَهُ سَبَجاً أســــودًا فيجعَلُه ذهبا أحمــــرا[2]

ومثله قوله :

والْتَهَبَتْ نارُنا فمنظَرُها يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ مَنْظَرٍ عَجَبِ
إذا رمت بالشرار واضطربت على ذُراها مطارف اللهبِ
رأيت يا قوتة مشبكة تطير منها قُراضةُ الذهب

وقال السرِيُّ الرَّفَّاء يصف الطبيعة :

وغيم مرهفاتُ البرق فيــــه عَوَارٍ والرياضُ بها كواسى

---

(١) الهـادى : العنق .
(٢) السبج : الشىء الأسود .

ولاح لنا الهلال كشَطْرِ طَوْقٍ على لَبَّاتِ زَرْقاءِ اللباسِ

وقال ابن المعتز يصف سحابة :

وساريةٍ لا تَمَلُّ البُكاء جرى دَمْعُها فى خُدُودِ الثَّرَى
سَرَتْ تَقْدَحُ الصبح فى ليلها ببرق كهنــــدية تنتضى
فلما دنت جلجلت فى السما ءِ رَعْداً أَجَشَّ كَجَرْشِ الرحى
كأنّ عليها ارتداء اليَفَاعِ بأنوارها واعتجــار الرُّبا[1]
فما زال مَـــدْمَعُها باكيا على التُّرْبِ حتى اكتسى ما اكْتَسَى[2]
فأضحتْ سواءً وجوهُ البلاد وجُنَّ النَّبَاتُ بها والتــقى[3]

ولابن الرومى فى تفضيل النَّرْجس على الورد :

للنرجس الفضل المبين لأنه زَهر ونَوْر وهو نبت واحد[4]
ينهى النديمَ عن القبيح بلحظه وعلى المدامة والسماع مساعد
خجلت خدود الورد من تفضيـــله خجلا تورّدها عليه شاهد
هذى النجوم هى التى رَبَّتْهُما بحيا السحاب كما يُرَبِّى الوالد
فتأمل الأثنين مَنْ أدناهما شبها بوالده فذاك المـاجد
أين الخدود من العيون نفاســة ورياسة لولا القياس الفاســد

وقال أحمد بن يونس الكاتب يفضل الورد :

يا من يُشَبِّهُ نَرْجِساً بنواظر دُعْجٍ تَنَبَّهْ إنّ فهمك راقد[5]
إن القياس (لِمَنْ يَصِحُّ قِيَاسُهُ) بين العيون وبينه متباعد

---

(١) الاعتجار : التعمم (لف العمامة) . أنوار : جمع نور (بالضم) وهو الضوء .
(٢) الترب : لغة فى التراب .
(٣) جنّ النبات : طال وزاد نموّه ، ومن معانيه أيضا : أخرج زهره ونوره.
(٤) الفرق بين الزهر والنور : أن الزهر هو الأصفر من نور النبات . والنور هو الأبيض منه
(٥) الدعج : جمع دعجاء، وهى العين الشديدة السواد مع السعة ، وبابه طرب.

والورد أشبه بالخدود حكايةً فعلام تجْحَدُ فضلَه يا جاحد
ملك قصـــير عمره مُسْتَأْهِل لخـــلوده لو أن حَيًّا خالد
وخليفةٌ إن غاب ناب بنفحه وبنفعه عنـــه مقيم راكد
إن كنت تنكر ما ذكرنا بعد ما وضَحَتْ عليه دلائلٌ وشواهد
فانظر إلى المُصْفرِّ لونًا منهما وافْطُن فما يصفر إلا الحاسد(١)

وقال أبو نواس يصف مجلس الشراب وآنيته(٢) :

ودارِ نَدامَى عَطَّلُوها وأَدْلَجوا بها أَثَرٌ منهم جديدٌ ودارسُ
مَسَاحبُ من جَرِّ الزِّقاقِ على الثَّرَى وَأَضْغَاثُ رَيْحانٍ جـنيٌّ ويابسُ
حَبَسْت بها صَحْبِي فجَدَّدْتُ عهدهم وإنِّي على أمثال تلك لحابس
ولم أَدْرِ مَنْ هُمْ غَيْرَ ما شَهِدَتْ به بشَرْقِيِّ سَابَاطَ الدِّيَارُ البسَابِسُ
أقمنا بها يومًا ويومين بعــــده ويوما له يوم الترحل خامس
تُدارُ علينا الرَّاحُ في عسجديّة حبتها بأنواع التصاوير فارس
قَرَارتُها كِسْرَى وفي جَنَبَاتِهَا مَهًا تَدَّرِيها بالقِسِيِّ الفوارس
فلِلْخَمْرِ ما زُرَّتْ عليه جُيُوبُهُمْ وللماء ما دارَتْ عليه القَلَانِس

وقال يصف اللعب بالصولجان والكرة :

جِنٌّ على جِنٍّ وإن كانوا بَشَرْ كأنما خِيطُوا عليها بالإِبَرْ

---

(١) فطن من باب قعد وفرح وكرم .
(٢) قالوا خرج أبو نواس مع بعض الناس إلى المدائن فرأى بساباط آثارا تدل على اجتماع كان لقوم فقال له أصحابه صف لنا هؤلاء وبقاياهم فقال غير متمكث ، هذه الأبيات . قال الجاحظ : نظرنا في شعر القدماء والمحدثين فوجدنا المعاني نقلت ورأينا بعضا يسرق من بعض إلا قول عنترة :

وخلا الذباب بها فليس ببارح غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه فعل المكب على الزناد الأجذم

وقول أبي نواس :
قرارتها كسرى ....

أو سُمِّرَ الفارسُ فيها فانْسَمَرْ   بين رياضٍ مِثْلِ مَوْشيِّ الحِبَرْ (١)
مكللاتٍ ببَهار وزَهَــرْ   فانتدبوا فى يوم قُرٍّ وخَصَرْ (٢)
إذ ذَرَّ قَرْنُ الشمس فى غِبِّ مَطَرْ   صواحِبًا يَصْبُو إليها من نَظَرْ (٣)
مَحْنيَّــةً أطرافُها فيها زَوَرْ   قَدَّرَها شابرُها لما شَــبَرَ
فلم يَعِبْ طولٌ ولا شان قِصَرْ   وقد تنادَوْا فتراموْا بالأُكَرْ (٤)
مُدْمجة الأركان مُــدْماة الطُّرَرْ   شدَّد صَفْقَىْ مَتْنها حشوُ الشَّعَرْ (٥)
أحكمها صانعُها لمــا فَطَرْ   ألْطَفَ بالإشفاء خَرْزاً إذ دَسَرْ (٦)
فليس للاشفاء بالجــلد أثر   يُحسَبْنَ تُفّاحا تَدَلَّى من شَجَرْ

وقال يصف الخمر (وهى من غرره) :

يا شقيق النفس مِنْ حَكَمٍ   نِمْتَ عن لَيْلِى ولم أَنَمِ (٧)
فاسقنى البِكْرَ التى اخْتَمَرَتْ   بخمار الشَّيْبِ فى الرَّحِمِ (٨)
ثُمَّتَ أنصاتَ الشبابُ لهــا   بعد ما جازتْ مَدَى الهرَمِ (٩)

---

(١) يقال وشى الثوب ووشاه فالثوب موشىّ وموشى أو وضع عليه مايجمله من غير لونه . الحبر (كعنب) : جمع حبرة (كعنبة) وهى ثوب يمــان .

(٢) القر : البرد . الخصر : البرد يجده المرء فى أطرافه .

(٣) قرن الشمس : أعلاها وأول مايبدو منها . صواحبا : مفعول لانتدبوا . يقال ندبه للأمر إذا طلبه فانتدب : أى أجاب فــكان الوجه أن يقول فندبوا . فيكون أبو نواس أول من أشاع هذا الخطأ إن لم يكن قد سبقه غيره إليه .

(٤) الأكر : جمع أكرة ، وهى الــكرة .

(٥) مدماة : شديدة الحمرة . الطرر : جمع طرة وهى شبه علمين يخاطان على طرف الثوب . الصفق الجانب

(٦) فطر : شق . الإشفى : مخرز يثقب به الجلد . وقد مد هنا وفى البيت بعده للشعر . الدسر : الطعن والمراد هنا الثقب بالإشفى .

(٧) حكم : مخلاف من اليمن ينسب إليه أبو نواس وقد ذكره فى شعره فى غير هذا الموضع قال :
وينمى إلى حكم دعوة   وما إن له نسب من حكم

(٨) المراد بخمار الخمر : مايعلوها من الزبد.

(٩) انصات : أجاب .

فهْيَ لليوم الذى بُزِلَتْ ... وهى ترْبُ الدَّهْرِ فى القِدَمِ (١)
عُتِّقَتْ حتى لو اتصلت ... بلسانٍ ناطقٍ وفمِ
لاحتبَتْ فى القوم ماثلة ... ثم قَصَّتْ قصةَ الأُمَمِ
قَرَعَتْهَا بالمزاجِ يَدٌ ... خُلِقَتْ للسيف والقلم
فى نَدَامَى سادةٍ زُهُرٍ ... أَخَذُوا اللذاتِ من أَمَمِ (٢)
فتَمَشَّتْ فى مفاصلهم ... كتَمَشِّى البُرْءِ فى السَّقَمِ
فعلتْ فى البيت إذ مُزِجَتَ ... مِثْلَ فِعْلِ الصبح فى الظُّلَمِ
فاهتدى سارى الظلام بها ... كاهتداءِ السَّفْرِ بالعَلَمِ

حكى الأصمعى قال : رأيت أبا نواس فى المنام ، فقلت له : هل نسى من خمريّاتك شيء ؟ قال : أجودها ، قلت : فاذكر ، فقال :

أَذْكِ سراجا وساقِى الشَّرْبِ يَمْزُجُها ... فلاحَ فى البيت كالمصباح مصباحُ
كِدْنا ـ على علمنا ـ بالشك نسأله ... أراحُنا نارُنا أم نارُنا الراحُ

وقال ابن الرومى يصف صانع الزَّلابِيَة :

ومستقرٍ على كرسيّه تَعِبٍ ... روحى الفداء له من مَنْصِبٍ نَصِبِ
رأيتُه سَحَرًا يَقْلِى زَلاَبِيَةً ... فى رِقَّةِ القِشْرِ والتجويف كالقَصَبِ
يُلْقِى العجينَ لُجَيْناً من أنامله ... فيستحيل شَبَابِيكاً من الذّهَبِ

وقال يصف العنب الرّازقىّ (٣) :

ورَازِقىٍّ مُخْطَفِ الخُصُورِ ... كأنَّه مخازن البَلُّورِ
قد ضُمِّنَتْ مِسْكاً إلى الشُّطُورِ ... وفى الأعالى ماءَ وَرْدٍ جُورِى (٤)

---

(١) بزل الشراب بالمبزل : أسال منه، والمبزل شبه الطبى فى الدنّ «صنبور».
(٢) زهر : جمع أزهر، وهو المشرق .
(٣) الرازق : نوع من عنب الطائف أبيض طويل الحب .
(٤) جور : مدينة بفارس هى قصبة فيروزاباد من أعمال شيراز ، وردها جيد جدا .

بلا فريد وبلا شــذور له مَذاقُ العَسَلِ المُشورِ (١)
وبَرْدُ مَسِّ الخَصِرِ المَقْرُورِ ونَــكْهَةُ المِسْكِ مع الكافور
لم يُبْقِ منه وَهَجُ الحَرُور إلا ضياءً فى ظُروفِ نُورِ (٢)
لو أنه يبقى على الدُّهُورِ قَرَّطَ آذانَ الحسانِ الحُورِ

وقال أبو حسن الجوهرى يصف الفيل :

يزهو بخــــرطوم كمثـــل الصَّوْلجانِ يُرَدّ رَدّا (٣)
متمددا كالأُفْعُوا نِ تَمُدُّه الرَّمْضاء مَدّا
أوكُمِّ راقصــةٍ تشيـــر به إلى النَّدْمان وجدا (٤)
وَكأنَّه بُوقٌ يُحَرْ رِكُهُ لينفخ فيه جِدّا
يسطو بصارمتى لُحِىْ ىٍ يَحْطِمان الصخر هَدّا (٥)
أُذْناه مِرْوحتان أســـندتا إلى الفَوْدَين عَمْدَا (٦)
عيناه غائرتان ضُيْـــيِقتا لجمع الضوء عمدا

ومن وصف القصور وما فيها قول البحترى يصف بركة المتوكل وما فيها من السمك :

يامَنْ رأى البِرْكةَ الحسناء رُؤْيَتُها والآنساتِ إذا لاحتْ مَغانِيَها
بِحَسْبِها أنها من فضل رتبتها تُعَدُّ واحــدةً والبحرُ ثانيها
ما بال دِجْلة كالغَيْرَى تنافسها فى الحسن طوراً وأطواراً تباهيها

---

(١) الفريد : الدر الذى يفصل بين الذهب فى القلادة ، فالدر فريد والذهب مفرد . الشذر : صغار اللؤلؤ
(٢) الوهج : الشعاع . الحرور : حرّ الشمس .
(٣) يرد ردا : يحرك تحريكا .
(٤) الندمان : المنادم .
(٥) اللحىّ (كفعيل) : منبت اللحية فى الانسان وغيره، وهما لحيان وثلاثة ألحٍ والكثير لحىّ (بضم اللام أو كسرها مع شد الياء) .
(٦) الفودان : جانبا الرأس .

أما رأت كالئ الإسلام يكلؤها ... من أن تُعاب وبانِى المجدِ يبنيها
كأنَّ جنَّ سليمان الذين وَلُوا ... إبداعها فأدَقُّوا فى معانيها
فلو تَمُرُّ بها بِلْقِيسُ عن عُرُض ... قالت هى الصَّرْحُ تمثيلا وتشبيها(١)
تَنْصَبُّ فيها وُفُودُ الماء مُعْجَلَةً ... كالخيل خارجةً من حبل مجريها
كأنما الفضةُ البيضاء سائلةً ... من السبائك تَجْرى فى مجاريها
إذا عَلَتْها الصَّبَا أبدتْ لها حُبُكاً ... مثل الجَواشنِ مصقولاً حواشيها(٢)
فحاجبُ الشمسِ أحيانا يضاحكها ... ورَيِّقُ الغيثِ أحيانا يباكيها(٣)
إذا النجومُ تراءتْ فى جوانبها ... لَيْلاً حَسِبْتَ سماء رُكِّبَتْ فيها
لا يَبْلُغُ السمك المحصور غايتَها ... لبُعْد ما بين قاصيها ودانيها
يَعُمْنَ فيها بأوساطٍ مُجَنَّحَةٍ ... كالطير تَنْقَضُّ فى جوٍّ خوافيها
لَهُنَّ صَحْنٌ رحيبٌ فى أسافلها ... إذا انحططن وبَهْوٌ فى أعاليها
صُورٌ إلى صُورةِ الدُّلْفِين يُؤْنِسُها ... منه انزواءٌ بعينيه يُوَازِيها(٤)
مَحْفُوفَةٌ برياض لا تزال ترى ... ريش الطواويس تَحْكيه ويَحْكيها
وَدَكَّتين كمثل الشِّعْرَيَيْنِ غَدَتْ ... إحداها بإزا الأخرى تُساميها(٥)
إذا مساعى أمير المؤمنين بَدَتْ ... للواصفين فلا وَصْفٌ يدانيها

ومن شعر المجون قول الحمدونى الشاعر فى طيلسان أهداه إليه محمد بن حرب ، فأكثر

---

(١) بلقيس هى السادسة من ملوك التبابعة (الطبقة الأولى) وكانت ذات جمال رائع وعدل فى حكمها وكان فى عصرها نبى الله سليمان يملك بيت المقدس فنقل الهدهد إليه خبرها وسافرت إليه فأكرمها وآمنت على يديه ثم عادت إلى بلادها فوجدت الملك المخلوع قبلها قد استولى عليه فاحتالت له بأن تزوجته ثم قتلته . العرض الجانب .

(٢) الجواشن: الدروع والواحد جوشن . الحبك : التكسر. قال الفراء: هو التكسر فى كل شىء.

(٣) ريق الغيث : أوله . حاجب الشمس : حرفها وجانبها .

(٤) انزواء : تجمع وتقبض .

(٥) الدكة كالدكان : الذى يجلس عليه . كمثل الشعريين : أى متقاربين تقارب هذين النجمين .

فى وصف بلاه وانسالت عليه المعانى حتى قال : قرابة مائتى مقطوعة لا تخلو واحدة منها من معنى جديد وكلها تهكم بالهدية فمن قوله فيه :

يا بن حرب كسوتنى طيلساناً   مَلَّ من صحبة الزمان وصَدّا
فحَسِبْنا نَسْجَ العنا كب قد حا   ل إلى ضَعْفِ طيلسانك سَدّا[١]
طال ترداده إلى الرَّفْوِ حتى   لو بمثناه وحــده لتَهَدَّى

وقوله :

قل لابن حرب طيلسانك قد   أوهى قواى بكثرة الغُــرْم
متبين فيــــه لمبصره   آثار رفـــو أوائل الأمم
وكأنه الخمر الــتى وصفت   فى (يا شقيق النفس من حكم)
فإذا رممناه فقيــــل لنا   قد صح قال له البلى انهَدِم
مثل السقيم بَرَا فراجعــه   نُكْسٌ فأسلمــه إلى سَقَم[٢]
أنشدت حين طغى فأزعجنى   « ومن العناء رياضة الهرِم » .

وقوله[٣] :

يا بن حرب أطلْتَ فقرى برَفْوِى   طيلسانا قــد كُنْتُ عنه غَنِيّا
فهو فى الرَّفْوِ آل فرعون فى العَرْ   ضِ على النار بُكْــرة وَعَشِيّا

وقد أكثر أيضاً من القول فى شاة أهداها إليه سعيد بن أحمد بن خوسنداذ ، ومن قوله فيها :

أسعيدُ قد أعطيتنى أُضْحِيَّةً   مكثَتْ زماناً عندكم ما تُطْعَم
نِضْواً تعاقرت الكلاب بها وقد   نُبِذوا عليها كى تموت فتؤْلَمَ[٤]

---

(١) لعل المعنى : ظننا أن نسج العنا كب قد صار بمثابة السد فى المتانة بالنسبة لهلهلة وضعف طيلسانك.
(٢) النكس (كقفل) : عودة المرض بعد الدخول فى الشفاء ، ولا يقال نكس بفتح النون الامع تعس وذلك للمزاوجة والاتباع . برا : مسهل برأ (كقطع) وهى لغة فى برئ .
(٣) فى الجزء الرابع من زهر الأداب مقطعات للحمدونى فى طيلسان بن حرب .
(٤) النضو : الهزيل والأنثى بالتاء .

فإذا الملا ضحكوا بها قالت لهم ‏ لا تَهْزَءوا بى وارحمونى تُرْحَموا
مَرّتْ على عَلَفٍ فقامت لم تَرِمْ ‏ عنه وغَنّتْ والمدامع تَسْجُمُ(١)
وقف الهوى فى حيث أنت فليس لى ‏ متأخَّــــــرٌ عنه ولا مُتَقَدَّمُ

حدث أحمد بن خالد قال : كنا يوماً عنـد دار رجل يقال له صالح ، ومعنا جماعة من أصحابنا ، فسقط على كنيسة فى سطحها ديك طار من بيت دعبل ، فلما رأيناه قلنا هذا صيد فذبحناه وشويناه ثم خرج دعبل وسأل عن الديك ، فعرف قصته ، فغدا فى اليوم الثانى على مسجد الحى ، فصلى الغداة ثم جلس على باب المسجد ينشد قوله :

أَسَرَ المؤذِّنَ صالحٌ وضيوفُهُ ‏ أَسْرَ الْكَمِيِّ هفا خلالَ الماقطِ(٢)
بعثوا عليـه بناتهم وبنيّهم ‏ ما بين ناتفة وآخــر سامط(٣)
يَتَنَازَعون كأنهم قد أَوْثَقُوا ‏ خاقانَ أو هَزَمُوا كتائبَ نَاعِطِ(٤)
نَهَشُوه فانْتُزِعَتْ له أسنانُهم ‏ وتَهَشَّمَتْ أقفاؤهم بالحائــــطِ

وزعموا أن وهب بن سليمان بن وهب ضَرَطَ فى حضرة أحد القضاة فذاع أمر هذه الضرطة ، وتناولهـا الشعراء فأكثروا من النـــول فيها ، فمن ذلك قول ابن مهدى الـكسروى :

إن وَهْبَ بن سليما ‏ ن بن وَهْبِ بن سعيد
حمل الضَّرْطَةَ للرىْ ‏ ىِ على ظهر البريد
فى مُهِمَّاتِ أمور ‏ منه بالرَّكْضِ الشديد
إستهِ تنطق يوم الـــحَفْلِ بالأمر الرشيد

---

(١) سجم الدمع (كدخل) : سال .
(٢) المؤذن : الديك . هفا : سقط . الماقط : مسهل الأقط ، وهو حومة الوغى .
(٣) سمط الدجاجة : وضعها فى ماء ساخن لينظف ماعليها من ريش .
(٤) خاقان : لقب لملك الترك ككسرى لملك الفرس ، وقيصر لملك الروم ، وفرعون لملك مصر قديماً . ناعط ، قبيلة من همذان : وأصله جبل نزلوا به فنسبوا إليه .

لم يُجِدْ فى القول فاحتا   جَ إلى دُبْرٍ مجيد

وقد عارض بعض الشعراء قول أبى نواس :

يا قمرا أبرزه مأتم   يندب شجوا بين أتراب

فقال فى ذم أعور :

يا أعورا أبرزه مأتم   يندب شجوًا بتخاليط
يبكى فيذرى الدمع من كُوّةٍ   ويَلْطِمُ الشّوْكَ ببَلُّوطِ

وحدث أبو عَنْبَسٍ الصَّيْمَرِىُّ قال : كنت عند المتوكل والبحترىُّ ينشده :

عن أىِّ ثغرٍ تَبْتَسِمْ   وبأىِّ طَرْفٍ تحتكم

حتى بلغ إلى قوله :

قل للخليفة جعفر الـ   ـمتوكل بن المعتصمْ
والمجتدَى ابن المجتدَى   والمنعِمِ ابن المنتقِمْ
اسـ   ـلم لدين محمد   فإذا سلمْتَ فقد سَلِمْ

وكان البحترىّ من أبغض الناس إنشادا فضَجِر المتوكل منه ، وأقبل علىّ فقال : أما تسمع ما يقول يا صَيْمَرِىُّ ؟ فقلت : بلى يا سيدى ، فمرنى فيه بما أحببت ، فقال بحياتى اهجه على هذا الروىّ الذى أنشدنيه ، فقلت :

أدخلت رأسك فى الرّحِمْ   وعلمتُ أنك تنهزِمْ
يا بحترىُّ حَـذَارِ ويـ   ـحك من قَضَاقِضَةٍ ضُغُمْ (١)
فلقـد أسَلْتَ بوالديـ   ـك من الهجا سَيْلَ العَرِم
فبأىِّ عِرْضٍ تعتصم   وبِهَتْكِهِ جَفَّ القلَمَ
والله حِلْفَةَ صادقٍ   وبِقَبْرِ أحمـدَ والحرَم
وبحق جعفرٍ الإما   مِ ابن الإمامِ المعتصِم

(١) قضاقضة : جمع قضقاض (بضم القاف وفتحها) وهو الأسد . ضغم : جمع ضغم وهو الأسد .

لَأُصَيِّرَنَّكَ شُهْرَةً بينَ المَسِيلِ إلى العَلَمِ

فجعل المتوكل يضحك ، و يصفق بيديه ، وقد خرج البحترى مغضباً .

ومن مشهورى شعراء المجون أبو الرَّقَعْمَق بالشأم المتوفى سنة ٣٩٩ ه ، وابن حَجّاج المتوفى سنة ٣٩١ ه ، وابن سُكَّرة المتوفى سنة ٣٨٥ ه بالعراق ، وقد اجتمعا فى بغداد ، فكان يقال فيهما إن زماناً جاد بابن سُكَّرَة ، وابن حَجّاجٍ لسخى جدًّا .

وأبو الرقعمق ، (وهو نبز له واسمه أحمد بن محمد الأنطاكى) هو القائل :

إخوانُنا قصدوا الصَّبُوحَ بسُحْرَةٍ فأتى رَسُولُهُمُ إلىّ خُصُوصَا

قالوا اقْتَرِحْ شيئاً نُجِدْ لك طَبْخَه قلت اطبخوا لى جُبَّةً وقميصا

و إلى هنا نمسك القلم عن الإفاضة فى نماذج الشعر ، فإنه باب لا تنتهى محاسنه ، و يحسن بك العود إلى مامثلنا به فى أبواب سابقة للحكمة والمثل ، فلا نطيل بذكر أمثلتهما

لفظ الشعر وأسلوبه

كان من أثر المدنية رقة حاشية الكلام بنوعيه : النثر والنظم ، ولما كان الشعر مجال الأناقة والتظرف ، فقد رقت حاشيته كثيراً ، خصوصاً وأنه كان موضوع الغناء وهو يتطلب اللفظ الأنيق الرقيق العذب ، لذلك نرى لفظه فى هذا العصر قد صار إلى غاية الرقة ، فلو سال كلام لرقته لسال ، ولو طار لفظ لخفته لطار .

وقد دخل الشعر بعض الألفاظ الفارسية على حالها فى لغتها دون تعريب أو معرّبة مصقولة ، وقد فعلوا ذلك تظرفاً حين استعملوا الألفاظ الفارسية على حالها لأن ذلك غير جائز فى العربية ، ولكن فعله منهم أبو نواس ، وابن المعتزّ كثيراً اقتداء بالأعشى ، وأمية بن أبى الصلت فى الجاهلية ، وقد فعلا ذلك لأن

الأول أكثر من الرحلة إلى بلاد الفرس ومدح ملوكها وأمية قد طال نظره فى كتب الدين ، فانتقلت عدواها إلى لغة شعره .

وأما استعمال الألفاظ بعد تعريبها فتلك شرعة أبيحت فى العربية منذ قديم ، وكثرت فى هذا العصر فى شعر وغيره لأنهم لما رأوا مسميات ولم يجدوا لها ألفاظاً عربية استعاروها من اللغات الأخرى ، وأجروها على مثال ألفاظهم ، فصارت عربية بالتعريب ووقع منها كثير فى كتب العلم والأدب والشعر وسواه .

فمن التظرف باستعمال اللفظ الأعجمى بعجمته قول أبى نواس :

أَلْبَسْتُ كَفِّى دَسْتَبَانًا مُشْعَرَا ‏ ‏ فَرْوَةَ سِنْجَابٍ تُؤَامًا أَوْبَرَا

وقول إبراهيم الموصلى :

إذا ما كنت يوما فى شجاها ‏ ‏ فقل للعبد يسقى القوم يَرَّا
فإن السقى مكرمة ومجد ‏ ‏ ومَــدْفأَةٌ إذا ما خفت قُرَّا

واليرّ : لفظ فارسى معناه ملآن .

وقول العَمَّانىّ يصف من وقف بين الآساد :

لما هوى بين غِياضِ الأُسْدِ ‏ ‏ وصار فى كف الهِزَبْرِ الوَرْدِ

* آلى يذوق الدهر آبَ سَرْدِ *

وآب سرد : هو الماء البارد .

وأمّا الألفاظ المعربة فقد كثرت بداعى الحاجة إليها فى الدلالة على مسمياتها مثل آنسون فى قول القائل :

يا طبيباً بالآنَسُون يداوى ‏ ‏ ليس مابى يزول بالآنَسُون
داوِنى يامُعَذِّبى باسم قوم ‏ ‏ أىّ وقت ذَكَرْتُهُمْ آنسونى

وقول ابن المعتزّ :

سقيا لروضات لنا ‏ ‏ من كل نورٍ حاليه

عيون آذَرْيُونِها للشمس فيها كاليه
مداهنٌ من ذهب فيها بقايا غاليـــه

وقد وردت ألفاظ كثيرة مثل ، مِهْرَجان ، ونَيْرُوز ، وبَرْكَار ، ولَوْزِينَج ، وجَوْزِينَج ، فلا نطيل بذكرها .

أما أسلوب الشعر فقد رق برقة ألفاظه ، وحسن بالإكثار من التشبيه والاستعارة ، والعناية بالمحسن البديعى . وأول من التفت إليه ، واستكثر منه (لأنه قبل ذلك فى القرآن الكريم ، وقديم كلام العرب) بشار ، وإبراهيم بن هرمة ، ثم مسلم وأبو نواس ثم أبو تمام والبحترى ، ثم ابن المعتز ، وكل طبقة من هؤلاء تزيد على سابقتها ، وتستكثر من استعمال البديع ، وبعضهم يغلو كأبى تمام فيغض فى بعض الأحيان من جمال شعره . وآخر من انتهى إليه الإبداع والاكثار مع السلامة من السقوط هو ابن المعتز ، ثم جاء بعده قوم توسعوا فى البديع ، وألحوا فى المحسنات خصوصاً فى عصر بنى بويه ، ولكنهم كانوا إلى السلامة أقرب . ثم غض البديع من محاسن القول فيما بعد عصر بنى بويه كما كان الشأن فى الكتابة .

ومن المحسنات التى أكثروا منها الإشارة إلى مصطلحات العلوم مثل قول أبى نواس :

تَأَمَّلُ العين منها محاسنا ليس تَنْفَدْ
فبعضها قد تناهى وبعضُها يتجَدَّدْ
والحسن فى كل عضو منها مُعَادٌ مُرَدَّدْ

وقول القاضى شرف الدين المقدسى موجها فى قواعد الفقه :

أَحْجُجْ إلى الزَّهْر لتَحْظَى به وارم جِمارَ الْهَمِّ مُسْتَنفِرَا
من لم يَطُفْ بالزَّهْرِ فى وقته من قبل أن يُحْلَق قد قَصَّرَا

وقول أبى الفتح البُسْتِى :

عُزِلْتُ ولم أُذْنِبْ ولم أكُ جانياً وهذا لإنصاف الوزير خِلَافُ

حُذِفْتُ وغيرى مُثْبَتٌ فى مكانه كأنِّىَ نُونُ الجَمْعِ حين يُضاف

وقال أبو نَصْرٍ أَحمدُ بن يوسف :

ولِى غُلَامٌ طال فى دِقَّةٍ كَخَطِّ إِقْلِيدِسَ لاعَرْضَ لَهْ

وقد تناهى عقله خِفَّةً فصار كالنقطة لا جُزْءَ لَهْ

وقال آخر :

محاسنه هَيُولَى كُلِّ حُسْنٍ ومِغْنَاطِيسُ أفئدةِ الرِّجَالِ(١)

وقال آخر :

مسألة الدَّوْرِ جرت بينى وبين من أُحِبْ

لولا مشيبى ما جفا لولا جَفَاهُ لم أَشِبْ

وقول البستىّ :

قد غَضَّ من أَمَلِى أَنِّى أَرَى عَمَلِى أَقْوَى من المُشْتَرِى فى أَوَّلِ الحَمَلِ

وأَنَّنِى راحلٌ عما أُحاوِلُهُ كأننى أستمدُّ الحظ من زُحَلِ

وكذلك الجناس أكثروا منه وعلى نسبة الكثرة فى أقسامه فى علم البديع تجد أمثلة كثيرة ، ولكننا نقتصر على بعضها ، فمن المطرف قول البحترى :

فإنْ صَدَفَتْ عنا فَرُبَّتَ أَنْفُسٍ صوادٍ إلى تلك الوُجُوهِ الصَّوادِفِ

ومن المقلوب قول الْعَبَّاس بن الأحْنَفِ :

حُسامُكَ فيه للأَحْبَابِ فَتْحٌ ورُمْحُكَ فيه لِلْأَعْدَاءِ حَتْفُ

---

(١) الهيولى : الأصل وهو فى الأصل القطعة ، وشبه به الأوائل طينة العالم . وهو فى اصطلاحهم موصوف بما يصف به أهل التوحيد الله سبحانه وتعالى من أنه موجود بلا كمية ولا كيفية ولم يقترن به شىء من سمات الحدوث ثم حلت به الصنعة واعترضته الأعراض فحدث منه العالم.

ومن جناس التركيب قول البُسْتِيّ :

إذا مَلِكٌ لم يكن ذَاهِبَهْ ‏ ‏ ‏ فدَعْهُ فَدَوْلَتُهُ ذَاهِبَهْ

وقول شَمْسَوَيْهِ المصرى فى غلام يبيع القَرَانِى :

قُلْتُ للقلب مادهاك أجبنى ‏ ‏ ‏ قال لى بائع القَرَانِى فَرَانِى

ناظراه فيما جَنَى ناظِرَاه ‏ ‏ ‏ أو دَعَانى أَمُتْ بما أَوْدَعانِى

وقال البُسْتِيّ ؛

كلُّكم قد أخذ الجا ‏ ‏ ‏ مَ ولا جامَ لنا

ما الذى ضرَّ مُدير الـ ‏ ‏ ‏ ـجام لو جاملنا

وقوله :

إلى حتفى سعى قدمى ‏ ‏ ‏ أرى قدمى أراق دمى

وقد أولع المتأخرون من أهل هذا العصر بالنوع البديعى المعروف بالقلب ، وهو المسمى أيضاً (مالا يستحيل بالانعكاس) ، وهو أن يكون عكس البيت ، أو عكس شطره كطرده ، ولصعوبة مركب هذا النوع لم يسلم من أمثلته إلا قليل ، وقد انعقد الإجماع على أن أبلغ الشواهد عليه قول الأرّجانىّ :

مودته تدوم لكل هَوْلٍ ‏ ‏ ‏ وهَلْ كلٌّ مودته تدوم

ومن الشواهد المقبولة عليه قول بعضهم :

عُجْ تَنَمْ قُرْبَكَ دَعْدٌ آمنا ‏ ‏ ‏ إنما دَعْدٌ كبرْقٍ مُنْتَجَعْ

ومما ألحوا فيه أيضاً فخرجوا عن الجادة ذلك النوع البديعى المسمى لزوم مالا يلزم ، وهو التزام حرف قبل الروىّ ، وما يقع من هذا الباب لمتقدم فهو غير مقصود ، أما المتأخرون فقد قصدوا عمله وأكثروا منه حتى إن أبا العلاء المعرى عمل فى ذلك ديوانا كاملا يسمى « اللزوميات » .

ومنه قوله :

كن كيف شئت مُهَجَّناً أو خالصاً ... وإذا رزقت غِنًى فأنت السَّيِّدُ
واصْمُتْ فما كثر الكلام من امرئٍ ... إلا وقالوا إنه مُتَزَيِّدُ

ويلحق به : مايختبر به الأدباء مواهبهم ويشحذون به قرائحهم من التزام حروف جميعها مهمل أو معجم أو ما لاتنطبق فيه الشفتان أو مافى كل كلمة منه همزة أو حروفها كلها منفصلة أو ما يجمع به حروف المعجم كلها فى بيت واحد ، إلى غير ذلك مما استهلك المعنى وجنى على الأسلوب فلم ينظر الشاعر بعد تحقيق وجه من تلك الوجوه فى كلامه إلى حسن تعبير ، أو وضوح دلالة ، أو صلاحية كلمة لموضعها إلى غير ذلك .

وإننا من باب الفكاهة نروى بعض أمثلة من هذا .

فمما جميع الحروف فيه مهملة قول الخطيرى الوراق :

صُدُودُ سُعَادٍ أَحْدَرَ الدَّمْعَ مُرْسَلاً ... وأَسْأَرَ حَرًّا لم أُحَاوِلْهُ أَوَّلاَ

ومما لا تنطبق فيه الشفتان :

هأنذا عارى الجَلَدْ ... أسهرنى الذى رَقَدْ(١)
آه لعين نظرت ... إلى غزال ذى غيد

ومما كل كلمة فيه مهموزة :

بأبى أغيدٌ أذاب فُؤَادى ... إذ تَنَاءَى وأَظْهَرَ الإِعْرَاضَا

ومما ليس فيه حرف متصل بآخر :

زارَ دَاوُدُ دارَ أَوْرَى وأَرْوَى ... ذاتُ دَلٍّ إذا رَأَتْ دَاوُدا

ومما جمع حروف المعجم فى بيت ، قول أبى جعفر اليزيدى :

ولقد شَجَتْنِى طَفْلَةٌ بَرَزَتْ ضُحًى ... كالشَّمْسِ خَثْمَاءُ العِظَامِ بِذِى الْغَضَى(٢)

(١) الجلد (بالكسر أو بالتحريك) : المسك من كل حيوان .
(٢) طفلة (بالفتح) : رخصة ناعمة . خثماء : عريضة العظام .

أوزان الشعر وقوافيه

نظر الخليل بن أحمد الفراهيدى فيما ورد عن العرب من الشعر ، فاستطاع أن يضبطه ، ويرجع أوزانه إلى خمسة عشر أصلا سماها بحور الشعر . وخالفه فى ذلك الأخفش ، فجعلها ستة عشر ، وكان بحر المتدارك هو الذى نفاه الخليل وأثبته الأخفش .

فكلّ ما خرج عن هذه الأوزان الستة عشر ، أو الخمسة عشر فليس بشعر عربى وما يصاغ على غير هذه الأوزان ، فهو عمل المولدين الذين رأوا أن حصر الأوزان فى هذا العدد يضيق عليهم مجال القول ، وهم يريدون أن يجرى كلامهم على الأنغام الموسيقية التى نقلتها إليهم الحضارة ، وهذه لاحدّ لها ، و إنما جنحوا إلى تلك الأوزان لأن أذواقهم تربت على إلفها ، واعتادت التأثر بها ، ثم لأنهم يرون أن كلاما يوقع على الأنغام الموسيقية يسهل تلحينه والغناء به ، وأمر الغناء بالشعر العربى مشهور ، ورغبة العرب فيه خصوصاً فى هذه المدنية العباسية أكيدة .

لذلك رأينا أن المولدين لم يطيقوا أن يلتزموا تلك الأوزان الموروثة عن العرب ، فأحدثوا أوزاناً أخرى منها ستة استنبطوها من عكس دوائر البحور . وهى :

١ — المستطيل، وهو مقلوب الطويل ، وأجزاؤه: (مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن) مرتين كقول القائل :

لقد هاج اشتياقى غريرُ الطَّرْف أحورْ   أدير الصُّدْغ منــه على مِسْكٍ وعَنْبرْ

٢ — الممتد ، وهو مقلوب المديد ، وأجزاؤه : (فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن) مرتين كقول القائل :

صاد قلبى غزالٌ أحورٌ ذو دلالٍ   كلما زدت حبا زاد منى نفورا

٣ — المتوافر ، وهو محرف الرمل، وأجزاؤه : (فاعلاتك فاعلاتك فاعلن) مرتين، ومثاله :

ما وقوفك بالركائب فى الطَّلَلْ   ما سؤالك عن حبيبك قد رحل

ما أصابك يا فؤادى بعـــدهم   أَيْنَ صَـبْرُك يا فؤادى ما فعل

٤ — المتئد ، وهو مقلوب المجتث ، وأجزاؤه : (فاعلاتن فاعلاتن مستفع لن) مرتين .

وقد نظم منه بعض المولدين :

كن لأخلاق التصابى مستمريا   ولأحـــوال الشباب مستحليا

٥ — المنسرد ، مقلوب المضارع ، وأجزاؤه : (مفاعيلن مفاعيلن فاع لاتن) مرتين ، وقد نظم منه بعضهم :

على العقل فعول فى كل شأن   ودان كل من شئت أن تدانى

٦ — المطرد ، صورة أخرى من مقلوب المضارع ، وأجزاؤه : (فاعلاتن مفاعيلن مفاعيلن) مرتين كقول بعضهم :

ما على مستهام ريع بالصد   فاشتكى ثم أبكانى من الوجد

ومن الأوزان التى استحدثوها ما فعله أبو العتاهية ، فقد ذكر أنه نظم على أوزان لا توافق ما استنبطه الخليل إذ جاس يوما عند قصار ، فسمع صوت المدق ، فحكى وزنه فى شعر ، وهو :

للمنون   دائرا   ت يدرن صرفها

حتى   ينتقيننا   واحدا فواحدا

فلما انتقد فى هذا . قال : أنا أكبر من العروض .

ومما ينسب إلى مسلم بن الوليد من ذلك قوله :

يأيها   المعمود   قد شفك الصدود

فأنت   مستهام   حالفك السهود

تبيت ساهرا وقد   ودعك الهجود

وفى الفؤاد نار   ليس لها خمود

ومن أشهر ما استحدث غير ما تقدم الفنون السبعة ، وهى : السلسلة ، والدو بيت ، والقوما ، والموشح ، والزجل ، وكان وكان ، والمواليا ، (والموشحات والأزجال من اختراع الأندلسيين وتبعهم فيها المشارقة) .

١ — فالسلسلة أجزاؤه (فعلن فعلاتن منفعلن فعلاتان) ، ومنه :

السحر بعينيك ما تحرك أوجال إلا ورمانى من الغرام بأوجال

ياقامة غصن نشا بروضة إحسان أَيَّانَ هَفَتْ نَسْمة الدلال به مال

٢ — والدو بيت ، وهو وزن فارسى نسج على منواله العرب ، ودو بالفارسية : معناها اثنان ، أى أنه مركب من بيتين و يسميه الفرس الرباعى ولعله لاشتماله على أربعة أشطر . وأوزانه كثيرة ، وأشهرها : (فَعْلن متفاعلن فعولن فَعِلن)[1] مرتين ، ومنه قول ابن الفارض .

روحى لك يازائر الليل فِدَا يامؤنس وَحْدَتِى إذا الليل هَدَا

إن كان فراقنا مع الصبح بدا لا أسفر بعد ذاك صبح أبدا

وهو كما ترى متحد القوافى فى جميع مصاريعه ، فإن اختلفت الثالثة منها سمى أعرج مثل قول شرف الدّين بن الفارض :

أهوى رَشَأً كُلّ أَسًى لى بعثا مذ عاينه تصبرى ما لبثا

ناديت وقد فَكَرْتُ فى خلقته سبحانك ما خلقت هذا عبثا

٣ — القوما : اخترع هذا الفن البغداديون القائمون بالسحور فى رمضان ، واسمه مأخوذ من قول بعضهم لبعض (قوما نسحر قوما) ، وقد شاع هذا الفنّ ، ونظموا فيه الزَّهْرِىّ والخمرى والعتاب وسائر الأنواع ولغته عامية ملحونة ووزنه (مستفعلن فَعْلانْ) مرتين .

---

(١) قال ابن غازى فى ضبطه :

دوبيتهم عروضه ترتجل فعلن متفاعلن فعولن فعلن

وأوّل من اخترعه أبو نقطة للخليفة الناصر، وكان يطرب له فجعل له عليه وظيفة كل سنة، ولما توفى كان ابنه ماهراً فى نظم القوما، فأراد أن يعرفه الخليفة ليجرى على مفروضه، فتعذر عليه ذلك إلى رمضان، ثم جمع أتباع والده، ووقف أول ليلة من تحت شرف القصر وغنى القوما بصوت رقيق، فأصغى الخليفة له وطرب، فلما أراد الانصراف قال:

يا سـيد الساداتْ لَكْ بالكرم عادات
أنا ابن أبو نقطه تعيش أبويا مات

فخلع عليه الخليفة، وجعل له ضعف ما كان لوالده.

٤ — الموشحات: اخترعها الأندلسيون، وأول من نظمها منهم مُقَدَّم بن مَعَافر من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى فى أواخر القرن الثالث، وقد كسدت هذه الصناعة فى أول الأمر حتى نشأ عُبادة القَزَّاز المتوفى سنة ٤٣٣ هـ، فأجاد فيه وانتقل هذا الوزن إلى المشرق فنسج المشارقة على منواله، وأوزانه كثيرة منها: (مستفعلن فاعلن فعيلْ) مرتين مثل:

يا جيرة الأبرق اليمان هل إلى وصلكم سبيل

ومنها: (فاعلاتن فاعلن مستفعلن فاعلن) مرتين مثل موشحة ابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ هـ:

كللى . . . . . . يا سحب تيجان الربا بالحلى
واجعلى . . . . . . سوارك منعطف الجدول

٥ — الزجل: وقد اخترع هذا الفنّ بالأندلس بعد أن نضجت الموشحات وتداولها الناس بكثرة حركت نفوس العامة، فنسجوا على منوال الموشح بلغتهم الحضرية، وقد كثرت أوزانه حتى قيل صاحب ألف وزن ليس بزجال. وأول من اخترعه رجل يقال له راشد، ولكنه لم يظهر فيه رشاقته كما أبدع فيه بعده ابن قُزْمَان

المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق ، ومن قوله فيه :

وعريش قام على دكان   بحـــال رواق
وأســد ابتلع ثعبان   فى غلــظ ساق
وفتح فمو بحال إنسا   ن فيـــه الفُوَاق
وانطلق يجرى على الصَّفَّاح   ولــقى الصَّــباح[1]

٦ — كان وكان : نظم اخترعه البغداديون ، وسمى بذلك لأنهم لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات .

فكان قائله يحكى ما كان حتى ظهر الإمام الجوزى والواعظ شمس الدين فنظما منه الحكم والمواعظ ، ويصاغ معرب بعض الألفاظ على وزن واحد وقافية واحدة ولا تكون قافيته إلا مردوفة (ساكنة الآخر وقبله حرف ساكن) ومثاله :

قمْ يا مقصرْ تضرعْ   قبل أن يقولوا كان وكان
للبر تجرى الجـــوارى   فى البحر كالأعــلام

٧ — المواليا : هو من الفنون التى لايلزم فيها مراعاة قوانين العربية ، وهو من بحر البسيط لولا أن له أضربا تخرجه عنه .

وقد ذكروا فى سبب نشأته أن الرشيد لما نكب البرامكة أمر ألا يرثوا بشعر ، فرثتهم جارية بهذا الوزن ، وجعلت تنشد وتقول : يا مواليا ليكون ذلك منجاة لها من الرشيد لأنها لا ترثيهم بالشعر المنهى عنه .

وهو فى الاصطلاح ثلاثة أنواع : رباعى ، وهو ما كان أشطر بيتيه مصرعة مثل قول جارية البرامكة :

يا دار أين الملوك أين الفـــرس   أين الذين رعــوها بالقنا والترس

---

(١) الصفاح : حجارة رقيقة عريضة والمفرد صفاحة . ولقى الصباح : يريد أن الماء فى ابيضاضه كأنه الصباح .

قالت تراهم رمم تحت الأراضى الدرس   سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

وأعرج : وهو ما اختلف مصراع منه عن الثلاثة الباقية مثل قول بعضهم فى الوعظ :

يا عبد إبكى على فعل المعاصى ونوح   هم فين جدودك أبوك آدم وبعده نوح
دنيا غروره تجى لك فى صفة مركب   ترمى حمولها على شط البحور وتروح

ونعمانى مثل قول بعضهم :

الأهْيَف اللى بسيف اللحظ جارحنا   بيده سقانا الطلا ليلا وجارحنا
رمش رمى سهم قطع به جـــوارحنا   آهين على لوعتى فى الحب يا وعدى
هجره كوانى وحيرنى على وعدى   يا خل واصل ووافى بالمنى وعدى
* من حر هجرك ومن نار الجوى رحنا *

⁂

إن الذى دعاهم إلى الإفلات من قيود الوزن ، (وهو على زعمهم ضيق الأوزان فى الشعر العربى) قد دعاهم مثله إلى الإفلات من قيود القافية . ذلك بأن الشعر العربى إذا زاد المقول فيه على بيت واحد وجب أن يتحد مع الأصل فى الوزن والقافية ، ولم يعهد عن العرب القدماء أنهم قالوا بيتين أو أكثر فى معرض واحد إلا جاءوا بذلك من بحر واحد ، وجعلوا أواخر الأبيات حرفاً واحداً مع ما اشترطوا فى هذه الأواخر من شروط مجموعها هو علم القوافى .

حقاً إن هذا إذا نظرنا إليه نظرة عامة نراه التزاماً شـــديداً لم تشترطه لغة غير العربية . فأكثر اللغات يكفى فيها شرط الوزن مع خلاف بين اللغات واللغة العربية فيما يراد بهذا الشرط أيضاً .

ولـكننا ننظر إلى العربية فى سابق عهودها فنجدها قد نهضت بجميع أغراض القول مع اشتراط الوزن والقافية ، وكان أكثر كلام العرب شعراً ، ولم يعرف أن أحدا

منهم شكا من ذلك ، أو تبرم به ، أو حاول الخروج عليه لا فى جاهلية ولا إسلام حتى كان العصر العباسى .

فإذا كان بعض الشعراء فى العصر العباسى قد تبرم بهذين القيدين ، فليس العيب عيب اللغة ، ولكنه عيب من يحاول ما لا يستطيع ، هو عيب من لا يستكمل الوسائل ، ثم يريد الطفور إلى الغايات . وما كان لنا أن نتابع هؤلاء الباغين على العربية الذين يريدون أن يتحيفوا جمالها من أطرافه فننادى معهم بطرح هذه القيود ، فإنها ليست كما ظنوا قيود منع وإرهاق ، ولكنها حجز زينة ، ومعاقد رشاقة ، ونظام كأنه نظام فريد لا يحسن إلا إذا روعى فيه التناسق والتناظر .

ومن أمثلة هذه المحاولة المزرية بقدر الشعر ما أنشد القاضى أبو بكر الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن قول بعضهم :

رب أخ كنت به مغتبطا   أشد كفى بعرى صحبته

تمسكا منى بالود ولا   أحسبه يزهد فى ذى أمل

ولكن هذا الناعق لم يجد من يتابعه ، لأن الأذن لا ترتاح إلى صنيعه ، ولكنهم قبلوا من ذلك نوعًا سموه المزدوج ، وهو أن يؤتى ببيتين من مشطور أىّ بحر مقفيين وبعدهما غيرهما بقافية أخرى ، وهكذا . وقد احتاجوا إلى ذلك ، وأكثروا منه فى نظم القصص الطويلة والحكم والأمثال ومسائل العلوم ، مما لا يراد به إلا مجرد الضبط لسهولة الحفظ ، وحرموا هذا النوع أن يسمى قصيدة مهما طال . وأول من نظم فيه بشار وأبو العتاهية ، ثم تتابع عليه الشعراء ، ومن مزدوجة لأبى العتاهية فى الحكم ، وقد سماها ذات الأمثال وله فيها أربعة آلاف مثل ، قوله :

حسبك مما تبتغيه القوت   ما أكثر القوت لمن يموت

الفقر فيما جاوز الكفافا   من اتقى الله رجا وخافا

هى المقادير فلمنى أو فذر   إن كنت أخطأت فما أخطا القدر

لكل ما يؤذى وإن قل ألم ما أطول الليل على من لم ينم
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله
من جعل النمام عينا هلكا مبلغك الشر كباغيه لكا
ما عيش من آفته بقاؤه نغص عيشاً كله فناؤه
ما زالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بأنواع القذى
من لك بالمحض وليس محض يخبث بعض ويطيب بعض
إن الشباب حجة التصابى روائح الجنة فى الشباب

ومن هذا النوع ألفية ابن مالك ، وما على شاكلتها من متون العلوم .

ومما استحدثوه فى القافية أيضاً نوع يسمى المسمط ، وهو أن يبتدئ الشاعر ببيت مصرع ، ثم يأتى بأربعة أقسمة من غير قافيته ، ثم يعيد قسماً واحدا من جنس ما ابتدأ به وهكذا إلى آخر القصيدة ، وقد نسبوا إلى امرئ القيس قوله من هذا النوع :

تَوَهَّمْتُ من هندٍ مَعَالِمَ أَطْلالِ عَفَاهُنَّ طُولُ الدَّهْرِ فى الزمنِ الخالى
مَرَابِعُ من هِنْدٍ خَلَتْ ومَصَايِفُ يَصِيحُ بِمَغْنَاهَا صَدًى وعَوَازِفُ
وغَيَّرَها هُوجُ الرياحِ العَواصِفُ وكُلُّ مُسِفٍّ ثم آخرُ رَادِفُ

* بأسْحَمَ من نَوْءِ السِّما كَيْنِ هَطَّالِ *

وقد يكون بأقل من أربعة أقسمة وبلابيت مصرع مثل قول بعضهم :

غزالٌ هاج لى شجنا فبتُّ مكابداً حَزَنَا
عَميدَ القلبِ مُرْتَهَنا بذِكْرِ اللهوِ والطَّرَبِ
سَبَتْنِى ظَبْيَةٌ عُطُلُ كأن رُضابها عَسَلُ
يَنُوءُ بخَصْرِها كَفَلُ ثقيلُ روادفِ الحَقَبِ

كذلك أحدثوا فيها المخمس ، وهو أن يؤتى بخمسة أقسمة كلها من وزن واحد وخامسها بقافية مخالفة للأربعة قبله ، ثم بخمسة أخرى من الوزن دون القافية

للأقسمة الأربعة الأولى ، ويتحد القسيم الخامس مع الخامس من الأولى فى القافية كقول الشاعر :

ورقيب يردد اللحظ ردا ليس يرضى سوى ازديادى بعدا
ساحر الطرف مذ جنى الخد وردا إن يوما لناظرى قد تبدى
* فتملى من حسنه تكحيلا *
وتصدى من فحشه فى استباقِ يمنع اللحظ من جنى واعتناقِ
أيأس العين من لِحاظ اعتناقِ قال جفنى لصِنْوه لا تلاقِ
* إن بينى وبين لقياك مِيلا *

المولدون أو المحدثون

يراد بالمولدين فى الاصطلاح العام للأدب هؤلاء الشعراء الذين نشئوا فى العصر العباسى ، وهم أيضاً المحدثون . وسبب تسميتهم مولدين أنهم من الجيل الذى لم تخلص أنسابه بل اختلطت ، فكان من الناس الهجين والمقرَف ، بعد أن كانوا فى القديم عربًا خلصاً ، ليس فى نسبهم ما هو غير عربىّ .

فالمولد اسم لكلّ من نشأ غير خالص العربية ، ثم صار فى اصطلاح الأدب كل من قال الشعر من أهل العصر الذى كثر فيه هؤلاء المولدون فى الأنساب ولو كان عربيًا قحًّا ، وكلمة محدث قريبة المعنى من هذا ؛ لأن معناها الذى جد وحدث بعد الأصل .

على أنك واجد من بعض رواة الأدب تشددا فى اعتبار المولد من الشعراء ، فهذا أبو عمرو بن العلاء يقول عن طبقة جرير والفرزدق : لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا برواية شعره ، وهو الذى جالسه الأصمعى ثمانى سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامى .

وقريباً منه كان الأصمعى فى التعصب للشعر القديم . ولكنه كان أقرب إلى الانصاف ، فقد روى عنه أنه كان يستحسن أبيات أبى نواس ، « ودار ندامى عطلوها وأدلجوا » وقد مرّ بك أنه عاب النابغة فى قوله :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فقال لو أن قائلا قال إن النَّمَرِىّ أحسن من النابغة فى قوله :

فلو كنت كالعنقاء أو كسموها لخلتك إلا أن تصد ترانى

لوجد إلى ذلك سبيلا ، ولعل كل جديد يجرى عليه ما جرى على جديد الشعر فى العصر العباسى ، فقد تعصب عليه قوم حتى أعماهم التعصب عن محاسنه ، وحتى كان الشعر يعجبهم قبل أن يعرفوا قائله فينشطون لكتابته وروايته ، فإذا ما علموا أنه لمحدث ألغوا حسنه ومزقوا صحيفته كما رووا عن ابن الأعرابى أنه عرضت عليه أرجوزة أبى تمام اللامية التى مطلعها .

وعاذلٍ عَذَلْتُهُ فى عَذْلِهِ فظن أنّى جاهلٌ من جَهْلِهِ

لبستُ رَيْعانى فَذَرْنِى أَبْلِهِ ما غَبَنَ المغبونَ مِثْلُ عَقْلِهِ

وقيل له إنها لفلان من شعراء العرب فاستحسنها غاية الاستحسان وقال هذا هو الديباج الخُسْرَوانىّ[1] ، ثم استكتبها فلما أنهاها قيل له هى لأبى تمام فقال من أجل ذلك أرى عليها أثر الكلفة ثم ألقى الورقة من يده وقال : ياغلام خرق ، خرق .

ويبلغ من آخرين أن يهجنوا القديم ويعملوا على هدمه ويبالغوا فى الزراية عليه كما فعل أبو نواس فى تهكمه بمبادئ القصائد فى كلام الجاهليين ومن بعدهم حتى حمل الناس على تكسير هذه القيود والإفلات منها .

ولكن الاعتدال فى الحكم هو الذى يصادف من العقلاء ارتياحا، وقد اعتدل كثير من النقدة المتقدمين كابن قتيبة وابن رشيق وغيرهم فحكموا أن القديم من الشعر يجب أن يكون مقدما من ناحية الجزالة وسلامة العبارة وأنه مرجع النحوىّ فى شواهده ،

(١) نسبة إلى خسراوية ، وهى بلدة بواسط.

واللغوى فى معانى ألفاظه ومبانيها ودلالات تراكيبها ، وأن الجديد المحدث يرجح فى الميزان بعذوبة ألفاظه ورقتها وحلاوة معانيه وشدة ترابطها، وقد حكم ابن رشيق فى كتابه «العمدة» بأن مثل القديم والمحدث كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه . فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن .

محاسن المولدين فى الشعر

تذاكر الناس يوما فى مجاسٍ محاسن الدنيا ونزهها ، وأطالوا فى ذلك وكان فيهم ابن دريد الشاعر الراوية اللغوى فقال لهم قد أكثرتم من ذكر محاسن الأبصار فأين أنتم من محاسن البصائر ؟ فقالوا له وما هى ؟ قال شعر المحدثين ، وكتب الجاحظ ، ونوادر أبى العيناء .

والحق أن شعر هؤلاء مجال للروح وقد أحرزت به العربية فضيلة كبرى فصار بها ألذ الآداب لما حواه من محاسن لاتنفد .

فمن محاسنهم تلك المعانى التى أزاحوا عنها حجب القلوب ، فكانت درا انصدعت عنه أصدافه ، أوزهرا تفتحت أكمامه ولم يقفوا بها عند حدّ بل تنافس الشعراء فيها ، حتى يؤثر عن أحدهم ما يشرف به عند التفضيل والموازنة . ويتمثل ذلك فى المعانى التى اخترعوها ، والمعانى التى تناولوها من القدماء ، فولدوا فيها حتى استبدوا بأغلبها وظهر فيها فضل الحضارة على البداوة ، وميزة الثقافة على الجهالة . فما بقى معنى تعرض له جاهلى أو إسلامى إلا شرف بتناول هؤلاء له وإبرازه واضحا جليا . فانظر إلى توليد أبى نواس فى وصف الدمن وهو المعنى الذى أكثر الأولون منه ، ولكن حضارة

أبى نواس أبت إلا أن يحدث فيه ما أحدثته الحضارة فى نفسه . قال :

لِمَنْ دِمَنٌ تزدادُ حُسْنَ رُسُومِ ... على طُولِ ما أَقْوَتْ وطِيبَ نَسِيمِ
تجافى البِلَى عنهن حتى كأنما ... لَبِسْنَ عَلَى الإِقْوَاءِ ثَوْبَ نَعِيمِ

وقال امرؤ القيس يصف حلىّ امرأة .

كَأَنّ على لَبَّاتِهَا جَمْرَ مُصْطَلٍ ... أصابَ غَضاً جَزْلاً وَكُفَّ بأَجْزَالِ

فأخذه ابن المعتز ، وتصرف فيه أبدع تصرف فقال فى وصف الثغر :

أَلْثِمه فى الدجى وبرق ثنا ... ياه يرينى مواضع اللَّثْمِ

أما اختراع المحدثين للمعانى فذلك مالا يحده حصر . وقد سبق من أمثلته كثير . ومن غير الذى ذكرناه قول أبى نواس فى الخمر وهو ما لم يسبق إليه ولا حام حوله حائم قبله :

فى كؤوس كأنهن نُجُومٌ ... دائراتٌ بُرُوجُها أيدينا
طالعاتٌ مع السُّقَاةِ علينا ... فإذا ما غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فينا

ومن المعانى التى استفادوها بمدنيتهم واطلاعهم على العلوم ، تلك الحكمة التى شاعت فى أقوالهم واشتهر بها كثير منهم : كصالح بن عبد القدوس ، وأبى العتاهية الذى يؤثر له فيما أثر من حكمته أرجوزة بها أربعة آلاف حكمة ، وقد مر بك بعض أبياتها ، وأبى تمام ، والمتنبى اللذين انبثت حكمهما فى شعرهما وفصلت بها أقوالهما . وليس ذلك بغريب على قوم اطلعوا على فلسفة سقراط وأرسطو ووعوا كل ما أثر عن فلاسفة اليونان وحكماء الهند والفرس . وللمروزى أحمد بن محمد أبى الفضل السكرى مزدوجة ترجم فيها أمثال الفرس ومنها قوله :

من رام طمس الشمس جهلاً أخطا ... الشمس بالتطيين لا تُغَطَّى
أحسن مافى صفة الليل وُجِد ... الليل حبلى ليس يُدرى ما تلد
من مثل الفرس ذَوِى الأَبْصَارِ ... الثوب رهن فى يد القَصَّار

إن البعير يُبْغِض الخشاشا لكنه فى أنفه ما عاشا[1]
نال الحمار من سقوط فى الوحل ما كان يهوى ونجا من العمل
من لم يكن فى بيته طعام فماله فى بيته مقام
كان يقال من أتى خِوانا من غير أن يدعى إليه هانا

ومما يتجلى للعيان من محاسن المولدين ما جرى على أيدى مجيديهم من العناية بالبديع ، وليس ينكر أحد أثره فى النفس وحسن موقعه فى الكلام ، إذا أحكم أمره فجاء مساوقا للطبع غير بادى الكلفة . فانظر إلى الطباق فى قول أبى تمام :

ولكننى لم أحْوِ جمعا مُوَفَّرًا ففزت به إلا بشَمْلٍ مُبَدَّدِ
ولم تعطنى الأيام نَوْمًا مُسَكَّنا أَلَذُّ به إلا بنَوْمٍ مُشرَّدِ

وانظر إلى قول مسلم بن الوليد يهجو وقد دق معناه ولطف وارتاحت النفس إلى حسن لفظه ، وما سبب حسنه إلا المقابلة والطباق اللذان اجتلبهما المعنى ودعا إليهما حسن تنسيق القول ، قال :

أما الهجاء فَدَقَّ عِرْضُكَ دُونه والْمَدْحُ عنك كما عَلِمْتَ جليلُ
فاذهب فأنت طَلِيقُ عِرْضِك إنه عِرْضٌ عَزَزْتَ به وأَنْتَ ذَلِيلُ

وانظر إلى حسن التعليل فى قول ابن المعتز ويروى لابن الرومى :

قالوا اشتكت عَيْنُهُ فقلتُ لَهُمْ من كثرة القَتْلِ مَسَّهَا الوَصَبُ
حمرتها من دماء من قتلت والدَّمُ فى النَّصْل شاهدٌ عَجَبُ[2]

وقول مجير الدين بن تميم وقد كتب البيتين مع وردة لم تنفتح وأرسلها إلى معشوق :

سَبَقَتْ إليك من الحدائقِ وَرْدَةٌ وأَتَتْكَ قَبْلَ أَوَانِها تَطْفِيلاَ
طَمِعَتْ بِلَثْمِكَ إذْ رأَتْكَ فجَمَّعَتْ فَمَهَا إِلَيْكَ كَطَالِبٍ تَقْبِيلاَ

---

(١) الخشاش : مايوضع فى أنف البعير ليسهل قياده .
(٢) الأمر العجب : هو ما جاوز حد العجب .

وقال ابن الرومى فى تعليل بكاء المولود عند ولادته :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا ... يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ
وإلاَّ فما يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّهَا ... لَأَوْسَعُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ
إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ ... بِمَا سَوْفَ يَلْقَى مِنْ أَذَاهَا مُهَدَّدُ[1]

وقد حسنت المبالغة فى شعر العباسيين الذين لم يستأسروا للصنعة فيقعوا فى الإحالة وهم كثيرون خصوصاً فى المدة الأولى . والمبالغة هى التى يعظم بها الحقير. ويهون الهائل. وهى ما دامت مقبولة فى الذوق سائغة فى التخييل ، جمال لا يعد له جمال . وردت فى القرآن ففخم بها المعنى . قال تعالى ـ يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ـ . فهى فى الآية حسنة سائغة لموضع يكاد من الدلالة على القرب ومشارفة الوقوع . فلم يدخل القول فى الغلوّ الممقوت أو الكذب المرذول . ومن أشعار العباسيين فى المبالغة قول البحترى فى المتوكل :

فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما ... فى وسعه لسعى إليك المنبر

فانظر إلى التعليق بلو والتقييد بما فوق الوسع فإن المبالغة دخلت بهما فى باب الإمكان وفخم المعنى بذلك كل فخامة .

ومنها قول ابن الرومى فى وصف بخيل :

لو أن قصرك يا بن يوسف كله ... إبر يضيق بها فضاء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ... ليَخِيط قَدَّ قميصه لم تَفْعلِ

فانظر إلى المبالغة كيف كان أثرها فى تهويل أمر هذا البخيل وتصوير ضنه بإعارة أهون الأشياء لنبى من الأنبياء فى مقام يجود فيه البخيل وتجب المواساة . فأذا أضفت إلى ذلك وفرة ماتحت يد هذا البخيل مما لا يجتمع مثله فى ملك أحد وذكرت أنه

---

(١) استهل : بكى .

ابن المستعير كما يدل عليه ظاهر لفظ يوسف وابن يوسف علمت إلى أىّ حد صوّر لنا الشاعر بخله فاستوجب الزراية من كل مصدّق لهذا القول فيه .

وانظر إلى أبى تمام وقد وصف المعتصم بالشجاعة يوم عَمُّورِيَّةَ فبالغ ما شاء مع وقوعه فى حدود الإمكان قال :

لم يَغْزُ قومًا ولم يَنْهَضْ إلى بلدٍ   إلاّ تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ من الرُّعُبِ
لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلاً يوم الوغى لغدَا   مِنْ نَفْسِهِ وَحْدَهَا فى جَحْفَلٍ لَجِبِ

ويكفى فى تصديق مثل هذا أن تطلع على التاريخ لتعلم أن من الشجعان من سلم له العدو قبل أن يتحرك لمحاربته فكان جيش الرعب هو العامل قبل جيش الهِنْدُوانيَّات والسَّمْهَرِيَّات ، وأن منهم من لقى الجحافل وحده واخترق الصفوف وألقى الرعب فى قلوب الأعادى .

☆

ومن مزايا الشعر العباسى حسن الربط بين المعانى وذلك أثر لكثرتها عندهم وصدورها عن فكر مرتب وخيال مهذب . فليس فيها ذلك الشرود والتقطع البادى فى أقوال الجاهليين مثلا . وهذه الظاهرة عامة فى شعر العباسيين لرغبتهم فى الغوص على المعانى ، فلم يكن يعرض لأحدهم معنى حتى يستوفيه ويأتى على ما استطاع فيه ، فرتب المسببات على الأسباب ، وجاء بالنتائج بعد المقدمات . ومن بناء أفكارهم على هذا التنسيق البديع لم يروا من المقبول فى الذوق أن يَطْفِرَ الشاعر من غرض إلى غرض دون أن يمهد له بصلة تجمع الغرضين فى ناحية من نواحى التفكير ، فكان من عنايتهم بذلك نشوء النوع المسمى بحسن التخلص ، ومن أمثلته قول أبى تمام فى عبد الله ابن طاهر :

تقولُ فى قُوْمَسٍ قومى وقد أخذت   منا السُّرَى وخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ[1]
أَمَطْلَعَ الشمس تَبْغِى أَنْ تَؤُمَّ بنا   فَقُلْتُ كلاَّ ولٰكِنْ مَطْلَعَ الْجُودِ

وقوله من قصيدته التى بدأها بوصف الربيع وأولها :

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهْىَ تَمَرْمَرُ   وغَدَا الثَّرَى فى حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ

فلما أراد التخلص إلى مدح المعتصم قال :

خُلُقٌ أَطَلَّ من الرَّبيعِ كأنَّهُ   خُلُقُ الإمامِ وَهَدْيُهُ الْمُتَنَشَّرُ

ومن ذلك أيضاً قول أبى نواس :

تقول التى من بيتها خَفَّ مَحْمِلِي   يَعِزُّ علينا أن نراكَ تَسيرُ
أما دون مِصْرٍ للغنى مُتَطَلَّبٌ   بَلَى إن أسبابَ الغِنَى لَكَثِيرُ
فقلت لها واستعجَلَتْها بَوَادِرٌ   جَرَتْ فجرى مِنْ جَرْيِهِنَّ غَدِيرُ
دَعِينِى أُكَثِّرْ حاسديك بِرِحْلَةٍ   إلى بَلَدٍ فيه الخَصِيبُ أميرُ
فتًى يَشْتَرِى حُسْنَ الثَّنَاءِ بماله   ويَعْلَمُ أن الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

وقول المتنبى فى سيف الدولة :

خَلِيلَيَّ إنِّى لا أَرَى غيرَ شاعرٍ   فَلِمْ منهُمُ الدَّعْوى ومِنِّى القصائدُ[2]
فلا تعجبا إنَّ السيوفَ كَثِيرةٌ   ولٰكنَّ سيفَ الدَّوْلَةِ اليومَ واحدُ

وتعرف فضل العباسيين فى ذلك إذا قست عملهم فيه بما كان يفعله الجاهليون من الطفور من معنى إلى معنى بلا أنسة ولا تمهيد كقول النابغة وقد خرج من وصف الليل إلى المدح :

---

(١) قومس : بلدة بأصفهان . المهرية : الإبل تنسب إلى حىّ من العرب يسمى مهرة بن حيدان . القود : جمع أقود وهو الذلول .

(٢) قال أبو الفتح ابن جنى : لو قال فكم لكان أحسن .

تَقَاعَسَ حتى قُلْتُ ليس بمنقضٍ ... وليس الذى يَرْعَى النجومَ بآئِبِ
عَلَيَّ لِعَمْرٍو نعمةٌ بعدَ نعمةٍ ... لوالده لَيْسَتْ بذاتِ عَقَارِبِ(١)

أو بربط هو بالقطع أشبه كقول زهير :

دَعْ ذا وَعَدِّ القولَ فى هَرِمٍ ... خَيْرِ البُدَاةِ وسَيِّدِ الحَضَرِ

⁂

ومما يدل على سلامة أذواقهم ولطف مداخلهم عنايتهم بمطالع القصائد وخواتيمها فجعلوا المطلع دالا على القصد مشيرا إلى موضوع القول واختاروا له اللفظ المناسب للمقام : المشجى فى مقام الحزن ، المطرب فى مقام السرور والارتياح ، ليكون أول ما يقرع السمع مساعدا على النشاط داعيا إلى حسن الإقبال . ومن محاسن الابتداآت قول أبى تمام فى مدح المعتصم بعد فتح عَمُّورِيَّةَ .

السيفُ أصدقُ أنْبَاءً من الكُتُبِ ... فى حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفَائحِ لا سُودُ الصَّحَائِفِ فى ... مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ

وقوله فى أول مرثية :

أَصَمَّ بك الناعى وإن كان أسمعا ... وأصبح مَغْنَى الجودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا(٢)

وقصيدته المشهورة فى رثاء محمد بن حُمَيْدٍ الطُّوسِيِّ :

كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ ولْيَفْدَحِ الأمرُ ... فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ

ومن خير ما يذكر فى هذا الباب ابتداء المتنبى وقد لقى كافورا بعد فراق سيف الدولة فإنه جمع المعنيين فى قوله فى بدء القصيدة :

فراقٌ ومن فارقتُ غَيْرُ مُذَمَّمِ ... وأَمٌّ ومَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ

---

(١) العقارب : النمائم .

(٢) المغنى : المنزل الذى أقام به أهله ثم ظعنوا أو هو عام . البلقع : القفر .

ومثله و إن كان المقام أدق والجمع بين المعنيين أصعب قول ابن نَباتة المصرى يهنئ الملك الأفضل صاحب حماة . ويعزيه عن والده الملك المؤيد ، وهى من غرر قصائده :

هناء محا ذاك العَزَاءَ المُقَدَّمَا   فما عَبَس المحزونُ حَتَّى تَبَسَّمَا
ثغورُ ابتسامٍ فى ثُغُورِ مدامعٍ   شَبِيهانِ لا يَمْتَازُ ذو السَّبْقِ منهما
تُرَدُّ مجارى الدمع والبِشْرُ واضحٌ   كوابلِ غَيْثٍ فى ضحى الشَّمْسِ قد هَمَى (١)

وأما الختام فقد احتفلوا فيه وقصدوا إلى أن يكون اللفظ مؤذنا بالفراغ شافيا للنفس من الحاجة إلى السماع . فراعوا فى ذلك ألا ينتهى الشاعر بمعنى لم يستوفه فإن بقاء النفوس طالبة وقد عزّ المطلب ، راغبة ولا تحقيق لرغبتها ، يعكر عليها سرورها بما مضى من القصيدة ، وينتهى بها إلى القلق وهو لا يَحْسُنُ أن يكون غاية . لذلك اختاروا للختام تلك المعانى التى تقر النفس عندها كالدعاء للممدوح فإنه غاية الغايات ، وكالحكم البالغة فإنها لاستقلالها بنفسها وجلال مكانها فى النفس تشغل السامعَ عن انتظار شىء فيتم مراد الشاعر من حسن المخرج .

ومن حسن الانتهاء قول أبى العلاء المعرى أو المتنبى (على أنه ليس فى ديوان أحدهما) :

بَقيتَ بقاءَ الدَّهْرِ يا كَهْفَ أَهْلِهِ   وهذا دعاء للبَرِيَّةِ شامل

وقول أبى تمام فى ختام قصيدة يمدح بها أبا سعيد الطائى :

أَتَيْتُك لم أَفْزَعْ إلى غير مَفْزَعٍ   ولم أَنْشُد الحاجات فى غَيْرِ مَنْشَدِ
ومَنْ يَرْجُ معروف البَعِيدِ فإنما   يَدِى عَوَّلَتْ فى النائباتِ عَلَى يَدِى

❊

و إنهم حين دلوا على حسن ذوقهم باختيار المعانى الجليلة وسوقها فى معارضها المناسبة

(١) ترد مجارى الدمع : تكفكف .

والإبداع فى ترتيبها ، والإحكام فى ربطها ، لم يفتهم أن ينظروا إلى قالبها من الألفاظ فيختاروها أليق شىء بمدنيتهم ، وأول دليل على حضارتهم : لأنَ عيشهم فلانت ألفاظهم ، ورقت شمائلهم فرقت عباراتهم ، وركبوا الفاره ، وأكلوا الطيب ، وذاقوا العذب وسمعوا المطرب ، فحكوا كل هذا فيما التمسوا من الكلام للدلالة على معانيهم الحضرية وأغراضهم السامية .

وإنّ فضل العباسيين على الأدب العربي لفضل واسع المدى غير مستطاع الشكر . فلو تصورنا أن الأدب ظلّ متوعر اللفظ خشن المجس فكم يكون مبلغ إقبالنا عليه ونظرنا فيه . فيد العباسيين على العربية عظيمة القدر . وإننا كما قلنا فى مقامات سابقة إنما نتقيل ظلهم ونطبع على غرارهم إذ كانت همتهم غاية الهمم وآثارهم مناط الآمال .

مساوئ المولدين فى الشعر

إذا تم شىء بدا نقصه ، وقد تم الحسن للشعر على يد المولدين فأبت سنة الله فى خلقه إلا أن يدخل عليه النقص مع الكمال من باب ، ويزوره فى إهاب . ذلك أن المعانى التى رفعت شعر العباسيين وجعلته حبيباً إلى النفوس بما فتح من أكمام الأفكار، وجلا من عرائسها الأبكار ، تلك المعانى هى التى جنت على الشعر حين لج فيها الشعراء ، فما يزال أحدهم يدق ويمعن فى دقته حتى ينتهى إلى الاستغلاق ويحتاج قارئه إلى إعمال الفكر فى الغوص على مراده ، ومن ذلك قول بعضهم :

وعَلَّمْتَنِى كيفَ الهَوَى وجَهِلْتَهُ وعَلَّمَكُمْ صَبْرِى عَلَى ظُلْمِكم ظُلْمِى
فَأَعْلَمُ مالى عندكم فَيَمِيلُ بى هَوَاىَ إلى جَهْلِى وأُعْرِضُ عَنْ عِلْمِى (١)

(١) معنى البيتين : علمتنى بما فيك من جمال ودلّ كيف أحب ، وجهلت أنت حق الحب فلم ترحم شجوى . وقد كان صبرى على مايقع علىّ من ظلمكم سببا فى استمراركم فى هذا الظلم . وإنى لأعرف ماتنطوون عليه من إعراض عنى ولكن هواى لكم ومحبتى تجعلنى أستمر فى التعلق بكم متناسيا ما أعرفه من إعراضكم عنى وإغفالكم لشأنى .

وما زالوا يتتبعون العويص حتى انتهوا إلى الإلغاز فأكثروا منه وصار موضوع سمرهم ومجال مباراتهم قال بعضهم فى القلم :

ما غلام راكع ساجد   أخو نُحُولٍ دمعُه جارى
ملازم للخمس فى وقتها   مُعْتَكِفٌ فى خدمة البارى

وقال آخر فى الميزان :

وقاضى قُضاةٍ يفصل الحكم ساكتاً   وبالحق يقضى لا يبوح فينطقُ
قَضَى بلسانٍ لا يميل وإن يَمِلْ   على أحد الخصمين فهو مُصَدَّقُ

وقال السَّرِىُّ الرَّفَّاء فى شبكة الصياد :

وكثيرةِ الأحداقِ إلا أنها   عمياء مالم تَنْغَمِس فى ماء
وإذا هى انغمست أفادتْ رَبَّهَا   مالا ينال بأعينِ البُصَرَاءِ

وقال أبو العلاء المعرّى فى الملح :

وبيضاءَ من سِرِّ المِلاحِ مَلَكْتُهَا   فلما قَضَتْ إِرْبِى حَبَوْت بها صَحْبِى
فباتوا بها مُسْتَمْتِعِينَ ولم تزل   تَحُثُّهُمُ بعد الطَّعَامِ على الشُّرْبِ

وقوله سر الملاح : السر الخالص ، والملاح جمع ملح . والإرب الحاجة .

وقول آخر فى النوم :

وحامل يحملنى   وماله شخص يرى
إذا حصلت فوقه   وهو لذيذ الممتطى
سريت لا أدرى أفى   أرض سريت أم سما

وقال آخر فى الصدى :

وساكن يسكن فى الفلاة   ليس من الوحش ولا النبات
ولا من الجنّ ولا الحيات   ولا الخيام الشعر والأبيات
ولا بذى جسم ولا حياة   كلا ولا يدرك بالصفات
بلى له صوت من الأصوات   يسمع فى الأحيان والأوقات

☆☆☆

وكان التشبيه والاستعارة زين كلامهم لما يحملان من المعنى ويكشفان من غامضه ويقرّبان من بعيده ، فلما أمعنوا فيهما وكدوا الطبع بها أحالوا ، أو أتوا بالسخيف البارد : فمن ذلك قول أبي نواس :

بُحَّ صوتُ المالِ مما مِنْكَ يَشْكُو ويَصِيحُ

فأى شيء أبعد من جعل المال ذا صوت حتى يدّعى أنه قد بح من كثرة الشكوى والصياح .

وكذلك قول بشار يصف محبوبته وهجرها .

وجَذَّتْ رِقابَ الوصل أسيافُ هَجْرِها وَقَدَّتْ لِرِجْلِ البين نعلين من خَدِّى

فانظر كيف جعل الوصل مقتولا والهجر سيفاً والبين ماشياً على رجلين منتعلا أديم الخدين .

وقال أبو تمام :

لا تَسْقِنِى ماءَ المَلاَمِ فَإِنّنِى صَبٌّ قد اسْتَعْذَبْتُ ماءَ بكائى

فأطلق الألسنة بعيبه حتى أرسل إليه ظريف من أصحابه قارورة ، وقال له : ابعث لنا شيئاً من ماء الملام ، وقد استثقل منه غاية الثقل ، واستبرد غاية البرد قوله :

كأننى حين جَرَّدْتُ الرجاء له غَضًّا أخذت به سيفاً على الزمن

ولعل ذلك إنما جاءه من جعله الرجاء شيئاً غضا طريا كأنه فاكهة أو نحوها بعد قوله جردت ، وقد رواه صاحب الصناعتين ؟

* عَضْبٌ صببت به ماء على الزمن *

وقد حق له أن يقول بعد إيراد البيت : « ولا يكاد يرى تشبيه أبرد من هذا » .

☆☆☆

وقد حسنت المبالغة منهم حين كانوا مقتصدين فيها ، فلما سباهم حسنها وغرهم ماتفيده من جلال وروعة تورطوا فى مقابحها فأتوا بالمحال كقول الخبز أرزى فى وصف نحوله :

ذبت من الشوق فلو زُجّ بى   فى مقلة النائم لم يَنْتَبِهْ
وكان لى فيما مضى خاتمٌ   فالآن لو شئت تَمَنْطَقْتُ بِهْ

ومنها قول المتنبى (وما أكثر مبالغاته) يمدح محمد بن زريق الطّرَسُوسِىّ :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه   لما أتى الظلمات صرن شموسا[(١)]
أو كان صادف رأس عازَرَ سَيْفُهُ   فى يوم معركة لأعيا عيسى[(٢)]
أو كان لُجُّ البحر مثلَ يمينه   ما انشق حتى جاز فيه موسى

و بعض هذا كفر و بعضه شبيه به . على أنك علمت من أمثلة مبالغتهم كثيرا فيما تقدم .

⁂

و بقية المحسنات البديعية التى أرقصت وأطربت منهم فى كثيرمن أقوالهم هى التى تجىء اليوم غامضة ممقوتة لأنهم تعمدوها وألحوا فى تعمدها ، وأكرهوا أبيها ولم يقصدوا إلى المعنى أو لم يحدُهم الغرض إلى إنشاء القول بل حدتهم الرغبة فى تحقيق مثال من هذه البديعيات ، فانظر إلى أىّ حد صار العرض جوهراً والطلاء أساسا . والغريب من أمرهم أنهم عوّلوا على الدقيق من هذه الأنواع فأكثروا من الاستخدام والتورية و بعد أن كان الاستخدام يقع بضمير واحد غالباً استطاع أن يجعله صلاح الدين الصفدى بثلاثة ضمائر فى قوله :

ورُبَّ غزالةٍ طلعت   بقلبى وهو يرعاها
نَصَبْتُ لها شِرَاكاً من   نضار ثم صدناها
وقالت لى وقد صرنا   إلى عين قصدناها
بذلت العين فاكحلها   بطلعتها ومجراها

---

(١) رأيه أى رأى الممدوح .

(٢) عازر (كهاجر) : الرجل الذى أحياه عيسى عليه السلام .

وقد اجتمع الاستخدام فى البيت الرابع ، فالعين: الفضة . والضمير فى أكحلها لها بمعنى الباصرة ، وفى طلعتها بمعنى الشمس ، وفى مجراها بمعنى معين الماء .

ومن الاستخدام قول ابن نَباتة المصرى من قصيدة فى مدح الرسول :

إذا لم تفض عينى العقيق فلا رأت   منازله بالقـــرب تبهى وتبهر

وإن لم تواصل عادة السفح مقلتى   فلا عادها عيش بمغناه أخضر

ومن التورية قول المعرى :

إذا صدق الجَدُّ افترى العم للفتى   مكارم لا تخفى وإن كَذَبَ الخالُ

وقول الحريرى فى الخمر :

يا قوم كم من عاتقٍ عانسٍ   ممدوحةِ الأوصافِ فى الأنْدِيَهْ

قَتَلْتُها لا أَتَّقِى وارثاً   يَطْلُبُ منى قَوَداً أو دِيَهْ

ومنها قول القاضى الفاضل فى محبوبه الذى نبت شاربه :

وكنتَ وكُنَّا والزمان مساعدٌ   فصرتَ وصرْنا وهو غيرُ مساعدِ

وزاحمنى فى وِرْدِ ريقك شاربٌ   ونَفْسِىَ تأبى شِرْكَها فى المَوَارِدِ

وأما فضيلة السهولة التى ظهرت فى شعر الأوائل من شعراء هذه الدولة فقد صارت ركة وغثاثة فى شعرأواخرهم وفقدت الأساليب على أيديهم جلالها وفخامتها ، حتى لقد نظموا المعانى العامية فى الألفاظ المهلهلة . وقد سلم ذلك إلى حدّ ما فى شعر البهاء زهير المصرى ولكنه فى غيره دل بنفسه ، على سخفه .

ومن قول البهاء :

أنا من تسمع عنه وترى   لا تُكَذِّبْ فى غرامى خَبَرا

لى حبيب كملت أوصافـــه   لا أرى مثل حبيبى لا أرى

وقوله :

أيارسولى إلى من لا أبوح به   إن المهمات فيها يعرف الرجل

بلغ سلامى وبالغ فى الخطاب به　　وقبل الأرض عنى عند ما تصل

ويتصل بهذا ماذكروا من أن بعض الأدباء اطلع على ديوان صفىّ الدين الحلىّ ، فقال : لاعيب فيه إلا أنه خال من الألفاظ الغريبة فأرسل إليه صفى الدين بهذه الأبيات .

إنما الحَيْزَبُونُ والدَّرْدَبِيسُ　　والطَّخا والنُّقَاخُ والعَطْلَبِيسُ[(١)]

والغَطَارِيسُ والشَّقَحْطَبُ والسَّقْـــبُ والحَرْبَصِيصُ والعَيْطَمُوسُ[(٢)]

والجراجيحُ والعَفَنْقَسُ والعَفْـــلَقُ والطِّرْفِسَانُ والعَسَّطُوسُ[(٣)]

لغة تنفِرُ المسامعُ منها　　حين تُرْوَى وتشمئزُّ النفوسُ

وقبيح أن يُسْلَكَ النافرُ الوحـــشىُّ منها ويُتْرَكَ المأنوسُ

إن خير الألفاظ ماطَرِب السا　　معُ منه وطاب فيه الجليسُ

إن قولى : هذا كثيب ، قديم.　　ومقالى عَقَنْقَلٌ ، قُدْمُوس[(٤)]

لم نجد شاديا تَغَنَّى « قفا نبـــك»على العود إذتدار الكؤوس

أترانى إن قلت للحِبّ يا عِلْـــقُ دَرَى أنه العزيز النفيس

أو تراه يَدْرى إذا قلت خَبَّ الـــعير أنى أقول سار العيس

درست هذه اللغات وأضحى　　مذهبَ الناسِ ما يقول الرئيس

إنما هذه القلوب حـــديدٌ　　ولذيذُ الألفاظ مِغْنَاطِيسُ

وقد علمت من قول صفىّ الدين مقدار إزرائه بالألفاظ إذا لم تكن مما ارتضاه أهل

---

(١) الدردبيس : الداهية والشيخ والعجوز . الطخا (بالخاء) : المنبسط من الأرض . وبالخاء والمد : السحاب المرتفع . النقاخ : البارد العذب . العطلبيس : الأملس البراق .

(٢) الغطاريس : جمع غطريس وهو الظالم المتكبر . الشقحطب : الكبش له قرنان أو أربعة كل منها كأنه شق حطب . السقب : ولد الناقة ، أوساعة يولد ، أوخاص بالذكر . الحربصيص : الحلىّ . العيطموس : التامة الخلق من الإبل والنساء .

(٣) العفنقس : العسر الاخلاق . العفلق : الفرج الواسع الرخو ، والمرأة الحمقاء . الطرفسان : القطعة من الرمل . العسطوس : شجرة كالخيزران .

(٤) العقنقل : الوادى العظيم . القدموس : القديم .

زمنه على أن هذا الأديب الناقد ربما أراد ما أردناه من خلوّ أهل العصر من الجزالة وهى كما علمت لا تقتضى الوحشية .

وقد حط من قدر الشعر على أيدى العباسيين المتأخرين أنهم ابتذلوا مصون شرفه وتعدوا جليل مقامه ، فبعدأن كان عندالأولين مجال خيال ومستراد حكمة استعانوا بوزنه ونظام قافيته على ضبط مسائل العلوم من : فقه ونحو وطب وتقويم بلدان وتاريخ . وهذا وإن كان خدمة لتلك العلوم لأنه يسهل تحصيلها بهذا التقييد لكنه إزراء بقدر الشعر وتعدّ على قدسيته .

ومن أمثلة ذلك قول الحريرى فى كتابه (ملحة الإعراب وسنخة الآداب) فى علم النحو .

باب الشرط والجزاء

هذا وإنْ فى الشرط والجزاء   تجزم فعلين بلا امتراء
وأختها أى ومن ومهما   وحيثما أيضاً وما وإذ ما
وأين منهن وأنّى ومتى   فاحفظ جميع الأدوات يافتى
وزاد قوم ما فقالوا إما   وأينما كما تلوا أياما
تقول إنْ تخرج تصادف رشدا   وأينما تذهب تلاق سعدا
ومن يَزُرْ أزره باتفاق   وهكذا تصنع فى البواقى
فهذه جوازم الأفعال   جلوتها منظومة اللآلى
فاحفظ وقيت الشر ماأمليتُ   وقس على المذكور ماألغيتُ

ومن ذلك أيضاً قول ابن سينا من أرجوزة له فى المنطق :

الحـــد

العلم منه ماهو التصور ومنه تصديق لشيء يخبر
ويحصل التصديق بالقياس وقد شرحناه بلا التباس
والحد منه يحصل التصور والرسم أيضاً منه فيه أثر
إذا أردت أن تحد حدا فرتب الجنس القريب جدا
فإنه يحصر كل ذاتى يكون المحدود فى الصفات
ثم اطلب الفصول فهى الحاده من صورة أخذتها أو ماده

وقال فى مواد المقدمات :

لا يعرف المجهول بالمجهول وإنما يعرف بالمعقول
وإن حكمنا أن كل ماعلم قد كان مجهولا فهذا ينتظم
بغير حد وبلا نهايه وليس عند أحد درايه
بل عندنا المقدمات أول منها يحاز علم ما قد يجهل
فبعضها مقدمات الحس كظلمة الليل وضوء الشمس
وبعضها توجبها الأوهام فإن يكن موضوعها الأجسام
وكل ماتدركه الحواس فليس فيما أوجبته باس

وقال أيضاً فى أرجوزة الطب :

ابلع من الصابون وزن درهم تنجو من القُوْلَنْج غير المُحْكَمِ
وهكذا الكمون والكراويا تأكله محمصا تداويا
وطبقك الأضراس فى التثاؤب مأمنة منه لدى التجارب

٭

مرارة الحية سم قاتل وهو لملسوع بها يقابل
إذا سقى المسموم منها حبه نجا من السم بتلك الشربه
وإن سقى الصحيح منها ماتا فى وقته وفارق الحياتا

طبقات الشعراء العباسيين

كثر الشعراء فى هذا العصر كثرة هائلة . حتى لا يكاد يحصيهم عدّ ، لما علمت من عظم شأن الشعر واحتفال الخلفاء والأمراء به ، وكانت كثرتهم هائلة فى المدتين الأولى والثانية . ولعلهم فى الثانية (وهى مدة حكم البويهيين) كانوا أكثر لتعدد أمصار المسلمين بتعدد الدول الحاكمة المتنافسة فى العناية بالأدب وترقية أهله . ولقد بلغ من كثرتهم أن الصاحب بن عباد بنى قصراً فهنأه خمسون شاعراً . وقالوا إنه اجتمع بباب سيف الدولة بن حمدان مالم يجتمع بباب خليفة من الخلفاء .

وقد اتفق فى هذه المدة أن قامت الدولة الفاطمية بمصر أيضاً فازدهرت الآداب بها ونافست مصر بلاد المشرق، فكان للشعر شأن عظيم فى كل مكان .

وليس يهمنا حصر الشعراء فى هذا العصر الطويل المدى الذى دام خمسة قرون أو تزيد ، ولكننا نذكر طبقات الشعراء فيه . والطبقة كل جماعة عاشوا متقاربين فى الزمان وجرت عليهم أحكام واحدة من تأثير البيئة وإن لم يتحدوا فى المنزع أو يدخلوا فى مناقضة أو يتزاحموا على باب ملك .

والطبقة الأولى من شعراء هذه الدولة هم مخضرمو الدولتين الذين أدركوا شطرا

من عصر بنى أمية ثم أظلتهم الدولة العباسية . ومن هؤلاء إبراهيم بن هَرْمة ، و بشار ابن بُرْد سنة ١٦٧ ، والحسين بن مُطَيْر ، وأبو حية النّميرى ، وابن الخياط المكىّ ، وسَديف بن مَيْمون ، وأبو الهندى ، وحماد عَجْرَد سنة ١٦٨ ، ومُطيع بن إياس سنة ١٦٩ ، وصالح بن عبد القُدّوس سنة ١٦٧ ، وأبو دُلامَة سنة ١٦١ ، والسّيد الحِمْيَرىُّ سنة ١٧٣ ، ومروان بن أبى حَفْصة سنة ١٨١ ، ومن رُجّاز هذه الطبقة أبو نُخَيلة السّعْدى ، ورؤبة بن العَجّاج سنة ١٤٥ .

والطبقة الثانية نشأت فى صدر الدولة ، ومن رجالها والبة بن الحُباب وأبو العتاهية سنة ٢١١ ، وأبو نُوَاس سنة ١٩٨ ، ومسلم بن الوليد سنة ٢٠٨ ، والحَكَم بن قَنْبر (وكان بينهما مهاجاة) وسَلْم بن عمرو الخاسر سنة ١٨٦ ، والعباس بن الأحنف سنة ١٩٢ ، وأبو الشِّيص سنة ١٩٦ ، وأشجع السُّلَمِىّ ، والفضل بن عبد الصمد الرّقاشى سنة ٢٠٠ ، وكلثوم بن عمرو العَتّابىّ سنة ٢٢٠ ، ومنصور النَّمَرىّ وربيعة الرَّقّىّ ، وأبان بن عبد الحميد ، والعَكَوَّك (على بن جَبَلة) سنة ٢١٣ ، وعَوْف ابن مُحَلِّم الخُزَاعىّ ، ومحمد بن بَشير الرِّياشِىّ وبَكْر بن النَّطّاح .

والطبقة الثالثة طبقة أبى تمام سنة ٢٢١ ، وديك الجنّ الحِمْصِىّ سنة ٢٣٥ ومحمود بن الحسين الورّاق ، وعبد الصمد بن المُعَذَّل وأخوه أحمد ، والحَمْدُونىّ إسماعيل ابن إبراهيم بن حَمْدَوَيْهِ البصرى ، وأبو العَمَيْثَل كاتب آل طاهر سنة ٢٤٠ ، ودِعْبِل بن على الخُزَاعِىّ سنة ٢٤٦ ، والعَطَوِىّ (نسبة إلى جده عَطِيّة) والحسين ابن الضَّحّاك سنة ٢٥٠ .

والطبقة الرابعة طبقة بن الرومى سنة ٢٨٣ ، والبحترى سنة ٢٨٤ ، وابن المعتز سنة ٢٩٦ ، ومحمد بن اسحٰق الصيمَرِىّ ، وعلى بن يحيى سنة ٢٧٥ وقدنادم المتوكل ثم المعتمد بعده ، وأبو العباس الأنبارىّ سنة ٢٩٣ ، والبَسّامىّ سنة ٣٠٢ ، والخُبْزَ أَرُزِّىّ سنة ٣١٧ ، ومن رجازها العَمّانىّ مادح الرشيد وعُمارَة بن عَقِيل .

ومن شواعر هذه المدة والتي قبلها : علية بنت المهدى وأخت الرشيد ، وعِنَان جارية النَّاطفيّ وصديقة أبي نواس . ومحبوبة ، و بَنَان ، وفَضْل ، جوارى المتوكل .

⁂

وفى عهد بنى بويه ومن بعدهم ينقسم الشعراء قسمين : المشارقة وهم شعراء بغداد ومدن العراق ؛ ثم شعراء مصر والشام .

فأما المشارقة فقد اشتهر منهم : أبو الحسن محمد بن عبد الله السَّلاَمىّ سنة ٣٣٩ ، وابن نُباتة السَّعْدىّ سنة ٤٠٥ ، والشريف الرضى سنة ٤٠٦ ، ومِهْيار الدَّيْلمىّ تلميذه الذى أسلم على يديه سنة ٤٢٨ ، وابن الهَبَّارِيَّة سنة ٤٠٥ وهؤلاء جميعاً عاشوا ببغداد .

ومن شعراء الأمصار الأخرى فى العراق : أبو طالب المأمونى سنة ٣٨٣ ، وأبو الفتح البُسْتىّ سنة ٤٠٠ ، وصَرَّدُرّ سنة ٤٦٥ ، والباخَرْزى سنة ٤٦٧ والطُّغْرَائىّ سنة ٥١٣ ، والغَزّىّ سنة ٥٢٤ ، وابن التعاويذى سنة ٥٣٨ والقاضى أبو بكر الأَرَّجانىّ سنة ٥٤٤ ، وصلاح الدين أبو المظفر الأَبِيوَرْدِىّ سنة ٥٥٧ ،

أما شعراء الشام ومصر فهم أكثر عددا وأرقى شعرا من المشارقة وسبب ذلك ما يقوله أبو منصور الثعالبى فى كتابه يتيمة الدهر . قال :

والسبب فى تبريز القوم (يعنى شعراء الشام وما يقاربها) قديما وحديثا على من سواهم فى الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيا أهل الحجاز و بعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم) .

وشيخ الشعراء فى هذه الأيام إلى نهاية الدولة العباسية هو أبو الطيب المتنبى سنة ٣٥٤ ؛ ومن المعدودين أبو فراس الحمدانى سنة ٣٥٧ ، وكُشاجِم سنة ٣٦٠

والسَّرِىّ الرَّفّاء سنة ٣٦٣ ، وأبو الفرج محمد بن أحمد الملقب بالوَأْواء الدمشقى حوالى سنة ٣٩٠ ، وأبو الفرج البَبَّغاء سنة ٣٩٨ ، وأبو العباس النَّامِى سنة ٣٩٩ والخالديّان (أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد) الأول سنة ٣٨٠ والثانى سنة ٤٠٠ تقريبا . وخاتم المجيدين أبو العَلاء المَعَرِّى الفيلسوف الذى أحدث فى الشعر الكلام فى الاجتماع ونقد الحكام والرثاء للبائسين سنة ٤٤٧ .

ويجىء بعد هؤلاء من أهل الشام : ابن سِنان الخَفَاجِىّ سنة ٤٦٦ ، وأبو الفتيان محمد بن حَيُّوس سنة ٤٧٣ ، وابن الخيّاط الدمشقى سنة ٥١٧ ، وابن مُنِير الطَّرَابُلُسى سنة ٥٤٨ ، وابن الساعاتى ولد بالشام وتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٤ .

ومن شعراء مصر القاضى أبو الفتح نصر الله المعروف بابن قَلاَقِس الإسكندرى سنة ٥٣٢ ، والقاضى أبو الحسن المعروف بابن الزُّبير الغَسَّانى الاسوانى المقتول سنة ٥٦٣ ، والقاضى السعيد هبة الله المعروف بابن سَناء المُلْك سنة ٦٠٨ ، وكمال الدين بن النَّبِيه سنة ٦١٩ ، وعمر بن الفارض سنة ٦٣٢ وجمال الدين ابن مطروح سنة ٦٤٩ ، وبهاء الدين زهير سنة ٦٥٦ .

بشار بن برد

بشار واحد من شعراء قلائل كان لفنهم سلطان عليهم فى جميع مظاهر حياتهم فخضعت له كل تصرفاتهم . واصطبغت به علاقاتهم بالناس ؛ فقد كان من امتزاج الشاعرية بدمه أن أسرع ظهورها فيه حتى قال الشعر ولم يبلغ العاشرة من سنه ، وقد تمثلت هذه الشاعرية فى اتخاذه آنية داره فإنه لم يعجبه رسم جام طلب من مصوّر أن ينقشه له فقد ذكر المصور أنه صور طيوراً تطير فغضب بشار وقال : كان ينبغى أن تجعل فوقها جارحاً يحوم لصيدها ، ثم كان له من بيته مجالس : مجلس للغداة، وآخر للعشى ، ويسمى الأول البردان والآخر الرقيق ، وكذلك كان شاعراً فى تنادره ، شاعراً فى كل تصوراته

يغرم بالفن ويعرف قدره ويحرص على ما أحدثه منه ، حتى لقد غضب على تلميذه سلم الخاسر حين أغار على بيته :

من راقب الناس لم يَظْفَرَ بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتكُ اللَّهِجُ[1]

فقد أخذه سلم فقال :

من راقب الناس مات غما   وفاز باللذة الجسورُ

قال بشار أتأخذ معانى التى قد عنيت بها وتعبت فى استنباطها فتكسوها ألفاظاً أخفّ من لفظى حتى يروى ما تقول ويذهب شعرى ، لا أرضى عنك أبداً .

وبكى حين رأى حماداً قد اهتدى إلى معنى فى هجائه كان بشار قد عرفه فى نفسه ولم يشأ أن يبوح به حتى لا يتخذ سلاحاً يقاتل به وذلك قول حماد :

ويا أقبحَ من قِرْدٍ   إذ ما عَمِىَ القِرْدُ

ثم هو شاعر يجعل الشعر صورة ما فى نفسه من حب وبغض وإعجاب ومقت ، فهو يمدح ويهجو ويتغزل مندفعاً إلى ذلك بجنون الفن الذى لا حذر معه ولا روية تنهنه من غربه فى هجاء ذى سلطان أو إفحاش فى غزل بعد ان هدد من أجل ذلك . كل هذا كان فى بشار فكان شاعراً لا كهؤلاء الذين قالوا الشعر من أجل الجائزة ، ثم هم بعد لا أثر للشعر فى مظهر من مظاهر حياتهم ولا غور له فى نفوسهم .

⁂

بشار بن برد بن يَرْجُوخ ، وقد عدّ له أبو الفرج الأصبهانى ستة وعشرين جدا أسماؤهم كلها أعجمية ، وذكر أن يرجوخ أقرب أجداده كان من طُخَارِسْتان من سبى المهلب بن أبى صُفْرة وأن أباه برداً كان من عبيد خِيرَة القُشَيْرِيّة امرأة المهلب ، وكان مقيماً لها فى ضيعتها بالبصرة فزوجته من امرأة من بنى عُقَيل يقال لها أم الظباء كانت

(١) اللهج : المغرم بالشىء ، من قولهم لهج بكذا : إذا أغرى به .

متصلة بها ثم وهبته لها فولدت منه بشاراً وهو فى ملكها فأعتقته العقيلية فنشأ بشار فى ولاء بنى عُقَيل . وعلى هذه الرواية يكون رق بشار من ناحية أبيه فتكون كذلك عجمته من هذه الناحية . ولكن بعضاً من الرواة يحدث أن بشاراً وأمه كانا لرجل من الأزد ، فتزوج امرأة من بنى عقيل فساق إليها بشاراً وأمه فى صداقها ثم كانا أن أعتقت العقيلية بشاراً لأنه كان مكفوفاً ، وعلى هذه الرواية تكون عجمته من ناحية أمه فإذا كان قد انضم إليها عجمته من ناحية أبيه يكون بشاراً معماً مخولا فى العجمة ولا يكون له فى العربية عرق . ويؤيد هذا الظن إلى حد ما أنه قال : دخلت على المهدى فسألنى فيمن تعتدّ يابشار ، فقلت: أما اللسان والزىّ فعربيان وأما الأصل فعجمى كما قد قلت فى شعرى يا أمير المؤمنين :

ونُبِّئْتُ قوما بهم جِنَّـــةٌ يقولون من ذا وكنت العَلَمْ

ألا أيها السائلى جاهـــداً ليعرفنى أنا أَنْفُ الكَرَمْ

نَمَتْ فى الكرام بنى عامر فروعى وأَصْلِى قريشُ العَجَمْ

وأظن أنه لو كانت أمه عربية لما استطاع أن يدعى العجمة المطلقة ، فإنهم فرقوا بين من هو عربى الأب أعجمى الأم ، ومن هو على العكس ومن كان أعجمى الأبوين ، فسموا الأول هجينا ، والثانى مقرفا ، والثالث أعجميا وما كان بشار يجهل هذه التفرقة حتى يحمل كلامه على التوسع .

⁂

ومن كان مثل بشار له ولاء فى قبيلة عربية يفخر بذلك الولاء ويملأ شدقيه بالنسبة إليها ، ولكن بشارا صادف زمانا قد شغب فيه العجم على العرب وأحسوا لأنفسهم بوجود فأكثروا من ثلب العرب والزراية بهم وذلك مذهب إنما جد من احتقار العرب للأعاجم وسومهم الخسف فتولد الحقد فى نفوس هؤلاء عليهم ، ولما

وجدوا من الدولة الأموية ضعفا ثم من العباسيين ممالأة واعتدادا بحسن أثرهم أعلنوا ذلك فى حوارهم مع العرب وسجلوه فى أشعارهم ، وكان بشار أحد هؤلاء الشعوبيين فكان من قوله الدال على الزراية بشأن العرب :

أصبحتُ مولى ذى الجلال و بَعْضُهُمْ مولى العُرَيْب فخذ بفضلك فافخر
مولاك أكرمُ من تميم كلِّها أهل الفَعَال ومن قريش المَشْعَرِ[1]
فارجع إلى مولاك غيرَ مُدافَعٍ سبحان مولاك الأجلّ الأكبر

خلقه وخلقه

كان من صفة بشار الكمه وجحوظ الحدقتين مع تغشيهما بلحم أحمر ، فكان أقبح الناس عمى وأفظعه منظرا مع الطول المفرط وضخم الجثة وتشويه الوجه بالجدرىّ وأدمة البشرة .

أما صفاته النفسية فقد كان له منها محاسن ومساوئ ، فكان من محاسنه توقد الذكاء وصدق الحس . فقد ذكروا أنه مر به رجل وهو جالس على بابه وليس معه أحد و بيده مخصرة يلعب بها وقدامه طبق فيه تفاح وأُتْرُجّ[2] فتاقت نفس الرجل إلى سرقة مابين يديه فأقبل قليلا قليلا حتى إذا أهوى بيده ليتناول ما فى الطبق ضربه بشار بالقضيب على يده حتى كاد يكسرها فقال له الرجل أنت الآن أعمى ! ! قال فأين الحس ؟ .

وجاءه من يسأل عن منزل رجل يعرفه بشار فجعل يفهمه ولا يفهم فأخذ بيده يقوده إلى منزل الرجل وهو يقول :

أعمى يقود بصيرا لا أبالكم قد ضَلّ من كانت العُمْيان تَهْدِيهِ

---

(١) المشعر : النسك، والمراد به مكة .

(٢) الأترج : ثمر شجر بستانى من جنس الليمون ناعم الحطب والورق .

وقد أدرك بشار علة ذكائه وعرف أن العمى هو الذى وفر له هذا الذكاء فإن المعروف أن القوى والحواس يزيد بعضها بنقصان بعض وقد قال فى ذلك :

عَميتُ جنيناً والذكاءُ من العمى ... فجئتُ عَجيبَ الظّنِّ للعِلْمِ مَوْئِلاَ

وغاض ضياءُ العَيْنِ للعِلْمِ رافدا ... لقلبٍ إذا ما ضيَّعَ الناسُ حَصَّلاَ

ولعله لم تكن له منقبة بعد الذكاء إلاصلة الرحم والكرم كان له أخوان يقال لأحدهما بشر وللآخر بشير وكانا قصابين وكانا بشار بارًّا بهما على ضيق صدره وتبرمه بالناس فكان أخواه يستعيران ثيابه فيوسخانها و ينتنان رائحتها ، فإذا دعا بشار بثوب فلَبِسَه فأنكر رائحته يقول : (أينما أوَجِّهْ ألق سعداً[١]) ، وكان يخرج للناس فى تلك الثياب التى ابتذلها أخواه ، فإذا قيل له ما هذا يا أبا معاذ قال : (هذه ثمرة صلة الرحم) .

وكان كريمًا حتى لقد جعل لأبى الشَّمَقْمَق الشاعر الرقيق الحال مائتى درهم فى كل عام فجاءه فى بعض السنين فقال له هلمّ الجزية يا أبا معاذ ، قال و يحك أهى جزية ؟ قال هو ما تسمع ، ثم امتد بينهما المزح حتى قال أبو الشمقمق يهجو بشاراً :

إنى إذا ما شاعر هجانيه ... ولجّ فى القول له لسانيه

أدخلته فى است أمه علانيه ... بشار يا بشار يا بن . . . .

وأراد أن يقول يا بن الزانية فقام بشار فأمسك فاه ودفع إليه مائتى الدرهم .

وأنشد بشار جعفر بن سليمان :

أقلى فإنا لا حقون وإنما ... يؤخرنا أنا يعد لنا عـدا

وما كنت إلا كالأغرِّ بن جعفر ... رأى المال لا يبقى فأبقى به حمدا[٢]

---

(١) سبب هذا المثل أن الأضبط بن قريع كان سيد قومه، فلقى منهم سوء معاملة فرحل عنهم إلى غيرهم فوجدهم يعاملون سادتهم كذلك فقال هذا القول . ويظهر أن سعدا هذا هو الذى كان يناوئه فى قومه وهو سعد بن زيد ، وقد روى المثل رواية أخرى : فى كل واد سعد بن زيد .

(٢) يقصد عبد الله بن جعفر كريم المدينة المشهور . وقد قيل عنه إن أهل المدينة كانوا يدانون إلى أن يأتى عطاء عبد الله فيردوا ديونهم .

فقال له جعفر بن سليمان من ابن جعفر ؟ فقال الطيار فى الجنة ، فقال لقد ساميت غير مسامى ، فقال والله ما يقعدنى عن شأوه بعد النسب ولـكن قلة النشب . وإنى لأجود بالقليل ، وإن لم يكن عندى الـكثير ، وما على من جاد بما يملك ألا يهب البدور .

أما غير ذلك من صفاته ، فقد كان شرا كله . كان متبرما بالناس شديد الـكراهة لوجوده بينهم، فكان يقول : (اللهم إنى تبرمت بالناس و بنفسى فأرحنى منهم ويقول: الحمد لله الذى أذهب بصرى لئلا أرى من أبغض) ونشأ عن ذلك إقذاعه فى الهجاء ، وكان كثير الاستهتار بشعائر الدين غير مبال بالوقيعة فيه ، فقد حدّث بعض أصحابه قال : كنا نكون عنده ، فإذا حضرت الصلاة قمنا إليها ، ونجعل على ثيابه ترابًا حتى ننظر هل يقوم ليصلى فنعود والتراب بحاله وما صلى . وحدث آخر قال أتينا بشارا فأذن لنا والمائدة بين يديه فلم يدعنا إلى طعامه ، فلما أكل دعا بطست فكشف عن سوءته وبال فيه ثم حضرت الظهر والعصر فلم يصلّ فدنا منه أحدهم وقال دخلنا عليك والطعام بين يديك فلم تدعنا إليه فقال إنما أذنت لـكم أن تأكلوا ، وقال ودعوت بطست ونحن حضور فبلت ونحن نراك فقال أنا مكفوف وأنتم بصراء وأنتم المأمورون بغض الأبصار ، قال وحضرت الظهر والعصر فلم تصل فقال إن الذى يقبلها تفاريق يقبلها جملة .

وسمع مغنية تغنى فى قوله :

إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئًا أبيته
ومُخَضَّبٍ رَخْصِ البَنَا نِ بكى علىّ ومابكَيْتُهْ
يا منظرا حسنا رأيـــت بوجه جارية فديته
بعثتْ إلىّ تسومنى ثوب الشباب وقد طَوَيْتُهْ

فطرب بشار وقال هذا والله أحسن من سورة الحشر .

وتلاحى عبد الله بن مسعود الباهلى وأبو النضير أمام بشار فى شىء ، فقال عبد الله

يابن اللخناء أتكلمنى ولو اشتريت عبداً بمائتى درهم وأعتقته لـكان خيراً منك فقال أبو النضير والله لو كنت ابن زنى لـكنت خيراً من باهلة كلها فغضب الباهلى فقال بشار أنت منذ ساعة تزنى أمه ولا يغضب فلما كلمك كلمة واحدة لحقك هذا كله ! فقال وأمه مثل أمى يا أبا معاذ ؟ فضحك بشار وقال : والله لو كانت أمك أم الـكتاب ما كان بينكما من المصارمة كل هذا .

ويكفى فى الدلالة على فجوره أن واصل بن عطاء خاصمه من أجل معتقداته وخطب الناس فى أمره وكان ألثغ بالراء فـكان لبلاغته يتجنبها فى كلامه فقال فى شأنه .

(أما لهذا الأعمى الملحد ، أما لهذا المشنف المـكنى بأبى معاذ من يقتله أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست إليه من يبعج بطنه فى جوف منزله ، أوفى حفله ثم كان لا يتولى ذلك إلا عُقَيْلى أو سَدُوسى) فقال أبا معاذ ولم يقل بشارا ، وقال المشنف ولم يقل المرعث (وتلك كنية بشار لأنه كان يلبس الرعاث فى أذنه) وقال من سجايا الغالية ولم يقل الرافضة وقال فى منزله ولم يقل فى داره وقال يبعج ولم يقل يبقر كل ذلك ليتجنب الراء حتى لا يظهر عيب لثغته .

وكذلك أنـكر عليه سوار بن عبد الله الأكبر ، ومالك بن دينار ما هو متورط فيه من هجاء الناس ، والتشبيب بالنساء ، وقال فيه : ما شىء أدعى لأهل هذه المدينة (البصرة) إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى ، وقال واصل أيضاً : إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لـكلمات هذا الأعمى الملحد ، وقد قصده مالك بن دينار فى داره وقال : أتشتم أعراض المسلمين ، وتشبب بنسائهم ؟! فجبن بشار ، وقال له : لا أعود ، ولـكنه لم يكن إلا كاذبا جباناً يتخلص من الموقف ، ثم عاد إلى ما كان فيه من غزل مغر وهجاء مقذع ، حتى إنه لم يستطع أن يقلع بعد أن تسامع المهدى بمـا كان من إفساده للنساء والشبان فى البصرة ونهاه وحرمه من الجائزة ، فلم يكن ذلك رادعا له

كما لم يكتف بهجاء النساء حتى هجا الخليفة ووزيره يعقوب بن داود ، فجعل كل ذلك مع تهمة الزندقة ذريعة لقتله ، فاستراح الناس من شره .

⁂

ومن مساوئه : المجون ، وهو فى المرء خليط من اطراح الحشمة ، والتنكب عن حسن السمت ، وخبث فى النفس يدعوها إلى إبراز ما تكنّ من زراية وامتهان لما تريد الزراية عليه ، والامتهان له فى صورة الهزء والسخرية ، فهو جماع لشرور كثيرة فى المرء ، وقد كان لبشار منه نصيب كبير .

ذكروا أنه سمع قاصا يقول فى قصصه . من صام رجباً ، وشعبان ، ورمضان بنى له قصر فى الجنة صحنه ألف فرسخ فى مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره ، عشرة فراسخ فى مثلها ، فقال بشار : لمن معه : بئست والله هذه الدار فى كانون الثانى[1] .

ومر برجل قد رمحته بغلته وهو يقول : الحمد لله شكرا ، فقال له : استزد يزدك ، ومر على قوم يحملون جنازة وهم يسرعون المشى بها ، فقال : ما لهم مسرعين أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا فيؤخذ منهم ، ورفع إليه غلامه فى حساب نفقته عشرة دراهم جليت بها مرآة ، فصاح به بشار وقال : ما فى الدنيا أعجب من جلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم ، والله لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم فى ظلمة ما بلغت أجرة من يجلوها عشرة دراهم .

وكان ينشد المهدى ، ويزيد بن منصور عنده ، فلما فرغ من إنشاده أقبل عليه يزيد (وكانت فيه غفلة) وقال له يا شيخ ما صناعتك ؟ فقال : أثقب اللؤلؤ ، فضحك

(١) كانون الأول والثانى شهران يقعان فى قلب الشتاء .

المهدى ، وقال لبشار : أتتنادر على خالى ، قال : وما أصنع به ، يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعرا ، و يسأله عن صناعته .

وكان بشار جالساً فى دار المهدى والناس ينتظرون الاذن ، فقال بعض موالى المهدى لمن حضر : ما عندكم فى قول الله عزّ وجل : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ . . . .) فقال بشار النحل التى يعرفها الناس قال : هيهات ، النحل بنو هاشم. وقوله : (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) يعنى العلم ، فقال له بشار : أرانى الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فقد أوسعتنا غثاثة ، فغضب وشتم بشاراً و بلغ المهدى الخبر فضحك حتى أمسك بطنه ، وقال للرجل جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فإنك غث بارد .

آراؤه ومعتقداته

كانت الآراء الفلسفية قد بدأت تشيع بين العربوكان يسرع إلى التعلق بها كل من كان واهى العقيدة كبشار ، لذلك تراه قد اعتنق من هذه الآراء القول بالرجعة إلى الدنيا ، وتكفير جميع الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها حادت عن الدين . قيل له: ما تقول فى الصحابة ؟ قال كفروا ، قيل فما تقول فى على كرم الله وجهه ؟ فتمثل بقول عمرو بن كلثوم :

وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرو   بصاحبك الذى لا تَصْبَحِينا

وكان يفضل النار على الطين والنور على الظلمة و يصوب رأى إبليس فى عدم سجوده لآدم وقد ذكر ذلك فى شعره ، فقال:

الأرضُ مظلمةٌ والنارُ مُشْرِقةٌ   والنار معبودةٌ مذ كانت النارُ

ويقولون إنه كان أحد أصحاب الكلام الستة بالبصرة ، وهم : عمرو بن عبيد ، وواصل ابن عطاء ، وبشار ، وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الكريم بن أبي العوجاء ، ورجل من الأزد كانوا يجتمعون في داره ويختصمون عنده . فأما عمرو وواصل فقد صارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فقد صححا التوبة ، وأما الأزدى فقد مال إلى قول الشُّمَنِيّة[1] وهو مذهب من مذاهب الهند ، وأما بشار فقد بقي مترددا متحيرا مخلطا .

والذى نراه أن بشارا كان منافقا يظهر لجمهور الناس بأنه على طريقتهم ويضمر ازدراءه لمذهبهم . وكان يعلم ضرر الظهور بالإلحاد بين شعب متدين فاتخذ ذلك سلاحا في هجاء حماد عجرد فكان يتهمه بالزندقة فيقول له :

يابن نِهْبَى رأس علىّ ثقيل　　واحتمال الرأسين خَطْبٌ جليل
ادْعُ غيرى إلى عبادة الاثـ　　نين فإنى بواحد مشغول
يابن نِهْبَى برئت منك إلى اللـ　　ـه جهارا وذاك منى قليل

وليس بعيداً على شاعر يقول بفيه ماليس في قلبه أن يكون منافقاً فقد ألف ذلك في جميع مظاهر حياته . وهكذا كان بشار زنديقا مع الزنادقة ملازما للجماعة بين جمهور الناس حتى يأمن الشر على نفسه . فليس من أصحاب الآراء الذين يفنون في معتقداتهم ولا يبالون مايجره عليهم تمسكهم بآرائهم . وهكذا كان في شعوبيته يحتقر العرب ويتملق أمراءهم لأخذ الجوائز والاستحواذ على العطايا . وبعد فهو شاعر أصدق أوصافه أنه كاذب .

شاعرية بشار

كان لنشأة بشار في بنى عقيل أكبر أثر في شاعريته، فإنه لما تمت له ملكة اللغة بهذه النشأة وانضم إليها ماله من فطرة في الشعر وخيال واسع لايستعصى معه معنى ولا

(١) قوم من الهنود يعبدون صنما يسمى سومنات ، وعندهم أن العلم والمعرفة لايحصلان إلا من طريق الحواس فهم لايؤمنون إلا بما كان محسوسا . قال عنهم في القاموس المحيط : قوم بالهند دهريون قائلون بالتناسخ .

يفوت غرض ، صار بشار ذلك الشاعر الذى كثر قوله كثرة لم تعهد لغيره من الشعراء فى قديم ولا حديث فإننا إذا صــدقناه فيما ادعى من أن له اثنى عشر ألف قصيدة لا يكون فى الشعراء من خلّف خمس هذا الشعر أو عشره . والعجب أن يقول بشار هذا القول ولا يرد عليه دعواه أهل عصره ثم لا نرى من شــعره إلا نصيباً هو أقل من القليل .

ولعل السبب فى موت شعر بشار هو إقذاعه فى الهجاء وإفحاشه فى الغزل ، وأنه كان السابق إلى هذا فى زمن كان أقرب إلى الورع وفى بلدة (البصرة) هى موطن التابعين وتابعيهم : أمثال الحسن البصرى وابن سيرين وسوار بن عبد الله ومالك ابن دينار وواصل بن عطاء وغيرهم فــكل ذلك جعل لشعر بشار أقبح أثر فى النفوس، ولعل ماجنى الناس من شر هذا الشــعر على فتياتهم هو الذى دعاهم إلى ستره وطول الإغفال له بعد موت بشار حتى لاتفوح رائحته . وهذا لعمرى هو الذى جعلنا لانروى كثيراً من الشــعر لوالبة بن الحباب ومطيع بن إياس وحماد عجرد وغيرهم من كل فاجر فاتك بشعره .

ولو أن الزمن تأخر قليلاً ببشار فعاش فى بغداد أو صادفها وقد تمــكنت منها الحضارة وألف الناس هذا الفسوق فى الشعر لبقى لنا شــعره سليماً كاملاً وكنا نطلع على هذا الشعر الذى يعدل تقريباً نصف الباقى لنا من شعر العرب كلهم .

ولــكن الذى لا ينبغى أن ننساه أن بشاراً كان مطبوعًا على قول الشعر يقوله بلا كلفة ويناديه فيلبى النداء سريعاً لا حبسة فى لسانه ، ولا عقم فى خياله . فلم يكن ينحت من صخر وإنمــا كان يغرف من بحر، وقد شبهه الأصمعى فى كثرة فنونه وسعة تصرفه وأنه لا يتــكلف شيئاً متعذراً ولا يقول البيت يحكــكه أياما ، شبهه بالأعشى والنابغة ، وشبه مروان بن أبى حفصة بزهير والحطيئة .

ودليل انطباعه : أنه قال الشعر وعمره عشر سنين ، فلم يبلغ الحلم حتى كان مخشيًّا

معرة لسانه . وقد هاجى جريراً فأعرض عنه واستصغره فقال لو هاجانى لكنت أشعر الناس . وكان الناس يشكونه إلى أبيه إذا هجاهم فيضربه أبوه فلامته أمه يومًا وقالت له كم تضرب هذا الصبى الضرير أما ترحمه ؟ فيقول لها بل والله إنى لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلىّ فسمعه بشار فقال له يا أبت إن هذا الذى يشكونه منى هو الشعر وإنى إن ألمت عليه أغنيتك وسائر أهلى فإذا عادوا إليك فقل لهم أليس الله يقول (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ) فلما عاودوه قال لهم ذلك فانصرفوا يقولون فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار .

ومن انطباعه على قول الشعر أنه كان يرتجله فى المعنى الضيق والقافية العسرة فيأتى بما يستحق عليه المثوبة . فقد ذكروا أن المنصور ركب هجينا فى وقت الهاجرة فجعلت الشمس تلمع بين عينيه ، فقال لمن حوله : إنى قائل بيتا فمن أجازه فله جبتى هذه وقال :

وهاجرة نصبت لها جبينى   يقطع ظهرها ظهر العِظَايَه(١)

فابتدر بشار فقال :

وقفت بها القلوص ففاض دمعى   على خَدِّى وأقصر واعظايه

فنزع المنصور الجبة وهو راكب ودفعها إليه فباعها بأربعمائة دينار . ودخل مع أبى الشمقمق على عقبة بن مسلم فشفع له عنده لينالـه بشىء من خيره فأمر عقبة لأبى الشمقمق بخمسمائة درهم فقال بشار على الفور :

يا واحد العرب الذى   أمسى وليس له نظيرْ
لو كان مثلك آخر   ما كان فى الدنيا فقيرْ

فأمر لبشار بألفى درهم .

وذكروا أن الزوار كانوا يسمون فى قديم الدهر السؤال حتى قال خالد بن برمك

---

(١) العظاية : دويبة صغيرة ملساء تشبه سام أبرص .

هذا والله اسم أستثقله لطلاب الخير وأرفع قدر الكريم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤملين لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعيم ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبًا ولكننا نسميهم الزوار؛ فقال بشار فى الساعة التى تكلم فيها خالد بهذا الكلام :

حذا خالدٌ فى فعله حَذْوَ بَرْمَكٍ ... فمجدٌ له مُسْتَطْرَفٌ وأصيلُ

وكان ذَوُو الآمال يُدْعَوْنَ قبله ... بلفظ على الإعدامِ فيه دَليلُ

يُسَمَّوْنَ بالسُّؤَّال فى كل موطنٍ ... وإن كان فيهم نابهٌ وجليلُ

فسمّاهُمُ الزُّوَّارَ سَتْراً عليهم ... فأستاره للمجتدين سُدُولُ

فأمر له خالد لكل بيت بألف درهم .

ودخل بشار على عقبة بن مسلم فأنشده بعض مدائحه وعنده عقبة بن رؤبة ابن العجاج الراجز ينشده رجزاً مدحه به فسمعه بشار فجعل يستحسن ما قاله إلى أن فرغ فقال له ابن رؤبة هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ ، فقال بشار ألى يقال هذا؟ إنى والله لأرجز منك ومن أبيك وجدك ، فقال عقبة إنا والله قد فتحنا للناس باب الغريب وباب الرجز والله إنى لخليق أن أسده عليهم وتلاحيا فعاد بشار من غده إلى عقبة وعنده ابن رؤبة الراجز فأنشده أرجوزة يمدحه بها ، ولعل بشارا كان منصرفا عن الرجز يتركه لمثل عقبة ولكنه حين حاوله أتى فيه بالعجب . وهذه هى أرجوزته :

يا طَلَلَ الْحَيِّ بذات الصَّمْدِ ... بالله خَبِّرْ كيف كُنْتَ بَعْدِى(١)

أَوْحَشْتَ من دَعْدٍ وتِرْبِ دَعْدِ ... سَقْياً لأسماء ابنةِ الأَشَدِّ

قامتْ تَراءَى إذْ رأتْنِى وَحْدِى ... كالشمس تحت الزِّبْرِجِ الْمُنْقَدِّ(٢)

صدَّتْ بِخَدٍّ وجَلَتْ عن خَدِّ ... ثم انْثَنَتْ كالنَّفَسِ الْمُرْتَدِّ

عهدى بها سَقْياً له من عَهْدِ ... تُخْلِفُ وَعْداً وَتَفِى بوَعْدِ

---

(١) ذات الصمد : اسم مكان فى ديار بنى يربوع .

(٢) الزبرج : السحاب الرقيق . المنقدّ : المنشق .

فنحن من جَهْدِ الهوى فى جَهْدِ وزاهرٍ من سَبِطٍ وجَعْدِ(١)
أَهْدَى له الدهرُ ولم يَسْتَهْدِ أفوافَ نَوْرِ الحِبَرِ المُجَدِّ(٢)
يَلْقَى الضُّحَى رَيْحانَه بسَجْدِ بُدِّلْتُ من ذاك بُكاً لا يُجْدِى(٣)
وَافَقَ حَظًّا مَنْ سَعَى بجَدِّ ما ضَرَّ أهْلَ النَّوْكِ ضَعْفُ الجِدِّ(٤)
الحرُّ يلْحَى والعَصَا للعَبْدِ وليس للمُلْحِف مثلُ الرَّدِّ
والنَّصْفُ يَكْفيكَ مِنَ التَّعَدِّى وصاحبٍ كالدُّمَّلِ المُمِدِّ
حَمَلْتُه فى رُقْعَةٍ من جِلْدِى أَرْقُبُ منه مِثْلَ يَوْمِ الوِرْدِ(٥)
حتى مضى غَيْرَ فَقِيدِ الفَقْدِ وما دَرَى ما رغبتى من زُهْدِى(٦)
إسْلَمْ وحُيِّيتَ أبا المِلَدِّ مفتاحَ باب الحَدَثِ المُنْسَدِّ(٧)
مُشْتَرَكَ النَّيْلِ وَرِىَّ الزَّنْدِ أَغَرَّ لَبَّاسَ ثِيَابِ الحَمْدِ
ما كان منى لك غيرُ الوُدِّ ثم ثناءٌ مِثْلُ رِيحِ الوَرْدِ

ونكتفى منها بهذا . فطرب عقبة بن سلم وأجزل صلته ، وقام ابن رؤبة بخزى ، وهرب من تحت ليلته فلم يعد إليه .

⁂

ومن انطباعه على الشعر أن ترى له الشعر فى كل معرض حتى فى الهزل ومحاقر الأشياء ،

---

(١) زاهر : يريد به شعره الأبيض . السبط : المرسل . الجعد : المثنى .
(٢) أفواف : جمع فوف ، وهو من برود اليمن تشبه به الأزهار . الحبر : جمع حبرة (كعنبة) : ضرب من برود اليمن منمر . المجد : الذى قطعه الحائك حديثا فهو جديد لم يبل بعد .
(٣) شبه الشعر بالريحان . السجد : السجود . والمعنى أن النهار إذا طلع قابل هذا الشعر بالسجود لشدة بياضه .
(٤) من كان له حظ نال المراد ولو بغير اجتهاد .
(٥) الورد : الحمى .
(٦) أى ذهب وفقدته كأنى لم أفقده .
(٧) أبو الملد : كنية عقبة بن سلم .

فهو لم يجعل الشعر صورة لنفسه المنمقة المزوّقة ، ولكنه جعله صورة طبيعية وفيها السمين والغثّ ، والقوىّ والفاتر ، والجليل والحقير .

وقد دخل العياب على بشار من هذا الباب ، فقد قال له بعض أصحابه : يا أبا معاذ من الذى يقول :

أحبّ الخاتم الأحمـــر من حب مَوَالِيّهْ

فأعرض عنه ثم صاح به ، فقال : يا أبامعاذ من الذى يقول :

إن سلمى خُلِقَتْ من قَصَبٍ قصب السكر لا عَظْمِ الجَمَلْ
وإذا أَدْنَيْتُ منها بَصَــلاً غَلَبَ المِسْكُ على رِيحِ البَصَلْ

فغضب وصاح : من الذى يقرعنا بأشياء كنا نعبث بها فى الحداثة فهو يعيرنا بها ، وكان إسحٰق الموصلى يطعن على شعر بشار ويضع منه ، ويذكر أن كلامه مختلف لا يشـبه بعضه بعضاً .

وقيل لبشار : إنك لتجىء بالشىء الهجين المتفاوت ، فبينا تقول شعراً تثير به النقع وتخلع القلوب مثل قولك :

إذا ما غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تمْطِرَ الدما
إذا ما أَعَرْنَا سـيِّداً من قبيلة ذُرَا مِنْبَرٍ صلّى علينا وسَـلما

تقول :

رَبَابَةُ رَبَّةُ البيتِ تَصُبُّ الخَلّ فى الزّيْتِ
لهـا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

فقال : لكلٍّ وجه وموضع ، فالقول الأول جدّ ، وهـذا قلته فى ربابة جاريتى ، فأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات فهى تجمع لى البيض ، فهذا عندها خير من : (قفا نبك) عندك .

الأغراض فى شعره

ولما كان بشار مطبوعاً على قول الشعر لم يكن ليستعصى عليه غرض من الأغراض ، فقد مدح وهجا ، وتغزل ورثى ، ووصف ما أحسّ ولم يحسّ ، وأتى بالحكمة والمثل ، فما قصر فى غرض من الأغراض ، و إن اثنتى عشرة ألف قصيدة يقولها لابدّ أن يعيد فيها و يبدى فى جميع أغراض الشعر ومعانيه . ثم إن بشاراً هو هو قوّة عارضة وتمام قريحة ، حتى لقد عدت له معان كثيرة اخترعها ولم يسبق إليها ، مثل قوله (و ينسبان لابن الخياط) :

لَمَسْتُ بكَفِّى كَفَّهُ أَبْتَغِى الغنى ولم أَدْرِ أنَّ الجُودَ من كفه يُعْدِى
فلا أنا منه ما أَفَادَ ذَوُو الغِنَى أَفَدْتُ وأَعْدَانى فأَتْلَفْتُ ماعندى

ولكنه مع ذلك كله غلبت عليه أغراض ، فكثر المروى لنا منها بنسبة غيره مما روى من شعره . وهذه الأغراض ، هى: المدح ، والهجاء ، والتشبيب بالنساء .

❁

فأما المدح فقد اتصل بكثير من الأمراء ، فنال جوائزهم السنية أمثال : خالد ابن برمك ، وعقبة بن سلم ، ونافع ابنه بعده ، وعمر بن العلاء ، والهيثم بن معاوية ، وسليمان بن هشام ، وعمر بن هبيرة ؛ وكان فوق ذلك أن اتصل بالخلفاء فمدح أبا جعفر المنصور ثم المهدى بعده ، فهو من هذه الناحية شاعر نابه لم تقصر شهرته عن الوصول إلى ساحات الخلفاء ، ولم يستغن عن تقريظه أمير من الأمراء ، وقد استحقّ على شعره الجوائز الكثيرة ، ولكنه كان كما علمت متلافا كريماً ، فلم يبق له مدخر من كلّ هذا .

وقد كان بشار يبذل من مدحه على قدر مايحوز من الصلة ، حتى لقدقيل له يوماً : إن مدائحك فى عقبة بن سلم فوق مدائحك فى كلّ أحد غيره ، فقال : إن عطاياه كانت

فوق كلّ عطاء ، دخلت عليه يومًا فأنشدته :

حَرّمَ اللّهُ أن تَرَى كابن سلم عُقْبَةِ الخــيرِ مُطْعِمِ الفقراءِ
ليس يُعْطِيك للرجاءِ ولا الخو فِ ولٰـكِنْ يَلَذُّ طَعْمَ العطاء
يسقط الطير حيث ينتثر الحَبْــبُ وتُغْشَى منازل الكرماء

فأمر لى بثلاثة آلاف دينار . وهأنا قد مدحت المهدى وأبا عبيد الله وزيره ، وأقمت بأبوابهما حولا فلم يعطيانى شيئاً فألام على هذا ؟

مدح خالد بن برمك وهو على فارس فقال :

أخالدُ لم أُخْبِط إليك بذِمَّــةٍ سوى أننى عافٍ وأنت جَوَادُ(١)
أخالدُ بين الأَجْرِ والحمدِ حاجتى فأيّهما تأتى فأنت عِمَــادُ
فإنْ تُعْطِنِى أُفْرِغْ عليك مَدَائِحِى وإن تَأْبَ لم يُضْرَبْ علىّ سِدَادُ(٢)
رِكابى على حَرْفٍ وقلبى مُشَيَّعٌ ومَالِى بأرض الباخلين بلادُ(٣)
إذا أنكَرَتْنِى بلدةٌ أو نَكِرْتُهَا خَرَجْتُ مع البَازِى علىّ سَوادُ(٤)

فدعا خالد بأربعة آلاف دينار فى أربعة أكياس ، فوضع واحداً عن يمينه ، وواحداً عن شماله ، وآخر بين يديه ، وآخر خلفه ، وقال يا أبا معاذ : هل استقلّ العماد ، فلمس الأكياس ، ثم قال : استقل والله أيها الأمير .

مدحه بقوله :

لعمرى لقد أَجْدَى علىّ ابنُ بَرْمَكٍ وما كلُّ من كان الغنى عنده يُجْدِى
حَلَبْتُ بشعرى راحتيه فدَرّتا سمَاحا كما دَرّ السحابُ مع الرّعْدِ

---

(١) الخبط : السير على غير هدى . والمراد هنا مطلق السير العنيف . يقول : أقصدك وليس لى بك آصرة ، أو بينى وبينك عهد إلا أنى سائل وأنت كريم . وهذه أعظم آصرة تربط بك طالبى إحسانك .
(٢) السداد : إما مفرد وهو مايسد به الشىء كالثلمة ونحوها . وإما جمع سدّ بمعنى الحاجز . والمعنى إن لم تعطنى اليوم فانى لا أيأس من عطائك فى غد .
(٣) الحرف : الناقة الضامرة . المشيع : الشجاع .
(٤) أى خرجت مبكراً لأن البازى يخرج فى ظلام الليل قبل تبلج الفجر .

إذا جئتَه للمدحِ أشرقَ وجهُه. إليك وأعطاك الكرامةَ بالحمـد
له نِعَمٌ فى القوم لا يستثيبها جزاء وكَيْلَ التاجر المُـدَّ بالمُدِّ(١)
مُفيـدٌ ومتْلافٌ ، سبيلُ تراثه إذا ما غدا أو راح كالجَزْرِ والمَدِّ(٢)
أخالد إن الحمد يَبْقى لأهـله جمالا ولا تَبْقَى الكنوز على الكَدِّ
فأَطْعِمْ وكُلْ من عارَةٍ مستردَّةٍ ولا تُبْقِهَا إن العَوَارِىَ لِلرَّدِّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه فى كلّ وفادة خمسة آلاف . وأمر خالد أن يكتب البيتان الأخيران فى صدر مجلسه الذى كان يجلس فيه . وقال ابنه يحيى : آخر ما أوصانى به أبى أن أعمل بهذين البيتين .

ووفد على عمر بن هبيرة ، فمدحه بقصيدة يقول فيها :

لألقى بنى عَيْلانَ إنَّ فَعالهم يزيد على كلِّ الفَعال مراتبُهْ
أولاك الأولى شقوا العَمَى لسيوفهم عن العين حتى أبصر الحقَّ طالبُهْ

ومنها يصف الجيش :

وجيشٍ كَجُنْحِ الليل يَزْحَفُ بالحصَى وبالشوك والخَطِّىِّ حُمْرٌ ثعالبُهْ(٣)
غدونا له والشمس فى خِدْرِ أمها تطالعنا والطَّلُّ لم يَجْرِ ذائبُهْ
بضربٍ يذوق الموتَ من ذاق طعْمَهُ وتُدْرِكُ من نَجَّى الفرارُ مثالبُهْ
كأَنَّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رءوسنا وأسيافَنَا ليلٌ تهاوَى كَواكبُهْ
بعثنا لهم موت الفُجَاءَةِ إننا بنو الموت خَفَّاقٌ علينا سبائبُهْ(٤)

---

(١) يقول : إنه ينعم ، ولا ينتظر الجزاء على قدر إحسانه كما يفعل التاجر الذى يعطى مدا فى نظير مد . (المد : مكيال ، وهو عند أهل العراق رطلان ، وعند أهل الحجاز رطل وثلث) .

(٢) التراث : ما يخلفه المرء لورثته . يقول: إن هذا الرجل كسوب ولكنه لا يستبقى كسبه بل يجود به فماله فى زيادة ونقص . وجعل ماله تراثا لأنه من شأنه أن يورث عنه ويرى بعض أن الكلمة محرفة عن ثرائه .

(٣) جنح الليل (بالكسر أو الضم) : الطائفة منه . الحصى : العدد الكثير . الشوك : جمع شوكة وهى السلاح. الخطى : الرمح، نسبة إلى الخط ، وهو مرفأ بالبحرين تباع فيه الرماح . الثعالب : جمع ثعلب ، وهو طرف الرمح ، يقول: إن اطراف الرماح احمرت من دماء الأعداء .

(٤) السبائب : جمع سبيبة وهى الشقة من الثوب . والمراد بها هنا الأعلام (الرايات) .

فراحوا فريق فى الإسارِ ومثـلُه ... قتيلٌ ومثلٌ لاذ بالبحر هاربُهْ
إذا المَلِكُ الجبّار صَعَّرَ خَـدَّه ... مَشَيْنا إليه بالسـيوف نُعاتبُهْ

فوصله بعشرة آلاف درهم ، فكانت أوّل عطية سنية أعطيها بشار ورفعت من ذكره .

☼

وأما هجاء بشار فقد كان مقذعا ، وقد علمت أن الحامل له عليه أوّلا ما يضمره للناس من ضغينة وما ينطوى عليه لهم من نفور ، فهو من أجل هذا يجد فى نفسه الدافع إلى هجائهم لا يتكلف ذلك ، ولا يغالبه طبعه فيه ، إذ كان الشر مركباً فى ذلك الطبع والحقد يملأ هذا الصدر . فلذلك كان يهجو لأهون الأسباب بل لغير سبب ، إلا أن القافية احتاجت إلى اسم فهو يضعه فيها غير مبال بما يصيب صاحبه الوادع من وخزه ، وما يجرّه ذلك عليه من تسجيل عار وهو لم يجن ذنباً .

وقد سئل عن سبب ميله للهجاء ، فقال : إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المدح الرائع ، ومن أراد من الشعراء أن يكرّم فى دهر اللئام على المديح فليستعدّ للفقر وإلا فليبالغ فى الهجاء ليخاف فيعطى .

ذكروا أن حماراً نهق ذات يوم بقرب بشار ، فخطر بباله بيت ، فقال :

ما قام ... حمار فامتلا شَـبَقاً ... إلا تَحَرَّكَ عِرْقٌ فى است تَسْنيمِ

ولم يكن يريد تسنيما بالهجاء ، ولـكنه حين وصل إلى القافية كان قد مرّ به تسنيم ، فسلم ، فضحك بشار وقال فى است تسنيم ، فلما علم تسنيم بالحادث قال : أما عنـدك فرق بين صديقك وعدوّك ؟ ألا قلت فى است حماد الذى فضحك وأعياك ، وليست قافيتك على الميم فأعذرك ؟ فقال بشار : صدقت فى هذا كله ، ولـكن الذى جرّ عليك هذا تسليمك علىّ حين طلبى للقافية ، فقال تسنيم : إذا كان هذا فلا سلم الله عليك ، ولا على حين سلمت عليك فجعل بشار يصفق وتسنيم يشتمه .

وكان يهجو لأهون الأسباب ، فقد قدم صديق له يسمى كردى بن عامر من مكة ، فلم يهد لبشار شيئاً فكتب إليه :

ما أنت يا كُرْدِىُّ بالْهَشِّ ... ولا أُبَرِّيك من الغِشّ
لم تُهْدِنا نعْلاً ولا خاتَماً ... من أين أقبلْتَ؟ مِنَ الحشّ؟(١)

وفى هذا ما فيه من استهانته بأمر الدين وجعله الكعبة حشاً .

وكان فتى بالبصرة قد اعتاد أن يرســل إلى بشار فى كلّ عام فى عيد الأضحى أضحية ، وكان أهل البصرة يسمنونها سنة أو أكثر حتى تباع بعشرة دنانير ، ففى عام من الأعوام كلف الفتى وكيله أن يشترى النعجة فاشتراها هزيلة ، وسرق باقى الثمن ، فكتب إليه بشار يتهكم بالهدية :

وهَبْتَ لنا يا فتى مِنْقَرٍ ... وعِجْلٍ وأكرمَهُمْ أوّلا
وأبْسَطَهم راحةً فى الندى ... وأرفَعَهُمْ ذِرْوةً فى العُلا
عجوزاً قد أُوردها عُمْرُها ... وأسكنها الدهرُ دارَ البِلَى
سَلُوحاً تَوَهَّمْتُ أن الرِّعاءَ ... سَقَوْها لِيُسْهِلها الحَنْظَلا(٢)
وأَضْرَطَ من أمِّ مبتاعها ... إن اقتمحت بُكْرَةً حَرْمَلا(٣)
فلو تأكل الزبد بالنِّرْسِيانِ ... وتَدَّمِــجُ المِسْكَ والمَنْدَلا(٤)
لما طيَّبَ الله أرواحها ... ولا بَلَّ من عظمها الأَقْحَلا(٥)

وقد هجا جاره لأنه بعث إليه يطلب ثيابا بنسيئة فلم يصادفها عنده ، فقال يهجوه :

---

(١) الحش (مثلثة) : المخرج (موضع قضاء الحاجة) لأنهم كانوا يقضون حاجتهم بعيدا من البيوت .
(٢) السلح : هو للبهائم والطير ، كالتغوط للإنسان .
(٣) اقتمح البرّ أو الجوارش : استفها . الحرمل : نبات كالسمسم يعيي آكله . ونلاحظ أن كلمة « اقتمحت » وردت فى الأغانى « انتحمت » ولم تفسر لأن معانى المادة لا تناسب المقام . فأدرنا الكلمة على عدة وجوه ثم انتهينا إلى أنها لابد أن تكون محرفة عن « اقتمحت » .
(٤) النرسيان : تمر بالكوفة مشهور بجودته ، يقال الزبد بالنرسيان ، يضرب مثلا لأجود مأكول . تدمج يريد تتلطخ بهما منغمسة فيهما من قولهم ادمج الشيء فى الشيء إذا دخل فيه واستتر .
(٥) الأقحل : الشديد اليبوسة .

ألا إن أبا زيد زنى فى ليلة القَدْر
ولم يَرْعَ تعالى الله ربى حُرْمَةَ الشَّهرِ

واستمنح العباس بن محمد بن علىّ فلم يمنحه ، فقال يهجوه :

ظِلّ اليسار على العباس ممدود وقلبُهُ أبداً بالبُخْلِ معقودُ
إنّ الكريم ليخفى عنك عُسْرَتَهُ حتى تراه غَنيًّا وهو مجهود
وللبخيل على أمواله عِلَلٌ زُرْقُ العُيونِ عليها أوجهٌ سُودُ[(١)]
إذا تكرّهْتَ أن تُعْطِى القليلَ ولم تَقْدِرْ على سَعَةٍ لم يَظْهَرِ الجُودُ
أَوْرِقْ بخير تُرَجّى للنوال فما تُرْجَى الثمارُ إذا لم يُورِقِ العُودُ
بُثَّ النوال ولا تمنعك قِلّتُهُ فكلُّ ما سَدَّ فقرا فهو محمود

ولما مدح المهدى لحرمه الجائزة هجاه بقوله :

خليفةٌ يَزْنِى بعَمّاتِه يلعب بالدَّبُّوق والصَّوْلجَانْ[(٢)]
أبدلنا الله به غيره ودَسّ موسى فى حرِ الخَيْزُرَانْ

وأنشدهما فى حلقة يونس النحوى ، فسعى به إلى يعقوب بن داود ، وكان قد هجاه من قبل لما أخر دخوله على المهدى ، فقال :

بنى أمية هُبُّوا طال نومُكُمُ إنّ الخليفةَ يعقوبُ بن داوُد
ضاعت خلافتُكُمْ ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الزِّقّ والعُودِ

فدخل يعقوب على المهدى وتلطف حتى أبلغه هجاء بشار له ، فكاد ينشق غيظاً ، وعمد إلى الانحدار إلى البصرة للنظر فى أمرها وما وكده غير بشار ، فلما بلغ البطيحة سمع أذاناً فى الضحى ، فإذا بشار يؤذن وهو سكران ، فأتى به وشهد الشهود عليه بالزندقة ، فضرب سبعين سوطاً مات فى أعقابها ، وكانت وفاته سنة ١٦٨ هـ ، وقد أوفى على السبعين أو التسعين .

---

(١) يقول إن البخيل يمتنع عن العطاء ويذكر عللا قبيحة غير مقبولة كما لايحسن فى الناس أن ترى عيونا زرقاء على وجوه سوداء .
(٢) الدبوق : لعبة للصبيان . الصولجان : المحجن ، وهو العصا المحقوفة (الملتوية) .

ولكنّ بشاراً مع هذه الجرأة فى الهجاء من ناحية كان جبانا يفرق من الهجاء إذا وجه إليه و يفتدى من ذلك بماله أو بمداراة من توهم أنه سيوجعه بميسمه . وفى عطائه لأبى الشمقمق رائحة الخوف إلى جانب الرحمة لرقة حاله ، فإنه لما تأخر عليه فى بعض السنين هدّده بالهجاء ، فأظهر بشار عدم الاكتراث ، فلما قال فيه :

إنى إذا ما شاعر هجانيه　　ولَجَّ فى العَذْل له اسانيه
أدخلته فى أُست أمه علانيه　　بشار يا بشار . . . . .

فلما أراد أن يقول : يا ابن الزانية وثب بشار وأمسك بفمه ، ثم دفع إليه مائتى الدرهم التى كان يجريها عليه كلّ عام وقال : لا يسمع هذا منك صبيان البصرة .

وحديثه مع حمدان الخراط الذى طلب إليه أن يرسم له فى جام صور طيور تطير ، فلما حمل ذلك إليه قال له : كان ينبغى أن تجعل جارحا يحلق فوقها كأنه ينقضّ عليها ، فإنه كان أحسن ، ولكنك علمت أنى أعمى لا أبصر شيئاً وهدّده بالهجاء ، فقال له حمدان : لا تفعل فإنك تندم ، فقال : وما تفعل ؟ قال أصوّرك على باب دارى ، وأصوّر وراءك قرداً يفعل بك الفحشاء ، فقال بشار : اللهم اخزه ، أنا أمازحه ، وهو يأبى إلا الجد !!

⁂

أماالغزل فقد كان أظهر مافى شعر بشار من الشناعة ، فإنه هو الذى جعل المتورّعين وأولياء الفتيات والفتيان يهتفون ببشار ، و يسعون به لدى الخليفة ، وقد حداهم ذلك أكثر مما حداهم الهجاء ، فإن الهجاء ليس ضرره واقعاً إلا على المقول فيه ، على أنه لا يقدح فى الشرف ، ولا ينال من الكرامة إلامن ناحية تناول السقاط من الناس له ، وهتفهم به وتعييرهم من قيل فيه ، فأما الغزل فجريرته على الأخلاق ، وجنايته على الشرف الحقيق ، و إذاعته للفجور ، ومساعدته لطيش الشباب ، وجنون الصبا ، ضرر بالغ يزرى بقدر أمة لا قبيلة ، و يطأطئ رأس أسرة لا فرد ، وعاره باق ، ومسبته متوارثة . هذا هو خطر الغزل المغرى للفتاة والفتى وهو غزل بشار لذلك نرى أن المهدى

حين غضب عليه لم يغضب إلا من تشبيبه وحين نهاه لم ينهه إلا عن التشبيب .

وقد سأل بعضهم أبا عبيدة فقال : ما أحسب هذا (يريد بشاراً) أبلغ فى تلك المعانى (يريد التشبيب) من كثير وجميل ، وعروة بن حزام ، وقيس بن ذريح ، وتلك الطبقة ، فقال أبو عبيدة : ليس كلّ من يسمع تلك الأشعار يعرف المراد منها ، وبشار يقارب النساء حتى لا يخفى عليهنّ ما يريد ، وأىّ حرّة حصان تسمع قول بشار ، فلا يؤثر فى قلبها فكيف بالمرأة الغزلة . وكأن أبا عبيدة إنما يريد أن يفرق بين شعر هؤلاء وشعر بشار ، بأن بشاراً يخالط النساء ويوضح لهنّ شعره . وليس هذا هو السرّ فى شناعة شعر بشار ، وليس شعر من سبقه غامضاً حتى يفوت الناس معناه حين يفوتهم لفظه ، وإنما السرّ فى ذلك هو ما تعرفه من قراءتك لشعر بشار فقد رققه أوّلا حتى حببه إلى النفوس ، فصار كلّ فتى وفتاة يرويه ، ولا يرى فى لفظه استعصاء ، بل هو ككلام الناس سهولة وليانا ، وهذا خبث من بشار عمد إلى غزله وهجائه ، فرققهما لهذه الغاية حتى يشيعا فى الناس ويقبل عليهما الجاهل والعالم ، وسبب آخر فى شيوع الفاحشة بشعر بشار هو أنه هوّن أمر الحبّ على المحبين ، وأطمع الطالب فيما يحاول من أمر النساء حين يقول :

لا يُؤْيِسَنَّكَ من مُخَبَّأَةٍ قولٌ تُغَلِّظه وإن جَرَحا
عُسْرُ النساء إلى مُيَاسَرةٍ والصعب يُمكِنُ بعد مَا جَمَحَا

فانظر كيف كان لهذا القول من أثر فى نفس فتى من الفتيان عشق فتاة فكلمها ، فلم تلتفت إليه ، فهمّ يتركها يأساً ، فذكر قول بشار هذا ، فعاد إليها ولازمها حتى بلغ حاجته ، فحلف ليدفعنّ إلى صاحب الشعر مائتى دينار فجاء بها إلى بشار .

ثم انظر إلى قوله :

قد لامنى فى خليلتى عُمَرُ واللَّوْمُ فى غير كُنْهِهِ ضَرَرُ
قال أَفِقْ قلت لا فقال بلى قد شاع فى الناس منكما الخبر
قلت وإِذْ شاع ما اعتذارك مما ليس لى فيه عندهم عُذُر

ماذا عليهم ومالهم (خَرِســـوا) لو أنهم فى عيوبهـــم نظروا
أعشَقُ وحدى ويُؤْخَذُون به كالترك تغزو فتؤخـــذ الخزَرُ(١)
يا عجباً للخِـــلاف يا عجبا بنى الذى لام فى الهوى الحَجَـــرُ
حسبى وحَسْبُ الذى كَلِفْتُ به منى ومنه الحديثُ والنظرُ
أو قُبْـــلَةٌ فى خلال ذاك وما بأسٌ إذا لم تُحَلَّ لى الأُزُرُ
أو عَضَّـــةٌ فى ذراعها ولها فوق ذراعى من عَضِّها أَثَرُ
أو لَمْسَةٌ دون مِرْطِهاَ بيَدِى والبابُ قد حال دونه السِّـــتُرُ(٢)
والســـــاق برّاقَةٌ مُخَلْخَلُها أو مَصٌّ ريق وقد علا البُهُرُ(٣)
واسترْخَت الـكَفُّ للعراك وقا لت إيه عنى والدمعُ ينحدر
إنهضْ فما أنت كالذى زعموا أنت وربى مُغـــازلٌ أشِرُ(٤)
قد غابت اليوم عنك حاضنتى والله لى منك فيـــك يَنْتَصِرُ
يا رَبِّ خُذْ لى فقد ترى ضَرَعِى من فاســـقٍ جاء ما به سَكَرُ
أَهْوَى إلى معْضَـــدى فرضَّضَهُ ذو قوّة ما يطاق مُقْتَدِرُ(٥)
ألصق بِى لحيـــة له خَشُنَتْ ذات ســـواد كأنها الإبَرُ
حتى علانى وأسْرَتى غَيَبٌ وَيْلِى عَلَيْهِمْ لَوْ أنَّهُمْ حضروا(٦)
أقسم بالله لا نجَوْتَ بهـــا فاذهب فأنت المُساوِرُ الظَّفِرُ
كيف بأمى إذا رأت شَـــقَتِى أم كيف إن شاع منك ذا الخبر

---

(١) الخزر : قوم من الترك . والمعنى أن الترك يغزون فيؤخذ الخزر بذنبهم (كذى العرّ يكوى غيره وهو راتع) .

(٢) المرط : كساء من صوف أوخز يؤتزر به .

(٣) البهر (بالضم) تتابع النفس من الإعياء . وقد اتبعت هنا ضمة العين لضمة الفاء .

(٤) أشر : مرح .

(٥) العضد : دملج يلبس فى العضد ، والمراد هنا موضعه من العضد .

(٦) غيب (بالتحريك) : غائبون .

قد كنت أخشى الذى ابتليتُ به منك فماذا تقول يا عَبَرُ[1]
قلت لها عند ذاك ياسَكَنِى لا بأس إنى مجرِّبٌ خَبِرُ
قولى لها بَقَّةٌ لها ظُفُرٌ إن كان فى البَقِّ ماله ظُفُرُ[2]

فكيف ترى لومه للائميه وتخطئتهم فيما شغلوا به أنفسهم من أمر حبه . ثم إنه ينتقل إلى مايجرى بين الحبيبين من النظر والحديث ، ثم القبلة ، ثم حلّ الإزار ، وهذا عنده لا بأس به ، ثم يصف سائر أنواع التجميش ، ثم يصف انتباهة الفتاة من سكر صبوتها ، وأنها حارت فى أمره ، واضطربت لما خطر لها من مفاجأة أهلها وهى على هذا الحال . ثم هى تحاوره فى أمر العضة ، وما بان من أثرها فى شفتها ، فيستهتر ويستهين بهذا الميسم الباقى ويمزح ، فيقول لها : قولى لأمك إن بقة لها ظفر خدشتنى .

فتراه قد رسم فى هذه القصيدة سبيل الغواية من لدن شفيرها إلى مقرّ هاويتها . فماذا يكون شأن الفتاة أو الفتى إذا ترنما بهذا الشعر ، أو سمعاه من مغنية تتخنث فيه وترجع ألفاظه ، ألا يبقيان دائما على ذكر من وسائل الفجور وأسبابه ؟ أو ليس فى ذلك أكبر ضرر على الأخلاق حين يعمد شاعر كبشار إلى الشعر ، وهو أحبّ شىء إلى نفس العربى والعربية ، فيرققه حتى يجعله ماء جاريًا يسوغ مع الرّيق ، ثم يلهب العاطفة بمثل هذه المعانى الفاجرة . قاتله الله لقد كان شيطانًا ماردًا سلط على الأخلاق فأفسدها ، لولا أن تدارك الله الناس بحزم الخليفة ، فقضى عليه وعلى ضلالته .

ولم يكن بشار من صناع الغزل الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، فيبقى قولهم رسومًا على الأوراق وألفاظًا على الأفواه لا حرارة لها ، ولكنه عاشق غزل ، وفاتك جرىء ، يحبّ الغوانى وإن لم يرها ، ويفتح داره للنساء يومين فى كلّ أسبوع يجتمعن معه فيأخذن ما شئن من شعر يصنعه للغناء أو الرثاء ، وهو فى هذه المجالس مؤتنس بالحديث مستخلص لنفسه من يقع حبها فى قلبه فهى إما مطاوعة وإما كارهة ،

---

(١) العبر (مثلث الأول ساكن الثانى، أو تحرك الباء بحركة العين) : الجرىء .
(٢) البقة : البعوضة .

ووسائله كثيرة يجعل منها الهجاء للأبية حتى تسلس له ؟ وهكذا كان له من دينه المزّق عون على إجابة نزعته الخبيثة .

وأشهر من أحبهنّ عبدة التى يقول فيها :

يُزَهِّدُنِى فى حُبّ عَبْدَة مَعْشَرٌ   قلوبُهُمُ فيها مخالفةٌ قَلْبِى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى   فبالقلب لا بالعين يُبْصِرُ ذوالحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى   ولا تسمع الأُذْنان إلا من القَلْب
وما الحسنُ إلا كلُّ حسن دعا الصِّبا   وألف بين العِشْق والعاشق الصَّبِّ

وقوله :

لم يَطُلْ ليلى ولكن لم أَنَمْ   ونَفَى عنى الكرى طَيْفٌ أَلَمّْ
وإذا قلت لها جُودِى لنا   خَرَجَتْ بالصمتِ عن لا وَنَعَمْ
رفِّهِى ياعَبْدَ عنِّى واعلمى   أننى ياعبدَ من لَحْمٍ وَدَمْ
إنّ فى بُرْدَىَّ جسما ناحلا   لو تَوَكَّأْتِ عليهِ لانهدمْ

الآراء فى بشار

يكاد الأدباء ورواة الشعر ونقدته فى زمن بشار ، وبعده يجمعون على فضله فى الشعر من حيث رقّ المعنى وحسن السبك والبلاغة . فيقول الأصمعى : بشار خاتمة الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم . وكان يقول : كان مطبوعا لا يكلف طبعه متعذراً ، لا كمن يقول البيت ويحككه أياما ، ويقول أبو عبيدة : حكم بشار لنفسه بالاستظهار أنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد ، ولا يكون عدد الجيد من شعر شعراء الجاهلية والإسلام هذا العدد ، وما أحسبهم برزوا فى مثلها ، وقال الجاحظ : كان بشار شاعراً خطيباً ، صاحب منثور ومزدوج ، وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المفتنين فى الشعر القائلين فى أكثر أجناسه

وضربوه ، قال الشعر فى حياة جرير ، فعرض له . وحكى عنه أنه قال : هجوت جريراً فأعرض عنى ، ولو هاجانى لكنت أشعر الناس .

وقال علىّ بن المنجم : سمعت من لا أحصى كثرة من الرواة يقول : أحسن الناس ابتداء فى الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول :

أَلاَ عِمْ صباحا أيها الطلل البالى وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُرِ الخالى (١)

وحيث يقول :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وفى الإسلام القطامى حيث يقول * إنا محيوك فاسلم أيها الطلل *

ومن المحدثين بشار حيث يقول :

أَبَى طَلَلٌ بالجِزْعِ أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب مُتَيَّمَا

وبالفَرْعِ آثارٌ بَقِينَ وباللِّوَى ملاعبُ لايُعْرَفْنَ إلاّ تَوَهُّمَا (٢)

ولم تخف على بشار منزلته ، بل كان يقول : لى اثنا عشر ألف قصيدة أما فى كل قصيدة منها بيت جيد ، وكان يقول أزرى بشعرى الأذان (يريد أنه إسلامى ولو تقدم به الزمن لكان من فحول الجاهليين) ، وقال له بعضهم : ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه ، وأنه ليس فى شعرك ما يشكّ فيه . قال : ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت هاهنا ونشأت فى حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بنى عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطإ ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت فمن أين يأتينى ؟ .

ولقى رجل أبا عمرو بن العلاء (وهو من تعرف زراية على الحديث ومقتاله) ، فقال له : يا أبا عمرو من أبدع الناس بيتاً ؟ قال الذى يقول :

---

(١) عم صباحا : تحية جاهلية كأنه محذوف من نعم ينعم (بكسر العين فيهما) . كما يقال كل من أكل يأكل . العصر : (بضمتين) لغة فى العصر (بالفتح). الخالى : الماضى .

(٢) الفرع (بالفتح أو الضم) : بلدة بينها وبين المدينة ثمانية أميال .

لم يطل ليلى ولـكن لم أنم ... ونفى عنى الـكرى طيف ألمّ
روّحى عنى قليلا واعلمى ... أننى ياعبدَ من لحم ودم

قال فمن أمدح الناس ؟ قال الذى يقول :

لمست بكفى كفه أبتغى الغـنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت وأعدانى فأتلفت ماعندى

قال فمن أهجى الناس ؟ قال الذى يقول :

رأيت السُّهَيْلَيْنِ استوى الجود فيهما ... على بعد ذا من ذاك فى حكم حاكم
سهيــل بن عثمانٍ يجود بمـاله ... كما جاد بالوَجْعا سهيل بن سالم(١)

قال : وهذه الأبيات كلها لبشار .

ولقد كنا فى غنى عن هذه الشهادات لولا أننا لا نجد من شـعر بشار مادة كثيرة نستطيع أن نحكم بها عليه، لذلك احتجنا إلى أقوال هؤلاء الذين خالطوه ولابسوه ، فقولهم فى بشار حجة لمن لا يرى فى آثاره ما يكفى للحكم عليه .

على أنه إذا استدلّ بالقليل على الـكثير فإن شـعر بشار مثال الرصانة والمتانة ، فهو بدوىّ لولا ما عليه من حلية الحضارة ، جاهلىّ لولا ما سرى فيه من روح الحـكمة وثقافة التعليم ، ثم هو مخترع لـكثير من المعانى ممـا جعله إمام المحدَثين ومقدمهم وأسبقهم إلى طرق:أبواب المجون والخلاعة ، والغزل الرقيق الحضرى،والهجاء المقذع. ثم إنه أوّل من تعاطى البديع ، فجمع بين جزالة العرب ورقة المحدثين .

حياة أبى العتاهية

[نسبه] : هو إسماعيل بن القاسم بن سُوَيْد بن كَيْسَان مولى عَنَزة ، وكنيته أبو إسحق ، وأمه أم زَيْدٍ بنت زيادٍ المحاربى مولى بنى زُهْرة .

---

(١) الوجعا : مقصور الوجعاء ، وهى الدبر .

وقد ذكر محمد بن أبى العتاهية أن جدهم كَيْسان كان من أهل عين التمر ، وهى بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة غزاها خالد بن الوليد أيام أبى بكر رضى الله عنه ، فجىء به صغيراً يتيما إلى أبى بكر ، وكان بحضرته عَبّاد بن رِفاعة العَنَزِىّ ، فلما عرف أنه من عَنَزة استوهبه من أبى بكر ، فوهبه له فأعتقه ، فصار ولاؤه فى عَنَزة منذ ذلك الحين .

ومن ذلك يتضح أن أبا العتاهية من أصل عربى ليست آباؤه أعلاجا ، وقد حدّث أن رجلا من أهل الكوفة سبّه يوما بأنه نبَطى ، فجرت بينهما مشاجرة سال فيها دم أبى العتاهية ، فأقبل على سيدى عَنَزة إذ ذاك وهما مَندل وأخوه حيان ، فشكا لهما ما يتهمه به هذا الرجل ، وقال لهما : إن كنت نبَطياً هربت على وجهى وإلا فخذا لى بحقى ، فقام معه مَنْدل وما تعلق نعله غضباً وقال : والله لو كان حقك على عيسى ابن موسى (والى الكوفة إذ ذاك) لأخذته لك منه ومرّ معه حتى أخذ حقه .

ولم تصحب أبا العتاهية هذه الكنية منذ نشأته ، ولكنها جدّت له بعد أن قال الشعر وعرف شأنه . فقد ذكروا أن المهدى قال له يوماً : أنت إنسان متحذلق معته . فاستوى له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه ، ويقال للرجل المتحذلق : عتاهية . وذكر صاحب لسان العرب أنه إنما لقب بذلك لأن المهدى قال له : أراك متخلطا متعتها ، وكان قد تعته بعُتْبة جارية المهدى. وقيل لقب بذلك لأنه كان طويلا مضطرباً.

وكان أبو العتاهية من أهل المذار ، وهى بلدة بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام . وإن أباه انتقل به إلى الكوفة . وكانت صناعة أبيه عمل الجرار فنشأ فيها أبو العتاهية.

وحديث اشتغاله بهذه الصناعة مضطرب مختلط ، فيقول بعضهم : إنه كان له ولأخيه زيد ، عبيد يعملون لهم الخزف فى أتون لهم ، فإذا اجتمع منه شىء ألقوه على أجير لهم يقال له أبو عباد ، فيبيعه على يديه ويردّ إليهم فضله ، وقيل : بل الذى كان يفعل ذلك أخوه زيد لا هو . وقد سئل عن ذلك أبو العتاهية ، فقال : أنا جرار القوافى ، وأخى جرار التجارة . ويحدّث بعض أنه شاهد أبا العتاهية وهو جرار يأتيه الأحداث

والمتأدبون فينشدهم أشعاره فيأخذون الخزف المتكسر ، ويكتبون فيه ما يسمعون منه . ويحدّث آخر فيقول : إن أبا العتاهية كان يجتاز أسواق الكوفة وعلى ظهره قفص فيه فخار فيبيع منه ، وقد مرّ بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه فسلم ووضع القفص عن ظهره وقال : يافتيان أقول شعراً ولكم إن أجزتموه عشرة دراهم ، وإن لم تفعلوا فعليكم مثلها ، ثم قالوا : قل ولك شرطك ، فقال :

ساكنى الأحداث أنتم . . . .

وجعل بينه وبينهم وقتا فلم يفتح عليهم بشىء ، فتممه هو وقال :

. . . . مثلنا بالأمس كنتم
ليت شعرى ما صنعتم أربحتم أم خسرتم

والذى نقوله : انه لا طائل تحت هذا الخلاف ، فإن فضل الله يؤتيه من يشاء ، وليس بعجيب أن ينشأ أبو العتاهية فى عمل الجرار ، ويكون شابّا يبيعها ، ويدور بها فى الأسواق ، ثم هو بعد ذو موهبة شعرية شاء الله أن تظهر ، وأرادت عناية الخلفاء بالشعر واحتفالهم بشأنه أن يصبح أبو العتاهية جليسهم ونديمهم ، بل تصير له عليهم دالة فيشبب بجارية المهدىّ ولا يغير عليه ، ويشتدّ به العناد فيخالف رغبة الرشيد ، ويمتنع عن قول الشعر ، ويهتمّ لذلك الرشيد ، ويقلق ويحتال لأن يعود أبو العتاهية إلى سيرته فى قول الشعر فيأبى أوّلا ، ثم يقول فى الزهد لاغير ، وكانت رغبة الرشيد أن يعود إلى الغزل فلم يفعل .

فليس بعجيب أن ينبغ أبو العتاهية فى الشعر وليست له سابقة فى التعليم ، خصوصا إذا علمنا أنه عربىّ لايحتاج فى اللغة إلى تعلم ولامعاناة دراسة . فأماموهبة الخيال ، فهى سهلة المئونة ميسورة التحصيل .

ولم يرووا لأبى العتاهية شيئاً من شعر الصغر كما فعلوا بأبى نواس وبشار وغيرهما ، وهذا يرجح فى نظرنا أنه لم يقل الشعر إلا وقد تقدم فى السنّ . فعلى هذا يكون أحد

الشعراء الذين استحقوا لقب النبوغ فى الشعر ، فيكون كالذبيانى والجعدى

أوصافه ومعتقده

ذكروا من أوصافه الجسمية: أنه كان طويلا، دقيق العظام، خفيف اللحم ، أبيض اللون ، أسود الشعر ، له وفرة جعدة ، وهيئة حسنة . وكان مما يرى عليه فى حياته التقشف الزائد ، حتى كان أكثر حياته يلبس الكرابيس [1] أو خشن الشعر والصوف ، وربما غلا فلبس قَوْصَرّتين [2] يثقب إحداهما فيخرج منها رأسه ويديه ، ويقيم الأخرى مقام السراويل ، ويجتزئ بخبز الشعير ، ويأتدم بالخل ، وإذا قرم اجتزأ بالرءوس ، وهذا منه تقشف مخلوط بالبخل ، لأن داعية التقشف هى الزهد فى الدنيا ، وترك متاعها ، والصُّدوفِ عن محاسنها ، ولكنه جمع إلى التقشف الغرام بالمال ، وتعطيل الحقوق الواجبة فيه من زكاة وترفيه على الأهل والخدم .

وله فى البخل نوادر : ذكروا أنه أنشد يوما ثمامة بن أشرس قوله

إذا المرء لم يُعْتِقْ من المال نفسه ... تملّكه المالُ الذى هو مالكه

ألاَ إنّما مالى الذى أنا منفق ... وليس لى المالُ الذى أنا تاركه

إذا كنتَ ذا مال فبادِرْ به الذى ... يَحِقُّ وإلاّ استهلكته مهالكه

فقال له : من أين قضيت بهذا ؟ قال من قول رسول الله « إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدّقت فأبقيت » فقال له : أو تؤمن بأن هذا قول رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بَدْرَة فى دارك ولا تأكل منها ولا تزكى ولا تقدمها ذخرا ليوم فقرك وفاقتك ؟ قال : والله إنّ ما قلت هو الحق ولكن أخاف الفقر ، فقال له : وهل تزيد حال من افتقر على حالك وأنت دائم الحرص والجمع ، شحيح على نفسك لاتشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد ؟ فقال له :

---

(١) الكرابيس : جمع كرباس ، وهو ثوب من القطن الأبيض .

(٢) القوصرّة : وعاء التمر .

والله لقد اشتريت يوم عاشوراء لحما وتوابله بخمسة دراهم، قال ثمامة: فأضحكنى قوله حتى أذهلنى عن إجابته وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام .

وحدّث ثمامة أيضاً الجاحظ ، فقال له : دخلت على أبى العتاهية يوما ، فإذا هو يأكل خبزا بلا شىء . فقال له: كأنك رأيته يأكل خبزًا وحده . قال : لا ، ولكنى رأيته يأتدم بلا شىء . رأيت قدامه خبزًا يابساً وقدحا فيه لبن حليب ، فكان يأخذ القطعة من الخبز فيغمسها فى اللبن ثم يخرجها ولم تتعلق منه بقليل ولا كثير .

وكان له جار يلتقط النوى ، ضعيف سىء الحال ولكنه متجمل فى فقره ، فكان يمرّ بأبى العتاهية طرفى النهار فيقول أبو العتاهية : اللهم أعنه ، واصنع له ، وبارك فيه ، وبقى الرجل على ذلك نحوًا من عشرين سنة إلى أن مات ، وما إن تصدق عليه أبو العتاهية بدرهم ولا دانق . فقال لأبى العتاهية بعض أصدقائه يوما : إنى أراك تكثر من الدعاء لهذا الشيخ وتزعم أنه مقلّ فلم لم تتصدّق عليه بشىء ؟ قال: أخشى أن يعتاد الصدقة ، والصدقة آخر كسب العبد ، وإن فى الدعاء لخيراً كثيراً .

ووقف عليه يوما سائل من العَيَّارين(١) الظرفاء ، وكان أبو العتاهية فى جماعة من جيرانه فسأله دونهم ، فقال له : صنع الله بك فأعاد عليه السؤال كثيراً ، وهو يردّ عليه بمثل ذلك ، فقال له السائل : ألست القائل :

كلُّ حَيٍّ عند مِيتَتِهِ حَظُّهُ من ماله الكَفَنُ

ثم قال له : هل تريد أن تجعل مالك كله للكفن ؟ قال : لا . قال : فبالله كم قدّرت لكفنك ؟ قال : خمسة دنانير . قال : فهى إذًا حظك من مالك ؟ قال : نعم . قال : فتصدّق علىّ من غير حظك بدرهم واحد . قال : لو تصدّقت عليك لكان حظى . قال: فاعمل على أن ديناراً من الخمسة وَضِيعَتُهُ(٢) قيراط فادفع إلىّ قيراطاً واحداً . وإلا فواحدة أخرى . قال : وما هى ؟ قال : القبور تحفر بثلاثة دراهم فأعطنى درهما وأقيم لك

---

(١) العيار : الكثير الطواف ، والذى يتردد بلا عمل .

(٢) الوضيعة : الحطيطة .

كفيلا بأنى أحفر لك قبرك متى مت وتربح درهمين فإن لم أحفر رددته على ورثتك ، أو رده وكيلى ، فخجل أبو العتاهية وقال : اعزب لعنك الله وغضب عليك ، فضحك جميع من حضر ومر السائل يضحك . فالتفت أبو العتاهية إلى جيرانه وقال : من أجل هـــذا حرمت الصدقة ، فقالوا له : ومن حرمها ومتى حرمت ؟ فما رأينا أحداً ادعى ذلك قبلك ! !

وقيل له : هل تزكى مالك ؟ قال : والله ما أنفق على عيالى إلا من زكاة أموالى ، فقيل له : سبحان الله ! إنما ينبغى أن تخرج زكاة مالك إلى الفقراء والمساكين ، فقال : لو انقطعت عن عيالى زكاة مالى لم يكن فى الأرض أفقر منهم .

⁂

أما معتقده فأصدق مايوصف به أبو العتاهية : أنه كان مضطرب المزاج ، مبلبل الخاطر ، لا يميل إلى رأى إلا ريثما يتحول عنه إلى غيره ، وكان يعتقد المعتقد ، فإذا سمع طاعنا عليه ترك اعتقاده وأخذ بغيره ، ذكروا أنه كان يتشيع على مذهب الزَّيْدِيَّة البَتَرِيَّة (١) لا يتنقص أحـــداً ، ولا يرى الخروج على السلطان ، وكان مُجْبَرًا (٢) مرة ومعتزلياً أخرى .

وكان اضطرابه فى معتقداته صورة من اضطرابه فى حياته ، وذلك نتيجة تركيب خاص فى مزاجه ، فإن من غلبت عليه السوداء تنقل من أحواله بين الأضداد وبالغ فيما يأتيه أتم مبالغة ، فهو مثلا: إما نشيط إلى درجة الجنون ، وإما كسلان إلى قريب من الجمود أو الموت . وهكذا كان أبو العتاهية ، فقد كان ماجنا مفككا حتى كان يحمل

---

(١) الزيدية: فرقة نسبت إلى زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب تقصر الامامة على أولاد فاطمة ولا تجيزها فى غيرهم . والبترية : طائفة منهم أصحاب (كثير النوى) الأبتر ، توقفوا فى أمر عثمان أهو مؤمن أم كافر ، وفضلوا عليا على جميع الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أجبرته : نسبته إلى الجبر ، وهو القول بأن العباد مجبورون على أفعالهم .

زاملة[1] المخنثين بالكوفة و يتبعهم ، ثم صار عاشقاً مدلها ، ثم انتهى إلى النسك الذى حرّم معه قول الشعر جملة ، ثم عاد منه إلى الزّهد تاركاً الغزل والهجاء .

والذى يظهر أيضاً أن لجهل أبى العتاهية أثراً فى تردّده بين المذاهب حتى كان أقل طعن فى المذهب الذى يدين به يدعوه إلى هجرانه والبحث عن غيره ، وهذا شأن المقلد الذى لا يرجع إلى عقيدة راسخة ورأى يدعمه بالبرهان ، و يستخلصه بمحض فكرته .

هــذا ومما يؤيد رأينا الذى قلناه من أنه نبغ فى الشعر بعد أن نشأ فى العامية ، ولقد عرف معاصروه عنه هذا الجهل ، فقد قال له أحد جيرانه مرّة : لاتصلّ خلف فلان فإنه مشبه ، فقال : كلا ، إنه قرأ بنا البارحة : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » . قال صاحبه : فعرفت أنه أجهل الناس حين ظنّ أن المشبه لا يقرأ « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » .

وكان أبو العتاهيــة كثيراً ما يعارض ثمامة بن أشرس ، فقال له يوما بين يدى المأمون أسألك عن مسألة ، فقال له المأمون : عليك بشعرك ، فقال : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى مساءلته و يأمره بإجابتى ، فقال : أجبه يا أشرس ، فقال أبو العتاهية ، (وهو فى هذا يعبر عن رأيه فى الجبر) : إن كلّ ما يفعله العباد من خير وشرّ فهو من الله وأنت تأبى ذلك ، فمن حرك يدى هذه وجعل يحرك يده ؟ فقال له ثمامة : حركها من أمه زانية . قال : شتمنى والله يا أمير المؤمنين ، فقال ثمامة ناقض قوله ! ! فضحك المأمون وقال : ألم أقل لك أن تشتغل بشعرك وتدع ما ليس من عملك .

علاقته بالخلفاء وغيرهم

نشأ أبو العتاهية بالكوفة كما علمت ، وما زال حتى اشتهر بالشعر فقصد بغداد ، وهى كعبة كلّ نابغ فى أىّ ناحية من نواحى النبوغ ، وفيها اتصل بالمهدى وزادت علاقته به ، حتى صار يخرج معه فى نزهاته للصيد وغيره ، و بلغ من أنس المهدى أنه طالبه

---

(١) المزملة : جرة يبرّد فيها الماء ، ولعل الزاملة محرفة عنها ، أو هى عاميتها عند أهل الكوفة .

بأن يهجوه لأن غرامه بالصيد عرضه للهلاك مرّة ، وكان معه أبو العتاهية فأضافهما ملاح ، وكاد المهدى يموت برداً ، فامتنع أبو العتاهية حتى ألحّ عليه المهدى . فقال :

يالَابسَ الوَشْيِ على ثَوْبِهِ ماأقبحَ الأَشْيَبَ فى الرَّاحِ

فقال : زدنى بحياتى ، فقال :

لو شئتَ أيضاً جُلْتَ فى خامة وفى وِشاحَيْنِ وأَوْضاح[1]

فقال : ويحك ! هذا معنى سوء يرويه عنك الناس . زدنى ، فقال : أخاف أن تغضب فقال : لا ، فقال :

كم من عظيم القدر فى نفسه قد نام فى جُبَّــــة مَلَّاح

وبلغ من منزلته فى بيت المهدى أن المنصور بن المهدى خطب إليه ابنته المسماة «لله» ، وكان له بنتان هذه ، وأخرى اسمها « بالله » ، فلم يقبل أن يزوّجه وقال : إنما طلبها لأنها بنت أبى العتاهيــــة وكأنى بها قد ملها ، فلم يكن لى إلى الانتصاف منه سبيل ، وما كنت لأزوّجها إلا بائع جرار ، ولكنى أختاره لها موسراً .

كما بلغ من دالته على المهدى أن أحبّ عتبة جارية الخيزران ، وأكثر من ذكرها فى شعره ، فلما همّ المهدى باستنزال سيدتها عنها ليهبها له ، استغاثت السيدة والجارية بالمهدىّ فألهاه عنها بالمال ، ولكنه لم يفتر عن ذكرها .

وكان الهادى والرشيد يتنافسان فى تقريبه أيام أبيهما ، وكان صغو أبى العتاهية مع الرشيد ، فكان الهادى عاتباً عليه ، فلما ولى الخلافة لم يكن أسرع من رضاه عنه بعد أن مدحه بقوله :

يضطرب الخوف والرجاء إذا حَرَّكَ موسى القضيبَ أو فَكَّرْ
ما أبين الفضـــل فى مغيب ما أَوْرَدَ من رأيه وما أَصْــدَرْ
فكم ترى عَزَّ عنـد ذلك من مَعْشَرِ قوم وذَلَّ مِن مَعْشَرْ
يُثْمِرُ من مَسِّــه القضيبُ ولو يمســـــه غيره لما أثمر

(١) الخامة : ثوب من قطن لم يغسل . الأوضاح : حلىّ من فضة ، أو الخلاخيل .

مَنْ مثلُ موسى ومثلُ والده الـــمهدى أو جَـــدِّه أبى جعفر

ولما ولى الرشيد الخلافة كان له مع أبى العتاهية حديث طويل . فقد بلغ من ملازمته له أنه لم يكن يفارقه فى سفر ولا حضر إلا فى طريق الحج ، وكان يجرى عليه كلّ سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمعاون . وقد بلغ من إعجاب الرشيد به أن حرم جميع الشعراء مرة ، ولم يعط إلا أبا العتاهية حين أنشده :

يا من تُبَغِّى زمنا صالحاً   صلاح هٰرون صلاح الزمن
كلُّ لسان هو فى ملكه   بالشكر فى إحسانه مُرْتَهَنْ

وكان لهٰرون ابن يسمى القاسم ، وكان من أتيه الناس ، فمرّ يوما فى موكب عظيم بأبى العتاهيـــة ، فقام له إعظاماً ، فلم يزل قائما حتى جاز ، فلما لم يلتفت إليه . قال أبو العتاهية فيه :

يَتيهــه ابنُ آدم من جهله   كأنّ رَحَى الموت لا تَطْحَنُهْ

فلما بلغ ذلك القاسم أحضره وضربه مائة مقرعة وحبسه فى داره ، فلما ضاق عليه الحبس أرسل إلى زبيدة ، وكانت توجب له حقه ، هذه الأبيات :

حتى متى ذو التِّيه فى تِيهِهِ   أصلحـــــه اللّٰهُ وعافاه
يتيه أهل التيه من جَهْلِهِمْ   وهم يموتون وإن تاهوا
من طلب العزّ ليبقى به   فإن عزّ المرء تقواه
لم يعتصم بالله من خلقه   من ليس يرجوه ويخشاه

ووصف لها ضيق حبسه ، فرقت له وأخبرت الرشيد بأمره ، فأحضره وكساه ووصله ، ولم يرض عن القاسم حتى برّه واعتذر إليه

وفى أيام الرشيد عرضت لأبى العتاهية حال تزهد بعدها . وذلك أنه طلب من مخارق المغنى أن ينقطع إليه يومًا ليغنيه فى شعره ، فما زال يغنيه حتى صارت العتمة ، ثم أمر أبو العتاهية ابنه وغلامه ، فكسرا آنية الشراب وآلة الغناء ، ثم أمر بإخراج ماعنده من النبيذ وصبه وصار يبكى حتى لم يبق من ذلك شىء ، ثم غسل ثيابه واغتسل

ولبس ثياباً من صوف أبيض وأعلن تنسكه ، وامتنع عن قول الشعر وحضور المنادمة ، فشقّ ذلك على الرشيد ، ولما لم يفلح فى ردّه عن هذه الحال أمر بضربه ستين عصا وسجنه ، وحلف ألا يخرج من حبسه حتى يقول الشعر فى الغزل ، فلما رفعت المقارع عن أبى العتاهية قال : كلّ مملوك له حرّ ، وامرأته طالق إن تكلم سنة إلا بالقرآن ، أو بلا إله إلا الله محمد رسول الله ، فكأن الرشيد تحزن مما فعله ، فأمر أن يحبس فى دار ويوسع عليه ، ولا يمنع من دخول من يريد إليه فأقام السنة لايَحْنَثُ فى حِلْفَتِه ، وكان أوّل كلامه بعدها قوله فى امرأته :

من لقلبٍ مُتَيَّمٍ مشتاق شَفَّه شوقُه وطولُ الفراق
طال شوقى إلى قعيدة بيتى ليت شعرى فهل لنا من تَلاقِ
هِىَ حَظِّى قد اقتصرت عليها من ذوات العقود والأطْوَاق
جمع الله عاجلا بكِ شَمْلى عن قريب وفَكَّنى من وَثاقى

فلما سمع الرشيد الشعر قال لمسرور الخادم : كم ضربنا أبا العتاهية ؟ قال : ستين عصا ، فأمر له بستين ألف درهم وخلع عليه . وكان فى أيام حبسه لا يفتر عن ذكره ويشعر بالحاجة إليه فى مقامات لا يغنى فيها غيره ، فقد كان مرّة يسمع الغناء من جارية ومعه جعفر بن يحيى ، وكان الغناء فى بيت واحد ، فقال الرشيد : ما أحوجه إلى ثان ليطول فيه الغناء فنستمتع مدة ، فقال جعفر : قد أصبته . قال : من أين ؟ قال : تبعث إلى أبى العتاهية فيلحق لك به غيره لقدرته على الشعر ؛ فقال : هو أنكد من ذلك لايجيبنا وهو محبوس ونحن فى نعيم وطرب ، ثم كتب إليه بالقصة ، فكان ردّ أبى العتاهية :

ولقد كلفت أمراً عجباً أسأل التفريج من بيت الحزن

فلما وصلت الرشيد قال : قد عرفت أنه لا يفعل ، فقال له جعفر : تخرجه حتى يفعل . قال : لا حتى يَشْعُرُ فقد حلفت ، ثم رضى أبو العتاهية بالعودة إلى قول الشعر تاركا الغزل والهجاء ، واستمرّ على حاله هذه مدّة الأمين وشطراً من أيام المأمون حتى مات سنة ٢١١ هـ ، وكانت ولادته بالكوفة سنة ١٣٠ هـ ، فيكون عمره إحدى وثمانين سنة ، ولكنه يقول فى شعره إنه عاش تسعين حجة كما سيأتى .

وقد بلغ من شأن شاعر كأبى العتاهية أعجب به الخلفاء وأعلوا منزلته أن يتنافس الناس فى الحرص على أن يكون لهم نصيب من شعره ، فمدح الفضل بن الربيع ، وكان قبل ذلك قد مدح الرشيد فأمر له بعشرين ألف درهم ، فلما مدح الفضل ثانى يوم بقوله :

إذا ما كنت متخذا خليلا   فمثلَ الفضل فاتَّخِذِ الخليلا
يرى الشكر القليل له عظيما   ويعطى من مَوَاهبه الجزيلا
أرانى حيثما يممّتُ طَرفى   وجدت على مكارمه دليلا

فقال له : لولا أن أساوى أمير المؤمنين لأعطيتك مثلها ، ولكن سأوصلها إليك فى دفعات ، وأعطاه فى ذلك اليوم خمسة آلاف درهم .

وكان الفضل بن الربيع من أميل الناس إليه حتى سمعه يتحدث عن البرامكة فتغير عليه ولم ير منه خيراً بعد ذلك . وكانت له منزلة عند عبد الله بن الحسن بن سهل ، وكان يقول : لئن ضرّك عند ابن الربيع ذكر البرامكة لقد نفعك عندنا ، وأجرى له فى كلّ شهر ثلاثة آلاف درهم .

وممن مدحهم يزيد بن مَزْيَد ، ومما قال فيه :

كأنك فى صدرى إذا جئتُ زائراً   تُقدِّر فيـــه حاجتى بابتدائكا
وإن أمير المؤمنين وغـــيره   ليعلم فى الهيجاء فضـل غنائكا
كأنك عند الكرِّ فى الحرب إنما   تَفِرُّ من السلم الذى من ورائكا
فما آفة الأملاك غَيْرُك فى الوغى   ولا آفة الأموال غـيرُ حِبائكا

فأعطاه عشرة آلاف درهم ودابة بسرجها ولجامها .

واتصل بعمر بن العلاء ممدوح بشار . ومما قال فيه :

إن المطايا تشتكيك لأنها   قطعتْ إليك سَباسِباً ورمالا
فإذا وَرَدْنَ بنا وَرَدْنَ خفائفاً   وإذا صَدَرْن بنا صَدَرْن ثِقالا

وكان يزيد بن منصور خال المهدى يحبه ويقربه ويتعصب له ، فلما مات رثاه بقوله :

أَنْعَى يزيد بن منصور إلى البشر   أَنْعَى يزيد لأهل البدو والحَضَرِ

يا ساكنَ الحفرةِ المهجورِ ساكنُها ... بعد المقاصر والأبوابِ والحجرِ

وجدتُ فقدَكَ فى مالى وفى نَشَبى ... وجدت فقدك فى شعرى وفى نَثَرى (١)

فلستُ أدرى جزاكَ الله صالحةً ... أمنظرى اليوم أسْوَا فيك أم خَبَرى

وكان منقطعاً إلى خالد المسكين ابن أبى جعفر المنصور قال : فاستفدت من ناحيته مائة ألف درهم ، وكان لى فى مجلسه مرتبة لايجلس فيها أحد غيرى .

وقد اتصل بعبد الله بن معن بن زائدة فمدحه وذمه ، وكان سبب ذمه : أن أبا العتاهية كان يهوى امرأة نائحة لها حسن ودمائة ، وكان ممن يهواها أيضاً عبد الله ابن معن . ومما قاله أبو العتاهية فى ذمه بعد أن ضربه عبد الله ومثل به عبيده قوله :

جَلَدَتْني بكفها ... بنتُ معن بن زائدَهْ

جلدتنى بكفها ... بأبى تلك جَالِدَهْ

وتراها مع الخَصِيْ ... يِ على الباب قاعده

تَتَكَنَّى كُنَى الرجا ... ل لعَمْدٍ مُكَايِدَهْ

جلدتنى وبالغت ... إنما أنتِ والده

وقال فى هذا المعنى أيضاً :

قال ابن معن وَجَلاَ نفسه ... على من الجلوة يا أهلى

أنا فتاةُ الحىِّ من وائل ... فى الشرف الشامخ والنُّبل

ما فى بنى شيبان أهل الحجا ... جاريةٌ واحدةٌ مثلى

ويلى ويالهفى على أمْرَدٍ ... يلصق منى القُرْط بالحِجْلِ

صافحته يوما على خَلْوةٍ ... فقال دع كفى وخذ رجلى

---

(١) النشب . المال الأصيل من الصامت والناطق . النثر . محركة (للشعر) هو النثر (خلاف الشعر)

شعر أبى العتاهية

سنتناول من شعره أمرين : الأسلوب ، والأغراض .

فأما الأسلوب فهو ذلك السهل اللين الذى بلغ الغاية من اللين والسهولة ، حتى كادت ألفاظه تدقّ عن مخارج الحروف ، فلا تتحرّك بها أعضاء الفم انسياغا وذلاقة ، وتلطف فى الأذن حتى كأنها لا وقع لهـا عليها .

ولم يأته ذلك الفضل من ناحية الخلوّ من الغريب ، وتوخى الكلمات الخفيفة فحسب ، ولكنه جاءه كذلك من ناحية الملكة الصَّناع الحاذقة فى إبراز المعنى فى أشفّ الألفاظ وأقرب الدلالات ، فالحكمة التى لا يستطيع غيره إبرازها إلا فى أسلوب يَكُدُّ له خاطره وخاطر السامع حتى يقرّ معناها فى نفسه ، ويوصل حقيقتها إلى وجدانه ، تراه قد عمد إليها من أيسر نواحيها ، والتمس لهـا أقرب طرق الأداء ، فاستغنى معناها العظيم بأقلّ لفظ وتراءى فى أسهل تعبير ، ويكاد ينهى إليك المعانى مستقلة بنفسها ، عارية عن ثوب اللفظ ، لو صحّ أن يتماسك ماء بلا إناء ، وإن شئت فقل : إن معناه يجتمع له الوضوح والنصوح ، ويتمّ للفظه الشفوف والصفاء ، فكأنما معنى ولا لفظ كما يرقّ الزجاج وتروق الخمر ، فكأنما خمر ولا قدح ، أو قدح ولا خمر .

وهذه السهولة من السحر الذى كان يرقى به أبو العتاهية جميع الناظرين فى شعره أو السامعين له ، فتراهم وقد ملكهم من الحسن شىء لم يألفوا أن يكون له عليهم سلطان ، فإنما المألوف أن يكون السلطان للفظ الفخم فى الأداء ، البادى الرواء ، الذى عولج بأصباغ البديع ، فبدا عذبًا فى الفم ، حلوًّا فى السمع ، فأما اللفظ العطل من الرواء، المؤدّى بلا عناء ، فذلك مالم تألف النفوس الإعجاب به قبل مذهب أبى العتاهيـة ، والتماسه الجمال فى البساطة ، والروعة فى السذاجة .

وإذا كان للانطباع على قول الشعر مقياس وجب أن يستولى أبو العتاهية على

غايته ، و يصل إلى نهايته على حين يقف أغلب الشعراء المطبوعين عند نصف الشوط ، لأن الانطباع فى أبى العتاهية جعله بحيث يتحدث عن نفسه ، فيقول لمن سأله : كيف تقول الشعر ؟ ما أردته قطّ إلا مثّل لى فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد . و يقول فى معرض آخر : لو شئت أن أجعل كلامى كله شعراً لفعلت .

و إذا كان من السهولة سهولة متكلفة ، أو من الرقة رقة مصطنعة ، فإن سهولة أبى العتاهية ورقته هما ذلك النوع البرىء الذى لايتعلق به عيب ، ولايوجه إليه نقد .

وقد عابه قوم بهذا المذهب فى القول (وهو أظهر فضائله) فاتهم رجل شعره بالضعف فى مجلس ابن الأعرابى ، فقال له : الضعيف والله عقلك لاشعر أبى العتاهية ، ألأبى العتاهية تقول هـذا ؟ فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت ، منه . وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر ، ثم أنشد له :

قطعت منك حبائل الآمال　　　وحططت عن ظهر المطىّ رحالى
ووجدت برد اليأس بين جوانحى　　　فأرِحْتُ من حَلّ ومن ترحال
يأيها البطر الذى هو من غد　　　فى قبره متمزّق الأوصال
حذف المنى عنه المُشَمِّرُ فى الهدى　　　وأرى مناك طويلة الأذيال
حِيَلُ ابنِ آدم فى الأمور كثيرة　　　والموت يقطع حيلة المحتال
قستُ السؤال فكان أعظم قيمة　　　من كلّ عارفة جرت بسؤال
فإذا ابتليتَ ببذل وجهك سائلا　　　فابذُله للمتكرم المفضال
و إذا خشيت تعذراً فى بلدة　　　فاشدد يديك بعاجل الترحال
واصبر على غِيَرِ الزمان فإنما　　　فرج الشدائد مثل حَلّ عقال

ثم قال للرجل : هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا القول ؟ فقال الرجل : إن الزهد مذهب أبى العتاهية وشعره فى المديح ليس كشعره فى الزهد ، فقال : أو ليس هو الذى يقول فى المديح ؟ :

وهارونُ ماءُ المُزْنِ يُشْفَى به الصَّدَى إذا ما الصَّدِى بالريق غَصَّتْ حناجره
وأوسط بيت فى قريش لبيته وأوّل عزّ فى قريش وآخره[1]
وزَحْفٍ له تحكى البروق سيوفُه وتحكى الرُّعودَ القاصفات حوافره
إذا حَمِيَتْ شمسُ النهار تضاحكت إلى الشمس فيه بَيْضُه ومغافره[2]
ومن ذا يفوت الموتَ والموتُ مُدْرِكٌ كذا لم يفت هرون ضدٌّ ينافره

فلم يجد الرجل مخلصا من ابن الأعرابى إلا أن يقول له: القول ماقلت، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين ولا كتبتهما عنه .

وقد اجتمع أبو العتاهية ومسلم بن الوليد فى بعض المجالس ، فجرى بينهما كلام ، فقال له مسلم : والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك :

الحمـــد والنعمة لك والملك لا شريك لك

* لبيك إن الملك لك *

لقلت فى اليوم عشرة آلاف بيت ولكنى أقول :

مُوفٍ على مُهَجٍ فى يوم ذى رَهَجٍ كأنه أجَلٌ يســـعى إلى أمل
ينال بالرِّفْقِ ما يَعْيَا الرجالُ به كالموت مُسْتَعْجِلاً يأتى على مَهَل
يكسو السيوفَ نفوسُ الناكثين به ويجعل الهامَ تيجانَ القنا الذُّبُلِ
لله من هاشم فى أرضـــه جبلٌ وأنت وابنك رُكْنا ذلك الجبل

فقال أبو العتاهيـــة قل مثل قولى : « الحمد والنعمة لك » أقل مثل قولك : « كأنه أجل يسعى إلى أمل » .

وتذاكر الناس يوماً شعر أبى العتاهية بحضرة الجاحظ إلى أن جرى ذكر أرجوزته

---

(١) أوسط . أرفع وأشرف .

(٢) البيض : جمع بيضة ، وهى الخوذة من الحديد تلبس على الرأس . المغافر: جمع مغفر . وهو زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يجعل تحت القلنسوة .

المزدوجة التى سماها « ذات الأمثال » ، فأخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابى روائح الجنة فى الشباب

فقال الجاحظ للمنشد : قف ، ثم قال انظروا إلى قوله : «روائح الجنة فى الشباب» ، فإن له معنى كمعنى الطرب الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة ، إلا بعد التطويل ، وإدامة الفكر . وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه .

وكان مصعب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس ، فقيل له بما استحق عندك ذلك ؟ قال بقوله :

تعلقتُ بآمالٍ طوالٍ أىّ آمالِ
وأقبلت على الدنيا مُلِحًّا أى إقبال
أيا هذا تجهز لـ ـفراق الأهلِ والمال
فلا بُدَّ من الموت على حال من الحالِ

قال مصعب : فهذا كلام سهل حقّ لا حشو فيه ولا نقصان ، يعرفه العاقل ويقرّ به الجاهل .

واستنشد بعضهم سَلْما الخاسر شيئاً من شعره ، فقال : لا ، ولكنى أنشدك لأشعر الجن والإنس .

ثم أنشده :

سَكَنٌ يبقى له سكن ما بهذا يُؤْذِنُ الزَّمَنُ[1]

(١) السكن : الأولى بمعنى المسكن والمنزل . والثانية بمعنى السكان، وهى فى الأصل السكن (بالفتح) وقد حركت هنا للشعر، أو تكون بالتحريك على أصلها بمعنى تعمير الدار ويكون ذلك بسكناها : والمعنى لا يبقى لدار عمار بسكانها .

نحن في دار يُخَبِّرُنا　　بيلاها ناطقٌ لَسِنُ
دار سَوْءٍ لم يدم فَرَحٌ　　لامرئٍ فيها ولا حَزَنُ
في سبيل الله أنفسُنا　　كلُّنا بالموت مُرْتَهَنُ
كلُّ نَفْسٍ عند مِيتَتِها　　حظُّها من مالها الكَفَنُ
إنّ مالَ المرءِ ليس له　　منه إلاّ ذِكْرُهُ الحَسَنُ

أما الأغراض التي تناولها أبو العتاهية في شعره، فهي جميع أغراض الشعر: من مدح، وهجاء، ورثاء، وغزل. وزهد. تجلى فيها جميعاً طبعه السهل ومعناه القريب.

ومدحه هو الذي أدرّ عليه ذلك الرزق الواسع والغنى العريض، حتى كان له من وفره يوما ما سبع وعشرون بدرة، والبدرة: عشرة آلاف درهم، ولم يصل إلينا خبر الثروة التي مات عنها، ولابدّ أن تكون عظيمة لما علمت من شحه وكثرة مايصل إليه من الخلفاء وغيرهم.

ومن مدحه الذي لم يمرّ بك قوله لما عقد الرشيد ولاية العهد لبنيه الثلاثة: الأمين، والمأمون، والمؤتمن:

ورَاعٍ يُرَاعِي الليلَ في حفظ أُمَّةٍ　　يدافع عنها الشرّ غَيْرَ رَقُود
بألويةٍ جبريلُ يَقْدُمُ أهْلَها　　وراياتُ نَصْرٍ حولَه وجُنودُ
تَجافَى عن الدنيا وأيْقَنَ أنها　　مُفارَقَةٌ ليستْ بدار خُلودِ
وشَدَّ عُرَى الإسلامِ منه بفِتْيَةٍ　　ثلاثةِ أملاكٍ وُلاةِ عُهُودِ
همو خير أولادٍ لهم خيرِ والدٍ　　له خيرِ آباءٍ مضتْ وجدودِ
بنو المصطفى هٰرونَ حولَ سريره　　فخيرُ قيامٍ حوله وقعودِ
تُقَلِّبُ ألحاظَ المهابةِ بينهم　　عيونُ ظباءٍ في قلوب أسودِ
جدودهمو شمسٌ أتت في أهِلَّةٍ　　تبدَّتْ لراءٍ في نجوم سُعُودِ

فوصله الرشيد بصلة ماوصل مثلها شاعرًا قطّ .

وولد للهادى ولد فى أوّل يوم ولى الخلافة ، فدخل أبو العتاهية وأنشده :

أَكْثَرَ موسى غَيْظَ حُسَّادِهْ وزيَّنَ الأرضَ بأولاده
وجاءنا من صلبه سيد أصيد فى تقطيع أجداده
فاكتستِ الأرضُ به بهجة واستبشر المُلْكُ بميلادِهْ
وابتسم المنبر عن فَرْحَةٍ عَلَتْ به ذِرْوَةُ أعواده
كأننى بعد قليلٍ به بين مواليه وقُوَّادِه
فى مَحْفِلٍ تخْفِقُ راياته قد طَبَّقَ الأرضَ بأجناده

فأمر له موسى بألف دينار وطيب كثير ، وكان ساخطاً عليه فرضى عنه .

أما هجاؤه ، فقد كان ممضا يشتدّ معناه فى لين ألفاظه ، فيكون آلم للمهجوّ وأسير على الألسنة . وقد مرّ بك هجاؤه لعبد الله بن معن ، فانظر كيف تراه قد جاءه من ناحية لم ينتبه إليها غيره فى الهجاء ؟ وتلك هى ادعاء أنه أنثى ، ولا يليق بها إلا أن تجلى على البعل ، وقد استقصى هذا المعنى فكان أمضّ شىء وأوجعه .

ومما قال فيه فى معنى قِصَرِ باعه وقعوده عن المجد :

أَلاَ قلْ لابن مَعْنٍ ذا الْـلَذِى فى الودِّ قد حالا
لقد بُلِّغْتُ ما قَالَ فما بَالَيْتُ ما قالا[1]
ولو كان من الأُسْدِ لما صال ولا هالا
فصُغْ ما كنت حَلَّيْتَ به سيفك خلخالا
وما تصنع بالسيف إذا لم تَكُ قَتَّالا
ولو مَدَّ إلى أذنيه كَفَّيْهْ لما نالا

(١) تهدد عبد الله بن معن أبا العتاهية وخوفه ونهاه أن يتعرض لمولاته سعدى ، فهذا مايشير إليه أبو العتاهية بقوله : لقد بلغت . . .

قصيرُ الطُّول والطِّيلـــة لا شبّ ولا طالا[1]
أرى قومـك أبطالا وقد أصبحتَ بَطَّالا

❊

وفى رثائه رنة الأسف ، وقد أجاد فيه لقربه من المذهب الذى اختصّ به ، وكان فيه علماً مرفوعاً ، وناراً مشبوبة ، وهو مذهب الزهد والزراية بشأن الدنيا ونعيمها .

ومن رثائه ما قاله فى صديقه علىّ بن ثابت فقد حضر وهو يجود بنفسه ، وما زال ملتزما له حتى فاضت روحه ، فبكى طويلا وقال :

أشريكى فى الخـير قرَّبك الله فنعم الشريكُ فى الخـير كنتا
قد لعمرى حَكَيْتَ لى غُصَص المو ت فحرَّكتنى لهـا وسَكَنْتَا

ولما دفن وقف على قبره ، فبكى طويلا ، ثم جعل يردّد هذه الأبيات :

ألا من لى بأنســك يا أُخَيَّا ومن لى أن أُبثَّك ما لديّا
طَوَتْك خطوبُ دهرك بعد نشرٍ كذاك خطوبُه نشرًا وطَيّا
فلو نشرت قواك لى المنـايا شكوتُ إليك ما صنعتْ إليّا
بكيتُك يا علىُّ بدمع عيـنى فما أغنى البكاء عليك شيّا
وكانت فى حياتك لى عظاتٌ وأنت اليومَ أوعظُ منك حَيّا

أما الغزل فى شعره فمجال واسع أعاد فيه وأبدى . وكان من خفة وقعه ، وحلاوة مذاقه ، وصفاء ديباجته أن كان المهدى يسمعه منه فى جاريته عتبة فيقبله ويجيزه عليه ، ولقد رثى لحاله فى عشقها حتى رجا سيدتها فى النزول عنها،فاستغاثت به السيدة والجارية ألا يفعل ، فترضاه عنها بالمال الكثير ولكنه استمرّ ينسب بها .

---

(١) الطيلة : العمر .

ولما تنسك وكان من مقتضى نسكه أن يحرم على نفســه الغزل شقّ ذلك على الرشيد كلّ مشقة حتى ضربه وحبسه ، فلولا أنّ فى غزل أبى العتاهية ناحية من الحسن وضربا من اللذة لم يجدها الرشيد فى غزل غيره ماجزع كلّ هذا الجزع ، ولا ارتكب معه كلّ هذا العنف فى حمله على تلك الخطة .

ونستطيع أن ندلّ على سبب هــذا التأثير العجيب فى غزله بأن نقول : إن نشأة أبى العتاهية فى المجون والتفكك ، وملازمة المخنثين وحمله زاملتهم فى طرق الكوفة رقق من طبعه ، ونحى فى غزله جزءًا من رجولته ، فصار كزير النساء ، وهو أرقّ الناس خطابًا لهنّ ، وأعرفهم بمـا يعلق بقلوبهنّ و يدور بخلدهن ، كذلك لين طبعه فى القول وسهولة لفظه جعلا لغزله رقة لم تكن لغــيره ، وهى أوّل ما يراعى فى الغزل حتى لنرى الشاعر إذا كان غليظ القول جاسيه ، أغنى فى مقام الفخر ووصف الحروب ، وقصر فى هذا الباب لمـا يحتاج إليه من بيان و إسجاح .

وسبب ثالث ، وهو ما عرفت من غلبة السوداء على أبى العتاهية ، فيكون شأنه المبالغة فى كلّ ما يتناوله والإلحاح فى جميع ما يعرض له ، لأن غلبة السوداء شــعبة من الجنون ، والحبّ إذا خالطه شيء من هذا اشتعلت ناره ، واشتدّ أواره . وهكذا كان حبّ أبى العتاهية ليس فيه هوادة ، ولا لجموحه ضابط ، وفى التعبير عن مثل هذا الحبّ حرارة لا تجدها فى غزل منبعث عن نفس فاترة وغرام هادئ .

ومن قوله فى عتبة :

أحمدٌ قال لى ولم يَدْرِ ما بى ... أتُحِبُّ الغــداةَ عُتْبَةَ حَقّا
فتنفّسْتُ ثم قلتُ نعم حُبْـــبًا جرى فى العروق عرقا فعرقا
لو تَجُسِّــــــين يا عتيبة قلبى ... لوجدتِ الفؤادَ قَرْحا تَفَقّا
قد لعمرى ملّ الطبيب وملّ الْـــأهل منى ممـا أقاسى وألقى
ليتنى مُتُّ فاسترحت فإنى ... أبدا ماحَيِيتُ منها مُلَــــــقّى

ومن قوله فيها :

يا عُتْبَ سيدتى أما لك دين حتى متى قلبى لديك رهين

وأنا الذلولُ لكلّ ما حَمَّلتِنِى وأنا الشـقِىُّ البائسُ المسكينُ

وأنا الغداةَ لكلّ باكٍ مُسْعِدٌ ولكلِّ صَبٍّ صاحبٌ وخَدِينُ

لا بأس إنَّ لذاك عندى راحةً للصَّبِّ أَنْ يلقى الحزين حزينُ

يا عُتْبَ أين أفِرُّ منك أميرتى وعلىَّ حصن من هواك حصينُ

وكتب مرة إلى المهدى يعرض بطلبها منه :

نفسى بشىء من الدنيا معلَّقةٌ اللهُ والقائم المهدىُّ يكفيها

إنى لأيأس منها ثم يُطْمِعُنِى فيها احتقارُك للدنيا وما فيها

ومن قوله فيها أيضاً :

أَلا ما لسـيِّدتى مالها أَدَلاًّ فأَحْمِلَ إدلالها ؟

وإلا ففيم تجنَّتْ وما جَنَيْتُ سَقَى اللهُ أطلالَها

ألا إن جارية للإما مِ قد أُسْكِنَ الحبُّ سربالها

مشت بين حُورٍ قصارِ الخطا تُجاذِبُ فى المشى أكفالها

وقد أتعب اللهُ نفسى بها وأَتْعَبَ باللوم عُـذّالها

ومن قوله فيها :

عينى على عُتْبَةَ مُنْهَـله بدمعها المنسكب السائلْ

يا من رأى قبلى قتيلا بكى من شِدَّةِ الوَجْدِ على القاتلْ

بسطت كفِّى نحوكم سائلا ماذا تَرُدُّونَ على السائلْ

إنْ لم تنيلوه فقولوا له قَوْلاً جميلا بَدَلَ النائلْ

أوْ كنتمُ العامَ على عُسْرَةٍ منه فَمَنُّوه إلى قابلْ

*

وأما الزهد ، فقد كان المذهب الذى غلب على أبى العتاهية حتى عرف به وقصر عليه قوله فى آخر أيامه ، فكان يذمّ الدنيا ويزهد فى نعيمها ، ويعيب على من يغرّه رونقها ، ويطغيه زبرجها ، ويذكر الموت وهوله ، والقبر وبلى الأجسام فيه ، ويكثر من ذلك جدًّا حتى انتبه قوم إلى أنه إنما يذكر الموت والفناء دون النشور والبعث ، وإن ذلك يرجع منه إلى رأى فلسفى يعتقده ، وقد خاطبه فى ذلك بعض أصحابه ، فقال : ما دينى إلا التوحيد ، ثم أنشد :

أَلاَ إِنَّنَا كلّنا بائدُ ... وأىُّ بنى آدمٍ خالدُ
وبَدْؤُهُمُ كان من ربهم ... وكلٌّ إلى ربه عائد
فيا عجباً كيف يَعْصِى الإلـــه أم كيف يَجْحَدُه الجاحدُ
وفى كلّ شىءٍ له آيَة ... تَدُلُّ على أنه واحــدُ

ولعلّ أبا العتاهية إنما كان يقصد بقوله فى الزهد حمل الناس على الخير ، ومنعهم من التكالب على الدنيا ، فكان لايذكرهم ولا يعظهم إلا بما قرب منهم وهو الموت والبلى كأنهم لغلظ قلوبهم صاروا لايتأثرون إلا بما يقع تحت حسهم ، وما شىء يداخلهم ويرونه كلّ يوم ماثلا أمامهم إلا الموت ، وصيرورة المرء إلى القبر وتعرضه فيه للبلى .

وقد تبعَ كلامه فى الزهد أن جرت على لسانه حكمة تضرب إلى هذه الناحية ، فهى حكمة التخذيل عن الدنيا والتحقير لشأنها ، وكذلك كانت أمثاله التى ضربها من هذا الوادى ، فيصحّ أن نقول: إن حكمته وأمثاله كلها كانت من لباب الزهد الذى أراد أن يكون فارس حلبته . وقد كان .

وأعظم مذكور له فى هذا الباب مزدوجته التى حوت أربعة آلاف مثل ، وقد مرّ بك فى باب الشعر كثير منها . ومن غيرها قوله فى الموت :

لِدُوا للموتِ وابنُوا للخرابِ   فكلُّكُمُ يَصيرُ إلَى تَبَابِ
ألَا يا موتُ لمْ أرَ منكَ بُدًّا   أتَيْتَ وما تَحِيفُ وما تُحابى
كأنَّكَ قد هَجَمْتَ على مشيبى   كما هَجَمَ المشيبُ على شبابى

وقال له المأمون أنشدنى أحسن ماقلت فى الموت فأنشده :

أنساكَ مَحْيَاكَ المَمَاتَا   فطلَبْتَ فى الدنيا الثَّباتَا
أوَثِقْتَ بالدنيا وأنـ   ـت ترى جماعتها شَتَاتَا
وعَزَمْتَ منك على الحيا   ة وطولها عزما بَتَاتَا
يا من رأى أبويه فيـ   ـمن قد رأى كانا فماتا
هل فيهما لك عِـبْرَةٌ   أم قُلْتَ إن لك انفلاتا
ومن الذى طلب التَّفَلُّـ   ـتَ من مَنِيَّتِهِ ففاتا
كلٌّ تُصَبِّحُـه المنيـ   ـيَةُ أو تُبَيِّتُه بيَاتا

و إذا كان عيب فى شعر أبى العتاهية فهو ما كان يناقضه من حرصه على المال ، وتجاوزه الحدّ فى جمعه ، وقد عابه بذلك الجماز ، فقال :

ما أقبح التزهيد من واعظ   يُزَهِّدُ الناس ولا يَزْهَدُ
لو كان فى تزهيده صادقا   أضحَى وأمسَى بيتُه المسجدُ
يخاف أن تَنْفَدَ أرزاقــه   والرزقُ عند الله لا يَنْفَدُ
والرزقُ مقسومٌ على من ترى   يَنَاله الأبيضُ والأسود

وكان آخر شعر قاله أبو العتاهية ، وقد أدرك فيه خطأه فى الحرص على الدنيا قوله :

إلٰهى لا تُعَذِّبْنِى فإنى   مُقِرٌّ بالذى قد كان مِنِّى
فما لى حيلةٌ إلا رجائى   لعفوكَ إنْ عَفَوْتَ وحُسْنُ ظنى
وكم من زَلَّةٍ لى فى الخطايا   وأنت علىَّ ذو فضل ومَنِّ
إذا فكرت فى نَدَمِى عليها   عَضَضْتُ أناملى وقَرَعْتُ سِنِّى .

أُجَنُّ بزَهْرَةِ الدنيا جُنُوناً   وأَقْطَعُ طُولَ عُمْرِى بالتمنّى
ولو أنى صَدَقْتُ الزهدَ عنها   قَلَبْتُ لأهلها ظهر المِجَنِّ
يظن الناسُ بى خيراً وإنى   لشرُّ الخلقِ إن لم تَعْفُ عنى

وأوصى بأن يكتب على قبره :

أُذْنَ حَىٍّ تسمعى   إسمعى ثم عى وعى
أَنَا رَهْنٌ بمضجعى   فاحذرى مثل مَصْرَعى
عِشْتُ تسعين حِجَّةً   فى ديار التزعزع
ليس زادٌ سوى التقى   فخذى منه أو دعى

ولسنا بحاجة أن نعقد فصلا لبيان منزلة أبى العتاهية عند الأدباء وغيرهم ، فقد تفرّق من ذلك فى الترجمة كثير .

وقد مرّ بك فى باب أوزان الشعر أنه كان أحد الذين كسروا قيود الأوزان القديمة ، فلما خوطب فى ذلك قال : أنا أكبر من العروض .

وديوان شعره فى جزأين كبيرين : أولهما فى الزهد ، والثانى فى الأغراض الأخرى، مطبوع فى بيروت سنة ١٨٨٧ م ، والذى يجب أن تعرفه أن ما فى الديوان ليس كلّ شعره ، لأن أبا العتاهية كان أحد ثلاثة لم تمكن الإحاطة بشعرهم لكثرته ، وهم : بشار ، والسيد الحميرى ، وأبو العتاهية ، ولا شكّ أنه فى هذا أكثرهم .

حياة أبى تمام

[نسبه] : يختلف الرواة فى نسب أبى تمام ، فبعضهم يجعله عربيًّا صحيحاً من طيئ فيقولون : إنه حبيب بن أوس بن الحرث بن قيس بن الأشجّ بن يحيى بن مروان ابن مُرّ بن سعد بن كاهل بن عمرو بن عَدِىّ بن عمرو بن الغَوْث بن طَيِّئٍ .

والذين يدّعون أنه نصرانىّ من أهل قرية جَاسِمٍ من قرى الجَيْدُور من أعمال دمشق يقولون : إن اسم أبيه ليس أوساً ولـكنه ندوس العطار فغير إلى أوس وأدخل فى هذا النسب المفتعل ، وعلى هذا يقول شاعر يهجو أبا تمـام :

لو أنّ عبد مَنَافٍ فى أُرُومَتِهِمْ   تَقَبّلوك لما ضرّوا ولا نفعوا
مِرْباع قومك ناقوس وشَمْعَلَةٌ   فاذكر مرابعهم فيها إذا ارتبعوا

ولاشكّ أن أبا تمـام كان يعجبه النسب الأول لأن الانتمـاء إلى العرب كان شرفا كبيراً خصوصاً إلى قبيلة مشهورة كطيىء ، وهذا ما يرجح فى نظرنا أن يكون فى اصطناع هذا النسب يد لأبى تمـام ، فقد كان يفاخر به ويسامى الرؤساء كما فعل فى مدحـه لأحمد ابن أبى دؤاد .

أضحتْ إيادٌ فى معَدٍّ كلِّها   وهم أيادى بنائها الممدود
تَنْميك فى قُلَلِ المكارم والعُلا   زُهُرٌ لزُهْرٍ أبوّة وجدود
إن كنتم عادىّ ذاك النبع إن   نسبوا وفِلْقَة ذلك الجلمود
وتركتموهم دوننا فَلأَنتم   شركاؤنا من دونهم فى الجود
كَعْبٌ وحاتم اللذان تقاسما   خُطَط العلا من طارف وتليد

نشأته وتصرفه

فى تاريخ أبى تمـام كثير من الغموض ، أوّل ما فيه من ذلك تاريخ ميلاده ، فإن المؤرّخين لم يتفقوا على رأى فى عام ولادته . فبعض يذكر أنه ولد سنة ١٨٠ هـ ، وآخر يقول سنة ١٨٨ هـ ، وثالث يروى سنة ١٩٢ هـ ، وبعض يروى عن أبى تمـام نفسه أنه ولد سـنة ١٩٠ هـ ، وكما اختلفوا فى ولادته اختلفوا فى وفاته ، فقيل سنة ٢٢٨ هـ ، وقيل سنة ٢٣١ هـ ، وقيل سنة ٢٣٢ هـ ، فيكون مات شابًّا

فى حدود الأربعين ، أو مجاوزاً لهـا بقليل . ودفن بالموصل ، ورفاته الآن فى حديقة البلدية هناك فى ضريح فخم .

ثم يذكرون أنه نشأ بالشام بالقرية التى ذكرناها ، وهى جاسم ؛ وصاحب الأغانى يذكر أنه نشأ بمنبج أو فى قرية من قراها . وغيره يزعم أنه نشأ فى قرية من قرى دمشق ، ثم يذكرون أنه نشأ فقيراً ، وأنه انتقل إلى مصر ، ولكننا لا نظفر بمعرفة مقدار عمره حين انتقل إلى مصر ، ولا مقدار ما حصله من علم قبل ذلك بالشام . وقصيدته التى ذكر فيها مجيئه إلى مصر تدلّ على أنه قدمها وقد عقل ، وأنه حضرها وحده لا فى حياطة أسرته ، كما تدلّ على أنه لم يظفر فيها بمـا أمل من سعة عيش ، ورفاهة حال قام فيها مدّة فى أنكد عيش يسقى المـاء بالجرّة فى جامع عمرو بالفسطاط ، فكان لاختلاطه بالعلماء أثر فى نفسه ومادة فى علمه ، وتدل القصيدة أيضاً على أنه أقام بمصر خمس سنين ، ولكنه كان قد نضج فى الشعر فقاله وعرف بالجودة فيه ، وحسد فضله من شعراء مصر يوسف بن السراج ، فاتصل بينهما التهاجى . وكان من ذيوع فضله أنه سمع بخبره المعتصم فاستقدمه إليه ، وفى هـذه القصيدة يقول :

بنفسىَ أرضُ الشام لا أَيْمَنُ الحِمَى ... ولا أَيْسَرُ الدهنا ولا أوسطُ الرمل
عَدَتْنِىَ عنكم مُكْرَهاً غُرَبَةُ النوى ... لهـا وَطَرٌ فى أن تمرَّ ولا تُحْلِى
أخمسـة أعوام مضت لمغيبه ... وشهران بل يومان ثُكْلٌ على ثُكْلِ
نأيتُ فلا مالاً حَوَيْتُ ولم أقم ... فأُمْتِعَ إذ فُجِّعْتُ بالمـال والأهل

ولعلّ هذه القصيدة لم تكن آخر عهده ، فيكون قد أقام بها أكثر من ذلك .

دخل بغداد فكان شأنه غير شأن سائر الشعراء ، لأن الواحد منهم كان إذا قدر الله له نجاحاً يكون الخليفة آخر من يسمع به ، ويكون قبل ذلك قد اتصل بمياسير الناس ورؤسائهم ، ثم حاشية الخليفة وأمراء بيته ، ثم ينتهى به الشرف ، ويتسامى الحظّ ، فيذكر اسمه للخليفة ، فيأذن له بالإنشاد بين يديه ، ولكنّ أبا تمـام كان فى شهرته كما

كان فى نبوغه وثّابًا ، فهو إنما قدم بغداد بدعوة من المعتصم ، فلما سمع منه ورضى عنه تسابق الأمراء والوزراء ، ورجال الدولة عامة من حاضر فى بغداد وناء عنها ، فى أن يشرفهم أبو تمام بمدحه ، ولذلك لا نراه قد قبع فى بغداد كغيره من الشعراء الذين لا تتجاوز شهرتهم الأفق الذى يعيشون فيه . وما بغداد بالهينة الشأن ، أو الضيقة الرقعة لولم تتعدها شهرة أبى تمام ، ولكن نبوغه كان أكبر من أن تسعه بغداد ، فلذلك رأيناه يشرّق ويغرّب ، فصدق عليه قوله :

وغَرَّبْتُ حتى لم أجد ذكر مَشْرِقٍ　　　وشَرَّقْتُ حتى قد نَسِيتُ المغاربا

وقد اتصل أبو تمام بالخليفة ، ووزيره محمد بن عبد الملك الزيّات ، ورجال الدولة : الحسن ابن وهب ، والحسن بن سهل ، وأحمد بن أبى دؤاد ، ومحمد بن حميد الطوسى ، والأفشين وأبى دلف العجلى ، وعبد الله بن طاهر ، وخالد بن يزيد بن مزيد وغيرهم من كبار الناس وأصحاب البيوتات فى الدولة ، وقد كان له من هؤلاء جود واسع ، وكرم زائد ، وقد اعترف بعضهم بأن عطاءهم دون ما يستحقه شعره . ذكروا أنه لما مدح محمد بن عبد الملك الزيات بالقصيدة التى فيها :

دِيمَةٌ سَمْحَةُ القِيادِ سَكُوبُ　　　مُسْتَغِيثٌ بها الثَّرَى المَكْرُوبُ
لو سَعَتْ بُقْعَةٌ لإعظام أخرى　　　لسعى نحوها المَكَانُ الجَدِيبُ

قال له : يا أبا تمام ، إنك لتحلى شعرك من جواهر لفظك ، وبديع معناك ما يزيد به حسناً على بهىّ الجواهر فى جياد الحسان ، وما يدخر لك شىء من جزيل العطاء إلا ويقصر عن شعرك فى الموازاة .

وهذه الثروة التى استفادها أبو تمام أنفقها فى لذّاته ، وكان غرامه بالأسفار وولعه بالرحل هو الذى استنفد هذه الثروة الطائلة التى لو حرص عليها كما حرص غيره لرأينا له تراثاً لم يخلفه شاعر ، فإن المعروف أن أبا تمام أخمل فى حياته كلّ شعراء زمانه ،

وقطع عنهم أرزاقهم ، فلما مات تنفسوا الصعداء ، وعادت عطاياه تقسم بينهم ، فانتعشت حالهم .

حدّث أحمد بن يزيد المهلبي قال : ما كان أحد من الشعراء يأخذ درهما بالشعر فى حياة أبى تمام ، فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه .

صفات أبى تمام ومزاياه

كان أسمر طويلا فصيحا ، حلو الكلام مع تمتمة يسيرة فيه ، ولعلّ هذه الصفات ليس منها مايتعلق بموضوعنا ، وهو شاعرية أبى تمام ، اللهم إلا ما كان من فصاحة منطقه وحلاوة كلامه . فأما الصفات التى يصحّ أن تكون ذات أثر فى شعره ، أو فى حالات نفسه التى ينشأ عنها الشعر ، فتلك هى ما كان فيه من ميل إلى اللهو والبذخ فى المعيشة ، ومن مجون ، واستباحة للشراب ، وتهاون بأمر الدّين ، فهذه صفات يتورّط فيها الشعراء إلا قليلا جرت بذلك سنتهم خصوصاً فى عصور الترف والنعيم ، ولكن الذى نتساءل عنه ، لِمَ لَمْ تتجه الأنظار إلى أبى تمام فى مسلكه كما اتجهت إلى بشار وأبى نواس ؟ ولعلّ السبب أن زمن أبى تمام كان زمناً ألفت فيه هذه الأنواع من الفجور ، وشاع الفسق ، وهدأت فى نفوس الخلفاء ثائرة الاتهام بالزندقة ، فلم يكن مايأتيه أبو تمام بدعاً ولا مستغربا .

كان أبو تمام يشرب الخمر ، وفيها يقول :

أفيكم فتًى حُرٌّ فيُخْبِرَنى عَنّى ... بما شَرِبَتْ مشروبةُ الراحِ من ذِهْنِى
غَدَتْ وهى أَوْلَى من فؤادى بعَزْمَتِى ... ورُحْتُ بما فى الدَّنِّ أولى من الدَّنِّ
لقد تركَتْنى كأسُها وحَقيقتِى ... مَجَازٌ وصُبْحٌ من يقينى كالظَّنِّ

وقد قصد خالد بن يزيد بن مزيد بأرمينية ، فمدحه فأعطاه عشرة آلاف ، فلما انصرف

من عنده طابت له الإقامة فى أرباض مدينته ، فخرج خالد يوماً يصطاد ، فإذا أبو تمام تحت شجرة يشرب ، وغلامه يغنيه بالطنبور ، فقال له : ما فعل المال ؟ قال :

علّمنى جُودُكَ السماحَ فما أبقَيْتُ شيئاً لَدَىَّ من صلتك
ما مَرَّ شهرٌ حتى سَمَحْتُ به كأنَّ لى قُدْرَةً كقدرتك
تُنْفِقُ فى اليوم بالهِبَاتِ وفى السَّاعة ما تَجْتَنِيه فى سَنَتِك
فلستُ أدرِى من أينَ تُنْفِقُ لو لا أنَّ ربى يَمُدُّ فى هبتك

فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

وكان له غلام خزرىّ ، وللحسن بن وهب غلام رومىّ ، فرآه أبو تمام يوما يعبث بغلامه ، فقال له : لئن أعنقت إلى الروم لنركضنّ إلى الخزر . وذكروا أيضاً أنه كان بفارس عند الحسن بن رجاء ، فنمى إليه خبر تركه الصلاة ، فعاتبه فى ذلك ، فقال له : « لم أنشط للشخوص إليك من مدينة السلام ، وأتجشم هذه الطرقات الشاقة ، وأكسل عن ركعات لا مئونة فيها علىّ . لو كنت أعلم أن لمن صلاها ثواباً وعلى من تركها عقاباً » ، فتركه بعد هذا الكفر الصريح ، والتمس له العذر فى قوله :

وأحقّ الأنام أن يقضى الدينَ امرؤ كان للإله غريما

وكانت فيه فضائل إلى جانب ذلك منها عزّة نفسه ، ولعلها إنما جاءته من طفوره إلى الشهرة ، وسرعة اتصاله بالخلفاء . وقد ذكروا من حديث هذه العفة والعزّة أنه لما قدم خراسان مادحا عبد الله بن طاهر بقصيدته التى يقول فى مطلعها :

* هنّ عوادى يوسف وصواحبه *

بلغ من إعجاب عبد الله بن طاهر أن نثر عليه ألف دينار فلم يتحرّك لها أبو تمام والتقطها الغلمان ، فحقد عليه عبد الله حينا ثم رضى عنه ، وأضعف له العطية .

أما ذكاؤه ، وتوقد قريحته ، وصدق حسه ، وسريع حفظه ، فقد كان فى كلّ

ذلك علماً مشهوراً . قالوا : إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطعات .

ولما أنشد محمد بن عبد الملك الزيات قصيدته التى أولها :

دِيَمةٌ سَمْحَةُ القياد سَكُوبُ   مُسْتَغِيثٌ بها الثرى المَكْرُوبُ

لو سَعَتْ بقعة لإعظامِ أُخْرَى   لسعى نَحْوَها المكانُ الجديب

كان بحضرته فيلسوف، فقال : إن هذا الفتى يموت شابًا ، فقيل له : ومن أين حكمت بذلك ؟ قال : رأيت فيه من الحدّة والذكاء ، والفطنة مع لطافة الحسّ ، وجودة الخاطر ما علمت به أن النفس الروحانية تأكل من جسمه كما يأكل المهند من غمده .

ولما أنشده أحمد بن المعتصم قصيدته التى أولها :

ما فى وقوفك ساعةً من باس   نَقْضِى حقوق الأربع الأَدْرَاسِ

وانتهى إلى قوله فيها :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له الفيلسوف أبو يوسف الكندى يعقوب بن الصباح وكان حاضراً : الأمير فوق من وصفت ، فأطرق أبو تمام قليلا ، ثم رفع رأسه وقال :

لا تُنْكِروا ضربى له من دونه   مَثَلاً شَرُودًا فى الندى والباس

فاللهُ قد ضَرَبَ الأَقَلَّ لنُورِهِ   مثلا من المِشْكَاةِ والنِّبْرَاسِ

فلما أخذت منه القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين ، فدهشوا لسرعة خاطره ، فقال أبو يوسف هذا الفتى يموت قريباً :

ومن حضور جوابه وسرعة بديهته أنه لما أنشد أبا العميثل :

* هنّ عوادى يوسف وصواحبه *

قال له : لم لا تقول ما يفهم ؟ قال أبو تمام وأنت لم لا تفهم ما يقال ؟ فعدوا ذلك من بدائهه البليغة .

⁂

وقد وضع الرؤساء أبا تمام فى منزلة عالية ، وجعلوا له بينهم قدرًا معروفا دونه أقدار الشعراء مهما أجادوا القول ، وبالغوا فى الإطراء . وإنما ذلك لأن أبا تمام زاد على الشعراء بصفات النبوغ والكمال العقلى والنفسى ، وهذه إذا تمت فى امرئ استحقّ التجلة والإكبار ، لأن الذكاء والخلق الفاضل محترمان ، وصاحبهما مرموق بعين الإعظام مهما انحطّ به الفقر ، أو تدنت به فى الناس المنزلة ، ولقد انضمّ إلى ذلك كله فى أبى تمام علم غزير ، واطلاع واسع ، وإحاطة بأخبار العرب ، ووعى لكل ما عرف لهم من قول كذلك لا بدّ أن يكون قد تثقف بالثقافة الحديثة فى عصره (ثقافة العلوم المترجمة التى كان رواجها ، واشتداد الطلب لها فى أيام أبى تمام) ، فاجتمعت فى نفسه ثقافة عربية إلى أخرى فارسية ويونانية وهندية إلى الذكاء الذى يحسن هضم كل هذا والانتفاع به .

لذلك نرى أبا تمام قد نظر إليه الرؤساء فى زمانه نظرة إعجاب ، وسما فى تقديرهم عن زملائه الشعراء الذين يكون منتهى أملهم ، وغاية مطمعهم عطاء يكثر أو يقلّ على حسب منزلتهم فى الشعر . فأما أبو تمام فقد استحقّ من العطاء أوفره ، ثم كان ذلك دون قدره ، فولاه الحسن بن وهب بريد الموصل . ولعله لو عمر لترقى فى الولايات حتى انتهى إلى الوزارة ، فيكون أوّل شاعر أهله الشعر لأسمى مراتب الحكم بعد الخلافة .

نعم كان أكبر همّ الشاعر عطاء يوازى مقدرته على الإطراء ، وبلاءه فى رفعة قدر الممدوح ، فإذا سمت همته إلى أكثر من ذلك ، وكان له طبع ظريف ، وشمائل مستملحة استحقّ أن يكون نديمًا لهؤلاء الممدوحين ، وهو فى كل هذه المراتب لا يطمع فى مساماتهم، ولا يجرؤ على أن يخاطبهم خطاب الزملاء ، اللهم إلا شعراء أفذاذ أمثال أبى تمام ، والمتنبى،

والشريف الرضى ، فهؤلاء كان لهم إلى جانب الشعر نفوس عالية ، وأقدار كبيرة ترفعوا بها عن أقدار المداح والندماء .

ومما يدلك على منزلة أبى تمام بين رؤساء زمانه أن مالك بن طوق كان قد غضب على قومه بنى تغلب لإفسادهم فى الأرض وقطعهم الطريق ، فلما خافوا سطوة غضبه لجئوا إلى أبى تمام ، فاستعطفه لهم بقوله :

وَمَضَتْ كهولُهُمُ ودَبَّرَ أَمْرَهُمْ أحداثهم تَدْبيرَ غَيْرِ صَوابِ
لا رِقَّةُ الحَضَرِ اللَّطيفِ غَذَتْهُمُ وتَباعَدُوا عَنْ فِطْنَةِ الأَعْرَابِ
فإذا كشفتَهُمُ وَجَدْتَ لَدَيْهِمُ كَرَمَ النفوسِ وَقِلَّةَ الآدابِ
لك فى رسول الله أعظمُ أُسْوَةٍ وَأَجَلُّهَا فى سُنَّةٍ وكتاب
أَعْطَى المؤَلَّفَةَ القلوب رِضَاهُمُ كَرَمًا وَرَدَّ أَخَائِذَ الأَحْزابِ

فوقعت القصيدة من مالك أجلّ وقع وقبل شفاعة أبى تمام .

وأبو تمام هو الذى اشتكى إليه البحترى ضيق الحال ، فحمله بطاقة إلى أهل معرّة النعمان ، فأغدقوا عليه الخير ، ورتبوا له أربعة آلاف درهم قال البحترى : كان ذلك أول مال أصبته

وانظر إلى أبى تمام يشفع للواثق عند أبيه فى ولاية العهد ، فيقول :

فاشْدُدْ بهٰرون الخلافة إنه سَكَنٌ لوحشتها ودَارُ قرار
ولقدعلمتُ بأن ذلك مِعْصَمٌ ما كنتَ تتركه بدون سوار

والفرق بين موقف أبى تمام من المعتصم وموقف مسكين الدارمى من معاوية فى تولية يزيد العهد ، فرق عظيم . فمعاوية كان يحتاج إلى أن يتكلم الشعراء فى ولاية ابنه للعهد لأنها كانت حدثا جديداً يريد معاوية أن يهيئ له أذهان الناس بمثل قول مسكين .

أما الحال أيام المعتصم فلم تكن بهذه المثابة إذ أن ولاية العهد كانت رسما من رسوم الدولة لا نكير عليه ، ولا حاجة فيه إلى ألسنة الشعراء ، فموقف أبى تمام من المعتصم

موقف شفاعة حقة ، ولكنّ مسكينا مأجور على إذاعة رأى الخليفة فى شعره حتى يهيئ النفوس لقبوله .

شعر أبى تمام

اجتمعت فى شعر أبى تمام صفات هى :

١ — المعانى الدقيقة ، والتصوّرات العميقة ، والخيال البعيد ، يحدوه إلى ذلك ذكاؤه الحادّ الذى عرفت شأنه. فقد كان من أجل هذا لايقنع بتناول المعانى من أطرافها ، وقد يكون من هذه المعانى مالم يسبق إليه سابق ولا حام حوله حائم ، وهذا كثير عند أبى تمام

٢ — التماس اللفظ الجزل يتزيد به على الناس ، ويدلّ به على واسع علمه باللغة و إحاطته بكلام العرب .

٣ — القصد إلى تحسين الكلام بأنواع البديع ، ولم يكن أبو تمام صاحب هذا المذهب بل سبقه مسلم بن الوليد وطبقته ، ثم أبو نواس و طبقته ، وهؤلاء لم يحدثوا هذا من عدم ، ولكنهم أطالوا تعمده ، وأداموا انتحاء طريقته ، ولم يكن قبلهم من أبدى هذا الغرام ولا التزمه هذا التزام ، بل كان يأتى من الشعراء والكتاب عفو الخاطر بلا قصد ولا تعمد ، وهو واقع فى القرآن ، وكلام الجاهليين والإسلاميين على النحو الذى ذكرناه لك .

وفرق مابين مسلم وطبقته ومن جاء بعده و بين أبى تمام، أن هؤلاء لم يكلفوا بهذا لذهب كلفه . ولا تعمدوه تعمده ، فكان كلامهم حسنا لاعيب فيه وجمالا لا يغضّ نه الإكثار ، ولكنه عند أبى تمام يستولى على أسلوبه استيلاء ظاهراً ، ويكاد حاول تحقيقه فى كلّ جملة ، و يظهره و إن أبى الظهور فى كلّ فقرة . لذلك كان من

السابقين حسناً دائماً ، لأنه مع تعمده قريب إلى الطبع ما دام لايلتزم التزاما ، ولا يكره إكراها . فأما فى كلام أبى تمام ، فقد كان فيه جانبا الحسن والقبح ، وسمتا الانطباع والتخلُّف ، وعلامتا اليسر والعسر .

هذه الصفات الثلاثة هى أعمدة القول فى شعر أبى تمام ، وعليها ينبنى الحكم له بالإجادة أو التقصير ، والسلامة أو العيب . فإذا اتفق له المعنى الشريف الذى لم يبتذله الشعراء والخيال البديع الغريب المَنْزَع ، واستقام له اللفظ الجزل الرنان الفخم الذى لم يُعْرِق فى البداوة فيَجْسُوَ ويغلظ ، ولم تهلهله الحضارة فيفقد روحه ورصانته ، ثم زخرف هذا القول بعد بالبديع الذى لا يَغُضّ منه ، فجاء حاكيا للطبع ، فى حسن الوضع ، ودقة الصنع ، كان الكلام الجامع لهذه المزايا هو غاية كلّ أديب ، وأمنية كلّ قائل .

ولأبى تمام قصائد سلمت له فيها هذه المقاصد على ما وصفنا ، فكانت برودا يمانية ، أو ديباجا خُسْرَوانيا ، فاستحقت التقدّم على كلّ شعر عربىّ عرف بالجودة فى قديم وحديث .

وقد ينعكس الحال فى هذه المقاصد ، فإذا المعنى الذى يريده أبو تمام شريفاً مصونا يأتى عويصاً ، أو مستحيلا ، أو فكرة فِجّة غير واضحة المرمى ، ولا ظاهرة الغرض ، وإذا باللفظ الذى طلب له الجزالة والرصانة يخرج بدويّا متعجرفا ، وإذا الزينة التى طلبها للجمال قد أكثر منها ، فغضت من الحسن وقضت بالاستهجان ، فانظر (وقاك الله السوء) إذا اجتمعت هذه المقابح فى كلام (وقد تجتمع فى كلام أبى تمام) كيف يكون وقعها فى السمع وبعدها عن الفصاحة ؟ !

ومن هنا رأيناهم يحكمون على أبى تمام حكما يكاد يكون متناقضا . قال صاحب الأغانى : « والسليم من شعره النادر شىء لا يتعلق به أحد ، وله أشياء متوسطة ، وأخرى رديئة رذلة جداً » .

وما ذكرناه لك سابقاً هو السبب فى أن يكون له الجيد الذى لا يتعلق به أحد والمتوسط المقبول ، والردىء الرذل البالغ الغاية فى ذلك .

ونستطيع أن ندلك على مواضع من الحسن فى كلامه بما نسوقه لك من أخبار فى طيها شعر نال إعجاب جهابذة الكلام ونقاد المعانى والألفاظ .

ذكروا أن ابن الزيات كان يقول : أشعر الناس طُرًّا الذى يقول :

وما أبالى وخـــير القولِ أصدقه ... حَقَنْتَ لى ماء وجهى أوحَقَنْتَ دَمى

وكان إبراهيم بن العباس الصُّولىّ يقول : أشعر أهل زماننا الذى يقول :

مَطَرٌ أبوكَ أبو أهِلّةِ وائل ... ملأ البسيطة عُدَّةً وعديدا
نسَبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحى ... نُورًا ومن فَلَق الصباح عَمُودَا
ورثوا الأبوة والحظوظ فأصبحوا ... جمعوا جدودا فى العلى وجدودا[1]

وقدم عُمَارة بن عَقِيل بغداد ، فاجتمع الناس إليه ، وكتبوا شعره وشعر أبيه ، وعرضوا عليه الأشعار ، فقال بعضهم : إن هاهنا شاعرًا يزعم بعض أنه أشـــعر الناس ، ويزعم آخرون غير ذلك ، فقال أنشدونى من قوله ، فأنشدوه :

غَدَتْ تَسْتَجِيرُ الدمعَ خَوْفَ نَوَى غَدِ ... وعاد قَتَادًا عنـــدها كلُّ مَرْقَدِ[2]
وأنقذها من غَمْرة الموتِ أنَّهُ ... صُدود فِرَاقٍ لا صدودُ تَعَمُّدِ
فأجرى لهـا الإشفاقُ دَمْعًا مُوَرَّدًا ... من الدم يجرى فوق خَـدٍّ مُوَرَّدِ
هى البـــدر يُغْنيها تَوَدُّدُ وجهها ... إلى كُلِّ من لاَقَتْ وإن لم تَوَدَّدِ

ثم قطع المنشد إنشاده ، فقال له عُمَارَة : زدنى من هذا ، فوصل الإنشاد ، وقال :

---

(١) جدود الأولى : جمع جد ، وهو أب الأب . والثانية جمعه : بمعنى الحظ .
(٢) النوى : البعد ، وهو مؤنث . القتاد : شجر صلب له شوك كالإبر .

ولـكنّني لم أَحْوِ جمعا مُوَفَّرًا ... فَفُزْتُ به إلا بشَمْلٍ مُبَدَّدِ(١)

ولم تُعْطِنِي الأيامُ نَوْمًا مُسَكَّنًا ... أَلَذُّ به إلاَّ بِنَوْمٍ مُشَرَّدِ

فقال عُمَارة : لله درّه ، لقد تقدّم فى هذا المعنى من سبقه إليه على كثرة القول فيه حتى لقد حبب إلىَّ الاغتراب . هيهِ ، فأنشده :

وطول مُقامِ المرءِ فى الحىِّ مُخْلِقٌ ... لديباجتيـــه فاغترب تتجدَّدِ(٢)

فإنِّى رأيتُ الشمسَ زيدتْ محبةً ... إلى الناس أَنْ لَيْسَتْ عليهم بسَرْمَدِ

فقال عُمَارة : والله لئن كان الشعر بجودة اللفظ ، وحسن المعانى ، واطراد المراد ، واتساق الكلام ، فإن صاحبكم هذا أشعر الناس .

وحدث عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال : لما قدم أبو تمام خراسان اجتمع الشعراء إليه وسألوه أن ينشدهم ، فقال : قد وعدنى الأمير أن أنشده غداً وستسمعوننى ، فلما دخل على عبد الله أنشده :

أهن عَوَادِى يُوسُفٍ وصواحبُه ... فَعَزْمًا فقِدْمًا أدرك النُّجْحَ طالبُهْ(٣)

فلما بلغ إلى قوله :

وقَلْقَلَ نَأْىٌ من خُرَاسانَ جأشها ... فَقُلْتُ اطمئنى أَنْضَرُ الرَّوْضِ عازبُهْ(٤)

---

(١) جمع : مجموع ، والمراد به المال المكتسب . موفر : كثير .

(٢) أخلق اللابس الثوب : أبلاه وذهب بجدته . الديباجتان : الخدان .

(٣) يروى البيت بلا همز فيكون قد دخله الخرم ، وهو عيب شعرى كما يروى به فيخلو من العيب . ولذلك آثرنا روايته بالهمز . عوادى : جمع عادية ، من عداه عن كذا : بمعنى صرفه . والاستفهام فى البيت للتقرير . والمعنى لا شك أن النساء هن اللاتى حاولن صرف يوسف عن تقاه ، وإذا كان ذلك فاعزم عزما أكيدا على مخالفتهن حتى تدرك النجح فإنما سبيل إدراك النجاح هو تصميم العزم وإمضاء النية (من تعليقنا على كتاب « هبة الأيام ») .

(٤) ويروى نأى . الجأش : القلب أو الصدر . وقولهم فلان رابط الجأش من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله : أى أن الشجاع لثباته كأنه يربط قلبه يمنعه من الطيران ، أو من إضافته إلى فاعله : أى أن قلبه يربطه فتثبت قدمه فلا يفر (من تعليقنا على كتاب « هبة الأيام ») .

وركْبٍ كأطرافِ الأسنَّةِ عرَّسُوا ... عَلَى مِثْلِهَا والليلُ تسطو غيَاهِبُه[١]
لأمْرٍ عليهمْ أنْ تَتِمَّ صُـــدُورُهُ ... وليس عليهم أن تَتِمَّ عوَاقِبُهُ[٢]

صاح الشعراء ما يستحقّ مثل هذا الشعر غير الأمير أعزّه الله ، وقال شاعر منهم يعرف بالرياحى : لى عند الأمير جائزة وعدنى بها ، وقد جعلتها لهـــذا الشاعر جزاء إحسانه ، فقال له عبد الله : بل نضعفها لك ونقوم بما يجب علينا له ، فلما فرغ من الإنشاد نثر عليه ألف دينار فتركها ، فالتقطها الغلمان .

وأنشد أبو تمام يومًا أبا دلف العجلى قصيدته :

على مِثْلِها من أربُعٍ وملاعِبِ ... أُذِيلَتْ مَصُونَاتُ الدموعِ السواكبِ[٣]

فلما بلغ إلى قوله :

إذا افتخرتْ يومًا تميمٌ بِقَوْسِهَا ... وزادت على ما وَطّدَتْ من مناقِبِ[٤]
فأنتم بذى قارٍ أمالت ســيوفكم ... عروشَ الذين اسْتُرْهِنُوا قوسَ حاجبِ[٥]
محاسنُ من مَجْدٍ متى تَقْرِنُوا بها ... مَحَاسِنَ أقوامٍ تَــكُنْ كالمعَايبِ

فقال أبو دُلَفٍ : يامعشر ربيعة ، مامدحتم بمثل هـــذا الشعر فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم يرمون بها إليه ، فقال أبو دلف : قد قبلها وأعاركم لبسها ، وسأنوب عنكم فى ثوابه ، ثم أمر له بخمسين ألف درهم وقال : والله ما هى بإزاء اســـتحقاقك وقدرك

---

(١) التعريس : نزول آخر الليل ، شبه الراكبين بأطراف الأسنة فى النفاذ ، والمضاء فى العزم ، وشبه الإبل بأطراف الأسنة فى دقتها وقلق الراكب عليها وتأذيه بركوبها من نحولها وتألمه بمباشرة عظامها .

(٢) يعتقدون صواب مايرونه ولا يفكرون فيما تأتى به الأقدار .

(٣) أذال الشىء : امتهنه وابتذله ولم يرع حقه .

(٤) يشير بهذا البيت إلى حادث حاجب بن زرارة مع كسرى حين قدم عليه فى سنة جدبة وطلب إليه حمل ألف بعير برا على أن يعيد إليه قيمتها إذا أيسر ، فقال كسرى وما ترهننى على ذلك ؟ قال قوسى هذه ، فاستعظم كسرى همته وقبل منه الرهن . ومات حاجب فأحضر بنوه المال إلى كسرى وطلبوا قوس أبيهم فافتخرت تميم بذلك (كتاب هبة الأيام) .

(٥) يقول لبنى عجل قوم أبى دلف : إذا كان لتميم هذه المفخرة فان لـكم الغلبة على كسرى فى يوم ذى قار . وهو من أعظم أيام العرب مع الفرس (كتاب هبة الأيام) .

فاعذرنا ، فشكره وقام ليقبل يده فحلف ألاّ يفعل، ثم قال له : أنشدنى قولك فى رثاء محمد ابن حميد الطوسىّ ، فأنشده :

وما مات حتى مات مَضْرِبُ سيفه | من الضَّرْب واعتلَّتْ عليه القَنَا السُّمْرُ(١)
وقد كان فَوْتُ الموت سهلا فردَّهُ | إليـه الحفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ(٢)
فأثبت فى مُسْتَنْقَعِ الموت رِجْلَهُ | وقال لها من تحْتِ أَخْمَصِك الحَشْرُ(٣)
غـدا غُدْوَةً والحمدُ نَسْجُ ردائه | فلم يَنْصَرِفْ إلاَّ وأكفانه الأَجْرُ
كأن بَنِى نَبْهَانَ يَوْمَ وَفاتِهِ | نجومُ سماء خَرَّ من بَيْنِها البَدْرُ
يُعَزَّوْنَ عن ثَاوٍ تُعَزَّى به العُـلاَ | ويبكى عليه البأسُ والجودُ والشعرُ
وأنَّى لهم صَبْرٌ عليـه وقد مضى | إلى الموت حتى اسْتُشْهِدَا هو والصبرُ
فتى كان عَذْبَ الرُّوحِ لا من غَضَاضَةٍ | ولكنَّ كِبْرًا أن يُقَال به كِبْرُ(٤)
فَتًى سلَبَتْهُ الخيلُ وهو حِمًى لها | وبَزَّتْهُ نارُ الحَرْبِ وهو لها جَمْرُ

---

(١) استعار أبو تمام موت حد السيف لانثلامه، والوجه فيها انعدام الأثر وبطلان العمل . أما اعتلال القناء فاما أن يكون معناه أنها تحمت عليه الذنوب واتخذت ذلك ذريعة إلى عصيانه والخلاف عليه وما ذنبه عندها إلا كثرة تكليفها الطعن . وإما أن يكون معناه إصابتها بالعلة (وعلتها تثلم نصالها وتكسر كعوبها) فأصبحت لا تستطيع العمل معه . وهذا المعنى يناسب ماتقدم من موت حد السيف (من تعليقنا على كتاب هبة الأيام) .

(٢) الحفاظ : حماية الحقيقة (مايجب الدفاع عنه) ووصفه بالمرارة لأن فى سبيله يتكلف المرء شدة هى بمثابة الطعم المر .

(٣) الأخمص : ما لا تمسه الأرض من باطن الرجل.

(٤) الغضاضة : الذل . والمعنى أنه كان رقيق الشمائل لين الجانب، وليس ذلك منه هوانا وصغر شأن ، ولكنه ترفع منه عن أن يتهم بالكبر. ويرى بعض الشراح للبيت أن لكنّ نصبت كبرا على أنه اسمها وخبرها محذوف ، والتقدير ولكن كبرا عن أن يقال إنه متكبر ، جعله عذب الروح . وقيل إن اسم لكن محذوف والخبر جملة فعلية ناب عنها المصدر ، والتقدير ولكنه يتكبر كبرا عن أن يقال به كبر . ورأيى أن لكن أهملت مع عدم تخفيفها فهى عاطفة لتميز على تمييز كأنه قال هو عذب الروح لامن جهة الغضاضة والمذلة ولكن من جهة الكبر عن التهمة بالكبر (ملخص من تعليقاتنا على كتاب «هبة الأيام») .

وقد كانت البيضُ المآثِيرُ فى الوَغَى بَواتِرَ فَهْىَ الآنَ من بَعْدِه بُتْرُ[1]
أمِنْ بعد طَىِّ الحادثات مُحَمَّدًا يكون لأثواب النَّدَى أبداً نَشْرُ
إذا شجراتُ الْعُرْفِ جُذَّتْ أُصولُها ففى أىِّ فَرْعٍ يُوجَدُ الوَرَقُ النَّضْرُ
مضى طاهرَ الأثواب لم تَبْقَ رَوْضَةٌ غداة غَدَا إلا اشْتَهَتْ أنها قَبْرُ
ثَوَى فى الثَّرَى من كان يَحْيَا به الثرى ويَغْمُرُ صَرْفَ الدَّهْرِ نائلُه الغَمْرُ
عليك سلامُ اللهِ وَقْفاً فإنّنِى رأيتُ الكريمَ الحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمْرُ

فلما أتمّ إنشادها قال أبو دلف : والله لوددت أنها فىّ ، فقال أبو تمام : بل أفدى الأمير بنفسى وأهلى وأكون أنا المقدم دونه ، فقال له : إنه لم يمت من رثى بهذا الشعر أو مثله .

ولما قدم على الحسن بن رجاء ، فأنشده قصيدته اللامية ، فوصل إلى قوله :

لاتُنْكِرِى عَطَلَ الكريمِ من الغنى فالسيلُ حَرْبٌ للمكان العالى[2]
وتَنَظَّرِى خَبَبَ الرِّكابِ يَنُصُّهَا مُحْيِى القَرِيضِ إلى مُمِيتِ المَالِ[3]

قام الحسن على رجليه وقال : والله لا أتممتها إلا وأنا قائم ، فقام أبو تمام لقيامه ، وأتمها بقوله :

لما بَلَغْنَا ساحَةَ الحسن انقضى عنا تَمَلُّكُ دَوْلَةِ الإمْحَالِ
بَسَطَ الرَّجاءُ لنا بِرَغْمِ نوائبٍ كَثُرَتْ بهنّ مَصَارِعُ الآمالِ
أَغْلَى عَذَارَى الشِّعْرِ أَنَّ مُهُورَها عِنْدالكِرامِ وإن رَخُصْنَ غَوَالِ
تَرِدُ الظُّنونُ بنا على تصديقها ويُحَكِّمُ الآمالَ فى الأموال

---

(١) يروى البواتر، وهى جمع باتر: بمعنى قاطع، والمباتير: جمع مبتار، وهى صيغة مبالغة من البتر. والمآثير: جمع مأثور، وهو السيف الذى شفرته حديد ذكر، أو الذى عملته الجن (وهذا من أوهام العرب) أو الذى توارثه الناس لنفاسته. بتر: جمع أبتر، وهو فى الأصل المقطوع الذنب، والمراد هنا قليل النفع.

(٢) العطل (بالتحريك) : التجرد من الحلى. الحرب : العدو وان لم يكن محاربا، وهو وصف بالمصدر يستوى فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث .

(٣) الخبب نوع من السير . نص دابته : حملها على بذل أقصى ما عنده من السير .

أَضْحَى سَمِيُّ أبيك فيك مُصَدَّقًا بأجلّ فائدةٍ وأصْـدَقِ فالِ[1]
ورَأَيْتَنِى فسألتَ نَفْسَك سَيْبَها لِىَ ثم جُدْتَ وما انتظرتَ سُؤالِى
كالغيثِ ليسَ له أُرِيدَ نوالُه أو لم يُرَدْ بُدٌّ من التَّهطَالِ

فتعانقا وجلسا ، وقال له الحسن : ما أحسن ما جلوت هـذه العروس ، فقال : والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك لها أوفى مهورها . قال محمد بن سعيد وأقام عند الحسن شهرين ، فأخذ على يدىّ عشرة آلاف درهم وأخذ غير ذلك مما لم أعلم به على بخل كان فى الحسن بن رجاء .

العيوب فى شعر أبى تمام

لأبى تمام استعارات خرج بها عن الجادة والتمس فيها أوجه شبه يجتذبها اجتذاباً و يعقد بها صلة نافرة ، فمن ذلك قوله :

جَذَبْتُ نداه غُدْوَةَ السبتِ جَذْبَةً فخر صَرِيعاً بين أيدى القصائد

وقوله :

أَنْزَلَتْهُ الأيامُ عن ظهـرها من بعد إثباتِ رِجْلِهِ فى الرِّكَابِ

وقوله :

كُلُوا الصَّبْرَ مُرًّا واشربوه فإنَّكمْ أَثَرْتُمْ بَعِيرَ الظُّلْمِ والظُّلْمُ بَارِكُ

وقوله :

يَدُ الشَّكْوَى أَتَتْكَ على البَرِيدِ تُمَدُّ بها القصائدُ بالنشيدِ
تُقَلِّبُ بينها أَمَلاً جـديداً تَدَرَّعَ خُلْقَىْ طَمَعٍ جَـديدِ
شَكَوْتُ إلى الزمان نُحُولَ حالى فأَرْشَـدَنِى إلى عَبْدِ الحميد

---

١) يريد بسمى أبيه : الرجاء .

فجئتُك راكبا أَمَـلَ القوافى   على ثِقَةٍ من البلد البعيـــد

وقوله :

لا تســـــــقنى ماء الملام فإننى   صب قد استعذبتُ ماء بكائى[١]

وقوله :

هَوًى كان خَلْساً إن من أحسن الهوى   هَوًى جُلْتَ فى أفنائه وهو خامل[٢]

وقوله :

استنبَتَ القلبُ من لوعاته شجراً   من الْهُمُومِ فأَجْنَتْها الوساويسا

وقوله :

لا يَأْسَفُون إذا هو سَمِنَتْ لَهُمْ   أحسابهم أَنْ تُهْزَل الأَعْمَـارُ

وقوله :

ترى حَبْلَه عُرْيَانَ من كُلِّ غَدْرَةٍ   إذا نُصِبَتْ تَحْتَ الحِبَالِ الحَبَائِلُ

وأنت غنىّ عن أن نفسر لك وجه التكلف فى هذه الاستعارات ، و بعضها إنمادفع إليه حبه للجناس أو غيره من أنواع البديع ، ففى البيت الأخير لم يجعل الحبل عريان من الغدر إلا ليتمم كلامه بالحبال التى تحتها حبائل فيجتمع له الجناس الذى أراده .

---

(١) أورد صاحب كتاب الكشكول هذا البيت وقال إن السكاكى يستهجنه لأن الاستعارة التخييلية منفكة عن المكنية، وصاحب الايضاح يمنع الانفكاك مستندا إلى أنه يجوز أن يكون شبه الملام بظرف شراب مكروه فيكون استعارة بالكناية وإضافة الماء تخييلية، أوأنه تشبيه من قبيل لجين الماء قال ووجه الشبه أن اللوم يسكن حرارة الغرام كما أن الماء يسكن غليل الأوام، ونقل ابن الأثير أن بعض الظرفاء من أصحاب أبى تمام لما بلغه البيت المذكور أرسل إليه قارورة وقال ابعث لنا شيئا من ماء الملام فأرسل إليه أبو تمام وقال إذا بعثت إلىّ ريشة من جناح الذل بعثت إليك. قال العاملى إن للبيت محملا آخر كنت أظن أنى لم أسبق اليه حتى رأيته فى التبيان وهو أن يكون ماء الملام من قبيل المشاكلة ولا تظن أن تأخر ذكر ماء البكاء يمنع من المشاكلة فإنهم صرحوا فى قوله تعالى ــ فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ــ أن تسمية الزحف على البطن مشيا لمشاكلة مابعده اهـ ملخصا .

(٢) الخلس الاختلاس ، الأفياء : جمع فىء ، وهو كل ما كان شمسا فنسخه الظل . الخامل : الذى لا شأن له . والمعنى كان هوى هذه الجميلات مختلسا لايدرى أمره العذال والرقباء ، وإن أحسن الهوى هو الذى لا ذكر له ولا شأن يشتهر به بين الناس .

وكذلك قبح من جناسه قوله :

قَرَّتْ بقَرَّانَ عَيْنُ الدهرِ واشْتَرَتْ بالأشترين عيون الشِّرْكِ فاصطلحا

وقوله :

ذَهَبَتْ بمَذْهَبِه السماحــةُ فالتوت فيه الظُّنُونُ أَمُذْهِبٌ أَمْ مَذْهَبُ

ومن قبيح طباقه :

إن المـــلوكَ هُمُ كَوَاكِبُنَا التى تَخْفَى وَتَطْلُعُ أَسْـــعُدًا ونُحُوسَا

فانظر إلى الطباق فى قوله تخفى وتطلع كيف جره إلى ســـوء الأدب فى جعل الملوك تغور وتختفى ثم وصفها بالنحس ، وهو لفظ تكفى بشاعته فى مقام المدح .

وأما إغرابه وتعويله على الألفاظ الحوشية ، فقد كان غراما منه واستظهاراً بعلمه بلغات العرب .

وقصيدته التى يمدح بها عَيّاش بن لَهِيعَة كلها تقريباً أمثلة لهذه الغرابة ، قال فى مطلعها :

أحيا حشاشة قلب كان مخلوساً ورمّ بالصبر عقلا كان مألوسا(١)

ومنها :

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعثت عشواء تالية غبساً دهاريسا(٢)

ومنها :

الواردين حياض الموت متأقة ثباثبا وكراديساً كراديسا(٣)

نَمَوْكَ قِنْعَاس دَهْرٍ حين يَحْزُنُه أمرٌ يُشَاكِهُ آباءً قناعيسا(٤)

وبعد ، فإن عيوب أبى تمـام كثيرة ، ومرذول شعره شائع فى ديوانه ، وماأشبّه حسناته بين إساءاته إلا بجواهر نفيسة قد انتثرت فى أرض كأداء وعرة ، فإذا ماأعيا المرء

---

(١) المخلوس : المسلوب . رمّ : أصلح . مألوس : مختلط .

(٢) اطلخم : أظلم . العشواء : ضعيفة البصر . الغبس : جمع غبساء ، وهى المظلمة . الدهاريس : جمع دهرس (كجعفر) وهى الداهية .

(٣) متأقة : ممتلئة . ثبا : جماعات . كراديس : جمع كردوسة ، وهى القطعة العظيمه من الخيل .

(٤) نموك : نسبوك . القنعاس : شديد منيع من الإبل والرجال . يشاكه : يشاكل ويشابه .

وحفيت قدمه صادف ، وقد أشرف على اليأس جوهرة من تلك الجواهر ، فيعوّضه لقاؤها ما لاقى من عناء ، وعانى من لأواء . وقد يسعد القارئ الحظّ فيجد القصيدة أو أو المقطوعة كلها قد سلمت من العيب ، فيرى نفسه حين يقرؤها كأنه فى سهل قد نبت جانباه ، واضطرب بالماء ساحلاه ، وهذه سلوة المتتبع لشعر أبى تمام . ولقد وجب على قارئ شعره أن يتمثل بقوله :

ولم تُعْطِنِي الأيامُ نَوْمًا مُسَكَّنًا أَلَذُّ به إلاّ بنـــومٍ مُشَرَّدِ

أو قوله :

بَصُرْتَ بالرَّاحةِ الكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إلاّ عَلَى جَسْرٍ من التَّعَبِ

وقبل أن نختم القول فى مساوئ أبى تمام نروى لك بعضاً من كلامه الذى صفا لفظه ، وراق معناه وقربت استعارته ، وحسن أثر البديع فيه ، وذلك قوله فى وصف الروض:

إنّ الرَّبيـــعَ أَثَرُ الزَّمَانِ لو كان ذَا رُوحٍ وذا جُثْمَانِ
مُصــوَّرا فى صورة الإنسان لكان بَسَّامًا من الفتيانِ
بُورِكْتَ من وقتٍ ومن أَوَانِ فالأَرْضُ نَشْوَى من ثَرًى نَشْوَانِ
تَخْتَالُ فى مُفَوَّفِ الأَلْوَانِ فى زَهَرٍ كالحَــدَقِ الرَّوَانِي[1]
من فاقعٍ وناصـــعٍ وقَانِ عَجِبْتُ من ذِى فِكْرَةٍ يَقْظَانِ
رَأَى جُفُونَ زَهَرِ الأَلْوَانِ فَشَكَّ أَنَّ كلَّ شَىْءٍ فانِ

الأغراض فى شعره

تناول أبو تمام جميع أغراض الشعر من : مدح ، ورثاء ، ووصف ، وغزل ، وحكمة ، وهجاء ، وزهد ، وعتاب ، ولكنها لم تكن كلها بمثابة واحدة ، فالمديح والرثاء أعلى طبقات

---

(١) يقال برد مفوف (كمعظم) إذا كان رقيقا أو فيه خطوط بيض .

شعره ، وربما كان أشهر بالرثاء منه بالمديح ، وإن كان فى المديح مجليا بدليل ماحاز من اللها . ونستطيع أن ندلك على حسنة من حسناته ، ومثال من أمثلته إجادته للمدح لم يسبق عرضه عليك، ذلك هو قصيدته التى يمدح بها المعتصم ، وقد فتح عمورية فإنه أعلى فيها من شأن الخليفة ، ونوّه بعمله فى إخضاع الكفر وإذلال الشرك ، وقد تناولت القصيدة أغراضاً كثيرة من ذكر عمورية ، وما لها من مناعة ، ووصف لفعل النار بها وإظهار للتشفى بما أصابها ، ومدح للخليفة بحسن حياطته للدين ، ومنها قوله :

تدبيرُ معتصمٍ بالله منتقمٍ ... لله مرتقبٍ فى الله مُرْتَهِبِ

لم يَغْزُ قوما ولم يَنْهَضْ إلى بَلَدٍ ... إلاّ تَقَدَّمَهُ جيشٌ من الرُّعُبِ

لو لم يقُدْ جَحْفَلاً يوم الوَغَى لَغَدَا ... من نفسه وَحْدَها فى جَحْفَلٍ لَجِبِ

خليفةَ اللهِ جَازَى الله سَعْيَك عَنْ ... جُرْثُومَةِ الدينِ والإسلامِ والحَسَبِ

بَصُرْتَ بالراحة الكبرى فلم ترها ... تُنال إلا على جِسْرٍ من التَّعَبِ

وأما رثاؤه فنستطيع أن ندلك على وجه إبداعه فيه وصيرورته أسمى أغراضه وأكثرها جودة ، ذلك أن الرثاء جد كله لا يحسن فيه التلاعب بالاستعارات ، ولا الإغماض فى الإشارات ، ولا التمادى فى التحسين ؛ إذ أن ذلك ينافى اشتغال القلب بالحزن وتأثره بالفجيعة ، وأبو تمام إذا سلم من هذه السقطات كان شعره فى أرقى المنازل ، فهذا فى رأينا هو فرق مابين مديحه ورثائه ، يبيح لنفسه فى الأوّل أن يسرف وأن يشتغل بما يسميه تجويداً أو تنميقاً فيسلم له بعض ويشوه بعض .

وقد مرّت بك أبيات من رثائه لمحمد بن حميد الطُّوسىّ ، وأوّل القصيدة :

كذا فَلْيَجِلّ الخَطْبُ ولْيَفْدَحِ الأَمْرُ ... فليسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ

وَ (كذلك) له فيه قصيدة يقول عنها صاحب العمدة : إن مطلعها خير مطلع فى مراثى المولدين وهو :

أَصَمّ بك الناعى وإن كان أسمعا ... وأصبحَ مَغْنَى الجودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

ومنها :

فلم أرَ يومًا كان أشبهَ ساعةٍ ... بيومٍ من اليوم الذى فيه وَدَّعَا
مَصيفٌ أفاض الحزنُ فيه جداولا ... من الدمع حتى خِلْتُه صار مَرْبَعَا
ووالله لا تَقْضِى العيونُ الذى له ... عليها ولو صارت مَعَ الدَّمْعِ أَدْمُعَا
فتًى كان شِرْبًا للعُفاةِ ومَرْتَعًا ... فأصبح للهِنْدِيَّةِ البِيضِ مَرْتَعَا
فتى كلما ارتاد الشُّجَاعُ من الرَّدَى ... مَفَرًّا غَدَاةَ المَأْزِقِ ارتاد مَصْرَعَا
إذا ساء يومٌ فى الكريهة مَنْظَرًا ... تَصَلَّاهُ عِلْمًا أَن سَيَحْسُنُ مَسْمَعَا
فإن تَرْمِ عَنْ عُمْرٍ تدانى به المَدَى ... فخانك حتى لم تَجِدْ فيه مَنْزِعا
فما كنتَ إلّا السيفَ لاقى ضريبةً ... فقطَّعَهَا ثُمَّ انثنى فتَقَطَّعَا

وأما الوصف فأظهر ما أطال فى وصفه هو الربيع ، فله فيه قصائد أقام فيها وصفه مقام النسيب ، ومنها قصيدته التى يمدح بها المعتصم بعد وصف طويل للربيع وأنواره ، وهى التى مطلعها :

رَقَّتْ حواشى الدهرِ فَهْىَ تَمَرْمَرُ ... وغدا الثرى فى حَلْيِه يتَكَسَّرُ (١)
نَزَلَتْ مُقَدِّمَةُ المَصِيفِ حميدةً ... وَيَدُ الشتاء جديدةٌ لا تُكْفَرُ (٢)
لَوْلاَ الذى غَرَس الشتاء بكفه ... لاقى المصيفُ هَشَائِمًا لا تُثْمِرُ (٣)

ومنها قوله :

يا صاحبىَّ تَقَصَّيَا نظريكما ... تَرَيَا وجوهَ الأَرْضِ كيف تَصَوَّرُ
تَرَيَا نهارًا مُشْمِسًا قد شَابَهُ ... زَهْرُ الرُّبا فكأنما هو مُقْمِرُ (٤)
دنيا مَعَاشٌ للفتى حتى إذا ... حَلَّ الربيعُ فإنَّمَا هى مَنْظَرُ

---

(١) تمرمر يتمرمر : تموّج يتموج . الثرى التراب . يتكسر : يتثنى ، والمراد بحلى الثرى نباته .
(٢) مقدمة المصيف : هى مايسبقه ، وهو الربيع ، وحمد يد الشتاء لأنه ندّى الأرض حتى نبت النبت .
(٣) الهشائم : جمع هشيمة ، وهى الشجرة اليابسة .
(٤) يريد أن خضرة النبات كسرت من ضوء الشمس حتى صار ضوءها هادئا ضعيفا كضوء القمر .

أَضْحَتْ تَصُوغُ بُطُونُها لظهورها نَوْرًا تَكَادُ له القُلُوبُ تُنَوِّرُ

ومنها فى التخلص إلى المدح وقد أبدع ما شاء :

خُلُقٌ أطَلَّ من الربيع كأنه خُلُقُ الإمامِ وهَدْيُه المُتَنَشَّرُ
فى الأرضِ من عَدْلِ الإمامِ وجُودِهِ ومن النَّبَاتِ الغَضِّ سُرْجٌ تَزْهَرُ(١)

❊

وأما الحكمة فى شعره فقد كثرت حتى قيل فى الموازنة بينه و بين البحترى والمتنبى : أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر البحترى .

ولكن الذى ينبغى أن نعلمه أن الحكمة ليست بمثابة واحدة عند أبى تمام والمتنبى ، فهى من ناحية الكم قليلة عند أبى تمام غزيرة عند المتنبى ، وهى من ناحية النوع قريبة بسيطة عند الأول عميقة مركبة عند الثانى ، ومرجع ذلك أن مصدر الحكمة عندهما هو العلوم المترجمة . وقد كانت أيام أبى تمام فى بدء حياتها عند العرب لم تكن نضجت ولا شاعت بينهم ، أما فى أيام المتنبى ، فقد كان لطول العهد بها أثر فى تداولها وتأصلها فى النفوس ، لذلك إذا رأيت أبا تمام يلمّ بها إلمامًا ، ويتناولها من أطرافها تجد المتنبى يحكيها حكاية الدارس المتثبت ، و ينقلها نقل الحافظ الواعى حتى لقد قالوا : إنه عمل على نقل حكم أرسطو كلها فى شعره ، فوزّعها فيه بالمناسبات التى صحت لها ، لكن حكمة أبى تمام لم تكن نقلا ، ولا حكاية لحكمة اليونان أو غيرهم ، و إنما كانت أثر الثقافة العامة التى استفادها من الاطلاع على علوم هذه الأمم .

وناحية أخرى من الفرق بين حكمة هذين الشاعرين أنك تجد المتنبى يأتى بها فى الغالب مستقلة بنفسها غنية عما قبلها فى إفادة معناها تصلح للاستشهاد وتستقلّ بالإنشاد . أما حكمة أبى تمام فهى فى الغالب إنما سيقت مرتبطة بالمعنى الذى اتصلت به ووردت

---

(١) سرج (بالضم) مخفف سرج بضمتين جمع سراج ، تزهر (كمنع) تتلألأ .

بمناسبته ، ولم تمنح من ألفاظ العموم ما يجعلها تستقل بوجودها ، وذلك كله يمثل بساطتها فى نفس قائلها كما يمثل ورودها على لسان الثانى أنها معنى متكامل اختير له لفظ مستقل ، وجملة القول أن حكمة أبى تمام فى الغالب جزء من البيت ، أما حكمة المتنبى فبيت مستقل ، هذا إلى كون الأولى أقرب إلى الخصوص ، والثانية أظهر فى العموم .

ومن أمثلة حكمه قوله :

مالتْ وقد أعْلَقْتُ كَفِّى كَفَّها حِلاًّ (وما كلّ الحلال يطيب)

وقوله :

المجدُ شيمتُهُ وفيه فُكاهَةٌ سَمْحٌ (ولا جِدٌّ لمن لا يَلْعَبُ)

وقوله :

تَعِبُ الخلائقِ والنَّوالِ (ولم يكن بالمستريح العِرْض من لم يَتْعَبِ)

وقوله :

لو سِرْتَ لالتقتِ الضلوعُ عَلَى أَسًى كَلِفٍ قليل السِّلْمِ للأحشاء

ولجفَّ نُوَّارُ القريض (وقلما يُلْفَى بقاء الغَرْسِ بَعْدَ الماء)

وقوله :

وضعيفةٍ فإذا أصابتْ فرصةً قتلت (كذلك قُدْرَةُ الضُّعَفَاءِ)

وقوله :

ذرينى وأهوالَ الزمانِ أُعانِهَا (فأَهْوَاله العظمى تَليها رَغَائِبُه)

وقوله :

لما أطال ارتجال العَذْلِ قُلْتُ له (العزمِ يَثْنِي خُطُوبَ الدَّهْرِ لا الخُطَبُ)

وقليل فى كلامه تلك الحكم المستقلة مثل قوله :

السيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً من الكتب فى حده الحد بين الجِدِّ واللَّعِبِ

وقوله :

إن الأُسودَ أسود الغاب هِمَّتُهَا يَوْمَ الكريهة فى المسلوبِ لا السَّلَبِ

وقوله :

ومن لم يُسَلِّمْ للنوائب أصبحت خلائقُهُ طُرًّا عليه نَوَائِبَا

وقوله :

قد يُنْعِمُ اللهُ بالبلوى وإنْ عَظُمَتْ ويَبْتَلِي اللهُ بَعْضَ القومِ بالنِّعَمِ

أما الحكم فى كلام المتنبى ، فهى كما وصفنا كثيرة الكم عميقة الفكرة غالبة الاستقلال بعبارتها وأمثلتها كثيرة لانطيل بذكرها ، فهى منك بمرأى ومسمع فى كلّ حين .

وأما الغزل فى شعره فلا يدل على طبع ولا يعبر عن وجدان ، فهو فى نظرنا غزل صناعى يجىء به أبو تمام ليقيم عمود القصيدة لايعبر فيه عن لوعة ، ولا يذرف به دمعة ، وظننا أنه لوكان أبو تمام عاشقاً مدلهاً ومحباً مدنفاً ما استطاع بمذهبه الذى اختاره لنفسه وأسلوبه الذى عكف عليه أن يأتى بحسن فى هذا الباب ، لأن الرجل عميق فى معانيه ، غريب فى مبانيه ، وليس شىء من ذلك صالحا فى باب الغزل ، فالغزل يجيده شاعر كأبى نواس أو أبى العتاهية لما فيهما من سهولة وطبع مقارب ومعان متداولة ، ألم تر إلى الفرزدق وقدكان فاسقا فاتكا لم يكن غزلا لجساوة لفظه ورجاحة معانيه ؛ فأما جرير وهو معاصره ومعاشره فقد دان له الغزل لما ملك من طبعه وسهولة لفظه وقرب معانيه مالم يملك الفرزدق ، فهكذا الشأن فى أبى تمام والمتنبى شغلا بالحكمة والمعنى الفائق ، واللفظ الجزل ، فلم يسلس لهما قياد الغزل لأنهما لايملكان آلاته.

ومن غزله الحسن فى صناعته قوله :

آرامةَ كُنْتِ مَأْلفَ كُلِّ رِيمٍ لو استمتعْتِ بالأُنْسِ الْمُقيمِ
أَدارَ البؤسِ حَسَّنَكِ التَّصَابِي إلىّ فَصِرْتِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ
لئنْ أصبحتِ مَيْدَانَ السَّوَافِي لَقَدْ أصبَحْتِ مَيْدَانَ الهُمُومِ
ومما ضَرَّمَ البُرَحَاءَ أَنِّى شَكَوْتُ فما شَكَوْتُ إلى رَحِيم
أَظُنُّ الدَّمْعَ فى خَدِّى سَيَبْقَى رُسُومًا من بكائِى فى الرُّسُومِ
وليلٍ بِتُّ أَكْلَؤُهُ كأنِّى سَلِيمٌ أو سَهِرْتُ على سَلِيمِ

وقوله :

مافى وقوفك ساعةً من باسِ   نقْضِى ذِمامَ الأَرْبُعِ الادْرَاسِ
فلعلَّ عينكَ أن تُعِينَ بمائِهَا   والدمْعُ منهُ خاذلٌ ومُوَاسِ
لا يُسْعِدُ المشتاقَ وَسْنَانُ الهوى   يَبِسُ المَدَامِعِ باردُ الأَنْفَاسِ
إنَّ المنازلَ ساوَرَتْهَا فُرْقَةٌ   أَخلَتْ من الآرام كُلَّ كِنَاسِ

ومما سمج من غزله قوله :

يا شادناً صِيغَ من الشَّمْسِ   تِهْ بالمَلاَحَاتِ على الإنْسِ
فى كلِّ يوم أنت فى صورةٍ   غَيْرِ التى كُنْتَ بها أَمْسِ
تَزْدَادُ طيباً كلَّ يومٍ كما   يزداد غُصْنُ البان فى الغَرْسِ
واللهِ لولا اللهُ لا غيرُه   وخوفَ النار على نفسى
صَلَّيْتُ خَمْساً لك من هيبة   وزدت ثِنْتَيْن على الخَمْسِ

فانظر إلى روحه الثقيلة فى الحلف بالله وتأكيد ذلك بقوله لاغيره ، ثم خوفه على نفسه من النار ، والمحبّ فى سبيل حبه يستهين بكلّ شىء ، ثم انظر إلى مشارفته الكفر فى سبيل غزله حين نوى أن يصلى لمحبوبه خمساً أوسبعاً .

وانظر إلى أسلوبه الذى لم يعهد فى غزلٍ قبله ، وهو قوله :

أَزَعَمْتَ أن الظَّبْىَ يَحْكِى طَرْفَه   والغُصْنَ حين يجول فيه ماؤه
اسكتْ فأين ضياؤه وبهاؤه   وذكاؤه ووفاؤه وحياؤه

وفى لفظ اسكت ما فيه مما يجافى رقة الغزل وعذوبة ألفاظه ، ولين خطابه ، وفى وصف المحبوب بالوفاء مخالفة لما جرى عليه العشاق من اتهامه بالغدر والخلف .

وانظر إلى قوله فى قسوة محبوبه :

لكنَّما أشكو إلى حَجَرٍ   تَنْبُو المعاول عنه أو أقسى

ويكفى من سوء الأدب فى الحب أن يجعل محبوبه حجراً أو أقسى من الحجر .

وبقية أغراض شعره لا نعلق عليها بقول ، إلا أنه فى الهجاء كان مُغَلَّباً ، وليس

انهزام الشاعر فى هذا الباب إلا دليلا على سلامة نفسه ، و بعد الهجر من لسانه ، وعدم تسلط الشرّ والغضب على طبعه ، لذلك يقول ابن رشيق فى العمدة : إنه من المغلبين ، وقد هاجى ابن السَّرَّاج وعُتْبَة فما أتى بشىء .

آثار أبى تمام

لعلّ أبا تمام أول شاعر تناول التأليف ، ولكن خصوصيته فى تحصيل شعر العرب جاهلية و إسلاما هى التى جعلته يخرج لنا ديوان الحماسة الذى رتبه على عشرة أبواب هى : الحماسة، والمراثى، والأدب ، والتشبيب ، والهجاء ، والإضافات ، والصفات والسير ، والملح ، ومذمة النساء . وقد كثر شرّاحه ، فشرحه الخطيب التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ ﻫ ، وهو مطبوع أر بعة أجزاء كبار ، وهو أكبر شروحه ، وله شروح أخرى للمرزوقى ، وأبى العلاء المعرى ، وابن جنى ، ومنها نسخ خطية بدار الكتب الملكية .

وقد شرحه أخيراً الأستاذ اللغوى الشيخ سيد بن على المرصفى فى كتاب سماه : « أسرار الحماسة » ، وقد رأى أن يغير نظامه ، و يرتب أبوابه ترتيباً آخر .

وقد ترجم ديوان الحماسة إلى الألمانية « فريدريك روكرت » . ولأبى تمام حماسة أخرى تسمى كتاب « الوَحْشِيّات » ، وهى إحدى الكتب النادرة التى أحضرها أحمد زكى باشا لتطبع بمصر ، ولم يطبع للآن .

وقد ذكروا أن السبب فى تأليفه هذين الكتابين وثلاثة غيرها فى الشعر أيضاً أنه نزل ضيفاً على صاحب له بهَمَذان اسمه ابن سَلَمَة ، فلما همّ بالرحيل كان قد وقع ثلج قطع الطريق على السابلة ، فغمّ أبو تمام وفرح صديقه ، وقال له : « وطن نفسك على أن الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان » ، ثم شغله بخزانة كتبه ، فألف فى مدّة بقائه عنده هذه الكتب .

ومن آثاره ديوانه الذى جمعه أبو بكر الصُّولى المتوفى سنة ٣٣٥ ﻫ ورتبه على

حروف المعجم ثم جمعه عليّ بن الأَصْبَهَانيّ ورتبه على الأنواع ، وله شروح كثيرة ، منها : شرح الصولى ، وشرح التَّبْرِيزى، ومن كلّ منهما نسخة خطية بالمكتبة الملكية .

وهو مطبوع بمصر والشام بشرح لا قيمة له وضبط غير صحيح فى الغالب ، ويحتاج ديوان أبى تمام لخدمة حتى يسهل الانتفاع به .

حياة البحترى

[نسبه] : هو الوليد بن عُبَيْد الله . ينتهى نسبه إلى بُحْتُر ، ثم إلى طيئ ، ثم إلى قَحْطان . وهو عربى صميم لأن أمه كما ذكر فى شعره عربية كذلك ، قال :

بنى ناهلٍ مَهْلاً فإن ابن أختكم   له عَزَمَاتٌ هَزْلُ آرائها جِدّ

وقد كان البحترى يفخر بآبائه ، فمن ذلك قوله :

وإذا ما عددتُ يحيى وعَمْراً   وأَبَاناً وعامراً والوليدا
وعُبَيْدا ومُسْهِرًا وجُدَيًّا   وتَدُولاً وبُحْتُراً وعَتُودَا
لم أدع من مناقب المجد ما يُقْـ   ـنِـع من هَمَّ أن يكون مَجيدا
ذهبت طَيِّئٌ بسابقة المجـ   ـد على العالمين بأساً وجُودَا

نشأته وتصرفه

ولد بمدينة مَنْبِج سنة ٢٠٦ هـ ، وهى بين حلب والفرات ، وكان يضرب على شواطئ الفرات كثير من قبائل طيئ ، فكان يختلف إليهم ، فنشأ عربى اللهجة كما هو عربى النسب .

ومنبج التى كانت منشأه ، وحلب التى كان يتردد عليها ، والصقع كله الذى كان

(١) وقد استطعنا أخيرا أن نخدم شعر أبى تمام بما أحدثناه من إحياء لكتاب « هبة الأيام » وتعليق عليه .

مستراده ومذهبه ، ومراحه ومغداه ، كل ذلك كان له فى نفسه منزلة كبيرة فلم يفتر عن ترديد ذكر هذه البلاد فى شعره بعد أن صار إلى العراق ومدح الخلفاء ونادمهم .

وإنك لتظفر بأسباب تعلقه بموطنه الأول مما ردده فى شعره من الحنين إليه ، ومرجع ذلك إلى حسن الهواء ، وطيب الماء ، وفتنة الطبيعة ، وما كان له فيه من هوى يجذبه إليه إذ عشق عَلْوة بنت زُرْعة الحَلَبية ، ولعلها كانت الحبيب الأول ، فإنه لم يفتر عن ذكرها ، والنسيب بها فى قصائده التى مدح بها المتوكل وغيره ، ثم يظهر أنه كان يعيش بمنبج فى عزة من قومه ، وشرف قديم لبيته ، وتلك أسباب لا يَعْدِل الوطن معها شىء .

فأما فتنته بجمال بلاده ، فيدل عليها قوله :

حنَّتْ ركابى بالعِرَاقِ وشاقنى ... فى نَاجِرٍ بَرْدُ الشآم وريفُها(١)

وقوله :

ذَكَّرْتَنَا بَرْدَ الشآم وعَيْشَنا ... بين القِبَابِ البيضِ والْهَضَبَاتِ

وأمّا ما يدل على أنّ الشام مسكن هواه ، فقوله :

وقد حاولتُ أن تَخِدَ المطايا ... إلى حَىٍّ على حَلَب حُلُولِ(٢)

ولو أنى ملكتُ إليك عَزْمى ... وَصَلْتُ النَّصّ فيها بالذَّميلِ(٣)

وقوله :

جَفَوْتُ الشامَ مُرْتبَعِى وأُنْسِى ... وعَلْوَةُ خُلَّتِى وهَوَى فُؤَادِى(٤)

وأما كرم محتده وعراقة مجده ففى قوله :

جَدِّى الذى رَفَعَ الأذَانَ بمَنْبِجٍ ... وأقام فيها قِبْلَةَ الصَّلَوَاتِ

---

(١) ناجر : رجب أو صفر وكل شهر من شهور الصيف .

(٢) وخد البعير (كوعد) : أسرع .

(٣) النص : استخراج أقصى ماعند الدابة من السير . الذميل : السير اللين .

(٤) الخلة : الصديق ، الذكر والأنثى والواحد والجمع .

والحق أن للخيال الشعرى والدعوى الكاذبة من الشعراء أثراً فى بعض تلك الحقائق التى أحب البحترى أن يلزمنا الاعتراف بها ، فقد أرانا أنه كان فى بلاده فى أرغد عيش وأكرم منزلة حتى لقد جعل ذلك مَضْرِب المثل فى قوله لأبى نَهْشَلٍ مادحًا شاكراً :

لا أُنْسَيَنْ زمناً لديك مُهَذَّبًا وظلال عيش كان عندك سَجْسَجِ[1]
فى نِعْمَةٍ أوطِنْتُهَا فأقمتُ فى أفيائها فكأننى فى مَنْبِجِ

ويقول فى قصيدته فى وصف إيوان كسرى :

واشــترائى العراق خُطَّةُ غَبْنٍ بعد بيعى الشآمَ بَيْعَةَ وَكْسِ[2]

وليس أحد يعقل أن البحترى كان فى منبج فى أرفه من عيشه بالعراق ، وقد اقتنى المال الكثير وصار يركب فى جملة من عبيده ، واتخذ قهارمة وكتابا ، وخلف لأبنائه ثروة جعلتهم إلى زمن بعيد من الرؤساء والسادة المذكورين . هل يعقل أن يكون شأن البحترى فى منبج كما وصف؟ وقد ذكر أنه كان يتنقل فى أسواقها ويمدح باعة الباذنجان والبصل . فهب أن انطباعه على قول الشعر جعله يتحدر من فمه ، ولكن الشرف وسموّ المكانة كما يزعم كان جديرا أن يجعل موضوع شعره شيئاً غير مدح الباعة ، وهل يمدحهم إلا من يطمع فى شىء من دراهمهم أو ممــا يبيعونه غالبا ؟ .

وإذا قيس الغائب بالشاهد حكمنا بأن علوة هذه عروس من عرائس الشعر لم يدّع البحترى عشقها إلا ليصبِغ خياله بلون الحقيقة حتى يستطرفه سامعوه ، ولعل صبابته بها، وتحرقه عليها كانا كصبابته بغلامه نسيم الذى باعه يوما فاشتراه إبراهيم بن الحسن ابن سهل ، فأكثر البحترى من الأسف عليه ، وإظهار اللهفة ، والحسرة على فقده

---

(١) يوم سجسج : لا حر ولا قر .

(٢) وكس الرجل فى تجارته كأوكس (مبنيين للمجهول ، كوكس (كوعد) : لم يربح فيها .

حتى رده إليه إشفاقا عليه ، ثم باعه فأعاد السيرة وهكذا ، فجعل من كذب غرامه بغلامه وسيلة للحصول على المال .

***

سمع البحترى بشاعر عظيم القدر نابه الشأن أخمل شعراء عصره ، وحرمهم العطاء طول مدته ، ذلك هو أبو تمام الطائى ، وقد كان بحمص دخلها فى جولة من جولاته التى ذرع بها المملكة الإسلامية شرقا وغربا ، فقصده ليعرض عليه شعره فى جملة الشعراء الذين جعلوا من أبى تمام حكما يرجعون إليه كما كان النابغة الذبيانى بين أهل الجاهلية ، فلما سمع أبو تمام من البحترى أقبل عليه من بين سائر من حضر ، فلما تفرقوا عنه قال له : أنت أشعر من أنشدنى ، فكيف حالك ؟ فشكا إليه الخَلَّة ، فكتب إلى أهل معرة النعمان[1] (يصل كتابى هذا على يد الوليد بن عبيد الطائى وهو على بذاذاته[2] شاعر فأكرموه) ، وسلمه البطاقة ، وأمره أن يمدحهم ، فأكرموه بهذه الوصية ، ووظفوا له أربعة آلاف درهم ، فكان ذلك أول مال أصابه البحترى كما يقول :

وقد ذكر صاحب الأغانى راوى هذا الحديث حديثا آخر فى أول اجتماع كان بين أبى تمام والبحترى . قال محدثا عن لسان البحترى : أول مارأيت أبا تمام أنى دخلت على أبى سعيد محمد بن يوسف ، وقد مدحته بقصيدتى :

أَأَفَاقَ صَبٌّ من هوًى فأُفِيقَا   أو خانَ عَهْدًا أو أطاع شَفِيقَا

فسر بها أبو سعيد ، وكان فى مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس تكاد تمس ركبته ركبة

---

(١) معرّة النعمان : بلد بين حلب وحماة . والنعمان الذى أضيفت إليه هو النعمان بن بشير اجتاز بها فدفن بها ولدا فأضيفت إليه .

(٢) بذ (كعلم) بذاذة وبذوذة : ساءت حاله .

أبى سيعد ، فقال يافتى أما تستحى منى ؟ هذا شعرى ، وإنما تنتحله وتنشده بحضرتى قال أبو سعيد : أحقا ؟ قال : نعم ، ثم اندفع فأنشد أكثر القصيدة حتى شككنى فى نفسى، فجعلت أحلف له بكل محرجة من الأيمان أن الشعر لى ماسبقنى إليه أحد ، ولا سمعته منه ، ولا انتحلته ، فلم ينفع ذلك شيئاً ، فأطرق أبو سعيد ، وفَظِع[1] بى حتى تمنيت أنى سُخْتُ فى الأرض ، فقمت أجر رجلى فما هو إلا أن بلغت الباب حتى خرج لغلمان فردونى ، فأقبل علىّ الرجل فقال : الشعر لك يابنى ، والله ماقلته قط ، ولا سمعته إلا منك . قال : ثم دعانى (أبو تمام) ، وضمنى إليه ، وعانقنى ، وأقبل قرظنى ، ولزمته بعد ذلك ، وأخذت عنه ، واقتديت به .

ونحن نميل إلى ترجيح الرواية الأولى ، فإن كل ما أحاط بها يناسب حالة التلميذ ع أستاذه ، والناشئ فى الفن مع المنتهى فيه ، فأما أن يكون البحترى قد أنشد حضرة أبى تمام شعراً عالياً كقصيدته التى يمدح بها أبا سعيد حتى يبلغ من حسد ى تمام له أن يدعى الشعر لنفسه ، ثم يقال بعد ذلك إن البحترى لزم أبا تمام ، أخذ عنه ، فذلك مالا يقبله عقل ، ولا يليق بفهم .

⁂

لما نبه شأن البحترى فى الشعر وهو بمنبج وما حولها تحركت همته لقصد العراق أن كل نابغ فى فنه يقصد مقر الخلافة وموطن الأمراء ، والعظماء من الوزراء والقواد، يث المال تفيض به الخزائن وتنثر منه البدر على المجيدين ، فدخل بغداد وسر من رأى لدح الكبراء ، فلما عرف بينهم طمع أن يكون له عند الخليفة جاه فالتمس الوسيلة إلى ك بمدح وزيره الفتح بن خاقان . قال فيه شعراً وطلب الإذن عليه فأقام شهراً يصل إليه حتى جلس مجلساً عاما فأدخل البحترى عليه فسمع منه وجعل كما يقول

(1) يقال فظع (كفرح) بالأمر : ضاق به ذرعا ، والمراد هنا أن أبا سعيد ضاق بالبحترى وصار غير مطيق له لما ظهر له من انتحاله شعر أبى تمام .

البحترى يبتسم عند كل بيت جيد ، قال فعلمت أنه يعرف الشعر وكان ذلك أعجب من جميع ما وصلنى به ، وكان أول ما اهتزّ له قولى :

وقد قلْتُ للمُعْلِى إلى المجد طَرْفَهُ ۝ دَعِ المجدَ فالفتحُ بنُ خاقانَ شاغلُه
صَفَتْ مثل ما تَصْفُو المُدَامُ خِلاَلُه ۝ ورَقَّتْ كما رَقَّ النسيمُ شمائلُه

ثم إنه أمر له بخمسة آلاف درهم وقال له : أمير المؤمنين يخرج لصلاة الفطر ويخطب فاعمل شعراً تنشده إياه إذا رجع . ففعل البحترى ما أمره به الفتح ثم دخل على المتوكل فأنشده :

أَبَرَّ عَلَى الأنواء نائلُك الغَمْرُ ۝ وبِنْتَ بِفَخْرٍ ما يُشَا كِلُهُ فَخْـرُ(١)
وأنتَ (أمينَ اللهِ) فى الموضع الّذِى ۝ أَبَى اللهُ أن يَسْمُو إلى قَدْرِهِ قَدْرُ
تحسَّنَتِ الدنيا بعدلك فاغتدت ۝ وآفاقها بيض وأكنافها خُضْرُ(٢)

ومنها فى ذكر سيره إلى المصلى وخطبته :

وسِرْتَ بمُلْكٍ قاهرٍ وجلالةٍ ۝ وما لك زَهْوٌ بين ذَيْنِ ولا كِبْرُ
عليك ثيابُ المصطفَى وَوَقارُه ۝ وأنت به أولى إذا حَصْحَصَ الأمرُ(٣)

فأمر له المتوكل بعشرة آلاف درهم .

وما زال البحترى مختصًّا بالفتح حتى صار صاحب شفاعته ، وما زال الفتح يكرمه حتى صيره من جلساء المتوكل .

---

(١) أبر : زاد ، الأنواء : جمع نوء . وهو سقوط نجم وظهور آخر ، وكانوا يستدلون به على المطر فأطلق وأريد به المطر نفسه تجوّزا . الغمر : الكثير. بنت : تميزت .

(٢) المراد ببياض الآفاق واخضرار الأكناف كثرة الخصب . فإن الآفاق تبيض بالسحاب المتراكم والأكناف تخضر بالزرع النابت .

(٣) حصحص : بان وظهر .

منادمة البحترى للمتوكل

بمساعى الفتح صار البحترى نديمًا للمتوكل يحضر مجالسه التى يتبذل فيها لخاصته، ولعل ما كان فى البحترى من إعجاب بشعره وحركات شاذة فى إنشاده، كلها يثير الضحك ويبعث على العبث به، لعل ذلك من أسباب قبوله لمنادمة المتوكل إلى جانب الشعر الذى تحتاج إليه هذه المجالس فى إجازة بيت أو وصف كأس أو رواية خبر أو غير ذلك :

ذُكروا أن البحترى كان من أبغض الناس إنشاداً، كان يتزاور فى مشيته ويهز رأسه ومنكبيه ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول أحسنت والله، ثم يقبل على السامعين فيقول ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لايحسن أحد أن يقوله . وقد فعل شيئاً من ذلك وهو ينشد المتوكل قصيدته :

عَنْ أىّ ثَغْرٍ تبتسم ... وبأىّ طَرْفٍ تحتَكِمْ

حتى بلغ قوله :

قل للخليفةِ جعفرِ الـ ... ـمتوكلِ بن المعتصمْ
للمرتضَى بن المجتبَى ... والمنعِم بن المنتقِمْ

فأغرى به المتوكل أبا العنبس الصَّيْمَرى وقال له : أما تسمع يا صيمرى بحياتى إلا هجوته على هذا الروىّ، فقال تأمر حمدون أن يكتب ما أقول ثم حضرت بديهة الصيمرى فقال قصيدة منها :

واللهِ حِلْفَةَ صادق ... وبقبر أحمد والحَرَمْ
وبحق جعفرٍ الإما ... مِ بن الإمامِ المعتصِم
لأُصيِّرنك شُهْرَةً ... بين المَسِيل إلى العَلَمْ
حيث الطلول بذى سَلَمْ ... حيث الأَرَاكةُ والخِيَمْ(١)

---

(١) الخيم (بالتحريك) : موضع . الأراكة : موضع . وكذلك المسيل والعلم فى البيت قبله .

يابن الثقيلة والثقيـــل على قلوب ذوى النِّعَمْ

فغضب البحترى ، وخرج يعدو ، والمتوكل يضحك و يصفق .

و بلغ من ملابسة البحترى للمتوكل أن أفضى إليه بما كان بينه و بين قبيحة جاريته ، من عتب وأمره أن يعمل شعراً على لسانه ، فقال :

تعالَلْتِ عن وصل المُعَنَّى بك الصَّبِ وآثرتِ دار البعدِ منك على القرب
وحَمَّلْتِنِـــــــي ذنب المشيبِ و إنه لَذنبُك إن أنصفتِ فى الحكم لا ذَنْبِى
وواللّٰهِ ما اخترتُ السُّـلُوَّ على الهوى ولا حُلْتُ عما تعهدين من الحُبِّ
ولا ازداد إلا جِــــــدَّةً وتمــكنا محَلُّكِ من نفسى وحَظُّك من قلبى
فلا تجْمَعِى هَجْرًا وعَتْباً فلم أُعَـــدْ جَلِيداً على هَجْرِ الأَحِبَّةِ والعَتْب

فلما بلغتها الأبيات رضيت فوصله المتوكل .

وكان للمتوكل غلام اسمه «راح» ، وكان حسن الوجه ، وكان البحترى يحبه والمتوكل يدرك ذلك ، فأمر المتوكل راحا أن يملأ قدح بلور شرابا و يناوله البحترى ، فلما ناوله بهت البحترى ينظر إليه ، فقال له المتوكل : قل فى راح شعراً ، ولا تصرح باسمه فقال :

حارَ بالودِّ فتى أمــــسى رهينا بك مُدْنَفْ
اسم من أهواه فى شعــــرِىَ مقلوب مُصَحَّفْ

ودخل البحترى على المتوكل ، وهو جالس ببعض البرك والماء يسقط فيها ، فقال له : قل فى هذا يا بحترى . قال البحترى : ولم أكن ذا بديهة ، ولـكنى اعتزلت جانباً ، فقلت :

ذات ارتجازٍ بحنين الرَّعْدِ مجرورةُ الذيلِ صَدُوقُ الوعدِ[(١)]
مسفوحةُ الدمعِ لغير وَجْـدِ لها نَسِيمٌ كنسيمِ الوَرْدِ

---

(١) الارتجاز (هنا) : صوت الرعد . مجرورة الذيل : كناية عن كونها سحابة طويلة كأن لها ذيلا تجره . والمراد بصدق الوعد أن برقها ليس خلبا ، فهى إذا أبرقت أمطرت .

وَرَنَّةٌ مثلُ زئيرِ الأُسْــدِ ولمعُ بَرْقٍ كسيوف الهنــد
جاءت بها ريحُ الصَّبا من نَجْدِ فانتــثرت مثل انتثارِ العِقْدِ
فراحتِ الأرضُ بعَيْشٍ رَغْدِ من وشى أنوارِ الرُّبَا فى بُرْدِ
كأنما غُدْرَانُها فى الوَهْدِ يَلْعَبْنَ من حَبَابِها بالنَّرْدِ(١)

فقال المتوكل : انظروا ما ذا فى الخزائن من ماء الورد العتيق ، فادفعوه إلى البحترى . قال : فأخذت من ذلك شيئاً كثيراً و بعته بمال :

⁂

ويحدث التاريخ أن المتوكل قتل بأيدى الأتراك الذين أغراهم ابنه المنتصر حين رآى أباه يهمّ بخلعه من ولاية العهد ، و يغلظ له فى القول ، وكان الفتح بمجلسه فتصدى للدفاع عنه ، فكان نصيبه القتل ، وكان معهما البحترى فلم يقتل ، ولكنه وفى لسيديه وفاء عظيماً ، و بكاهما بكاء حارًّا ، ووصف شناعة قتلهما ، وغدر الغادرين بهما ، وصرح بأن الدافع إلى القتل هو ولىّ العهد ، ودعا عليه ألا يتمتع بالملك الذى خاض إليه دم أبيه ، فقال :

أكان وَلِيُّ العهدِ أَضْمَرَ غَدْرَةً ومن عَجَبٍ أن وُلِّىَ العَهْدَ غادرُهْ
فلا مُلِّىَ الباقى تُراثَ الذى مَضَى ولا حَمَلَتْ ذاكَ الدعاءَ منابرُهْ

بل لقد حرّض على القاتل فى قوله من هذه القصيدة :

حرامٌ علىَّ الرّاحُ بعدكَ أو أرى دَمًا بِدَمٍ يجرى على الأرض مائرُهْ
وهل أرْتجِى أن يطلب الدمَ واترٌ يدَ الدهرِ والموتورُ بالدمِ واترُهْ

وهذا وفاء كثير ، وجرأة عظيمة من شاعر يواجه بقوله خليفة بيده موته وحياته .

---

(١) الوهد : المكان المطمئن . الحباب : فقاقيع الماء . النرد : تلك اللعبة الفارسية المشهورة (الطاولة) . والمراد أن الحباب يتنقل على صفحة الماء كما تتنقل قطع النرد على رقعته .

ويظهر لى من كثرة تناول الشعراء لذكر هذه الحادثة أن المنتصر أدرك سوء فعله وشنيع خطته فأرخى للناس حبل القول حتى تنفد زفراتهم فى الشعر فينسى الحادث ، ولولا أنه فعل ذلك لأولع الناس برثاء المتوكل ووزيره وشاعت أقوالهم فيهما وربما نهض من ينتقم لهما متأثرا بما يصور الشعراء من شناعة الحادث وفظاعته .

البحترى مع المنتصر

ومن بعده من الخلفاء

عاصر البحترى بعد المتوكل خمسة من الخلفاء ، وهم المنتصر ابنه ثم المستعين أخوه ثم المعتزّ بن المتوكل ثم المهتدى بن الواثق ثم المعتمد بن المتوكل . ولكنه بعد موت المتوكل عاد إلى منبج ، وكان يختلف إلى هؤلاء الخلفاء وغيرهم يمدحهم ، وقد استطاع أن يرضيهم جميعاً وينال جوائزهم بما ركب فيه من طبع الملق ، وبما عرف من هوى كل خليفة فكان يعمل على رضاه استدراراً لماله .

دخل على المنتصر من ناحية مدحه بالرعاية لشأن العلويين وقضاء حاجاتهم وكان المنتصر يحب أن يشتهر بميله إليهم ورد مظالمهم فوقع البحترى على رضاه حين قال فيه :

رَدَدْتَ المظالمَ واسترجعتْ   يداكَ الحقوقَ لمن قد قُهِرْ
وآلُ أبى طالب بعد ما   أُذيعَ بِسِرْبِهِمُ فابْذَعَرّْ(1)
وصلْتَ شَوَابِكَ أرحامِهِمْ   وقد أوشكَ الحبلُ أن يَنْبَتِرْ
فقرَّبْتَ من حَظِّهِمْ ما نأى   وصَفَّيْتَ من شُرْبِهِمْ ما كَدُرْ

---

(1) أذيع بالشىء : ذهب به وانتهب . ابذعر : تفرق .

وأما المستعين فلم يفتح له أذنه أولا ثم لما مدحه بعد قتله أتامش[1] وكاتبه شجاعا أعطاه . والمعتز تقرب إليه بذم المستعين ودعوى أنه غصب الخلافة من أصحابها وكان المعتز يعجبه أن يسمع ذلك فى المستعين ولذلك لا تجد قصيدة فى مدح المعتز إلا وقد بناها على ثلب المستعين ، ونعته بسوء الأثر فى الخلافة ، فمن ذلك قوله من قصيدة أولها :

أَمَّا الخيالُ فإنه لم يَطْرُقِ ... إلا بعُقْبِ تَشَوُّفٍ وتَشَوُّقِ

ومنها فى مدحه وذم المستعين :

وَلَقَدْ وَلِيتَ فَكُنْتَ خَيْرَ مُجَمِّعٍ ... إذ كان مَن ناواك شَرَّ مُفرِّقِ
ولقد ردَدْتَ النائبات ذميمةً ... وفَسَحْتَ من كَنَفِ الزمان الضَّيِّق
وعفوْتَ عفواً عَمَّ أمــةَ أحمدٍ ... فى الغرب من أوطانهم والمَشْرِقِ
ولقد ردَدْتَ على الأنام عقولَهُمْ ... بهلاك سلطانِ الرَّكيك الأحْمَقِ[2]
والقَوْمُ خَرْقَى ما تُطُلِّبَ رُشْدُهُمْ ... وأُدِيرَ أَمْرُهُمُ بعَزْمَــةِ أَخْرَقِ[3]
كيف اهتداء الركب فى ظلمائهم ... ودليلُهُمْ مُتَخَلِّفٌ لم يَلْحَــقِ

وأما المهتدى فقد كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز فعمل على رفع المظالم وأبطل الملاهى وأقبل على النسك وصوم النهار وقيام الليل فمدحه البحترى بذلك فقال :

أَرَى حَوْزَةَ الإسلامِ حينَ وَلِيتَهَا ... تَحَرَّمَ باغيها وحِيــطَ حَرِيمُهَا
تدارك مَظْلُومُ الرعية حَقَّـــه ... وخَلَّى له وجه الطريق ظَـلُومُها

وكذلك تقرب إلى المعتمد وإن كانت التقوى ليست من صفاته ولكن يظهر أنه كان يحب أن يذكر بها .

---

(١) أتامش : من القواد الأتراك اختير لوزارة المستعين ، وهو لا يعرف الكتابة فكان يقوم بها عنه كاتبه شجاع . وقد استبد أتامش بأمر الخلافة حتى ثار عليه القواد فقتل سنة ٢٦٠ هـ .

(٢) يشير إلى قتل أتامش .

(٣) خرقى : جمع أخرق وهو الأحمق . يريد أنه إذ كان الرئيس أخرق فالقوم مثله وما فى قوله : « ماتطلب » مصدرية ظرفية .

ونكتفى من ذكر صِلاته بما كان منها بالخلفاء ، فأما من عداهم فهم كثيرون نجد أسماءهم قد صدرت بها القصائد التى قيلت فيهم فارجع إلى ذلك فى ديوانه .

وقد مات البحترى بداء السكتة بمنبج سنة ٢٨٤ هـ ، وقد خلف أبناء منهم أبو الغوث الذى ذكره فى شعره ، وكان من أحفاده أبو عبادة بن يحيى بن الوليد وأخوه عبد الله وقد كانا رئيسين فى زمانهما ومدحهما المتنبى .

شـــعر البحترى

ليس ينكر ما للبيئة والوراثة من أثر فى النفس ، والبحترى له منهما أعظم معين على الشاعرية والتبريز فيها ، فقد كانت بيئته كما تعلم منبج ، وهى من بلاد الشام وصفت بالحسن ورقة الهواء وعذوبة الماء ، وإلى جانبها حلب ، وعواصم الشام تجلو مناظرها العين ، وتشحذ الذهن ، وتفسح الخيال ، والشام معروفة منذ قديم بفضلها على شعرائها وأنها جعلتهم أعذب الشعراء ألفاظاً وأبدعهم خيالا حتى لقد كان الصاحب بن عباد يعجب بأشعارهم ويحرص على حفظها ويستملى الطارئين عليه ما يحفظونه منها حتى ملأ دفتراً ضخماً فكان لا يفارقه فى مجلسه ولا يملأ أحد منه عينه غيره ، وصار ماضمه هذا الدفتر على طرف لسانه وسنان قلمه يحاضر به فى مخاطباته ويورده فى مراسلاته .

وقد اجتمعت للبحترى هذه البيئة إلى تحدره من أصلاب عربية يعم فيها ويخول وتم له مع ذلك الاختلاف إلى قبائل طيئ الضاربين على شواطئ الفرات إلى منبج فكان له من كل هذه الأسباب شاعرية موروثة ومكتسبة تم بها طبعه ، واتسع ذرعه . فبحق ما يقول عنه أبو الفرج الأصبهانى : « شاعر فاضل فصيح حسن المذهب نقى الكلام مطبوع . وكان مشايخنا رحمهم الله يختمون به الشعراء » .

ويعترف البحترى بأنه تلميذ أبى تمام وأنه يحذو مذهبه وينحو نحوه ويراه

إماما ويقدمه على نفسه ، وكان إذا سئل عن نفسه وأبى تمام قال : جيّده خير من جيدى ورديئى خير من رديئه . وقال له يومًا أبو العباس المبرد . وقد أنشد شعراً كان أبو تمام قال فى مثل موضوعه : أنت والله أشعر من أبى تمام فى هذا الشعر، فقال: كلا والله إن أبا تمام لَلرئيس والأستاذ، والله ما أكلت الخبز إلا به ، فقال له المبرد: لله درك يا أبا الحسن فإنك تأبى إلا شرفا من جميع نواحيك . وقال بعضهم للبحترى : إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبى تمام فقال والله ما ينفعنى هذا القول ولا يضر أبا تمام ، والله ما أكلت الخبز إلا به ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكنى والله تابع له ، آخذٌ منه ، لائذ به ، نسيمى يركد عند هوائه وأرضى تنخفض عند سمائه .

والذى يثبت لك أن البحترى تلمذ لأبى تمام تلك الوصية التى حفظها عنه فى كيفية معالجة الشعر ، ومنها :

فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه وأبن فعاله وشرف مقامه وتَقَاضَ(١) المعانى واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ. وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام . ثم يقول له : وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين فما استحسنه العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله .

وبعد فلننظر هل تأثر التلميذ أستاذه فى طريقته وهل تبعه فى مذهبه ؟ وإذا كان ذلك حقا فإلى أىّ غاية انتهى هذا التأثر والاتباع ؟

نعرف أن طريقة أبى تمام هى الدقة فى المعانى والإكثار من الاستعارات والإلحاح فى أنواع البديع والخروج بالجزالة إلى الغرابة ومشارفة العنجهية .

---

(١) تقاض : طلب ، ومنه قول القائل :

إذا ماتقاضى المرء يوم وليلة   تقاضاه شىء لايمل التقاضيا

فأمّا البحترى فقد اتبع أستاذه ولكن فى حدود الطبع. وانتحى مذهبه، ولكن من غير أن يخل بمقتضى السليقة. ومع أنه كان يجلّ أستاذه، و يتمنى لوصار مثله، فإن طبعه العربى السليم، وسليقته الفطرية البريئة أبيا عليه أن يندفع فى تيار أستاذه فيكون مثله فى تعقيد المعانى، وغرابة الألفاظ، وشذوذ الاستعارات، وكثرة التحسين، بل كان منه إقبال على أنواع البديع السهلة المقبولة من الطباق والمقابلة، وهما أكثر ما كان يستعمل من أنواعه، وقد يأتى بالجناس سهلا ميسورا حسن الموقع

ففى هذا وحده اتبع أستاذه. فأما الاستعارات التى خرج بها أبو تمام عن مألوف قول العرب، وأما المعانى العويصة التى تجهد الذهن فى استخراجها، وأما الإصعاد فى حزن الكلام، والتنكب لسهله، فذلك مالم يستطع البحترى مجاراة أستاذه فيه، وما يدرينا لعله لإعجابه بأستاذه كان يتكلف فى بعض الأوقات أن يقول مثله فيقول، ثم إذا عرض كلامه على ذوقه السليم، وسمعه الناقد نفيا هذا الذى لا يوافق طبعه، وكان البحترى معروفاً بأنه يلقى من شعره ما يرتاب فيه.

ونستطيع أن نجعلك تَلْمُس شاعرية البحترى لمسا قويا، وأن تملأ يديك من الحكم عليه والتقدير لمذهبه، فنقول: إن البحترى و إن كان قد نشأ فى عصر ازدهرت فيه العلوم، وتعددت المعارف، وتنافس الناس فى تحصيلها، وحضور مجالسها وخاضوا فى الجدل فيها، لقد كان البحترى بمعزل عن هذه الحركة العنيفة؛ فإنه من أهل الشام، وهذه الحركة كانت على أشدها فى العراق، و بقرب قصور الخلفاء الذين حرّضوا عليها، و بعثوا فى الناس الاهتمام بها، فكان من المعقول أن تكون هذه الحركة هادئة لينة فى غير بغداد، وما داناها من الأمصار فهى لذلك كانت هادئة فى منبج، وفيما حولها من عرب يقيمون فى خيامهم وفيهم كل صفات البداوة إلا عنجهيتها لأنهم محاطون بالريف المتحضر، مقاربون للأمصار المتمدينة

لذلك نشأ البحترى، وكل ماله من ميزة هو سليقته العربية، وطبيعته الشعرية.

فقال الشعر بما فيه من فطرة لم تعقدها العلوم ، ولم تفسدها الفلسفة ، واتخذ من أقوال الشعراء الذين حفظ كلامهم مدد معانيه، فلم يخرج فيها عما عرف للشعراء السابقين الذين قلّ نصيبهم من العلم فقربت معانيهم ، واستقامت طريقتهم . لذلك لا تراهم يعدون البحترى فى أصحاب المعانى المخترعة ، ولكنهم يذكرونه بلطف الأخذ وحسن الاتباع ، ثم هو من ناحية اللفظ ، والأسلوب جمع بين فضيلتى البداوة والحضارة ، فأما فضيلة البداوة ، ففى صدق التعبير ، وحسن الأداء ، ووضوح الدلالة ، وأما فضيلة الحضارة ، ففى رقة اللفظ ، وسهولة الأسلوب ، وحسن وقع التحسين ، وهذا كل ما يقال فى الوصف العام لشعر البحترى .

أغراض الشعر عند البحترى

شعر البحترى كثير ، وديوانه الذى بأيدينا ضخم لا يكاد يدانيه ديوان شاعر ممن سبقوه ، وقد تناول جميع أنواع الشعر ، ولكنه لم يكن فيها جميعها سواء ، ويستحيل أن تكون مقدرة شاعر واحدة فى جميع فنون الشعر ، ولكن الشاعر المطبوع التام الملكة يجيد فى أكثر ما يقول ، وهكذا كان البحترى : أجاد فى أكثر الأغراض إجادة شهد له بها فى كل غرض، فحلٌ من فحول النقاد . ونستطيع أن نقول: إنه أجاد فى كل غرض ما عدا الهجاء .

فأما مدحه : فإنه فيه ساحر ينفثُ[1] فى العُقَد ، ويكفى أن نعلم أنه على رثاثة لبسه ، وقبح إنشاده وخيلائه ، وتيهه بشعره كان الفتح بن خاقان يقول لمن ينقم عليه : ذلك والله لو رمانا بالحجارة لكان ذلك مغفورا له فى جنب ما يقوله .

وقد علمت من حيلة البحترى أنه كان يدرس طبع الممدوح ، ويتعرّف هواه

(١) النفث : كالنفخ وهو أقلّ من التفل .

حتى يقع قوله بموضع من رضاه ، ويكفى فى الدلالة على فضله فى باب المدح أن يكون قد حوى هذه الثروة الطائلة التى بقيت فى عقبه : ونالوا بها الرياسة والسيادة فى قومهم .

ومن مديحه قوله فى المتوكل :

خلق الله جعفرا قيِّم الدنـــيا سدادا وقَيِّم الدين رُشْدا
أكرمَ الناس شِيمَةً وأتم النْــناس خُلْقا وأكثر الناس رِفْدا
ملِكٌ حَصَّنَتْ عزيمتُه الملـــكَ فأضحت له مُغاثاً وردّا(١)
أظهر العدلَ فاستنارت به الأر ض وعَمَّ البلادَ غَوْراً ونجدا
وحكى القَطْرَ بل أَبَرَّ على القطـــرِ بكفٍّ على البرية تَنْدَى
هو بحر السَّماحِ والجودِ فازدد منه قربا تَزْدَدْ من الفقر بُعْدا
بأثمالَ الدنيا عطاءً وبَذْلاً وجمال الدنيا سَناء ومجدا(٢)
وشبيهَ النبى خَلْقا وخُلُقا ونسيبَ النبى جَــدًّا فجَدّا
بك نَسْتَعْتِبُ الليالى ونَسْتَعْـــدِى على دهرنا المُسِيء فنُعْدَى
فابق عُمْرَ الزمانِ حتَّى نُؤَدِّى شكر إحسانك الذى لا يُؤَدَّى

وقال يمدحه ويذكر وفد الروم :

إنَّ الرعيةَ لم تَزَلْ فى سيرة عُمَرِيَّةٍ مُـــذْ ساسها المُتَوَكِّلُ
اللهُ آثرَ بالخـــلافة جَعْفَرًا ورآه ناصره الذى لا يَخْذُلُ
هى أفضلُ الرُّتَبِ التى جعلت له دون البرِيَّة وهو منها أفضلُ

(١) المغاث : اسم مكان من أغاث . الرد : عماد الشيء . يريد أن عزيمته صارت ملجأ للملك وكنفا يغيثه ويحميه .

(٢) سناء وردت فى الديوان بالثاء ، وهى غير مناسبة للمقام . والسناء : الشرف وهو المناسب . الثمال : الغياث .

مَلِكٌ إذا عاذ المسىءُ بعفـــوهِ ... غَفَرَ الإساءةَ قادراً لا يَعْجَـــلُ،(١)
وعفا كما صفح السحابُ ورَعْدُهُ ... قَصِفٌ وبارقُه حريقٌ مُشْعَلُ،(٢)
يَتَقَيَّلُ العـــــباسَ عَمَّ محمدٍ ... ووَصِيَّهُ فيما يقول ويفعـــلُ،(٣)
شَرَفٌ خُصِصْتَ به ومجدٌ باذخٌ ... متمكِّنٌ فوق النجوم مُؤَثَّلُ
لا يَعْدَمَنْكَ المسلمـــون فإنهم ... فى ظلِّ مُلْكِكَ أدركوا ما أمَّلوا
حَصَّنْتَ بَيْضَتَهُمْ وحُطْتَ حريمهم ... وحملتَ من أعبائهم ما استثقلوا
فادَيْتَ بالأسرى وقد غَلِقُوا فلا ... مَنٌّ ينال ولا فداءٌ يُقْبَلُ،(٤)
ورأيتُ وفدَ الرومِ بَعْدَ عِنادِهم ... عَرَفُوا فضائلك التى لا تُجْهَلُ
لَحَظُوكَ أول لحظةٍ فاستصغروا ... مَنْ كان يَعْظُمُ فيهمُ وَيُبَجَّلُ
أحضرتَهُمْ حُجَجاً لو اجْتُلِبَتْ بها ... عُصْمُ الجبال لأقبلتْ تَتَنَزَّلُ،(٥)
ورأوكَ وَضَّاحَ الجَبِينِ كما يُرَى ... قَمَرُ السماء السَّعْدُ ليلةَ يَكْمُلُ
نظروا إليك فقدَّسُوا ولو أنهم ... نطقوا الفصيح لكَبَّرُوا وهَلَّلُوا(٦)
حضروا السِّماطَ فكلما راموا القِرَى ... مالتْ بأيديهم عقولٌ ذُهَّلُ،(٧)

(١) عاذ به : لجأ إليه . ومعنى لا يعجل أى لا يعجل بالعقوبة .

(٢) صفح السحاب : سقى الناس ماءه . قصف : شديد الصوت .

(٣) التقيل : التتبع . يقال فلان يتقيل أباه : أى يسير على نهجه .

(٤) غلق الرهن فى يد المرتهن : إذا لم يستطع الراهن دفع ماعليه وفك الرهن . المن : طلاق الأسير من غير فدية .

(٥) العصم : جمع أعصم ، وهو من الطير والوحش مايلجأ إلى أعالى الجبال فلا ينال إلا بالحيلة القوية . فيضرب المثل بالقدرة على استنزاله من أماكنه ، فيقال فلان يستنزل العصم بكلامه: أى انه شديد التأثير .

(٦) التقديس : تنزيه الله وهو فى اصطلاح النصارى نوع من أنواع عبادتهم . التهليل : قول لا إله إلا الله .

(٧) السماط : المائدة . ذهل : جمع ذاهل بمعنى غافل .

تَهْوِى أَكُفُّهُمُ إلى أفواهِهِمْ   فتَحِيدُ عن قَصْدِ السَّبيلِ وَتَعْدِلُ
مُتَحَيِّرُونَ فباهِتٌ مُتَعَجِّبٌ   مما رأى أو ناظرٌ متأمِّلُ
ويَوَدُّ قومُهُمُ الأُلَى بَعَثُوا بهم   لو ضَمَّهُمْ بالأمْسِ ذاك المَحْفِلُ
قد نافس الغَيْبُ الحضورَ على الذى   شهدوا وقد حَسَدَ الرسولَ المُرْسِلُ
عَجَّلْتَ رِفْدَهُمُ فأفضـلُ نائل   حُبِىَ الوفودُ به الهَنِىءُ المُعْجَلُ[1]
فاللهَ أسألُ أن تُعَمَّرَ صالحا   فدوامُ عمرك خـيرُ شىء يُسألُ[2]

⁂

أما الغزَل فى شعره ، فهو أظهر محاسنه حتى لقد ضرب المثل بغزل البحترى ، ولعلنا إذا التمسنا وجه إبداعه فى هذا الباب نجد ما نقوله من أنه نشأ نشأة بدوية صفت فيها السماء ، واتسع الأفق ، وسنحت الظباء ، وتراءت له فتيات الحى فى خصورهن الهيف وقدودهنّ الميادة ، وعيونهن النجل كما رأى فى الحضر الذى تنقل فيه علوة الحلبية ، وقد شعف فؤاده حبها ، فلم ينسها بعد بالعراق ، وهو فى عاصمة تذهل مناظرها كل قلب ، وتسلب كل لبّ . وكان إلى جانب هذه النشأة ما عرفت له من طبع فياض وسهولة تكاد تسيل ، فكان من غزله ما قيد الأسماع ، وخالط النفوس فبكى الناس للوعته ، ورثوا لدائم عبرته ، ومتصاعد زفرته . أما هو فقد اشتاق والتاع ، وذكر اللقاء والوداع ، وارتاح لطيف الخيال ، وأنحى باللوم على العذال ، ووصف القدود ، وأسيل الخدود ، ليس له فى المعنى من فضل ، إلا أنه قرب بعيده وذلل ريّضه ، ثم صبه فى قالبه السحرى من اللفظ الناصع السهل ، مبدعا ما شاء فى الصوغ ، محليا بما هداه إليه الطبع ، ويأبى طبعه إلا الإحسان ، والخلو من الشوائب .

---

(١) الرفد : العطاء . حباه : أعطاه .

(٢) يقال عمره الله (بتشديد الميم) : أى أطال عمره ، لذلك يقال للطويل العمر معمر (بصيغة اسم المفعول).

ومن سهولة الغزل عليه وموافقته لطبعه تراه قد أكثر منه والتزمه فى بدء قصائده جريا على طريقة العرب فى بناء القصيدة على الغزل .

ولرقة غزله ، وحسن مذهبه فيه يصعب على المتخير أن يختار منه لأن الاختيار أثر المفاضلة ، وليس فى غزله فاضل ولا مفضول ، بل كل قطعة منه دمية فنية غنية بمحاسنها ، لا تزاحمها غيرها فى جمالها ، ولا تبزها بداعتها ، فانظر إليه حضريا فى شملة أعرابى يتغزل على طريقة السابقين ، فيذكر الآرام ، ورمل عالج ، والغور من تهامة فى قوله :

شُغْلانِ مِنْ عَذَلٍ ومن تَفْنِيدِ ورَسِيسِ حُبٍّ طارِفٍ وتَلِيدِ(١)
وأَمَا وَآرامِ الظِّباءِ لقد نَأَتْ بِهَواكَ آرامُ الظباءِ الغِيدِ(٢)
طالَعْنَ غَوْرًا من تِهامة واعْتَلَى عنهنَّ رَمْلاَ عالجٍ وزَرُودِ
لما مَشَيْنَ بذِى الأَرَاكِ تَشَابَهَتْ أعطافُ قُضْبَانٍ به وقُدُودِ
فى حُلَّتَىْ حِبَرٍ ورَوْض فالتقى وَشْيَانِ وَشْىُ رُبًا وَوَشْىُ بُرُودِ(٣)
وسَفَرْنَ فامتلأتْ عيونٌ راقها وَرْدَانِ وَرْدُ جَنًى وَوَرْدُ خُدُودِ
وضحِكْنَ فاغْتَرَفَ الأَقاحِى مِنْ نَدًى غَضٍّ وَسَلْسَالِ الرُّضَابِ بَرُودِ(٤)
تَرْجُو مقاربةَ الحبيبِ ودونه وَخْدٌ يُبَرِّحُ بالمَهَارَى القُودِ(٥)

(١) الرسيس : الشىء الثابت . يريد أن له أمرين يشغلانه ، وهما اللوم على الحب ، والثانى تباريح ذلك الحب . وعلى هذا يكون عطف تفنيد على عذل من عطف الترادف فهما شىء واحد .
(٢) الآرام : جمع رئم ، وهو الظبى الخالص البياض . الغيد : جمع أغيد أو غيداء ، وهو المائل العنق اللين الأعطاف . يقسم بحق الظباء أن الجميلات الشبيهات بها قد هجرنه بعد أن علق هواهن بقلبه
(٣) الحبر : جمع حبرة (كعنبة أو شجرة) وهو ضرب من برود اليمن . الوشى : زينة الثوب .
(٤) الأقاحى : نبت تشبه به الأسنان . الرضاب : الرّيق . البرود : البارد . يقول لما ضحكن ظهرت أسنانهن كالأقحوان وقد امتلأ من الندى فهو يجعل الأسنان كالأقحوان والريق كالندى
(٥) الوخد : الإسراع . التبريح : الإيلام . المهارى : جمع مهرية ، وهى الناقة الكريمة نسبت إلى بنى مهرة وقد عرفوا بكرم إبلهم . القود : جمع أقود أو قوداء ، وهو الذلول من الإبل .

ومتى يساعدُنا الوصالُ ودهرُنا يومان يومُ نوًى ويومُ صُدُودِ

وانظر إليه وقد اختار الأوزان القصيرة التى توافق خفة الغزل ونشوة الحب ، ثم هو يتلاعب بالمعانى ، فيطالب المحبوب بالرقة وفاء لذل العاشق ، ويستحلفه بالوصل بعد الهجر ، والقرب بعد البعد ، وهو لا شك عند المحب خير ما فى الدنيا ، فيقول :

لِمَ لا تَرِقُّ لذُلِّ عَبْدِكْ وخُضُوعِهِ فَتَفِي بوَعْدِكْ
إنِّى لأَسْأَلُكَ القليلَ وأَتَّقِى مِنْ سُوءِ رَدِّكْ
وأما وَوَصْلِكَ بَعْدَ هَجْرِكَ واقترابك بَعْدَ بُعْدِكْ
لا لُمْتُ نفسى فى هَوَاكَ ولا انْحَرَفْتُ لطولِ صَدِّكْ
ولَئِنْ أَسَأْتُ كما تُسِيءُ لما وَدِدْتُكَ حَقَّ وُدِّكْ

وانظر إليه ولم يأت بجديد من معانى الغزل . ولكنه يكاد بلفظه الرشيق وأسلوبه الخلاب يريك كأنه يتغزل بما لم يقله أحد قبله ، وما فى شعره لو فتشته إلا تشبيه القدّ بالقضيب والأسنان بالبرد ، وإلا كون المحبوب قد استولى على الحسن ، وتفرد بالدلال ، وإن الذرع قد ضاق بالحب . فصار مخرجه من الحب عسيراً . قال :

مُخْلِفٌ فى الذى وَعَدْ سِيلَ وَصْلاً فَلَمْ يَجُدْ[1]
وَهْوَ بِالْحُسْنِ مُسْتَبِدّ وبالدَّلِّ مُنْفَرِدْ
يَتَثَنَّى على قَضِيبٍ ويَفْتَرُّ عن بَرَدْ
قد تَطَلَّبْتُ مَخْرَجًا من هواه فَلَمْ أَجِدْ
ضاق صدرى بما أَجَنَّ وقلبى بما وَجَدْ
وتَغَضَّبْتَ أن شكوتُ جَوَى الحبِّ والكَمَدْ
واشتكائى هواكَ ذَنْبٌ فإن تَعْفُ لا أَعُدْ

---

(١) سيل : فعل ماض مبنى للمجهول من سال الذى سهل، فقلبت همزته ألفا فعومل معاملة الأجوف .

ومن غزله فى علوة ، قوله من قصيدة يمدح بها المعتز بالله :

خيالٌ يَعْتَرِينى فى المنام   لسَكْرَى اللّحْظِ فاتنةِ القَوَامِ
لعَلْوَةَ إنها شَجَنٌ لنفسى   وبَلْبَالٌ لقلبى المُسْتَهَامِ
إذا سَفَرَتْ رأيْتَ الطَّرْفَ بَحْتاً   ونارَ الحسنِ ساطعةَ الضِّرَامِ
تَظُنُّ البَرْقَ مُعْتَرِضاً إذا ما   جَلاَ عن ثَغْرِها حُسْنُ ابْتِسَامِ
كنَوْرِ الأُقْحُوانِ جَلاَهُ طَلٌّ   وسِمْطِ الدُّرِّ فُصِّلَ بالنظام(١)
سلامُ الله كلَّ صَبَاحِ يَوْمٍ   عليك ومَنْ يُبَلِّغُ لِى سَلاَمِى
لقد غادرتِ فى قلبى سَقَامًا   بما فى مُقْلَتَيْكِ من السِّهَامِ
وذَكَّرَنيكِ حسنُ الورد لَمَّا   أتى ولذيذُ مَشْرُوبِ المُدَامِ
لئن قلَّ التواصلُ أو تمادَى   بنا الهجْرَانُ عاما بعد عام
فَكَمْ مِنْ نظرةٍ لِى مِنْ بَعِيدٍ   إليكِ وَزَوْرَةٍ لَكِ فى اكْتِتَامِ
أَأَتَّخِذُ العراقَ هَوًى ودَاراً   ومَنْ أهواهُ فى أَرْضِ الشّآمِ

ومن قوله فى غلامه نسيم :

أَنَسِيمُ هَلْ للدهرِ وَعْدٌ صادقٌ   فيما يُؤَمِّلُهُ المُحِبُّ الوامِقُ
مَالِى فَقَدْتُكَ فى المنام ولم يَزَلْ   عَوْنَ المَشُوقِ إذا جَفَاهُ الشائقُ(٢)
ومُنِعْتَ أنتَ من الزيارة رِقْبَةً   منهمْ فهل مُنِعَ الخيالُ الطارقُ
اليوم جازَ بِىَ الهوى مقدارَهُ   فى أَهْلِهِ وعَلِمْتُ أَنِّى عاشقُ
فَلْيُهْنِىءِ الحسنَ بنَ وَهْبٍ أنَّهُ   يَلْقَى أحِبَّتَه ونحن نفارقُ

ومن قوله فيه أيضاً :

---

(١) السمط : العقد . النظام : الخيط ينظم فيه اللؤلؤ ونحوه . التفصيل : نظم العقد والتفريق بين حباته بأخرى .

(٢) المشوق : المحب . الشائق : المحبوب .

دَعَا عَبْرَتِى تجرى على الجَوْرِ والقَصْدِ   أَظُنُّ نسيمًا قَارَفَ الهَجْرَ من بَعْدِى[١]
خَلاَ ناظرى من طيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ   فيا عجبًا للدهرِ فَقْدًا على فَقْدِ
خليليَّ هل من نظرةٍ تُوصِـــلاَنِهاَ   إلَى وَجَنَاتٍ يَنْتَسِبْنَ إلَى الوَرْدِ
وقَدٍّ يكاد القلبُ يَنْقَدُّ دونه   إذا اهتزّ فى قُرْبٍ من العين أو بُعْدِ
كفى حزنا أَنَّا على الوصل نَلْتَـقِى   فُوَاقاً فتثْنِيناَ العُيُونُ إلى الصَّـــدِّ[٢]
فلو تُمْـكِنُ الشكوى لخبَّرك البكا   حقيقةَ ما عندى وإنْ جَلَّ ما عندى

وذكر صاحب الأغانى أن نسيما هذا كان غلاما روميا ليس بحسن الوجه ، وكان البحترى قد جعله بابا من أبواب الحيل على الناس ، فكان يبيعه و يتعمد أن يصيره إلى ملاك بعض أهل المروءات ، ومن ينفق عنده الأدب ، فإذا حصل فى ملكه نسب به وتشوقه ، ومدح مولاه حتى يهبه له فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكفى الناس أمره .

⁂

والوصف فى شعر البحترى باب بارع الجمال دقيق الصنعة اشتهر به البحترى شهرته بالغزل والمدح حتى قال فيه ابن المعتز : لو لم يكن للبحترى إلا قصيدته فى إيوان كسرى (فليس للعرب سينية مثلها) وقصيدته فى وصف بركة المتوكل ، لكان أشعر الناس . و يعده صاحب العمدة أحد الشعراء الذين أجادوا فى جميع الأوصاف ، و إن غلبت على أحدهم الإجادة فى بعضها كامرئ القيس ، وأبى نواس ، والبحترى ، وابن الرومى ، وابن المعتز، وكُشاجم ، والذى يغلب على البحترى وصف القصور ، وما يحيط بها .

ولا شك أن قصيدته فى وصف إيوان كسرى هى عروس شعره عامة ونموذج

(١) الجور: الظلم . القصد : الاعتدال . قارف : دانى وقارب. يقول لصاحبيه : اتركا دموعى تجرى بإسراف أو اعتدال فإن نسيما قد جفانى .

(٢) الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت ، أو هو ما بين فتح يدك وقبضها عند الحلب ، وهذا المعنى الأخير يناسب المبالغة فى قصر مدة التقائهما . والمراد بالعيون عيون الرقباء .

إجادته فى الوصف خاصة ، وليس العجيب عندى أنه وصف القصر ولـكن العجب أنه اتجه اتجاها لم يتجهه غيره من الشعراء فى العناية بدلائل العظمة للأمم السابقة والإشادة بما خلفوه من جهود تنطق بسمو مكانتهم وعلو كعبهم . وكثير من الشعراء قد عاشوا بمصر أو مروا بها فما رأيناهم ذكروا الأهرام ولا عاديات القدماء إلا ذكرا لا يدل على فضل تأثر بها وإعجاب بأصحابها .

أما البحترى فقد وفى للفرس أتم وفاء ، ورثى لمجدهم أحر رثاء . وعاتب الدهر على سوء أثره فيهم وقبح فعله بهم . وفى اعتقادنا أن البحترى فتح للشعراء بابا لم يستطيعوا ولوجه من بعده فظل مهجوراً حتى أشادت المدنية الحديثة بذكر الآثار وأنطقتها بعظمة أصحابها ، فكان من الشعراء العظماء المرحومين : محمود سامى البارودى باشا ، و إسماعيل صبرى باشا ، وأحمد شوقى بك ، أَنْ اقتفوا أثر البحترى فى نهجه بعد ألف عام وتنبهوا إلى هذه المنقبة التى لم يخلق الشعر إلا لمثلها ، ولم يشرف إلا بمثل موضوعها .

و إذا قلت : إن وصف الديار و بكاء أهلها عادة عربية قديمة فاعلم أنه لم يتوسع أحد فيها توسع البحترى فيخرج بحديثها من الغزل ومجرد اللهو إلى جد الحقيقة والوفاء للتاريخ . والعجيب أن تنال سينية البحترى هذه الشهرة ثم لا يكون من الشعراء اتجاه إلى موضوعها وتقليد له فى منحاها . ولـكن الذى صدهم عن ذلك أن موضوعها خالص للحقيقة ليس فيه زلفى لرئيس ولا وراءه مطمع فى عطاء . فهذا هو الذى أمات موضوعها فى نظر الشعراء فلم يجروا وراء البحترى فى شوطه الذى تفرد بالسبق فيه . ولقد صدق قول ابن المعتز (ليس للعرب سينية مثلها) وما كان أحراه أن يقول « ليس للعرب قصيدة مثلها » حتى لا يوهم قوله أن لنوع القافية أثراً فى التفرد بالحسن .

وليس يقل عن السينية فى تحدير العبرة ، ووصف النعيم الزائل والتفجع للجمال الحائل ، وصفه لقصر المتوكل بعد قتله وما أصابه من تهتيك الستور ، وتشريد الأطلاء والجآذر .

أما أوصافه التى لاشجو فيها ولا رثاء فمنها وصفه لبركة المتوكل وقصر المعتز وسنذكر طرفا من كل ذلك .

فمن وصف الإيوان قوله :

لو تراه علِمْتَ أنَّ الليالى جَعَلَتْ فيه مأتما بَعْدَ عُرْسِ
وهو يُنبيك عن عجائب قومٍ لا يُشابُ البيانُ فيهم بلَبْسِ
فإذا ما رأيت صورة أَنْطَاكِيَّةَ ارْتَعْتَ بين رُومٍ وفُرْسِ
والمنايا مواثلٌ وأنو شِرْ وَانُ يُزْجِى الصفوفَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ
فى اُخضرارٍ من اللباس على أصفر يختال فى صَبِيغَةِ وَرْسِ
وعِراكُ الرجالِ بَيْنَ يديهِ فى خُفُوتٍ منهم وإِغْماضِ جَرْسِ
من مُشِيحٍ يَهْوِى بعامل رُمْحٍ ومُلِيحٍ من السِّنَانِ بِتُرْسِ
تَصِفُ العينُ أنهم جِدُّ أَحْيا ءٍ لهم بَيْنَهُمْ إشارةُ خُرْسِ
يَغْتَلِى فيهِمُ ارتيابِىَ حتَّى تَتَقَرَّاهُمُ يداىَ بِلَمْسِ

ومنها :

وكأنّ الإيوانَ من عَجَبِ الصَّنْعةِ جَوْبٌ فى جَنْبِ أَرْعَنَ جَلْسِ
يُتَظَنَّى من الكَآبَةِ إنْ يَبْدُ لعَيْنَىْ مُصَبِّحٍ أو مُمَسِّى
مُزْعَجاً بالفراق عَنْ أُنْسِ إِلْفٍ عَزَّ أو مُرْهَقاً بتطليق عُرْسِ
عَكَسَتْ حظَّهُ الليالى وبات الْمُشْتَرِى فيه وهو كوكب نَحْسِ
فهو يُبْدِى تجلُّداً وعليه كَلْكَلٌ من كلاكلِ الدّهرِ مُرْسِى
لم يَعِبْهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسُطِ الدِّيباج واسْتُلَّ من سُتُورِ الدِّمَقْسِ
مُشْمَخِرٌّ تعلو له شُرُفاتٌ رُفِعَتْ فى رءوسِ رَضْوَى وقُدْسِ
ليس يُدْرَى أَصُنْعُ إنْسٍ لِجَنٍّ سَكَنُوهُ أم صُنْعُ جِنٍّ لِإِنْسِ

ومن قوله فى وصف قصر المتوكل بعد قتله :

تَغَــيَّرَ حُسْنُ الجَعْفَرِيِّ وأُنْسُهُ ... وقُوِّضَ بادى الجعفرىِّ وحاضرهْ(١)
تَحَمَّلَ عَنْــهُ ساكِنُوهُ فُجَاءَةً ... فعادَتْ ســواءً دُورُهُ ومَقَابِرُهْ(٢)
إذا نحن زُرْناه أَجَدَّ لنا الأَسَى ... وقد كان قبل اليومِ يَبْهَجُ زائِرُهْ(٣)
ولم أَنسَ وَحْشَ القَصْرِ إِذْ ريعَ سِرْبُهُ ... وإذ ذُعِرَتْ أطلاؤهُ وجآذِرُهْ(٤)
وإذا صِيحَ فيه بالرحيل هُتِّكَتْ ... على عَجَلٍ أستارُهُ وسَرَائِرُهْ(٥)
وَوحْشَتُهُ حتى كأنْ لم يُقِمْ به ... أنيسٌ ولم تَحْسُنْ لعينٍ مناظِرُهْ
كأنْ لم تَبِتْ فيه الخلافةُ طَلْقَةً ... بشاشَتُها والملكُ يُشْرِقُ زَاهِرُهْ
ولم تَجْمَعِ الدنيا إليــه بهاءَها ... وبَهْجَتَها والعيشُ غَضٌّ مَكَاسِرُهْ(٦)
فأين الحجابُ الصَّعْبُ حين تَمَنَّعَتْ ... بِهَيْبَتِهِ أبوابُهُ ومَقَاصِرُهْ
وأين عميدُ الناسِ فى كلِّ نَوْبَةٍ ... تَنُوبُ وناهى الدَّهْرِ فينا وآمِرُهْ

ومن وصف بركة المتوكل قوله :

يا من رأى البركة الحَسْناءَ رؤيَتُها ... والآنساتِ إذا لاحَتْ مغانيها(٧)

---

(١) الجعفرى : قصر المتوكل . قوض : تهدم . والمراد بالبادى والحاضر : جميع نواحيه كما يقال طاف فلان الدنيا باديتها وحاضرتها : أى جميع نواحيها ، أو كأنه لا تساعه كانت فيه نواح آهلة وأخرى خالية ، فجعل الآهلة حاضرة والخالية بادية.

(٢) كان قصر المتوكل هذا بناحية كثر فيها بناء الناس حول قصر الخليفة فكان كسكان المدن له بجانبه مقابر فلما خرب القصر أخليت المدينة فاستوت دورها وقبورها فى الخلو من الأحياء .

(٣) أجد : جد أو أحدث . الأسى : الحزن . بهج (كخجل) : فرح . و (كمنع) : أفرح .

(٤) الأطلاء : جمع طلا وهو ولد الظبية ساعة يولد. الجآذر : جمع جؤذر . وهو ولد البقرة الوحشية . ذعر : ريع وأخيف . السرب الجماعة من الانسان أو الحيوان . والمراد بوحش القصر نساؤه .

(٥) المراد بتهتيك الأستار : إزالة ما فى القصر من فرش وستائر ، وبتهتيك السرائر : ظهور مخبآت القصر . والبيت يروى فى كل مصادره « أستاره وستائره » ولا معنى للعطف لكونهما بمعنى واحد ، فلا بد أنه محرف عما ذكرنا .

(٦) الغض : الطرى . المكاسر : جمع مكسر (كمجلس) وهو موضع الكسر . والمعنى فى كون العيش غض المكاسر أنه لين لا شدة فيه .

(٧) الآنسات . جمع آنسة بمعنى مؤنسة. المغانى : جمع مغنى وهو المنزل والمسكن .

يَحْسَبها أنها من فضْلِ رُتْبَتِهَا ... تُعَدُّ واحـــــدةً والبحرُ ثانيها
ما بال دِجْلَةَ كالغَيْرَى تُنَافِسُها ... فى الحسنِ طَوْرًا وأطوارًا تُبَاهِيها[١]
أَمَارَأَتْ كالئَ الإسْلامِ يَكْلَؤُها ... من أنْ تُعابَ وَبَانِى المَجْدِ يَبْنِيهَا[٢]
كأنَّ جِنَّ سليمانَ الذين وَلُوا ... إبْدَاعها فأَدَقُّوا فى معانيها
فلو تَمُرُّ بها بِلْقِيسُ عن عُرُضٍ ... قالتْ هى الصَّرْحُ تمثيلا وتَشْبيها[٣]
تَنْصَبُّ فيها وفودُ الماءِ مُعْجَلَةً ... كالخيل خارجةً من حَبْلِ مُجْرِيها
كأنما الفضةُ البيضاء سائلةً ... من السبائك تَجْرِى فى مَجَارِيها
إذا عَلَتْها الصَّبَا أبدت لها حُبُكاً ... مثل الجَوَاشِنِ مَصْقُولاً حَوَاشِيها[٤]
فحاجبُ الشمس أحياناً يضاحكها ... وريِّقُ الغَيْثِ أحياناً يُبَاكِيها[٥]
إذا النجومُ تراءتْ فى جوانبها ... ليلا حَسِبْت سماءً رُكِّبَتْ فيها
لا يبلغ السَّمَكُ المحصورُ غايتها ... لِبُعْدِ ما بين قَاصِيها ودَانِيها

وليس إلى هذه الأمثلة ينتهى الحسن فى أوصاف البحترى بل إن إجادته فى هذا الباب لا يشبع منها إلا مراجعة ديوانه ، فهو الكفيل بذلك .

---

(١) دجلة : النهر الذى تقع عليه بغداد وتستمد منه هذه البركة .
(٢) كلأه (كمنع) : صانه ورماه . والمراد بكالئ الإسلام الخليفة المتوكل الممدوح بهذه القصيدة .
(٣) بلقيس : ملكة سبأ فى بلاد اليمن . الصرح : هو فى الأصل البناء العالى والمراد هنا القصر الذى بناه سيدنا سليمان ملك بيت المقدس لبلقيس وكان مكسوّا بالزجاج فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها فقال لها إنه صرح ممرّد من قوارير .
(٤) الصبا : الريح الشرقية . الحبك : جمع حباك (ككتاب) وهو التجعد يكون فى الرمل أو الشعر أو الماء إذا مرت عليه الريح . الجواشن : جمع جوشن وهو الدرع . الحواشى : جمع حاشية وهى طرف الثوب .
(٥) حاجب الشمس : ضوؤها . ريق الغيث : أوله ، يقول: مرة تعكس أشعة الشمس الساقطة عليها فكأنما هما ضاحكان تبدو أسنانهما البيضاء . ومرة ينزل عليها المطر فيجتمع ماؤهما كأنهما يبكيان معا . ويصح أن يكون الضحك والبكاء من الشمس والمطر، ولا يكون الفعلان « يضاحك » و « يباكى » دالين على المفاعلة .

⁂

وليس إجمالنا للقول فى بقية الأغراض بدليل على عدم فوقه فيها ، بل إننا نكتفى ببعض محاسن الرجل للدلالة على شاعريته المتفردة ، ولا يفوتنا أن نذكر تقصيره فى الهجاء ، وسوء معانيه ، وقبح ألفاظه فيه ، ولعل هذا هو السبب فى تقدمه إلى ابنه أبى الغوث فى آخر أيام حياته أن يحرق شعره فى الهجاء قائلا له : « يا بنىّ هذا شىء قلته فى وقت فشفيت به غيظى ، وكافأت به قبيحاً فعل بى ، وقد انقضى أربى من ذلك ، وإن بقى روى ، وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شىء فى نفسك ومعاشك ، ولا فائدة لك ولا لى فيه » ، وهذا قول ابنه أبى الغوث ، ولعله اعتذار منه عن تقصير أبيه فى هذا الباب ، وإلا فقد بقى من هجاء البحترى كثير فى ديوانه وكله ليس من شاكلة كلام البحترى فى لفظه ومعناه ، بل الإسفاف فيه كثير ، واللفظ الفاحش شائع ، ومن ذلك قوله يهجو على بن يحيى :

وأكثرتُ غِشْيانَ المقابرِ زائرًا ... علىَّ بن يَحْيَىَ جارَ تلك المقابرِ
فإلاَّ يَكُنْ مَيْتَ الحُشَاشَةِ فى الذى ... يُرَى فَهْوَ مَيْتُ الجُودِ مَيْتُ المآثِرِ
ولا فَضْلَ عِنْدَ الأرْمَـنِىِّ يَعُدُّهُ ... سِـوى أنَّهُ ثَوْرٌ سَمِينٌ لجَازِرِ
سَرَقْتَ سِهَامَ المسلمين ولم تَـكُنْ ... لهم يوم زَحْفِ المشركين بحَاضِرِ

آثار البحترى وما قيل فيه

للبحترى ديوانه المشهور الذى جمعه أبو بكر الصولى ورتبه على حروف المعجم كما رتبه على بن حمزة الأصبهانى على الأنواع ، ويظهر أن الطبعة التى بأيدينا (طبعة الجوائب بالأستانة سنة ١٣٠٠ هـ) ليست جمع الصولى ولا الأصبهانى ؛ لأنها غير مرتبة على ترتيبهما ، ولا على ترتيب الزمن ولا جمع فيها كل ماقيل فى شخص على حدة ، بل شعر البحترى فيها مهوش أيما تهويش تصعب مراجعته جدًّا .

وقد شرحه محمد بن إسحاق الزوزنى المتوفى سنة ٤٦٣هـ ، وقد ذكر ياقوت الحموى أنه شرح ملىء علماً وحشى فهما (وهذا الشرح لم نره بين ثبت دار الكتب الملكية ولا يعرف بإحدى المكاتب العامة) . ولأبى العلاء المعرى كتاب « عبث الوليد » ، وهو محفوظ بدار الكتب الملكية ، وليس شرحا مستوفياً لجميع شعره ، بل إنه قد يذكر من القصيدة بيتاً أو بيتين ويعلق عليهما بتصويب أو تخطئة ، فهو أشبه بالنقد منه بالشرح .

وللبحترى غير الديوان، حماسة كحماسة أبى تمام ولكنه أكثر فيها من الأبواب إذ جعلها أربعة وسبعين ومائة باب ، ولكنها أبواب جزئية كأن يقول « ما قيل فى حمل النفس على المكروه » و « ما قيل فى الفتك » و « ما قيل فى مجاملة الأعداء » وهكذا . أما حماسة أبى تمام فأبوابها عامة كما علمت . وقد طبعت حماسة البحترى فى مصر والشام .

وذكروا أن له كتابا يسمى « معانى الشعر » وهو غير موجود ولا موصوف ما يحتويه .

وكان البحترى أحد الشعراء الذين رزقوا السعادة فى شعرهم فقد ألفت الكتب فى نقده وأهمها كتاب « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » للحسن بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧١هـ رجح فيه كفة البحترى ، وحمل على أبى تمام كثيرا .

سرقات البحترى

وقد عقد الآمدى بابا لسرقات البحترى من الشعراء عامة ومن أبى تمام خاصة وبلغت عدتها من أبى تمام ثلاثاً وستين ولكنك تعلم أن السرقة ليست عيباً إلا إذا أغار الشاعر على المعنى واللفظ فلم يكن له فى المعنى إضافة ولا عن اللفظ غنى، وقد يكون آخذ المعنى أولى به من صاحبه إذا زاد فيه ومنحه من اللفظ ما جعل له جمالا جديداً . وقد نظرت فوجدت أن أكثر سرقات البحترى جعلته أولى بالمعنى من صاحبه أفلا ترى البحترى أولى من الفرزدق فى قوله :

أعطيتنى حتى حسبتُ جزيلَ ما   أعطيتنيه وديعـــــة لم توهب

أخذه من قول الفرزدق :

أَعْطَيْتَنِي المـالَ حتَّى قُلْتُ يُودِعُنِي   أو قُلْتُ أُعْطِيتُ مالاً قد رآه لنا

كذلك هو أولى من أبى صخر الهذلى فى قوله :

وادعٌ يلعب بالدهر إذا   جَدَّ فى أكْرُومَةٍ قُلْتَ هَزَلْ

أخذه من قول الهذلى .

أَغَرُّ أُسَيْدِيٌّ تراه كأنه   إذا جَدَّ يُعْطِي مالَهُ وهْوَ لاعبُ

وكذلك قوله :

وكأنَّ فى جسمِي الذى   فى ناظريك من السَّقَمْ

هو من قول المنصور بن فرج :

حَلَّ فى جسمِيَ ما   كان بعينيك مُقِيمًا

ومن سرقاته من أبى تمام قوله :

وإذا اجْتَدَاهُ المُجْتَدُون فإنَّهُ   يَهَبُ العلا فى سَيْبِه الموهوب

وهو من قول أبى تمـام :

تُدْعَى عطاياه وَفْرًا وهى إن شُهِرَتْ   كانَتْ فَخَاراً لمن يَعْفُوه مُؤْتَنَفا

وبيته خير من بيت أبى تمـام ، وقوله :

ولَنْ تستبينَ الدَّهْرَ مَوْضِـعَ نِعْمَةٍ   إذَا أَنْتَ لم تُدْلَلْ عَليْها بِحاسِدِ

من قول أبى تمـام :

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فضيلةٍ   طُوِيَتْ أتاحَ لَهَـا لِسَانَ حَسُودِ

وفضل أبى تمـام فى سبقه فى المعنى ، واختراعه له ، ولـكن بيت البحترى حصن رصين لو لم يكن لأبى تمـام فضل السبق . وقوله :

ولو أن مشتاقاً تَـكَلَّفَ فوق ما   فى وُسْعِهِ لسعى إليك المِنْبَرُ

من قول أبى تمـام :

تَـكَادُ مَغَانِيـــهِ تهَشُّ عِرَاصُها فَتَرْكَبُ من شَوْقٍ إلى كُلِّ رَاكِبِ

وحسن بيت البحترى ظاهر ظهور التكلف فى استعارة الهشاشة والركوب للعراص .
فى قول أبى تمـام .

وهذا باب واسع لنقف منه عند هذا الحد .

النقد والموازنة

تناولنا هذا الموضوع فى كلامنا عن العصر الأموى ، وذكرنا أن الشعر كان موضوع الحديث عند العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ، فعقدوا له الأسواق فى الجاهلية والمجالس فى الإسلام ، وكان الخلفاء لايقربون إلا إذا قدم فى الأدب وبصر به .

ولـكن العصر الأموى قد انتهى ، ولم يكن البحث فى الأدب ، ونقد الشعر إلا حديث مائدة ، وسمر مجلس يتناولون الشعر من أطرافه ، فيستحسنون ، أو يعيبون البيت مفردا ، ويتناولون معناه مستقلا ، وإذا عابوا اللفظ فأكثر ما يكون عيبهم له من ناحية وضعه النحوى ، وإذا وازنوا بين شاعرين أدخلوا فى الموازنة ما ليس منها كقول الصلتان العبدى فى الموازنة بين جرير والفرزدق :

أَرَى الخَطَفَى بَزَّ الفَرَزْدَقَ شِعْرَهُ وَلٰـكِنَّ خَيْرًا من كُلَيْبٍ مُجَاشِـعُ

فأنت تراهم قد جعلوا لشرف النسب ، وفضل القبيلة وجهاً فى التفضيل ، وذلك لا دخل له فى الحكم على الكلام جودة أو رداءة .

وقد عاب ابن الأثير على أبى عمرو بن العلاء حين سئل عن الأخطل ، فقال : لو أدرك يوما واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً . قال فهذا تفضيل بالأعصار لا بالأشعار ، وفيه ما فيـه !! ، وقال أيضاً : سئل الأخطل عن أشعر الناس ، فقال

الذى إذا مدح رفع ، وإذا هجا وضع ، فقيل : فمن ذاك ؟ قال الأعشى . قيل : ثم من؟ قال طرفة . وهذا قول فيه بعض التحقيق إذ ليس كل من رفع بمدحه ووضع بهجائه كان أشعر الناس لأن المعانى الشعرية كثيرة والمدح والهجاء منها .

فهذه المرويات دليل على أن النقد على أيام الأمويين لم يكن ناضجاً ، ولا صحيح المبنى ، ولا عادلا فى الحكم فى جميع أحواله .

أما فى العصر العباسى : فقد استمرّ النقد حديث الموائد وسمر المجالس ، وقد أغرم العباسيون به كغرام الأمويين ، لأنهم كما تعلم عرب يحنون إلى العربية ، ويرونها شرفهم الذى يفاخرون به ، ثم هم من ناحية أخرى قصدوا باحياء الآداب خدمة الدين ، فكانت عنايتهم أتم ، واحتفالهم أعظم .

وعلى نسبة اتساع الحضارة اتسع موضوع النقد فشمل أمورًا أدق مما تعرض له السابقون لأن حصافة العباسيين جعلت نقدهم أبعد غوراً ، وأوسع مدخلا ، وأعدل حكما لم يدخلوا فيه العصبية ، ولا حكموا غير الاجادة ، فإذا كان الأمويون لم ينتقدوا المعنى إلا إذا كان محالا لايستقيم فى الفهم ، فإن العباسيين انتقدوه حين رأوه مقصراً عن الغاية غير واف بما يقتضيه مقام المبالغة ، أو تناسب المعانى ، فانظر إلى قول أبى تمام فى أحمد بن المعتصم :

إقدامُ عمرٍو فى سماحة حاتمٍ　　فى حِلْمِ أحنفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

كيف انتقده بعض حاضرى مجلس الأمير بقوله : الأمير فوق من ذكرت .

وقد كان فى التشبيه بالبدر فى الجمال وبالأسد فى الشجاعة وبحاتم فى الجود مقنع أن قبل تتطلب المدنية معانى أرقى وأمثلة أعلى .

وانظر إلى قول المتنبى :

وَقَفْتَ وما فى الموت شَكٌّ لواقفٍ　　كأنَّكَ فى جَفْنِ الرَّدَى وهو نائمُ

تَمُرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هَزِيمَةً　　ووَجْهُكَ وضَّاحٌ وثَغْرُكَ باسمُ

ثم انظر إلى سيف الدولة كيف يتنبه إلى أن تناسب المعانى يستلزم عكس الترتيب بجعل الشطر الثانى من البيت الأول فى موضع نظيره من البيت الثانى مبرهناً على ذلك بأنه إذا وقف والموت لاشك فيه فكان وضاح الجبين باسم الثغر دل بذلك على تناهى شجاعته إذ يضحك فى مقام البكاء ويشرق جبينه على حين يشتد العبوس وتكفهر الوجوه ، وكذلك إذا كان لم يسلم من ضرر القتال أحد ثم كان الممدوح مصوناً كأنه فى جفن أطبقه النوم كان ذلك أدل على إرادة الله له الحفظ وتقديره له السلامة .

ومما يروى فى الاستدلال على إبعاد العصبية فى الحكم أن البحترى سأل ابنه أبا الغوث عن الفرزدق وجرير أيهما أشعر ؟ فقال جرير : قال ، وبم ذلك ، قال لأن حوكه شبيه بحوكك قال ثكلتك أمك وهل فى الحكم عصبية ! !

⁂

وكان لاتساع الحضارة ، وضعف الملكات أثر فى اتساع مجال النقد ، فكثر تعرض الشعراء للوقوع فى الخطأ النحوى واللغوى ، وكذلك اضطربت أوزان الشعر العربى فى أذهانهم ، فكثر منهم الخروج عليها ، فصار الناقد يتناول منهم بالنقد مالم يكن يتوقع حدوثه من الجاهلى أو الأموى .

ومن الناحية اللفظية لم نجد فى القديم من عاب الشعر بغرابة اللفظ لأن الغريب كان فى زمانهم مألوفاً ، فأما فى العصر العباسى ، فقد أصبح من العيب أن يقول الشاعر مثل كلام امرئ القيس وطبقته بل الفرزدق والأخطل ، ومن على شاكلتهما .

ولم يكن نظام القصيدة فى القديم مجالا لنقد النقاد ، فإنهم كانوا راضين عما تواضع عليه الجاهليون من البدء بمخاطبة الرسوم . ووصف عفائها ، ثم وصف الناقة والتشبيب بالمحبوبة ، ولم نر منهم من ترك هذا النظام ، أو خرج عليه ناقضا له زاريا عليه ، أما فى العصر العباسى عصر المدنية حين دخل فى العرب عناصر جديدة لا يرون للعرب كبير

فضل ، ولا يعدون احتذاء طريقتهم منقبة يحرصون عليها ، بل يعدون من العار أن يخرج بهم التقليد إلى الكذب بوصف النوق وهم لم يركبوها ، ولا عالجوا أمورها ، وذكر عفاء الرسوم ، ولا رسوم عندهم . ولكن عندهم دور إذا خلت ممن يحبون عمرت بمن لا يحبون . فهذا وأشباهه هو الذى جعل أبا نواس يخرج على نظام القصيدة الذى كان حرما لا يعتدى عليه ، وقد عرفت ما كان من أبى نواس فى هذا المقام .

وقد اتجهت أنظارهم إلى ربط أجزاء القصيدة ، والخروج من بعض إلى بعض بمناسبات لطيفة ، واعتبارات دقيقة ، لما رأوا فى طفرة التنقل بين الأغراض من مفاجأة لا يحسن وقعها فى النفس ، فأكثروا من التلطف فى ذلك ، وكانت لهم فيه آيات من الإبداع رأيت كثيراً من أمثلتها فى موضوع (محاسن الشعراء المحدثين) ، وكان السابقون من جاهليين وأمويين لا يعنون بهذا الربط لمكانهم من السذاجة ، وعدم الإحكام ، ولم يكن من نقادهم من يتجه إلى هذا ، لأن طبع الناقد ، والقائل واحد .

ولما كان من المدنية مادة للخيال ومن علومها ثروة فى المعانى جرى على أيدى المحدثين تجديد فى كل ذلك فأتوا بما لم يسبقوا إليه . وتناولوا ما لم يخطر للسابقين على بال كما كان لهم فى معانى المتقدمين تنويع وإضافات جعلتهم فى كثير من الأحيان يستبدون بحسنها ويستولون على الفضل فيها . وكان موضوع المعانى المخترعة والمعانى القديمة أوسع موضوعات النقد ، وجرت المفاضلات بين الشعراء فى هذا الباب ، فمن أتى بما لم يسبق إليه أشادوا بهذه الفضيلة فيه ، وكذلك من تناول المعانى القديمة فأضاف إليها وتمم نقصها ذكروه بجميل فعله ، ومن كان وانىَ الذهن قصير الباع فأغار إغارة اللصوص ، وسرق معانى الشعراء بلا لطف ولا حيلة عابوه وهتفوا به . ولقد بلغ من عنايتهم ببحث هذه السرقات أن جعلوها موضوعًا متعدد المسائل فى كتبهم التى ألفوها فى النقد .

وهذا ضياء الدين بن الأثير صاحب كتاب « المثل السائر » جعل السرقة الشعرية أقسامًا

منها : النسخ ، والمسخ ، والسلخ . وجعل لكل فروعًا وضروبا نذكر لك بعضها على سبيل المثال . قال :

أما النسخ فإنه لا يكون إلا فى أخذ المعنى واللفظ جميعاً أو أخذ المعنى مع أكثر اللفظ فهو ضربان الأول ، يسمى وقوع الحافر على الحافر كقول امرئ القيس :

وُقُوفاً بها صَحْبِي عليَّ مَطِيَّهُمْ ... يقولون لا تَهْلِكْ أَسًى وتَجَمَّلِ

وقول طرفة :

وُقُوفاً بها صَحْبِي عليَّ مَطِيَّهُمْ ... يقولون لا تَهْلِكْ أَسًى وتَجَلَّدِ

ومن الضرب الثانى قول بعض المتقدمين يمدح معبدا المغنى :

أجاد طُوَيْسٌ والسُّرَيْجِيُّ بعده ... وما قَصَبَاتُ السَّبْق إلا لِمَعْبَدِ

فأخذه أبو تمام وقال :

مَحَاسِنُ أصناف المغنين جَمَّةٌ ... » » » » »

ثم قسم السلخ اثنى عشر قسما جعل منها أخذ المعنى مجرداً من اللفظ ، وجعل منه قول عروة بن الورد :

ومَنْ يَكُ مِثْلِي ذا عيالٍ ومُقْتِرًا ... من المال يَطْرَحْ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ

لِيَبْلُغَ عُذْراً أو يَنَالَ رَغِيبَةً ... ومُبْلِغُ نفسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحِ

أخذه أبو تمام فقال :

فَتًى مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ والطَّعْنِ مِيتَةً ... تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إنْ فَاتَهُ النَّصْرُ

قال فعروة بن الورد جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذراً يقوم مقام النجاح . وأبو تمام جعل الموت فى الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد فى لقاء الأعداء قائما مقام النصر وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف .

هذا مثل من أمثلة توسع العباسيين فى النقد . ولا نظنّ أن أحداً يعارض فى قولنا: إن بعض علوم العربية لم يكن وضعه فى أيام العباسيين إلا نتيجة لتمام ملكة النقد عندهم. فهذا علم العروض لم يدع الخليل إلى وضعه إلا ما رآه من خطأ فى أوزان الشعر ندّعن

حرص الشعراء لضعف ملكاتهم ، أو تعمدوه تعمدا خارجين به على منهاج العربية فى أوزان شعرها الموروثة عن القدماء ، وكذلك علم البيان عرفت من تاريخ وضعه أنه كان نتيجة لمناقشة فى معنى قوله تعالى «طلعها كأنه رءوس الشياطين» ، وهذه الأنواع البديعية التى أربت على المائة ألم تكن كلها فى كلام القدماء والقرآن الكريم فظلت مستورة حتى كشفها البحث وترديد النظر فى الكلام .

وما زال النقد ينمو حتى صار علما فصلت مسائله ونوعت طرائقه ووضعت له المصطلحات وألفت فيه الكتب ، ونحن ذاكرون لك كيف تدرج التأليف فى هذا العلم فنقول :

أول من ألف فى النقد محمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣٢ هـ ، أخرج كتابه المسمى « طبقات الشعراء » قال فى مقدمته : وللشعراء صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم. والصناعات منها ماتثقفه العين. ومنها ماتثقفه الأذن ، ومنها ماتثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان . ثم جعل الشعراء قسمين جاهليين و إسلاميين ، وجعل كلا عشر طبقات واختار من كل طبقة أربعة من فحولها فجعل من الطبقة الأولى من الجاهليين: امرأ القيس ، والنابغة ، وزهيراً ، والأعشى ، وجعل من الطبقة الأولى من الإسلاميين : جريرا ، والفرزدق ، والراعى ، والأخطل . وتراه فى كتابه يعتمد فى أحكامه على آراء السابقين ، فيستحسن ما استحسنوا ، و يعيب ما عابوا ؛ ثم ارتقى النقد فلم يعد المؤلف يعتمد فيا يرى على أقوال القدماء بل يمحص بنفسه ، ويستحسن ما يراه حسناً ، و يستقبح ما يراه قبيحاً ، لا يعرف فضلا لمتقدم على متأخر إلا بالإجادة وحدها ، وذلك ما فعله ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ فى كتابه « الشعر والشعراء » قال فى مقدمته :

لم أسلك فيا ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد واستحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه و إلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره .

كذلك ألف ابن قتيبة هذا ، كتاب « أدب الكاتب » فأنحى فى مقدمته على الكتّاب باللوم وأبان عن جهلهم الفاضح ثم نصح لهم بأمور تحسن بهم ، فما قال :

ويستحسن له (أى الكاتب) أن يزن ألفاظه فى كتبه ، فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، وألا يعطى خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس وضيع الكلام ، فإنى رأيت الكتّاب قد تركوا تفقد هذا من أنفسهم وخلطوا فيه ، فليس يفرقون بين من يكتب إليه « فرأيك فى هذا » وبين من يكتب إليه « فإن رأيت كذا » . و « رأيك » إنما يكتب بها إلى الأكفاء والمساوين ، ولا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأساتذة لأن فيها معنى الأمر ولذلك نصبت ، ولا يفرقون بين من يكتب إليه « أنا فعلت ذلك » ومن يكتب إليه « ونحن فعلنا ذلك » و « نحن » لا يكتب بها عن نفسه إلا أمراؤنا لأنها كلام الملوك والعظماء . قال الله عزّ وجلّ : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. وَإِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » وعلى هذا الابتداء خوطبوا فى الجواب ، فقال تعالى حكاية عمن حضره الموت : « رَبِّ ارْجِعُونِ . . . » .

ولم يكن التأليف إلى هذا الحين نقداً صريحاً بالمعنى الذى صار إليه فيما بعد حتى جاء قدامة الكاتب المتوفى سنة ٣١٠ هـ فألف كتابه « نقد الشعر » فبين فيه حدود الشعر وشروط نظمه من حيث اللفظ والمعنى ولكن كتابه كان مختصراً شأن كل علم فى مبدئه ، وعلى هذا المثال كتابه نقد النثر ، وكتاباه مطبوعان فى مصر .

ثم جاء حسين بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧١ هـ فألف كتاب « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » وقد دل فى كتابه على أن ملكة النقد كانت قد تمت عند أهل عصره فإنه حين تناول الشاعرين لم يترك شيئاً مما يقال فى شعرهما إلا أفاض فيه بأجلى بيان فقد بدأ بذكر آراء الناس فى الشاعرين بأسلوب جدل ونقاش بين متعصب لأبى تمام ومتعصب للبحترى ثم قال بعد ذلك « وأنا أبتدئ بذكر مساوئ هذين

الشاعرين لأختم بذكر محاسنهما فأذكر طرفا من سرقات أبى تمام ، وغلطه ، وساقط شعره ، ومساوئ البحترى فيما أخذه من معانى أبى تمام وغير ذلك من غلط فى بعض معانيه ، ثم أوازن من شعرَيهما بين قصيدتين إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية ، ثم بين معنى ومعنى؛ فإن محاسنهما تظهر فى تضاعيف ذلك وتنكشف . ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه وأفرد باباً لما وقع فى شعريهما من التشبيه ، وباباً للأمثال أختم بهما الرسالة »

فأنت ترى من هذا الفهرس الذى ذكره لكتابه أن النقد فى عصره قد اتسع موضوعه ، وشمل كل ما ينبغى أن يقال فى الشاعر المنتقد . وقد أبلى الآمدى أحسن بلاء فى حديثه عن الشاعرَين حتى ليخيل إليك أنه لم يترك لأحدهما بيتا من ديوانه إلا درسه وحلله وعرضه على محك نقده وأنصفه فيه فعابه حين استحق العيب ، وقرظه حين كان جديراً بالتقريظ .

ولنضرب لك مثلا من نقده لهما فقد عد من خطأ أبى تمام المعنوى قوله فى على ابن الجهم وقد ودعه :

وإذا فَقَدْتَ أخاً فلَمْ تَفْقِدْ له دَمْعاً ولا صَبْراً فَلَسْتَ بفاقِدِ

قال : وقوله «فلم تفقد له دمعاً ولا صبراً » من أفحش الخطأ لأن الصابر لا يكون باكيا والباكى لا يكون صابراً ، فقد نسق بلفظة على لفظة وهما نعتان متضاربان ولا يجوز أن يكونا مجتمعين ، ومعناه أنك إذا فقدت أخا فأدام البكاء عليك فلست بفاقد ودّه ولا أخوته وهو محصل لك غيرمفقود وإن كان غائباً عنك ، وإلى هذا ذهب إلا أنه أفسده بذكر الصبر مع البكاء وذلك خطأ ظاهر ، ولوكان قال فلم تفقد له دمعاً ولا جزعا أو دمعاً ولا شوقا ولا قلقاً لكان المعنى مستقيما . وظننته قال غير هذا ، وأن غلطاً وقع فى كتابة البيت عند النقل حتى رجعت إلى أصل أبى سعيد السكرى وغيره من الأصول القديمة فلم أجد إلا دمعا ولا صبراً وذلك غفلة منه عجيبة . وقد لاح لى معنى أظنه ــ والله

أعلم ــ إليه قصد وهو أن يكون أراد إذا فقدت أخا ولم تفقد له دمعاً أى يواصل البكاء عليك فلست بفاقده على ما ذكرته أى فقد حصل لك وصار ذخراً من ذخائرك و إن غاب عنك وغبت عنه ، و إن لم تفقد له صبراً أى و إن صبر عنك فلست أيضاً بفاقده لأنك لا تعتد به موجوداً ولا مفقوداً . ولكن ذهب على أبى تمام أن هذا غير جائز لأنه وصف رجلاً واحداً بالوصفين جميعاً وهما متضادان ، ولو كان جعلهما وصفين لرجلين فقال :

و إذا فَقَدْتَ أَخًا لِفَقْدِكَ باكياً ... أو صابراً جَلْدًا فَلَسْتَ بفاقِدِ

أى فلست بفاقد هذا لأنه محصل لك ولست بفاقد هذا لأنه غير ناس مودتك ، لكان المعنى سائغاً حسناً واضحاً ، ولو جعله شخصاً واحداً وجعل له أحد الوصفين فقال :

و إذا فقدت أخا فَأَسْبَلَ دَمْعَهُ ... أو ظَلَّ مُصْطَبِرًا فَلَسْتَ بفاقِدِ

لكان أيضاً سائغاً على هذا المذهب أو كان استوى له فى ذلك اللفظ بعينه أن يقول: فلم تفقد له دمعاً أو صبراً حتى لا يجعل له إلا أحدهما لساغ ذلك لكنه نسق بالصبر على الدمع فجعلهما له ففسد المعنى

وعد من الخطأ المعنوى للبحترى قوله :

هَجَرَتْنَا يَقْظَى وَكَادَتْ عَلَى عا ... دَاتِهَا فِى الصُّدُودِ تَهْجُرُ وَسْنَى

وهذا عندى غلط لأن خيالها يتمثل له فى كل أحوالها يقظى كانت أو وسنى و إنما أخذ معنى بيته من قول قيس بن الخطيم :

ما تَمْنَعِى يَقْظَى فَقَدْ تُؤْتِينَهُ ... فى النَّوْمِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ مَحْسُوبِ

وما أظنّ أحداً سبق قيساً إلى هــذا المعنى فى وصف الخيال وهو حسن جدًّا ، ولكن فيه أيضاً مقال لمعترض ، وذلك هو الذى أوقع البحترى فى الغلط لأن قيساً قال : ما تمنعى فى اليقظة فقد تؤتينه فى النوم : أى ما تمنعينه فى يقظتى ، فقد تؤتينه فى حال نومى حتى يكون النوم واليقظة معاً منسو بين إليه إلا أنه يتسع من التأويل لقيس

ما لا يتسع للبحترى ، لأن قيساً قال فقد تؤتينه فى النوم ، فقد يجوز أن يحمل على أنه أراد ما تمنعى يقظى وأنا يقظان فقد تؤتينه فى نومى، ولا يسوغ مثل هذا فى بيت البحترى لأن البحترى قال : وسنى ولم يقل فى الوسن .

ومن قبيل كتاب الآمدى ما فعله عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ ﻫ فى كتابه «الوساطة بين المتنبى وخصومه» ألفه ردًّا على الصاحب بن عباد الذى ألف كتاباً فى مساوئ المتنبى ، وتحامل فيه عليه ضغينة لعدم مدح المتنبى له مع عرضه عليه أن يشاطره فى ماله إذا فعل ، ولكن المتنبى بلغ من كبره ألا يمدح إلا الملوك

وقد صدر الجرجانى كتابه بمقدّمة طويلة أبان فيها أن المتقدّمين من جاهليين و إسلاميين ليس لهم عصمة من الخطأ ، ولا سلامة من العيب كما يعتقد ذلك بعض الذين يرون أن الفضل بتقدّم الزمان ، ثم عدّ كثيرًا من أغلاط الجاهليين النحوية والمعنوية . وانتهى إلى أن الشعر « علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادّة له وقوّة لكلّ واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان ... »
وقد انتصف للمتنبى من عائبيه فى قوله :

بَليتُ بِلَى الأَطْلَالِ إنْ لَمْ أَقِفْ بها ... وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فى التُّرْبِ خَاتَمُهْ

قال : قالوا أراد التناهى فى إطالة الوقوف فبالغ فى تقصيره ، وكم عسى هذا الشحيح بالغاً ما بلغ من الشحّ . وواقعاً حيث وقع من البخل أن يقف على طلب خاتمه ، والخاتم أيضا ليس مما يخفى فى التراب إذا طلب ، ولا يعسر وجوده إذا فتش ، وقد ذهب المحتجون عنه فى الاعتذار له مذاهب لا أرضى أكثرها ، وأقرب ما يقال فى الإنصاف ما أقوله إن شاء الله تعالى . أقول : إن التشبيه والتمثيل قد يقع تارة بالصورة والصفة ، وأخرى بالحال والطريقة ، فإذا قال الشاعر وهو يريد إطالة وقوفه : إنى أقف وقوف شحيح ضاع خاتمه ، لم يرد التسوية بين الوقوفين فى القدر والزمان والصورة ، وإنما يريد

لأقفن وقوفاً زائداً على القدر المعتاد ، وخارجًا عن حدّ الاعتدال كما أن وقوف الشحيح يزيد على ما يعرف فى أمثاله ، وعلى ماجرت به العادة فى إخراجه ، وإنما هو كقول الشاعر :

رُبَّ لَيْلٍ أَمَدَّ مِنْ نَفَسِ العا   شِقِ طُولاً قَطَعْتُهُ فى انْتِحَاب

ونحن نعلم أن نفس العاشق بالغاً ما بلغ لا يمتدّ امتداد أقصر أجزاء الليل ، وأن الساعة الواحدة من ساعاته لا تنقضى إلا عن أنفاس لا تحصى كائنة ما كانت فى امتدادها وطولها ، وإنما مراد الشاعر أن الليل زائد فى الطول على مقادير الليالى كزيادة نَفَس العاشق على الأنفاس ، فهذا وجه لا أرى به بأساً فى تصحيح المعنى ، وإن كنت أرى ألا يؤخذ الشاعر بهذه الدقائق الفلسفية مالم يأخذ نفسه بها ، ويتكلف التعمل لها ، فيؤخذ حينئذ بحكمه ، ويطالب بما جنى على نفسه .

ثم جاء الثعلبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، فأخرج فيما أخرج من كتبه النافعة الجليلة كتاب : « يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » ، وأتى فيه بأخبار شعراء القرن الرابع للهجرة ، وقسم الكلام فيه إلى أبواب باعتبار الأقاليم ، فجعل بابا لشعراء الشأم تناول فيه فيما تناول المتنبى ، وأبا فراس ، وما كان من أحوال سيف الدولة ، واهتمامه بالأدب ، وعمله على رفع شأنه بعطائه الكثير ، وبابا آخر لشعراء مصر والمغرب ، وثالثاً لشعراء الموصل وهكذا ، وكل الكتاب بيان لتاريخ هؤلاء الشعراء ، أو الكتّاب واختيار لمحاسن كلامهم ، وتعليق عليها بالعيب ، أو التقريظ ولكنه لم يحتفل بأحد هؤلاء احتفاله بالمتنبى ، فقد استغرق فيه قدرا كبيراً من أوراق الجزء الأول وهو أضخم أجزاء الكتاب الأربعة .

وهو بوجه عام إذا تناول شاعراً أو كاتباً ذكر نشأته وأثرها فى نبوغه وتتبع حياته بتفصيل شاف وتناول قوله فيذكر من الشاعر ابتدا آته وتخلصاته وسرقاته ، وتهكم بمعايبه ، وأقرّ بفضل محاسنه مما يجعل تعريف أهل هذا العصر بشاعر أو كاتب كاملا شافياً للنفس .

وهذا فهرس ترجمة المتنبي فى كتابه « يتيمة الدهر » وهو يدلك على مقدار تعمقه البحث قال :

« الباب الخامس فى ذكر أبي الطيب المتنبي ـ ذكر ابتداء أمره ـ نبذ من أخباره ـ أنموذج لسرقات الشعراء منه ـ صدر من سرقاته ـ بعض ما تكرر فى شعره من معانيه ـ ما ينعى على أبي الطيب من معايب شعره ومقابحه ـ ومنها المطالع ـ ومنها إبعاد الاستعارة والخروج بها عن حدها ـ ومنها تكرير اللفظ فى البيت الواحد ـ ومنها الإيضاح عن ضعف العقيدة ـ ومنها الغلط بوضع الكلام فى غير موضعه ـ ومنها امتثال ألفاظ المتصوفة والخروج عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة ـ ومنها استكراه التخلص وقبح المقاطع ... ومثل ذلك وأكثر منه تفصيلا ذكره فى أنواع محاسنه » .

ومن نماذج نقده له قوله : فمنها قبح المطالع ، وحقه الحسن والعذوبة لفظاً والبراعة والجودة معنى لأنه أول ما يقرع الأذن ويصافح الذهن ، فإذا كانت حاله على الضد مجه السمع، وزجه القلب ، ونبت عنه النفس، وجرى أمره على ما تقول العوام « أول الدَّنّ دُرْدِيّ[1] » ولأبي الطيب ابتداآت ليست لعمرى من أحرار الكلام وغرره بل هى كما نعاها عليه العائبون مستشنعة مستبشعة لا يرفع السمع لها حجابه ، ولا يفتح القلب بابه . كقوله :

هَذِى بَرَزْتِ لنا فَهِجْتِ رَسِيساَ ثُمَّ انْصَرَفْتِ وَمَا شَفَيْتِ نَسِيساَ

فإنه لم يرض بحذف علامة النداء فى هذى وهو غير جائز عند النحويين حتى ذكر الرسيس والنسيس فأخذ بطرفى الثقل والبرد وكقوله (أوه بديل من قولتى واها) وهو برقية العقرب أشبه منه بافتتاح كلام فى مخاطبة ملك ، وكقوله وهو ما تكلف له اللفظ المعقد والترتيب المتعسف لغير معنى بديع يفى شرفه وغرابته بالتعب فى استخراجه ولا تقوم فائدة الانتفاع به إزاء التأذى باستماعه وهو :

(١) الدن : راقود الخمر . الدردى : مايبقى فى أسفل الإناء من عكر السائل .

وَفَاؤُكُما كالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طاسِمُهْ   بأَنْ تُسْعِدَا والدَّمْعُ أَشفَاهُ ساجِمُهْ(١)

وكقوله فى افتتاح قصيدة فى مدح ملك يريد أن يلقاه بها أول لقية :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً   وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

وفى الابتداء بذكر الداء ، والمنايا ما فيه من الطيرة التى تنفر منها السوقة فضلا عن الملوك . . . ، ومن قصائده التى تحير الأفهام ، وتفوت الأوهام ، وتجمع من الحساب ما يدرك بالارتمـاطيق ، وبالأعداد الموضوعة الموسيقى :

أُحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ فى أُحادِ   لُيَيْلَتُنَا المَنُوطَةُ بالتَّنَادِى(٢)

وهذا كلام الحُـكْل(٣) ، ورطانة الزُّطّ(٤) ، وما ظنك بممدوح قد تشمر للسماع من مادحه فصكّ سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة ، والمعانى المنبوذة ، فأىّ هزة تبقى هناك ، وأى أريحية تثبت هنا ؟ وقد خطأه فى اللفظ ، والمعنى كثير من أهل اللغة ، وأصحاب المعانى حتى احتيج فى الاعتذار له ، والنصح عنه إلى كلام لا يستأهله هذا البيت ، ولا يتسع له هذا الباب .

وقد اتبع أبو العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ هـ فى النقد أسلوبا طريفاً لم يسبقه إليه غيره إذ بنى نقده على خيال بارع ، وهو أن الشعراء والنحاة وغيرهم دخلوا الجنة

---

(١) وفاؤكما : مبتدأ خبره كالربع . وأشجاه : تفضيل من شجاه الأمر بمعنى أحزنه ، وطاسمه : دارسه وساجمه : ساكبه . وجملة أشجاه طاسمه حال من الربع ، وبأن تسعد متعلق بوفاء . وهذا من الضرورات القبيحة لأن الاسم لا يخبر عنه إلا بعد تمـامه . والمعنى : يقول لصاحبيه اللذين وعداه بالمساعدة بالبكاء : إن وفاءكما بالمساعدة كهذا الربع فإن الربع كلما زاد دروسه كان أدعى إلى الحزن وكذلك الوفاء كلما ضعف وقلت المساعدة بالبكاء كان أدعى إلى شدة الحزن .

(٢) أحاد: أى أأحاد ، فحذف الهمزة ضرورة . وأحاد صيغة تدل على توارد المعدود على العدد المصوغة منه وهو مسموع عن العرب إلى الأربعة، وقاسه المولدون إلى العشرة . الليلة : تصغير ليلة للتعظيم التناد : يوم القيامة . يقول: هذه الليلة المتصلة بيوم القيامة تجمع ليالى الدهر كلها ، وكل ليلة من تلك الليالى هل هى ليلة واحدة أو ست ليال فى كل ليلة فتكون الليلة سبع ليال أى أسبوعا .

(٣) الحـكل : مالا يسمع صوته من الدواب .

(٤) جيل من الهنود يقيم الآن بالبنجاب .

أو النار بأقوالهم وآرائهم ، ثم جعل يصف نعيمهم وعذابهم من أجل ذلك . فمن قوله فى مخاطبة المارّ بالجنة لزهير بن أبى سلمى : بم غفر لك وقد كنت فى زمن الفترة والناس همل ، لايحسن منهم العمل؟ فيقول (زهير) كانت نفسى من الباطل نفوراً فصادفت ملكا غفوراً ، وكنت مؤمنا بالله العظيم ، ورأيت فيما يرى النائم حبلا نزل من السماء فمن تعلق به من سكان الأرض سلم فعلمت أنه أمر من أمر الله فأوصيت بنىّ وقلت لهم عند الموت : « إن قام قائم بدعوتكم إلى عبادة الله فأطيعوه » ، ولو أدركت محمداً لكنت أول المؤمنين ، وقلت فى الميمية والسفه ضارب بالجران :

فلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما فى نُفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يُعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فى كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ لِيَوْمِ الحسابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

ويقول عن بشار وهو يعذب فى جهنم (. . . . ورجل فى أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار) وإذا هو بشار بن برد قد أعطى عينين لينظر بهما بعد الكمه ، إلى ما نزل به من النكال . فيقول له « يا أبا معاذ لقد أحسنت فى مقالك وأسأت فى معتقدك ولقد كنت فى الدار العاجلة أذكر بعض قولك فأترحم عليك ظنا أن التوبة ستلحقك مثل قولك :

إرْجِعْ إلى سَكَنٍ تَعِيشُ بِهِ ذَهَبَ الزَّمَانُ وأنت مُنْفَرِدُ
تَرْجُو غدًا وغدٌ كحامِلةٍ فى الحىِّ لا يَدْرُونَ ما تَلِدُ

وقولك :

الحُرُّ يُلْحَى والعَصَا للعَبْدِ وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ

فيقول بشار (يا هذا دعنى من أباطيلك فإنى مشغول عنك) اﻫ

وابن رشيق صاحب العمدة وإن لم يكن من أدباء المشرق كان معاصراً للدولة العباسية فقد توفى سنة ٤٥٦ﻫ ، ويعد كتابه (العمدة فى صناعة الشعر ونقده) من خير كتب النقد لأنه تناول الشعر من جميع نواحيه فقسم الشعراء إلى طبقات

وذكر حد الشعر، ومايبنى عليه وتكلم فى اللفظ والمعنى والصنعة والطبع، وذكر الأوزان الشعرية والقوافى وما خرج به الناس على القديم فى هذين، ثم بحث المطالع والمقاطع وأورد أمثلة مختارة من ابتداآت الشعراء وغيرها مرذولة سقطت بها أشعارهم، ثم تناول علوم البلاغة فتكلم فيها على قدر ما انتهى إليه البحث فى أيامه، ثم بحث فى المعانى القديمة والحديثة، ثم ذكر مايترخص به الشاعر، وتناول السرقات الشعرية فأفاض فيها، وقد سمى أنواعها أسماء كثيرة سبقه إليها عبدالعزيز الجرجانى فى كتابه «الوساطة» وقد نقل عنه ابن رشيق معتدا برأيه فقال: قال الجرجانى وهو أصح مذهباً، وأكثر تحقيقاً من كثير ممن نظر فى هذا الشأن، ولست تعد من جهابذة الكلام ولا من نقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه وتحيط علماً برتبه ومنازله فتفصل بين السرقة والغصب وبين الإغارة والاختلاس وتعرف الإلمام من الملاحظة وتفرق بين المشترك الذى لا يجوز ادعاء السرقة فيه. والمبتذل الذى ليس أحد أحق به من الآخر، وبين المختص الذى حازه المبتدى فملكه واجتباه السابق فاقتطعه، وقد أتى بأمثلة لتلك الأقسام تراها فى الجزء الثانى من كتابه .

ولابن رشيق أيضاً كتاب يسمى « قراضة الذهب » وهو فى الحقيقة توسعة لبعض أبواب كتابه « العمدة » ولعله هو الذى أشار إليه حين تكلم فى المعانى القديمة والحديثة فقد اشتمل الكتاب على شىء من ذلك مع توسع آخر فى موضوع السرقات الشعرية واقتباس الشعراء بعضهم من بعض

وآخر من ظهر فى العصر العباسى ممن كتبوا فى النقد هو ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ ه فى كتابه «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر» وقد صدره بمقدمة فى علم البيان ومقالتين أولاهما فى الصناعة اللفظية من سجع وجناس وغيرهما وثانيتهما فى الصناعة المعنوية وقد تكلم فيها عن التشبيه والاستعارة، وعطف على أنواع البديع المعنوية وتناول موضوع المعانى القديمة والحديثة والسرقات وذكر من أقسامها ما سبق أن أوردنا لك

بعضه فى صدر هذا المقال وعقد موازنات بين الشعراء ويحسن أن نذكر لك منها موازنة عقدها بين أبى تمام والمتنبى فى رثاء من مات صغيراً قال :

فما جاء من ذلك قول أبى تمام فى رثاء ولدين صغيرين :

مجـــدٌ تأوّبَ طارقاً حتى إذا ... قُلْنا أقام الدهرَ أصبح راحلا[1]
نجمانِ شاءَ اللهُ ألا يَطْلُعا ... إلا ارتدادَ الطَّرْفِ حتى يَأْفِلا
إن الفجيعةَ بالرياض نواضرًا ... لأَجَلُّ منها بالرياض ذوابلا
لَهْفِى على تلك الشـــواهدِ فيهما ... لو أُخِّرَتْ حتى تكون شمائلا[2]
إن الهـــلال إذا رأيتَ نُمُوَّهُ ... أيقَنْتَ أنْ سيكونُ بَدْرًا كاملا
قل للأمير وإنْ لَقِيتَ مُوَقَّرًا ... منه بِرَيْبِ الحادثات حُلاحِلاَ[3]
إنْ تُرْزَ فى طَرَفَىْ نهارٍ واحدٍ ... رُزْأَيْنِ هاجا لوعةً وبَلابِلا[4]
فالثِّقْلُ ليس مُضَاعَفاً لمطيـــةٍ ... إلاَّ إذا ما كان وَهْمًا بازلا[5]
لا غَرْوَ إن فَنَنَانِ من عَيْدانةٍ ... لَقِيَا حِمَامًا للبرية آكلا[6]
إن الأَشاءَ إذا أصاب مُشَذِّبٌ ... منه اتْمَهَلَّ ذُرًا وأثَّ أسافلاَ[7]
شَمَخَتْ خلالك أن يُوَاسِيكَ امرؤ ... أو أن تُذكَّرَ ناسياً أو غافلا
إلا مواعظ قادها لك سَمْحَــةً ... إسجاحُ لُبِّكَ سامِعًا أو قائلا
هل تَــكْلَفُ الأيدى بهزِّ مُهَنَّدٍ ... إلا إذا كان الحسامَ القاصلا

(١) تأوب : أتى ليلا .
(٢) رواية الديوان « أمهلت» بدل أخرت .
(٣) الحلاحل : السيد الشجاع .
(٤) ترز : أصلها ترزأ بمعنى تصاب ، فلما سهلت الهمزة جزم الفعل بحذفها . البلابل : الوساوس .
(٥) الوهم : الجمل الذلول الضخم القوى . البازل : الجمل أو الناقة فى سنتهما التاسعة ، وذلك أشد مايكونا من القوة . والمعنى أنه لا يزاد الحمل إلا للجمل الذى يقوى عليه .
(٦) العيدانة : النخلة أطول ماتكون .
(٧) الأشاء : صغارالنخل : اتمهل : ارتفع . أث : كثر .

وقال أبو الطيب فى مرثية طفل صغير :

فإنْ تَكُ فى قبرٍ فإنك فى الحَشَا ... وَإنْ تَكُ طفلا فالأسَى ليس بالطِّفْلِ

وَمِثْلُكَ لا يُبْكَى على قدر سنه ... وَلٰكِنْ على قَدْرِ المَخِيلَةِ وَالأَصْلِ (١)

أَلَسْتَ من القومِ الذين رِمَاحُهُمْ ... نَدَاهم ومن قَتْلَاهُمُ مُهْجَةُ البُخْلِ (٢)

بمولودهم صَمْتُ اللسانِ كغيره ... ولٰكنَّ فى أعطافه مَنْطِقَ الفَضْلِ

تُسَلِّيهِمُ علياؤُهُمْ عن مُصَابِهِمْ ... وَيَشْغَلُهُمْ كَسْبُ الثناء عن الشُّغْلِ (٣)

عَزَاءَكَ سَيْفَ الدولةِ المُقْتَدَى به ... فإنَّكَ نَصْلٌ والشدائدُ للنَّصْلِ

تَخُونُ المنايَا عَهْدَهُ فى سَلِيلِهِ ... وتَنْصُرُهُ بَيْنَ الفَوَارِسِ والرَّجْلِ (٤)

بنفسى وَلِيدٌ عاد من بعد حَمْلِهِ ... إلَى بَطْنِ أمٍّ لا تُطَرِّقُ بالحَمْلِ

بدا وله وَعْدُ السَّحَابَةِ بالرِّوَى ... وصَدَّ وَفِينَا غُلَّةُ البَلَدِ المَحْلِ (٥)

وقد مَدَّتِ الخَيْلُ العِتَاقُ عُيُونَهَا ... إلى وقت تَبْدِيلِ الرِّكَابِ من النَّعْلِ (٦)

ورِيعَ له جَيْشُ العَدُوِّ وما مشى ... وجَاشَتْ له الحربُ الضَّرُوسُ وما تَغْلِى

فتأمل أيها الناظر إلى ما صنع هذان الشاعران فى هذا المقصد الواحد ، وكيف هام كل

---

(١) المخيلة : مايتخيل فى الشخص ، والمراد أن المرء إنما يبكى عليه على قدر مايتخيل فيه من عظمة فى مستقبله

(٢) الألى : الذين . أراد أنهم من القوم الذين أفنوا البخل بجودهم فاستعار للبخل مهجة وجعل جودهم بمنزلة رماح تطعن بها مهجة البخل . والاستفهام للتقرير أى أنت من هؤلاء القوم .

(٣) المصاب (بالضم) : مصدر بمعنى الإصابة . والمعنى أن معاليهم توجب لهم التسلى والصبر على مايصيبهم أنفة من الجزع الذى هو شأن النفوس الصغيرة . واهتمامهم بكسب الثناء يشغلهم عن الاشتغال بغيره

(٤) الفوارس : الركبان . الرجل : المشاة .

(٥) الروى (بكسر ففتح) : مصدر روى من الماء . الغلة : العطش . يقول : ظهر هذا الوليد ومخايل كرمه واعدة بالخير كما يعد السحاب بالرى ثم أعرض عنا بموته قبل أن يدر كرمه فبقى فينا مثل عطش الأرض المجدبة إذا أخطأها رى السحاب .

(٦) مد العيون : كناية عن الترقب والرغبة . الركاب : ماتوضع فيه الرجل من السرج . أى مات قبل أن يركب الخيل وكانت متشوقة لذلك .

واحد منهما فى واد مع اتفاقهما فى بعض معانيه ، وسأبين لك ما اتفقا فيه ، وما اختلفا ، وأذكر الفاضل من المفضول فأقول : أما الذى اتفقا فيه ، فإن أبا تمام قال : لهفى على ... وأما أبو الطيب . فإنه قال بمولودهم . . . فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام ، وزاد عليه بالصناعة اللفظية ، وهى المطابقة فى قوله صمت اللسان ، ومنطق الفصل ، وقال أبو تمام : نجمان ، وقال أبو الطيب : بداوله . . . فوافقه فى المعنى، وزاد عليه بقوله : وصدوفينا غلة البلد المحل ، لأنه بين قدر حاجتهم إلى وجوده ، وانتفاعهم بحياته .

وأما ما اختلفا فيه ، فإن أبا الطيب : أشعر فيه من أبى تمام وذلك أن معناه أمتن من معناه ، ومبناه أحكم من مبناه ، وربما أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقِدَمه لا مع فضيلة القول وتقدمه ، وأبو تمام ، و إن كان أشعر عندى من أبى الطيب . فإن أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع ، و بيان ذلك أنه قد تقدم القول فيما اتفقا فيه من المعنى ، فأما الذى اختلفا فيه ، فإن أبا الطيب قال : عزاءك سيف الدولة . . . ، وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما : إن ترز فى طرفى . . . ، فإن قول أبى الطيب : والشدائد للنصل أكرم لفظا ، ومعنى من قول أبى تمام إن الثقل إنما يضاعف للبازل من المطايا ، وقوله أيضاً تخون المنايا . . . . أشرف من بيتى أبى تمام اللذين هما : لا غرو إن فننان . . . . وكذلك قال أبو الطيب البيتين:ألست من القوم . . . ، وهذا خير من بيتى أبى تمام اللذين هما : شمخت خلالك ...

وهذه موازنة أخرى عقدها أيضاً بين البحترى وأبى الطيب فى وصفهما للأسد قال « . . . ولكن الغرض إنما هو المفاضلة بين البحترى وأبى الطيب فيما أورداه من المعانى فى هذا المقصد المشار إليه فمما جاء للبحترى من قصيدته :

وما تَنْقِمُ الحُسَّادُ إلا أَصَالَةً لَدَيْكَ وَعَزْمًا أَرْيَحِيًّا مُهَذَّبَا[1]
وقد جرَّبُوا بالأمس منك عَزِيمَةً فَضَلْتَ بها السيفَ الحُسامَ المُجَرَّبَا

---

(١) الأريحى : الواسع الخلق ، والمراد بالعزم الأريحى العزم المتناول لشتى الأمور .

غداة لَقيتَ اللَّيْثَ وَاللَّيْثُ مُخْدِرٌ ... يُحَــــدِّدُ نَابًا لِلِّقَاءِ ومِخْلَبَا(١)
إذ شاء غادَى عَانَةً أو عَدَا عَلَى ... عقائلِ سِرْبٍ أو تَقَنَّصَ رَبْرَبَا(٢)
شَهِدْتُ لقد أَنْصَفْتَه حين تَنْبَرِى ... له مُصْلِتاً عَضباً من البيض مُقْضبَا
فَلَمْ أَرَ ضِرْغَامَيْنِ أَصْدَقَ مِنْــكُمَا ... عِرَاكاً إذا الهَيَّابة النِّــكْسُ كَذَّبَا(٣)
هِزَبْراً مشى يَبْغِى هِزَبْراً وَأَغْلَبَا ... مِنَ القَوْمِ يَغْشَى باسل القَوْمِ أغلبا
أَدَلَّ بِشَغْبٍ ثم هالَتْهُ صَــوْلَةٌ ... رآك لها أَمْضَى جَــنَاناً وأَشْغَبَا(٤)
فأَحْجَمَ لَمَّا لم يَجِدْ فيك مَطْمَعاً ... وأَقْدَمَ لَمَّا لم يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبَا
فَلم يُغْنِهِ أَنْ كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلاً ... ولم يُنْجِهِ أَنْ حَادَ عَنْك مُنَــكِّبَا
حَمَلْتَ عليه السيفَ لاعَزْمُكَ انثنى ... ولا يَدُكَ ارتَدَّتْ ولا حدُّه نَبَا

ومما جاء لأبى الطيب فى قصيدته :

أَمُعَفِّرَ الليثِ الهِزَبْرِ بسَوْطِهِ ... لمن ادَّخَرْتَ الصارمَ المصقولاَ(٥)
وَرْدٌ إذا وَرَدَ البحيرةَ شارِبًا ... وَرَدَ الفُرَاتَ زَئِيرُهُ والنِّيــلاَ(٦)
مُتَخَضِّبٌ بدَمِ الفوارس لابسٌ ... فى غِيــلِهِ عن لِبْدَتَيْهِ غِيلاَ(٧)

(١) حدد السكين : مسحها بحجر أو مسن لتصير قاطعة ، ولعل المراد من تحديد الليث لنابه أنه يحكه بأسنانه استعدادا للفتك به .

(٢) غادى : صادف فى وقت الغدوة (أول النهار) . العانة: جماعة الحمر الوحشية . الربرب : القطيع من بقر الوحش .

(٣) الهيابة : الجبان . النكس : الضعيف . كذب : جبن يقال حمل فما كذب أى فما نكص ولا جبن .

(٤) الشغب (بالفتح وقيل يحرك وقيل لا) : تحريك الشر والهياج . يقول إن الأسد أعجبه من نفسه مايأتى به من شغب ولكنه عاد فهاله مارأى منك .

(٥) عفره : مرغه فى التراب . يقول إنك صرعت الأسد بسوطك وهو أشد الحيوان خلقة وأهوله بأسا . فلمن خبأت السيف .

(٦) الورد : الذى يضرب لونه إلى الحمرة . والمراد بالبحيرة بحيرة طبرية .

(٧) الغيل : الغابة . اللبدة : الشعر المجتمع على كتف الأسد شبه لبدتيه بالغابة لكثافتها فقال انه إذا كان فى الغابة التى هى شجر ملتف فهو فى غابة أخرى من لبدتيه .

ما قُوبلتْ عيـــناه إلا ظُنَّتَا ... تحت الدُّجى نارَ الفَرِيقِ حُلولا[١]
فى وَحْدَةِ الرُّهْـــبانِ إلا أَنَّهُ ... لا يَعْرِفُ التحريمَ والتحليلا
يَطَأُ الثَّرَى مُتَرَفِّقًا من تيهِهِ ... فكأنه آسٍ يَجُسُّ عَليــلا[٢]
ويَرُدُّ عُفْرَتَهُ إلى يا فوخــه ... حَتَّى تَصيرَ لرأسه إِكْليلا[٣]
قَصَرَتْ مخافتُهُ الخُطا فكأنما ... رَكِبَ الكَمِىُّ جوادَه مَشْكُولاَ[٤]
أَلْـــقَى فريسته وزَمْجَرَ دونها ... وقَرُبْتَ قُرْبًا خاله تَطْفيلا[٥]
فتَشابَه القِرْنانِ فى إقدامـــه ... وتخالَفا فى بَذْلِك المأكُولاَ[٦]
أَسَدٌ يَرَى عُضْوَيْهِ فيك كِلَيْهما ... مَتْنًا أَزَلَّ وَساعِـــدًا مَفْتُولاَ[٧]
ما زَال يَجْمَعُ نَفْسَه فى زَوْره ... حَتَّى حَسِبْتَ العَرْضَ منه الطولا
وكأنما غرَّتْهُ عـــينٌ فادَّنَى ... لا يُبْصِرُ الخَطْبَ الجليل جليلا
أَنَفُ الكريمِ من الدَّنيَّةِ تاركٌ ... فى عَيْنِه العَدَدَ الكثيرَ قليلا

---

(١) الفريق : الجماعة . حلول : جمع حال . وهو الذى ينزل بالمكان ويقيم فيه . يقول عيناه تحت ظلام الليل كأنهما نار قوم حالين .

(٢) هذا البيت من عيون الشعر العربى فى دقة التمثيل .

(٣) العفرة : شعر القفاء ، إذا غضب الأسد ردها إلى يافوخه فتنتصب كالإكليل .

(٤) القصر (هنا) : ضد الطويل . المشكول : المقيد بالشكال ، يقول: إن الخوف منه أوقع الرعب فى قلوب الخيل فتحيرت وذهلت عن الجرى ، حتى كأن الفارس يركبها مقيدة .

(٥) يشير بالفريسة إلى البقرة التى ألقيت إلى الأسد فهاجه عنها الممدوح . والتطفيل : التعرض لطعام الناس من غير دعوة يقول : إن الأسد ألقى فريسته وزأر غاضبا حين رآك تقرب منها متطفلا على طعامه .

(٦) ويروى فتشابه الخلقان . يقول : إنك والأسد تشابهتما فى خلقتكما فكلا كما مقدام ولكن يفرق بينكما أنك كريم باذل لما ملكت يدك، وهو بخيل حريص على طعامه .

(٧) العضوان : فسرهما فى البيت بالمتن والساعد ، والمتن جانب الصلب . الأزل : القليل اللحم. يريد أنه يشبه الأسد فى قوة هذين العضوين فكأن الأسد حين يراها فى الممدوح يرى عضوى نفسه .

والعارُ مَضَّاضٌ وليس بخائفٍ　　من حَتْفِهِ مَنْ خَافَ مِمَّا قِيلا
خَذَلَتْهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحْتَهُ　　فاسْتَنْصَرَ التسليمَ والتَّجْدِيلا[1]

وسأحكم بين هاتين القصيدتين ، والذى يشهد به الحق وتنقيه العصبية أذكره، وهو أن معانى أبى الطيب أكثر عدداً وأسدّ مقصداً ، ألا ترى أن البحترى قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح فى تشبيهه بالأسد مرة وتفضيله عليه أخرى ولم يأت بشىء سوى ذلك ، وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك فى بيت واحد وهو قوله :

أَمُعَفِّرَ الليثِ الهِزَبْرِ بسَوْطِهِ　　لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصارمَ المصقولا

ثم إنه تفنن فى ذكر الأسد ، فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله فى انفراده فى جنسه وفى هيئة مشيه واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته ، وشبه الممدوح به فى الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية التى بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح ، وأخرج ذلك أحسن مخرج ، وأبرزه فى أشرف معنى . وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ماأشرت إليه . والبحترى وإن كان أفضل من المتنبى فى صوغ الألفاظ وطلاوة السبك، فالمتنبى أفضل منه فى الغوص على المعانى ، ومما يدلك على ذلك أنه لم يعرض لما ذكر بشر فى أبياته الرائية لعلمه أن بشرًا قد ملك رقاب تلك المعانى، واستحوذ عليها ولم يترك لغيره شيئاً يقوله فيها . ولفطانة أبى الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر لأنه قصر عنه تقصيرًا كثيرًا ، ولما كان الأمر كذلك عدل أبوالطيب عن سلوك هذه الطريق وسلك غيرها فجاء فيما أورد مبرزاً اهـ .

ونعلم أنه يشير برائية بشر إلى قصيدة بشر بن عوانة المشهور التى أوّلها :

أَفاطِمُ لو شَهِدْتِ ببَطْنِ خَبْتٍ　　وقد لاقى الهِزَبْرُ أخاكِ بِشْرَا

وهى مشهورة فنكتفى بالإشارة إليها .

---

(١) الاستنصار : طلب النصرة . التجديل : الرمى على الجدالة (الأرض) . يقول : لم تساعده قوته على مكافحتك فطلب النصرة عليك بأن استسلم لك، وهو تهكم

هذه صورة ولعلها ضئيلة لما كان عند العرب من ميل إلى النقد ونقاد فيه ، وفى ذلك أبلغ ردّ على من اتهمهم بالجهل فى هذا الباب ، وعدم التعرّض لهذا الفنّ فيما تناولوه من فنونهم .

الرواية والرواة

تنقسم الرواية فى تاريخ الأدب العربى قسمين : رواية الحديث ، ورواية الأدب من شعر ولغة وأخبار .

أما رواية الحديث فهى أهمّ القسمين ، وأحفلهما تاريخاً ، وأمدّهما زمناً ، وذلك أنها تعلقت بأصل من أصول الدين ، وهو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن أجل هذا عظم شأنها حتى صارت علماً أطلق عليه اسم « رواية الحديث » ، ثم « مصطلح الحديث » .

ومنشأ هذا العلم كان بعد موت رسول الله حين وقعت الأحداث ، فالتمسوا لها الحكم فى القرآن وكلام النبىّ . وقد احتاطوا أن يقع الكذب على رسول الله ، فكان أبو بكر لا يقبل خبرًا من أحد إلا إذا أشهد آخر على سماعه من رسول الله ، وكان عمر شديداً على المكثرين من الرواية ، كما كان عثمان وعائشة يتصفحان الأحاديث ويردان كثيرًا منها على أصحابها ، وكان علىّ إذا حدثه محدث استحلفه بالله فإن حلف له صدقه. وعرف كثير من الصحابة بقلة الرواية: كأبى بكر، والزبير، وأبى عبيدة، والعباس، بل كان بعضهم لا يكاد يروى شيئاً كسعيد بن زيد . أما أكثر الصحابة رواية فهو أبو هريرة صحب رسول الله ثلاث سنين وعاش بعده نحوا من خمسين سنة وكثيرا ما أنكر عليه عمر وعثمان وعلىّ وعائشة . ويذكرون فى سبب كثرة حديثه أنه كان لفقره يلازم رسول الله للخدمة لا يشتغل عنه بالصفق فى الأسواق ، ولا السفر فى التجارة ولا الانقطاع فى الضياع .

وظل الحديث لا يكتب لخوف اختلاطه بالقرآن ، والناس حديثو عهد بهما ثم لمكان الثقة بالرواية والحرص على كلام رسول الله ، وبقى هذا حتى كانت خلافة عمر ابن عبد العزيز ، وقد كثرت الأحاديث ، واجترأ الناس بالكذب على رسول الله ومال القصاص إلى التهويل ، والزنادقة إلى الدس للإسلام ، وقلّ من أهل الحديث من يوثق بأيمانهم ، فاستخار عمر ربه أربعين يوما حتى خار له فى تدوين الحديث فكان ذلك على يد الزهرى أو ابن صبيح أو ابن جريج .

ولكثرة من تقولوا على رسول الله من متعمد ومغتر احتاج أهل الحديث إلى تمحيص الرواية ، فاشترطوا الإسناد وأوجبوا فى الراوى شروطاً من العدالة والضبط وأن يكون معروف الذات ، فنشأ عن ذلك علم الرواية وكان من ألقاب الرواة : ثقة أوضابط ، خير أو مأمون ، شيخ ، صالح الحديث — ويقولون فى التجريح : لين الحديث ، متروك الحديث ، وضاع ، دجال .

وكان من رغبتهم فى التحرى أن شاعت الرحلة من طلاب الحديث إلى جميع الأمصار لأن الصحابة والتابعين كانوا قد انساحوا فى البلاد فكان منهم بالحجاز والكوفة والبصرة والشام ومصر ، ومن هنا أيضاً تعددت طرق الرواية .

فكان النظر فى هذه الأسانيد ومعرفة رجالها وطريقة أخذ بعضهم عن بعض هو ما سمى بعد بعلم « مصطلح الحديث » .

وقد انصرفت همة العلماء إلى تحصيل حديث رسول الله بأسانيده المختلفة كما درسوا رجال السند دراسة حفظوا فيها أسماءهم وتبينوا صفاتهم وتصفحوا أخلاقهم ، وكان من ذلك علم واسع وكان أغرب ما فيه أن ترى المحدث يحفظ الحديث بعدة روايات تختلف فى أشخاص الرواة وفى نص الحديث بفروق دقيقة يؤدونها أتم أداء . وكان منهم العجب العجاب فى هذا الباب . وإنما مرجعه إلى أمرين : أولهما امتازت به الأمة العربية من قوة ملكة الحفظ منذ جاهليتها ، وهى ميزة خصها بها الله وليست عامة

فى كل البدو . وثانيهما ما كان من رغبة أكيدة انطوت عليها قلوب أهل الورع من هذه الأمة وأعان عليها نيات صالحة امتاز بها أوائل الخلفاء من دولة بنى العباس . فكان من مجموع ذلك للحديث: رواج، وجمع ، وضبط ، وتحصيل،وخدمة من كل النواحى تتقاصر عنها همم كثير من الأمم فى أعز شىء لديها . وكان من أمثلة الضبط للأحاديث وحفظ أسانيدها ومتونها ما جرى من امتحان الإمام البخارى فى بغداد وقد مر بك حديث ذلك .

وقبله كان ابن عباس رضى الله عنه ، وقد كان صدره خزانة العرب ومرجعهم فى التفسير والحديث ، ثم الشعبى الذى كان يقول ما كتبت سواداً فى بياض ولا حدثنى أحد بحديث قط إلا حفظته وهو الذى أدرك خمسمائة من الصحابة وسمع منهم .

وكان الإمام أحمد بن حنبل بعد ذلك يحفظ ألف ألف حديث وأبو زرعة سبعمائة ألف وهو الذى سئل عن رجل حلف بالطلاق أن أبا زرعة يحفظ مائتى ألف حديث هل يحنث ؟ فأجاب : لا .

وقد مر بك من الكلام فى علم الحديث ما يعد تتميا لهذا البحث .

رواية الأدب

من المعروف أن العرب منذ جاهليتها كانت تروى أشعارها وأخبارها وكان لكل شاعر منهم راوية ينقل للناس شعره ويذيعه فيهم . ولما جاء الإسلام واحتاج العرب إلى رواية أخبار الجاهلية ، وأشعار شعرائها وفعلوا ذلك لذكرى أيامهم السالفة وللمباهاة بأعمال آبائهم الأمجاد ، ولاحتياجهم إلى الشعر فى تفهم القرآن وحديث رسول الله ، نشأت للأدب رواية ولكنها تختلف عن رواية الحديث بأنها لم يشترط فيها الإسناد والعنعنة إذ لم يكن الأدب فى أول أمره مجالا للكذب لغلبة الورع على الناس ، ولأن

مرجع اللغة إلى القياس وهو لا يختلف . فمن أجل ذلك لم يكن لرواية الأدب إسناد . ثم لما جرى على الأدب فيما بعد، مادعا إلى الاحتياط فيه حدث فيه الإسناد وذلك حين ضعفت اللغة فى عرب الأمصار فاحتاج الناس إلى نقلها عن عرب البادية ، ثم حين فسدت الذمم فصار التقوّل سهلاً على مستطيعه، فكثر الاصطناع فى الشعر ونحله فنشأت إذ ذاك أول طبقة من رواة الأدب أمثال أبى عمرو بن العلاء وحماد ، لذلك ترى سند الرواية فى الأدب ينقطع إليهم و إلى أهل طبقتهم ولا ترى خبراً أو شعراً متصل السند إلى جاهلى إلا ما كان من حديث رؤبة بن العجاج الراجز ، فقد سئل عن معنى قول امرئ القيس .

نَطْعَنُهُمْ سُلْكَى وَمَخْلُوجَةً كَرَّكَ لأْمَيْنِ على نَابِلِ (١)

فقال حدثنى أبى عن أبيه قال حدثتنى عمتى وكانت من بنى دارم قالت : سألت امرأ القيس وهو يشرب طِلًى مع علقمة بن عَبَدة مامعنى قولك : كرك لأمين على نابل ؟ قال: مررت بنابل وصاحبه يناوله فما رأيت أسرع من ذلك . وحدث حماد قال كان للكميت المتوفى سنة ١٢٦ ﻫ جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تصفان له البادية وأمورها وتخبرانه بأخبار الناس فيها فإذا شك فى شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه ، قال حماد فمن هنا كان علمه .

وكثرت الرحلة إلى البادية لنقل اللغة ورواية الشعر ونوادر العرب وأقدم من رحل إليها يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ ﻫ ، وخلف الأحمر المتوفى سنة ١٧٥ ﻫ ، وأبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى المتوفى سنة ٢٠٩ ﻫ وأبو زيد الأنصارى المتوفى سنة ٢١٥ ﻫ والأصمعىّ المتوفى سنة ٢١٧ ﻫ .

ثم جاء بعدهم طبقة النَّضْر بن شُمَيْل والكسائى وهو الذى ذكروا أنه أنفد خمس عشرة قنينة من الحبر فى الكتابة عن العرب غير ماحفظ .

(١) السلكى (بالضم) : الطعنة المستقيمة . المخلوجة : الطعنة ذات اليمين وذات الشمال . الريش اللؤام هو الملتئم الذى يجعل فيه بطن ريشة إلى ظهر الأخرى . فاللأمان هنا ريشتان ملتئمتان . شبه سرعة الطعن بدفع الريش إلى النبتال ، وإنما يحتاج إليها لأن الغراء الذى يلزق به الريش إذا برد لم يلزق فيستعمل حاراً .

وما زال العلماء يرحلون إلى البادية فى طلب اللغة حتى فسدت لغتها ولانت جلود أهلها .

وكما رحل أهل الأمصار إلى البادية ، كذلك كان يقدم منها أعراب فيتلقاهم الرواة ويتحملون عنهم وقد يأنس بعض هؤلاء بالحضر فيقيمون به طويلا فيكون مجلسهم حلقة علم يقصد إليها كل راغب فى معرفة اللغة ورواية الخبر والشعر ، كذلك كان يتحاكم إليهم العلماء حين يقع بينهم الخلاف ، وكانوا يستدعون إلى قصور الخلفاء والأمراء من أجل ذلك .

و بعض هؤلاء الأعراب لما علم ما تجره الرواية على أصحابها من خير وثروة أبوا إلا أن يبيعوا علمهم للناس فكانت بدويتهم مورد كسب و باب غنى . وقد عرف من البدو الذين أقاموا فى الحضر .

١ — ثَوْر بن زيد ، كان يفد على آل سليمان بن على ، وعنه أُخذ ابن المقفع فصاحته

٢ — أبو مِسْحَل ، حضر إلى بغداد وافداً على الحسن بن سهل .

٣ — أبو ضَمْضَم الكلابى « « « « « « «

٤ — أبو العَمَيْثَل ، كان مؤدب ولد عبد الله بن طاهر ، وكان عبد الله لا يسمع من شاعر إلا بعد أن يجيز ذلك أبو العميثل .

٥ — أبو مِشْعَل العُقَيْلى ، وفد على الرّشيد ، واتصل بالبرامكة .

٦ — أبو مَهْدِيّة ، كان صاحب غريب ، وروى عنه البصريون كثيراً .

٧ — الفَقْعسيّ ، راوية بنى أسد وصاحب مآثرها أدرك المنصور ، وقد أُخذ عنه العلماء مآثر بنى أسد وغير هؤلاء كثيرون لا يحصيهم عد .

وسنكتفى من تراجم رواة الأدب بترجمة الأصمعى فإنه يمثلهم أصدق تمثيل .

حياة الأصمعى

اسمه عبد الملك بن قُريب . واسم قريب عاصم . وسمى الأصمعى نسبة إلى جده أصمع . وهو من قيس نشأ فى البصرة وقدم بغداد فى أيام الرشيد ولما تولى المأمون كان الأصمعى قد عاد إلى البصرة فاستقدمه فاعتذر بالضعف والشيخوخة . فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل و يسيرها إليه فيجيب عنها .

وقد امتاز الأصمعى بالحافظة النادرة، وحياته كلها برهان صادق على قوة هذه الحافظة فإنه ما سئل عن شىء إلا كان عارفا به راويا للشعر فيه . ولكننا نذكر حادثة واحدة لعلها أدل دليل على تمام هذه الملكة فيه .

ذكروا أن الحسن بن سهل لما قدم العراق أحب أن يجمع بين جماعة من أهل الأدب فأحضر أبا عبيدة مَعْمَر بن المثنى والأصمعى ونصر بن على الجهضمى فابتدأ الحسن فنظر فى رقاع كانت بين يديه للناس فوقع عليها وكانت خمسين ، ثم أمر فرفعت إلى الخازن ثم أفاضوا فى ذكر الحفظ وذكروا جماعة من السلف اشتهروا به فالتفت أبو عبيدة وقال ما الغرض أيها الأمير من ذكر من مضى وهاهنا من يقول إنه ما قرأ كتابا قط فاحتاج إلى أن يعود إليه ولا دخل قلبه شىء وخرج منه ؟ فالتفت الأصمعى وقال إنما يريدنى بهذا القول ، والأمر فى ذلك على ما حكى وأنا أقرب إليه . قد نظر الأمير فى خمسين رقعة وأنا أعيد ما فيها وما وقع به عليها رقعة رقعة . فأحضرت الرقاع فقال الأصمعى سأل صاحب الرقعة الأولى كذا واسمه كذا ووقع له بكذا ثم مر فى نيف وأربعين رقعة ، فالتفت إليه نصر الجهضمى وقال : أيها الرجل أبق على نفسك من العين ، فكف الأصمعى .

وكان الأصمعى يقول أحفظ عشرة آلاف أرجوزة ، وكان الرشيد يسميه بشيطان الشعر .

كذلك امتاز الأصمعى بطلاوة الحديث وحلاة التعبير ، وهذا هو الذى جعله حبيباً إلى الخلفاء والأمراء حائزاً لصلاتهم ، ولقد قال عنه الإمام الشافعى : ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعى ، وسئل أبو نواس عنه وعن أبى عبيدة فقال : أما أبو عبيدة ، فإذا أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمعى فبلبل يطربهم بنغماته .

كذلك كان صادقاً فى حديثه مأمون الرواية لمكانه من خشية الله وتقاه ، وقد كان الإمام الشافعى يقول : ما رأيت بهذا العسكر أصدق من الأصمعى ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يثنى عليه ويقول : إنه ثقة .

وكان الأصمعى : صاحب نحو ولغة ، وغريب وأخبار وملح ؛ لذلك فضل خلفاً فى علم الشعر لامتيازه بمعرفة النحو ، والشعر يحتاج إلى ذلك ، وقد شارك الأصمعى فى علومه كثيرون مثل أبى زيد الأنصارى ، فقد كان صاحب لغة وغريب ونحو ، بل كان فى النحو أكثر من الأصمعى ؛ ومثل أبى عبيدة فقد كان أعلم من أبى زيد والأصمعى بالأنساب والأيام ، وكان للأصمعى فى اللغة يدٌ غراء لايعرف مثله فيها .

ولكنه مع كل هذا الفضل كان مقصرا فى علم العروض ، شرع يتعلمه عن الخليل فلم يتقدم فيه ، فأراد الخليل أن يصرفه عنه ، فقال له يوما : يا أبا سعيد كيف تقطع قول الشاعر ؟ :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فعلم الأصمعى أن الخليل تأذى ببعده عن علم العروض ، فلم يعاوده فيه .

وقد أخذ الأصمعى عن عبد الله بن عون ، وشعبة بن الحجاج ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن دريد ، والخليل بن أحمد ، وأخذ عن الأصمعى ابن أخيه عبد الرحمن ابن عبد الله ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو حاتم السجستانى . وأبو الفضل الرياشى وأحمد بن محمد اليزيدى ، ونصر بن على الجهضمى وغيرهم .

نوادر الأصمعى

هى كثيرة امتلأت بها الكتب ، واستفاضت الرواية، حتى كان الأصمعى أشهر من عرف بذلك بين متعلم وأمىّ ، لا يجهل اسمه أحد ، ولا ينفك الناس يروون عنه ماله ، وما ليس له ، وما ذلك إلا من كثرة نوادره ، وشيوع الرواية عنه ، ومن هذه النوادر ما مرّ بك فى أبواب متفرقة ، وننقل لك هنا مالم يسبق وروده .

قال له الرشيد يوما: ياعبد الملك، أنا ضجر ، وأحب أن أسمع حديثاً أتفرج به. فحدثنى بشى ، قال فقلت : لأى الحديث يقصد أمير المؤمنين ؟ فقال : لما شاهدت وسمعت من أعاجيب الناس ، وطرائف أخبارهم ، فقلت يا أمير المؤمنين : كان صاحب لنا من البدو كنت أغشاه ، وأتحدث إليه ، وقد أتت عليه ست وتسعون سنة أصح الناس ذهناً ، وأجودهم أكلا، وأقواهم بدنا، فغبرت عنه زمانا ، ثم قصدته فوجدته ناحل البدن، كاسف البال متغير الحال ، فقلت له : ما شأنك ، أأصابتك مصيبة ؟ قال : لا . قلت : فمرض عراك ؟ قال : لا . قلت : فما سبب هذا الذى أراه بك ؟ فقال : قصدت بعض القرابة فألفيت عندهم جارية قد لاثت رأسها ، وطلت بالورس ما بين قرنها إلى قدمها ، وعليها قميص ، وقناع مصبوغان ، وفى عنقها طبل توقع عليه وتنشد :

مَحَاسِـــنُها سِهَامٌ للمنايا ... مُرَيَّشَةٌ بأنواع الخُطُوبِ
ترى رَيْبَ الزمانِ لهُنَّ سَهْمٌ ... يصيب بنصله مُهَجَ القلوب

فأجبتها :

قِـفِى شَفَتِى فى موضع الطبل ترتعى ... كما قد أَبَحْتِ الطبل فى جيدك الحَسَنْ
هَبِينِىَ عُـــودًا أجوفا تحت سِنِّهِ ... تمتع فيا بين نَحْرِكِ والذَّقَنْ

فلما سمعت الشعر منى نزعت الطبل ، ورمت به فى وجهى ، و بادرت إلى الخباء، فلم

أزل واقفاً حتى حميت الشمس على مفرق رأسى لاتخرج ، ولا ترجع إلىّ جوابا . فقلت : إنا لله ، أنا والله معها كما قال الشاعر :

فوالله يا سلمى لطال إقامتى على غير شىء ياسُلَيْمَى أراقبه

ثم انصرفت سخين العين قرح القلب ، فهذا الذى ترى من التغير من عشق لها . قال : فضحك الرشيد حتى استلقى ! وقال : ويحك ياعبد الملك ابن ست وتسعين سنة يعشق ؟ قلت قد كان هذا يا أمير المؤمنين .

حكى أبو العباس المبرد قال : دخل الأصمعى على الرشيد بعد غيبة كانت منه ، فقال له يا أصمعى : كيف كنت بعدنا ؟ فقال : مالاقتنى أرض بعدك ، فتبسم الرشيد ، فلما خرج الناس قال : يا أصمعى ، ما معنى قولك ما لاقتنى أرض ؟ فقال : ما استقرّت بى أرض ، فقال : هذا حسن ، ولكن لا ينبغى أن تكلمنى بين يدى الناس إلا بما أفهمه ، فإذا خلوت فعلمنى ؛ فإنه يقبح بالسلطان ألا يكون عالما ، لأنه لا يخلو . إما أن أسكت أو أجيب ، فإذا سكت يعلم الناس أنى لا أعلم إذا لم أجب ، وإذا أجبت بغير الجواب يعلم من جوابى أنى لم أفهم ما قلت . . قال الأصمعى فعلمنى أكثر مما علمته .

وحكى أيضاً قال: مازح الرشيد أم جعفر فقال لها: كيف أصبحت يا أم نهر؟ فاغتمت لذلك ولم تفهم معناه ، فأنفذت إلى الأصمعى تسأله ، فقال : الجعفر النهر الصغير ، وإنما ذهب إلى هذا فطابت نفسها .

وقال الأصمعى : دخلت أنا وأبو عبيدة على الفضل بن الربيع ، فقال : يا أصمعى كم كتابك فى الخيل ؟ فقلت : جلد واحد، قال: فسأل أبا عبيدة ، فقال : خمسون جلداً فأمر بإحضار الكتابين وإحضار فرس، فقال لأبى عبيدة : أقرأ كتابك حرفاً حرفاً وضع يدك على موضع موضع من الفرس ، فقال أبو عبيدة : لست بيطاراً وإنما هذا شىء أخذته وسمعته من العرب فقال لى قم يا أصمعى فضع يدك على موضع موضع من الفرس فوثبت فأخذت بأذنى الفرس ووضعت يدى على ناصيته فجعلت أقول هذا اسمه كذا حتى بلغت حافره فأمر لى بالفرس فكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبت الفرس وأتيته .

آثار الأصمعى

ذكر ابن النديم فى الفهرست نيفاً وأربعين كتابا ذهب معظمها وقد بقى منها اثنا عشر ، وهى :

١ — الأصمعيات ، وهى مجموع مختارات من الشعر طبعت فى لبسك سنة ١٩٠٢ م .

٢ — رجز العجاج وهو مخطوط بدار الكتب الملكية بمصر .

٣ — كتاب أسماء الوحوش وهو مطبوع .

٤ — كتاب الإبل مطبوع فى بيروت .

٥ — كتاب خلق الإنسان وهو مطبوع مع سابقه فى مجموعة واحدة .

٦ — كتاب الخيل ، وهو مطبوع بفينا .

٧ — كتاب الشاء ، مطبوع سنة ١٨٩٦ م .

٨ — كتاب الدارات مطبوع ببيروت فى المجموعة السابقة .

٩ — كتاب الفرق مطبوع بفينا .

١٠ — كتاب النبات والشجر مطبوع ببيروت فى المجموعة السابقة .

١١ — كتاب النخل والكرم مطبوع ببيروت سنة ١٩٠٢ م .

١٢ — كتاب الغريب مخطوط فى مكتبة الاسكوريال .

⁂

وكانت وفاة الأصمعى سنة ٢١٣ هـ ، وقيل سنة ٢١٤ هـ ، وقيل ٢١٧ هـ ، ولما مات رثاه أبو العتاهية بقوله :

أسفت لفقد الأصمعى لقد مضى ... حميداً له فى كل صالحة سهم
تقضت بشاشات المجالس بعده ... وودعنا إذ ودع الأنس والعلم
وقد كان نجم العلم فينا حياته ... فلما انقضت أيامه أفل النجم

الغناء والمغنون

عرفت فى دراسة العصر الأموى كيف انتقل الغناء عند العرب من السذاجة إلى الإتقان بسبب الفرس الذين قدموا مكة أيام الزبير لتجديد بنائها ، وكان ماسمعه العرب قد نال إعجابهم فدفع مِسْجَحاً مولى عبد الله بن جعفر إلى تعريبه إلى غير ذلك من حديث طويل .

فدل ذلك على ما عند العرب من ميل إلى الموسيقى وما فى نفوسهم من خفة إلى السرور وارتياح إلى التوقيع ، وإن كان ذلك طبيعة فى جميع الناس ولكنهم فيها يتفاوتون .

وما لبثوا أن صار الحجاز بقريتيه العظيمتين مكة والمدينة مهرجاناً دائم الحركة ، بل دوحا لا تفتر بلابله عن الشدو والترجيع . وقد بلغ من كثرة المغنين به أن كانوا يحجون قوافل فى أبهى زينة وأعظم مظهر . لقد كان هذا حال الغناء مع قرب العرب من البداوة وبعدهم عن مستمد هذه الثروة الغنائية، وهو العراق بلاد الفرس القديمة المدنية المعروفة بعظيم عنايتها بالموسيقى ، فقد كان ملوكها يحتفلون بها ويعقدون لها المجالس ويثيبون المجيدين للغناء . وهذا هو شأن كل أمة أصابت من المدينة حظا كحظ الفرس فى إبان دولتهم ، فما بالك بالعرب وقد استقر ملكهم بالعراق واختاروا بغداد قاعدة لهم ومظهراً لمدنيتهم ، والزمن قد ضمن لهم التحلل من كثير من القيود ، فبعد أن كان الناس فى الغناء فريقين : محللين، ومحرمين ، وراضين، ومنكرين ، وكان خلفاء الأمويين كذلك فيه بين مثبطين ومشجعين ومستهترين ومناوئين ، نجد أهل بغداد جميعاً يقبلون عليه والخلفاء لا يختلف رأيهم فى تشجيعه والعناية به ، كان ذلك والمورد قريب والمدد ميسور والقرائح قد أطلقها من عقالها مافى المدنية من تجديد ونشاط واحتثاث على العمل وعظيم مكافأة عليه . وعلى نسبة تقدم العرب فى المدنية ازدادت

عنايتهم بالغناء وحسن أثرهم فيه . ولقد ذكروا أنهم قبل العباسيين لم يكونوا يعلمونه إلا الصفر والسود من الجوارى حتى علّمه البرامكة للجوارى البيض الحسان ليزيد جمالهن فى الغناء تأثيراً فى النفوس .

عناية الخلفاء بالغناء

على قدر عنايتهم بالشعر كانت عنايتهم بالغناء ، فقد أكرموا وفادة المغنين وأجزلوا لهم العطاء ، وعقدوا المجالس لسماعهم ، والمفاضلة بينهم ، واتخذوهم ندماءهم وسمّارهم ، وما ذلك بغريب ، فإن مجلس السمر لا يحلو بغير غناء ، ولا يطيب بلا توقيع ، وإذا كان فى سماع الشعر ارتياح ولذة ، فإنه أقرب إلى الجد ، وأدخل فى باب الوقار ، فأما الذى لا تتم لذة إلا به ، ولا يطيب مجلس إلا على أصوات أوتاره ، ونغمات شداته فذلك هو الغناء .

لذلك رأينا الخلفاء يتخذون من المغنين ندماءهم الذين لا يفارقونهم ، وإذا فارقوهم فعلى موعد قريب حتى إن المغنى إذا عظمت منزلته ، واختص به الخليفة ، ترى حياته قد صارت وقفاً على رغبات الخليفة يستدعيه متى شاء . ولقد كان المغنون مع وفير ما ينالون من عطاء يملون هذا الإلحاح عليهم من الخلفاء ، فيطلبون أياماً يضمنون فيها حريتهم ، ويتصرفون فيها فى شؤونهم . ولقد تمنى إبراهيم الموصلى على الرشيد أن يهب له يوماً من أيام الأسبوع ينفرد فيه بجواريه وإخوانه فلا يفاجئه الخليفة بطلب فى ذلك اليوم ، فمنحه الرشيد يوم السبت ، وقال هو يوم أستثقله فَالْهُ فيه بما شئت .

ولقد بلغ من غرام الخلفاء بالغناء والمغنين أن ساروا إليهم ، وقصدوهم فى منازلهم ، وذلك تكريم ما سمعنا بمثله فى طبقة أخرى غير هؤلاء .

ذكروا أن أحمد بن المرزبان قال : حدثنى بعض كتاب السلطان أن هارون

الرشيد هبّ ليلة من نومه فدعا بحمار كان عنده يركبه فى القصر، فركبه وخرج فى دراعة ومشى متلثما بعمامة متلحفاً بإزار، ومشى بين يديه أربعمائة من الخدم، وكان مسرور الفرغانى جريئاً عليه لمكانة كانت له عنده، فلما خرج من باب القصر قال له: أين تريد يا أمير المؤمنين الساعة؟ قال: أردت منزل إبراهيم الموصلى. قال مسرور: فمضى حتى انتهى إلى منزل إبراهيم، فخرج فتلقاه، وقبل حافر حماره، وقال يا أمير المؤمنين أفى مثل هذه الساعة تظهر؟ قال نعم شوق طرقك بى، ثم نزل فجلس فى طرف الإيوان ثم أكل من طعام إبراهيم، وسمع جواريه حتى طرب وانصرف.

ولقد بلغ من غرامهم أيضاً أن أقبلوا على الغناء يحاولونه بأنفسهم، ويتعلمه أولادهم حتى لقد عقد أبو الفرج الأصفهانى فصلا فى كتابه «الأغانى فى بيان من غنى من الخلفاء وأبنائهم»، ونسبت له أصوات. قال فيه: «فأولهم وأتقنهم صنعة وأشهرهم ذكرا فى الغناء إبراهيم بن المهدى، فإنه كان يحقق فيه تحقيقاً شديداً، ويبتذل نفسه، ولا يستتر منه، ولا يحاشى أحداً، وكان فى أول أمره لا يفعل ذلك إلا من وراء ستار وعلى حال تصون وترفع إلا أن يدعوه إليه الرشيد فى خلوة والأمين بعده، فلما أمنه المأمون تهتك بالغناء وشرب النبيذ بحضرته، والخروج من عنده ثملا ومع المغنين خوفا منه وإظهاراً له أنه قد خلع ربقة الخلافة من عنقه، وهتك ستره فيها حتى لا يصلح لها، وكان من أعلم الناس بالنغم والوتر والإيقاعات، وأطبعهم فى الغناء وأحسنهم صوتاً. وكذلك أخته علية بنت المهدى، وأبو عيسى بن الرشيد، وعبد الله بن موسى الهادى، وعبد الله بن محمد الأمين، وأبو عيسى بن المتوكل، وعبد الله بن المعتز، ومن الخلفاء أنفسهم من اشتهر بالتلحين وأكثرهم فى ذلك: الواثق، والمنتصر، والمعتز، والمعتمد، والمعتضد».

ولقد ذكر صاحب الأغانى فى موضع آخر أن الواثق بالله صنع مائة صوت ما فيها صوت ساقط، وأنه كان من صنعته:

هلْ تَعْلَمِينَ وراءَ الحبِّ منزلةً　　تُدْنِي إليكِ فإنَّ الحبَّ أَقْصَانِي
هذا كتابُ فتًى طالتْ بَلِيَّتُهُ　　يقول يا مُشْتَكَى بَثِّي وأَحْزَانِي

وصنعته فى قول أبى العتاهية :

أَضحتْ قبورُهُمُ من بَعْدِ عِزَّتِهِمْ　　تَسْفِي عليها الصَّبَا والحَرْجَفُ الشَّمَلُ
لا يَدْفَعُونَ هَوَامًا عن وُجُوهِهِمُ　　كأنهُمْ خَشَبٌ بالقَاعِ مُنْجَدِلُ

كما ذكروا من صنعة المعتمد ما أحدثه فى قول الفرزدق :

لَيْسَ الشَّفيع الذى يأتيك مؤتزرا　　مثلَ الشفيعِ الذى يأتيك عُرْيانَا

ومن صنعة المعتضد ما أحدثه فى قول دريد بن الصمة :

ياليتنى فيها جَذَعْ　　أَخُبُّ فيها وأَضَعْ

ذلك هو شأن خلفاء هذه الدولة وأبناء خلفائها: غرام بالغناء ونشأة فيه. اللهم إلا ما كان من أمر المنصور فإنه كان فى شغل شاغل بتدعيم أسس الدولة فلم يكن منه إقبال على نوع من أنواع الملاهى حتى لقد كان يعير آل الزبير بحبهم للغناء ، والمأمون مثلاً امتنع عن سماع الغناء ، وأمر بمنعه حين عاد من خراسان ، فبقى عشرين شهراً على ذلك حتى صفت له الدولة ، واتسقت الأمور فنزل هذا التشدد ، وصار لا يكفيه أن يسمر عنده إسحاق الموصلى ، وإبراهيم بن المهدى حتى يدعوهما إلى الصبوح ، ويقول لهما بكِّرا على قد اشتقنا إلى الصبوح ، وأمر إسحاق أن يعمل له لحنا ، وكذلك أمر إبراهيم فغدوَا عليه ، وقد سرق إسحق لحن إبراهيم فى قصة عجيبة طويلة .

ولم يمنع الغناء منعا باتا إلا المهتدى العباسى ، فإنه كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ، فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥ هـ ، وكانت الملاهى قد انتشرت فى الدولة أمر بمنع الغناء فظل الحال على ذلك مدة خلافته ثم عاد الأمر إلى ما كان عليه قبل .

قديم الغناء وحديثه

فى أوائل عهد الدولة العباسية حين نفخت الدولة من روح الغناء ، واتجهت إليه الهمم، نشأ فيه مذهبان : قديم ، وحديث ، وكان ينصر القديم : إسحاق الموصلى ، ومخارق وعلويه ، وعريب ، وبذل ، وسليم بن سلام ، ومحمد بن الرف ، وزبير بن دحمان ، وأحمد بن يحيى ، ومحمد بن حمزة ، وهؤلاء هم الآخذون بمحاسن الغناء ، وطرائق الصناعة لا يتحللون من قيودها ، ولا يستبيحون التغيير فيها . أما المقصرون عن أداء الغناء القديم ، المغيرون له المتعصبون للجديد فهم : إبراهيم بن المهدى ، ومن انضم إليه من إسماعيل بن جامع ، وفليح بن العوراء ، ويحيى المكى ، وعمرو بن نابه ، وشارية ، ونزيق ، وبنو حمدون ، وحسين بن محرز ، وغيرهم .

وقد كان السبب فى هذا الانقسام والنزاع أن إبراهيم بن المهدى غنى بلحن قديم فأضاع صناعته فرد عليه إسحاق وعاب عليه تغييره فقال: أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ ، فتخالفا على ذلك وانضم إليه كل من رضى طريقته وربما كان هذا التحيز إلى إبراهيم غير خالص للفن ، إذ كانوا يتقربون بكفالته إلى الرشيد فكان قوم إبراهيم أكثر عدداً قبل وزارة جعفر البرمكى ، فلما ولى وجهر البرامكة بتفضيل إسحاق رجع إلى غرضه كثير من المجيدين . ولم يزل المغنون فى أهل البيوتات مثل البرامكة وآل هاشم وآل الربيع يتمسكون بالقديم ويحملونه كما يسمعونه فلم يكن من مفسد له إلا جماعة أولاد العباسيين مثل : إبراهيم ، وأخيه يعقوب ، وأختهما علية ، وعبد الله بن الهادى وغيرهم ممن يترفع عن أن يقيد غناءه بالمسموع والمحفوظ من الأصوات وإن كانوا بموضع جليل من هذه الصناعة .

ولكن هذا الانقسام لم يستمر طويلا إلا ريثما ثبتت فى الألحان قدم القوم

ورسخت ملكاتهم فى النغم فكان لهم فيه طابع خاص اجتمع فيه محاسن الماضى والحاضر واختلط فيه القديم بالحديث واستمر للغناء شأن نحو قرنين من الزمان من ابتداء عمر هذه الدولة ثم ابتدأ يضمحل تبعاً لاضمحلال أمر الدولة حتى يقول أبو الفرج (على أن الجميع من الصحيح والمغير قد انقضى فى عصرنا هذا) .

وحين كان الغناء منقسما إلى جديد وقديم كان التعصب لأحدهما على الآخر بالغاً أشده ، وطالما عقدت لذلك المناظرات فى مجالس الخلفاء يمتحن فيها المغنون كما يمتحن العلماء . ومن ذلك مارووا أن الرشيد قال يومًا لجعفر بن يحيى البرمكى : قد طال سماعنا هذه الفئة على اختلاط الأمر فيها فهلمّ أقاسمك إياها وأخايرك فاقتسما المغنين على أن يجعلا بإزاء كل رجل نظيره ، وكان ابن جامع فى حيز الرشيد ، و إبراهيم الموصلى فى حيز جعفر وحضر الندماء لمحنة المغنين وأمر الرشيد بن جامع فغنى صوتاً أحسن فيه كل الإحسان وطرب الرشيد غاية الطرب فلما قطعه قال الرشيد لإبراهيم هات يأبراهيم هذا الصوت فغنه فقال لا والله يا أمير المؤمنين ما أعرفه وظهر الانكسار فيه فقال الرشيد لجعفر هذا واحد ثم قال لابن جامع غنّ يأسماعيل فغنى صوتاً ثانياً أحسن من الأول وأرضى فى كل حال . فلما استوفاه قال الرشيد لإبراهيم هاته يأبراهيم فقال ولا أعرف هذا أيضاً ، فقال هذا ثان وانتهى المجلس بانكسار إبراهيم و إجازة ابن جامع والخلع عليه .

تعليم الجوارى

اقتضت المدنية غنى واسعاً يتمتع به الخلفاء وأبناؤهم والو[illegible] وجميع رجال الدولة وكل هؤلاء يحرصون على لذتهم و يحبون إظهار نعمة الله عليهم [illegible]ها فى أيامهم إلا اتخاذ السرارى والقيان .

وكانت القيان تعد لصناعة الغناء إعداداً تاما ، فكنّ يتعلمن القراءة والكتابة ثم يروين الشعر مع ضبطه وفهم معناه وكل ذلك يحتاج إلى مقدمات من النحو والصرف وغيرهما من العلوم .

وكانت الرغبة فى الجوارى المهذبات المتعلمات المجيدات للغناء قد جعلت لهن سوقا نافقة ، وجعلت كل من فى يده واحدة منهن يحرص على تثقيفها حتى يغلى بها الثمن ، فقد كانت الجارية الغفل تباع بمـائتى دينار ، فإذا تثقفت فربما بيعت بعشرة آلاف .

ومن أجل ذلك رأينا إبراهيم الموصلى يتجر بهذه الجوارى ، فيشتريهن غفلا ، ويقوم بتثقيفهن وتعليمهن الغناء حتى يربح فرق الثمن ، وهوعظيم جدا ، كذلك كان يفعل يزيد بن حوراء ، وقد عقد هو والموصلى شركة يتقاسمان ربحها .

وقد ذكروا أن الرّشيد ابتاع جارية بمائة ألف دينار ، وأخرى اشتراها من إبراهيم الموصلى بستة وثلاثين ألفا ، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادى أن يبيعه جارية له اسمها بذل فأبى ، فأمر فأوقروا له قاربه ذهباً فبلغت قيمة ذلك أكثر من ألف ألف دينار !! وهذا غريب ، وإن كان من الأمين ليس غريباً .

وعلى قدر اتساع الغنى ، وكثرة الوُجد كانت الجوارى تكثر عند الرجل حتى لقد كان عند الرشيد منهن ألفان فيهن ثلثمائة من المغنيات الضاربات على الآلات ، وقد زار البرامكة فى دارهم ، فأخرجوا القيان إلى البستان ، فاصطففن صفين أمامه مثل العساكر ، وغنين له وضربن بالعيدان ، ونقرن على الدفوف حتى طلع إلى مقاصير القصر .

فكل هؤلاء وأولئك يحتجن إلى تعليم وتثقيف مما يدلك على أن حركة تعليم البنت كانت قائمة على قد[illegible] لا تقل عن تعليم الذكور عناية واهتماماً ، لذلك نرى من أخبار هؤلاء [illegible]نّ أديبات بارعات حاضرات الجواب رقيقات الشعر ، وكانت دور[illegible] منتدى الشعراء يحضرون لتغذية خيالهم من جمال هؤلاء و[illegible] فرص[illegible]ر ويتعشقونهن ، ويروضون قرائحهم بالقول فيهن .

مبلغ إجادة الغناء أيام العباسيين

لا يدلك على جودة الغناء إلا ما ترى من أثره فى نفس رجل وقور ذى مهابة ومكانة سامية ، فإذا رأيت الغناء قد أذهله عن نفسه وأنساه مكانه ، فجعل يضرب الأرض برجليه ، أو يزحف إلى المغنى يفديه بنفسه ، أو يكاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب ، فإذ ذاك تعلم موقع الغناء من التأثير ، وتدرك مقدار ما بلغ فيه المغنون من الإجادة ، وهكذا كان الحال فى غناء هذه الدولة فأخباره حافلة بما كان يأتيه أرزن الخلفاء وأعقلهم ، وما كان يزدهف له من ثباتهم ، ويذال من مصون وقارهم . ذلك وهم بمحضر الناس ، وبمرآى ومسمع منهم ، لأنهم كانوا قد أزاحوا الستور التى كان يضعها الأمويون بينهم وبين المغنين إذا جلسوا إليهم .

ولقد قالوا : إن إسحاق الموصلى وضع لحن التخنيث الذى لم يسبقه إليه أحد ، وصنع ألحاناً لا يقدر شبعان ممتلئ ، ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها ، وصنع غيرها مما لا يقدر المتكئ أن يترنم به إلا قعد مستوفزا ، ولا القاعد حتى يقوم ، وقد بلغ من إجادة إسحاق أن كان الواثق يقول عنه ما غنانى إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد فى ملكى .

كما نعلم من خبر الفارابى : أنه دخل على سيف الدولة ، ومجلسه حافل بالقوم ، فأخرج من خريطة معه عيدانا وركبها ، ثم ضرب بها فأضحك جميع الحاضرين ، ثم فكها وركبها تركيباً آخر ، وضرب بها فأبكاهم جميعاً [illegible] فكها وركبها ثالثة ، وضرب بها ، فنام الجميع حتى البواب ، فتركهم وانصرف .

ونحن ننقل إليك خبر مجلس من مجالس الرشيد ، و[illegible] الغناء ، وما صدر من الرشيد من أعمال وأقوال دالة على الاستحسان لما سمع [illegible]

وكان أول من غنى فى هذا المجلس إبراهيم الموصلى أبو إسحاق ، فغنى :

وقَفْتُ على رَبْعٍ لِمَيَّةَ ناقــــتى   فما زلت أبْكى عِنْدَهُ وأُخاطِبُهْ
وأَسْقِيهِ حـــتى كاد مِمَّا أَبُثُّه   تُـكَلِّمُنِى أَحْجَارُه ومَلاَعِبُه

فأَجاد حتى كان كل من فى المجلس يجيبه ، ويردد الصوت معه لحسن غنائه ، نطرب الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ، ثم أشار مسرور الخادم إلى إسماعيل بن جامع ، وهو من المتعصبين على إسحاق ، فغنى بأبيات من قول عمر بن أبى ربيعة :

كأن أَحْوَرَ من غِزْلاَنِ ذى بَقَرٍ   أعارَها شَبَهَ العَيْنَيْنِ والجِيدَا
أجرى على موعد منها فتخلفنى   فما أمل ولا توفى المواعيدا
كأنى حين أمسى لا تـكلمنى   ذو بغية يبتغى ما ليس موجودا

فأجاد إجادة يرتاح إليها أهل الطرب ممن يحب الخلاعة فى الأصوات ، فهو يميل إلى ظرف الغناء الـكثير النغم والعمل ، كما يميل إلى ظرف المعاشرة والتفنن بخلاعة الملابس .

ثم أشار إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، فأتى بعود له هندى ، فضرب عليه نغمات صاح لها القوم أجمعون ، ثم غنى بلحن وضعه معبد فى أبيات لأبى صخر الهذلى ، وهى :

عجبتُ لسَعْيِ الدهر بينى وبينَها   فلمَّا انْقضَى ما بَيْنَنا سَكَنَ الدَّهْرُ
فيا حُبَّها زِدْنِى جَوًى كلَّ لَيْلَةٍ   ويا سَلْوَةَ الأيامِ مَوْعِدُكِ الحَشْرُ
وإِنِّى لتَعْرُونِى لذكراكِ هِزَّةٌ   كما انْتَفَضَ العُصْفُورُ بَلَّلَه القَطْرُ
هَجَرْتُكِ حتى قِيلَ لا يَعْرِفُ الهوَى   وزُرْتُكِ حتى قيل لَيْسَ لَهُ صَبْرُ

فطرب الرشيد وقال : زدنا يا أبا صفوان من غنائك (وأبو صفوان كنية يلقبه بها عند التحبب)

لا إله

محمد فرحات

⁂

ثم غنى فى قول المنخل اليشكرى :

ولقد دَخَلْتُ على الفتا ة الخِدْرَ فى اليوم المَطِيرِ
فدفعتُها فتــــدافَعَتْ مَشْىَ القَطَاةِ إلى الغَدِيرِ
فلَثَمْتُهَا فتنفّسَتْ كتَنَفُّسِ الظَّبْىِ البَهِيرِ

فأجاد فى الغناء إلى ما وراء الغاية ، وقال الرشيد : وكاد يخرج من ثيابه طربا : « والله الغناء الذى يلين العريكة ، ويفسح فى الرأى والصدر ، ويحدث فى النفس طربا لا غناء هذا الرجل » .

ثم أومأ الرشيد إلى المغنيين بأن يحلوا صفوفهم ، ثم فرق فيهم الجوائز بقدر أهليتهم فى الصناعة ، فمن مصيب ألف دينار ، ومن مصيب خمسمائة ، ومن مصيب دون ذلك .

وهذه الإجادة مرجعها إلى سببين أولهما : هذه العطايا الكثيرة التى سالت على أهل هذه الصناعة من كل عالم بقدرهم من خليفة ، وأمير ، ووزير ، وسرى كريم ، وأخبارها مستفيضة لا نطيل بذكرها ، وثانى السببين : أنفراد كل مغن بلحن من الألحان يفتن فيه ، ويصنع فيه الأصوات الحسان حتى يستبد بالحسن فيه كانفراد مَعْبَد بالثقيل ، وابن سُرَيْج بالرمل ، وحكم الوادى بالهزج ، وفليح بن أبى العوراء بلحن النواقيس ، والموصلى بالماخورى ، ويقال : إنه صنع هذا اللحن ، وكان يغنى به أول أمره فى المواخير .

وكان فيمن يتخلل المغنين من أجادوا فيما كانوا بسببه حتى استحقوا شهرة لا تقل عن شهرة المغنين كمنصور زَلْزَل الذى كان يضرب على عود من [illegible]دان الشبابيط صنعها معارضة لعيدان الفرس ، وكان إذا ضرب عليه يزلزل المجلس [illegible] نغمه ، وكبَرْصُوم الزامر ، وهومن أحسن الناس زمرا بناى كان إذا زمر فيه يحدث

يريده مع صحة المقاطع والتقسيمات حتى كأنه ينطق بين يديه بلسان آدمى ، وجعفر الطبال ، وكان يحسن التوقيع على الطبل .

التآليف فى الغناء

كثر التأليف فى الغناء منذ صار صناعة جليلة الشأن فى العصر العباسى وقد كان كما قلنا معتبرا من الآداب الرفيعة ، والفلسفة ولذلك نرى كل عالم جليل قد تناوله بالتأليف كما فعل الخليل بن أحمد فى إخراجه كتاب النغم ، وكما فعل إسحاق الموصلى فإنه عمل كتابا جمع فيه أغانيه التى غنى بها ، وعمل آخر جمع فيه أخبارا المغنين واحدا واحدا ، كذلك ألف جحظة البرمكى فى مثل هذا المعرض ، وكذلك ألف حسن ابن موسى النصيبى كتابا رتبه على حروف المعجم قيل إنه ألفه للمتوكل ، وألف عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وكان من العلماء الأجلاء « كتاب الآداب الرفيعة » فى الغناء والمنادمات . ولكن كل هذه الكتب لم يبق منها إلا الخبر عنها ، وآخر ما عندنا من آثار القوم فى الغناء هو كتاب أبى الفرج ، وقد جمعه من الكتب السابقة بعد أن حذف منها مايتعلق بقواعد الفن إلا قليلا ، وقد عرفت فيما سبق كل ما يتعلق بهذا الكتاب

مصطلحات الأغانى

سنتكلم فى هذه المصطلحات بما جهدنا أن نصل إليه منها ، ولا ندعى النفاذ فى هذا المجال ، لأن الغناء علم من الآداب الرفيعة صعب المنال ، ولقد كانت الموسيقى ، وما تزال تعد فرعا من فروع الفلسفة ، فليست دراستها بالهينة على مثلنا ممن لا يتلطف لها

ولا يكون قد أعد معداته لفهمها ، وهى من بعد المنال بحيث لا يتيسر عسيرها إلا لمن جمع العزم للفهم ، وطَبَّ ورَفُق فى الاحتيال ، فأما من يريدها لساعته ، ويحاول هتك سترها لقضاء لبانته وتوفية موضوع يبحثه ، فليس شأنه أن يحلو منها بطائل .

على أن أهل هذا الفن تجدهم ، وقد طلبوه للذتهم لا يحفلون بإرشاد من استفهمهم بعض مسائله ، أو كأنهم من العناء الذى نالوه فى تحصيله يضنون على السائل حتى لا يرد إلا بعد التَّخْلِىء ، ولا يستصفى إلا بعد التكدير، فلا تكاد تصل إلى مطلوب إذا سألتهم ولا يكادون يفهمونك من أسرارهم شيئاً ، وإن أفاضوا فى بيانهم لأنهم يكررون رموزهم ويرجّعون اصطلاحاتهم ، والناس أبعد ما يكونون عن ذلك ، وأصحابنا أرفع من أن يتكلموا بلغة الناس إذا تناولوا التفسير لمزاميرهم .

وقد طال بحث الناس عن المراد بما امتلأ به كتاب الأغانى من مثل قوله الثقيل الأول ، والثقيل الثانى . وقوله مطلق ، وبالخنصر ، أو الوسطى إلى غير ذلك فلم يعرفوا ذلك لطول العهد بهذه المصطلحات حتى عثر على كتاب مخطوط اسمه « نيل السعود فى ترجمة الوزير أبى داود » كتب سنة ١٢٣٢ هـ ، وقد ورد فيه بحث بعنوان « العود ومصطلحاته » ، ومما ورد فيه تحت هذا العنوان ما يأتى بتصرف .

« اعلم أن الألفاظ الواردة فى كتاب الأغانى تتعلق كلها بالعود العربى ، فإذا علمت تركيب هذه الآلة هان عليك فهم ما أشكل من مصطلحاتها ، فهذه الآلة طولها مثل عرضها مرة ونصفاً ، وغورها كنصف عرضها ، وعنقها كنصف طولها ، وتمتد على وجهها أربعة أوتار أغلظها البمّ ، بحيث يكون غلظه مثل المثلث الذى يليه مرّة وثلثا ، والمثلث إلى المثنى كذلك ، والمثنى إلى الزير كذلك ، وقد ضبطوها بطاقات الحرير ، فقالوا : يجب أن يكون البمّ أربعا وستين طاقة ، والمثلث : ثمانية وأربعين ، والمثنى : ستة وثلاثين ، والزير : سبعة وعشرين . وتجعل رءوسها فى مَلاوٍ من جهة العنق ، ومن الأخرى تكون كمشط فتتساوى حبالها » ، وفى كلام طويل بعد ذلك يقسم كل وتر من جهة

العنق أقساماً يكون كل قسم منها مجرى لأصبع من الأصابع : السبابة ، والوسطى ، والبنصر ، والخنصر .

ثم ذكر أن قوانين الغناء لا تخرج عن ثمانية (ولعله يريد بذلك نوع النغمة كما نقول نحن اليوم : سيكا ، وحجاز ، و بياتى . . .) وهذه الثمانية هى :

١ — الثقيل الأول . ٢ — الثقيل الثانى .

٣ — خفيف الثقيل الأول . ٤ — خفيف الثقيل الثانى .

٥ — الرمل (ويسمى ثقيل الرمل) . ٦ — خفيف الرمل .

٧ — خفيف الخفيف . ٨ — الهزج .

وكان المؤلف قد أسقط فى عده النوع الثالث ، وهو خفيف الثقيل الأول ، ولكننا تممنا العدد بما ورد فى الأغانى من أن لمعبد لحناً من خفيف الثقيل الأول بإطلاق الوتر فى مجرى الوسطى فى قول عمر بن أبى ربيعة :

وَدِّعْ لُبَانَةَ قبل أن تَتَرَحَّلاَ واسأل فإنَّ قليله أَنْ تَسْأَلاَ

ثم قال : واللحن يسمى مطلقاً إذا لم يكن مقيداً بلفظ يدل على وصفه كأن يقال مثلا ثانى ثقيل مطلق ، وقد يذكر بعد اللحن موقع الأصبع التى يبتدأ بها ، فيقال ثانى ثقيل بالوسطى ، أو الخنصر وهكذا .

و بقى أن نفهم المراد من كلة لحن ، ونغمة ، وصوت فنقول : إن اللحن نغمات من نوع واحد كالثقيل الأول : أو الثانى ، أو الرمل ، أو الهَزَج ، تؤلف تأليفا مناسبا يقبله ذوق الموسيقى فيكون مجموع هذه النغمات لحنا . وأما النغمة فهى وحدة اللحن .

والصوت هو ما يوقع على اللحن ، من شعر « أو غيره » فيوفق المغنى ، بين نغمات اللحن ، وحروف الكلام الذى يراد الغناء به حتى يخرجها مخرج هذه الأنغام ، فإذا استقامت كذلك سميت صوتا ، فالصوت صورة من صور اللحن . وقد يصاغ من اللحن ماشئت من الأصوات ، وعمل ذلك يسمى تلحينا ، فإذا قلت : قال فلان هذه الأبيات ثم لحنها فمعناه أجراها على نظام لحن من الألحان ، وطبعها على غراره .

إسحاق الموصلى

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، و إبراهيم بن ماهان بن ميمون وأصله من فارس .

وسبب تلقيب أبيه بالموصلى أنه لما نشأ بالكوفة فى ولاء آل خزيمة بن خازم من بنى تميم اشتهى الغناء ، وطلب أصحابه ، وصحب الفتيان ، فاشتد ذلك على أخواله بنى عبد الله بن دارم فآذوه ، و بلغوا منه فهرب منهم إلى الموصل فأقام سنة فلما رجع إلى الكوفة قال له إخوانه من الفتيان : مرحبا بالفتى الموصلى فغلب عليه .

نشأ إسحاق فى حياطة أبيه ، وكان أبوه قد بلغ منزلة عظيمة بالغناء فأحسن تر بيته ، وثقفه بأنواع العلوم ، وورث من أبيه صناعة الغناء فكان آية فى كل فن حتى قال عنه أبو الفرج الأصفهانى .

« وموضعه من العلم ، ومكانه من الأدب ، ومحله من الرواية ، وتقدمه فى الشعر ، ومنزلته فى سائر المحاسن أشهر من أن يدل عليها بوصف . فأما الغناء ، فكان أصغر علومه ، وأدنى ما يوسم به » .

وكان المأمون يقول : لولا ماسبق على ألسنة الناس ، وشهر به عندهم من الغناء ، لوليته القضاء بحضرتى ، فإنه أولى به وأعفّ وأصدق ، وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة .

وقد سأل إسحاقُ المأمونَ أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرواة ، لامع المغنين ، فإذا أراد الغناء غناه ، فأجابه إلى ذلك ، ثم سأله بعد مدة طويلة الإذن له فى الدخول مع الفقهاء ، فأذن له ، قالوا : وكان يدخل ويده فى يد قاضى القضاة يحيى ابن أكثم .

وقد قال عنه محمد بن عمران الجرجانى : كان والله إسحاق غرة فى زمانه وواحداً فى عصره ، علماً ، وفهماً وأدباً،ووقارا ، وجودةرأى ، وصحة مودة ، وكان والله يخرس الناطق إذا نطق ، و يحير السامع إذا تحدث، لا يمل جليسه مجالسه ، ولا تمجّ الآذان حديثه ، ولا تنبو النفس عن مطاولته، إن حدثك ألهاك ، و إن ناظرك أفادك ، و إن غنّاك أطر بك ، وما كانت خصلة من الأدب ، ولا جنس من العلم يتكلم فيه إسحاق ، فيقدم أَحد على مساجلته ، أو مناوأته فيه .

وكان إسحاق جيد الشعر . قال أبو الفرج : إنه كان يصنعه و ينسبه إلى العرب ، وله شعر ينسبه إلى نفسه . قال الأصمعى : دخلت أنا و إسحاق الموصلى يومًا على الرشيد فرأيناه لقس النفس ، فأنشده إسحاق :

وآمرةٍ بالبُخْلِ قُلْتُ لها اُقْصِرِى   فذلكَ شَىْءٌ ما إليــــهِ سَبيلُ
أَرَى الناسَ خُلاَّنَ الـكِرام ولا أَرَى   بَخيلاً له حَتَّى المَمَاتِ خَليلُ
وَإِنِّى رَأَيْتُ البخلَ يُزْرِى بأَهْلِهِ   فأ كرمْتُ نَفْسِى أَنْ يُقالَ بَخيلُ
ومِنْ خَيْرِ حالاتِ الفَتَى لو عَلِمْتِهِ   إذا نَالَ خَيْراً أَنْ يَكُونَ يُنِيلُ
فِعَالِى فِعَالُ الُمكْثِرِينَ تَجَمُّلاً   ومالى كما قد تَعْلَمِينَ قَليــــلُ
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى   ورأى أمير المؤمنين جميل

قال الرشيد : لا تخف إن شاء الله ، لله در أبيات تأتينا بها ما أشد أصولها ، وأحسن فصولها ، وأقل فضولها ، وأمر له بخمسين ألف درهم ، فقال له إسحاق : وصفك لشعرى أحسن منه . فعلام آخذ الجائزة ؟ فضحك الرشيد ، وقال : اجعلوها مائة ألف ، قال الأصمعى : فعلمت يومئذ أن إسحاق أصيد للدراهم منى .

نبوغه فى فنه

العجيب من أمره أنه لم يكن حسن الصوت ، فكان يجتمع مع المغنين ، وكلهم أحسن منه صوتاً ، ولم يكن فيه عيب إلا صوته فيطمعون فيه ، ولا يزال بلطفه ، وحذقه ، ومعرفته حتى يغلبهم جميعاً ، و يفضلهم و يتقدم عليهم .

و بلغ من حذقه أنه كان يميز الخطأ فى الضرب من جارية بين عشرين يضربن جميعاً فيعين موضع الخطأ ، بمالا يقدر أحد أن يهتدى إليه غيره .

حدث أن المأمون دعاه ، وعنده إبراهيم بن المهدى ، وفى مجلسه عشرون جارية يضربن فأنكر إسحاق خطأ من واحدة منهن ، و بان عليه الإنكار ، فقال له المأمون : أسمعت خطأ ، قال : نعم ، ثم قال لإبراهيم بن المهدى : هل تسمع خطأ ؟ فقال: لا ، وتجادل هو و إبراهيم فى هذا الشأن ، فقال إسحاق للمأمون : مر الجوارى اللاتى على اليمين أن يمسكن ، فأمرهن بالإمساك ، ثم ضربت الجوارى التى على اليسار وحدهن ومازال يسكت بعضاً و يأمر بعضاً حتى انتهى إلى موضع الخطأ فأمر الجارية المخطئة أن تضرب وحدها فظهر الخطأ جليًا لإبراهيم ، وكان يكابر فيه ، فقال له المأمون : لا تمار إسحاق بعدها ، فإن رجلا عرف الخطأ بين ثمانين وتراً وعشرين حلقاً لجدير ألا تماريه . قال: صدقت .

وقد ذكر صاحب الأغانى فى بيان فضله أنه هو الذى صحح أجناس الغناء وطرائقه وميّزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ، ولا تعلق به أحد بعده، ولم يكن قديما مميزاً على هذا الجنس ، إنما كان يقال : الثقيل ، وثقيل الثقيل ، والخفيف ، وخفيف الخفيف ، وقد جعل إسحاق الثقيل الأول أصنافاً فبدأ بإطلاق الوتر فى مجرى البنصر ثم تلاه بما كان منه بالبنصر فى مجراها ، ثم بما كان بالسبابة فى مجرى البنصر ، ثم فعل هذا بما كان بالوسطى على هذه المرتبة ، ثم جعل الثقيل الأول صنفين ، ولم يتعلق بفهم ذلك أحد بعده فضلا من أن يصنفه فى كتاب ، وهذا كله فعله إسحاق واستخرجه بتمييزه حتى

أتى على كل ما رسمته الأوائل مثل أقليدس ، ومن قبله ومن بعده من أهل العلم بالموسيقى وقد وافقهم بطبعه وذهنه فيما قد أفنوا فيه الدهور من غير أن يقرأ لهم كتابا .

بعض نوادره وألحانه

حدّث حماد ابنه أنه حدثه قال : غدوت يوما ، وأنا ضجر من ملازمة دار الخلافة والخدمة فيها ، فخرجت ، وركبت بكرة ، وعزمت على أن أطوف الصحراء وأتفرج ، فقلت لغلماني : إن جاء رسول الخليفة أو غيره ، فعرفوه أني بكرت في بعض مهماتي ، وأنكم لا تعرفون أين توجهت ، ومضيت فطفت ما بدا لي ، ثم عدت ، وقد حمي النهار فوقفت في الشارع المعروف بالمحرم في فناء ثخين الظل ، وجناح رحب لأستريح فلم ألبث أن جاء خادم يقود حماراً فارها ، عليه جارية راكبة تحتها منديل دبيقي ، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية بعده ، ورأيت لها قواما حسناً ، وطرفا فاتراً ، وشمائل حسنة ، فخرصت عليها أنها مغنية ، فدخلت الدار التي كنت واقفاً عليها ، ثم لم ألبث أن جاء رجلان شابان جميلان فاستأذنا ، فأذن لهما ، فنزلا ونزلت معهما ، ودخلت فظنا أن صاحب الدار دعاني ، وظن صاحب الدار أني معهما ، فجلسنا وأتي بالطعام فأكلنا وبالشراب فوضع ، وخرجت الجارية ، وفي يدها عود فغنت وشربنا ، وقمت قومة ، وسأل صاحب الدار الرجلين عني ، فأخبراه أنهما لا يعرفاني ، فقال : هذا طفيلي ولكنه ظريف فأجملوا عشرته ، وجئت فجلست ، وغنت الجارية في لحن لي :

ذكرتك أن مرت بنا أم شادن　　أمام المطايا تشرئب وتسنح
من المؤلفات الرمل أدماء حرة　　شعاع الضحى في متنها يتوضح

فأدته أداء صالحاً وشربت ثم غنت أصواتاً شتى وغنت في أضعافها من صنعتي :

الطُّـلُولُ الدَّوَارِسُ　　فارقَتْهَا الأَوَانِسُ
أَوْحَشَتْ بَعْدَ أَهْلِهَا　　فَهْيَ قَفْرٌ بَسَابِسُ

فكان أمرها فيه أحسن من الأول ثم غنت أصواتاً من القديم والحديث وغنت فى أثنائها من صنعتى :

قُلْ لِمَنْ صَدَّ عَاتِباً وَنَأَى عَنْكَ جَانِباً
قَدْ بَلَغْتَ الَّذِى أَرَدْ تَ وإنْ كُنْتَ لاَعِباً

فكان أصلح ما غنته فاستعدته منها لأصححه لها فأقبل علىّ رجل من الرجلين وقال : ما رأيت طفيليّا أصفق وجهاً منك ، لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت وهذا غاية المثل : طفيلى مقترح . فأطرقت ولم أجبه وجعل صاحبه يكفه فلا يكف ، ثم قاموا للصلاة وتأخرت قليلاً فأخذت عود الجارية ثم شددت طبقته وأصلحته إصلاحا محكما وعدت إلى موضعى فصليت وعادوا ثم أخذ ذلك الرجل فى عربدته علىّ وأنا صامت . ثم أخذت الجارية العود فجسته وأنكرت حاله وقالت : من مسّ عودى ؟ قالوا ما مسه أحد قالت : بلى والله لقد مسه صادق متقدم وشد طبقته وأصلحه إصلاح متمكن من صناعته فقلت : لها : أنا أصلحته ، قالت : فبالله خذه واضرب به ، فأخذته وضربت به مبدأ صحيحاً ظريفاً عجيباً صعبا فيه نقرات محركة ، فما بقى أحد إلا وثب وجلس بين يدىّ ، ثم قالوا : ياسيدنا ، أتغنى ؟ فقلت : نعم ؛ وأعرفكم نفسى أنا إسحاق بن إبراهيم الموصلى ووالله إنى لأتيه على الخليفة إذا كلمنى ، وأنتم تسمعوننى ما أكره منذ اليوم لأنى تملحت معكم ، فوالله لا نطقت بحرف ، ولا جلست معكم حتى تخرجوا هذا المعربد المقيت الغث فقال له صاحبه : من هذا حذرت عليك . فأخذ يعتذر ؛ فقلت : والله لا نطقت بحرف ولاجلست معكم حتى يخرج ، فأخذوا بيده فأخرجوه وعادوا ، فبدأت وغنيت الأصوات التى غنتها الجارية من صنعتى ، فقال لى الرجل : هل لك فى خصلة ؟ قلت : وما هى ؟ قال : تقيم عندى شهراً والجارية والحمار لك مع ما عليها من حلىّ ؛ قلت : أفعل فأقمت عنده ثلاثين يوما لا يدرى أحد أين أنا والمأمون يطلبنى فى كل موضع فلا يعرف لى خبراً فلما كان بعد ثلاثين يوما أسلم إلىّ الجارية والحمار والخادم ، فجئت بذلك منزلى ،

وركبت إلى المأمون من وقتى ، فلما رآنى قال إسحاق : ويحك ! ! أين تكون ؟ ، فأخبرته بخبرى ، فقال : علىّ بالرجل الساعة . فدللتهم على بيته ، فأحضر فسأله المأمون عن القصة فأخبر ، فقال له : أنت رجل ذو مروءة ، وسبيلك أن تعان عليها ، وأمر له بمائة ألف درهم ، وقال : لا تعاشرن ذلك المعربد النذل ألبتة ، وأمر لى بخمسين ألف درهم ، وقال : أحضرنى الجارية فأحضرتها فغنته ، فقال لى : قد جعلت لك نوبة فى كل يوم ثلاثاء تغنين مع الجوارى من وراء الستار ، وأمر لها بخمسين ألف درهم .

وحدث حماد عن أبيه قال : خرجنا مع الرشيد يريد الرقة ، فلما صرنا بالموضع الذى يقال له القائم : نزلنا وخرج يتصيد وخرجنا معه فأبعد فى طلب الصيد ، ولاح لى دير فقصدته وقد تعبت ، فأشرف علىّ صاحبه ، فقال: هل لك فى النزول بنا اليوم ؟ فقلت : إى والله ، و إنى إلى ذلك لمحتاج ، فنزل ففتح لى وجلس يحدثنى ، وكان شيخاً كبيراً ، وقد أدرك دولة بنى أمية ، فجعل يحدثنى عمن نزل به من القوم ومواليهم وجيوشهم ، وعرض علىّ الطعام فأجبته ، فقدم إلى طعاما من طعام الديارات نظيفاً طيباً فأكلت منه وأتانى بشراب وريحان طرىّ فشربت منه ، ووكل بى جارية تخدمنى راهبة لم أر أحسن منها وجهاً ولا أشكل ، فشربت حتى سكرت ونمت وانتبهت عشاء ، فقلت : فى ذلك :

بدَيْرِ القائمِ الأَقْصَى غزَالٌ شادِنٌ أحْوَى
بَرَى حُبِّى لَهُ جَسَدِى ولاَ يَعْلَمُ مَا أَلْـــقَى
وأَكْتُمُ حُبَّهُ جُهْدِى ولا والله مايَخْـــفَى

وركبت فلحقت بالعسكر والرشيد قد جلس للشرب فطلبنى فلم أوجد وأخبرت بذلك فغنيت فى الأبيات ودخلت إليه فقال لى : أين كنت ويحك ؟ فأخبرته الخبر وغنيته الصوت فطرب وشرب عليه وأخر الرحيل فى غد ومضينا إلى الدير ونزل فرأى الشيخ واستنطقه ، ورأى الجارية التى كانت تخدمنى بالأمس فدعا بطعام خفيف فأصاب منه ،

ودعا بالشراب ، وأمر الجارية أن تتولى خدمته ففعلت ، وشرب حتى طابت نفسه ، ثم أمر للدير بألف دينار ، وأمر باحتمال خراجه له سبع سنين .

سأل المتوكل عن إسحاق الموصلي فعرف أنه قد كف ، وأنه بمنزله ببغداد فكتب بإحضاره ، فلما دخل إليه رفعه حتى أجلسه قدام السرير وأعطاه مخدة ، وقال له : بلغني أن المعتصم دفع إليك مخدة فى أول ما جلست بين يديه وهو خليفة ، وأنه قال : ما يستجلب ما عند حر بمثل الكرامة ، ثم سأله هل أكل ؟ فقال : نعم ، فأمر أن يسقى ، فلما شرب أقداحاً . قال : هاتوا لأبى محمد عودا فجيء به فاندفع يغنى بصوت (الشعر فيه والغناء له) :

ماعِلَّةُ الشيخِ عَيْنَاهُ بأربعةٍ تَغْرَوْرِقَانِ بدَمْعٍ ثم يَنْسَكِبُ

فما بقى غلام من الغلمان الوقوف إلا رقص طربا وهو لا يعلم بما يفعل فأمر له بمائة ألف درهم . ثم انحدر المتوكل إلى رقة بوصرا وكان يستطيبها لكثرة تغريد الأطيار بها فغنى إسحاق :

أَأَنْ هَتَفَتْ وَرْقاءُ فى رَوْنَقِ الضُّحَى عَلَى غُصُنٍ غَضِّ الشَّبَابِ من الرَّنْدِ

بَكَيْتَ كما يَبْكِى الحزينُ صَبَابَةً وشَوْقاً وتَابَعْتُ الحَنِينَ إلى نَجْدِ

فضحك المتوكل ، وقال له يا إسحاق : هذه أخت فعلتك بالواثق لما غنيته بالصالحية :

طَرِبْتُ إلى أُصَيْبِيَةٍ صِغار وَذَكَّرَنِي الهوى قرب المَزَارِ

فكم أعطاك لما أذن لك فى الانصراف ؟ قال : مائة ألف ، فأمر له بمائة ألف درهم وأذن له بالانصراف إلى بغداد فكان هذا آخر العهد به لأن إسحاق توفى بعد ذلك بشهرين .

وفاتــــه

توفى ببغداد فى خلافة المتوكل ، وكان يسأل الله ألا يبتليه بالقولنج لما رأى من صعو بته على أبيه ، فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له : قد أجيبت دعوتك ولست تموت بالقولنج ولـكن بضده ، فأصابه ذرب فى شهر رمضان سنة ٢٣٥ ﻫ ، فكان يتصدق فى كل يوم يمكنه أن يصومه بمـائة درهم ثم ضعف عن الصوم فمات فى نفس الشهر .

لما نعى إلى المتوكل ، وكان ذلك فى وسط خلافته اغتمّ وحزن وقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته ، ثم نعى إليه بعده أحمد بن عيسى (وكان المتوكل يخشاه) فقال تكافأت الحالتان وقام الفتح بوفاة أحمد (وما كنت آمن وثبته على) مقام الفجيعة بإسحاق ، فالحمد لله على ذلك .

ولما مات إسحاق رثاه كثير من الشعراء . ومما قاله فيه محمد بن عمرو الجرجانى :

عَلى الجَدَثِ الشَّرْقِيِّ عُوجَا فَسَلِّمَا ... ببَغْدَادَ لَمَّا ضَنَّ عَنْهُ عَوَائِدُهْ

وقُولاَ له لو كانَ لِلْمَوْتِ فِدْيَةٌ ... فَدَاكَ مِنَ الْمَوْتِ ، الطَّرِيفُ وتَالِدُهْ

أإسحاقُ لاتَبْعَدْ و إنْ كان قَدْ رَمَى ... بك الموتُ وِرْداً ليس يَصْدُرُ وَارِدُهْ

إذا هَزَلَ اخضرَّتْ فُنُونُ حديثه ... ورَقَّتْ حَوَاشِيهِ وَطَابَتْ مَشَاهِدُهْ

و إن جَدَّ كان القولُ جِدًّا وَأقْسَمَتْ ... مخارجــــه ألاَّ تَلِينَ مَعَاقِدُهْ

فَبَكٍّ على ابن المَوْصِــلِيِّ بعَبْرَةٍ ... كما ارْفَضَّ من نَظْمِ الجُمَانِ فَرَائِدُهْ

انتهى والحمد لله ما أردنا به خدمة العلم ، ونفع الطلبة ، خالصاً لوجه الله . و رجاؤنا إليه تعالى أن يكون الجزاء على جهدنا فيه ، النفع به وحسن التقدير من كل من اطلع عليه .

وكان الفراغ من إعداده فى صبيحة يوم الخميس ٢٥ رمضان المبارك سنة ١٣٥٢ هـ الموافق ١١ يناير سنة ١٩٣٤ م ، والحمد لله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأمجاد ؟ .

محمود مصطفى

تمّ الجزء الثانى

ويليـــــه : الجزء الثالث

وأوّله

حياة اللغة فى الأندلس

تنبيـــــه

كثير من الخطأ الذى نصححه هنا لا يحتاج إلى الدلالة عليه لوضوحه لكل قارئ ، ولكننا إمعاناً فى الدقة نبهنا على كل ما وقع فى الكتاب من مخالف للصواب ، ونكاد نكون موقنين أن القارئ إذا بدأ بإثبات الصواب فى موضعه من الكتاب لا يعثر بخطأ بعد ذلك .

الصفحة	السطر	الخطـــــأ	صـــــوابه
١٠	١٧	خَوَارَزْمِيَّة	خُوَارَزْمِيَّة
١٢	٨	ولم يقتصروا	ولم يقصروا
٢٤	٢٠	(وتكسر اللام الثانية)	(تفتح وتكسر . . .)
٢٥	٩	والخولنجانْ والآزريونَ	والخولنجانُ والآذريونُ
٢٩	٣	فعبّى	فعبّا
٤٤	٥	والكَرَجْ	والكَرَجِ
٤٦	١٧	أحرف	أحرفا
٦١	٢	بهظها	بهظنا
٦٧	٧	لَتُسْأَلَنَّ	لَتَسْأَلُنَّ
٧٢	٦	والاستعانة كما	والاستعانة به كما
٧٣	١٣	ومثلّت	ومَثّلت
٧٦	٩	تلك البلد	تلك البلدة
٨١	٤	اشترطوا	فاشترطوا
٨٩	١٧	ولا حالوا	ولا حاولوا
٩٨	٥	فى ساق	فى سياق

الصفحة	السطر	الخطــــــأ	صـــــوابه
١٠٤	٥	يَشنُؤُك	يَشْنَؤُك
١٠٥	٩	وإنّ بَذَل	وإنّ بَذْل
١١٢	٤	واللّحُمة	واللُّحْمة
١١٧	١٠	لصدْمك	لصَدْمك
١١٩	٨	المُشَاقَّة	المُشَاقَّة
١٢٠	٨	وتستكملُ	وتستكملَ
١٢٤	١٦	يَنتَجِزَّها	يَتَنَجَّزَها
١٣٩	٧	وقصر	وقسر
١٣٩	١٥	وضَوَءهُ	وضَوْءهُ
١٤٠	٢٠	والقوانينَ	والقوانينِ
١٤٦	٢١	(صد)	(ضد)
١٥٥	٧	نهدام	تهدام
١٧١	٤	واحضرّ	واخضرّ
١٧٢	١٣	أظَعْنَا	أَظَعْناً
١٨٧	١٨	الفضل من الرّبيع	الفضل بن الرّبيع
١٩٤	١٢	يلعون	يلعبون
١٩٥	٢١	وقعاً	وقعا
١٩٦	٢٠	مرّب	مرّت
٢٠٣	١٧	ككثير لبنى	ككثير عزة وقيس لبنى
٢١٦	٩	من مجلس	من مجالس
٢٢١	١٦	عقبه	عقبة

الصفحة	السطر	الخطـــــأ	صـــــوابه
٢٧٢	٢٤	ويقرأ	ويقرا
٢٩٨	١٨	الغامرة	المغامرة
٣٠٤	١٣	أغنت	غنّت
٣٠٩	٧	المرأة	المرة
٣٢٢	٧	ومن	من
٣٢٥	٣	ثم ففرض	ثم فرض
٣٣٥	١٩	عيونٌ	عيونُ
٣٣٦	١٨	أذريونة	آذريونة
٣٣٧	٦	عَقودها	عُقودها
٣٤٤	٢	خُزّ انّهِ	خُزّانِه
٣٤٤	١٩	تَكْنْ	تَكُنْ
٣٥٩	١٢	أسودَا	أسودًا
٣٦٧	٣	فى	بى
٣٦٧	٩	وبنّيهم	وبَنِيهم
٣٧٢	٦	لا جُرْء	لا جُزْء
٣٩٥	٢	بها	بهما
٣٩٨	٤	والطّخا	والطحا
٤٠٢	٢	النّمَيْرى	النُّمَيْرى
٤٠٢	١٩	طبقة ن	طبقة ابن
٤٠٣	١٠	وصَّرَ دُرّ	وصَرَّ دُرّ
٤٠٨	٦	وكانا بشار	وكان بشار

الصفحة	السطر	الخطـــــــأ	صـــــــوابه
٤١٣	١٣	زنذيقا	زنديقا
٤١٣	١٥	كأن	كان
٤٢١	١١	الأُولى	الأُلى
٤٣٣	٦	الأحداث	الأجداث
٤٤٥	١٥	نفوسُ	نفوسَ
٤٤٧	١٥	راياتُ . . . وجنودُ	وراياتِ . . . وجنودِ
٤٦٣	١٤	التزام	الالتزام
٤٦٨	١٣	تحنت	تجنت

فهرس

[تمت]

تعـــــــريف



للمـــؤلف

يقع فى حجم أخويه : الأول ، والثانى ، وتتمثل فيه العناية التى تمثلت فيهما ، من الضبط وتمام الشرح وتحقيق الرواية .

وهو يصف حياة العربية فى الأندلس ، منذ فتحها إلى خروج المسلمين منها، كما يلمّ إلمامة مناسبة بحياتها فى بلاد المغرب ، ويعلل نبوغ النابغين من رجاله .

ويتناول أكثر من نصف الكتاب كلام مفصل عن حياة اللغة بالمشرق بعد انقضاء الخلافة ببغداد واستقرارها بمصر ، فى تصوير حسن لعصرى المماليك ، والأتراك العثمانيين .

أما العصر الحاضر ، فقد خصه من الكتاب قرابة مائتى صفحة ، وحوى مادة لم يسبق لكتاب عربى أن حواها فى الحكم على هذا العصر ، ومناحى اللغة فيه .

